

نَارُ مَخْلُوقِ الْكَرَامَةِ الْقَوْمِيَّةِ

وَتَطَوُّرِ نَظَائِمِ الْحُكْمِ

فِي مَصْرَ

بِقَلَمِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّافِعِيِّ بَكْ

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

عَصْرُ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ

ثَمَنُهُ ٢٥

حَقُّ الطَّبْعِ مَحْفُوظٌ

الطبعة الاولى — ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م

مطبعة النهضة بشارع عبد الباقى بمصر

962

R123

v. 3

26683F

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الجزء الثالث

هذا هو الجزء الثالث من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » وهو يتناول الكلام عن عصر محمد علي
تضمن الجزء الأول من الكتاب ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المتناوة الاهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر، واشتمل الجزء الثاني على تنمة وقائع المقاومة الشعبية الى انتهاء الحملة الفرنسية، وتطور الحياة القومية بعد انتهاء تلك الحملة الى ارتقاء محمد علي اريكة مصر بارادة الشعب، وقد قلنا في بيان هذه الحقيقة « ان محمد علي هو اول من استعان بالعامل القومي الذي ظهر على مسرح الحوادث السياسية، وانه من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية، ودور من أدوارها التاريخية، اقترن ظهوره بظهور العامل القومي، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به والياً مختاراً على مصر، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على انه اكبر بناء في صرح القومية المصرية »

فموضوع الجزء الثالث هو تفصيل الكلام عن عصر محمد علي وكيف كان دوراً من أدوار الحركة القومية

والحركة القومية كما عيناها في مقدمة الكتاب وجعلناها أساس البحث والتدوين هي الجهود التي بذلتها الامة في سبيل تحرير مصر من النير الاجنبي وفك قيود الاستبداد عنها وتقرير حقوق الشعب السياسية، هي التضحيات التي قدمتها والالام التي احتملتها في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة

وعلى هذا الاعتبار يجب ان نعد عصر محمد على صحيفة مجيدة من صحائف
حركة القومية ، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة ، فيه تحقق الاستقلال القومى
وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به ، فيه تأسس الجيش المصرى ، والاسطول المصرى ،
والثقافة المصرية ، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد ، فهو
عصر استقلال وحضارة وعمران



ان استقلال مصر كان ثمرة الحروب التى خاضت غمارها فى عصر محمد على ،
تلك الحروب التى بذلت فيها الأمة أرواح عشرات الآلاف من زهرة ابنائها ، من
اولئك الابطال المجهولين الذين جاهدوا واستشهدوا فى ميادين القتال وسقوا أديم
الأرض بدمائهم فى ربوع مصر والسودان ، وفى صحارى جزيرة العرب ، وجبال
كريت والموره ، وبطاح سورية والاناضول ، وفى قاع اليم بمياه اليونان أو على
سواحل مصر والشام ، فلا جرم ان كانت الجيل الذى عاش فى عصر محمد على هو
الكثير الاجيال عملا وتضحية فى سبيل تكوين مصر المستقلة ، فعلى اكتافه
وبجهوده وضحاياه قام صرح الاستقلال على الذرى ، وهو الذى نهض بالاعمال
الاولى لحضارة مصر وعمرانها ، فشق الترع ، وأقام القناطر والجسور ، وشاد المدارس
والمعاهد ، وبنى العماير والدواوين والقصور ، وأنشأ الموانئ ودور الصناعة (الترسانات) ،
واستحدث المعامل ، وشيد القلاع والاستحكامات ، وبذل فى سبيل تلك المنشآت
راحتة وحياته ، ويكفيه فضلا فى ميدان التضحية أنه أنشأها وبنائها على السخرة ،
دون أن ينال على جهوده أجراً ولا جزاء ، ولا شكورا ، وأن عشرات الآلاف
من بنيه قد ماتوا تحت اعباء الجهود المضنية التى احتملوها فى سبيل إتمام تلك
الاعمال المجيدة ، فإذا قارنت بين جهود ذلك الجيل وتضحياته وما بذلته الاجيال
المتعاقبة من بعده الى اليوم ، حكمت من غير تردد انه اكثر الاجيال بذلاً ومساهمة
فى اعباء الجهاد القومى ، واكثرها تضحية بالنفس والروح والمال فى سبيل استقلال
مصر وعمرانها ، فهو جدير بأن تمنحني الاجيال المصرية احتراماً لذكراه ، وتقديراً

لفضله ، لأنه عمل لها جميعا ، وبذل لها راحتته وودعه وحياته ، واحتمل ما احتمل من جهد وحرمان ليعبّد لها العاريق كي تجنى ثمار جهوده وتضحياته وآلامه .

والحقيقة البارزة التي تخلص لك من إنعام النظر في تاريخه أن عبقرية محمد علي يرجع اليها الفضل الكبير في تنظيم ذلك الجهاد واستناره وتوجيهه إلى خير مصر وعظمتها ، كما أن مواهب الأمة المصرية وحسن استعدادها للتقدم ، وماضيا في الحياة القومية ، كل أولئك كان مادة الاستجابة لدعوة محمد علي ، ومن جميعها تكوّن الفلّك النوراني لتلك النهضة التي سطعت شمسها في عصره ، فلو أنه تولى الحكم في بلد آخر من بلدان السلطنة العثمانية وقتئذ ، لدفنت فيه عبقريته ، ولما استطاع أن يشيد ذلك الملك الضخم ، ولا أن ينهض بتلك المشروعات والأعمال الجليلة ، ولما كانت نهايته لا تختلف كثيراً عن خاتمة الباشوات الذين شتوا عصا الطاعة على السلطنة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر ، ولكن تأييد الشعب له ، ومناصرته إياه عند اشتداد الأزمات ، كان لها الفضل الأكبر في ثبات ملكه وتغلبه على الدسائس والعقبات التي اعترضته في طريقه ، وحسبك تبيانا لهذه الحقيقة أن تلقى نظرة على مباحث هذا الجزء وأن ترجع إلى الفصول التي أفردناها للكلام عن الجيش والاسطول وأعمال العمران ، نجد أن على سواعد المصريين قد قام ذلك الملك العريض ونمت تلك المنشآت العظيمة ، وأن محمد علي لم يستطع إنشاء الجيش المصري النظامي من العناصر غير المصرية التي كانت تتألف منها القوة الحربية في أوائل حكمه ، لما فطرت عليه من التمرد والفوضى ، ولم يوفق إلى تأسيس ذلك الجيش الذي تفخر به مصر في تاريخها الحديث إلا بعد أن ألفه من صميم المصريين

* *

إن مفخرة الجيل الذي عاش في عصر محمد علي أنه حقق لمصر استقلالها ، وألّف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، فله فضل تحقيق تلك الوحدة التي كانت وقيمت على مدى السنين من أقدم مطالب القومية المصرية ، ولئن

اعترض ذلك الاستقلال قيوداً حالت دون جعله استقلالاً تاماً فلم يكن ذلك عن تقصير في الجهاد، بل لأن الدول الأوروبية قد تألّبت على مصر بتحريض السياسة الانجليزية، فخرمتها ثمرة انتصاراتها، وهذا الاستقلال مع ما اعترضه من قيود لا يزال مفخرة عصر محمد علي، لأن الجيل الذي حققه واستخلصه وبذل في سبيله ما بذل من جهود وتضحيات، قد دافع عنه وتركه للأجيال المتعاقبة سليماً من الأذى، لكنها بدلاً من أن تنهض بالدفاع عنه وتصل به إلى غايته من الاستقلال التام أو تحتفظ به كما هو وتصونه بالمهيج والإرواح، قد تهاونت فيه، وقصرت في الذود عنه حتى رزئت البلاد بالاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢، فتصدّع البناء الذي أقيم في عصر محمد علي

ويكفيها تقديراً لجهاد الجيل أو الجيلين اللذين أدركا ذلك العصر، أن انجلترا حاولت في خلاله احتلال مصر مرتين، فلمرة الأولى سنة ١٨٠٧ حين جردت عليها حملتها المعروفة بحملة الجنرال فريزر، فكان نصيبها الاخفاق والهزيمة في (رشيد) و(الحماد) مما اضطرها الى الجلاء عن البلاد كما تراه مبسوطاً في الفصل الثاني، والمرة الثانية سنة ١٨٤٠ بعد ما فازت مصر على تركيا في معركة (نصيبين) فألّبت انجلترا عليها الدول الأوروبية واتفقت وحلفاءها على إذلالها وجردت عليها أساطيلها في سورية ومصر، ومع أنها استعانت عليها بحلفائها فإن كل ما أصابت منها أن حرمتها فتوحاتها وأرجعتها إلى حدودها الأصلية، لكنها أخفقت في ادراك مطامعها الاستعمارية في مصر، وغضباً نفذت أسطولها إلى مياه الاسكندرية بقيادة الكومودور نابيه Napier يتهدها ويتوعدها بالاحتلال فلم يستطع أن ينزل جنوده إلى ارض الكنانة إذ أدرك أن لها جيشاً قوياً يحمي الدمار ويدفع الغارة ويدحر الأعداء، فقارن بين موقف الكومودور نابيه سنة ١٨٤٠ وموقف الاميرال سيمور سنة ١٨٨٢ حينما ارسلته انجلترا إلى مياه الاسكندرية اثناء الحوادث العربية وكيف سهل عليه أن يعيث باستقلال مصر إذ آنس منها ضعفاً وتخاذلاً، فاحتل الجنود الانجليز أرض مصر، ولم يلقوا بها المقاومة التي لقيها نابليون سنة ١٧٩٨، وكليبر

سنة ١٨٠٠ ، ومنو سنة ١٨٠١ ، وفريزر سنة ١٨٠٧ ، ونابيه سنة ١٨٤٠ ، فمن
هذه المقارنة يتبين لك فضل الجيل الذي عاش في عصر محمد علي ومبلغ ذوده عن
الاستقلال وحسن بلائه في الدفاع عن الذمار
فلجهد هذا الجيل وكفاحه في سبيل مصر خصصنا الجزء الثالث من الكتاب ،
أقدمه لمواطني الأعداء ، سائلا من الله الهداية والتوفيق ، وعليه سبحانه الاعتماد
والثقلان

للذكرى

وإذ يوافق اليوم تمام الحول الثالث على وفاة فقيد الوطن المرحوم امين بك الرافعي
فألى روحه الطاهرة المستقرة في الرفيق الاعلى أرسل تحيات الذكرى والوفاء ، فسلام
عليك يا امين في اعلى عليين ، سلام عليك من قلوب لا تنسى جهادك في سبيل المثل
الاعلى ، سلام عليك ما كررت الاعوام وتعاقت الاجيال ، ولتخلد ذكراك على
الدهر ما بقي في الدنيا وفاء وما ذكر الاخلاص والمخلصون ما

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠

عبد الرحمن الرافعي



محمد علي

(١٧٦٩ - ١٨٤٩)

مؤسس الدولة المصرية الحديثة وباعث نهضتها واستقلالها

خلاصة مباحث الجزأين الأول والثاني

نذكر هنا خلاصة فصول الجزأين الأول والثاني لنضع أمام القارئ
صورة موجزة منهما قبل قراءة الجزء الثالث

الجزء الأول

مقدمة الكتاب واهدائه

الفصل الأول — نظام الحكم في عهد المماليك

الفصل الثاني — تطور نظام الحكم في عهد الحملة الفرنسية

الفصل الثالث — نظم الحكم التي أسسها نابليون في مصر — ديوان

القاهرة ، دواوين الاقاليم ، الديوان العام

الفصل الرابع — المجمع العلمي

الفصل الخامس — المقاومة الاهلية في عهد الحملة الفرنسية ، في الاسكندرية

الفصل السادس — في البحيرة ، معركة شبراخيت ، نهب القرى

الفصل السابع — في القاهرة ، واقعة امبابه أو معركة الاهرام

الفصل الثامن — عود الى الاسكندرية ، واقعة أبو قير ، ديوان الاسكندرية

الفصل التاسع — في رشيد

الفصل العاشر — عود الى البحيرة ورشيد

الفصل الحادى عشر — في القليوبية والشرقية

الفصل الثانى عشر — عود الى القاهرة ، سياسة الحفلات

الفصل الثالث عشر — ثورة القاهرة الأولى

الفصل الرابع عشر — في المنوفية والغربية

- الفصل الخامس عشر — فى الدقهلية ودمياط
الفصل السادس عشر — المقاومة فى الوجه القبلى
الفصل السابع عشر — استمرار المقاومة فى الوجه القبلى
الفصل الثامن عشر — وثائق تاريخية
الفصل التاسع عشر — مراجع البحث

الجزء الثانى

مقدمة الجزء الثانى

- الفصل الأول — اعادة الديوان فى عهد نابليون ، نظام الديوان الجديد ،
الديوان العمومى والديوان الخصوصى
الفصل الثانى — الحملة على سورية
الفصل الثالث — الحالة فى مصر أثناء الحملة على سورية ، الثورة فى
الشرقية ، الثورة فى غرب الدلتا
الفصل الرابع — سياسة نابليون فى مصر بعد عودته من سورية ، معركة
ابوقير البرية

- الفصل الخامس — اضطراب الاحوال فى فرنسا ورحيل نابليون
الفصل السادس — قيادة الجنرال كليبر
الفصل السابع — معاهدة العريش
الفصل الثامن — نقض المعاهدة ومعركة عين شمس
الفصل التاسع — ثورة القاهرة الثانية
الفصل العاشر — مقتل الجنرال كليبر
الفصل الحادى عشر — قيادة الجنرال منو
الفصل الثانى عشر — هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

الفصل الثالث عشر — نتائج ظهور العوامل القومية على مسرح الحوادث السياسية ، الحالة السياسية في مصر بعد جلاء الفرنسيين ، قادة الشعب وزعمائهم ، ظهور محمد علي الكبير ، الصراع بين القوات الثلاث ، جلاء الانجليز عن مصر ورحيلهم عنها ، ثورة الشعب على المماليك ، ثورة الشعب على الوالي التركي ، أيام الثورة ، خلع خورشيد باشا والمناداة بمحمد علي واليا لمصر ، السيد عمر مكرم روح الحركة ، ختام الثورة

الفصل الرابع عشر — وثائق تاريخية

تمت الخلاصة ويلها الفصل الأول من الجزء الثالث



الفصل الأول

الزعامة الشعبية في السنوات الأولى من حكم محمد علي

موقف محمد علي في بداية حكمه

تقلد محمد علي باشا ولاية الحكم بارادة زعماء الشعب ونزولا على رأيهم في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ كما أوضحنا ذلك تفصيلا بالجزء الثاني من الكتاب ، فالزعامة الشعبية هي التي ابلغته سلطة الحكم ، وقد ظلت هذه الزعامة في الميدان ، و بقيت قائمة عاملة في السنوات الأولى من حكم محمد علي ، فكان لها أثر فعال في تثبيت دعائم ملكه وتذليل العقبات التي وضعها في طريقه رجال الاستانة من جهة ، والانجليز وصنائعهم المماليك من جهة أخرى ، وإحباط الدسائس التي دبروها والمؤامرات التي سعوا بها الى اقتلاعه عن كرسي الولاية ، فالزعامة الشعبية كان لها فضل وعمل هام من هذه الناحية ، وكذلك كان لها عمل كبير في توجيه الشؤون العامة ، ونصيب وافر في سلطة الحكومة ، وسنبحث في هذا الفصل مبلغ سلطة تلك الزعامة وعملها في تلك السنوات

لم ترسخ قدم محمد علي باشا في الحكم بمجرد مبايعته أو صدور الفرمان المؤذن بتوليته ، فان الدسائس كانت تحيط به من كل جانب ، فالسياسة الانجليزية تسعى بمختلف الوسائل لترد السلطة الى محمد بك الأتقي (١) ، وكان عمالها في الاستانة لا يفتأون يسعون لدى الباب العالي في اسناد حكم مصر اليه ، وقناصلها في مصر يمدون المماليك بالمعونة ويحركون الطمع في نفوسهم ويلقون في روعهم ان انجلترا لاتدع صنائعها ولا تتخلى عنهم ، وانها لا بد محققة آمالهم ، والمماليك من ناحيتهم كانوا يجمعون جموعهم ليحاربوا الوالي الجديد

(١) زعم المماليك . راجع الجزء الثاني ص ٣٤٧

موقف تركيا

وكانت السياسة التركية مترددة غير مستقرة ، ترقب الاحوال لتتبع الخطة التي تراها أكفل بمصلحتها وأوفق لبسط نفوذها في مصر ، ولم تكن خالصة النية نحو محمد علي باشا ، بل كانت ترميه بعين البغض وتنفس عليه رسوخ قدمه في مصر ، وحسبه جرماً في نظرها أنه لم يكن من الولاة الذين ترسلهم كل عام الى مصر وتوليهم وتعزلهم كما تشاء ، بل كان الوالى المختار من الشعب المصرى ، فالشعب هو الذى أجلسه على كرسى الولاية ، ولم تكن هذه الطريقة فى تعيين الولاة مما يروق فى نظر الحكومة التركية ، صحيح أن حكومة الاستانة قد لبث نداء الشعب المصرى واصدرت فرمانها بعزل الوالى الذى ثار عليه الشعب (وهو خورشيد باشا) وتعيين محمد علي واليا مكانه ، وقد أوفدت الى القاهرة رسولا يحمل هذا فرمان ، ولكن هذا لم يكن دليلاً على خلوص نية تركيا نحو مصر ، وهو لا يعدو أن يكون حلاً مؤقتاً تتفادى به من ثورة الشعب الى أن تحين الفرصة فتسترجع سلطتها فى البلاد وتضع يدها حيث شاءت ، ولو كانت صادقة النية لا كتفت برسوها ذاك يحمل فرمان إسناد الولاية الى محمد علي ، لكنها أوفدت بعد ذلك قبطان باشا (١) فى عمارة حربية تقل ٢٥٠٠ من الجنود ليرقب الحالة فى مصر ويجعل عينه على الحوادث ويتخذ من القرارات النهائية ما يراه وافقاً لمصلحة تركيا

وصلت هذه العارة الى ابوقير يوم ١٧ يولييه سنة ١٨٥٥ أى فى الوقت الذى كان خورشيد باشا مازال ممتنعاً فى القلعة معتصماً بها ، ولم تجر عادة تركيا بارسال مثل هذه القوة إلا ذريعة لحدث تحدثه فى البلاد ، فهذه القوة الحربية لم تأت الى مصر عبثاً ، بل جاءت ليستعين بها قبطان باشا على إنفاذ اغراضه الخفية ، ولقد كانت مهمته الظاهرة استنزال خورشيد باشا الوالى المعزول من القلعة ، بيد أن الحكومة التركية خولته السلطة المطلقة فى تثبيت محمد علي فى الولاية أو عزله عنها

(١) هو عبد الله رامز باشا

وتبين لك مقاصد تركيا من أن قبطان باشا لم يبرح السواحل المصرية بعد انتضاء مهمة الظاهرة ، بل ظل متربصا وحوله الخمسة والألف مقاتل ، وأخذ يرقب الحالة ليتبع الكفة الراجحة ، وقد راسله محمد بك الألفى زعيم الماليك وعرض عليه أن ينحاز بقواته الى سلحدار خورشيد باشا الذى كلن لم يزل بالجيزة يناوىء محمد على ، وأن ينضموا جميعا الى الجنود الذين جاء بهم قبطان باشا ويزحفوا على القاهرة لينتزعوها من يد محمد على ويطردوا الجنود الارناؤود من البلاد

دسائس السياسة الانجليزية

وتردد عليه أيضا رسل الانجليز أثناء مقامه فى ابوقير وأيدوا مطالب محمد بك الألفى ، وسعوا فى إقناعه باسناد ولاية مصر اليه ، وحسنوا لذلك الأمر ، زاعمين أن الماليك هم وحدهم القادرون على حكمها وإعادة الأمن والنظام فى ربوعها ، وان بقاء محمد على فى كرسى الولاية يحدد الفتن ويستفز الماليك الى استئناف الحرب والقتال ويحفرهم الى الزحف على القاهرة لاسترداد سلطتهم القديمة ، فيضطرب جبل الأمن ، ولم يكتف رسل الانجليز بتأييد صنائعهم الماليك على هذا النحو ، بل جاهدوا بأن الحكومة الانجليزية قد تضطر الى تجريد جيش على مصر لتأييد وجهة نظرها فالسياسة الانجليزية كانت ترمى منذ نيف ومائة عام إلى تثبيت قدمها فى وادى النيل بتولية صنائعها من الماليك حكم البلاد ، وتهدد بتجريد قواتها لهذا الغرض ، وقد جردت هذه القوة فعلا سنة ١٨٠٧ كما سيحىء بيازه

أما حجة محمد على لدى قبطان باشا فهى أنه مؤيد من زعماء الشعب ، مرضى عنه منهم ، وأنه الكفيل بانتشال البلاد من وهدة الغوضى والفتن التى تردت فيها ، وأنه بمقاومته الماليك وحمايتهم الانجليز لا يخدم مصر وحدها بل يخدم الباب العالى ويحول دون تحقيق مطامع السياسة الانجليزية فى البلاد

معاودة زعماء الشعب لمحمد على

فمحمد على باشا كان إذن في حاجة كبرى إلى تأييد الزعامة الشعبية وقرارها إياه في مركزه ليقوى بها على مقاومة العواصف التي هبت عليه من مختلف الجهات وقد بقيت تلك الزعامة تؤيده وتناصره، وتمده بالعون والعصء، فكان لها النفوذ الفعال والفضل الكبير في تثبيت دعائم عرشه في السنوات الأولى من حكمه ومن الواجب أن نبادر فنقول إن السيد عمر مكرم الذي كان على رأس تلك الزعامة وحامل لوائها في تقليد محمد على سلطة الحكم قد احتفظ بهذه المهمة فيما بذلته الزعامة الشعبية للدفاع عن عرشه.

وكان الماليك يعرفون ذلك النفوذ لزعماء الشعب، وخاصة السيد عمر مكرم، ويعلمون أنهم هم الذين اقتادوا الجماهير وانحازوا بها إلى محمد على، فما فتئوا بعد توليته يسعون إلى استئثارهم في جانبهم ليكسبوا نفوذهم المعنوي في ثل عرش الوالى الجديد، لكنهم وجدوا فيهم إباءً واعراضاً، وثبت زعماء الشعب على مناصرتهم لمحمد على.

هجوم الماليك على القاهرة واخفاقهم

(أغسطس سنة ١٨٠٥)

دبر الماليك الهجوم على القاهرة ليستولوا عنوة على زمام الحكم، وبادروا إلى انفاذه في شهر أغسطس سنة ١٨٠٥ وأيام بض شهران على تولية محمد على باشا، وربما كان قصدهم من هذا التعجيل أن يضربوا ضربتهم قبل رحيل قبطان باشا عن مصر ليشهد بعينه قوة الماليك وشدة بأسهم، فينحاز الى جانبهم ويولى واحداً من زعمائهم حكم مصر، وقد اختاروا لهجومهم يوم الاحتفال بوفاء النيل (أغسطس سنة ١٨٠٥) إذ يكون محمد على باشا والجمع الحاشد من الجنود والاهالى مشغولين

بالاحتفال في مصر القديمة بعيداً عن المدينة ، وأحكموا تدبيرهم ، أو خيل اليهم أنهم
أحكموه ، بأن تأمروا سراً مع بعض رؤساء الجند أن ينضموا اليهم إذا هم دخلوا
المدينة ، وتبادلوا وياهم الرسائل من قبل في هذا الصدد ، لكن محمد على علم بسر هذه
المؤامرة فاعتزم أن يوقع المالك في الكيد الذي كادوا ، واتفق سراً مع بعض رجاله
الامناء على أن يتصلوا بالمالك ويتظاهروا لهم بالاخلاص ويستدرجوهم الى دخول
العاصمة فيمدوا لهم في غيبتهم ، ويزينوا لهم نجاح خطتهم ، وهم في الواقع أعوان لمحمد
على (١) ، ففي اليوم الموعود (٢) هجم المالك على القاهرة في قوة تبلغ ألفاً من المقاتلة
شاكى السلاح ، وعلى رأسهم جماعة من زعمائهم وهم عثمان بك حسن وشاهين بك
المرادى وأحمد كاشف سليم وغيرهم ، واقتحموا باب الحسينية بعد أن حطموه ودخلوا
القاهرة من باب الفتوح ، وقصد زعمائهم الى دار السيد عمر مكرم ليعجموا عوده
ويستنجدوه ، ولكنه رفض مقابلتهم ، فقصدوا الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى
شيخ الجامع الازهر وهناك وافهم السيد عمر مكرم وصارحهم القول بالايظنروا منهم
عوناً ولا نجدة ، ونصح اليهم أن يعودوا من حيث أتوا ، فعملوا أن الزعامة الشعبية
لا تؤيدهم ، وانقلبوا هنالك خائبين ، ودب الفشل والارتباك في صفوفهم وصفوف
جندهم ، فخرج فريق منهم من باب البرقية نجاةً بأنفسهم ، وذهب رهط آخر الى باب

(١) ذكر الجبرتي في ترجمة محمد بك الألفي ما يؤيد هذه الرواية ، فقد أورد
كلاماً قاله الألفي عن زملائه المالك في تبيان غلطاتهم وعدم إصفايتهم لنصائحه وأشار
الى حادثة هجومهم على القاهرة وأنها وقعت بتدبير محمد على باشا فقال « واحتال
عليهم ثانياً يوم قطع الخليج فراجت حيلته عليهم أيضاً وأرسل اليهم فنصحهم فاستشعروا
وخالفوني ، ودخل الكثير منهم البلد وانحصروا في ازقتها وجرى عليهم ماجرى من
القتل الشنيع والامر الفظيع ولم ينج الا من تخلف منهم أو ذهب من غير الطريق »
(٢) ١٦ أغسطس سنة ١٨٠٥ — ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٢٢٠

زويلة وتقدموا جهة درب الاحمر، فتلقاهم الجند الذين كانوا هناك بالرصاص فقتلوا
الى داخل باب زويلة، وحاولوا دخول جامع المؤيد والامتناع به، فهاجمهم جماعة من
المغاربة والمرابطين هناك وأطلقوا عليهم الرصاص، فلجأ فريق منهم الى جامع
البروقية، وذهبت طائفة أخرى تعدو بخيلها الى باب النصر، فألقوه مقفلاً، فنزلوا
عن جيادهم وتسلق بعضهم الاسوار ونجا بنفسه، وتفرق آخرون في العطوف واختفوا
فيها، وأما الذين لجأوا الى جامع البروقية فإن اثنين منهم تمكنوا من الخروج ولحقا بالماليك
النازليين بدار الشيخ الشرقاوى، وبعد أن انبأوا بما وقع فر الجميع خارجين من باب
الغريب، أما الباقيون (في جامع البروقية) فقد أحاط بهم الجند وقتلوا منهم مقتلة
نحو الخمسين وأسروا نحو الثمانين وذهبوا بهم الى محمد على باشا، فأمر بقتلهم فقتلوا
جميعاً، وبذلك انتهت مؤامرة المالك بالخبيثة والخسران، قال الجبرتي في هذا الصدد
مامعناه « ولم يتفق للامراء المصرية (المالك) أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة
وطبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغل أيديهم »

استيلاء « محمد على » على الجزيرة

وانتهز محمد على فرصة هذه الهزيمة فاستولى على الجزيرة (سبتمبر سنة ١٨٠٥)
وكانت لم تزل الى ذلك الحين في أيدي المالك، وظهر عليهم وعلى سلحدار خورشيد
باشا، واضطره الى التسليم والتخلي عن جنده وذخائره واللاحق بمولاه خورشيد باشا
في الاسكندرية

رحيل قبطان باشا الى الاستانة

وطدت هذه الحوادث مركز محمد على، فلم يعد قبطان باشا يتردد في أي
الفريقين ينضم اليه، ورأى أن محمد على باشا هو الأحق بالتأييد، لأن الشعب والقوة
في جانبه، واعتزم أن ينقلب الى الاستانة فرحل عن البلاد في أكتوبر سنة ١٨٠٥
ومعه خورشيد باشا والى المحلوع

غادر قبطان باشا أرض مصر وهو يتنبأ لمحمد على بمستقبل كبير، فقد روى عنه

أنه قال يوما قبل رحيله « إنى لأترك فى مصر رجلاً ستجده الدولة يوما من أعظم خصومها شأنوا أكبرهم خطراً، ولم يوفق سلاطيننا الى رجل مثل هذا الباشا فى دهائه وحزمه ومضاء عزيمته » وقد حققت الايام صحة هذا رأى فان محمد على قد خرج على تركيا وهزم جيوشها فى ميادين الحرب وزلزل عرش السلطة العثمانية وكاد يدكه لولا ان وقفت اوروبا فى طريقه

رجوع محمد على الى زعماء الشعب فى مهمات الامور

عرف محمد على باشا ما لزعماء الشعب من المكانة والنفوذ عند الجماهير، فقدر لهم هذه المنزلة، وكان يرجع اليهم ويستشيرهم فيما يجد من مهمات الامور، فمن ذلك أنه كلما احتاجت الحكومة الى تقرير اتاوة جديدة رجع اليهم بادئ الامر وأوضح لهم الحاجة الملحة اليها، وخاصة اذا كان الغرض منها دفع رواتب الجند، فينال اقرارهم وموافقتهم، ذكر الجبرنى ما خلاصته أنه فى أواخر جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ (سبتمبر سنة ١٨٠٥) احتاج الى دفع باقى أعطية العسكر « فتكلم مع المشايخ فى ذلك وأخبرهم بان العسكر باقى لهم ثلاثة آلاف كيس لا نعرف لتحصيلها طريقة، فانظروا فى ذلك وكيف يكون العمل، ولم يبق الا هذه النوبة » وأقنعهم بانه اذا أخذ العسكر رواتبهم سافروا الى بلادهم ولم يبق منهم الا من كان فى حاجة اليهم ومن يتولون المناصب من ضباطهم

وقد اقتنع زعماء الشعب بهذه الحجة وخاصة لانهم كانوا يميلون الى رحيل الجنود الارناءود والدلالة عن البلاد لكثرة مساوئهم واعتدائهم على الناس، فوافقوا على فرض الاتاوة الجديدة.

ومما يلفت النظر فى مشاورة محمد على باشا للشيوخ قوله لهم « ولم يبق الا هذه النوبة » وهذا يدل على مبلغ عنايته باكتساب رضاهم واقناعهم بأن الحاجة الى صرف رواتب الجنود هى التى الجأت الى هذه الاتاوة، وان هذه آخر مرة يلجأ فيها الى زيادة الضرائب، وقد اقتنع الشيوخ بهذه الحجة كما قدمنا، واستقر رأى بعد المشاورة على أن تستولى الحكومة فى ذلك العام على ثلث الفائض من

الحصص والالتزام (أى على ثلث ايراد الملتزمين لأن ما يسمونه الفائض هو صافي دخلهم) وكان الملتزمون يؤلفون الى ذلك العهد طبقة كبيرة من الملاك ، فتهرموا بهذه الاتاوة التى هى أشبه بالمصادرة ، وضجوا من حرمانهم ثلث ايرادهم كل عام ولكن محمد على باشا أراد أن يطمئنهم بأن هذه الوسيلة استثنائية وانها لا تتكرر كل سنة فوعده الشيوخ بكتابة فرمان يلتزم فيه عدم العودة الى ذلك ثانياً ويثبت فيه « لعن الله من يفعلها مرة أخرى » ، فافتنع الشيوخ بهذا الشرط ، وانفجرت الازمة مؤقتاً

كان زعماء الشعب اذن مرجع الحكومة فيما تفرضه من الاتاوات والضرائب ، كما كانوا ملجأ الشعب فى تخفيف ما تفرضه منها ، ومن ذلك أن الحكومة فرضت فى تلك السنة (أكتوبر سنة ١٨٠٥) على أهل رشيد اتاوة قدرها اربعون الف ريال توزع على ثلاثة عشر من تجار المدينة ، فحضر الى القاهرة وفد من أهل رشيد يتظلمون من هذه الاتاوة ، وقابلوا السيد عمر مكرم والشيوخ ورفعوا اليهم ظلامتهم ، فقام السيد عمر وفى صحبته الشيوخ وعرضوا الامر على محمد على باشا ، وتشاوروا فى تخفيف الاتاوة ، فاستقر رأى على انزالها الى عشرين الف ريال ، وفى مايو سنة ١٨٠٦ طلبت الحكومة قرضاً من الملتزمين والتجار على القاعدة التى سار عليها خورشيد باشا والى المعزول فى العام السابق (سنة ١٨٠٤) فضاق الناس ذرعاً وذهبوا أفواجا الى السيد عمر مكرم يشكون ويتبرمون ، فبذل ما فى وسعه للتخفيف عن بعضهم

مكانة السيد عمر مكرم

يتبين من هذه الوقائع ان زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم كان لهم نفوذ فعال فى ادارة الحكومة ، وكانوا ملجأ الناس فى رفع المظالم ، وقد عظم نفوذ السيد عمر مكرم فى تلك السنوات الى ما لم يسبق له نظير من قبل ، ولا غرو فهو الذى أجلس محمد على على عرش مصر وكان فى السنوات الاولى من حكمه أحد أركان ذلك العرش

ولقد بلغ من مكانته أن محمد علي باشا لما اعتزم أن يجرد جيشا لمحاربة محمد بك الألفي في الصعيد (ابريل سنة ١٨٠٦ — صفر سنة ١٢٢١) عرض عليه أن يستخلفه فينبوب عنه ويكون « قائمقاما » مدة غيبته ، فامتنع السيد عمر مكرم ولم يقبل ، ولم يذكر الجبرتي سبب امتناعه ، ولكن إذا صح ما يقوله من أنه « تبين أنها إيهامات لا أصل لها » فيكون الامتناع راجعا الى أنه شعر بان العرض لم يكن الا ضربا من ضروب المجاملة والتكريم ، أولا أنه كان يتورع عن مناصب السلطة ويخشى أن يتهمة حساده — وكانوا كثيرين — بأنه يسعى الى الجاه ولا يعطى الا ليأخذ ، فأراد أن يجعل جهاده خالصا لوجه الله والوطن

ولم يكن السيد عمر مكرم في حاجة الى أن يكون « قائمقاما » ليعظم مركزه ، فقد كان له في نفوس الشعب أكبر منزلة واعظم مكانة ، وكان في الاجتماعات والحفلات العامة يتقدم المدعوين فيخلون له صدر المجالس طوعية واختيارا ، فيكون بجانب محمد علي كتفا لكتف

وحسبك أن تقرأ بعض مآذركه الجبرتي عنه في مناسبات مختلفة لتعرف الى أي حد بلغ نفوذه ومكانته ، قال « ارتفع شأن السيد عمر وزاد امره بمباشرة الوقائع ^(١) وولاية محمد علي باشا ، وصار بيده الحل والعقد والامر والنهي والمرجع في الامور السكينة والجزئية » وقال في موضع آخر « ولما وقع ما وقع في ولاية محمد علي باشا وانفرد السيد عمر افندي في الرئاسة صارت بيده مقاليد الامور »

ولا نزاع ان الزعامة الشعبية قد اكتسبت نفوذا معنويا كبيرا لمكانة السيد عمر مكرم شخصيته ومهابته ، فهو بحكم رآسته لهذه الزعامة كان يسبق عليها من شخصيته الكبيرة ما يجعلها نافذة الكلمة محترمة المقام

ادرك السيد عمر مكرم اذن مكانة عظمى في نفس الشعب ، وعند الحكومة ، ولم تكن هذه المكانة لتخفى على زعماء المالك ، فلجأ اليه محمد بك الألفي

(١) يريد وقائع الثورة التي قامت ضد خورشيد باشا وفصلنا الكلام عنها بالجزء

وطلب وساطته له عند محمد على باشا وشفاعته لديه ليصفوله وللأمراء المماليك وتنتهى الحرب بينهم على أن يقطعهم جهة يقيمون بها ويستغلونها، لكن محمد على كان أبعد نظرا من أن يطمئن لخصومه الألداء فعادت الحرب بينهما وانسحب الألفى بك الى الفيوم يعد العدة للقتال ، واعتزم محمد على أن يزحف عليه ليستخلص الوجه القبلى من سلطة المماليك

الحرب بين محمد على والمماليك

كان المماليك حتى أوائل سنة ١٨٠٦ أصحاب النفوذ والحكم فى الصعيد ، إذ كان محمد بك الألفى يحتل الفيوم ، وسليمان بك ومعه ثلاثة من أتباعه البكوات يرايطون بجنودهم شمالى أسيوط ، وعثمان بك حسن يرايط فى مديرية اسنا ، وابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى وأتباعهما يحتلون شاطئ النيل بين أسيوط والمنيا ، فكان على ذلك معظم الصعيد تحت سلطة المماليك ، فأنفذ محمد على جيشا بقيادة حسن باشا للزحف عليهم

انحدر حسن باشا فى النيل من الجيزة ومضى حتى بلغ الرقة (١) ، وما كاد يتجاوزها حتى التقى بقوات محمد بك الألفى الذى جاء من الفيوم قاصدا الوجه البحرى (مارس سنة ١٨٠٦ — أواخر ذى الحجة سنة ١٢٢٠) ، وكان الألفى قد حشد تحت لوائه فى الفيوم عدة آلاف من العرب ليناجز بهم قوات محمد على ، فنازل بهم جيش حسن باشا فى معركة انتهت بهزيمة هذا الأخير وانسحابه الى (الرقة) ، وتابع الألفى زحفه الى الجيزة ومنها سار شمالا الى البحيرة ، أما حسن باشا فلم يشأ أن يصطدم بالألفى وسار جنوبا حتى بلغ بنى سويف ، وبقي بها ليعمل عملا ، وفى الوقت نفسه تقدم ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى شمالا وحاصروا المنيا وكانت بها حامية من جنود محمد على ، وكان موقع المنيا عظيم الخطر ، فأمدّها حسن باشا بنجدة تحت قيادة أخيه عابدين بك فجاءتها وشدت أزر الحامية ، ووقفت

(١) على شاطئ النيل بمديرية الجيزة

الحرب عند هذا الحد إذ واجه محمد على مشكلة خطيرة كادت تقلب عرشه كما تراه فيما يلي

محاولة عزل محمد على وإخفاقها

سنة ١٨٠٦

لم يكن محمد على كما قدمنا مرضيا عنه لا من الحكومة التركية ولا من الانجليز ، ولئن أخفقت مناورة سنة ١٨٠٥ وبقى على عرشه فإن ذلك لم يمنع الانجليز من أن يسعوا سعياً حثيثاً في تحقيق سياستهم التي ترمى الى إقصائه عن مصر وإحلال المماليك مكانه

دسيمة انجليزية جديدة

وقد ساعد انجلترا على تجديد سعيها لدى الباب العالي رجحان كفتها في حروبها مع فرنسا حين بلغ الصراع بين الانجليز و نابليون أشده ، فقد كان لهم الفوز في معركة (الطرف الاغر) البحرية ^(١) ، حيث اشتبك الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال نلسن والاسطول الفرنسي الذي يقوده الكونت اميرال فيلنوف ، فانتصر الاسطول الانجليزي في تلك المعركة الشهيرة ، وخرجت انجلترا من الحرب قوية الشوكة نافذة الكلمة ، باسطة سيادتها على ظهر البحار ، وقضت نهائياً على آمال نابليون في أن ينازعها تلك السيادة ، فصار البحر الأبيض المتوسط تحت مطلق سلطانها ، ورجحت كفتها السياسية في الشرق وخاصة على ضفاف البوسفور حيث لم تعد تخشى مزاحمة فرنسا لها ، وأخذت تملئ سياستها على الباب العالي مستعينة بما اكسبها الفوز البحري على نابليون من الشوكة والنفوذ ، واستأنفت تدخلها في المسألة المصرية بما يطابق أهواءها ، وكان أول ما قصدت اليه أن تبسط نفوذها في وادي النيل وتحقق المطامع التي فاتها تحميمها في السنوات الماضية ، أثناء الحملة الفرنسية وبعد انتهائها ، وكانت على يقين أن بسط نفوذها يتحقق بإعادة

الحكم في مصر الى صنائعها من الممالك ، فطلبت من الباب العالي بلسان سفيرها في الاستانة عزل محمد على عن ولاية مصر وجعل الحكم فيها الى محمد بك الالفي ، وتوصلت الى اقناع الحكومة التركية بوجهة نظرها بحجة ما يعود عليها من النفع من وراء هذا التغيير ، وألقت في روعها أن محمد على باشا لا يميل الى الاذعان لأوامرها ولم يدفع الى ذلك الحين شيئا من الخراج الذي كان يؤديه الولاية السابقون

سعت انجلترا سعيها لاسناد حكم مصر الى محمد بك الالفي ، وكان الالفي على اتصال مستمر بعمال الانجليز ، يتبادل واياهم الرسائل والرسائل ليتخذ انجلترا شفيعة بل حامية وكفيلة له لدى الباب العالي كي تتفق واياه على الشروط التي يتولى بها الحكم ، فعرضت انجلترا على الحكومة التركية أن تعين واليا جديدا بدل محمد على يكون من طراز الولاية الاتراك الاقدمين الذين كانوا يتركون سلطة الحكم للامراء الممالك ، وأبلغتها أن الالفي يتعهد باداء جزية سنوية مقدارها ١٥٠٠ كيس (١) تضمن الحكومة الانجليزية ايفاءها ، ويتعهد بالولاء وبذل الطاعة والخضوع لأوامر الاستانة ، وأن هذا الاتفاق اذا تم يكون فاتحة تقدم في المعاملات التجارية بين البلدين مما يؤدي الى زيادة رسوم جمارك مصر وسورية ، وبالتالي يعود بالربح على خزانة الاستانة ، فاستمع الباب العالي لهذه الحجج ، ورأى فيها منفعة مادية تعود عليه ولو كان من ورأى تسليم مصر للمطامع الانجليزية ، وصادف هذا الاغراء هوى في نفوس حكام الاستانة لان الباب العالي لم ينس أن اسناد ولاية مصر الى محمد على كان نتيجة قيام ثورة شعبية على الوالى الرسمي المعين بمقتضى «فرمان سلطانى» ، وأن الارادة الشاهانية التي اقتضت تولية محمد على انما صدرت تحت ضغط تلك الثورة ، وهذا أمر لم يكن سائغا ولا مألوفا عند سلاطين الترك ، وكذلك لم يكن مألوفا أن تقر الحكومة التركية واليا في منصبه أكثر من سنة ، فلا جرم كانت تنظر الى بقاء محمد على وسعيه في تثبيت مركزه في

مصر بعين السخط والمقت ، فصحت عزيمتها على أن تعزله ، وأصدرت فرمانا بتولية موسى باشا في مكانه وتقليد محمد على ولاية سلا نيك ، ومعنى ذلك إبعاده عن مصر ، وكان متفقاً على أن موسى باشا سيكون آله في يد المماليك كما كان شأن ولاية مصر في القرن الثامن عشر ، وأن يسمح للمماليك بشراء أفواج الرقيق من جنسهم وجلبهم الى مصر ورفع الحظر الذي كان مضروباً عليهم في هذا الصدد منذ الحملة الفرنسية فيعودوا الى شراء المماليك من أسواق الرقيق ويقوى بهم جيشهم في مصر ، وبذلك تتحقق وجهة النظر البريطانية في المسألة المصرية ، ويعود الحكم الى المماليك وتبسط انجلترا نفوذها في مصر على أيديهم

مجيء أسطول عثماني الى مصر

لعزل محمد على

ولاحل أن تحقق الحكومة التركية ما اعتزمت عليه أنفذت عمارة بحرية بقيادة صالح باشا قبودان العمارة العثمانية ليم النقل والتغيير دون أن تحدث مقاومة أو تنهض معارضة ، فأقلعت العمارة تقل الوالي الجديد موسى باشا ، وكان الألفي قد اطلع من قبل على مفاوضات الانجليز والباب العالي ، ووقف عليهما من قناصل انجلترا في مصر ، وهذا هو السبب الذي دعاه الى التحرك من الفيوم قاصدا الوجه البحري ، فكانت غايته من ذلك أن يتلقى القبودان صالح باشا عند حضوره ، فلما وصل الى قرب دمنهور علم بوصول العمارة العثمانية ، فابتهج لهذا النبأ ابتهاجا عظيما

وصلت العمارة التركية الى الاسكندرية في اول يولييه سنة ١٨٠٦ ، وكانت من أربع بوارج وفرقاطتين وسفینتين أخريين وعلى ظهرها موسى باشا الوالي الجديد وجنود الحملة المتأهبة للنزول الى البر وعدتها ثلاثة آلاف مقاتل ، والتقى الالفی في حوش عيسى برسل الترك والانجليز ، وهماؤه بقرب تحقيق آماله

رواية الجبرتى

يتبين من رواية الجبرتى أن محاولة عزل محمد على تمت بالاتفاق بين الانكليز والحكومة التركية ومحمد بك الالفى ، قال فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٢١ (يونيه سنة ١٨٠٦) ما خلاصته

« وردت سعاة من الاسكندرية وأخبروا بورود أربعة مراكب وفيها عساكر من النظام الجديد ^(١) وصحبهم ططريات (رسل) وبعض أشخاص من الانكليز (تأمل) ومعههم مكتبة خطابا الى الالفى وبشارة بالرضا والعفو للأمرء المصرية (المالك) من الدولة العثمانية بشفاعة الانكليز ، فلما وصلوا اليه بناحية حوش ابن عيسى بالبحيرة سر بقدمهم ، وعمل لهم شنكا ، وضرب لهم مدافع كثيرة ، وأرسلهم الى الأمرء القبليين (المالك بالصعيد) وصحبهم أحد سناجقه وهو أمين بك ومحمد كاشف تابع ابراهيم بك الكبير ، ثم أنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر الى المشايخ وغيرهم بمصر وكذلك الى مشايخ العربان مثل الخويطات والعائد وشيخ الجزيرة »

وقال فى موضع آخر فى ترجمة محمد بك الالفى « وكان مع ما هو فيه من التنقلات والحروب يرسل الدولة والانكليز ، وأرسل أمين بك الى الانكليز فسعوا مع الدولة لمساعدته وحضروا اليه بمطلوبه فعمل لهم بحوش ابن عيسى شنكا وأرسلهم مع أمين بك الى الأمرء القبليين » وقال فى موضع آخر « والسبب فى حركة القبطان (صالح باشا) ارساليات الالفى للانكليز ومخاطبة الانكليز الدولة ووزيرها محمد باشا السلحدار »

فالمسألة اذن كما ترى لم تكن ابدال وال باخر ، بل هى دسيسة انجليزية تركية حيكت شباكها فى الاستئانة بقصد اعادة المالك الى حكم مصر وبسط النفوذ الانكليزى عليها

(١) أى من الجيش النظامي الجديد

ولم يكده يستقر صالح باشا في الثغر حتى أوفد رسولا الى محمد علي يبلغه فرمان النقل والتغيير ويأمره بالذهاب الى سلا نيك مقر ولايته الجديدة، وكان محمد علي يعالج المشكلات بالحكمة والسياسة والدهاء، فتظاهر بالامتثال، ولكنه تأهب سرا للمقاومة، وأجاب أنه مستعد للرحيل الى سلا نيك غير أن الجند يعارضون في رحيله قبل أن تؤدي روايتهم المتأخرة، وقدرها عشرون ألف كيس، فكانت هذه الحجة أول ذريعة توسل بها الى احباط مؤامرة العزل والنقل، وأخذ محمد علي يعد العدة للمقاومة، فاتجه فكره فورا الى السيد عمر مكرم يستنجد به لاجباط المؤامرة الجديدة قال الجبرتي « فلما قرأ الدفتر دار الورقة أرسل الى السيد عمر النقيب فركب اليه وحضر صحبتته الى الباشا واختليا معا ساعة ثم فارقا »

ففي هذه الخلوة أفضى محمد علي الى السيد عمر مكرم بمؤامرة الاستانة، وطلب اليه المعونة والنجدة، فكان عمر مكرم عند ظنه وكان له نعم العضد الامين، واتفقا على الخطة المشتركة

كانت هذه الازمة خطيرة العواقب، وكادت تقتلع محمد علي عن كرسيه وترجع بالبلاد الى حكم المالك، فان فرمان الذي جاء به قبطان باشا كان يتضمن تولية موسى باشا على مصر وانفصال محمد علي باشا عن ولايتها ويتضمن أيضا « العفو عن الامراء المالك، وأن يكونوا كعادتهم في إمارة مصر وأحكامها وأن يستقر الباشا الجديد في القلعة كعادته » ومعنى ذلك اطلاق يد المالك في حكومة البلاد كما كانوا قبل الحملة الفرنسية وارتكاس البلاد في حكم التتقهر والفوضى

فلمؤامرة كانت واسعة النطاق اشترك في حياكة خيوطها الباب العالي والانجليز والمالك معا، فلا غرو ان ابتهج محمد بك الالفى لورود فرمان الجديد ابتهاجا عظيما، وأرسل رسله في البلاد لاداعته بين الناس

حصار دمنهور

اعتزم الالفى عندما وصلت العمارة التركية الى الاسكندرية أن يستقر في دمنهور

ليتخذها مركزا يجمع فيه قواته ويدبر خططه ، وكان يظن أن أهلها لا يخالفونه أمرا بعد وصول الوالى الجديد ، فأعلنهم بقدم العارة التركية ووصول فرمان يقلده حكم مصر ، وطلب اليهم تسليم المدينة ونزولهم على حكمه ، لكن الاهالى رفضوا التسليم ، وأعدوا لمقاومته والامتناع فى المدينة ، وأرسلوا الى السيد عمر مكرم ينبئونه بالخبر فأبلغه الى محمد على باشا ، ووضع الالفى الحصار حول دمنهور لا كراهها على التسليم

تضامن محمد على والعلماء

فى مقاومة فرمان العزل

استوثق محمد على من معاضدة السيد عمر مكرم ومن ثم عزم على مقاومة ارادة الباب العالى ، وأخذ يتأهب للحرب والقتال ، واتفق هو والسيد عمر على أن يجتمع العلماء ويكتبوا محضرا فى شكل التماس بالاعتراض على عزل محمد على والاحتجاج على تولية موسى باشا ورجوع السلطة للمالك

ومضمون هذا الاعتراض ان الامراء (الممالك) قد عرضوا على السدة السلطانية تعهدهم بدفع الأموال الأميرية الى خزانة الدولة العلية واداء مرتبات الحرمين الشريفين والعفو عن جرائمهم الماضية فى مقابل اقرارهم على دخول مصر القاهرة ، وان طلبهم قد حاز القبول ، ومن ثم صدر الأمر السلطانى بعزل محمد على باشا وتوجيه ولاية سلا نيك اليه وتقليد موسى باشا ولاية مصر ، وقبلت توبتهم على ان يقبل العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية كفاتهم ، على أن الموقعين على العريضة لا يستطيعون كفاتهم « فان شرط الكفيل قدرته على المكفول ، ونحن لا قدرة لنا على ذلك ، لما تقدم من الافعال الشهيرة ، والاحوال والتطورات الكثيرة ، ولا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لا نطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ، فترجو عدم المؤاخذه فى الامور التى لا قدرة لنا عليها ، لأننا لا نقدر على دفع المعتدين والطغاة والمتمردين ، الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم » وعيّد العلماء فى عريضتهم مساوىء الممالك ومظالمهم ، وأطروا

فعال محمد على باشا ، و ختموا كلامهم بتفويض الامر الى السدة السلطانية ، و كتبوا من العريضة نسختين احداها الى القبطان باشا والاخرى الى السلطان بعد ما وقعوا عليها باضاءاتهم واختتامهم

ومعنى هذا البيان على ما فيه من اظهار الولاء والاخلاص للسدة السلطانية انهم لا يميزون تغيير الوالى ، ولا يرضون بعودة الحكم الى المماليك ، ولا يقبلون كفالتهم ، وانهم متمسكون بولاية محمد على ، وفى هذا من تأييده فى مركزه والاستهانة بالفرمانات (الشاهانية) مالا يعزب عن البال

اما قبطان باشا فقد مضى فى تنفيذ مهمته ، فبعث الى العلماء رسالة ينبئهم فيها بعزل محمد على باشا وتقليد موسى باشا ، ويدعوهم الى الامتثال للأمر ، وبعث بمثل هذه الرسالة الى السيد عمر مكرم ، وبثالثة الى السيد محمد السادات ، فلم يلقى منهم جوابا صريحا بالامتثال ، بل أبدوا أعذارهم ، وكانت الاوامر تقضى برحيل الجنود الارناؤود مع محمد على ، فتذرعوا بأن امتناع الجنود عن الرحيل وعصيانهم يترتب عليه تعرض البلاد للخراب ، فكرر قبطان باشا عليهم الامر فى رسالة شديدة اللهجة قال فيها « انه لا يقبل هذه الاعذار ولا ما تنقوه من التموهيات التى لا أصل لها ولا بد من تنفيذ الاوامر وسفر الباشا (محمد على) هو وحسن باشا وعساكرهم وخروجهم من مصر وذهابهم الى ناحية دمياط وسفرهم الى الجبلية التى أمروا بالذهاب اليها ، ولا شىء غير ذلك أبدا »

وكتب العلماء رسالة أخرى الى قبطان باشا فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٢١ (اغسطس سنة ١٨٠٦) يذكر فيها صراحة انهم لا يرتضون عن محمد على باشا بديلا ، ومما جاء فى هذه الرسالة قولهم « ان محمد على باشا كافل الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله ، وقاطع المعتدين ، وان الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله ، والشريعة مقامة فى أيامه ، ولا يرتضون خلافة ، لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والارياف ، وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها فى ايام المماليك المعتدين الذين كانوا يعتدون عليهم ويسلبون

أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض والكلف (جمع كلفة) الخارجة عن
الحد اما الآن فجميع اهل القطر المصرى مطمئنون بولاية هذا الوزير»

استعداد محمد على للحرب

اعتمد محمد على اذن على تأييد زعماء الشعب له فى المقاومة واخذ يحرض
رؤساء الجند على العصيان والمعارضة فى رحيله ، وقد صادف هذا التحريض
هوى فى نفوسهم لانهم خشوا اذا هوارتحل عن مصر ان تسقط رواتبهم المتأخرة
وكانت تبلغ نحو عشرين الف كيس ، فاتفقوا على أن يقاوم الامر الصادر له
من الاستانة اذا أعطوه موثقاً بأن يكونوا مخلصين له متفانين فى الدفاع عنه ،
فعاهدوه على الأمانة والاخلاص ، واقسموا له أنهم مؤيدوه وناصروه ، فأخذ
يعمل مطمئناً ويستعد للمقاومة ، فأمد القلعة بالميرة والذخيرة ، وحصن الطوابى
الباقية من عهد الحملة الفرنسية والمحيطه بأطراف المدينة ، وأنفذ جيشاً من جنوده
الى الرحمانية ليكون على اهبة الاستعداد لقتال الالفي بك والأتراك ، وبعث الى حسن
باشا بالصعيد يدعوه الى التقدم نحو القاهرة لتكون قواته كلها على اهبة القتال .

رواية الجبرتي

قال الجبرتي فى هذا الصدد « وشرع الباشا فى عمل آلات حرب وجلل
ومدافع ، وجمعوا الحدادين بالقلعة واصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهمات
الى القلعة ، وظهر منه علامات العصيان وعدم الامتثال ، وجمع اليه كبار العسكر
وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك »
وقال فى موضع آخر « وأرسل الباشا لجمع الاخشاب التى وجدها ببولاقي فى
الشوادر والحواصل والوكائل وطلعوا بجميع ذلك الى القلعة لعمل العربات والعجل
برسم المدافع والقنابر »

موقف زعماء الشعب

كل هذه الاستعدادات تدل على أن محمد على قد اعتزم فعلاً مقاومة قرار الباب

العالي بالقوة ، ولقد علوه على انفاذ فكرة المقاومة ثقته بتأييد زعماء الشعب له وتضامنهم وإياه في مقاومة عودة المالك الى الحكم

ولقد كان تأييدهم صادراً عن نية صادقة وعقيدة راسخة في نفوسهم ، لانهم هم الذين اختاروه للولاية ، فهم بحكم اختيارهم يريدون ان تنفذ ارادتهم بتثبيت قدم محمد على في الحكم ، ولأنهم من جهة أخرى يعلمون أن تعيين موسى باشا مع اطلاق يد المالك ورؤسائهم في الحكم معناه الرجوع الى حكم المظالم والارتكاس في الفوضى ، وهذا أمر لا ترضاه نفوسهم لأنهم هم الذين اثاروا الشعب على هذه المظالم ، ولقد رأوا في سياسة محمد على باشا ورجوعه اليهم في تقرير الضرائب التي يفرضها وفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه حين ولاية الحكم أن يسير بالعدل والقسطاس ، فلا جرم ان تطمئن نفوسهم اليه ، كل هذه الظروف جعلت تأييد زعماء الشعب لمحمد على أمراً طبعياً يقضى منطق الحوادث بأن لا مناص منه

فمناصرة الزعماء لمحمد على باشا هي تأييد للسياسة التي رسموها من قبل ، وتثبيت للسلطة التي كسبوها في تسيير شؤون الحكومة ، وهذه السلطة نفسها لم يتجاهلها الباب العالي لأنه جعل رجوع المالك الى الحكم معلقاً على كفالة العلماء لهم ، ولقد استمسك العلماء بهذا الشرط فصرحوا في عريضتهم الى الدولة انهم لا يقبلون هذه الكفالة ولا يرضون بها ، ومعنى ذلك أنهم لا يريدون رجوع الحكم الى المالك ولا يبنغون عن محمد على بديلاً

سياسة محمد على

وتدرك الباشا من جهة أخرى بالدهاء والحيلة بازاء المالك ، فأخذ يعمل على فصم عراهم مستخدماً التنافس القديم بين زعمائهم

كان محمد على يعلم بأن الأتلي بك مكروه من بقية رؤساء المالك كالبرديسي و ابراهيم بك وعثمان بك حسن وانهم ينقمون منه انفرادة بالاتصال بالانجليز وكتمانه عنهم أسرار مفاوضاته واياهم ، وقد بادر الأتلي الى الرحيل عن الفيوم

قاصدا البحيرة وشواطئ الاسكندرية لمقابلة صالح باشا دون ان يكشف زملاءه بد خيلة نفسه ، فأثار فيهم الحفيظة القديمة التي كانت تبدو ما بين آت وآخر ، وأرسلوا سعاتهم الى محمد على يعرضون عليه الصلح ، فانهزها فرصة ليضعف شوكة الالفي خصمه اللدود ، فتلقى السعاة بالبشاشة والترحيب ووصلهم بالهدايا اعلانا عن مقاصد الودية حيالهم ، واطمان من جانبهم ، واستخدم حيال الترك سلاحا آخر وهو الرشوة ، فانه كان يعلم ما انطوت عليه نفوس حكام تركيا وساستهم من الاذعان للمال والنزول على حكمه ، ومما يؤثر عنه في هذا الصدد قوله عنهم « اني اعرف الترك وأعرف الطريقة التي تنجح معهم فالرشوة هي وسيلة فعالة مع هؤلاء الناس » ، فاستخدم هذا السلاح وأخذ يقدم الرشا والهدايا لصالح باشا وبطانته من جهة ، ولرجال « الماين » في الاستانة من جهة أخرى ، وكان لهذه الوسيلة فضل كبير في تمهيد السبيل لمساعيه ، فقد بعث بعريضة زعماء الشعب الى الاستانة لتقديمها الى السدة السلطانية على يد رسول من امنائه وأرسل معه ٢٠٠٠ كيس برسم رجال الدولة جمعها له رؤساء الجند لاعداد الاهبة للحرب والقتال فأحدثت هذه الرشوة أثرها على ضفاف البوسفور

وبذل كذلك سفير فرنسا في الاستانة مساعي جمة لتعصيد محمد على ، فاجتمعت هذه الاسباب المختلفة وعدلت من خطة الباب العالي ، فبعث الديوان الى صالح باشا يطلق يده ويكل اليه التصرف المطلق في الامر كما سيأتي

معركة النجيلة

قلنا ان محمد على باشا أنفذ الى الرحمانية جزءا من جيشه لمحاربة محمد بك الالفي والأتراك ، فوصل هذا الجيش في أواخر يولييه سنة ١٨٠٦ الى الرحمانية ، وكان يقود حاميتها طوبوز اوغلي (كتنخدا بيك) وطاهر باشا ابن اخت محمد على باشا ، فلما أقبلت النجدة استظهر بها القائدان وخرجا من الرحمانية ، ولما علم الالفي بهذه

الحركة اعتزم مواجهة قوات محمد علي ، فرفع الحصار عن دمنهور وأقبل بقواته واشتبك هو وجنود محمد علي في (النجيلة) (١) يوم ١٢ اغسطس سنة ١٨٠٦ وانتهت المعركة بهزيمة العلويين فانسحبوا بقيادة كتنخدا بك الى منوف بعد أن خسروا نحو ستمائة بين قتيل وأسير واستولى المالك على الرحمانية

رواية الجبرتي عن معركة النجيلة

كانت معركة النجيلة ذات خطر وشأن وكان لها تأثير بالغ في نفس محمد علي باشا قال الجبرتي في صدها مايلي :

« وفي ثاني عشر جمادى الاولى سنة ١٢٢١ وردت الاخبار بأن العسكر الكائنين بالرحمانية ومرقص (٢) رجعو الى النجيلة ونصبوا عرضيهم (معسكرهم) هناك وحضر الالفى تجاههم فركبوا لحاربته وكانوا جمعا عظيما ، فركب الالفى بجيوشه وحاربهم ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة انجلت عن نصرته عليهم وانهمزام العسكر وقتل من الدلاة وغيرهم مقتلة عظيمة ولم يزلوا في هزيمتهم الى البحر (النيل) والقوا بانفسهم فيه ، وامتلأ البحر من طراير الدلاتية (الدلاة) ، وهرب كتنخدا بك و طاهر باشا الى بر المنوفية وعدوا في المراكب واستولى الالفى وجيوشه على خيولهم وخيماهم وحماتهم وجبختهم وأرسل برءوس القتلى والاسرى الى القبودان (صالح باشا) وأشيع خبر هذه الواقعة في الناس وتحذثوا بها وانزعج الباشا والعسكر انزعاجا عظيما »

استئناف حصار دمنهور

ودفاعها الجيد

تشجع الالفى بهذا الانتصار وعادوا محاصرة دمنهور ، فدافع أهلها دفاعا مجيدا مدة

(١) جنوبى الرحمانية

(٢) على مقربة من الرحمانية

شهرين من بدء الحصار الأول ، وكانوا متروكين لقوتهم ، وعيشا طلبوا النجدة من محمد على فانه لم يستطع أن يمدحهم خلال هذه المدة ، فلما استأنف الالفى حصارها كان على يقين من استيلاء عليها عنوة وخاصة بعد انتصاره على جنود محمد على فى النجيلة والرحمانية ، وقد زحف هذه المرة مجهزا بالمدافع الكثيرة التى يقوم عليها رماة من الاروام والايطاليين أمدده بهم الانجليز

ولكن الألفى لم ينل من دمنهور منالا ، إذ دافع أهلها عنها رجالا ونساء دافع الأبطال ، وردوا هجمات المالك المرة بعد المرة ، وفى خلال الحصار أرسل أهلها الى السيد عمر مكرم والى محمد على باشا بما يجدر بهم عمله فجاءهم الجواب بوجوب الاستمرار على المقاومة ، وأمدحهم السيد عمر بكل ما يحتاجون اليه من الذخيرة والميرة ، قال الجبرتى فى ترجمة محمد بك الألفى انه « رجع الى البحيرة وأراد دمنهور فامتنع عليه أهلها وحاربوه وحاربهم ولم ينل منهم غرضا والسيد عمر مكرم يقوهم ويمدحهم ويرسل اليهم البارود وغيره من الاحتياجات »

وظل الالفى زهاء شهر يحاول الاستيلاء على دمنهور فبردت عنها خائبا ، وقد أثر هذا الفشل فى تطور الاحوال تأثيرا كبيرا ، قال فولابل فى هذا الصدد « يمكن اعتبار دفاع دمنهور ذلك الدفاع الذى جمع بين الشجاعة والثبات ، وكذلك تناضل رؤساء المالك ، من أهم الأسباب المباشرة التى أحبطت الخطة المرسومة بالاشتراك بين الباب العالى والانجليز » (١) ويقول المسمى جومار فى هذا المعنى « إن أهالى دمنهور قد أظهروا مثل هذه الشجاعة والمثابرة أثناء الحملة الفرنسية فى ظروف تختلف عن الظروف التى قاوموا فيها قوات الالفى مما يدل على ما فطروا عليه من الشجاعة » (٢)

حبوط مؤامرة الغزل

انتهز محمد على فرصة انهماك الالفى فى محاصرة دمنهور فاتصل بمحاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليحوطهم الى صفه ، وقد أحدث المال فى نفس صالح باشا ونفوس بطانته

(١) فولابل . مصر الحديثة

(٢) . انجنان تاريخ مصر فى حكم محمد على الجزء الاول ص ٤٤٣

تحولا كبيرا في وجهة نظرهم، وزاد هذا التحول خيبة الالفى في الاستيلاء على دمنهور وما تبين لصالح باشا من انقسام المماليك وتخاذلهم، فان البرديسى لما رأى ارتباط الالفى بالانجليز أعرض عن تأييده لحقده عليه ولأنه من انصار الالتجاء الى فرنسا، وقد تبين لصالح باشا عبث الاعتماد على المماليك والركون اليهم لان الالفى تعهد ان يؤدى له ١٥٠٠ كيس كانت ثمن إعادتهم للحكم، وأوفد رسولا الى زملائه ابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى وعثمان بك حسن وكانوا وقتئذ بالصعيد يسألهم معاونته فى أداء هذا المبلغ، ولكنهم ردوا الرسول خائباً وعلم صالح باشا بذلك ففضب على الالفى واخذ يفكر فى تغيير خطته، ورأى أن تأييد زعماء الشعب لمحمد على، ورفضهم ولاية موسى باشا وتضعيف الالفى فى حصار دمنهور وتخاذل المماليك فيما بينهم كل هذه الاسباب تبرر تحويل شراعه الى ناحية محمد على

وفى غضون ذلك وردت من الباب العالى الى صالح باشا رسالة تطلق يده وتفوض اليه أن يتصرف على ما يراه صالحاً ومعنى ذلك ان حكومة الاستانة رجعت عن فرمانها القاضى بعزل محمد على باشا من ولاية مصر، فصحت عزيمة صالح باشا على تثبيت محمد على فى الولاية، وتم الأمر على ذلك فى مقابل ان يؤدى الى الباب العالى ٤٠٠٠ كيس، وان يجعل ابنه ابراهيم بك (باشا) رهينة بالاستانة على هذا المبلغ، وانتهت المشكلة بورود مرسوم الى محمد على يتضمن « ابقاء واستمراره على ولاية مصر حيث ان الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس » فزيفت القاهرة لهذا النبأ ثلاثة أيام متواليات

فمرسوم التثبيت مبنى اذن على ان محمد على باشا مؤيد من الشعب مرضى عنه من زعمائه موثوق فى عدله، ومن ذلك يتبين ان الزعامة الشعبية كما كانت صاحبة اليد الطولى فى اختيار محمد على باشا لولاية الحكم فانها كانت العامل الاكبر فى توطيد مركزه واجباط المؤامرة الواسعة النطاق التى كادت تقتلعه عن عرشه وانتهت تلك المؤامرة بالاخفاق والفشل واقلع القبودان صالح باشا بعارته من

أبو قير يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٦ (٥ شعبان سنة ١٢٢١) قاصدا الاستانة
يصحبه موسى باشا وإبراهيم بك بن محمد علي ، وترك صالح باشا وكيله بمصر ليتعجل
توفية الاربعة الآلاف كيس التي تعهد بها الحكومة الاستانة
وبذل محمد علي جهده فأدى الاربعة آلاف كيس كاملة في أوائل نوفمبر
سنة ١٨٠٦ ، فحماه رسول من الاستانة يحمل فرمانين أحدهما باقراره في حكمه
والثاني يأمره فيه بتسفير الحمل وإرسال القمح المطلوب الى جده
وبذلك استقر محمد علي على عرش مصر وحبطت المؤامرة التي كان يقصد
منها عزله.

وفاة البرديسي

كانت العناية الالهية تلحظ محمد علي باشا في ادوار حياته ، ففي الوقت الذي
انتهت فيه مؤامرة الباب العالي والانجليز بالاخفاق والفشل جاءه الخبر بوفاة عثمان بك
البرديسي احد زعماء المماليك الذين يطمحون الى ولاية الحكم وأحد الذين يخشى
منهم على عرشه الجديد ، فالبرديسي ماقى ، يتحين الفرص لتحقيق مطامعه الى أن
عاجلته المنية يوم ٨ رمضان سنة ١٢٢١ (١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦) فدفنه اتباعه في
الصعيد وأمرؤا عليهم شاهين بك المرادى خلفاه ، وشاهين بك هذا كان خصما
لدودا للالفي فكانت امارته حائلة دون توحيد صفوف المماليك وسببا لاطمئنان
محمد علي من هذه الفاحية

وغني عن البيان ان محمد علي باشا قد ابتهج بوفاة أحد خصومه الذين
ينافسونه في الحكم ، ولم يكدهم سوى شهران على وفاة البرديسي حتى عاجلت المنية
خصمه الآخر الالاه محمد بك الالفي

اخفاق الالفي ووفاته

لم يئس الالفي أن يظاھر الانجليز في انتزاعه الحكم ، فاستمر متصلا
بقنصل انجلترا في مصر يطلب من دولته النجدة والممدد ، وفي غضون ذلك

انتقضت العلاقات بين إنجلترا وتركيا ، واعتزمت إنجلترا احتلال مصر ، ومن هنا جاءت فكرة الحملة الانجليزية التي سيأتي الكلام عنها فيما يلي ، وقد أنبأه قنصل إنجلترا بقرب وصول العمارة الانجليزية بهذه الحملة ،

فكان هذا النبأ باعثاً له على البقاء في البحيرة ليتصل بالإنجليز عند قدومهم ، وقد شدد الحصار على دمنهور ليفتحها ويتخذها معقلاً له ، ولكن مقاومة دمنهور وامتناعها عليه أفسد خطته ، ذلك ان جنوده سئموا الاستمرار على الحرب والقتال واشتد بهم الحر والتعب ، ونفدت مؤونتهم ، وكان ذلك في زمن القيظ ، فتمردوا عليه وعلنوه بأنهم تاركوه اذا أصر على متابعة الحصار ، وانتظر هو عيئاً ورود النجدة الانجليزية فلم تصل (وكانت آتية في الطريق) ، فاضطر ان ينقلب بجيشه الى الصعيد بعد أن خانته الحظ وخذله زملاؤه ، وتمرد عليه جنوده ، وابطأ عليه خلفاؤه فامتناع دمنهور واستعصاؤها على الألفى كان من أهم اسباب اخفاقه في سياسته ، قال المسيو مانجان في هذا الصدد « ان دفاع دمنهور المجيد هو جدير بأن يسجل في صفحات تاريخ مصر الحربى فقد تولى أهلها الشجعان هذا الدفاع وحدهم دون ان يتلقوا أى مدد أو مساعدة حتى من محمد على الذى كان هذا الدفاع دفاعاً عنه فقاوم أولئك الشجعان بكل ثبات وبسالة قوات الألفى كلها الى أن تبطل دفاعهم بالنجاح فكان له تأثير كبير في احباط خطة الباب العالى »

وقال الجبرتي في ترجمة حياة محمد الألفى يصف موقفه بعد رحيل صالح باشا الى أن ارتد عن دمنهور « ولما تمتعت عنه عشيرته ولم يلبوا دعوته واتلفوا الطبخة وسافر القبودان وموسى باشا من ثغر اسكندرية على الصورة المذكورة استأنف المترجم أمراً آخر ، وراسل الانكليز يلتمس منهم المساعدة ، وأن يرسلوا له طائفة من جنودهم ليقوى بهم على محاربة الخصم كما التمس منهم في العام الماضى فاعتذروا له بأنهم على صلح مع العثماني وليس في قانون الممالك اذا كانوا في صلح أن يتعدوا على المتصادين معهم ولا يوجهون نحوهم عساكر الا باذن منهم أو بالتماس لمساعدة في أمر مهم ، فغاية ما يكون المسكالة والترجى ، ففعلوا وحصل ما تقدم

ذكره ولم يتم الامر ، فلما خاطبهم بعد الذي جرى صادف ذلك وقوع النفرة بينهم وبين العثماني ، فأرسلوا الى المترجم يوعدونه بانفاذ ستة آلاف لمساعدته ، فأقام بالبحيرة ينتظر حضورهم نحو ثلاثة شهور ، وكان ذلك أوان القبط وليس ثم زرع ولا نبات ، فضاقت على جيوشه الناحية ، وقد طال انتظاره للانكليز ، فتشكى العربان المجتمعون عليه وغيرهم لشدة ما هم فيه من الجهد ، وفي كل حين يوعدهم بالفرج ويقول لهم اصبروا لم يبق الا القليل ، فلما اشتد بهم الجهد اجتمعوا اليه وقالوا له اما ان تنتقل معنا الى ناحية قبلي فان أرض الله واسعة واما ان تأذن لنا في الرحيل في طلب القوت ، فما وسعه الا الرحيل مكظوما مقهورا امن معاندة الدهر في بلوغ المآرب - الأول مجيء القبودان وموسى باشا على هذه الهيئة والصورة ورجوعهما على غير طائل ، الثاني عدم ملكه دمنهور وكان قصده أن يجعلها معتلا ويقيم بها حتى تأتية النجدة ، الثالث تأخر مجيء النجدة حتى قحطوا واضطروا الى الرحيل ، الرابع ، وهو أعظمها ، بجانبه اخوانه وعشيرته وخذلانهم له وامتناعهم عن الانضمام اليه ، فارتحل من البحيرة بجيوشه ومن يصحبه من العربان حتى وصل الى الاخصاص »

عاد الالفى قاصدا الصعيد بعد خذلانه في حصار دمنهور ، وقد تولاه اليأس والتقنوط ، وسار كئيبا حزينا ومع القوات العديدة التي كان يحسب أنها تصل به الى عرش النيل ، فكان تحت لوائه ستة آلاف من العرب وستائة من فرسان الممالك وثمانمائة من الترك والنوبيين ومعهم آلات القتال عشرة مدافع وعدد لا يحصى من البنادق والاسلحة ، وكانت الميرة والمؤونة تحملها آلاف عدة من الابل

رجع الالفى بهذه القوات الحاشدة في اوائل يناير سنة ١٨٠٧ ، فكان لا يمر ببلدة الا أباحها لجيشه نهباً وسلباً ، فكان اهل القرى ينزحون عن بلادهم اذا ما اقترب منها ويخلونها من الميرة والمتاع والماشية نجاها بها من النهب وبلغت هذه الجوع المحر به الى الجزيرة ، فأوجس محمد علي باشا خيفة من مجيء خصمه الألد بهذه القوة لهيبة وأخذ يستعد للمقاومة ، فجمع نحو أربعة آلاف من

جنوده في شبرا (١٢ يناير سنة ١٨٠٧) وعبر بهم النيل الى امبابه واتخذها معسكره العام ، ولكنه رأى من كثرة جموع الالفى ما جعله يحجم عن مهاجمته وكانت طلائع الالفى تحت قيادة شاهين بك قد تقدمت واحتلت قرية الكوم الاسود التى تقع على مسيرة ساعة ونصف من امبابه جنوبا وسار الالفى بك حتى بلغ شبرامنت ، ولم تغادره السكابة التى لازمته من يوم رحيل العمارة التركية ورفع الحصار عن دمنهور ، وزاد في غمه أبناء وصلته عن تخاذل رؤساء المالك في الصعيد وتخليهم عن نصرته وقد كان يؤمل ان يتخذوه رئيسا لهم بعد وفاة البرديسى ، فاشتد غيظه وانفجر صدره كمدا وصرعه المرض فأحس بدنو أجه ، فدعا البكوات المالك من اتباعه وأمر عليهم شاهين بك الالفى خليفة له ، ثم قضى نحبه ليلة ٢٨ يناير سنة ١٨٠٧ (١٩ ذو القعدة سنة ١٢٢١) (١) كتب المسيو مانجان عن مصرعه انه خرج للتنزه ممطيا جواده فرأى عربا من جيشه يتلفون مزرعة قمح فثارت نزوة الغضب في رأسه فاقض عليهم وقتل أربعة منهم كان بينهم شيخ قبيلة ولما انقلب الى خيمته اعتراه فيء مستمر واصابه مرض قتال قيل انه الكوليرا ولم يممه الا ساعات حتى أودى بحياته وكان له من العمر خمس وخمسون سنة ، وأوصى بأن يدفن في البهنسا وذكر الجبرتي انه لما وصل الى قرب قناطر شبرامنت جلس على ربوة هناك وزادت هواجسه وآلامه وأخذ يودع احلامه وآماله ثم تحرك به خلط دموى وتقيا دما وأحس بدنو أجه فقال « قضى الامر وخلصت مصر لمحمد على » مات الالفى في الوقت الذى كان الانجليز يسرون حملتهم على مصر ، وقد وصلت هذه الحملة الى الاسكندرية بعد موته بنحو اربعين يوما ، وقد يكون موته من اسباب اخفاق تلك الحملة كما سيجى ، وبموته تخلص محمد على من الداعدائه واقواهم بأسا وأصعبهم مراسا

(١) اعتمدنا في هذا التاريخ على رواية الجبرتي ، وهى تختلف قليلا عن رواية المسيو مانجان الذى جعل تاريخ الوفاة ٣٠ يناير

الحملة على المماليك في الصعيد

قضى الالفى نجبه في الوقت الذى كان محمد على باشا يجهز تجريدة لمحاربة المماليك في الوجه القبلى ، فلما أعد معدات الحملة بدأ بالزحف ، وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان وست سفن مسلحة ، وأقلت الحملة نحو ثمانمائة مركب ، واصيب محمد على هو أيضا بالكوليرا لكن طبيبه الخاص عنى به أحسن العناية وتغلبت بنية القوية على المرض فشفى منه وكان في أيام مرضه موضع العطف من العلماء والاعيان ، فلما دنته وانتهى اعتزم السير الى الصعيد فعهد بإدارة الامن الى كتخده وغادر القاهرة يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٧ . (١)

وعلم ان قوات المماليك احتشدت في المنيا فقصده اليها بجيشه ولما وصل الى بنى سويف ارسل الى زعماء المماليك رسلا من العلماء يسعون للصلح ، وكانت تلك خدعة منه ، واخذ في الوقت نفسه يجتذب اليه بعض العربان الموالين للمماليك ويستميلهم بالمال ، ثم تقدم ذات ليلة الى معسكر المماليك ولما كانت حراسته موكولة الى اولئك العربان توصل اليه بارشادهم فانتقض على المماليك وهم نائمون فأوقع بهم واستولى على كل مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين منهم الى حدوده الصحراء وبعد ان هزمهم بالقرب من اسيوط احتل المدينة واتخذ معسكر فيها ، وهناك تلقى أخبار الحملة الانجليزية

(١) مانيجان تاريخ مصر في حكم محمد على جزء ١ ص ٢٦٧

الفصل الثانى

الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ واخفاؤها

لم تسكد مصر تنجوا من خطر رجوع الممالك الى الحكم حتى واجبت أزمة أشد واعظم خطرا ، وهى الحملة التى جردتها عليها انجلترا سنة ١٨٠٧ لاحتلالها وتحقيق مطامعها فى وادى النيل

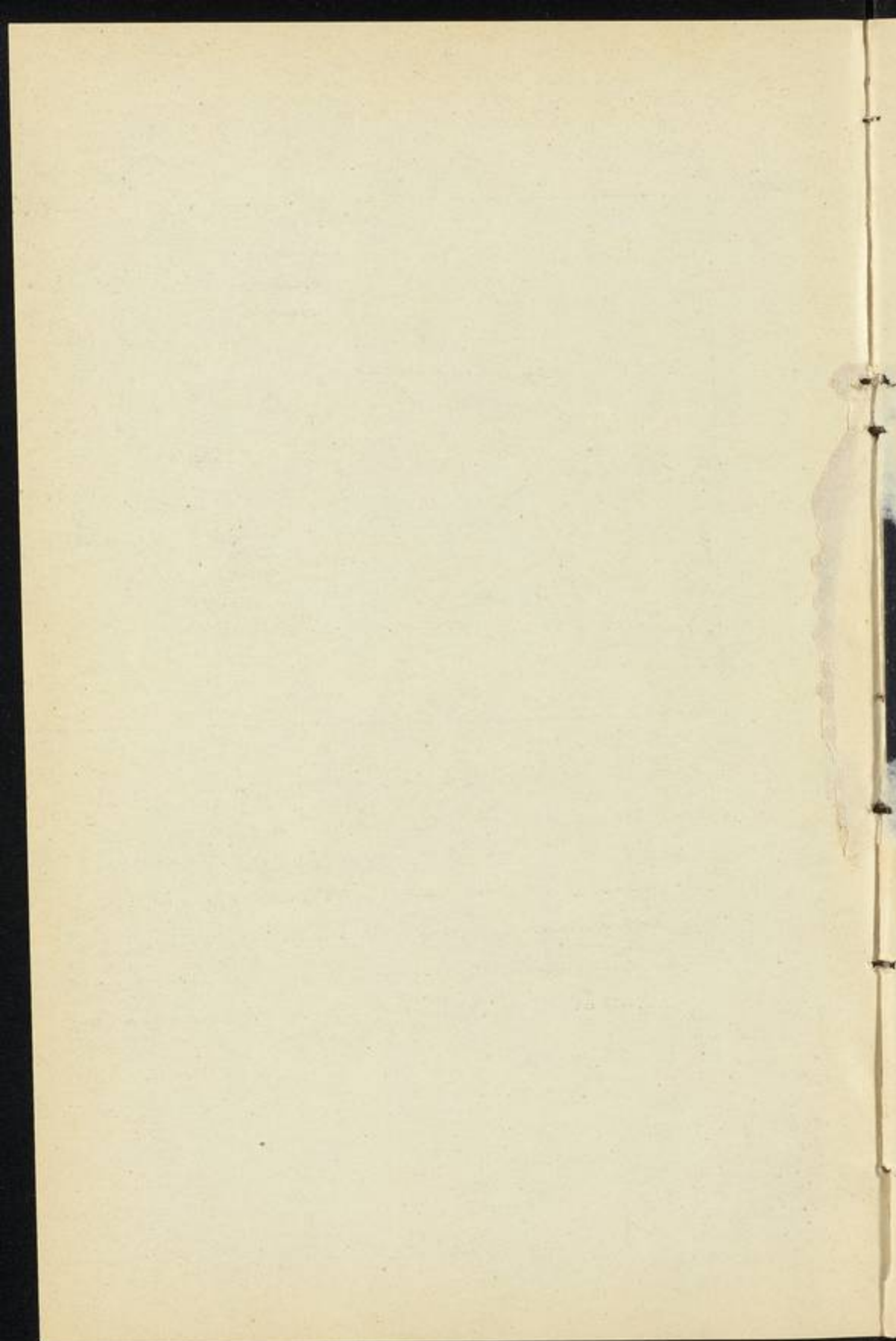
أسباب الحملة

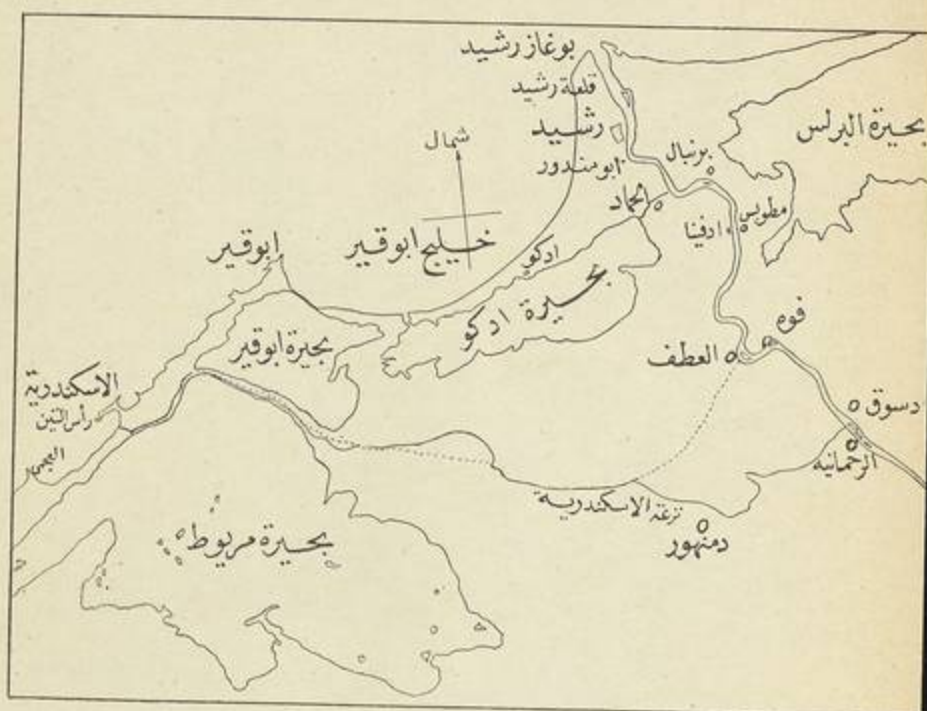
ترجع اسباب تلك الحملة الى انتفاض العلاقات بين انجلترا وتركيا وما اعتراهما من الجفاء والعداء لانحياز تركيا الى جانب فرنسا ، فنقمت انجلترا من الحكومة التركية تلك السياسة واتفقت هى والروسيا على السكيد لهما ، وساءت العلاقات بين الدولتين حتى انتهت باعلان الحرب بينهما ، ودخل الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال دو كورث (Duckworth) بوغاز الدردنيل واعتزمت انجلترا ان تضرب تركيا فى مصر فتتال بذلك غرضين وهما اذلال تركيا من جهة وتحقيق اطماعها فى مصر من جهة أخرى

حالة الافكار فى القاهرة والاقالم

جردت انجلترا حملتها على مصر بقيادة الجنرال فريزر ، وكانت على اتفاق مع محمد بك الالفى أن يؤيدها ويشد أزرها على ان تكفل للمالك الاستيلاء على حكومة البلاد

لكن مصر لم تستسلم لتلك الغزوة ، بل قاومتها بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وظهرت الامة بذات الروح التى نهضت بها بازاء الحملة الفرنسية أى بروح المقاومة والبذل والتضحية والدفاع والمحاماة عن الذمار حتى انتهت الحملة بالخيبة والفشل جاءت مصر أخبار الحملة الانجليزية قبل قدومها ، وعلم الناس بها من الرسائل لواردة من الاستانة ، فأخذوا يعدون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية





خريطة مواقع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

وترى فيها البلاد والمواقع التي ورد ذكرها في الفصل الثاني ، والجهات التي
مرت بها الحملة منذ نزول الجنود الانجليزية بشاطئ العجمي (غربي الاسكندرية)
الى هزيمتهم في رشيد والحماة ، والخريطة مرسومة حسب تخطيط سنة ١٨٠٧ ،
ونجد بها ترعة الاسكندرية التي كانت موجودة في ذلك العهد وانشئت مكانها
ترعة المحمودية سنة ١٨١٩ وقد اشرنا الى تخطيطها في الخريطة بخط منقوط

مقابل ص ٤١

التي تقدمتها بنحو عشر سنوات ، وتولى السيد عمر مكرم زعامة المقاومة الشعبية بما عهد فيه من شجاعة وحزم وإخلاص

ذكر الجبرتي حالة البلاد قبيل مجيء هذه الحملة فقال في حوادث ذى الحجة سنة ١٢٢١ (فبراير سنة ١٨٠٧) « شرع أهل الاسكندرية في تحصين قلاعها وإبراجها وكذلك أبو قير ، وأرسل كتحدا بك (نائب محمد علي باشا) من يتقيد ببناء قلعة بالبرلس ، وحصل بمصر قلق ولغط ، وغلت الاسعار في البضائع المحلوبة وعملوا جمعيات في بيت كتحدا بك وبيت السيد عمر النقيب واتفقوا على ارسال تلك المراسلات الى محمد علي باشا بالجهة القبلية صحة ديوان افندى (سكرتيره) »

أقبلت العازة الانجليزية الى مياه الاسكندرية في شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، فأرسل السعاة أخبار مجيئها الى القاهرة ، وكان محمد علي باشا غائبا عنها يقاتل المالك في الصعيد ، فلما استفاضت أخبارها هاجت الخواطر وقلق الناس ، واجتمع ولاية الامور يتشاورون فيما يجب عمله للدفاع عن البلاد

قال الجبرتي « فلما وصلت تلك المكاتبات اجتمع كتحدا بك وحسن باشا وبونا بارتة الخازندار وطاهر باشا والدقردار والروزنامجي وباقي أعيانهم ، وذلك من الغروب ، وتشاوروا في ذلك ، ثم اجمع رأيهم على ارسال الخبر بذلك الى محمد علي باشا يطلبونه للحضور هو ومن بصحبته من العساكر ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام ، ففعلوا ذلك وانصرفوا الى منازلهم بعد حصّة من الليل ، وأرسلوا تلك المكاتبه اليه في صبح يوم الجمعة صحبة هجانين ، وشاع الخبر وكثر لغط الناس في ذلك »

قلنا ان الحملة الانجليزية جاءت على اتفاق سابق مع الالفى زعيم المالك ، لكن الاقدار الالهية قضت ان يموت الالفى قبل ان تهبط الحملة الى مصر ، ولو أنها تقدمت في مجيئها أربعين يوما فجاءت والالفى على قيد الحياة وحوله تلك الألوف من المقاتلة لكان محتملا ان يتحول مجرى الحوادث في مصر ، بيد أنها وصلت

تعد موت الالفى وتشتت انصاره وانفراض جيشه ، فكان ذلك من الاسباب
التي هيأتها العناية الالهية بجانب المقاومة التي أبدتها مصر لاختراق هذه الحملة

مجيء العمارة الانجليزية

فى أوائل مارس سنة ١٨٠٧ اقبلت سفينة انجليزية الى مياه الاسكندرية
دون أن تخبر بالاسباب حضورها، ولعلها كانت سفينة استطلاع لتعرف الحلة فى الثغر، فلما
كان يوم ١٤ مارس جاءت سفينة حربية أخرى واستدعت القنصل الانجليزى (١)
فلبى الدعوة ومضى مسرعا لمقابلة من فيها ، ولم يكده يعود الى الثغر حتى يادر
بانفاذ عدة من السعاة يحملون رسائل الى جهات بعيدة ، وقد ظن الاهالى انها
مرسلة الى الرعايا الانجليز لاستدعائهم الى الثغر ، ولكن تبين بعد ذلك انها مرسلة
الى البكوات المماليك فى الصعيد لاختبارهم بقرب وصول الحملة البريطانية واستدعائهم
الى الوجه البحرى ، فدلّت هذه الرسائل على أن الحملة الانجليزية جاءت باتفاق
سابق مع الالفى على أن يمدّها المماليك بما لديهم من الرجال والعتاد

قال الجبرتي فى هذا الصدد « وبعد موت الالفى بنحو الاربعين يوما وصلت
نجدة الانكليز الى ثغر الاسكندرية وطلعوا اليها فبلغهم عند ذلك موت المذكور ،
فلم يسهل بهم الرجوع فأرسلوا الى الجماعة المصريين (يريد المماليك) ظانين ان
فيهم أثر الهمة والنجدة يطلبونهم للحضور ويساعدونهم الانكليز على ردهم لمملكتهم »
وقال فى موضع آخر ما خلاصته « ان هذه الطائفة من الانكليز ومن انضم اليهم
وعدهم على ما قيل ستة آلاف لم تأت الى الثغر طمعا فى أخذ مصر (١) بل كان
ورودهم ومجيئهم مساعدة ومعونة للالفى على اخصامه باستدعائهم واستنجاههم ،
وسبب تأخرهم فى الحىء لما كان بينهم وبين العثماني من الصلح ، فلما وقعت النفرة
بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وارسلوا هذه الطائفة ، وكان الالفى ينتظر حضورهم
بالبهيرة ، فلما طال عليه الانتظار وضائق عليه البهيرة ارتحل بجيوشه مقبلا وقضى

(١) هو المايجور ميسست Missel وكان قنصلا اما لانجلترا فى مصر

الله بموته باقليم الجزيرة، وحضر الانكليز بعد ذلك الى الاسكندرية فوجدوه قد مات، فلم يسعهم الرجوع فارسلوا الى الامراء القبلين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ويقولون لهم انما جئنا الى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الألفى قد مات وهو شخص واحد منكم وانتم جمع فلا يكون عندكم تأخير في الحضور فانكم لا تجدون فرصة بعد هذه وتندمون بعد ذلك ان تلتكأتم»

يتبين من ذلك ان الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ كانت باستدعاء الألفى واتفاقه مع الانجليز على احتلال البلاد، وهذا يؤيد الحقيقة التي بسطناها في الجزء الثاني وهي ان المماليك كانوا صنائع السياسة الانجليزية وظلوا صنائعها الى أن استراحت البلاد منهم، ولعلك لاحظت في رواية الجبرتي قوله ان الانجليز لم يأتوا الى الثغر طمعا في أخذ مصر الخ... وهو قول من لم يدرك كنه السياسة الانجليزية، والجبرتي معذور في عدم ادراك حقيقة مقاصدها، فلم يكن قد بلاها، ولا عرف أسرارها، وهو في انخداعه بها أحق وأولى بالمعذرة ممن توهموا سنة ١٨٨٢ أى بعد نيف وسبعين عاما من هذه الحوادث ان الانجليز جاءوا مصر للدفاع عن عرش الخديوية المصرية، وكان عليهم أن يفهموا انهم انما جاءوا ليحتلوا البلاد ويبدطوا نفوذهم وسيطرتهم فيها

احتلال الاسكندرية

في يوم ١٦ مارس عادت السفينة الانجليزية تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الاخرى والقت مراسيها بالميناء الغربية، ونزل منها ضابطان طلبا مقابلة محافظ الثغر في ذلك العصر، واسمهما امين اغا، وهو من ضباط الاسكندرية وكان متواطئا مع الانجليز أن يسلم لهم المدينة على رشوة من المال، قال المسيو مانجان في كتابه ان الانجليز قد اشتروا امين اغا هذا بالمال، والذي أعطاه هذا المال هو قنصل انجلترا، فلما قابله الضابطان النازلان من العمارة الانجليزية اتفق معهما على ان يسلم المدينة

دون مقاومة ، ثم لم يكبد يطلع يوم ١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الانجليزية مؤلفة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الاميرال لويس Lewis وسدت مدخل الميناء الغربية ، وفي مساء ذلك اليوم أخذ جنود الحملة ينزلون الى البر بشاطئ العجى ، ثم زحف الانجليز على الاسكندرية وعسكروا تحت اسوارها ، وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة (أبو قير) شرق الاسكندرية ، وانقضى يومان في مفاوضات صورية بينهم وبين أمين اغا محافظ المدينة انتهت بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه حامية المدينة وعددها نحو ثلثمائة مقاتل ، ودخل الانجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس دون ان تطلق رصاصة واحدة

هذا ما فعله أمين اغا محافظ الاسكندرية في ذلك العهد ، ولعلك تذكر موقف السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى حين مجىء حملة نابوليون سنة ١٧٩٨ ومبلغ شجاعته في مقاومتها (١) وتقابل بين موقفه النبيل ونخرا (أمين اغا) في استسلامه للحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ ، وأمين اغا هو من ضباط الاستانة لان الحكومة التركية كانت تعد الاسكندرية الى ذلك العهد تابعة لها مباشرة فكانت تعين حاكمها ، وأما السيد محمد كريم فقد كان في عهد الحملة الفرنسية حاكم المدينة الوطنى ، فتقابل بين موقف الحاكم الوطنى وشجاعته وجبن ضابط الاستانة ونذالته تجدد الفرق بين الاثنين عظيما

استولى الانجليز اذن على الاسكندرية دون حرب ولا قتال ، لكن الجبرى فى ايراده اخبار تلك الحملة ذكر فى يوميات شهر محرم سنة ١٢٢٢ ورود انباء من الاسكندرية بوقوع قتال « وضرب بالمدافع الهائلة من البحر وهدم جانب من البرج الكبير وكذلك الابراج الصغار » ، وكل ذلك لم يكن سوى اشاعات باطلة كانت ترسل الى القاهرة فيتناقلها الناس كما تروج الاشاعات الكاذبة أثناء الحروب ثم لا تلبث ان ينكشف بطلانها ، والواقع انه لم يحصل ضرب بالمدافع

(١) انظر الجزء الاول الفصل الخامس

الهائلة ولاهدم جزء من البرج الكبير او الابراج الصغيرة، والجبرتي كان يذ كر كل الاشاعات التي ترد أثناء وقوع الحوادث الخطيرة التي يدونها فقد ذكر ايضا انهم «اشاعوا ان الاسكندرية ممتنعة على الانكليز وانهم طلعوا الى رأس التين والعجمي فخرج عليهم أهل البلاد والعساكر وحاربوهم وأجلوهم عن البر ونزلوا الى المراكب مهزومين وحرقوا منهم مراكبين وانه وصلت اليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربوهم في البحر واحرقوا مراكبهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ولم يبق منهم الا القليل»

ولم يكن شيء من ذلك صحيحا ولا قريبا من الواقع، بل كله مكذوب وكان مصدره الاشاعات الباطلة أو كما يقول الجبرتي بعد ذلك «واستمر الامر في هذا الخلط القبلي والبحري عدة أيام ولم يأت من الاسكندرية سعاة ولا خبر صحيح» وبعد ان أورد الجبرتي تلك الاشاعات ذكر انه في ٢٠ محرم وردت الاخبار الصحيحة بأخذ الاسكندرية واستيلاء الانكليز عليها يوم الخميس تاسع الشهر ودخلوها وملكوا الابراج يوم الاحد صبيحة النهار وسكن صارى عسكرهم بوكالة القنصل «فالجبرتي في ايراده (الاخبار الصحيحة) لم يذ كر انه حدثت حرب او قتال ولا ضرب بالمدافع الهائلة ولا هدم للابراج، وهذا يؤيد المصادر الصحيحة التي اتفقت روايتها على أن استيلاء الانجليز على الاسكندرية قد تم من غير مقاومة بفضل خيانة أمين اغا كانت الحملة الانجليزية مؤلفة من نيف و ٦٠٠٠ مقاتل (١) بقيادة الجنرال فريزر Fraser ويتألف هذا الجيش من فرقتين الاولى بقيادة الجنرال ستوارت Stuart والاخري بقيادة الجنرال ويكوب Wacop

ولعلك تعجب كيف جازف الانجليز بهذا العدد الضئيل في الحملة على مصر في حين أن نابليون بونابرت لم يقدم على غزوها الا بجيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ من المقاتلة وعمارة من أعظم الاساطيل البحرية، ولكن هذه الدهشة لا تلبث ان

(١) اعتمدنا في هذا الاحصاء على الوثيقة رقم ٢٠ من وثائق الحملة الانجليزية التي أخرجتها الجمعية الجغرافية في كتاب (مصر وانجلترا - حملة سنة ١٨٠٧) للمسيو دوان

ترزول اذا علمت ان الانجليز كانوا يظنون انهم لا يجدون في مصر مقاومة ذات شأن بسبب الاضطرابات التي مزقت شملها ، وكانوا من جهة أخرى يعتمدون على قوات المماليك في مصر ، ولذلك لم يصحبوا معهم قوة من الفرسان اكتفاء بما يظهرون به صنائعهم المماليك ، وكانوا يعتقدون انهم لا يلبثون ان يطأوا أرض مصر حتى يسارع اليهم المماليك من انحاء البلاد لملاقاتهم والانضمام اليهم ، فلما دخلوا الاسكندرية ولم يروا لهم أثرا أرسل اليهم القنصل الانجليزى يطلب من زعمائهم الحضور ليلتقوا بمنقذهم وحماتهم

ولما بلغت القاهرة أنباء احتلال الاسكندرية احدثت انزعاجا كبيرا بين الناس وخاصة لما علموا ان محافظ الثغر قد سلم المدينة بدون قتال ، فأخذ زعماء الشعب يجتمعون ويتشاورون فاستقر رأيهم على أن يدعوا الشعب الى التطوع لصد الانجليز عن البلاد

موقف المماليك

وكان محمد على لم يزل بالصعيد يقاتل قوات المماليك ، فلما جاءته الانباء الاولى عن الحملة توجس خيفة منها واعتزم العودة الى القاهرة ، على أنه قابل الخبر برباطة جأش ، وعهد الى الدهاء في كسر حدة المماليك ليضمن عدم انحيازها الى صفوف الانجليز ، ففاوض زعماءهم في ابرام الصلح معهم ، وكانت شروطهم لقبول الصلح ان يترك لهم حكم الوجه القبلى ، وقد وجد محمد على ان الضرورة السياسية تقتضى المهادنة معهم حتى يدفع خطر الحملة الانجليزية ، فقبل منهم هذا الشرط على أن يؤدوا له خراج الصعيد وعلى أن يكونوا الى جانبه في محاربة الانجليز ، فرضى المماليك بهذا الشرط ، ولو كان الالفى بك على قيد الحياة لما رضى به ، ولكن خلفاءه لم يكونوا مرتبطين مع الانجليز بمثل الروابط والعهود التي قطعها الالفى على نفسه ، فضلا عن أنهم خشوا اساءة سمعتهم واتهامهم بالخيانة اذا هم انضموا الى الانجليز أعداء مصر والاسلام فقبلوا أن يحالفوا محمد على ، ولم يكونوا صادقين في التحالف ، بل كانوا يضمرون ان يتربصوا حتى تنكشف نتائج الحملة الانجليزية ، فان هوى فازت انحازوا اليها وان

أصابها الفشل فهم على تحالفهم مع محمد على ، كذلك كان شأنهم في كل عهد أن يكونوا مع الغالب ، على أن هذا الموقف في ذاته قد افاد قضية مصر لأنه حرم الانجليز عضدا قويا كانوا يعتمدون عليه في حملتهم
اخلى اذن محمد على الصعيد ، وسار بجنوده الى القاهرة فاحتل الممالك عواصم
الوجه القبلى وتقدموا الى الجيزة

واقعة رشيد

وهزيمة الانجليز فيها

٣١ مارس سنة ١٨٠٧ (٢١ محرم سنة ١٢٢٢)

كانت خطة الانجليز في القتال ان يزحف الممالك على القاهرة فيحتلوها ، وان يحتل الانجليز بمعاونة اسطولهم ثغور مصر ويزحفوا الى الداخل ويسيطروا ايديهم على حكومة البلاد مستعينين بصنائعهم الممالك
وقد تلقى الجنرال فريزر وهو بعد في الاسكندرية تقريراً من المستر بتروتشى Petrucci فنصل انجلترا في رشيد عن حالة مصر واحصاء ما بها من القوات ، فاهم النظر في هذا التقرير ودرس الموقف بمقدار ما بلغ اليه علمه ، ثم اعترى الزحف على رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية يتزود منها الجيش ومنها يزحف الى داخل البلاد ، وعهد بهذه المهمة الى الجنرال ويكوب وأنفذه اليها في قوة من ٢٠٠٠ من الجنود تحرك هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٢٩ مارس قاصدا رشيد ، فكان تحت اسوارها في اليوم التالى ، وأخذ يتأهب لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس

كان محافظ رشيد وقتئذ يدعى على بك السالانكلى ، وهو رجل شجاع ثاقب النظر يختلف كثيراً في اخلاقه عن أمين اغا حاكم الاسكندرية ، وتحت أمره نحو سبعمائة جندي ، فعزم على مقاومة الجيش الانجليزى معتمدا على قوة الحامية وعلى مشاركة الاهالى في الدفاع عن المدينة ، ولأجل أن يبعث الحمية في نفوس جنوده ويحملهم على الاستبسال في القتال أمر بابعاد مرآكب التعدي الى البر الشرقى

للنيل حتى لا يجد رجال الحامية وسيلة الى الارتداد اذا حدثتهم نفوسهم ان يسلموا كما سلمت حامية الاسكندرية ، فلما تم له نقل جميع المراكب وشعر الجنود والاهلون عند اقتراب الجيش الانجليزى ان البحر من ورائهم ، والعدو من امامهم ، صحت عزيمتهم على المقاومة الى النهاية ، وأمر على بك ان تراجع الحامية الى داخل المدينة وان يعتصموا هم والاهلون بالمنازل مستعدين للضرب وألا يبدؤوا بحركة ما الا عند ما تصدر لهم الاشارة باطلاق النار

فتقدم الانجليز ، ولما لم يجدوا أثرا للمقاومة خارج البلد اعتقدوا ان حاميها قد اعتزمت اخلاءها وتسليمها محتذية بما فعله أمين اغا محافظ الاسكندرية ، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين ، وكانوا قد أعياهم السير فى الرمال من الاسكندرية الى رشيد ، فانتشروا فى الطرق والاسواق يرتادون أمكنة يلجأون اليها ويستريحون فيها ، ولكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار وتشتمل المدينة عليهم حتى أصدر على بك أمره باطلاق النار ، فاقترحمهم الرصاص من كل صوب ، وأخذ الاهلون يطلون النار من النوافذ والسطوح ، فذب الرعب فى قلوبهم ، وسقط الكثيرون منهم صرعى فى الشوارع ، فقتل الجنرال ويكوب برصاصة أردته ، وقتل الكثير من ضباطه ، فاستولى الذعر على نفوس الانجليز ولاذوا بالفرار ، وانتهت الواقعة بهزيمة الجيش الانجليزى وارتداد الأحياء منه عن رشيد فى حالة يأس وفشل ، فتقهقروا الى الاسكندرية بطريق أبوقير وبلغ عدد القتلى منهم فى هذه الواقعة نحو ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ من الجرحى وأسر المصريون منهم ١٢٠ أسيرا

رواية الجبرتى عن واقعة رشيد

ذكر الجبرتى عن واقعة رشيد ما يأتى

« فى يوم الجمعة رابع عشرين محرم سنة ١٢٢٢ وردت اخبار من ثغر رشيد يذكر ان بان طائفة من الانكليز وصلت الى رشيد فى صباح يوم الثلاثاء حادى عشر منه (أى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧) ودخلوا الى البلد وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالارقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل

البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من الاسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة واسروا الباقين وفرت طائفة الى ناحية دمنهور^(١) وكان كاشفها عند ما بلغه ما حصل يرشيد اطمأن خاطره ورجع الى ناحية ديبه ومحلة الامير وطلع بمن معه الى البر فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم واخذ منهم اسرى وارسلوا السعاة الى مصر بالبشارة فضربوا مدافع وعملوا شنكا »

نصيب المصريين في المعركة

كان لاهالى رشيد النصيب الاوفر في هزيمة الجيش الانجليزى ، لان حاميتها العسكرية كانت من القلة بحيث لا تستطيع ان تصد الجيش الزاحف ، وقد سبق لنا القول ان اخبار الحملة الانجليزية قد استفاضت في مصر قبل مجيئها وعلم الناس بأمرها من الرسائل الواردة من الاستانة واخذت الثغور تستعد لمقاومتها ولم يقبل الاهلون في رشيد أو غيرها أن يطلبوا المدد من جنود القاهرة لما اشتهروا به وقتئذ من النهب والسلب اذ كان معظمهم من الارناء ودو الدلالة واخلط السلطنة العثمانية ، فأثر الاهالى أن يتولوا الدفاع عن المدينة بأنفسهم واحتملوا معظم العبء في المقاومة والقتال ، قال الجبرتي في هذا الصدد « وفي يوم الثلاثاء ٧ محرم سنة ١٢٢٢ (١٧ مارس سنة ١٨٠٧) عملوا جمعية ببیت القاضي حضرها المشايخ والاعيان وذكروا أنه لما وردت الاوامر بتحسين الثغور ارسل الباشا (محمد على) سليمان اغا ومعه طائفة من العسكر وارسل الى اهالى الثغور والمحافظين عليها مكاتبات بانهم ان كانوا يحتاجون الى عساكر فيرسل لهم الباشا عساكر زيادة على الذين ارسلهم ، فاجابوا بان فيهم الكفاية ولا يحتاجون الى عساكر زيادة تأتيهم من مصر فانهم اذا كثروا في البلد يأتى منهم الفساد والافساد ، فعملوا هذه الجمعية لاثبات هذا القول »

(١) اهل الصواب أبو قور

يتبين من ذلك أن الاهالى أبوا أن يطلبوا النجدة من العسكر توقيا لما يقع منهم من الفساد وانهم وطنوا النفس على تحمل اعباء القتال بانفسهم ، ومما يؤيد تلك الحقيقة ان وقائع الحملة تدل على أن الحاميات العسكرية قد فر معظمها من الميدان ولم تواجه الجيش الانجليزى ، فقد مر بك ما فعله ادين اغا حاكم الاسكندرية وحامية المدينة من التسليم ، وكذلك فعلت حامية دمهور فانها لما بلغت اخبار احتلال الانجليز الاسكندرية اخلت دمهور وانسحبت الى فوه ، وحاول الديموريون أن يثبؤهم عن عزيمتهم وحرضوهم على البقاء بالمدينة لمقاومة الانجليز ، فابوا الا الحرب وارسل الاهالى الى السيد عمر مكرم ينبئونه بفرارهم ، قال الجبرتي فى هذا الصدد « وفى ١٢ محرم سنة ١٢٢٢ ورد مكتوب من أهلى دمهور خطابا الى السيد عمر النقيب مضمونه أنه لما دخلت المراكب الانكليزية الى اسكندرية هرب من كان بها من العساكر وحضروا الى دمهور فعندما شاهدتهم الكاشف (الخاكم) الكائن بدمهور ومن معه من العسكر انزعجوا انزعجا شديدا وعزموا على الخروج من دمهور ، فخطبهم اكابر الناحية (الاعيان) قائلين لهم كيف تتركوا نداولتدهبون ولم تروا منا خلافا وقد كنا فيما تقدم من حروب الالفى من أعظم المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا فى حروب الانكليز ، فلم يستمعوا لتوهم لشدة ما داخلهم من الخوف وعجبوا متاعبهم واخرج الكاشف اثقاله وجبخته ومدافعه وتركها وعدى وذهب الى فوه من ليلته ثم أرسل ثلثى يوم فى خذ الاثقال ، فهذا ما حصل أخبرناكم به »

يفتح مما تقدم أن النصر فى معركة رشيد يرجع الى الاهالى وانهم هم الذين احتملوا معظم اعباء الجهاد وأبلوا أحسن بلاء فى الدفاع عن المدينة

نتائج واقعة رشيد

كان لموقعة رشيد تأثير كبير فى تطور الاحوال ، لان هذا النصر المبين قد ملاً قلوب المصريين حماسة وغفرا ، وضعضع الهيبة التى كانت للانجليز فى نفوس الناس ،

تلك الهيبة التي جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسى فى مصر وعلى الاساطيل الفرنسية فوق ظهر البحار، فلا غرو أن يبعث هذا النصر الى نفوس الشعب روح الثقة، ويحفزه الى الاستمرار فى المقاومة، ولقد كان لهذه الواقعة فى نفوس الممالك تأثير بالغ فأنها كانت لهم صدمة شديدة اضعفت أملهم فى نجاح الحملة الانجليزية وجعلتهم ينكمشون فى معاندهم بالوجه القبلى، وبالتالي جعلت الجيش الانجليزى لا يتوقع المعاونة التي كان ينتظرها منهم، فكل هذه الاعتبارات جعلت لواقعة رشيد من الاهمية شأنها بالغاً فى قيمته وخطره

وقد بادر على بك حاكم رشيد بعد الموقعة الى إنفاذ الاسرى الانجليز الى القاهرة ومعهم رؤس قتلاهم ليكون ذلك اعلاناً للنصر الذى نالته رشيد ثم ليعتد هذا المنظر فى نفوس الجنود والشعب روح الأمل والثقة، وكان يوم حضورهم يوماً مشهوداً

قال الجبرتي فى وصفه ما خلاصته

« فلما كان يوم الاحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ (ابريل سنة ١٨٠٧) اشيع وصول رؤس القتلى ومن معهم من الاسرى الى بولاق فهرع الناس الى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم الى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا بهم الى البر وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال (ضابط) كبير وآخر كبير فى السن وهما راكبان على حمارين والبقية مشاة فى وسط العسكر ورؤس القتلى معهم على نيايت وعدتها أربعة عشر رأساً، والأحياء خمسة وعشرون، ولم يزلوا سائرين بهم الى بركة الازبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم الى القلعة وفى يوم الاثنين وصل أيضاً جملة من الرؤس والاسرى الى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأساً، وثلاثة عشر أسيراً وفيهم جرحى »

حالة الشعب النفسية

وتطوعه للقتال

تسكلمنا عن نصيب أهل رشيد في المعركة التي دارت رحاها في شوارعها وفيما حلق بالجيش الإنجليزي من الهزيمة ، ولقد بدت على سكان القاهرة تلك الروح التي تجلت في أهل رشيد ، فمئذ أن وردت أنباء المعركة الأولى استنفرت الشيوخ وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم أهل القاهرة الى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد في حث الناس على الجهاد ، فاستجابوا للدعوة راضين واقبلوا على التطوع مختارين

فضل السيد عمر مكرم

أخذ المتطوعون يذهبون في صبيحة كل يوم الى أطراف المدينة يعملون في حفر الخنادق واقامة الاستحكامات شمالي القاهرة لصعد الانجليز اذا جاءوا بطريق شبرا ، وبادروا الى العمل في ذلك وسارعوا الى الاستعداد للقتال وعلى رأسهم السيد عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار ثم يعودون الى أعمال معاشهم عند الظهور

وظهرت العاصمة بتلك الروح التي تجلت فيها قبيل معركة الاهرام سنة ١٧٩٨ وفي خلال ثورة الشعب على خورشيد باشا سنة ١٨٠٥ ، قال المسيو مانجان في هذا الصدد يصف ما شاهده

« كان السيد عمر مكرم يذهب في صبيحة كل يوم يتبعه الجماهير الى حيث يشتغل العمال في اقامة الاستحكامات ، وكثيرا ما يبقى هناك النهار كله في خيمة أعدت له ، وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة في نفوس الناس جميعا ، وقد بذل كل انسان ما في وسعه لاقامة الاستحكامات (١) »

(١) تاريخ مصر في حكم محمد علي ، جزء ٢ ص ٢٧٩

وقال الجبرتي يصف عمل السيد عمر مكرم

« وفيه - يوم ٢٦ محرم - نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد في الانكليز حتى مجاورى الازهر وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك القاء الدروس »

فتأمل دعوه الجهاد التي بثها السيد عمر مكرم والروح التي نفخها في طبقات الشعب ، فانك لترى هذا الموقف مماثلا لموقفه عندما دعا الشعب الى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الاهرام ، ثم تأمل في دعوته الازهريين الى المشاركة في القتال ، تجد انه لا ينظر اليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الذمار أيضا ، فعملهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم

وقال الجبرتي في موضع آخر يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة للتشاور فيما يجب عمله .

« وفي يوم الثلاثاء حصلت جمعية بيت القضاى وحضر حسن باشا وعمر بك والدقردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الامير وبقى المشايخ فتكلموا في شأن حادثة الانكليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فانهم اعداء الدين والملة ويجب ان يكون الناس والعسكر على حال الالفة والشفقة والاتحاد وان تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالايذاء كما هو شأنهم وان يساعد بعضهم بعضا على دفع العدو ، ثم تشاوروا في تحصين المدينة وحفر خنادق ، فقال بعضهم ان الانكليز لا يأتون الا من البر الغربى والنيل حاجز بين الفريقين ، وان الفرنسيون كانوا أعلم بأمر الحروب وأنهم لم يحفروا الا الخندق المتصل من باب الحديد الى البحر (النيل) فينبغى الاعتناء باصلاحه ولو لم يكن كوضعهم واتقانهم واتفقوا على ذلك »

وقال في موضع آخر « وفي يوم الاربعاء ٢٩ محرم ركب السيد عمر النقيب والقاضى والاعيان المتقدم ذكرهم ونزلوا الى ناحية بولاق لترتيب امر الخندق

المذكور وصحبته قنصل الفرنسية وهو الذي أشار عليهم بذلك ، وصحبتهم الجمع الكثير من الناس والاتباع والكل بالأسلحة »

وقال عن اشتراك طبقات الشعب في حفر الخندق المذكور وإقامة الاستحكامات بما بلغ اليه جهد كل مطيق : « وشرعوا في حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخازنات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجي وجعلوا على البعض اجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض اجرة خمسين وعشرين ؛ كذلك أهل بولاق ونصاري ديوان المكس (الجرك) والنصاري والاروام والشوام والاقباط واشتروا المقاطف والغلقان والفوس والقزيم وآلات الحفر وشرعوا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية »

وقد حدثت كل هذه الاستعدادات ومحمد علي باشا لم يزل غائبا بالصعيد ، وهذا يدل على أن الشعب كان متطوعا من تلقاء نفسه للقتال عازما على الحرب والمقاومة كما كان شأنه عند مجيئ الحملة الفرنسية ، أما قنصل فرنسا الذي أشار اليه الجبرتي فهو المسيو دروقي وكان في الاسكندرية عندما جاءت العمارة الانجليزية ، فعادر الثغر مخافة أن يقع أسيرا في يد الانجليز لما كان بين انجليز وفرنسا من العداء المستحكم في ذلك الحين ، فرحل من الاسكندرية الى رشيد ومنها انحدر الى القاهرة فاشترك في تنظيم وسائل الدفاع عنها

ولم يقتصر تطوع سكان القاهرة على الدفاع عن العاصمة بل هبوا لنجدة اخوانهم أهل رشيد ، وذلك أنه على الرغم من ردهم الجيش الانجليزي الاول فانهم استهدفوا لزحف الجيش الانجليزي الثاني الذي جاء ليمحو أثر الواقعة الاولى ، فحضر الحصار على رشيد ، وركب المدافع على آكام ابني مندور التي تتسلط عليها ، واخذ يضر بها بالمدافع مهيذا للهجوم عليها وفتحها عنوة ، وقد تهدم كثير من بيوتها ومات كثير من أهلها من ضرب المدافع وتساقط القنابل ، فأرسل السيد حسن كريت نقيب اشراف رشيد الرسائل الى السيد عمر مكرم يستنجده ويطلب اليه امداد المدينة بالرجال والعتاد ، فقرأ السيد عمر الرسالة الاولى على الناس وحضهم على

التطوع لنجدة رشيد ، فاستجابوا وتطوعوا وحملوا السلاح وأزمعوا السفر لنجدة اخوانهم ، وبالرغم من أن (كمتخدا بك) لم يأذن لهم بالسفر حتى يحضر محمد علي باشا من الصعيد فإن كثيرين منهم لم يعبأوا بهذا المنع وارتحلوا لنجدة أهل رشيد في صد الجيش الانجليزي

وتطوع كذلك اهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد واقبلوا عليها يدافعون عنها ، فكان ذلك مظهرا جليلا من مظاهر التضامن القومى والاشتراك فى حمل اعباء الجهاد ، واتحاد الكلمة فى ساعة الخطر ، وفداء كل موضع فى البلاد بكل فرد من أهل البلاد

قال الجبرتي « وفى يوم الخميس غاية محرم ورد مكتوب من السيد حسن كريت فقيب اشرف رشيد والمشار اليه بها (أى كبير أعيانها) يذكر فيه ان الانكليز لما أوقع بهم برشيد ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية استعدوا وحضروا الى ناحية الحماة قبلى رشيد ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر (النيل) الى الجبل عرضا ، وذلك ليلة الثلاثاء ثامن عشر ربه ، فهذا ما حصل اخبرناكم ، ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال والجوخانة والعدة والعدد وعدم التأخر والاهمال ، فلما وصل هذا الجواب قرأه السيد عمر النقيب على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد ، فامتلأوا ولبسوا الاسلحة ، وجمع اليه طائفة المغاربة واتراك خان الخليلي وكثيرا من العدوية والاسيوطية واولاد البلد ، وركب فى صبحها الى كمتخدا بك واستأذنه فى الذهاب فلم يرض وقال حتى يأتى افندينا الباشا (محمد على) ويرى رأيه فى ذلك ، فسافر من سافر ، وبقي من بقي »

وقال فى موضع آخر « وفى يوم السبت ثمانى صفر (١١ ابريل سنة ١٨٠٧) وردت مكتابة أيضا من ثغر رشيد وعليها امضاء على بك السلانكلى حاكم الثغر وظاهر باشا واحمد اغا المعروف ببونا بارت بمعنى مكتوب السيد حسن السابق ويذكرون فيه ان الانكليز ملكوا أيضا كوم الافراح وأبو منصور ويستعجلون النجدة ، وفى خامس صفر وردت مكتابة من رشيد عليها امضاء السيد حسن كريت

يخبر فيها بان الانكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون البلد بالمدايع والقنابر، وقد تهدم الكثير من الدور والابنية ومات كثير من الناس، وقد ارسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الاعانة والنجدة فلم تسعفونا بارسال شىء، وما عرفنا لآى شىء هذا الحال، وما هذا الاهال، فالله الله فى الاسعاف، فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المراقبة والسهرة على المتاريس ونحو ذلك من الكلام وهى خطاب للسيد عمر النقيب والمشايخ ومؤرخه فى ثانى صفر ٢٢ »

معركة الحماة

(٢١ ابريل سنة ١٨٠٧)

كانت واقعة رشيد ضربة شديدة اصابها الجيش الانجليزى ، فاراد الجنرال فريزر ان يحجو أثر الهزيمة التى حاقت به فى تلك الواقعة ، واعترم تجريد جيش آخر يستأنف الزحف على رشيد وعهد بقيادته الى الجنرال ستوارت وفى غضون ذلك وصل محمد على باشا الى القاهرة عائدا من الصعيد فبلغها ليلة ١٢ ابريل سنة ١٨٠٧ (٣ صفر سنة ١٢٢٢) (١) فاطلع على الانباء الواردة عن هزيمة الانجليز فى رشيد ، فاطمان نفسا وفى الحالة أقل خطورة مما كان يتوقع ، على أنه لم يركن الى ما حدث فى تلك الموقعة ، ورأى بثاقب نظره ان الانجليز قد يستأنفون القتال والزحف ليستردوا هيبتهم الضائعة ، فبادر الى تجريد جيش أنفذه لمحاربتهم وصدهم عن التقدم ، وأتم عمل الاستحكامات التى بدى بها قبل حضوره ، وواصل العمل فى حفر الخنادق بين باب الحديد وبولاق لاقامة خط الدفاع عن القاهرة من الشمال ، وشق أخاديد امام الخنادق تتصل بالنيل لتمتلى بالمياه وتعرقل تقدم الجيش الانجليزى ، واغرق عدة من المراكب بين جزيرة بولاق والشاطىء لمنع مرور السفن الانجليزية فى النيل اذا جاءت من رشيد ، ونصب

بطاريات من المدافع في شبرا وامبابه وجزيرة بولاق ، واشترك العلماء والشعب في العمل بحماسة وغيرة وحمية .

وأخذ يدبر المال اللازم لنفقات الجيش ، وعاونه السيد عمر مكرم والعلماء في جمع ما يستطيع تدبيره من المال فجمعوا تسعمائة كيس من سكان العاصمة خصصوها لنفقات الزحف

وتم تجهيز الحملة ، فكانت مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة والف من الفرسان ، وسارت قاصدة الى رشيد بقيادة طوبوز اوغلي (١) أما جيش الجنرال ستوارت فكان عدده نحو أربعة آلاف مقاتل مجهزين بالمدافع والاسلحة والذخائر

تحرك هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٣ ابريل زاحفا على رشيد ، ولما صار على مقربة منها أنفذ الجنرال ستوارت كتيبة منه احتلت (الحامد) التي تقع جنوبي رشيد بين النيل وبحيرة ادكو (٢) ، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشيد ، ومنع وصول المدد اليها من الجنوب ، وحماية ساقية الجيش الانجليزي واحتل الانجليز أيضا آكام أبي مندور ، وركبوا عليها المدافع ليضربوا رشيد بالقنابل ، وعسكر معظم الجيش غربي رشيد وجنوبها وأخذ يحاصرها (٧ ابريل) ويضربها بالمدافع .

كان الانجليز يظنون ان ضرب المدينة بالمدافع يلقي الرعب في نفوس الحامية والاهالي ، ويضطرهم الى التسليم ، وقد اندروهم غير مرة بأن يسلموا المدينة ، ولكنهم رفضوا ، وكان انتصارهم السابق في واقعة رشيد قد بعث في نفوسهم الحمية والحماسة ، فصمموا على الاستبسال في الدفاع عن مدينتهم ، وبالرغم مما أحدثته القنابل من تخريب البيوت وقتل العدد الكثير من السكان فانهم صابروا وصبروا

(١) هو ككتخدا بك اى نائب محمد علي ، ويسميه الجبرتي (دبوس اوغلي) ، وهو جد حسين رشدي باشا أحد رؤساء الوزارة السابقين

(٢) انظر موقعها بالخرطة الملحقة بهذا الفصل

واحتملوا هذه الشدائد بشجاعة وربة جأش ، وكانوا يخرجون من المدينة من آن
لاخر لمناوشة القوات الانجليزية ، واستمر الضرب والحصار نحو اثني عشر يوما
دون أن يفوز الانجليز بطائل .

كتب الجنرال ستوارت في رسالة له الى الجنرال فريزر يقول (١)

« ان ما أنبأتموني به من قرب حضور الماليك جعلني أترى في الهجوم على
رشيد ، لقد ألقينا بالمدينة اضرارا كبيرة ، وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع
البعيدة المرمى وحدها ٣٠٠ قنبلة ، على أنه قد تبين لنا أن الأعداء لا يكتفون
بالمصائب التي تنزل بهم ، ان قواتهم لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان ،
٨٠٠ من الارنؤوط ، والف من الأهالي المسلحين ، ولكن نظرا لسعة خطوط
دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل اقتحام المدينة ، وان نجاحنا
معلق على نجدة الماليك ، فاذا جاءوا اليها أمكننا أن نرسل الى البر الشرقي من
الذيل قوة تشترك في القتال ، اما الآن فيستحيل علينا ذلك لأن العدو متفوق
علينا في قوة الفرسان ، وليس لدينا مثل هذه القوة التي لها عمل كبير في الجهات
المنبسطة كجهات الدلتا ، وفي انتظار تلك النجدة يتبين لنا مبلغ أهمية موقعنا في
(الحماة) فاننا نتوقع أن يهاجمنا الأعداء فيها ، وسنبذل كل جهودنا لاستبقائنا في يدنا »
كان الانجليز ينتظرون اذن ان ينجدهم الماليك ، ولكن هؤلاء أخذوا
يسوفون ويماطلون في الوفاء بعهدهم ، ويرقبون تطور الحوادث ، ثم تخلوا عن
حلفائهم لما رأوا من حرج مركزهم

وفي غضون ذلك أخذ الأهالي يناوشون مواقع الانجليز في الحماة ، فأنفذ
اليها الجنرال ستوارت مددا من الجنود ، وركب المصريون أيضا مدفعين على الشاطئ
الشرقي وأخذوا يلقون القنابل على يمينة الجيش الانجليزي بالبر الغربي ، فاجتاز
الماجور ماكدونالد Macdonald النهر عند مسجد أبي مندور (١٦ ابريل) ومعه

(١) وثائق الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ للمسير دوان وثيقة رقم ٤٦

قوة من ٢٥٠ جنديا واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ثم تلقى المصريون مددا فعاد ماكدونالد ادراجته الى البر الغربي واستمر الضرب والحصار الى أن جاء المدد الذي أرسله محمد علي باشا بقيادة طوبوز اوغلي ، فتغير الموقف الحربى تغيرا جوهريا

كان هذا المدد مؤلفا من فرقتين ، الأولى يقودها طوبوز اوغلي نفسه بالبر الشرقى للنيل ، والاخرى بقيادة حسن باشا بالبر الغربى ، وكانت الفرقتان تسير كلتاهما حذاء الأخرى على الشاطئين ، فلما جاءتا على مقربة من رشيد عسكرت فرقة حسن باشا بالبر الغربى تجاه (الحمد) ، وعسكرت الاخرى فى (برنبال) بالشاطئ الشرقى ، وكان جنود الفرقتين يشاهد بعضهم بعضا

ففى صبيحة ٢٠ ابريل تقدمت طلائع الجيش المصرى من الفرسان (من فرقة حسن باشا) نحو مواقع الانجليز فى الحمد ، والتقت بكتيبة منهم وسط المزارع ، فازاد هؤلاء الارتداد الى القرية ، ولكنهم لم يحكموا انسحابهم وأحاط بهم فرسان الجيش المصرى فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين

فلما علم الجنرال ستوارت بهذا الاصطدام الأول أنفذ الكولونل ماكلود MacLeod ومعه مدد من الجنود والمدافع الى (الحمد) لتثبيت مركز الانجليز فيها ، وعهد اليه بقيادة القوة المرابطة بها

كان موقع هذه القرية على جانب كبير من الاهمية ، وعليها يدور محور القتال ، لانها واقعة فى برزخ بين النيل وبحيرة ادكو ، وفى شمالها ترعة كانت فى ذلك الحين جافة تصل من النيل الى قرب البحيرة ، فلو أن الانجليز أحكموا الدفاع عن موقعهم بها لأمكنهم أن يسدوا الطريق أمام الجيش المصرى فلا يستطيع اجتياز ذلك البرزخ ولا الوصول الى رشيد ليمدها بالنجدة

رتب الكولونل مواقع جنوده ليدافع بهم عن هذا البرزخ ، وكان عددهم ثمانمائة مقاتل ، تركيز ميسرتهم الى النيل بقيادة الماجور وجلسند Wogtsand ، وميمينهم قرب بحيرة (ادكو) بقيادة الكابتن تارلتون Turlton ، والقلب فى

قرية الحماة بقيادة المايجور مور Moor ، أما جمهرة الجيش الانجليزى فرابطت حول رشيد لحصارها

وانقضى يوم ٢٠ ابريل وموقع الانجليزى فى الحماة لم يستهدف فى الظاهر للخطر ، وكان الكولونل ماكلود مطمئنا الى مركزه ، لكن الجنرال ستوارت لاحظ حينما فتش خط الدفاع فى الحماة (ليلة ٢١ ابريل) انه لا يحمى فى بعض جهاته ضغط قوات الجيش المصرى اذا تكاثرت عددها ، فعهد الى الكولونل ماكلود أن يستبسل فى الدفاع عن مواقعه قدر ما يستطيع ، وفى حالة تكاثرت قوات الفرسان المصريين فعليه أن يرتد الى شاطئ البحيرة ، فاذا لم يستطع ذلك فليترجع الى مواقع الجيش الانجليزى الذى كان يحاصر رشيد

وأدرك الجنرال ستوارت أن القوات المصرية بعد أن جاءها المدد صارت أكثر عددا من الجيش الانجليزى ، فارتأى أن ينتظر الى اليوم التالى (٢١ ابريل) واعتزم اذا لم تصله النجدة من المالك أن ينسحب من الحماة ويرفع الحصار عن رشيد ويتراجع الى الاسكندرية

أما طوبوز اوغلى ، قائد الجيش المصرى ، فانه كان الى ذلك الوقت مرابطا فى برنبال بالبر الشرقى ، وتردداً فى أى طريق يسلكه ، هل يذهب رأساً لنجدة رشيد ليرفع الحصار عنها ، أم يهاجم أولا موقع الانجليزى فى الحماة ، الى أن تشجع بالنصر الذى ناله فرسان حسن باشا بالبر الغربى فى الاصطدام الاول ، فاعتزم اتباع الخطة الاخيرة ، فعبر النيل ليلا بجنوده ، وأقلتهم المراكب الى العدو اليسرى ، وانضموا الى فرقة حسن باشا تاهبا لمهاجمة الحماة فى صبيحة الغد (٢١ ابريل)

وفى الصباح شاهد الكولونل ماكلود قوات الجيش المصرى قد تكاثرت عددها ، وامتلا السهل برجالها ، فأرسل من فوره الى الجنرال ستوارت ينبئه الخبر ويطلب اليه أن يقره على الانسحاب الى مواقع الجيش الانجليزى حول رشيد ، فبعث اليه ستوارت يقره على خطته ، ويمده بفصيلة من الجند ، ولكن الرسول لم يصل الى الحماة ، وكذلك لم ينجى المدد ، لأن فرسان الجيش المصرى قد انسابوا

في السهل وقطعوا المواصلات بين الحماد ورشيد ، فاعتزم ماكلود الانسحاب من خط دفاعه ، ولكنه لم يحكم خطته ، وتفرقت قواته ، فتمكن فرسان الجيش المصري من الانقضاض عليها واحدة اثر أخرى في الوقت الذي احتل فيه المشاة المصريون قرية الحماد

تعقب الفرسان القوات الثلاث ، فأحاطوا بقوة القلب وكان معها الكولونل ماكلود ، وانهال عليها الرصاص من كل صوب فقتل معظم رجالها وقتل من بينهم الكولونل ماكلود نفسه

وأحاطوا كذلك بالمينة فقتل قائدها السكابين ترلتون ومعظم جنودها ، ولم ينج من القتل سوى خمسين وقعوا في الأسر

أما الميسرة فقد قاومت قليلا ، وأحاط بها الفرسان من كل جانب ، فلم ير قائدها الماجور وجلسند بدأ من التسليم ، فسلم هو والبقية الباقية من الانجليز ، وكان ذلك ختام المعركة

بدأت الواقعة الساعة السابعة صباحا ، واستمرت ثلاث ساعات حتى فيها وطيس القتال ، وانتهت بهزيمة الجيش الانجليزي الم رابط في الحماد ، ولم ينج منه أحد ، فن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر ، وبلغت خسارته نحو ٤١٦ من القتلى و ٤٠٠ أسير كان الجنرال ستوارت مرابطا أثناء الواقعة جنوبي رشيد ومعه بقية الجيش الانجليزي ، فلما أدرك عظم النكبة التي حلت بقواته في الحماد سارع الى رفع الحصار عن رشيد وبادر الى الانسحاب قبل أن ينقض عليه الجيش المصري ، فأتلف مدافعه التي لم يستطع حملها وتراجع الى طريق ابو قير يجر أذيال الخيبة والهزيمة وبالرغم من كتمان تدابير الانسحاب فان أهالي رشيد والبلاد المجاورة تعقبوه في انسحابه الى أن وصل الى بحيرة ادكو وجرت مناوشات على شاطئ البحيرة بينه وبين المصريين انتهت بارتداد هؤلاء ومواصلة الانجليز الانسحاب حتى بلغوا ابو قير ومن هناك استقلوا السفن الى الاسكندرية

رواية الجبرتي عن معركة (الحماد)

قال الجبرتي عن معركة الحماد ما يلي

« في يوم الخميس ١٤ صفر حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الانجليز وهزيمتهم ، وذلك انه اجتمع الجمل الكبير من أهالي البحيرة وغيرها وأهالي رشيد ومن معهم من المتطوعة والعساكر ، واهل دمنهور ، وصادف وصول كتخدا بك واسماعيل كاشف الطوبجى الى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة واسروا من الانكليز طائفة وقطعوا منهم عدة رؤوس ، نخلع الباشا (محمد على) على الساعيين جوختين ، وفي أن ذلك وصل أيضا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر ، وبالفاء الأخبار وان الانكليز انجلوا عن متاريس رشيد وابى منصور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم الى أن توسطوا البرية وغنموا جباياتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين » وقال في موضع آخر يصف تطوع المصريين في القتال بعد معركة رشيد الاولى ونصيبهم في معركة الحماد وما أبلاوا فيها من البلاء الحسن ، وكيف غمط حقهم بعد ذلك ولم يعرف فضلهم في الجهاد والفوز :

« وكذلك أهل البلاد قويت هممتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة ، واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد ، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق واعلاما ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء ، وخرجوا في مواكب وطبول وزمور ، فلما وصلوا الى متاريس الانكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم ، وصدقوا في الحملة عليهم ، والقوا أنفسهم في النيران ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى ابطلوا رميهم ونيرانهم ، فالتقوا سلاحهم ، وطلبوا الامان فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والرؤوس على الصورة المذكورة وفر الباقون الى من بقى بالاسكندرية ، وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب

اليهم فضل ، بل نسب كل ذلك للبasha وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاء
بعد ذلك »

تأثير معركة الحماة في الموقف الحربى

كانت معركة (الحماة) هزيمة ساحقة للانجليز ، فلأت نفوس المصريين
عزما ونفرا وثقة ، وأسقطت هيبة الجيش الانجليزى وخاصة لما جمع كتحدا بك
اسراهم وشحنهم فى المراكب الى القاهرة ليتحقق الناس عظم النصر الذى أدركه
الجيش المصرى .

وصل أولئك الاسرى الى بولاق يوم ٢ صفر سنة ١٢٢٢ (٢٩ ابريل سنة ١٨٠٧
فسيقوا من بولاق الى الازبكية ومنها الى القلعة ، وعددهم ٤٨٠ أسيرا وفى مقدمتهم
من قواد الجيش الانجليزى الماجور مور ، والماجور وجلسند ، وكان يوم حضورهم
يوما مشهودا احتشدت فيه الجماهير من سكان العاصمة على جوانب الشوارع
والطرقات لرؤية منظر الأسرى وطيف برؤوس القتلى الانجليز ليراها الناس على
الطريقة التى كانت مألوفا فى ذلك العصر فبلغ عددها ٤٥٠ رأسا

اما الجنرال فريزر فقد أسقط فى يده بعد هزيمتى رشيد والحماة ورأى من العيث
ان يعاود القتال ، فامتنع بالاسكندرية واخذ فى تحصينها ، وبعث بالرسل الى
زعماء المماليك يذكرهم بوعود الألفى ويناشدهم العهود ويحرضهم على امداده
ومعاذته ليواصل القتال ويعيدهم الى دست الاحكام ، ولكن المماليك لما
علموا بما حل بالانجليز من الهزيمة صموا آذانهم عن الاستجابة لطلب الجنرال
فريزر وظلوا بعيدين عن غمرات القتال

ولكى يأمن الجنرال فريزر على نفسه قطع سد ابو قير لتطنى مياه بحيرة
ابو قير على مريوط وتحيط المياه بالاسكندرية من جميع الجهات ، وهذه هى المرة
الثانية التى قطع فيها الانجليز هذا السد ، وكانت المرة الاولى سنة ١٨٠١ حينما

حاربوا الجنرال منوفارادوا أن يحصره في الاسكندرية فقطعوا السد (١) ولا يخفى أن قطع السد يتلف ترعة الاسكندرية فيمنع وصول مياهها الى الثغر ويخرب بلادا كثيرة في جهات مريوط ، فالانجليز قد تسببوا في هذا الخراب مرتين وأخذ محمد على يعد العدة للزحف على الاسكندرية واجلاء الانجليز عنها ، ولم يكد يبدأ في انفاذ عزمه حتى جاءه بالقاهرة رسول من قبل الجنرال فريزر يحمل رسالة منه ، فظن أن هذه الرسالة خاصة بالأسرى الانجليز الذين في القلعة ، ففضها فاذا فيها طلب الجنرال فريزر المفاوضة في الصلح على أن يجلو الجيش عن الاسكندرية ، ولم يكن محمد على يتوقع جلاء الانجليز عن البلاد بهذه السهولة وهم الذين يتطلعون منذ سنوات عدة الى احتلالها وبسط نفوذهم عليها ويبدلون الجهود والوسائل لتحقيق اطاعتهم فيها ، فلم يغب عن محمد على ما بذله الانجليز من عهده الحملة الفرنسية لاحتلال مصر ولا مساعدتهم لدى الباب العالي ودسائسهم المستمرة لتولية صنائعهم الماليك حكم البلاد وخاصة محمد بك الالفي ، ولا تجريدكم تلك الحملة في هذا الغرض ، كل هذا لم يفت نظر محمد على الثاقب ، ولذلك لم يكد يصدق هذه الرسالة ، وحاول كتمان دهشته منها وابتهاجه لها ، وأجاب الرسول بأنه ذاهب بجيشه الى دمنهور ، وهناك سيبحث بجوابه الى الجنرال فريزر

والواقع أن انجلترا عازمت وقتئذ على العدول عن غزو مصر ، ولم يكن ذلك منها تورعا ولا عدولا عن تحقيق اطاعتها الاستعمارية في وادي النيل ، بل لأن السياسة في أوروبا كانت لا تمسكها من متابعة حملتها على مصر ، وذلك أن الصراع بينها وبين نابليون استحوذ وبلغ مبلغه في ذلك العهد ، وكان نابليون إذ ذاك في أوج قوته ومجده ، وقد دان له معظم القارة الأوروبية ، وعقد مع قيصر روسيا صلح (تلسيت) الشهير ، ذلك الصلح الذي وطد مركزه في أوروبا وضمن له صداقة القيصر ، فاستطاع أن يتفرغ لتوجيه قواته الهائلة لسحق انجلترا ، فرأت هذه أن تجمع قواها للدفاع عن جزيرتها ، وآثرت ألا تغامر بجيوشها في حملات

بعيدة وهى فى حاجة اليها ، ورأت من جهة أخرى بعد ما أصاب جنودها من الهزيمة والخذلان فى رشيد والحماد أن الحملة على مصر ليست مرجوة العواقب ، من أجل ذلك عدلت عن متابعة حملتها وارسلت تستدعى جيشها من الاسكندرية ، وامرت الجنرال فريزر بالاقلاع بجنوده الى صقلية ، ولا يعنى بهذا أنها تخلت عن مطامعها فى مصر ، بل رأت أن ترجىء تحقيقها الى أن تسنح فرصة أخرى ، وكذلك ظلت تضمر الشر لمصر وترقب الفرص الى ان كشرت عن نايها أثناء اشتداد الصراع بين مصر وتركيا سنة ١٨٣٩ فتدخلت فى المسألة المصرية وألبت الدول الاوروبية على مصر وحرمتها ثمرة انتصاراتها على الاتراك ، كما سيجى ، بيازه ، وظلت بعد ذلك تتحين الفرص لاحتلال البلاد حتى سنحت لها الفرصة سنة ١٨٨٢ أثناء الثورة العربية

ابرام الصالح وجلاء الانجليز عن البلاد

اعتزم محمد على اذن السفر الى دمنهور وسار بجيشه من معسكره فى امبابه الى الرحمانية ، ومنها الى دمنهور يوم ١٢ اغسطس سنة ١٨٠٧ (٧ جمادى الثانية) ، وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة آلاف من المشاة والفرسان مجهزين بمدفعية قوية ولما بلغ دمنهور التقى بالجنرال شيربروك Scherbrook الانجليزى الذى فوضه الجنرال فريزر فى الاتفاق على الصلح ، وهناك ابرم الطرفان المعاهدة^(١) ، وهى تقضى بجلاء الجنود الانجليزىة عن الاسكندرية فى مقابل استرجاعهم اسراهم وجرحاهم ، فبادر محمد على بانفاذ أمره الى القاهرة ليحمل الأسرى الانجليز على الفور ، وأخذ الجنرال فريزر يعد معدات الجلاء ويتسلم الأسرى ، وفى اليوم التاسع عشر من سبتمبر^(٢) تم جلاء الانجليز عن المدينة ، وتسلم الاسكندرية لطبوز اوغلى نيابة عن محمد على

(١) بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وقد نشر ناصها فى قسم الوثائق وثيقة رقم ١

(٢) اعتمدنا فى تاريخ هذا اليوم على الوثيقة رقم ١٢٩ من وثائق الحملة الانجليزىة

ثم اقلعت السفن البريطانية ذاهبة بجنود الحملة الى صقلية
قال الجبرتي « وفي يوم الاربعاء ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ وصل المبشرون
بنزول الانكليز من ثغر الاسكندرية الى المراكب ودخل اليها كتخدًا بك
(طبوز اوغلى) ونزل بدار الشيخ الميسرى »

وبذلك طويت صحيفة الاحتلال البريطاني الثانى (١)، فكانت مدته ستة أشهر
فتمل في هذا التاريخ ، سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وارجع معى بفكره الى اكثر
من مائة سنة خلت ، واعلم بأن انجلترا ما فتئت خلال هذه الاعوام الطوال ترقب
فريستها وتمحين الفرص لتحقيق مطامعها القديمة في بلادنا العزيزة ، وما زالت تدبر
الذرائع وتخلق الحوادث وتنصب الشباك حتى استطاعت بعد خمس وسبعين سنة
من جلائها عن البلاد أن تحتلها سنة ١٨٨٢ ، ومن غرائب القدر أن يكون جلاء
الانجليز في الاحتلال الثانى كان في شهر سبتمبر سنة ١٨٠٧ ودخولهم القاهرة في
الاحتلال الثالث كان في شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فما اعظم الفرق بين التاريخين ،
فالاول يذكرنا بيوم سودد ونفار ، والثانى يثير في نفوسنا لوعة الأسى والاحزان

كانت الاسكندرية خلال السنوات السبع الماضية في عزلة عن القطار المصرى
بعيدة عن نفوذ محمد على ، ذلك أن الباب العالمى كان يعتبرها تابعة مباشرة لحكمه
ولم يكن للولاة ظل من النفوذ فيها ، فبقيت على هذه الحال الى أن جلا الانجليز
عن البلاد وسار محمد على اليها ، فكان هذا الجلاء فرصة سعيدة لبسط نفوذ
الحكومة المصرية على ربوعها ، ودخلها محمد على لأول مرة بعد جلاء الانجليز وكان
يوما مشهودا اطلقت فيه مدافع القلاع والابراج ابتهاجا بانضمام الاسكندرية الى
جامعة الوطن

(١) سميانه الثانى تميزه عن الاحتلال الاول الذى وقع سنة ١٨٠١ في اواخر عهد
الحملة الفرنسية واستمر بعد انتهائها الى سنة ١٨٠٣ (راجع الجزء الثانى ص ٣٣١) ،
والاحتلال الثالث الذى رزئت به البلاد سنة ١٨٨٢ ولا تزال نعانيه الى اليوم (١٩٣٠)

عودة محمد على الى القاهرة

ظل محمد على في الاسكندرية الى أن غادرها وسار برا الى رشيد ليصحبه حسن باشا ، ومن هناك انحدر في النيل الى القاهرة ، وفي طريقه اليها انقلب به مركبه أمام (وردان) فاجتاز النهر سباحة وواصل سفره راكبا جواده ، فكبا به الجواد على غير عادته وسقط على الأرض ، فتطيرت حاشية الباشا من الحادثتين ، ثم وصل محمد على الى القاهرة وبلغها في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٧

قال الجبرتي في هذا الصدد « في ثالث شعبان سنة ١٢٢٢ (٦ أكتوبر سنة ١٨٠٧) وصل الباشا الى ساحل بولاق ، فضر بوا لقدمه مدافع من القلعة ، وعملوا له شنكا ثلاثة أيام ، واتفق ان الباشا في حال رجوعه من الاسكندرية نزل في سفينة صغيرة وصحبته حسن باشا طاهر وسليمان اغا الوكيل سابقا فانقلب بهم وأشرف ثلاثتهم على الفرق وتعلق بعضهم بحرف السفينة فلحقهم مركب أخرى أنقذتهم من الفرق وطلعوا سالمين وكان ذلك عند زفينة (١) »

ولما بلغت أنباء الجلاء عن الاسكندرية الى الاستانة ابتهج السلطان محمود ابتهاجا عظيما لما كان بين تركيا وانجلترا من العداء في ذلك الحين ، فأرسل رسولا الى محمد على يظهر له ابتهاجه ويهدي اليه سيفا ثميناً وخلعة ، وكذلك أنعم على ابراهيم بك وطوسون بك وحسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك وعمر بك وصالح قوش بالرتب والخلع الثمينة .

وأعادت الحكومة التركية ابراهيم بك (باشا) الى مصر وكان بالاستانة رهينة حتى يؤدي محمد على الاربعة الآلاف كيس التي التزم بأدائها ، فطلعت الحكومة سراحه اعرابا عن ابتهاجها بانتصار الجيش المصرى

(١) على شاطئ النيل شمالى القناطر الخيرية من بلاد مركز قايموب وتسمى

وصفوة القول ان اخفاق الحملة البريطانية سنة ١٨٠٧ وهزائم الانجليز في رشيد والحماد هي صفحات مجد ونخار لمصر والمصريين

فتنة الجند واخمادها

سنة ١٨٠٧

كان محمد علي باشا معتزما بعد أن تخلص من الحملة الانجليزية ان يجرّد حملة على المماليك في الصعيد ليقضى على سلطانهم به ، لكنه علم وهو في الاسكندرية ان الجنود قد جنحوا في العاصمة الى التمرّد والفتنة ، فرأى أن يدع الحملة على المماليك حتى ينتهي من اخماد فتنة الجند

عاد الى القاهرة فطالعه الناس بالشكوى من مسلك الجنود واخلالهم بالنظام ، والواقع ان هؤلاء الجنود كان دأبهم النهب والسلب والعدوان على الناس وانتهاك الحرمات والاستهانة بالارواح والاموال

وكما كان للزعماء الشعبية الفضل الكبير في احباط الحملة الانجليزية كذلك كان لها الفضل في مناصرة محمد علي باشا ومعاونته على اخماد فتنة العسكر

كان أولئك الجند آفة على الامن والنظام ، وكذلك كانوا خطرا على استقرار محمد علي باشا في الحكم ، وقد تخلص من العناصر الأكثر نزوعا الى العصيان كالادلة مثلافاته بعد توليته حكم مصر سرح معظمهم وعهد الى فرقة من الارناءود ترحيلهم الى الحدود السورية ، وفي اثناء جلائهم عن البلاد نهبوا قرى الوجه البحري وعاثوا وأفسدوا ، لكن بقيت عناصر الارناءود من الجنود غير النظاميين وبقية من الدلاة نخل بالأمن وتنزع الى العصيان ، وكانوا كلما نجحوا في فتنة ازدادوا تمردا وطفيانا ، وكلما عادوا من حملة أو تجريدة جاسوا خلال القرى آخذين ماتصل اليه أيديهم بالنهب والسلب

وقد رأى محمد علي باشا من نزوعهم الى العسف والاعتداء وانسلاهم الى

الاريايف والعاصمة للنهب والفتك بالاهلين عقب حملة سنة ١٨٠٧ ما جعله يصمم
الرأى على تأديهم وكبح جماحهم ، فلما استقر به المقام فى القاهرة اعترم انفاذ هذا
العزم ، وكان ذلك عين الصواب لأن اولئك الجند قد تهادوا فى طغيانهم ولم يزعمهم
وازع من سلطة او نفوذ حتى تهددوا محمد على ذاته بالفتك به

ففى ٢٨ اكتوبر تجمهرت جموع حاشدة من الجنود الارناءود وذهبوا
بجمعهم وصخبهم الى سراى الباشا بالازبكية يطالبون برواتبهم المتأخرة ، فلم يجابوا
الى طلبهم ووعدوا بالدفع ، فلم يرضوا ، وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم على
ابواب القصر ونوافذه ، ولما نفدت ذخيرتهم نادوا من حيث أتوا ، ولم تمض ثلاث
ساعات على هذا التجمهر حتى جاء رهط آخر من الجنود الدلاة وخذوا حذو
الارناءوط فى ترمدهم وشغبهم ، ففرع الناس من هذه الفتنة وخشوا عواقبها واقفلوا
الدكاكين والاسواق ، وأغلقت ابواب الدروب والحارات من الغروب وسهروا
خلفها بالأسلحة ، فادرك محمد على خطر هذه الفتنة ، فاحتاط لنفسه قبل أن يصيبه
شرها ، وكان ذلك من دلائل فراسته وبعد نظره ، فان الجنود المتمردين كانوا قد
أجمعوا الفتك به فى سرايه بالازبكية ، وكانت هذه السراى مكشوفة للمتمردين ،
فعقد العزم على مبارحتها الى القلعة لانه رآها آمن مستقرا ومقاما

ففى اليوم التالى (٢٩ اكتوبر) انتقل ليلا مع صحبه المخلصين له الى القلعة
بعد أن نقل اليها أمتعته الثمينة وخزائنه التى كانت بسراى الازبكية ، وقد تم انتقاله
الى القلعة سرا بحيث لم يشعر به الجنود المتمردون ، فلما علموا بانخبر ثارت ثائرتهم
واقبلوا ينهبون سراى محمد على ، وتجمهروا فى انحاء المدينة واطلقوا ايديهم فى النهب
والسلب والاعتداء على الناس ، واستمرت الفتنة سبعة أيام حتى أنست الناس
الاحتفال بروية رمضان

استفحلت الفتنة واضطربت لها العاصمة وكادت تقضى على الأمن والنظام
فيها ، فتدخل السيد عمر مكرم والعلماء ، واجتمعوا غير مرة طورا فى القلعة ، وآونة فى

بيت السيد عمر مكرم ، وآنا في بيت السيد محمد المحروقي كبير التجار ، وبحشوا في خير الوسائل لاختاد الفتنة ، فاتفقوا رأيا على أن تؤدي الحكومة للجنود المتمردين جزءاً من رواتبهم المتأخرة قدره بألفي كيس ، ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا أن يتحمل الاهالي هذه الاتاوة الجديدة ، فوزعوها على التجار والملاك والصناع وأرباب الحرف ، واقنعوا المتمردين بالاخلاد الى السكينة مقابل هذا المبلغ من المال

فجريت الاتاوة ، ودفعت الجنود ، واستتببت السكينة مؤقتا على حساب الاهالي ، واعتزم محمد علي تلاءم خطورة هذه الفتنة أن يقتص من زعمائها ، فقرر نفى رجب آغا أحد رؤساء الجند الارناءد وأشدهم نزوعا الى العصيان ، وكان هذا الاغا يعمل من قبل في صفوف محمد بك الالفي رئيسا لقواته المشاة ، فلما مات الالفي جاء الى القاهرة يصحبه رهط من رجاله وأخذ يعيث فسادا ، فلما قرر محمد علي نفيه استكبر وأصر وأبى أن يذعن للامر ، وامتنع في باب الخلق ، وكادت تقوم في المدينة فتنة جديدة لولا أن تدخل في الامر عمر بك وصالح قوش من رؤساء الجند الارناءد ، فذهبا برباب آغا الى بولاق وانفذه الى دمياط فارتحل منها الى بلاده دلت هذه الفتنة على أنه مادام جيش الحكومة خليطا من تلك العناصر المتمردة النازعة ابدا الى الاخلال بالنظام فلا يستقر الامن في البلاد ، ولا تستقيم شؤونها ، ومن هنا خالجت محمد علي فكرة التخلص من الجنود غير النظاميين وانشاء جيش جديد أساسه النظام والطاعة للرؤساء ، وأخذ يتحين الفرص لانفاذ فكرته ، فكان من وسائل تحقيقها ارسال اخلاط الجيش غير النظامي الى الحملات البعيدة في الحجاز والسودان ، وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجيا تمهيدا لتأسيس الجيش المصري النظامي كما سيأتي بيانه

الفصل الثالث

اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان

الموقف السياسى

من الراجح أن محمد على باشا كان يميل فى ذات نفسه الى التخلص من الزعامة الشعبية التى أجلسه على قمة المجده ، لأن هذه الزعامة كانت فى السنوات الاولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصى عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة ، وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم أو تتحيمهم مساوئ الحكم ، ولانزاع فى أن هذا النوع من الرقابة لم يكن مألوفاً ولا سائغاً فى ذلك العصر ، ولئن كان محمد على مديناً للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيتها وتذليل العقبات التى اعترضته واحباط الدسائس والمؤامرات التى تدبر له ، فإن السلطة فى ذاتها من شأنها أن تطفى صاحبها وتززع به الى الاستبداد بالامر ، فمحمد على بعد أن استقر فى الحكم وثبتت قدمه طمعت نفسه الى الاستبداد وبدأ يشعر بالغضاظة من تدخل العلماء وأهل رأى فى شؤون الحكومة وسعيهم فى رفع المظالم عن الناس ، ومهما يكن هذا التدخل شرعياً ولا غبار عليه لصدوره من قوم بايعوا محمد على على الولاية بشرط أن يسير فى الحكم بالعدل والقسطاس ، فما لانزاع فيه انه كان يميل الى التخلص من هذه الرقابة باقصاء الزعامة الشعبية عن الميدان

كل هذا صحيح واقع لا ريب فيه ، ولكن من الحق أن نقول أيضاً ان الزعامة الشعبية هى التى هدمت سلطتها بيدها ، وأنها كانت تحمل فى عناصرها أسباب انحلالها ، ذلك أن زعماء الشعب لم يكونوا على وفق وتضامن وإخلاص متبادل ، فأخذت أسباب التنافس والتحاسد والمطامع الشخصية تفرق بينهم ، ودبت

في نفوس الكثيرين منهم عقارب الحسد لما ناله السيد عمر مكرم من المنزلة والرياسة، ومع أن عمر مكرم بلغ مكانته بجدارة واستحقاق لما له من فضل السبق في تكوين تلك الزعامة واقامتها على طريق السداد، ولما اشتهر عنه من الأمانة والحمة، والتعفف وعلو النفس، والبعد عن الصغائر ونزعات الهوى، فإن زملاءه في الزعامة قد حسدوه ونقموا عليه رياسته، فأخذوا يكيّدون له لاضعاف مركزه، والنيل من مكانته، ولم يجدوا سبيلا أقرب الى تحقيق غرضهم من التزلف الى محمد علي والوقفة بينه وبين عمر مكرم، فانتهازها محمد علي فرصة للتخلص من الزعيم الشعبي الذي كان لديه كالقريب العتيد على أعماله، ثم للتخلص كذلك من الزعامة الشعبية بجملتها مرة واحدة.

هذا هو السبب الجوهرى في تفكك عرا تلك الزعامة الشعبية وانحلالها، واذا تأملت فيما ذكره الجبرتي خلال يومياته رأيت أن أسباب التخاذل وتفرق الكلمة قد بدأت تعمل في تقويض دعائم تلك الزعامة من أواخر سنة ١٨٠٥، واستمرت تلك الاسباب تبدو حيناً وتختفى حيناً آخر الى أن بلغت مداها سنة ١٨٠٩، وانتهت بالوقعة بالسيد عمر مكرم ونفيه الى دمياط، وبنفاه واقصائه عن الميدان انهار ركن الزعامة الشعبية وهوى نجمها الساطع، وطويت صحتها الى حين

ومما يستوجب الدهشة والاسف ان التخاذل بين الزعماء بدأ لأسباب واهية ما كان يجدر ان تفرق بين قوم حملوا دوراً خطيراً في حياة مصر السياسية، فقد كان أول سبب لانقسامهم هو تراحهم على نظر أوقاف الازهر . . .

قال الجبرتي في حوادث رمضان سنة ١٢٢٠ (نوفمبر سنة ١٨٠٥)

« وفي هذه الايام وقعت بين أهل الازهر منافسات بسبب أمور واغراض نفسانية يطول شرحها، وتحزبوا حزبين حزب مع الشيخ عبد الله الشرفاوى وحزب مع الشيخ محمد الامير وهم الاكثر، وجعلوا الشيخ الامير ناظراً على الجامع (الازهر) وكتبوا له تقريراً بذلك من القاضى وختم عليه المشايخ والشيخ السادات والسيد

عمر افندي النقيب ، وكانت النظارة شاغرة من أيام الفرنسيين ، وكان يتقلدها أحد الأمراء (المماليك) فلما خرج الأمراء من مصر صارت تابعة لمشيخة الأزهر لوقت تاريخه ، فأنفعل لذلك الشيخ الشرقاوى «

مخاض الزعماء وحالتهم النفسية

كان هذا الخلاف من الحوادث الجوهرية التي لفتت نظر الكتاب الأفرنج ممن تابعوا حوادث مصر في ذلك العصر ، فقد ذكره المسيو مانجان في كتابه بقوله :

« ان العلماء اختلفوا فيما بينهم على من يتولى النظر على أوقاف الأزهر وانقسموا فريقين فريق أراد أن يكون ذلك للشيخ محمد الأمير ، وفريق تحزب للشيخ الشرقاوى وطلب أن يكون النظر اليه ، وقد فاز الأمير وحزبه فتقرر له النظر » ثم أخذ هذا الخلاف يستفحل مع الزمن ، وسعى بعض الشيوخ البعيدين عن أسبابه ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن السجيني ، ان يحسموه خيفة أن يتصدع بناء الجماعة ، فدعاهم السجيني الى داره وأعد لهم وليمة يبتغى بها أن يزول ما في نفوسهم من أسباب الجفاء ، قال الجبرتي في حوادث صفر سنة ١٢٢١ (ابريل سنة ١٨٠٦) « وفي هذه الايام كان بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسنات وذلك في أوائل شهر رمضان سنة ١٢٢٠ ، وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتحدا ، فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجيني ابن الشيخ عبد الرؤوف عمل وليمة ودعاهم اليها فاجتمعوا في ذلك اليوم وتصالحو في الظاهر » فتأمل كيف كانت المنافسة بين الشيوخ والزعماء لاسباب شخصية واهية وهي التزاحم على مشيخة جامع أو ادارة أوقاف ، وتأمل في قول الجبرتي انهم حينما اجتمعوا على مائدة الشيخ السجيني تصالحو وكان صلحهم (في الظاهر) ، ومعنى ذلك انه لم يكن الا رياء ومداينة ، وبقيت السرائر على ما طويت عليه

لم يخف أمر هذا التنافس على محمد على ، بل لابد ان يكون قد ابتهج له في خاصة نفسه ابتهاجا عظيما ، وعزم على استغلاله لينفرد بالحكم ، ويتخلص من تلك الرقابة الشعبية ، وقد قويت فيه نغمة الانفراد بالحكم بعد اخفاق الحملة الانجليزية ، مما جعله ينزع الى الاستئثار بالحكومة والقضاء على كل سلطة تراقبه أو تعارضه ، وقد بدأ بالتخلص من الزعامة الشعبية لأن هذه الزعامة مرتكزة على أساس راسخ من التفاف الشعب حولها وصحة المبادئ التي تعمل لها

ومن الحق أن نقول انه لم يكن من بين زعماء الشعب من كان يحسب له حساب كبير مثل السيد عمر مكرم ، فانه الرجل الذي كان يتمثل فيه دائما تاريخ الثورة ، فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ، ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات ، وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتى آخر نسمة من حياته ، وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ، ولكن أغلبيتهم قد انصرفت الى أسباب المنافع ، والاستكثار من الاموال والضياع والدور والقصور ، وأخذوا يقلدون البكوات المماليك في البذخ والرفاهية ، فأذلهم الدنيا ، وضعفت نفوسهم أمام سلطة الحاكم ونفوذه

وكان محمد على عند فرضه الضرائب الجديدة على القرى والالتزامات قد راعى خاطر الشيوخ ليضمهم اليه ، فأعفى أملاكهم وضياعهم وما دخل في التزامهم من دفع ضريبة (المائض) ، وكذلك شمل بهذا الاعفاء أملاك من ينتمون اليهم ، فأغتر الشيوخ بهذا التمييز في المعاملة ، واكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين ، وداخلهم الطمع ، وتركوا الدنيا تفسد من طباعهم ، قال الجبرتي في هذا الصدد « وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدايسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء (المماليك) واتخذوا الخدم والمقدمين والاعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب وصار دينهم واجتماعهم ذكر الامور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى

والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات ... زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الامور وحفظ النفس على الاشياء الواهية »

وغنى عن البيان أن هذه الحالة النفسية التي وصفها الجبرتي قد أدت الى اضعاف مكانة الشيوخ وازالة هيبتهم من القلوب ، ومهدت السبيل لمحمد علي ليتسلم زمامهم ، لأنه يكفي أن يلوح لهم بمنفعة جديدة أو يتهدهم بحرماتهم من منفعة قائمة ليضمن ولائهم وموافقتهم ياد في كل ما يرغب عمله ، وكانت الحكومة في غضون ذلك تفرض ماشاء من الاتاوات والضرائب ، فطوراً تقرر الاستيلاء على نصيب من ايراد الملتزمين ، وتارة تقرر قروضا اجبارية تتركه عليها الملاك والتجار ، وكانت فيما تقررده تعفى الشيوخ من الاتاوات ، ولكنها قررت في أواخر اكتوبر سنة ١٨٠٧ ابطال هذا الامتياز وتعنيم ما تفرضه من الضرائب العقارية الجديدة على أطيانهم .

الخلاف بين محمد علي والسيد عمر مكرم

كانت الحكومة كلما احتاجت الى المال تفرض ضرائب واتاوات جديدة على الاطيان والمتاجر وغيرها ، فساءت الحالة الاقتصادية ، ووقع الضنك واشتد الضيق بالاهالى ، وكثرت هجرتهم من القرى ، وزاد الحالة حرجاً نقص النيل نقصاً فاحشاً في فيضان اغسطس سنة ١٨٠٨ ، فارتفعت الاسعار ، واشتد الغلاء ، وقلّت الغلال في الاسواق ، فلجأ الاهالى كعادتهم الى العلماء ، وهؤلاء كبا محمد علي في كثرة الضرائب وطلبوا اليه رفع تلك المظالم ، فغضب عليهم الباشا ، ونسب اليهم ظلم الاهالى لانه حينما اعفى أطيانهم من الضرائب الجديدة كانوا هم مع ذلك يقتضونها من الفلاحين ، وتهدهم بمراجعة ما نالهم من هذا الباب ، فقبلوا المراجعة ، وكان هذا الجدل نذيراً باشتداد الخلاف بين محمد علي باشا والعلماء ، واتفقوا على

اقامة صلاة عامة للاستسقاء ، وهي الصلاة التي تقام اذا ماشح النيل للدعاء الى الله
أن يرفع الكرب ويجري الماء

قال الجبرتي في هذا الصدد « فلما كان يوم السبت ٢٧ جادى الثانية
سنة ١٢٢٣ وخامس عشر مسرى القبطى نقص النيل نحو خمسة اصابع وانكشف
الحجر الراقد الذى عند فم الخليج تحت الحجر القائم ، فضج الناس ورفعوا الغلال من
الرقع والعربات والسواحل ، وانزعجت الخلائق بسبب شحة النيل فى العام الماضى
وهيئان الزرع وتنوع المظالم وخراب الريف وجلاء اهله ، واجتمع فى ذلك اليوم
المشايخ عند الباشا فقال لهم اعملوا استسقاء وأمرؤا الفقراء والضعفاء والاطفال
بالخروج الى الصحراء وادعوا الله ، فقال له الشيخ الشرقاوى ينبغي ان ترفقوا بالناس
وترفعوا الظلم ، فقال انا لست بظالم وحدى ، وانتم اظلم منى ، فاني رفعت عن حصتم
الفرض والمغارم اكراما لكم وانتم تأخذونها من الفلاحين ، وعندى دفتر محرر
فيه ماتحت ايديكم من الحصص يبلغ الفى كيس ، ولا بد أنى اخص ذلك ، وكل
من وجدته يأخذ الفرضه المرفوعة عن فلاحيه ارفع الحصه عنه ، فقالوا له لك ذلك ، ثم
اتفقوا على الخروج والسقيافى صباحها بجامع عمرو بن العاص لكونه محل الصحابة
والسلف الصالح يصلون به صلاة الاستسقاء ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون
اليه فى زيادة النيل ، وبالجملة ركب السيد عمر والشيخ واهل الازهر وغيرهم والاطفال
واجتمع عالم كثير وذهبوا الى الجامع المذكور بمصر القديمة ، فلما كان فى صباحها
وتكامل الجمع صعد الشيخ جاد المولى على المنبر وخطب بعد أن صلى صلاة
الاستسقاء ، ودعا الله وأمن الناس على دعائه وحول رداءه ، ورجع الناس بعد صلاة
الظهر وبات السيد عمر هناك ، وفى تلك الليلة رجع الماء الى محل الزيادة الاولى
واستقر الحجر الراقد بالماء ، وفى يوم الاثنين خرجوا ايضا ، و اشار بعض الناس
باحضار النصرارى ايضا ، فحضروا وحضر المعلم غالى ومن يصحبه من الكتبة الاقباط ،
وجلسوا فى ناحية من المسجد يشربون الدخان ، وانفض الجمع ايضا ، وفى تلك الليلة
التي هى ليلة الثلاثاء زاد الماء ونودى بالوفاء وفرح الناس ، وطلق النصرارى يقولون

ان الزيادة لم تحصل الا بخروجنا ، فلما كانت ليلة الاربعاء طاف المنادون بالرايات
الحمر ونادوا بالوفاء ، وعمل الشنك والوقدة تلك الليلة على العادة ، وفي صباحها
حضر الباشا والقاضي واجتمع الناس وكسروا السد وجرى الماء في الخليج
جريانا ضعيفا »

وبالرغم من جريان النيل فان الضائقة الاقتصادية لم تخف وطأتها ، وزادت
الحكومة في فرض الضرائب ، فازداد البؤس واشتد الضيق بالناس

ولما كانت سنة ١٨٠٩ قرر محمد علي باشا فرض ضريبة المال الميرى على
الاراضى الموقوفة ، وهى المعروفة بالرزق الاحباسية أى المرصدة على المساجد والسبل
والنخيرات ، وكذلك على اطيان الاوسية التى كانت ملكا خاصا للملتزمين ، وهذه
الاطيان كانت كلها معفاة من الضرائب ، وقرر كذلك فحص اطيان الرزق والاقواف ،
وطلب حججها ممن يتولون النظر عليها ، وأمر حكام الاقاليم (الكشاف) بالاستيلاء
على تلك الاطيان اذا لم يقدم اصحابها الى الديوان حجج إنشاء الوقف ، ومعنى
ذلك تمهيد السبيل لمصادرة معظم الاطيان الموقوفة ، لان الكثير منها قد تقادم العهد
على وقفه بحيث اصبحت حججه لا تنطبق عليه لتغير المعالم أو للتزاع فى
الاستحقاق ، وتحويل حكام الاقاليم امر فخصها معناه اطلاق يدهم فى الغاء ماشاءوا
من الاوقاف

وقررت الحكومة ايضا الزام جميع الملتزمين بان يؤدوا للحكومة نصف الفائض
لهم من الالتزام ، أى نصف الصافي من ايرادهم من الاطيان الداخلة فى التزامهم ،
ومعنى ذلك مقاسمة الملتزمين فى معاشهم

كانت هذه المحدثات سببا فى تبرم جمهور الملاك ونظار الاوقاف والمستحقين
والملتزمين ، وهم طبقة كبيرة من السكان ، ومنهم المحتاجون الذين لا يرتقون الا من
غلة الاوقاف الموقوفة عليهم من اسلافهم ، أو من ايراد الاطيان الداخلة فى التزامهم ،
فلا جرم أن تثير هذه المغارم فى نفوسهم عاصفة من الاستياء والسخط ، وان يجأروا
بالشكوى الى الشيوخ الذين هم ملجأ المظلومين فى ذلك العصر

وكان مفهوماً أن تكون هذه المحدثات سبباً لاشتداد الخلاف بين محمد علي باشا والسيد عمر مكرم ، لأنه لم يكن منتظراً أن يقره عليها ، وكان له من المفوذ على الجماهير ما يجعل احتجاجه بمثابة احراج لمركز الحكومة .

فاعتراض السيد عمر مكرم واحتجاجه كان أمراً ذا بال ، وله من العواقب في إثارة الشعب مالا يعزب عن البال ، وقد حدث ما كان منتظراً ، فاجتمع الناقدون على المحدثات الجديدة ، واتفقوا على أن يقصدوا إلى الأزهر لرفع ظلامتهم إلى الشيوخ والعلماء ، وحدث من قبيل المصادفات أن ولاية الشرطة اعتقلوا طالبا من طلاب العلم في الأزهر يمت بصلة القربي إلى أحد علمائه (السيد حسن البقلي) ، فتشفع العلماء في إطلاق سراحه ، فلم يقبلوا وأرسلوه إلى القلعة ، فجاءت هذه الحادثة سبباً جديداً لإثارة الخواطر فوق ثورانها بسبب الضرائب الجديدة .

ففي يوم السبت ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ (٣٠ يونيو سنة ١٨٠٩) بينما الشيوخ حاضرون بالأزهر كمعادتهم لقراءة الدروس أقبل الناس أفواجا من رجال ونساء ، ومنهم أهل الطالب المسجون يصرخون ويستغيثون ، وأبطلوا الدروس ، فاجتمع الشيوخ بالقبلة ، وأرسلوا إلى السيد عمر مكرم فحضر إليهم وأخذوا يتداولون الرأي فيما يجب عمله ، وتناسوا مؤقتاً منافساتهم الشخصية ، واتفقوا على الدفاع عن مصالح الجمهور ، ثم انفض الاجتماع وذهبوا إلى بيوتهم على أن يجتمعوا ثانياً .

واستأنفوا الاجتماع في الغد وتداولوا الأمر ، وأجمعوا الرأي على الاعتراض على المحدثات الجديدة من المظالم والمغارم عامة ، وأهمها فرض الضريبة على الاطيان الموقوفة واطيان الاوسية ، ومقاسمة الملتزمين في ايرادهم ، وضريبة التمتع على المنسوجات والمصوغات والأواني ، واعتقال الطالب الأزهرى بغير ذنب جناء ، وحبسه بالقلعة ، واتفقوا على أن يرفعوا هذا الاحتجاج كتابة إلى محمد علي باشا .

توافق الشيوخ في هذا الاجتماع على الاخلاص والتضامن ، « وتعاهدوا وتعاهدوا على الاتحاد وترك المنافرة » كما يقول الجبرتي ، ولكن هذا العهد لم يكن

صادرا عن نية صادقة ، فإن حساد السيد عمر مكرم كانوا مضمرين في أنفسهم أن يخلدوه اذا حُزب الامر واشتدت الازمة ، وأن يدعوه وجها لوجه أمام محمد علي وظاهر من رواية الجبرتي أنهم اتفقوا رأيا على الاكتفاء بتقديم العريضة بمثابة احتجاج على تصرفات الباشا وعدم الذهاب اليه خيفة أن يؤثر فيهم اذا اجتمع بهم ، أو تلين قناتهم اذا صاروا بحضرته ، على أن محمد علي اعتزم أن يفرق جمعهم باستدعائهم فيختلفوا في وجوب الذهاب اليه أو الامتناع عن مقابله ، فتقع الفرقة بينهم ، وتظهر مكنونات ضمائرهم ، وهناك يضرب الضربة التي اتفق مع المهدي والدواخلي على ايقاعها بالسيد عمر مكرم

لوقية بالسيد عمر مكرم

وتفصيل ذلك أن محمد علي اوفد سكرتيه (ديوان افندي) لمقابلة الشيوخ وتعرف نياتهم ، أو جس نبضهم كما يقولون ، فوجد منهم في اليوم الاول اتحادا في الرأي ، واصرارا على عدم مقابله والاكتفاء بالعرض الذي قدموه ، وفي ذلك معنى الغضب والاحتجاج الذي يخشى محمد علي عواقبه في نفوس الجور

قال الجبرتي في وصف هذه المقابلة « حضر ديوان افندي وقال ان الباشا يسلم عليكم ، ويسأل عن مطالباتكم ، فعرفوه بما سطروه اجمالا ، وبينوه له تفصيلا ، فقال ينبغي ذهابكم اليه ، وتخطبونه مشافهة بما تريدون ، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم ، وانما القصد أن تلاطفوه في الخطاب لانه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم^(١) ولا تقبل نفسه التحكم ، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم انفاذ الغرض ، فقالوا بلسان واحد لا نذهب اليه أبدا مادام يفعل هذه الفعال ،

(١) كذا في الجبرتي ، وهذه الرواية تقرب في معناها من رواية المسيو مانجان في كتابه تاريخ مصر في حكم محمد علي جزء ١ ص ٣٣٢

فإن رجع عنها وامتنع عن أحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا في السابق ، فأننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور ، فقال لهم ديوان افندى وأنا قصدى أن مخاطبوه مشافهة ويحصل انفاذ الغرض ، فقالوا لا يجتمع عليه أبدا ولا نثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا ، ونقتصر على حالنا ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا ، وأخذ ديوان افندى « العرضحال » ووعدهم ببرد الجواب »

هذا ما ذكره الجبرتي عن اجتماع الشيوخ بسكرتير محمد علي باشا ، ومنه يتبين أنهم كانوا في بادئ الأمر يدا واحدة في الاعتراض على المظالم والضرائب الجديدة ، وأن ماسماه الجبرتي « عرضحالا » كان بمثابة احتجاج شديد له خطره وعواقبه ، وكثير من الثورات يكون منشؤها العرائض أو « العرضحالات » ، وقد كان هذا العرض مقرونا بالامتناع عن مقابلة الباشا ورفض المباحثة معه ، وهذا أمر خطير في ذاته وفي نتائج ، وليس هذا الامتناع مقصورا كما يقول الشيوخ على أن « يلزموا بيوتهم ويقتصروا على حالهم ويصبروا على تقدير الله بهم وبغيرهم » بل هو اعلان للجمهور بانهم غضبوا على من أجلسوه منذ سنوات على كرسي الحكم ، ومصارحة لهم بأنه خالف الشروط التي بايعوه عليها ، ففي هذا العمل السلبي تهديد صريح لمحمد علي بان يجب طلباتهم والا فانهم « لا يجتمعون عليه أبدا »

وبديهى أن محمد علي باشا أدرك بثاقب نظره ما ينطوى تحت هذه « المقاطعة » من المعاني ، وما يترتب عليها من النتائج ، فبادر أولا الى الافراج عن الطالب الازهرى « قريب السيد حسن البقلى » الذى كان محبوسا ، ليفهم الجمهور أن لا ظلم ولا حبس ولا تعذيب ، ثم أخذ يجهد الفكر لفهم عرا تلك الزعامة الشعبية التى كانت تقلق باله وتقص مضاجعه ، ومضت أربعة أيام على اجتماع الشيوخ دون أن يبعث إليهم محمد علي بالجواب ، والظاهر أنه قضى هذه الايام فى استمالة بعض الشيوخ اليه والاثمار بالسيد عمر مكرم

وفى ذلك يقول الجبرتي « الى أن بدت الوحشة بين الباشا والسيد عمر مكرم

فتولى كبر السعي عليه سرا هو وباقي الجماعة حسدا وطمعا ليخلص لهم الامر دونه حتى أوقعوا به »

وكان بدء هذه المؤامرة أن اجتمع الشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الدواخلي وناظر المهات (محمد افندي طبل) ، واتفقوا معا على الخطة التي يتبعونها لانفاذ المؤامرة ، وبعد تفرقهم ذهب المهدي والدواخلي الى السيد عمر وأخذا يدافعان عن محمد علي باشا ، ويبرئانه مما نسب اليه ، وكان هذا الدفاع مقدمة انقلابهم على السيد عمر ، قال الجبرتي في هذا الصدد « اجتمع الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي عند محمد افندي طبل ناظر المهات ، وثلاثتهم في نفوسهم السيد عمر مافيا ، وتناجوا مع بعضهم ، ثم انتقلوا في عصرها وتفرقوا ، وحضر المهدي والدواخلي الى السيد عمر ، وأخبراه أن محمد افندي المذكور ذكر لهم ان الباشا لم يطلب مال الاوسية ولا الرزق (الاطيان الموقوفة) ، وقد كذب من نقل ذلك ، وقال انه يقول اني لأخالف أوامر المشايخ ، وعند اجتماعهم به ومواجهة يحصل كل المراد »

فالمهدي الدواخلي دافعا اذن عن محمد علي ، ونقضا للاتفاق الذي تم بين الشيوخ في اجتماعهم السابق ، ومضمونه ألا يذهبوا الى محمد علي باشا الا اذا أجاب مطالبهم ، لان كلامهم الجديد للسيد عمر يدل على قبولهم الاجتماع بالباشا وتحييدهم هذا الاجتماع

وقد فطن السيد عمر الى سر الخطة الجديدة التي اتبعها المهدي والدواخلي ، اما هو فقد أصر على عهده بعد أن ألزم الشيخين الحجة ، إذ قال لها « أما انكاره طلب مال الرزق والاوسية فهاهي أوراق المباشرين عندي لبعض الملتزمين مشتملة على طلب الفرضة (الضريبة) ونصف الفايض (أى نصف ايراد الملتزمين) ومال الاوسية والرزق ، وأما الذهاب اليه فلا أذهب اليه ابدا ، وان كنتم تنقصون الايمان والعهد الذي وقع بيننا فالرأى لكم »

وانفض المجلس ، وعلم محمد علي باشا بما دار فيه ، فادرك أن السيد عمر مكرم لاتلين قناته ، وانه مصمم على المقاومة ، فآخذ كما يقول الجبرتي يدير تفريق جمع

الشيوخ » وخذلان السيد عمر لما في نفسه منه من عدم انفاذ اغراضه ، ومعارضة له في غالب الامور ، ويخشى صولته ، ويعلم أن الرعية والعامّة تحت أمره ، ان شاء جمعهم ، وان شاء فرقهم ، وهو الذي قام بنصره ، وساعده ، وأعانته ، وجمع الخاصة والعامّة حتى ملكه الاقليم ، ويرى انه ان شاء فعل نقيض ذلك ، فطفق يجمع اليه بعض افراد من اصحاب المظاهر ويختلي معه ويضحك اليه ، فيغتر بذلك ، ويرى انه صار من المقربين وسيكون له شأن ان وافق ونصح ، فيفرغ له جراب حقه ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة »

بهذه العبارة وصف الجبرتي موقف محمد علي باشا ازاء السيد عمر مكرم وصفا دقيقا ، فمحمد علي كان يخشى نفوذ السيد عمر ويتوجس من اثارته الجمهور عليه واقتلاعه من مركزه ، كما اقتلع خورشيد باشا من قبل ، ولذلك أخذ يقرب اليه بعض اصحاب المظاهر وطلاب المنافع ويعدهم وينهيم ليفصلهم عن السيد عمر ورواية الجبرتي في مجموعها تتفق ورواية المسيو مانجوان (صديق محمد علي باشا) في كتابه ، فقد ذكر ان السيد عمر مكرم لما حضر اليه سكرتير الباشا وعبد الله بكتاش (ترجمانه) يوم ١٣ يونيه سنة ١٨٠٩ ، وكان العلماء مجتمعين عنده ، طلبا اليه أن يذهب لمقابلة الباشا ، فرفض الذهاب ، وأقسم ألا يرى محمد علي باشا الا اذا عدل عن مشروعه في فرض الضرائب الجديدة ، وانتقد سياسته انتقادا شديدا قائلا « واذا أصر الباشا على مظالمه فاننا نكتب الى الباب العالي ، ونثير عليه الشعب ، وأنزله عن كرسيه كما أجلسه عليه »

فعمر مكرم كان معتمدا على منزلته عند الشعب ، وعلى سابقة يده على محمد علي ، أما منزلته الشعبية فكانت تزداد قوة على مدى الايام ، لما تبينه الناس من بقاءه على عهده ، واستمساكه بالمهمة التي أخذها على عاتقه وهي أن يكون ترجمان الشعب الصادق ورسوله الأمين في مراقبة ولاية الامور ، ورفع المظالم عن الجمهور ، فكانت مكانته تعظم كل يوم بما كان يسديه من الخير اليهم ، يدلك على عظم مكانته الاجتماعية انه اقام في ذلك الحين مهرجانا لختان حفيده في شهر ربيع الاول سنة ١٢٢٤

(ابريل سنة ١٨٠٩) ، فكان من اعظم مآثراته القاهرة روعة وجمالا ، احتشدت فيه
الجموع من كافة الطبقات ، واكثرت الاماكن لمشاهدته ، قال الجبرتي في وصفه :
« واستهل شهر ربيع الاول سنة ١٢٢٤ ، وفيه شرع السيد عمر مكرم نقيب
الاشراف في عمل مهم نلقتان ابن ابنته ، ودعا الباشا والاعيان ، وأرسلوا اليه الهدايا
والتعاني ، وعمل له زفة يوم الاثنين سادس عشر ، مشى فيها رباب الحرف والعربات
والملاعيب وجمعيات وعصب صعيدة وخلافهم من اهالى بولاق والكفور والحسينية
وغيرها من جميع الاصناف ، وطبول وزمور وجموع كثيرة ، فكان يوما مشهودا
اكثرت فيه الاماكن للفرجة ، وكان هذا الفرح هو آخر طنطنة السيد عمر بمصر ،
فانه حصل له عقب ذلك ماسيتلى عليك قريبا من النفي والخروج من مصر »

تدير المؤامرة

علمت مما تقدم أن الشيخين المهدي والدواخلى كانا قوام الوقعة بالسيد عمر
مكرم ، وأنهما أخفقا في اقناعه بالعدول عن موقف الصلابة والتشدد الذى وقفه
ازاء محمد على باشا

ويقول الجبرتي ان المهدي والدواخلى أعادا الكرة لاقناع السيد عمر بالعدول
عن مقاطعة الباشا ، فذهبا اليه ثانيا صعبة سكرتيره ، وعبد الله بكتاش ترجمانه ،
وطال بينهم الكلام والمعالجة ، ولكن السيد عمر أصر على الامتناع عن مقابلة
الباشا ، ثم طلبا الى الشيخ محمد الامير أن يذهب معهما لمقابلته ، فاعتذر بوعكه ،
والظاهر أنه أبى أن يشترك معهما فى المؤامرة على السيد عمر ، فرفض الذهاب معهما
وعندئذ أظهر المهدي والدواخلى مكنون نيتهما ، فذهبا وحدهما الى محمد على باشا
بالقلعة ، واجتمعا به وهو ناله من أمر السيد عمر اسكى يطمئن على مركزه اذا أراد
أن يبطش به ، قال الجبرتي ما خلاصته ، ان الباشا قال فى كلامه لهما : أنا لا أريد
شفاعتكم ، ولا أقطع رجاءكم ، والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحوني ، ثم
أخذ يلوم السيد عمر على تخلفه وتعننته ، ويشئى على الباقيين (أى الذين انفصلوا عنه) ،

وقال عنه انه في كل وقت يعاندني ويبطل احكامي ، ويخوفني بقيام الجمهور ، فقال الشيخ المهدي (وهنا بيت القصيد) هو ليس الابناء ، واذا خلا عنا فلا يسوى بشيء ، ان هو إلا صاحب حرفة ، او جاني وقف يجمع اليراد ويصرفه على المستحقين ، قال الجبرتي « فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم (اى البطش بالسيد عمر) ووافق ذلك ما في نفوسهم من الحقد للسيد عمر ، ثم تباحثوا معه حصة ، وقاموا منصرفين مذبحين ، ومظهرين خلاف ما هو كامن في نفوسهم من الحقد وحفظ النفس ، غير مفكرين في العواقب »

انتهى اذن هذا الاجتماع بالاتفاق بين محمد علي والمهدي والدواخلي على الوقعة بالسيد عمر مكرم ، وكان الدواخلي حاضر الاجتماع اصالة عن نفسه ونياية عن الشيخ عبد الله الشرقاوى ، اى ان الشرقاوى كان شريكاً في المؤامرة ، ولكنه لم يشأ ان يظهر فيها بشخصه تفادياً من اللوم وسوء الظن به ، وترك للمهدي والدواخلي ان يحكما فصولها ، ولم يكن المهدي والدواخلي والشرقاوى في موقفهم عاملين على هدم السيد عمر فحسب ، بل كانوا في الواقع يهدمون أنفسهم وزملاءهم ، وكل عضو في تلك الزعامة الشعبية التي قامت بدور خطير في تاريخ مصر القومية ، وقد فاتهم وهم تحت تأثير الحقد والحسد « وحفظ النفس » ان يتقدروا عواقب عملهم ، فصدق فيهم قول الجبرتي انهم كانوا « غير مفكرين في العواقب »

ذهب المهدي والدواخلي ثانياً الى السيد عمر ليفضيا اليه بما شاء من حديث الباشا ، وكان غرضهما تبرير موقف محمد علي ، وأرادا أن يدخلوا الرهبة في نفس السيد عمر حتى يدعن أو يسجلا عليه التمرد والعصيان اذا أصر على موقفه ، قال الجبرتي « وحضروا عند السيد عمر وهو ممتلىء بالغیظ مما حصل من الشذوذ ونقض العهد ، فأخبروه أن الباشا لم يحصل منه خلاف ، وأنه قال أنا لا أرد شفاعتكم ، ولكن نفسي لا تقبل التحكم ، والواجب عليكم اذا رأيتموني فعلت شيئاً مخالفاً ان تنصحوني وتتشفعوا ، فأنا لا أردكم ولا أمتنع عن قبول نصحتكم ، وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالازهر فهذا لا يناسب منكم ، وكأنكم تخوفونني بهذا الاجتماع

وتهيج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون في زمان الماليك ، فأنا لا أفرع من ذلك ، وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندي إلا السيف والانتقام ، فقلنا له هذا لا يكون ، ونحن لانتخب ثوران الفتن ، وإنما اجتماعنا لأجل قراءة البخارى ، وندعو الله برفع الكرب ، ثم قال (أى محمد على) اريد أن تخبرونى عن انتبذ لهذا الأمر ، ومن ابتدأ بالخلف ، فغالطناه ، وانه وعدنا بإبطال الدمغة ، وتخفيف الغايض الى الربع بعد النصف ، وأنكر طلب ضريبة المال الميرى عن اطيان الأوسية والرزق من اقليم البحيرة »

هذا ما ذكره الجبرتى ، ومنه يتبين أن المهدي والدواخلى ارادا الافضاء الى السيد عمر بن محمد على باشا يعتبر عمل الشيوخ حركة ثورية يتوعد بقمعها بالسيف والانتقام ، وانه سأل عن المدير لها ، فقال طاه فى الجواب أى لم يتبها السيد عمر بزعامتها ، على انها لم يصدق السيد عمر القول ، فان حديثهما مع محمد على كان يدور حول تحريضه على السيد عمر والتهوين من أمره وتصغير شأنه حتى وصفاه بأنه (صاحب حرقة) أى نقيب الاشراف ، ولعمري ان السيد عمر مكرم لم ينل مانال من المسكنة لتوليته نقابة الاشراف ، بل ان مكانته ترجع الى شخصيته البارزة ، ونفسه العالية ، وشجاعته ونزاهته ، وترفعه عن الدنيا وسفاسف الأمور ، ولولم يكن نقيباً للاشراف لما نقصت مكانته عما صارت اليه من العظمة ورفعة الشأن

انتهت المقابلة على غير جدوى ، وانفض ذلك المجلس ، والمؤامرة ماضية فى سبيلها ، او كما قال الجبرتى « قاموا منصرفين ، وانفتح بينهم باب النفاق ، واستمر القال والقال ، وكل حريص على حظ نفسه ، وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره »

واستأنف محمد على باشا السعى ليكسب السيد عمر ويستميله اليه بالحسنى ، وكان الشيوخ وسطاءه فى هذا السعى ، وفى اول جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ اجتمع الشيوخ عند السيد عمر فى داره ، واعادوا الكرة لاقتناعه بمقابلة الباشا « فحلف السيد عمر انه لا يطلع اليه ، ولا يجتمع به ، ولا يرى له وجهاً إلا اذا ابطل هذه

الاحداث ، وقال ان جميع الناس يتهمونى معه ويرغمون اذ لا يتجارى على شىء ،
 يفعله إلا باتفاق معى ، ويكفى مامضى ، ومهما تقدم يتزايد فى الظلم والجور »
 وعيناً حاول الشيوخ اقناعه ، فأصر وأبى ، فاستقر رأيهم أن يذهبوا دون
 السيد عمر لمقابلة الباشا ، وأرسلوا فى طلب الشيخ محمد الامير لهذا الغرض ، فاعتذر
 بوعكه ، ومعنى ذلك أنه رفض الذهاب معهم ، وانه كان واقفا على ما دبره زهلاؤه
 للسيد عمر فأبى أن يشترك فى أدوار هذه المسألة ، فاتفقوا على ذهاب الشرقاوى
 والمهدى والدواخلى والفيومى « وذلك على خلاف غرض السيد عمر ، وقد ظن
 انهم يتمتعون لامتناعه للعهد السابق والايمان » ، ولكن لم يمنعهم العبد ولم تمنعهم
 الايمان عن مقابلة الباشا ، فذهبوا اليه وتكلموا معه « وقد فهم كل منهم لغة
 الآخر الباطنية » ثم ذكروه فى أمر الاتاوات التى فرضها ، وكانت موضع شكايات
 الناس وسخهم ، فأخبرهم أنه يرفع ضريبة الدفعة وكذلك يرفع الضريبة عن
 الأطيان الأوسية والرزق (الأطيان الموقوفة) ويكتفى بأخذ ربع فايز ايراد
 الملتزمين بدلا من النصف ، وانصرفوا من عنده وذهبوا الى السيد عمر ليعرضوا
 عليه ماقرره الباشا ، لعنه يرضى بذلك ، فقال لهم وهل أعجبكم ذلك فلم يجيبوا جوابا
 صريحا ، فقال انه أرسل يخبرنى بتقرير ربع المال الفايز فلم أرض وأبيت الا أن يرفعه
 كله لأنه فى العام الماضى لما طلب تقرير الربع قلت له هذه تصير سنة
 متبعة ، فحلف أنها لا تكون بعد هذا العام ، وانما طلبها لضرورة النفقة على العسكر ،
 وإن طلبها فى المستقبل يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله ، وعاهدنى على ذلك ،
 وهذا فى علمكم ، كما لا يخفى عليكم ، قالوا نعم ، قال وأما قوله إنه رفع طلب المال عن
 الاوسية والرزق فلا أصل لذلك ، وهاهى أوراق البحيرة وجها بها الطلب ، فقالوا اننا
 ذكرنا له ذلك فانكر ، وحاججنه بأوراق الطلب ، فقال ان السبب فى طلب ذلك
 من اقليم البحيرة خاصة ان المساحين لما نزلوا للكشف على اراضى الري والشرافى
 ليقررروا عليها فريضة (ضريبة) الاطيان حصل منهم الغش والتدليس فاذا كان فى
 أرض البلدة خمسمائة فدان رى جعلوها مائة وسموا الباقي رزقا وأوسية لا غنائها من

المال فقررت ذلك عقوبة لهم في نظير تدليسهم وخيانتهم، فقال السيد عمر: وهل ذلك أمر واجب فعلة، أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه في العام الماضي وهي فرصة الاطيان التي ادعى لزومها لاتمام نفقات العسكر، وحلف ان لا يعود لمثلها، وقد عاد وزاد، وانتم توافقونه وتسايرونه، ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة، وأنا وحدي مخالفًا وشاذًا، ولا مهم السيد عمر على نقضهم العهد والايمان، وانفض المجلس « وتفرقت الآراء، وراج سوق النفاق، وتحركت حقائق الحق والعدل، وكثر سعيهم وتناجيههم بالليل والنهار، والباشا يرسل السيد عمر ويطلبه للحضور اليه والاجتماع به ويعده بانجاز ما يشير عليه، وارسل اليه كتحذاه (وكيله) ليتفرق به، وذكر له ان الباشا يرتب له كيسا (خمسمائة قرش) في كل يوم ويعطيه فوراً ثلثمائة كيس خلاف ذلك، فلم يقبل »

فمحمد على لما اخفق في استمالة السيد عمر بالوسطاء اراد ان يكسبه بالمال، ولعله ظن ان شأنه شأن صالح قبطان باشا وسائر موظفي حكومة الاستانة « عبيد الدرهم والدينار » كما قال فيهم، ولكن السيد عمر مكرم كان على اخلاق كريمة، أخصها النزاهة والعفة، فلم يؤثر فيه وعد او وعيد، ولا ترغيب او ترهيب

اشتداد الازمة

وفي غضون ذلك اخذ رسل سوء يزيدون هوة الخلف اتساعا بين محمد على والسيد عمر مكرم، وينقلون الى الباشا ما يقوله السيد عمر في مجالسه، ويزيدون عليه ما سولت لهم اغراضهم، والسيد عمر ممتنع عن مقابلاته، واحيط بيته بالجواسيس لمراقبة حركاته وسكناته، واحصاء زواره، وحدث في خلال ذلك ان حرر محمد على باشا بيانا يرسم الحكومة التركية، يذكر فيه ما انفقته في مصر من الخراج، وقدره نحو اربعة آلاف كيس (١) وانها صرفت في مهمات تختص

(١) كانت الحكومة التركية تطالب بهذا المبلغ كباقي المخصص لها

بشؤون البلاد، فمنها ما صرف في سد ترعة الفرعونية، وما صرف على الحملات العسكرية لمحاربة المماليك، وما انفق على عمارة القلعة وترميم الحجارة وحفر الترعة، اوضح في بيانه ان الميرى قد نقص بسبب الشراقى؛ وارسل البيان الى السيد عمر مكرم لاقراءه والتوقيع عليه؛ فامتنع واظهر الشك في محتوياته؛ وقال للرسول الذى حمله اليه: اما ما صرفه على سد ترعة الفرعونية فان الذى جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه اضعافا كثيرة؛ «واما غير ذلك فكله كذب لا اصل له، وان وجد من يحاسبه على ما اخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر»، وكان جوابا جافا شديد اللهجة، فلما عاد الرسول الى محمد على اشتد حقه عليه، وطلبه من جديد لمقابلته، فأصر على الامتناع، فلما كثرت التراسل بينهما فى هذا الشأن قال السيد عمر «ان كان ولا بد فاجتمع به فى بيت السادات؛ واما طلوعى اليه فلا يكون» فلما بلغ هذا الجواب مسامع محمد على باشا ازداد حقه؛ وكبر عليه ان يشترط السيد عمر مكرم ان تكون المقابلة بينهما فى دار غير مقر حكمه؛ وقال «هل بلغ به ان يزدرينى ويأمرنى بالنزول من محل حكى الى بيوت الناس» وصمم على البطش به

ومع بلوغ الازمة الى هذا الحد فان محمد على باشا كان يحسب حسابا كبيرا لمكانة السيد عمر فى الجمهور، فلم يفكر فى ان يكون العقاب من نوع ما كان ملوفا فى ذلك العصر من القتل او السجن، بل اعتزم ان يعزله من نقابة الاشراف وينفيه الى دمياط ليعده عن القاهرة حيث له من النفوذ ما يجعل اهله رهن اشارة تصدر منه، وراى بشاقب نظره ان يكون عقابه متفقا (ظاهرا) مع الاوضاع الشرعية المألوفة وقتئذ، بان يدعوه الى الاحتكام فيما شجر بينهما من اختلاف الى القاضى والشيخ، وكان مطمئنا من قبل الى حكمهم، واثقا من تحيزهم، وبهذه الوسيلة يضع السيد عمر فى مركز حرج، فاذا هو اجاب الدعوة وقبل حكم القاضى والشيخ خرج من التقاضى مغلوبا، وحينئذ يكون لمحمد على باشا ان ينفيه جزاء خروجه بدون حق على ولى الأمر، وان لم يحضر كان امتناعه فى ذاته خروجا ايضا

على السلطة الشرعية، فلمؤامرة كانت اذن محكمة التدبير، ولولا نقض الشيوخ
للعهود والمواثيق لما استطاع محمد علي باشا ان ينال من خصمه منالا

نفي عمر مكرم الى دمياط

فلما اصبح يوم الاربعاء ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ (٩ اغسطس
سنة ١٨٠٩) نزل محمد علي باشا من القلعة وذهب الى بيت ابنه ابراهيم باشا
(وكان وقتئذ بك) بالازبكية، وطلب القاضى والمشايخ، وارسل الى السيد عمر
رسولا من طرفه ورسولا من طرف القاضى يستدعيانه للحضور ليحكم واية لديهم،
فأدرك السيد عمر أن المؤامرة قد وصلت الى دورها الاخير، ورأى من العبث أن
يذهب الى محكمة يعلم من رأى اعضائها وتواطئهم مع خصمه ما يجعل الاحتكام
اليهم عبثا لايجدى، فأثر الامتناع عن اجابة الدعوة، واعتذر بمرضه، فلم يكن
من محمد علي باشا إلا أن أمر فى حضرة القاضى والشيوخ بعزل السيد عمر مكرم من
نقابة الاشراف، ونفيه من مصر، وأن ينفذ الامر فوراً، وخلع على السيد محمد
السادات خلعة نقابة الاشراف

وقد رأى الشيوخ أن يراءوا بالعطف على السيد عمر، فشفعوا عند الباشا
أن يمهله ثلاثة أيام، حتى يستعد للرحيل، فأجابهم الى ذلك، ثم سألوه أن يأذن له
بالذهاب الى أسىوط (مسقط رأسه) لتكون منفي له، فرفض محمد علي اجابة هذا
الطلب، وخيره بين النفي الى دمياط أو الاسكندرية، وانفض المجلس على ذلك
أما السيد عمر فقد قابل هذه المحنة بالثبات ورباطة الجأش، وقال فى هذا
الصدد « أما منصب النقابة فأتى راغب عنه زاهد فيه، وليس فيه إلا التعب،
وأما النفي فهو غاية مطلوبى »، ثم طلب أن يكون النفي الى جهة ليست تحت حكم
محمد علي باشا اذا لم يأذن له بالذهاب الى أسىوط، واختار الطور أو درنه (بطرابلس
الغرب)، فغرض هذا الطلب على الباشا، فرفضه، وأصر على نفيه الى دمياط،

فأخذ السيد عمر يستعد للسفر، ووكل عنه السيد المحروقي كبير تجار القاهرة وعهد
اليه ادارة املاكه ورعاية أهل بيته

رحيل السيد عمر مكرم الى منفاه

كان رحيل السيد عمر الى دمياط مشهداً مؤثراً، فإن الجمهور قد أدرك عظم
النكبة وشعر الناس بوحشة كبيرة لنفى الرجل الذى كان ملاذم وملجأهم فى رفع
المظالم، فاجتمعوا لوداعه واظهار عواطفهم نحوه، وكانت سيما الحزن والكآبة بادية
على جمهور المودعين

قال الجبرتى فى هذا الصدد « واستهل شهر رجب سنة ١٢٢٤ بيوم الأحد وفيه
اجتمع المودعون للسيد عمر، ثم حضر محمد كتحداى الالفي (الذى عهد اليه اصطحابه
الى منفاه) فعند وصوله قام السيد عمر وركب فى الحال وخرج صحبة، وشيعه
الكثيرون من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله، حزناً على فراقه، واغتم
الناس لسفره وخروجه من مصر، لانه كان ركناً وملجأً ومقصداً للناس لتعصبه لنصرة
الحق، فسار الى بولاق، ونزل فى المركب، وسافر من ليلته باتباعه وخدمه الذين
يحتاج اليهم الى دمياط »

موقف الشيوخ بعد نفي زعيمهم

لم يتورع الشيخ محمد المهدي عن اظهار مكنونات ضميره فى الدور الاخير من
ادوار المأساة، ففي صبيحة الليلة التى ارتحل فيها السيد عمر الى منفاه ذهب الى
محمد على باشا يلتمس منه المسكافاة على تدبير المؤامرة، فطلب وظائف السيد عمر،
فانعم عليه الباشا بنظر أرقاف الامام الشافعى ونظر وقف سنان باشا ببولاق،
وطلب كذلك ما كان منكسراً له من راتبه من الغلال نقداً أو عيناً مدة اربع سنوات،
فأمر محمد على باشا بدفعها اليه نقداً من خزانة الحكومة وقدرها خمسة وعشرون

كيسا» وذلك - كما يقول الجبرتي - في نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر

ولم يكتف الشيوخ بالتواطؤ مع محمد على باشا على الواقعة بالسيد عمر ، بل اخذوا بعد نفيه يعملون على النيل من سمعته ، ولعلهم رأوا مظاهر حزن الناس على فراقه ، وعطفهم عليه ، فأرادوا ان يحاربوه بسلاح الاقتراء والتشهير ، ليسوتغوا فعلتهم ، فكتبوا عرضا لارساله الى الاستانة يبررون فيه عزل السيد عمر من نقابة الاشراف ونفيه ، ذهبوا اليه فيه ، اذ ادخل في دفتر الاشراف اسماء اشخاص ممن اسلموا من الاقباط واليهود ، واذ قبض من محمد بك الألفى مبلغا من المال ليكنه من حكم مصر في ايام قيام الجمهور على احمد خورشيد باشا والى السابق ، واذ كان متواطئا مع الأمراء المماليك حين شرعوا في مهاجمة القاهرة يوم الاحتفال بوفاء النيل سنة ١٨٠٥ (١) ، واذ اراد اخيرا احداث فتنة بين الجمهور ليخلع الباشا ويولى خلافه

وقد نطق الشيوخ هذا البيان ، وطافوا به على زملائهم ليوقعوا عليه ، فامتنع كثير منهم عن التوقيع ، وبرءوا السيد عمر مما رمى به وقالوا « هذا كلام لا أصل له » ، وحصلت مشادة بين رؤساء الشيوخ المدبرين لهذا المنشور وبين الممتنعين عن التوقيع ، ثم غيروا صورة المنشور ، وخففوا لهجة ليحملوا زملاءهم على توقيعه ، فامتنع كذلك بعضهم ، وكان أشدهم اصرارا على استنكاره والامتناع عن توقيعه السيد احمد الطحطاوى مفتى ائنفية ، وكان من العلماء الصالحين المتزهدين عن المطاعم الدنيوية ، فسخط الشيوخ عليه وتهددوه بعزله من منصبه ، فلم يعبأ بهم ، فعزلوه ، وولوا بدله الشيخ حسين المنصوري ، وخلع عليه محمد على باشا خلع الافتاء ، فلم يكثر السيد الطحطاوى لهذا الأمر ، ولم يأبه له ، وأعاد الى الشيخ السادات الخلع التي خلعها عليه من قبل حينما تولى الافتاء ، فاستاء السادات من هذا العمل ، وعده اهانة كبرى له ، واستمر السيد الطحطاوى يقبّح عمل الشيوخ ،

واعترزهم واعتكف في داره « وهم يبالغون في ذمه والخط منه لكونه لم يوافقهم على شهادة الزور » كما يقول الجبرتي ، فكان عمل الطحطاوى حجة بالغة على نفاق الشيوخ وريائهم

خلا الجو لحساد السيد عمر مكرم والمؤتمرين به ، ولكنهم في الواقع قد جنوا على انفسهم وعلى مكانتهم ونفوذهم ، فان المؤامرة التي دبوها قد أسقطت منزلتهم في نظر الجمهور وفي نظر محمد علي باشا ، فالجمهور رأى في عملهم معنى الغدر والخيانة ، ومحمد علي رأى فيه الضعة وصغار النفس ، فلم يبق لهم عنده ذلك الشأن الذي كان لهم من قبل ، ولم يعد يعبأ برايهم ، وسقطت تلك الزعامة الشعبية التي كانت لها المكانة العظمى والقول الفصل في تطور الحوادث مدى عشر سنوات متعاقبة ، وزالت عنهم تلك الهيبة التي اكتسبوها بجهادهم واخلاصهم وتضامنهم ، وأضاعوها بتحاسدهم وتحاذلهم ، ودالت دولتهم ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وحقت عليهم الآية الشريفة « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

وقد سجل عليهم الجبرتي رأيه فيهم بقوله « ان الحاصل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد ، مع ان السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلد ، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض » ، وقال في موضع آخر « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا في الامور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية »

عمر مكرم في منفاه

اما السيد عمر مكرم فقد عاش في دمياط تحت المراقبة « والحرس ملازمون له » الى ان تشفع له قاضى قضاة مصر صديق افندى لدى محمد علي باشا ، فاذن له بالانتقال الى طنطا ، وذلك في ربيع الأول سنة ١٢٢٧ ، فكأنه قضى بدمياط نحو أربع سنوات ، وبقى بطنطا الى ربيع الاول سنة ١٢٣٤ (ديسمبر سنة ١٨١٨) إذ طلب الاذن له أن يؤدى فريضة الحج ، وكان محمد علي قد بلغ قمة المجد والسلطة ،

وقهر الوهابيين ، وذاع صيته في الخافقين ، فتذكر المنفى العظيم الذى كان له الفضل
الكبر الفضل فى اجلاسه على عرش مصر ، فتلطف بقبول طلبه ، واذن له بالذهاب
الى القاهرة وان يقيم بداره الى اوان الحج ، وذكر صديقه القديم بالخير ، وقال
جلسائه « انا لم أتركه فى الغربة هذه المدة الا خوفا من الفتنة ، والآن لم يبق شئ
من ذلك ، فانه أبى ، ويبنى وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف »

كتاب محمد على الى السيد عمر مكرم

وقد بعث اليه بكتاب رقيق يبلغه اجابة طلبه ، والكتاب يحتوى أرق عبارات
الاحترام والتبجيل ، ويدل على مبلغ ماله عنده من المكانة الرفيعة قال فيه :
« مظهر السمائل سنيها ، حميد الشؤون وسميها ، سلالة بيت المجد الاكرم ،
والدنا السيد عمر مكرم ، دام شأنه »

« اما بعد فقد ورد الكتاب اللطيف ، من الجنب الشريف ، تهنئة بما أنعم
الله علينا ، وفرحا بمواهب تأييده لنا ، فكان ذلك مزيذا فى السرور ، ومستديما
لمجد الشكور ، ومجلبة لثناكم ، واعلانا بنيل مناكم ، جزيم حسن الثناء مع كمال
الوقار ونيل المتى ، هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الاذن فى الحج الى البيت الحرام ،
وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام ، للرغبة فى ذلك ، والترجى لما هنالك ، وقد
اذناكم فى هذا المرام ، تقربا لذى الجلال والاكرام ، ورجاء لدعواتكم بتلك
المشاعر العظام ، فلا تدعوا الابتهاال ، ولا الدعاء لنا بالقال والحال ، كما هو الظن
فى الطاهرين ، والمأمول من الاصفياء المقبولين ، والواصل لكم جواب منا خطابا الى
كتخذائنا ، ولحكم الاجلال والاحترام ، مع جزيل الثناء والسلام »

عودة عمر مكرم الى القاهرة ثم نفيه ثانية

وبعث الباشا بالخطابين الى السيد عمر صحبة حفيده السيد صالح ، وارسل
الى كتخدائه يبلغه الأمر « واشيع خبر مقدمه فسكران الناس بين مصدق ومكذب »
حتى وصل الى بولاق يوم السبت ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ (٩ يناير ١٨١٩) ، فركب

من هناك وتوجه لزيارة الامام الشافعي ، ثم ذهب الى القلعة وقابل السكتخدا ، وكان محمد علي باشا وقتئذ بالاسكندرية ، « وهنأه الشعراء بقصائدهم ، وأعطاهم الجوائز ، واستمر ازدهام الناس اياما ، ثم امتنع عن الجلوس في المجلس العام نهارا ، واعتكف بحجراته الخاصة ، فلا يجتمع عنده الا بعض من يريد من الأفراد ، فانكف الكثير عن التردد عليه ، وذلك من حسن الرأي »

يتبين من رواية الجبرتي ان منزلة السيد عمر مكرم في قلوب الشعب بقيت كما كانت عند منفاه ، ولم يفس الناس ما أسداه لهم من الخير ، مع انقضاء عشر سنوات على نفيه ، ورجع عظيما كما كان قبل نفيه ، ولولا ذلك لما هنأه الشعراء بقصائدهم وازدهم الناس على داره ، وظاهر ان عيون محمد علي باشا كانت منبهة حول داره ترقب بحذر ازدهام الجاهل على بابيه ، وتستمتع تهاني الشعراء له ، وتشهد مظاهر تعلق الشعب بزعيمه القديم ، وكيف ان الزمن والحنة والشيخوخة والنفي ، كل ذلك لم يؤثر في منزلته في القلوب ، ومن المحتمل ان هذه « المظاهرات » لم تكن لتروق لأصحاب السلطة وقتئذ ، ولا يبعد أن يكون قد بلغ السيد عمر ان مثل هذه « المظاهرات » مما يؤخذ عليه ، فأثر الاعتكاف في داره حتى لا تكون فتنة ولا تكون وقية ، فكان ذلك « من حسن الرأي » كما يقول الجبرتي ، وان كلمة « حسن الرأي » تؤكد ان الاعتكاف كان سياسيا

على ان محمد علي لم يأمن على مركزه من نفوذ السيد عمر مكرم ، ولم يطمئن لبقائه طويلا في القاهرة ، وبالرغم من شيخوخته واعتكافه في بيته بمصر القديمة (بساحل أثر النبي) فانه كان مصدر قلق لمحمد علي ، وحدث أن قامت في القاهرة سنة ١٨٢٢ فتنة هاج فيها السكان استياء من فرض ضريبة جديدة على منازل العاصمة ، بعد فرضها على منازل البنادر في الأقاليم ، فأخذ الموظفون يطوفون بالمنازل لتقدير الضريبة عليها ، فوقعت مصادمات بين أهالي باب الشعرية وبعض الموظفين الموكلين اليهم تقدير الضريبة أدت الى اقتال الدكاكين وهياج الأهالي ، وذهبت جموعهم الى دار الشيخ العروسي شيخ الجامع الأزهر ، وكان يسكن على

مقربة من موطن الهياج ، وقد خرج الشيخ من داره قاصدا الأزهر ، فالتفت به الجماهير رجالا ونساء يضجون ويصيحون ، وكادت تقع الفتنة لولا أن عاجلتها الحكومة بالحزم واتخاذ التدابير الكفيلة بحفظ الأمن ، ونفذت الحكومة الضريبة كما قررتها ، وقد ساورت الظنون محمد علي باشا ، وارتاب في ألا يكون للسيد عمر مكرم يد في تلك الفتنة ، والواقع أنه كان بعيدا عنها ، فأرسل اليه رسولا في داره (١) أنهى اليه ان محمد علي يأمره بمغادرة القاهرة والاقامة في طنطا ، ومعنى ذلك أنه امر بنفيه ثانيا من مصر ، فاجاب السيد عمر باستعداده لمبارحة العاصمة بعد أن يعد مركبا ينقله الى طنطا ، فأخبره الرسول ان المركب معد لهذا الغرض في ساحل مصر القديمة ، فادرك ان المراد أن يغادر المدينة فورا ، ويرحل الى منفاه ، فتلقى هذه المحنة الجديدة بالصبر ، ورحل العاصمة مساء ذلك اليوم ، فكانت هذه هي المرة الرابعة التي يذهب فيها الى المنفى ، فالأولى والثانية في عهد الحملة الفرنسية ، والمرتان الثالثة والرابعة في عصر محمد علي باشا

وهكذا كانت حياة ذلك المجاهد الكبير سلسلة من المنفى والهجرة ، ومكافحة الخطوب والحن ، ولم يعرف فضله ، ولا كوفئ على جهاده بالشكر وحسن التقدير ، بل كان نصيبه المنفى ، والحرمان ، والاقصاء من ميدان العمل ، ونكران الجيل ، وذلك كان جزاء اكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر في فجر النهضة القومية .

(١) يوم ١٥ ابريل سنة ١٨٤٢ ، وقد كانت وفاته في هذه السنة

الفصل الرابع

انفراد محمد على بالحكم

يدل منطق الحوادث على أن نية محمد على في الانفراد بالحكم قد بدأت تتمسكه ، كما المعنا الى ذلك ، بعد عودته من الاسكندرية عقب جلاء الانجليز عن البلاد ، وذلك أن مركزه قد توطد إذ تغلب على دسائس الباب العالي أولاً ، ثم هزم الحملة الانجليزية ثانياً ، وبسط نفوذه وسلطانه على بلاد خارجة عن نطاق حكمه كالاسكندرية التي كان الباب العالي يعتبرها تحت مطلق سلطته ، فانتصار الجيش المصرى على الانجليز ، واستخلاص البلاد من قبضة دولة قوية البطش عزيزة الجانب ، جعل محمد على ينزع الى الانفراد بحكومة البلاد ويستأثر بها بلا معارض ولا منازع ، وأخذ يعمل على ذلك تدريجاً مستعيناً بما أوتي من الدهاء وسعة الحيلة .

واذا تأملت في مجرى الحوادث عقب عودته الى القاهرة تجد أنه قد أخذ فعلاً من ذلك الحين يعمل على تحقيق هذا الغرض ، ذلك انه اغتتم الفرصة في ثورة الجنود الارناءود ومطالبتهم برواتبهم المتأخرة واخلالهم بالنظام كعاداتهم ، فاعتزم الانتقال من سرايه بالازبكية الى قلعة المقطم ، واتخاذها مقراً له ، ومعنى انتقاله الى القلعة عزومه على ان يحكم البلاد بالقوة ، لانك اذا رجعت بهذا كرتك الى نحو أربع سنوات مضت قبل وقوع هذه الحوادث تجد أن خورشيد باشا حينما انتقل من سرايه بالازبكية الى القلعة^(١) كان معتزماً ان يحكم البلاد بالقوة ، دون ان يعبا برأى شيوخها وزعمائها ومطالب جماهيرها

والواقع ان سكنى ولى الامر فى الازبكية أى فى قلب العاصمة يجعله أميل الى الاصغاء لمطالب الشعب اذا هاجت خواطره ، لان الازبكية كانت الميدان الذى تحتشد فيه الجموع اذا حفزها حافز من شكوى او احتجاج ، فاذا ماسكنها ولى الأمر كان أقرب الى رؤية مظاهرات الشعب وادنى للاستماع الى صيحاته ومطالبه أما اذا استقر فى القلعة ، فكأنه يريد أن يمتنع فى قمة الجبل ، ويضع نفسه مع المدافع المتسلطة على البلد ، ويصم أذنيه عن سماع صيحات الجماهير ، وينظر الى القاهرة كما ينظر النسر المحلق فى السماء الى فريسته على الأرض ولا يذهبن عنك أن القلعة ترض على ذروة المقطم كما يرض الأسد فى عرينه ، وهى ببراجها ومدافعها تشرف على القاهرة وتسلط عليها ، فكأنما بذلها صلاح الدين الايوبى فى ذلك الموقع ليتخذها الملوك والسااطين معقلا يتسلطون منه على المدينة العظيمة وأهلها ، وكيفيك أن تصعد يوما الى القلعة ، وتمد نظرك الى ما يتناوله الافق ، لتتضاءل القاهرة أمامك ، إذ تراها مبسوطة لعينيك بشوارعها ، وميادينها ، وقصورها ، ومبانيها وأشجارها ، وحدائقها ، كرقعة صغيرة تكاد تكون فى قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك ، أو كأنها لوحة صغيرة من الرسوم الصامتة ، ولا تكاد إذ ترى أشباح الناس تتحرك فى شوارعها وطرقاتها أن تميز بين مسيرهم وديب النمل ، وهيئات أن تبلغ سمعك أصواتهم مها علت أو اكتظت بهم الميادين فى مختلف نواحيها القريبة والبعيدة ، فالحالك المستبد إذ يشاهد من القلعة تلك المدينة الكبرى منبسطة أمام نظره ، صامتة لا يسمع لها صوتا ، جامدة لا يحس لها ركزا ، ويرى نفسه فى ذلك العلو الشاهق ، تحف به الأبراج وفيها المدافع متحفزة فاعرة افواها على المدينة ، لاجرم أن تعثر به وساوس السلطة المطلقة ، وتتملكه نزعات الاستبداد والبطش بمعارضيه فمحمد على باشا قد انتقل الى القلعة واتخذها معقلا له حينما قامت فى المدينة فتنة الجند الارزاءود ، ومن يومئذ وهو معتزم أن يستأثر بالحكم لا ينازعه فيه منازع ، فبعد أن اخمد فتنة الجند اتجهت عزيمته الى التخلص من الزعامة الشعبية ، قم له ما أراد كما رأيت فى الفصل السابق ، ثم صحت عزيمته على التخلص من خصومه

المماليك ، فانهم بالرغم من تقليد اظافرهم كالنوا لا يفتأون يتحينون الفرص لمناوأة ومنازعة الحكم والسلطان

موقف محمد على ازاء المماليك

كان عدد المماليك في ذلك الحين يبلغ ٢٥٠٠ من المقاتلة كما قدرهم المسيو مانجان^(١) ، وقد استعان محمد على باشا على رؤسائهم منذ سنة ١٨٠٧ بالخيالة ، فابتدأ باستمالة شاهين بك الألفي خليفة محمد بك الألفي ، وما زال يعرض له المودة والصفاء حتى اجتذبه الى القاهرة ووافقه على ان يقيم بالجيزة ويكون له ايراد اقليم الفيوم وثلاثين قرية في اقليم البنيساء وعشر قرى في الجيزة ، وأطلق له التصرف في ذلك كله التزاما وكشوفية^(٢) ، وضم له كشوفية البحيرة بتمامها الى الاسكندرية ، وكتب له الخجة بذلك

فارتضى شاهين بك بهذا الصلح ، وطأبت له نفسه ، وجاء القاهرة لزيارة محمد على باشا ، فأكرم مثواه ، ودعاه الى مأدبة عند ابنه طوسون ، ثم سكن شاهين بك بالنصر الذي أعده له بالجيزة (شوال سنة ١٢٢٢ - ديسمبر سنة ١٨٠٧) ، وضرب صفحا عن عيشة الكفاح والقتال ، وحذا حذوه بعض الأمراء المماليك ، فبدلوا الطاعة لمحمد على باشا ، وأرسل في أوائل سنة ١٨٠٨ (ذي القعدة سنة ١٢٢٢) الى زملائه المماليك في الصعيد يرغبهم في الاذعان والولاء لمحمد على

كان لدعوة شاهين بك أثرها في كسر حدة المماليك ، فوقفت حركات القتال في الصعيد ، وهدأت الحالة هدوءا نسبيا ، ويرجع سبب هذا الهدوء الى ما أصاب المماليك من الضعف ، والى اليأس الذي تسرب الى نفوس زعمائهم ، فلن ابراهيم بك الكبير قد أضعفته الشيخوخة ، فصار أقرب الى الراحة والسكون بعد ما هدأت السنون

(١) في كتابه (تاريخ مصر في عهد محمد على) الجزء الاول

(٢) أى بتولى حكم تلك البلاد ويستولى على ايراداتها بد أداء الميرى

من نشاطه وقوته ، وكذلك عثمان بك حسن ، وهذان هما كبير المالك المعترف لهما بالزعامة بعد موت الالفى والبرديسى ، على انهما مع ماتولاهما من الضعف واليأس فلا على عهدهما القديم من كراهية محمد على باشا وعدم الثقة فى مقاصده حيال المالك ، أما شاهين بك المرادى (خليفة البرديسى) فلم يكن له نفوذ بجانب ابراهيم بك وعثمان بك حسن

كان محمد على باشا يعلم نفسية ذينك الزعيمين ، ويعرف أن التجارب جعلتهما لا يطمئنان اليه ، ولا يثقان به ، فخطاهما وصرف مساعيه الى استمالة صغار البكوات والكشاف من اتباعهما ، فانتهم فرصة الهدوء النفسى الذى ساد صفوف المالك وجعل يوفد رسلا اليهم يدعوه الى الاخلاص للطاعة على أن يرتب لهم رواتب تقوم بأودهم فى القاهرة ، وانتهى بهذه الوسيلة الى قضم غرا المالك واجتذاب بعضهم الى العاصمة

ولما مات شاهين بك المرادى خليفة البرديسى (مايو سنة ١٨٠٨) أراد محمد على أن يظهر سطوته وأنه ولى الأمر ، فعين سليم بك المحرجى رئيسا للمالك المرادية ، خلفا لشاهين بك ، وخلع فى الوقت نفسه على مرزوق بك ابن ابراهيم بك الكبير خلعة حاكم جرجا ، فوضع المالك بهذا التعيين المزدوج أمام الامر الواقع ، وجمع فى الوقت نفسه بين اعلان سلطته عليهم واجتذاب ابراهيم بك بتعيين ابنه حاكما لجرجا ، ولم يعهد المالك أن يتحكم فيهم الولاية الا تراك السابقون ويتدخلوا فى شؤونهم الى هذا الحد الذى وصل اليه محمد على ، فانهم كانوا محتفظين باستقلالهم فى اختيار زعمائهم وكان الصعيد تحت مطلق تصرفهم

اجتمع رؤساء المالك ، وتشاوروا فيما يكون موقفهم حيال هذا التدخل ، وبعد الأخذ والرد استقر رأيهم على قبول الامر الواقع

لكنهم لم يؤدوا ما على البلاد التى تحت سلطتهم من الاموال الأميرية ، نقدا أو غلة ، فتهدهم محمد على بتجريد حملة عليهم اذا لم يؤدوها ، فتوسط شاهين بك الألفى بين الفريقين ، وافقوا على أن يؤدوا ثلث ما عليهم من غلال الحكومة ،

وقدر ذلك سبعة آلاف ومائة ألف اردب (مارس سنة ١٨٠٩) ، ولكنهم لم يفوا بها ، فجرد عليهم ، في سبتمبر سنة ١٨٠٩ ، جيشا لاختصاص الصعيد من ايديهم

على ان المالك لم يفكروا في مقاومته ، فانسحبوا الى الجبال القريبة من جرجا وأسيوط ، فرأى محمد على ان الفرصة سانحة ليتولى حكم الوجه القبلى ، فسار في شهر اكتوبر من القاهرة في جيش يبلغ ستة آلاف مقاتل ، فلم يكد يبلغ أسيوط حتى بادر المالك الى طلب الصلح ، واشترط عليهم محمد على أن يرحلوا عن الوجه القبلى ، وقيموا في القاهرة ، على ان يعطيهم بعض الجهات يستغلونها ويدفعون اموالها والضرائب التى تفرض عليها ، وهذه الشروط تدلك على مبلغ ما وصل اليه المالك من الضعف ، فان شروطهم السابقة كانت ان يتولوا حكم الصعيد على دفع الخراج ، اما الشروط الأخيرة فأساسها التخلي عن الحكم والاقامة في القاهرة تحت حكم محمد على

تم هذا الاتفاق في ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٤ (نوفمبر سنة ١٨٠٩) بأسيوط ، وطلب المالك مهلة ثلاثة أشهر يقضون فيها مصالحهم ، فقبل محمد على هذه المهلة ، وعاد الى القاهرة ، ولما انقضت المدة طلبوا مدها شهرا فرضى بذلك ، ولما انتهى الأجل أنذرهم اذا لم يحضروا أن يجرد عليهم الجيش ، فأذعنوا وازعموا الرحيل الى العاصمة .

سار ابراهيم بك وزملاؤه الى القاهرة (مايو سنة ١٨١٠) ، فلما كان قريبا من الجزيرة عسكر بالبر الغربى ، ونصب خيامه على رمية المدفع من الجزيرة ، وهناك ترددت الرسل بين ابراهيم بك ومحمد على باشا ، وكان الباشا مقبلا وقتئذ بقصره بشبرا ، وتعددت مقابلات الرسل على غير طائل ، إذ أن ابراهيم بك كان قليل الثقة في مقاصد محمد على باشا ، كما ان محمد على نفسه لم يكن يبنى من هذه المفاوضات الا كسب الوقت لتقليم أظافر المالك واذلالهم ، واستاء ابراهيم بك من

المعاملة التي عومل بها، إذ لم تضرب لحضوره المدافع كما كان ينتظر، وتركه محمد على باشا في الجيزة دون أن يكثر له، فاعتزم العودة إلى الصعيد، ناكثا الصلح، وبذلك تجدد الخصام بين محمد على باشا والماليك

وقد توصل إبراهيم بك إلى اقناع شاهين بك خليفة الألفي بنقض اتفاقه هو أيضا مع محمد على، والرحيل عن القاهرة إلى حيث يتحد واخوانه، فاستجاب له وأنسل من الجيزة، وتبعه في انسحابه البكوات والكشاف الماليك الذين لبثوا بمصر سنتين راضين بحكم محمد، على، وعاد الاتحاد إلى صفوف الماليك، فاستاء محمد على من هذه الحركة، وجرد جيشا جديدا لمحاربة خصومه

تجدد القتال، وزحف الجيش على الصعيد، فانتصر على الماليك في البهنسا واللاهون، واستولى على اقليم الفيوم، وانسحب إبراهيم بك وعثمان بك حسن وسليم بك زعماء الماليك إلى اسوان منهوكة قواهم منحلة عزائمهم، ورجع شاهين بك الألفي يطلب العفو من محمد على باشا، فعفا عنه وسمح له بالاقامة في القاهرة، واقطعه دارا جميلة ليسكن فيها بالأزبكية (أكتوبر سنة ١٨١٠)، ولعله أراد اجتذابه هذه المرة ليلقى حتفه في مذبح القلعة كما سيجىء بيانه، وكذلك فعل كثير من البكوات والكشاف والماليك، فانهم طلبوا من محمد على الامان، فأمنهم على انفسهم وعفا عنهم، واذن لهم بالعودة إلى القاهرة والاقامة فيها

أخضع محمد على الصعيد لحكمه، ودانت له مصر قاصيها ودانيها، ورجع الماليك الذين قدموا طاعتهم إلى القاهرة، وأخذوا ينصرفون إلى اسباب الرفاهية والرغد، وأغدق عليهم محمد على من خزانة الحكومة ما جعلهم يستطيعون الاقامة في القاهرة، ويؤثرونها على عيشة الكفاح والقتال، وانصرفوا إلى ترتيب عيشتهم الجديدة، وتجميل بيوتهم وتأثيثها بفاخر الرياش والاثاث، وشرع معظمهم في التزويج واعداد معدات الافراح والمسرات، وخيل اليهم انهم استراحوا من شظف العيش،

واهلوال السكر والفرّ ، وأنهم مقبلون على حياة الهناء والرفاء والبنين ، ولم يدروا ما خبأ لهم القدر من خاتمة رهيبة

ذلك ان محمد على باشا أوجس خيفة من بقاء المماليك في القاهرة ، وخاصة لما اعتزم تجريد الحملة على الحجاز لمحاربة الوهابيين تلبية لاوامر الاستانة ، وخشى اذا غادر الجيش مصر وضعفت قوته الحربية ان يعودوا لمناوئته وانتزاع السلطة من يده ، فرأى ان لا وسيلة للاحتفاظ بسلطانه وانفراده بالحكم سوى التخلص من البقية الباقية من المماليك ، ومن هنا نبئت في رأسه فكرة اغتيالهم في المؤامرة المعروفة بمذبحة القلعة

مذبحة القلعة

أول مارس سنة ١٨١١

اذا ذهبتَ يوماً الى قلعة صلاح الدين لتتعرف ما تشتمل عليه من المواقع والمباني والآثار ، قف قليلاً تحت منارة جامع السلطان حسن ، واتجه بنظرك الى القلعة ، تجدها ماثلة أمامك ، بموقعها المنيع ، وأسوارها العالية ، وابراجها الشاهقة ، وأبوابها الضخمة ، وأول ما يلفت نظرك قباب جامع محمد على وما أدبه الهيفاء البديعة الصنع التي تداعب السحاب في علوها ، فاذا رجعت الطرف في هذا المنظر فدعه جانباً ، لانه لم يكن موجوداً بتمامه في العصر الذي نكتب عنه ، إذ لم يكن محمد على باشا قد بنى جامعاً الى هذه السنة (عام ١٨١١) ، وانظر امامك مجد باباً ضخماً غائراً في الجبل ، تعلوه أبراج قديمة ، هذا الباب هو المسمى (باب العرب) وهو باب القلعة من الجهة الغربية ، ويتع على الميدان المسمى الآن ميدان (صلاح الدين) وكان يسمى في ذلك العهد ميدان الرميطة ، فاذا دخلت هذا الباب تجد طريقاً وعراً متعرجاً ، منحوتاً في الصخر ، تسير فيه صعوداً بالجهد والعناء الى رحبة القلعة ، وتصل من هذه الى جامع محمد على ، ثم الى قصره

فاذا تعرفت تلك المواقع، وثبتت صورتها في ذهنك، فاسمع ما جرى فيها يوم أول

مارس سنة ١٨١١

لما عاد محمد علي باشا من الوجه القبلي أخذ يجهز جيشا ينفذه الى الحجاز لحاربة الوهابيين ، تلبية لنداء الحكومة التركية ، وجعل يهيئ معدات الحملة في أوائل سنة ١٨١١ ، وعقد لواء قيادتها لابنه احمد طوسون باشا ، وأعد مهرجانا نفيا بالقلعة ، حدد له يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ للاحتفال بالباس ابنه خلعة القيادة ، ودعا رجال الدولة واعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم ، وكان الترتيب أن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة ، ثم ينزل من القلعة في ابنته وموكبه مخترقا أهم شوارع المدينة ليصل الى معسكر الحملة في القبة (١) وكان مثل هذا الاحتفال من الملوك المشهودة التي تحتشد لها الجماهير ، وقد دعا الباشا جميع الامراء والبكوات والكشاف الماليك واتباعهم لحضور الحفلة ، فعدت الماليك هذه الدعوة علامة الرضا من محمد علي باشا ، وركبوا جميعا في زينتهم وبكبتهم ، وارتدوا أجمل وأتمن ما عندهم من الملابس ، وامتطوا خير ما لديهم من الجياد ، وذهبوا صبيحة ذلك اليوم الى القلعة قبيل الموعد المضروب لركوب طوسون باشا .

وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات الماليك على محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبرى ، فتلقاهم بالبشر والخفاوة ، وقدمت لهم القهوة ، وشكرهم الباشا على اجابتهم ودعوتهم ، وألمع الى مايفال ابنه من التكريم اذا مارسوا معه في موكبه ، فلجأوه بالشكر ، واعتذروا عن تخلف بقية اخوانهم الذين مازالوا في الصعيد ولم يحضروا للاشتراك في الاحتفال ، فقابل الباشا الاعتذار بالتجاوز والاعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين ، وتجاذب هو وضيوفه ، أطراف الحديث هنيئة ، ثم ما لبث أن اذن مؤذن الرحيل ، ففرغت الطبول وصدحت الموسيقى ، فكان ذلك إعلانا بالتأهب لتحرك الموكب

(١) الضاحية المعروفة شمالي العاصمة ، وتسمى قبة العزب

وعندئذ نهض المماليك وقوفاً ، وبادلوا الباشا وبادلهم عبارات التحية والاحترام ، وساروا الى حيث يأخذون مكانهم فى الموكب الفخم ، ولما تقلد الامير طوسون باشا اللواء بدأ الركب يسير منحدرا من القلعة

تحرك الركب ، تتقدمه طليعة من الفرسان الدلاة يقودها ضابط يدعى أوزون على ، يتبعها والى الشرطة ، والأغا (محافظة المدينة) والمحتسب ، ويليهم الوجاقلية ، ثم كوكبة من الجنود الارناءود يقودهم صالح اق قوش ، ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب ، ومن بعدهم بقية الجنود الارناءود فرسانا ومشاة ، وعلى أثرهم كبار المدعويين من ارباب المناصب

سار الموكب على هذا النظام ، منحدرا الى باب العزب المتقدم ذكره ، منسربا فى ذلك الطريق الضيق الوعر الذى وصفناه آنفا

فاجتازت الباب طليعة الموكب ، ثم رئيس الشرطة ، ثم المحافظ ومن معه ، ثم الوجاقلية ، ولم يكدهؤلاء يجتازون باب العزب حتى ارتج الباب واقفل من الخارج على حين فجأة إقفالا محكما فى وجه المماليك ، ومن ورأهم الجنود الارناءود ، فلما رأى هؤلاء الجنود الباب قد أقفل ، وكانوا عالين بما تدل عليه هذه الإشارة ، تحولوا عن الطريق فى صمت وسكون ، وتسلقوا الصخور التى تسكتنفه وتعلوه يمينا وشمالا ، وأخذوا مكانهم على الصخور والاسوار والحيطان المشرفة عليه ، ولم يتنبه المماليك بادىء الأمر الى أن الباب قد اقفل ، واستمروا يتقدمون متجهين اليه ، ولكن لم تكدهم تبليغه صفوفهم الأولى حتى رأوه مقفلا فى وجوههم اقفالا محكما ، وأبصروا الارناءود يتسلقون الصخور المشرفة عليهم ، فتوقفوا قليلا عن المسير ، وتضامت صفوفهم المتلاحقة بعضها اثر بعض ، ولم تمض هنيهة حتى دوى طلق الرصاص من نوافذ إحدى الثكنات ، فكان هذا نذيرا بانفاذ المؤامرة ، ذلك انه لم تكدهم تلك الطلقات تدرى فى الفضاء حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون فى هذا الطريق الغائر فى الارض ، فالباب الضخم مقفل فى وجوههم ، والجنود الارناءود من ورأهم ، ومن فوقهم ، وعن يمينهم ، وشمالهم ، يتناولونهم برصاص بنادقهم

لم يستطع المماليك دفاعاً عن أنفسهم، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة، أو الرجوع القهقري، أو النزول عن جيادهم، لضيق المكان الذي حصروا فيه، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم، وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئاً، فانصب عليهم الرصاص، وحصدهم حصداً، وجاءهم الموت من كل مكان.

ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تحتبط بدمائها، أمكن الباقين أن يترجلوا عن جيادهم، وأرادوا النجاة بأنفسهم من تلك الحفرة المهلكة التي كانوا مكسدين فيها، فتسلق بعضهم الصخور المحيطة بالطريق بعد أن خلعوا ما كان عليهم من الفراوى والملايل الثمينة والثياب الفضفاضة ليسهل عليهم الفرار، ولكن الرصاص كان يتلققهم أينما صعدوا، فلا تلبث أن تتساقط جثثهم في جوف الطريق، ومن هؤلاء شاهين بك الألفي الذي تمكن في عدة من مماليكه أن يتسلق الحائط وصعد إلى رجة القلعة وانتهى إلى عتبة قصر صلاح الدين، فعاجله الجنود الارناءود برصاصة أردته صريعاً، واستطاع سليمان بك البواب أن يجتاز الطريق وجسمه يقطر دماً، ويوصل إلى سراى الحرم، واستغاث بالنساء صائحاً (في عرض الحرم)، وكانت هذه الكلمة تكفي في ذلك العهد لتجعل من يقولها في مأمن من الهلاك، ولكن الجنود عاجلوه بالضرب حتى قطعوا رأسه، وطرحته جثته بعيداً عن باب السراى، وتمكن بعض المماليك من الوصول إلى حيث كان طوسون باشا راكبا جواده منتظراً أن تنتهي تلك المأساة، قتراموا على أقدامه طالبين الأمان، ولكنه وقف جامداً لا يبدى حراكاً، وعاجلهم الجنود بالقتل، وتسكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض في ذلك المضيق وعلى جوانبه حتى بلغ ارتفاع الجثث في بعض الأماكن إلى أمتار، واستمر القتل إلى أن أفتى كل من دخلوا القلعة من المماليك، ومن لم يدركه الرصاص ممن وقع تحت جثث الآخرين أو فرّ في نواحي القلعة أو تخلف عن الموكب، ساقه الارناءود حياً إلى السكتخدا بك فاجهزوا عليه ضرباً بالسيوف،

واستمر القتل من ضحوة النهار الى هزيع من الليل حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم اربعمائة وسبعون من المالك واتباعهم قتلوا جميعا ، ولم ينج منهم إلا واحد يسمى (امين بك) ، فانه كان في مؤخرة الصفوف ، فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة فصعد بجواده الى المسكن المشرف على الطريق وبلغ سور القلعة ، ورأى الموت محيطا به ، فلم يجد منجى إلا أن يرمى بنفسه من اعلى السور الى خارج القلعة ، وكان الخطر المحقق في تلك المحاولة ، إذ يعلو السور عن الارض ستين قدما ، ولكنه خاطر بنفسه مؤثرا الموت على القتل ، فلكرز جواده فقفز به متردياً ، ولما صار على مقربة من الارض قفز هو مترجلا ، وترك الجواد يتلقى الصدمة ، فتهشم الجواد لفوره ، ونجا امين بك من الموت ، ومضى يعدو في طريق الصحراء ، وما زال يطوى الفدافد متنكرا حتى بلغ الى جنوب سورية (١)

أحكم محمد على باشا تدبير المؤامرة ، فلم يقف على سرها الا أربعة من خاصة رجاله ، وهم حسن باشا قائد الجنود الارناءود ، والسكرتخدا بك محمد لافظ اوغلى ، وصالح قوش أحد ضباط الجند ، وابراهيم اغا حارس الباب ، وصالح قوش كما مر بك كان يقود كوكبة الجنود الارناءود في الموكب ، وهو الذى أمر باقفال باب العزب وأعطى اشارة القتل الى رجاله

وبينا كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة كان محمد على باشا جالسا في قاعة الاستقبال ، ومعه امناؤه الثلاثة ، وقد ظل فى مكانه هادئا الى أن بدأ الموكب يتحرك ، واقتربت اللحظة الراهبة ، فساوره القلق والاضطراب ، وساد القاعة صمت عميق ، الى أن سمع اطلاق اول رصاصة ، وكانت ايدانا ببدء المذبحة ، فوقف

(١) ذكر المسيو فولابل فى كتابه (مصر الحديثة) ان هذا المملوك بقى على قيد الحياة حتى ظهور كتابه سنة ١٨٣٢ وأنه لجأ الى الاستانة حيث دخل فى خدمة السلطان

محمد على وامتنع لونه ، وعلا وجهه الاصفرار ، وتنازعت له الانفعالات المختلفة ، وأخذ يسمع دوى الرصاص وصيحات الذعر والاستغاثة وهو صامت لا ينبس بكلمة ، الى أن حصد الموت معظم المالك ، وأخذ صوت الرصاص يتضاءل ، وكان ذلك إعلاناً بانتهاء المؤامرة ، وعندئذ دخل عليه المسيو ماندريشى طبيبه الايطالى وقال له « لقد قضى الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم » ، فلم يجب محمد على بشئ ، وطلب قدحا من الماء فشربه جرعة طويلة ، وخرج الكتخدا بك وأخذ يجهز على الباقين من المالك لم يكن أحد من سكان القاهرة يتنبأ قبل أن تقع المذبحة بما خبأه القدر بين أسوار القلعة ، فكانت الجماهير يعلوها الابتهاج محتشدة فى الشوارع المدة لسير الموكب تنتظر مروره ، ولقد مرت طليعة الموكب بين جموع المتفرجين ، وأخذ الناس يترقبون بلهف مرور الصفوف التى تليها ، ثم انقطع تلاحق الصفوف ، فمجب الناس وطفقوا يتساءلون عن السبب ، وذهبت افكارهم فى تفسير ذلك مذاهب شتى ، وفيما هم ينتظرون قدوم الصفوف المتأخرة سمع المحتشدون فى ميدان الرملة الذى أسفل القلعة صوت الرصاص يدوى فى الفضاء بعد أن أقفل باب العرب ، فسرى الذعر الى الناس إذ وصل خبر المذبحة الى الجماهير القريبة من القلعة ، وصاح صائح « قتل شاهين بك » وسرعان ما ذاع الخبر بسرعة البرق الى مختلف الانحاء ، ففرقت الجماهير وأقفلت الدكاكين والاسواق ، وهرع الناس الى منازلهم ، وخلت الشوارع والطرق من المارة ، وأعقب هذا الذعر نزول جماعات من جنود الأرنؤود الى المدينة يقصدون بيوت المالك فى انحاء القاهرة ، فاقترحموها وأخذوا يفتككون بكل من يلقونه فيها من اتباعهم ، وينهبون ما تصل اليه أيديهم ، ويغتصبون من النساء ما يحملن من الجواهر والملى والنقود ، واقترفوا فى ذلك اليوم واليوم الذى تلاه من الفظائع ما تقشعر منه الابدان ، ولم يكتفوا بالفتك بمن يلقونه من المالك ونهب بيوتهم واغتصاب نسائهم بل تجاوزوا بالقتل والنهب الى البيوت المجاورة ، وبلغ عدد المنازل التى نهبوها خمسمائة منزل ، وأصبح اليوم التالى (السبت) والسلب والنهب والقتل مستمر فى المدينة ،

واضطرب محمد على باشا الى النزول من القلعة في ضحوة ذلك اليوم وحوله رؤساء
جنده وحاشيته لوضع حد للنهب والاعتداء ، فر بالاحياء المهمة التي كانت هدفا
لعدوان الارناؤود ، أمر بقطع رؤوس من استمروا في النهب والاعتداء ، وكذلك
فعل طوسون باشا

قال الجبرتي « ولولا نزول الباشا وابنته في صبح ذلك اليوم لنهب العسكر بقية
المدينة وحصل منهم غاية الضرر »

ونُبه على الارناؤود بأن يقتصروا على التقبض على الممالك الذين بقوا أحياء
لتخلفهم عن الذهاب الى القلعة في اليوم المشهود وارسلهم الى القلعة ، فكان
السكرتخدا بك يأمر بقطع رؤوسهم ، ولم ينج منهم الا من هرب من المدينة
مختفيا وهاجر الى الوجه القبلي ، وكذلك أصدر محمد على أمره الى كشف المديريات
باعتقال كل من يلقونه من الممالك وقتلهم

بلغ عدد من قتلوا من الممالك في القلعة وفي انحاء القاهرة والمديريات في تلك
الايام الرهيبة نحو ١٠٠٠ من أمراء وكشاف وأجناد وممالك

وقد ذكر الجبرتي أسماء من لم شهرة ممن قتلوا بالقلعة وبلغه خبرهم ، وهم شاهين بك
كبير الممالك الألفية ، ويحيى بك ، ونعمان بك ، وحسين بك الصغير ، ومصطفى بك
الصغير ، ومراد بك ، وعلى بك ، وهؤلاء من الأمراء الألفية ، ومن غيرهم أحمد
بك الكيلارجي ، ويوسف بك أبو دياب ، وحسن بك صالح ، ومرزوق بك ابن
ابراهيم بك الكبير ، وسليمان بك البواب ، وتابعه احمد بك ، ورشوان بك ،
وابراهيم بك ، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير ، وسليم بك الدرجمي ، ورستم
بك الشرفاوي ، ومصطفى بك أيوب ، ومصطفى بك تابع عثمان بك حسن ، وعثمان
بك ابراهيم ، وذو الفقار تابع جوهر ، ومن الكشاف (الحكام) على كشف
الخازندار ، وعثمان كاشف الحبشي ، ويحيى كاشف ، ومرزوق كاشف ، وعبد العزيز
كاشف ، ورشوان كاشف ، وسليم كاشف ، وفايد كاشف ، وجعفر كاشف ، وعثمان
كاشف ، ومحمد كاشف ، واحمد كاشف الفلاح ، واحمد كاشف صهر محمد اغا ،

وخليل كاشف ، وعلى كاشف قيطاس ، واحمد كاشف ، وموسى كاشف
نفذ القضاء في ذلك اليوم على فئة المماليك ، ولم يبق منهم الا عدد ضئيل
ممن بقوا مع ابراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن الذين لم يطعموا من قبل لمصلحة
محمد علي باشا وبقيا في الصعيد ومعها ذلك الرهط من المماليك ، فلما بلغهم نبأ مذبحه
القلعة مضوا جنوبا الى ما وراء اسوان وأوغلوا في اقليم النوبة ودنقلة ، ونجا أيضا
من القتل عدا هؤلاء نحو ستين مملوكا فروا الى سورية

الرأى فى مذبحه القلعة

تلك هى الواقعة الشهيرة بمذبحه القلعة ، ونحن هنا لا نريد ان ندافع عن
المماليك ، فاننا عددنا عليهم من المساوىء التى ارتكبوها والمضار التى جلبوها على
البلاد ما يعنى عن البيان ، ولكن مهما بلغت سيئاتهم فان القضاء عليهم بوسيلة
الغدر أمر تأباه الانسانية ، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجها لوجه
حتى تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرا له ولسمعته ، ولا يسوغ فعلته
أن هذه الوسيلة كانت مألوفة في ذلك العصر ، وأن هذه المؤامرة هى صورة مكبرة
لما أمر به الباب العالى سنة ١٨٠٤ من الفتك بالمماليك ، إذ عهد الى الصدر
الاعظم والى حسين قبطان باشا أن يقضى عليهم بهذه الطريقة نفسها (١) ، فان
تكرار السيئات لا يبررها ، وبالجملة فمذبحه القلعة كانت نقطة سيئة في تاريخ
محمد علي باشا

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم انه اضطر اليها دفاعا عن نفسه
وان المماليك كانوا ياتمون به حين ذهب الى السويس يتعبد شؤون العمارة المعدة

(١) انظر الجزء الثانى ص ٣١٥ وما بعدها

لنقل الحملة الوهابية، ونفى اليه انهم ينوون الفتك به عند عودته الى القاهرة (فبراير سنة ١٨١١) فخرج من السويس ليلا على غير ميعاد وأسرع في السير حتى دخل القاهرة، ولما تحقق انه لا يأمن فتك المالك به وخاصة اذا انفذ الحملة على الحجاز وملت البلاد من الجنود اعتزم قطع دابرهم، وهذه الرواية لم نجد لها سنداً قوياً، ولا نعتقد ان هذا الحادث هو الذي أوحى الى محمد على تدبير مذبحه القلعة، بل اغلب الظن انها كانت نتيجة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على ذلك الحادث وكان قبله بمدة

ولم تلق مذبحه المالك تبريراً قوياً حتى من أصدقاء محمد على المدافعين عنه وعن حكمه، فانظر مثلاً الى ما كتبه السيوف مانجان وهو صديق للبasha تراه يقول « اننى أبعد ما اكون عن تبرير الفتك بالمالك، على اننى أعده من بعض النواحي خيراً لمصر، فان بقاءهم يفضى الى حرب هي أضر على البلاد من الايقاع بهم، كما ان ارادة الباب العالي كانت تؤدي الى استمرار تلك الحرب، فالضربة الجريئة التي ضربها محمد على تنفيذاً لاوامر الباب العالي السرية قد قضت على نظام كانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجاً، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل البasha، ومن جهة أخرى فان الدفاع عن سلامته كان يقضى ان يلجأ الى طرق حازمة، فقد كان محاطاً بمنحود فطروا على الشغب والفوضى، وكان مضطراً الى انفاذ جزء كبير من قواته الى جزيرة العرب، فكان عليه أن يفكر في اضعاف خصومه الذين يزدادون في هذه الحالة قوة ونفوذاً، فقد بلغه على ما قيل انهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس، ولما علم ان السياح من الأفريج يلوونونه في رحلاتهم وكتبهم على اغتيال المالك ويعدونهم عملاً منافياً للانسانية صرح بأنه ينبغي ان يرسم صورة يضع فيها مذبحه المالك بجانب حادثة اغتيال الدوق دانجان (١) D. Engein ليحكم الناس على الحادثتين »

(١) الذي اتهمه نابليون ظلماً بالتآمر عليه وأمر بقتله في محاكمة صورية

ويقول المسيو جومار وهو الذى جعله محمد على باشا مديرا لاول بعثة مدرسية
مصرية فى فرنسا

« لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على
هدفا لاحكام التاريخ القاسية »

هذا ، واذا نظرنا الى هذه الحادثة من الوجهة القومية البحتة وجدنا ان
البقية الباقية من المماليك كان قد ضعف شأنهم وتقلت اظفارهم حتى لم يبق من
وجودهم خطر على نفوذ محمد على وسلطانه ، فماذا كان يستطيع ابراهيم بك
وعثمان بك حسن وغيرهما ان يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من المماليك
الذين كانوا يحيطون بهم ؟

وماذا كان يستطيع أن يفعل شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك
وغيرهم وقد تركوا اخوانهم فى الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا
حياة الكر والفر لينعموا بالرفاهية ورغد العيش ؟ ما نظن مطلقا أن ثمة خطرا
كان يهدد محمد على من هذه الناحية ، وما نظنه كان فى حاجة الى التخلص
من تلك البقية الباقية من المماليك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر

ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان له اثر
عميق فى حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحه القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس ه
وكان من نتائجها ان استولت الرهبة على القلوب ، فلم يعد ممكنا الى زمن طويل
ان تعود الشجاعة والطمأنينة الى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه
الامم الطامحة الى العلا ، وهى قوام الأخلاق والفضائل القومية ، فإذا فقد الشعب
الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها ،
فالرهبة التى استولت على النفوس بعد مذبحه القلعة كان لها أثرها فى اضعاف قوه
الشعب الخلقية والمعنوية ، وتلك خسارة قومية كبرى ، فانما الامم أخلاق وفضائل ،
اضف الى ذلك أن هذه الحادثة وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد
تطلعت الى مراقبة ولادة الأمور ودبت فيها روح الحياة والديمقراطية ، وتعددت

مظاهر هذه الروح بما رأيت من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم ، فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح الى زمن طويل ، وأحلت في مكانها روح الرهبة من الحكم ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد علي باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبدُ من الشعب في خلال السبع والثلاثين سنة التي قضاها في الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد ، وغنى عن البيان انه مع ما أسداه محمد علي من الخير للبلاد في خلال حكمه فإنه لم يعرض على الشعب ما فقدته من تلك الناحية الخلقية ، ناحية الشجاعة الادبية والروح الديمقراطية ، تلك الناحية التي هي من أركان عظمة الامم ومن دعائم حياتها القومية



الفصل الخامس

تحقيق الاستقلال القومى

حروب مصر فى عهد محمد على

نظرة عامة فى تلك الحروب من الوجهة القومية

ان حروب مصر فى عهد محمد على باشا هى التى مكنتها من تحقيق استقلالها القومى ، ولولا تلك الحروب لما تكون ذلك الاستقلال ولرجعت البلاد الى عهد الحكم التركى وبقيت زمنا لا يمكن تقديره ولاية تحكمها تركيا كما كانت تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية ، يتعاقب عليها الولاة كل سنة أو سنتين فى ميدان الحروب تكونت الدولة المصرية الحديثة ، وحققت استقلالها ، وكذلك قضت سنة الله فى الامم أن لا يأتىها استقلالها رغدا ، بل تخوض اليه غمار المتاعب والضحايا والآلام ، تنله بالقوة ، وتحافظ عليه بالقوة ، وإذا ماتراخت قوة الامة واعتراها الوهن والضعف ، أو تطوحت وركبت من الشطط ، أو تخاذل أبناؤها وتفرقت كتبهم ، التوى عليها القصد ، واستهدف استقلالها للخطر ، ولا يلبث ان تعصف به اطماع الغراة والمستعمرين ، وقضت سنة الله فى خلقه ان الدول الفتية لا تتكون ولا تنشأ الا فى ميادين القتال والنضال ، وما المعاهدات التى تعترف بوجود الدول الحديثة واستقلالها المنظمة ومقررة لنتائج الحروب والانقلابات التى يتحقق فيها ذلك الاستقلال

فتلك الحروب التى خاضت مصر غمارها فى عهد (محمد على) هى السبيل التى أوصلتها الى تحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها ، وحفظ كيانها ، وبلوغ مركزها

الدولى ، والمكانة التى نالتها بين الدول هى ثمرة تلك الحروب أولا
على هذا الاعتبار ننظر الى حروب مصر فى عهد محمد على ، فهى من الوجهة
القومية سبيل الاستقلال الذى نالته فى تاريخها الحديث ، وما الوقائع ، والمعارك ،
والاسماء ، والحوادث التى تخللها إلا معالم لهذا السبيل ، لذلك وجب علينا أن
نستعرض هذه الحروب وتتابع وقائعها ، ونتبين نتائجها فى تكوين مصر المستقلة

الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

ان الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ كانت أول حرب اشتبكت فيها
مصر دفاعا عن كيانها ، وكانت فاتحة سعيدة لحروب مصر فى ذلك العصر ، لانها
انتهت باخفاق انجلترا فيما كانت ترمى اليه من احتلال مصر ، وقد استوفينا الكلام
عن تلك الحرب فى الفصل الثانى

الحرب الوهابية

١٨١١ — ١٨١٩

ان جزيرة العرب هى أول ميدان لحروب مصر الخارجية فى عهد محمد على ، وكانت
الحرب فيها من أشق الحروب التى خاضت غمارها وأطولها مدى ومن أكثرها ضحايا
ومتاعب ، جردت مصر فى خلالها حملات عدة كلفتها الضحايا الكثيرة فى الارواح
والأموال ، ولقى فيها الجنود الشدائد والاهوال فى قطع المراحل البعيدة المترامية بين
الفيافي والقفار ، ونالهم المتاعب والايصاب ، من وعورة الطرق ، وشدة القَيْظ
تضطرم به الارض والسماء ، الى قلة المؤونة وندرة المياه وفقدانها فى معظم الجهات ،
الى محاربة عدو مستبسل بدل النفس والنفس دفاعا عن وطنه
تحملت مصر فى الحرب الوهابية خسائر جسيمة ، وان فداحة تلك الخسائر

لندعونا أن نتساءل عن السر في اهتمام محمد على باشا بخوض غمار تلك الحرب الضروس، وبذل ما اقتضته من الجهود والضحايا، واحتمال أعبائها سنوات عدة متوالية بلا هوادة ومن غير أن يتردد في متابعتها أو يثنيه عنها ما أصاب الجيش في بعض أدوارها من الهزائم والمهالك، بل كان كلما أخفقت حملة جرد الأخرى حتى بلغ النصر والظفر

نتساءل عن ذلك وخاصة لأن الحرب الوهابية قد تبدو غير ضرورية ولا لازمة لمصلحة مصر، ولم يخض غمارها إلا استجابة لنداء تركيا، فإن حكومة الاستانة ما فتئت في مختلف المناسبات تدعوه إلى تجريد جيوشه لمحاربة الوهابيين، طلبت إليه ذلك في أواخر ديسمبر سنة ١٨٠٧ قبل أن يمضي عامان على ولايته، إذ ورد إليه فرمان بتجديد ولايته واسناد منصب الدقتردار (مدير الشؤون المالية) إلى ابنه إبراهيم، وتكليفه في الوقت ذاته إرسال الجنود إلى الحجاز لقمع الفتنة الوهابية، وجددت تركيا هذا الطلب بل ذلك الأمر سنة ١٨٠٨ ثم ١٨٠٩، وكان محمد على في كل مرة يتعلل باشتغاله بمحاربة المماليك، فلما انتهى من حملته عليهم بالوجه القبلي وعاد إلى القاهرة في سبتمبر سنة ١٨١٠ إلى رسولاً من الاستانة يحمل إليه رسالة جديدة تقضى بتكليفه الإسراع في تجريد الجيش لمحاربة الوهابيين، فلم يستطع وقد فرغ من محاربة المماليك أن يتمحل الأعذار القديمة في التأجيل والتسويف، وبادر إلى الاستجابة، وأبدى اهتماماً كبيراً بتهيئة معدات الحرب في الحجاز، ومن يومئذ اعتزم السير بالحملة حتى تصل إلى غايتها وهي القضاء على الدولة الوهابية في شبه جزيرة العرب، فما هي إذن مصلحة مصر ومصلحة محمد على باشا في الاقدام على تلك الحملة الشاقة؟

إن محمد على لم يكن ليغفل عما بينه وبين تركيا من سوء الظن المتبادل، ولم يغرب عن ذهنه أن حكومة الاستانة سعت غير مرة لتقتله من عرش مصر، وأن القوة هي التي ردت يدها وحالت دون تحقيق مرادها، ولكنه لم يأتها نداءها في الحملة على

الحجاز لانه رأى فى خوضه غمار الحرب الوهابية تمكيننا لسلطته ورفعنا لشانه وشأن مصر واعلاء مكانتها

ذلك أنه لما استفحلت الدعوة الوهابية انفدت تركيا لاختادها حملات عدة رجعت بالخيبة والفشل ، وتعطلت شعائر الحج ، وامتنع ورود عشرات الآلاف من الحجاج من انحاء الشرق ، قفزت هيبة تركيا وأثرث هذه الحالة فيها تأثيرا كبيرا ، ووقع الشك فى مقدرة السلطان العثمانى على الاضطلاع بمهمة «حامى الحرمين الشريفين» تلك التى كانت تجعل لتركيا المقام الممتاز بين الممالك الاسلامية

فرأى محمد على انه اذا نجح حيث اخفقت تركيا واستطاع بقوة جيشه ان يقضى على دولة الوهابيين ويستخلص منهم الاراضى المقدسة، فلا جرم أن يتوطد مركزه وتسمو مكانته حيال تركيا ، فلا تعود تفكر فى عزله او تغييره ، ولا تستطيع ان تعامله معاملة سائر المولاة الذين كانت تتصرف فيهم بالعزل والنقل ، بل يدعوها تطور الحوادث الى ان تعامله معاملة الند للند ، أو الخليف للحليف ، ويتدرج مركزه من وال تابع الى حاكم مستقل ، اصف الى ذلك انه اذا لم يلب دعوة السلطان ويتأهب لمحاربة الوهابيين فان ذلك يكون مبررا لعزله ، ولم يكن مركزه بعد قد استقر حتى لا يحسب حسابا لاوامر الاستانة ، بل كان عليه ان يتقى شرها حتى ترسخ دعائم ملكه

فلحرب الوهابية كانت اذن وسيلة لتوطيد مركز محمد على ، كما انها سبيل لرفع شأن مصر ، واعلاء مكانتها ، وتمهيد لتنبؤ المركز الذى نالته من بعد بين الدول وأغلب الظن أن فكرة الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر قد بدأت تملك عليه مشاعره من ذلك العهد ، وأنه أخذ يعمل لها من طريق الفتح والحرب ، وليس ثمة حرب تعلل مكانة مصر وتقللها مركزا ممتازا وتكسيبها عطف الشرق والعالم الاسلامى مثل الحرب الحجازية ، فقد كانت الغرض منها انقاذ الحرمين الشريفين من تحكم فرقة الوهابية ، وتجديد ما بين الامم الاسلامية من الصلات

الادبية والاقتصادية ، واعادة مناسك الحج وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الارض ومغاربها

واذا رجعت الى الماضي ، وتذكرت ما فعله على بك الكبير رئيس المماليك عند ما تولى حكم مصر سنة ١٧٦٣ (١) تجد انه عند ما سعى الى الاستقلال والتخلص من الحكم العثماني وأعلن انفصاله عن تركيا وعزل الوالى التركى كان أول ما وجه اليه عزمه أن جرد جيوشه على جزيرة العرب وفتح معظمها وبسط نفوذه على الحجاز ، فاستحق اللقب الذى اسبغه عليه شريف مكة وهو « سلطان مصر وخاقان البحرين »

فمحمد على قد خاض غمار الحرب الوهابية لالمصلحة تركيا ، بل تثبيتا لمركزه ، واعلاء لشأن مصر ، وقد حققت الأيام صدق نظره ، إذ عظمت منزلته حيال تركيا خلال الحرب الوهابية وبعد انتهائها ، وعلت مكانة مصر الحربية والسياسية ، وامتدت سلطتها الى جزيرة العرب ، وانبسطت رقعتها واتسعت حدودها ، فان الجيوش المصرية التى جردها محمد على لحرب الوهابية لم تنسحب منها بعد كسر الوهابيين ، بل ظلت تحتلها وأخذت الحكومة المصرية تبسط سلطانها فى أصقاع الجزيرة ، وتنصب لها الحكام وقواد الجند ، كما أن تركيا كلفت محمد على باسناد مشيخة الحرم المكي وولاية جدة الى ابنه ابراهيم فاتسع فعلا نطق مصر ، وضمت اليها بلاد الحجاز ونجد والعسير وجزء من اليمن ثم وصلت سيادتها الى شاطئ الخليج الفارسى ، اى ان نفوذ مصر قد امتد الى معظم جزيرة العرب ، وظل كذلك الى ان اضطربت الاحوال السياسية سنة ١٨٤٠ واضطرت مصر الى سحب جنودها كما سيجىء بيانه

وكان لمحمد على أغراض أخرى محلية أدركها من الحملة الوهابية ، أهمها التخلص من طوائف الجنود الارناء ودو الدلاة الذين القوا التمرد والشغب ، فقد

رأيت كيف ازداد طغيانهم وتمردهم حتى صاروا خطرا على الأمن وعقبة دون استقرار سلطة الحكومة (١)، فكانت الحملة الوهابية خير فرصة انتهزها محمد على ليقذف بتلك الطوائف المتمردة الى الاصقاع النائية من جزيرة العرب لعله في غيبتهم يستطيع أن يدخل النظام الجديد في الجيش المصرى ، وقد سعى الى ذلك فعلا خلال الحملة الوهابية وان كانت ظروف الاحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه فارجاه الى سنة ١٨٢٠ كما سند كره في حينه

وكذلك كانت الحملة ذريعة لاطلاق يد الحكومة في فرض ما تشاء من الضرائب والاتاوات من غير أن يجد الشعب مسوغا للاعتراض عليها ، فإن حجة محمد على باشا فيما فرضه اثناء الحملة الوهابية من مختلف الضرائب والاتاوات الفادحة ان الحكومة في حاجة الى المال لانفاقه على حرب مقدسة ترمى الى استرداد الحرمين الشريفين وتأمين سبيل الحج ، فهي من هذه الناحية جهاد مفروض وكذلك الانفاق عليها

تلك هي البواعث التي جعلت محمد على يقدم على تلك الحرب الشاقة ، والان فلنقل كلمة عن الوهابية ونشأتها ، ثم نتكلم بعد ذلك عن الحملة ووقائعها

الدعوة الوهابية

ظهرت الدعوة الوهابية في جزيرة العرب حوالى منتصف القرن الثامن عشر على يد زعيمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولذلك نسبت اليه وسمى اتباعه وانصاره الوهابيين

ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) في (العيينة) من بلاد نجد ، ونشأ بها وقرأ القرآن وحفظه ، وتلقى العلم عن أبيه الذى تولى القضاء في بعض

بلدان العارض (١) ، وحج الى بيت الله الحرام وهو بعد في سن الشباب ، ثم قصد الى المدينة المنورة واقام بها نحو شهرين ، ثم عاد الى بلده واشتغل بدراسة الفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل ، وكان حاد الفهم ، شديد الذكاء ، سريع الادراك والحفظ ، قوى الرغبة في العلم ، رحل في طلب العلم فقصد الى البصرة والحجاز مرارا ، وجاء (الحسا) وكانت آهلة بالمشايخ والعلماء ، وطالت اقامته بالبصرة يتلقى فيها العلم ويقرأ كثيرا من كتب الحديث والفقه واللغة ، فاتسع في كل ذلك ، ثم عاد الى ارضه وموطنه

كان محمد بن عبد الوهاب حنبلي المذهب ، يميل الى الشدة في التعاليم الدينية ، ولا يأخذ بالرخص ، فاستنكر كثيرا من البدع الفاشية بين المسلمين ورأى فيها شركا بالله ، فدعا الى التوحيد وصنف فيه كتابا ، وحدثه نفسه أن ينقى الدين ويخلصه مما دخله من البدع ، فدعا قومه الى نبذها وطرح كل ما لم يرد في القرآن والسنة من الاحكام والتعاليم ، والرجوع بالدين الى فطرته وبساطة الاولى ، وقد أخذ دعوته من طريقة الامام ابن تيمية ، فللذهب الوهابي هو في أصوله المذهب الحنبلي ، والفكرة التي دعا اليها محمد بن عبد الوهاب في أصلها وجوهرها فكرة صالحة ، ولكنه غلا فيها وتشدد ، حتى صار أساسها تكفير كل من لم يأخذ أخذه ولا يتبع تعاليمه ، واعتباره مشركا بالله ، ومن هنا جاءت تسمية الوهابيين للمخالفين لهم « مشركين » ، ومثل هذه الدعوة قد تصادف نجاحا وتبهدلها الاتباع في بلاد فطر أهلها على الخشونة والبداءة ، ولكنها تتعارض ومقتضيات الحضارة والعمران فمن تعاليم الوهابية تحريم لبس الحرير وشرب الدخان والتبناك ، وكذلك تحريم اقامة المزارات ونصب القباب على القبور واعتبارها مخالفة لاحكام الدين ثم الدعوة الى هدمها ، وغير ذلك من التعاليم المنطوية على التشدد والغلو ، على أن

هذا الغلو لم يسيء الى الدعوة الوهابية بمقدار ما أساء اليها اسراف أنصارها في القسوة وارتكابهم الفظائع مع مخالفيهم في المذهب والعقيدة

دعا محمد بن عبد الوهاب قومه الى الاخذ بتعاليمه ، فذلت دعوته نجاحا بين أهل نجد ، وأخذ يكسب الاعوان والانصار خلال عدة من السموات دون أن تأبه له الحكومة العثمانية ، ولكن حدث يوما أن قدمت اليه امرأة متهمه بالزنى ، وثبتت عليها التهمة ، فأمر برجمها فقتلت على الفور ، ولم تكن هذه العقوبة مما تسيغه النفوس ، فأحدثت استياء شديدا وانتهى نبؤها الى حاكم الحساء التي تمتد سلطته الى العيينة ، فأرسل يتهدد الشيخ بالقتل اذا لم يرجع عن طريقته ، ولما علم بذلك أنصاره اقبلوا يعرضون عليه أن ينزل بينهم ويكون في حماهم ، فرحل الى مدينة (الدرعية) إذ كان أميرها (محمد بن سعود) ، فاعجب الأمير بدعوته واعتنقها ، وأوى اليه محمد ابن عبد الوهاب

كانت (الدرعية) من اكبر بلاد نجد ، فرأى فيها محمد بن عبد الوهاب خير مثابة لنشر دعوته ، وأخذت من ثم تستفيض بين القبائل وأعلن الأمير محمد بن سعود مناصرته للتعاليم الوهابية ، وتعاهد والزعيم على التعاون في نشر الدعوة على أن يؤيد سيادة الأمير بين العرب (سنة ١١٥٧ هـ - ١٧٤٤ م) ، ومن يومئذ اتخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الدرعية) مقرا له وأخذ يبعث منها دعوته وكان يأتي اليه فيها اتباعه ومناصروه يتلقون عنه ، وأخذ هو كذلك يوفد الرسل الى البلاد لنشر الدعوة الى التوحيد ، وأيد الأمير محمد بن سعود هذه الدعوة بحد السيف ، فدعا القبائل والبلاد المجاورة الى الأخذ بها او يقتلهم ، فلم تمض عدة من السنوات حتى عمت الدعوة معظم بلاد نجد ، وحارب الأمير قبائل عدة كانت تنابوئ الوهابية الى أن توفي سنة ١٧٦٥

تخلفه في تلك السنة ابنه الأمير (عبد العزيز بن سعود) ، وكان من أشد أنصار الدعوة ، فأصابت في عهده نموا وانتشارا ، وامتد نفوذه السياسي الى معظم

بلاد نجد ونجواؤها الى بعض انحاء الحجاز واطراف العراق ، وتوفي محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢ م) بعد أن قويت دعوته واستفاضت بين القبائل وقد حاول شريف مكة (الشريف غالب بن مساعد) أن يصد دعوة الوهابيين ونفوذهم بقوة السيف والقتال ، وزحف رجاله على نجد لكنه انهزم أمام قوات عبد العزيز وعاد الى الحجاز

وظلت الدعوة بعد وفاة زعيمها ومؤسسها تنمو وتطرد بفضل تأييد عبد العزيز لها ، وتنكليه بالقبائل التي لاتدين بها ، فامتد نفوذ الوهابيين الى ولاية البصرة ، وزحفوا على (كربلاء) ماثبة الشيعة واستولوا عليها (سنة ١٨٠١) ، وأمعنوا في أهلها قتلا ، ونهبوا المدينة ، وهدموا مسجد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وأخذوا ما في قبته من النفائس والجواهر

ضج المسلمون في سائر الاقطار وخاصة الشيعة من غزوة (كربلاء) وما ارتكبه الوهابيون فيها من الفظائع ، فجاء الدرعية شيعي متنكر واغتال الامير عبد العزيز وهو قائم يصلي العصر في جامع الدرعية (سنة ١٨٠٣)

تخلّفه ابنه (سعود) في الامارة ، واستمر الوهابيون في قوة ومنعة ، ولم يستطع الولاة الترك الغلبة عليهم لا في عهد عبد العزيز ولا في عهد سعود ، فان سليمان باشا والى العراق جرد حملة على (الحسا) لمحاربة الوهابيين فعادت الحملة مدحورة

وصل (سعود بن عبد العزيز) في فتوحاته الى حدود مسقط ، وامتد نفوذه الى شواطئ الخليج الفارسي ، واعتزم فتح الحجاز ، فجرد جيوشه على الشريف غالب ، وزحف الوهابيون على (الطائف) التي تعد مفتاح مكة فاحتلوها (سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠٢ م) ، ثم دخل سعود مكة ظافرا بعد أن جلا عنها الشريف غالب وجنوده الى جدة (محرم سنة ١٢١٨ هـ - ١٨٠٣ م)

وكتب (سعود) الى السلطان سليم الثالث سلطان تركيا ينبئه بهذا الفتح ويخبره انه قد هدم القباب التي فوق القبور ، ويطلب اليه منع مجيء الحمل من دمشق أو القاهرة « فان ذلك ليس من الدين في شيء »

وفى هذه الرسالة ، واخراجه من كان بمكة من الترك ، اعلان بتقلص ظل السلطنة العثمانية عن مكة

واستولى الوهابيون على (المدينة) بعد فتح مكة بسنتين ، ونهبوا نفائس الحرم النبوى وما فيه من الجواهر ، وكانت قيمتها لا تقدر بمال ، ذكر الجبرتى ما ذاع عن قيمتها فقتل أنها « ملأت أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيم القدر ، من ذلك أربعة شمعدانات من الزبرجد وبديل الشمعة قطعة ماس مستطيلة يضى نورها فى الظلام ، ونحو مائة سيف قرابتها ملبسة بالذهب الخالص المطعم بالماس والياقوت ، ونصاها من الزبرجد والبشم ، وسلاحها من الحديد الموصوف ، وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين »

امتدت دعوة الوهابيين الى (عسير) و (اليمن) واتجهت انظارهم الى الشام ، فزحفوا عليها ووصلوا فى زحفهم الى حدود فلسطين ، ولكن دعوتهم لم تلق فى سورية تأييدا لما ارتكبوه من القسوة والفظائع ومنعهم المحمل الذى يصحبه الحجاج من دخول مكة ، وقد خرج عبد الله باشا العظم الى الشام بالمحمل فمنعه الوهابيون من التقدم وقتلوا جنوده ونهبوا الحجاج

تعطلت مراسم الحج السنوية واضطربت تركيا بازاء امتداد دعوة الوهابيين واستيلائهم على الحرمين الشريفين ومنعهم الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم من الحج ، وانتصارهم على الولاة فى العراق والشام ، فاستنجدت بمحمد على باشا وطلبت اليه محاربتهم ، وكان نفوذهم فى ذلك الحين قد بلغ أقصى مداه ، ولم تجب سنة ١٨١١ التى جيز فيها محمد على جيشه لقتالهم حتى كان سلطانهم قد امتد من أقصى الجزيرة الى أقصاها .

معدات الحملة

اتخذ محمد على جهة (القبة) القريبة من القاهرة مسكرا للحملة الى ان يتم تجهيزها ،

وعقد لواءها لنجلاه (احمد طوسن باشا) ، وكان في السابعة عشرة من عمره ، ورتب له أبوه حفلة حافلة لالباسه خلعة القيادة وانتقاله الى معسكر الحملة ، ولما وقعت مذبحة المماليك بالقلعة في اليوم الذي كان محمدا لها (اول مارس سنة ١٨١١) ارجئت الحفلة الى يوم ٣٠ مارس ، ففي اليوم المعهود تحرك موكبه من القلعة الى معسكر الحملة بالقبة وأخذت الحكومة تجهيزها بالرجال والعتاد وقطعت في ذلك ستة أشهر ونصف الى أن صارت على أهبة الرحيل ، وبلغ عدد رجالها ٨٠٠٠ مقاتل منهم ستة آلاف من المشاة وألفان من الفرسان بينهم الكثير من البدو

وتولى ادارة مهماتها السيد محمد المحروقي كبير تجار مصر (١) ، وكان له في اعدادها وتجهيزها ورسم خططها شأن كبير ، قال الجبرتي في هذا الصدد لمناسبة رحيله الى الحجاز « وفيه ١٢ رمضان سنة ١٢٢٦ (٣٠ سبتمبر سنة ١٨١١) خرج السيد محمد المحروقي ليسافر صحبة الركب وخرج في موكب جليل لانه هو المشار اليه في رئاسة الركب ولوازمه واحتياجاته وأمور العربان ومشايخهم ، وأوصى الباشا ولده طوسون باشا امير العسكر ألا يفعل شيئا من الاشياء الا بمشورته واطلاعه ، ولا ينفذ أمراً الا بعد مراجعته »

كان خط سير الحملة ان تقلع السفن بالجند المشاة من ثغر السويس الى (ينفج) ميناء المدينة المنورة ، أما الفرسان وعلى رأسهم طوسون باشا فيسيرون برا من طريق برزخ السويس فالعقبة حتى يبلغوا (ينفج) فيلتقوا بالمشاة بها ومن هناك يزحف الجيش الى وجهته (٢)

وقد استوجب نقل المشاة والمهمات بحرا انشاء عمارة بحرية من السفن ، لأن مصر لم يكن لها الى ذلك الحين اسطول في البحر الاحمر (ولا في البحر الابيض) فاعتمر محمد علي انشاء اسطول لنقل الحملة ، وأبدى في سبيل ذلك من علو الهمة ما جعله مضرب الأمثال في قوة الارادة ومضاء العزيمة ، ذلك ان كل المهمات

(١) هو ابن السيد احمد المحروقي الذي أوردنا ترجمته في الجزء الثاني ص ٣٠٥

(٢) نجد خطط سير الحملة برا مرسوما علي الخريطة الملحقة بهذا الفصل

والأخشاب والمواد اللازمة لإنشاء الأسطول كانت تنقصه ، فجلب الأخشاب من أشجار مصر ، واستكملها من الخارج وخاصة من الأناضول ، وبادر إلى إنشاء السفن في « ترسانة » بولاق ، وجمع لهذا الغرض كل من استطاع جمعهم من صنّاع المراكب ، وتولى الإشراف بنفسه على العمل ، فأخذ الصنّاع يقطعون الأخشاب ويفصلونها قطعاً يضعون على كل قطعة رقماً خاصاً بها ، ثم تنقل على ظهور الجمال إلى السويس لتركب هناك ، ويقال إن عدد الأبل التي استخدمت لهذا الغرض بلغ ثمانية عشر ألفاً ، ولم تمض عشرة أشهر حتى انشئ بالسويس ثمانية عشر مركباً كبيراً تسع أكثر ما أعد للحملة من الجنود والمؤن والذخائر والمهمات

وباشر محمد على ترحيل الحملة ومهماتهما من السويس ، فقلعت بها السفن يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨١١ فاصدة ينبع ، وعاد هو إلى القاهرة ، ثم ارتحل طوسون باشا من بركة الحاج يوم ١٦ أكتوبر يقود حملة الفرسان يتبعها عدد كبير من الأبل تحمل ما تحمل من المهمات والمؤونة والذخائر

وكان يصحب الحملة طائفة من الصنّاع من كل حرفة ، وصحبها السيد محمد المحروق مدير المهمات كما قدمنا ، ومضى معها أربعة من العلماء من أئمة المذاهب الأربعة وهم السيد أحمد الطحطاوى الحنفى ، والشيخ محمد المهدي الشافعى ، والشيخ الخانكي المالكي ، والشيخ المقدسى الحنبلى ، وكان مقرراً سفر السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد (الذى كان له شأن فى مقاومة الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧) ، والشيخ على خفاجى من علماء دمياط ، ولكنهما اعتذرا عن مصاحبة الحملة فاعفيا من السفر .

وقائع الحملة

قلنا إن الحرب التي خاضت مصر غمارها فى صحارى جزيرة العرب وجبالها من أشق الحروب وأصعبها ، لأن الجيش المصرى واجه قوة الوهابية فى أوجها ، وعلى رأسهم أمير شديد المراس قوى الشكيمة بعيد النظر وهو الأمير (سعود بن

عبد العزيز) الملقب بسعود الكبير ، يمتاز موقفه بأنه يحارب حرباً دفاعية ، في بلاده ومفاوزها ، وبين معاقله ورجاله ، على أن الجيش المصرى قد وجد معاضدة من سكان الثغور الحجازية كجدة وينبع ، لأن انقطاع طريق الحج الحق بهم ضرراً كبيراً إذ كانت أرزاقهم تأتيهم من الحجاج ، فكانوا ناقلين على الوهابيين ودعوتهم ، وكذلك اشراف مكة وخاصة الشريف غالب فإن نفوذ الوهابيين قد محق سلطته وإن كانوا سمحوا له بالاقامة في مكة ، وفضلاً عن ذلك فإن محمد على ونجليه طوسون وإبراهيم استطاعوا أن يستميلوا اليهم بعض رؤساء القبائل من انصار الأمير سعود بالعطاء والوعود ، فكانت هذه الوسائل من العوامل التي أيدت مركز الجيش المصرى في الحملة على الحجاز

احتلال ينبع

وصلت الحملة بطريق البحر الى ميناء (ينبع) فاحتلتها دون مقاومة تذكر ، ولم يكن بها سوى حامية من ثلثائة من الوهابيين فر قائلهم وبعض رجاله ووقع الباقون قتلى أو أسرى

احتلال بدر

ثم جاء طوسون باشا بطريق البر يتقدم فرقة الفرسان ، فلما وصلت الفرقة (١) أكتوبر سنة ١٨١١ وتلاقت وحدات الجيش أمر طوسون بالزحف على (المدينة) ، فتحرك الجيش من ينبع وسار الى (بدر) وكان الوهابيون ممتنعين بها ، فاشتبك بهم في معركة دامت ساعتين انتهت باحتلال (بدر) وارتد الوهابيون الى وادى (الصفراء) (١) حيث تحصنوا بها واقاموا الاستحكامات استعداداً لملاقاة الجيش المصرى

(١) تجد بالخريطة الملحقة بهذا الفصل مواقع البلاد التي برد ذكرها في سياق الحديث

هزيمة الصفراء

زحف طوسون على وادى (الصفراء) فى قوة تبلغ ثمانية آلاف من الجنود، وهاجمها الجند حتى صاروا الى طرق ضيقة يشرف عليها الوهابيون من عل، فانهالت القذائف على الجنود وفتكت بهم فتسكا ذريعا، فانقلبت الصفوف الأولى منهزمة ووقع الذعر فيما وراءها، فاختل نظام الجيش وكانت عليه الهزيمة، وتشتت الجند تاركين مضاربهم واتقاهم ومدافعهم، وتراجعوا يرمى بهم الرعب قاصدين الساحل. كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى فقد فيها الجيش المصرى نحو ستمائة قتيل، وفقد معظم مدافعه وذخيرته وارزاقه، ورجعت فلوله بغير نظام الى ينبع، وقتل منهم عدة آلاف فى الطريق بحيث لم يبق من الجيش بعد ان رجع الى ينبع غير ثلاثة آلاف، ولو أن الوهابيين الذين دافعوا عن وادى (الصفراء) كانوا أكثر عددا وأكثر دراية بفنون القتال لتعقبوا جيش طوسون باشا بعد الهزيمة وكان من المحقق ألا ينجو منه أحد

بعث طوسون بنبا هذه الهزيمة الى أبيه ونسبها الى اختلاف قواده وتقصيرهم، وكان أكثر الجنود والضباط الهاربين من الارناءود، ثم طلب طوسون المدد كي يسد الفراغ الذى وقع فى صفوف الجيش، فتأثر محمد على باشا لهذه الهزيمة تأثرا شديدا، وارسل يستدعى رؤساء الجيش المسؤولين عنها، وعاد بعضهم الى مصر من تلقاء انفسهم، فغضب عليهم محمد على واقصاهم عن مراكرهم ونفاهم من مصر، وكان منهم (صالح قوش) رئيس الجند الارناءود الذى كان له شأن خطير فى مذبحه المالك بالقلعة لم تضع هذه الهزيمة من عزيمة محمد على باشا، بل قابلها بالجلد والثبات، وأخذ يعد العدة لارسال حملة جديدة الى الحجاز قال الجبرتي فى هذا الصدد:

« ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته فى تجهيز عساكر أخرى وبرزوا الى خارج البلدة »

واضطر محمد على باشا للقيام بنفقات الحملة الى فرض ضرائب جديدة، فاستوفى

الضريبة من باقى الاطيان الموقوفة ، وطلب اتاوة من القرى ، وكان الفلاحون بمنزلة من الضنك والفاقة ، فاذن لهم أن يؤدوها غلالا ، وأمكنه أن يؤمن منها الجيش المصرى فى الحجاز

موقف طوسون باشا

بقى الوهابيون بعد انتصارهم فى واقعة (الصفراء) فى معاقلمهم لايفكرون فى مهاجمة طوسون باشا ينبع ، واكتفوا بتحسين المدينة ، وانتهز طوسون هذه الغفلة وأخذ فى فترة انتظار المدد من مصر يستميل القبائل الضاربة بين ينبع والمدينة بالمال والهدايا ، وقد رأى أن هذه الوسيلة اعود عليه بالنفع من الانتصار على الوهابيين فى معركة بل معارك ، كما أنها هى الوسيلة الفعالة فى التغلب عليهم ، وقد نجح فعلا فى خطته هذه ، وأرسل له محمد على باشا صناديق الأموال والسكاوى لتفريقها على رجال القبائل ، فهدت له السبيل للاستيلاء على المدينة ومكة

احتلال الصفراء

تلقى طوسون باشا المدد ، فتحرك قاصدا المدينة ، وانضم اليه كثير من القبائل من عرب (جهينة) (وحرب) ، واحتل الصفراء بدون مقاومة بفضل مؤازرة العرب المواليين له .

قال الجبرتي فى هذا الصدد : « فى ٢٤ رمضان سنة ١٢٢٧ (أول أكتوبر سنة ١٨١٢) وردت هجامة مبشرون باستيلاء الاتراك (١) على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدير شريف مكة (الشريف غالب) ، ولم يجدوا بها أحدا من الوهابيين ، فعند ما وصلت هذه البشائر ضربوا مدافع كثيرة تلك الليلة من القلعة »

(١) كذا يسمى الجيش المصرى ، وكان الجبرتي يعطف كثيرا على الوهابيين ويدافع عنهم ويتنقد الحملة عليهم

فتح (المدينة)

تابع الجيش سيره حتى بلغ أسوار المدينة ، وكانت الرحلة اليها شاقة مضية تسكبد فيها الجنود المتاعب والأهوال لوعورة الطرق وبعد المسافات واشتداد الحر ، فأمر الجنود أن يسيروا في الليل ويستريحوا في النهار ، فقطع الجيش في رحلته ثلاث ليال حتى بلغ المدينة ، ف ضرب عليها الحصار ، وتفادى اطلاق القنابل عليها خشية أن تصيب الحرم النبوي الشريف فاستعاض عن الضرب بوضع لغم تحت سور المدينة استعدادا لنفسه ، وأنذر السكان بأن يلزموا بيوتهم حتى لا يصيبهم مكروه ، وفي الموعد المضروب اشعل اللغم ففسف جزءا كبيرا من السور وفتح ثغرة دخل منها الجنود ، فقتلوا من أدركوهم من الحامية الوهابية واحتلوا المدينة ، فكان احتلالها أول انتصار كبير للجيش المصري في حرب الحجاز ، وأرسل طوسون مفاتيح المدينة الى أبيه في مصر وبشره بهذا النصر المبين ، فاذيع الخبر في العاصمة وأطلقت المدافع من القلعة ابتهاجا بهذه البشرى

قال الجبرنى في هذا الصدد : « في ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٢٧ يوم الاضحى وردت هجانة من ناحية الحجاز وعلى يدهم البشائر بالاستيلاء على قلعة المدينة المنورة ، ونزول المتولى بها على حكمهم ، وأن القاصد الذى أتت بشائره وصل الى السويس وصحبته مفاتيح المدينة ، فحصل للبasha (محمد على) بذلك سرور عظيم ، وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد »

وتقدم المصريون فاحتلوا (الحناكية) شمالى المدينة

فتح مكة (يناير سنة ١٨١٣)

عاد طوسون باشا الى ينبع واقلع منها الى جدة فاحتلها ، واستقبله بها الشريف غالب وسار منها الى مكة فدخلها دخول الظافر ، وكان لمعاونة الشريف غالب وقبائل عرب الحجاز التى استأهلها بالمال اثر كبير فى استيلاء الجيش المصرى عليها

وقد وردت الانباء الى مصر بفتح مكة فزيقت المدينة خمسة أيام متواليات
ابتهاجا بهذا الفتح المبين

قال الجبرتي « وفي يوم الثلاثاء ٧ صفر سنة ١٠٢٨ (٩ فبراير سنة ١٨١٣)
وردت بشار من البلاد الحجازية باستيلاء العساكر على جدة ومكة من غير حرب،
فصربوا مدافع كثيرة ، ونودي في صبح ذلك بزينة المدينة ومصر وبولاق ، فزيقت
خمسة أيام أولها الاربعاء وآخرها الأحد »

احتلال الطائف

وبعد أن وطد طوسون باشا مركزه في مكة تقدم الى (الطائف) فاحتلها في
٢٩ يناير سنة ١٨١٣

تخرج موقف الجيش المصري

رأيت مما تقدم مبلغ ما ناله الجيش المصري من الانتصارات المتوالية ، واحتلال
المدينة ومكة وأهم واقع الحجاز ، على أن هاتيك الانتصارات لم تلبث أن أعقبها
تخرج مركز الجيش ، ذلك أن الأمير (سعود بن عبد العزيز) ظل منذ نزول
الجيش المصري الى ينبع يرقب تطور القتال دون أن يخاطر فيه ، وترك لبعض
انصاره الاشتباك مع الجيش المصري في المعارك المتقدمة ، وأخذ هو في خلال الفترة
يدرس أساليب الجيش المصري في الحرب ، ويتعرف مبلغ قوته ، ويرسم الخطط ،
ويستعد للملاقاة في الوقت المناسب ، فلما بلغه نبأ احتلال (الطائف) أمر قواته
بالزحف ، وكانت مؤلفة من جيشين ، الأول يقوده هو بنفسه ، والثاني بقيادة ابنه
(فيصل) ، فزحف الجيشان بمجموعهما على مكة والمدينة ، وأخذ الوهابيون يقطعون
المواصلات بين المدينتين

ادرك طوسون حرج موقفه ، فبادر الى ملاقاته ، وشرع في مهاجمة المراكز التي
احتشد فيها الوهابيون

هزيمة الجيش المصرى فى (ترابه)

اتخذ فيصل مدينة (ترابه) معسكرا له واحاطها بالخنادق ، فانفذ طوسون جيشا بقيادة مصطفى بك أحد قواده لمهاجمة فيها ، فسار اليها مصطفى بك بجنوده وضربوا عليها الحصار ، لكن الوهابيين انقضوا عليهم ، وكانوا بقيادة سيدة من نبلائهم تدعى غالية اثار فيهم الحمية والحماسة فاعملوا فى الجيش المصرى قتلا الى أن وقعت عليه الهزيمة وارتد بغير نظام الى الطائف بعد ان ترك مدافعه وذخيرته

اخلاء الحناكية

وفى الوقت نفسه أخذ الامير (سعود بن عبد العزيز) فى قوة من عشرين الفا يهاجم (الحناكية) التى كانت ترابط بها حامية من الجيش المصرى بقيادة عثمان كاشف ، وهى تبعد عن المدينة بنحو عشرين فرسخا ، فدافعت عنها الحامية دفاعا شديدا ، لكنها اضطرت للتسليم امام جموع الوهابية ، فاحتل الوهابيون (الحناكية) وساروا قاصدين الزحف على المدينة

تغير الموقف الحربى ، ورجحت كفة الوهابيين ، فان هزيمة الجيش المصرى فى (ترابه) واخلاء (الحناكية) قد اضعف مركز طوسون باشا ، وأخذ الوهابيون يهاجمون المخافر الامامية للجيش بدون انقطاع أو هوادة .

خسائر الجيش

وزاد فى حرج الموقف انتشار الامراض فى الجيش المصرى ، وما أصاب الجنود من الاعياء لشدة القىظ وقلة المؤونة والماء ، ورداءة الطقس والمتاعب الهائلة التى انزلتها بهم المعارك وقطع المراحل الشاسعة فى صحراء الحجاز ، ولم يكن فى الجيش اطباء لمعالجة المرضى وتدير الوسائل الصحية ، ففتكت بهم الأمراض فتسكا

ذريعا ، وقد أصاب الجيش من المعارك والأمراض خسائر فادحة ، بلغت من بدء القتال نحو ثمانية آلاف قتيل ، وفقد الجيش من مؤناته نحو خمسة وعشرين ألف رأس من الماشية ؛ وتكلفت الحملة الى ذلك الحين ٢٥٠٠٠ (١) كيس أى ١٧٥٠٠٠٠ جنيه وهذا الاحصاء يدل على مبلغ ما تسكبده مصر من الضحايا والخسائر الجسيمة فى الدور الاول وحده من الحرب الحجازية .

رأى طوسون باشا بعد تلك الخسائر ان يلزم خطة الدفاع ، واعتصم هو وجيشه بمكة والمدينة وجدة وينبع ، وارسل الى أبيه يطلب المدد

سفر محمد على الى الحجاز (اغسطس سنة ١٨١٣)

تلقى محمد على باشا هذه الانباء بالجلد والثبات ، وأجمع أن يسير بنفسه الى الحجاز لمتابعة القتال الى نهايته والقضاء على الوهابيين وبسط نفوذ مصر فى شبه جزيرة العرب ، فحشدا وسعه أن يحشد من الجنود فى مصر ، وفرض اتاوات على التجار ، وجرّد حملة جديدة وسار الى الحجاز فى شهر اغسطس ١٨١٣ ليقود الجيش المصرى فى تلك الحرب الاكولة

ابحر محمد على من السويس ونزل بمجدة ؛ فشدد وصوله من عزائم الجيش لما كان يبعثه فى النفوس من القوة المعنوية ، وأخذ أثناء مقامه فى جدة يدرس الحالة عن كتب ليضع الخطة التى تضمن له الفوز والغلبة ، ثم مضى قاصدا مكة وادى مناسك الحج ، ومن هنا جاء لقبه (الحاج محمد على)

اعتقال الشريف غالب

وكان أول ما اتخذته اعتقاله الشريف غالب ، ذلك انه ارتاب فى اخلاصه ، ورأى منه تراخيا فى معاونته الجيش المصرى مما يحتمل أن يكون سببه رغبته فى اطالة الحرب ليخدم مصالحه الذاتية ، وقرر فى نفسه ان يسلكه كان من أسباب استفحال الدعوة الوهابية وان بقاءه فى مركزه قد يحول دون فوز الحملة وسرعة وصولها الى غايتها ،

(١) احصاء فولاب فى كتابه مصر الحديثة ج ٢ ص ٥٨

فأمر بالقبض عليه واعتقل في نوفمبر سنة ١٨١٣ وبعث به الى القاهرة (١) وولى بدله ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور

وطد محمد على مركزه في مكة ليجمعها بمنجاة من هجمات الوهابيين ، ثم اعتزم السير لمهاجمتهم في معانهم ، فعهد الى ابنه طوسون باشا ان يتخذ (الطائف) قاعدة للزحف ، فسار ومعه جيش من خمسة آلاف من المشاة والفرسان وستة من المدافع ، وفيما هو يعد هذه المعدات كان يعود يرقب حركات خصمه ، وامتنعت قواته في (بيشه) و (رنيه) و (تربه) (٢١) ، فسار طوسون باشا من الطائف قاصدا الاستيلاء على (تربه) وضرب عليها الحصار ولكنه لم ينل منها منالا ، وكانت الحملة عليها شاقة منهكة للجنود مضية لهم فسات حالتهم ونفدت مؤونتهم فأكره طوسون على رفع الحصار عن تره والارتداد بمجنوده . فتعقبهم الوهابيون ورجع الجيش ادراجه الى الطائف بعد ان احرق خيامه تفاديا من وقوعها في يد الاعداء

احتلال قنفذه ثم اخلاؤها

وقد رأى محمد على أن أهل العسير يناصرون الوهابيين ويناوشون وحدات جيشه في الحجاز ، فانفذ حملة الى ميناء (قنفذه) فاحتلها وأمر بتحصينها وتوطئة للزحف على داخل البلاد ، وابقى بها حامية من الف ومائتي جندي ، ولكن هذه الحامية لم تلبث قليلا حتى اضطرت الى اخلائها ، ذلك ان قومندان الحامية فاته ان تحتل عين الماء التي تستقى منها البلدة فاحتلها العربان وقطعوا الماء عن الحامية ،

-
- (١) وصل الشريف غالب الى القاهرة بعد أن صادر محمد على أمواله ، ثم نقل الى سلاويك حيث توفي بها سنة ١٨١٦
- (٢) بالقسم الجنوبي من نجد ، بالقرب من حدود الحجاز ، وتقع تره على بعد ثمانين ميلا من الطائف ، وبيشه على بعد مائة ميل من تره

فانفذ اليها القومندان كتيبة من الجنود لاستخلاصها ولكن العرب هاجمهم بقيادة زعيمهم (طامى بن شعيب) وردوهم على اعقابهم فوقع الرعب فى جنود الحامية ولم يرقائدهم وسيلة لا نقاذهم من الظأ سوى اخلاء المدينة والرجوع الى جدة فنجأ من الحامية من استطاع النجاة بركوب السفن وقتل الوهابيون عددا كبيرا ممن ادركوهم قبل أن يتمكنوا من الفرار، وبذلك فشلت الحملة على قنفذه

طلب محمد على المدد من مصر

وبدبى ان هزيمة طوسون فى (تربه)، واخلاء قنفذه، ومناوشات الوهابيين المستمرة لوححدات الجيش المصرى، كان من شأن ذلك كله ان يبعث اليأس والقنوط، لكن محمد على باشا كان ذا عزيمة حديدية لا تنثنى أمام الصعاب مهما عظمت، وهذه العزيمة من اخص صفاته وهى من عوامل عظمته ومجده، فقابل هذه الهزائم بالثبات وعلو الهمة، وكان قد أرسل الى كتخدا بك فى مصر (محمد لاط اوغلى) يطلب اليه ان يوافيه بالمدد والمؤن، فأمدته بسبعة آلاف من الجنود وسبعة آلاف كيس، وتحملت مصر فى اعداد هذه الحملة الجديدة تضحيات جسيمة، فان الكتخدا بك نزولا على أمر محمد على استولى على املاك الملتزمين (فبراير سنة ١٨١٤) فتدمر الناس من هذا الارهاق وقصدوا الى المشايخ ليحولوا دون انفاذه، فذهبت شكاواهم عبثا، وجمع الكتخدا سبعة آلاف كيس من المصادرات وفرض الاتاوات، واستطاع ان يجند السبعة الآلاف مقاتل من مختلف طبقات المجتمع بطريقة التطوع للخدمة العسكرية، وقد تأخذك الدهشة اذ تسمع فى هذا المقام عبارة التطوع، لأن المفهوم ان مثل هذه الحملات البعيدة كان يحشد لها الناس بالقوة، ولكن ما ذكرناه مستفاد من رواية الجبرقى فقد اشار الى هذه الطريقة فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٢٩ (مارس سنة ١٨١٤) بقوله « وفى ليلة الاثنين سادسه حضر مميش اغا من ناحية الحجاز رسلا من عند الباشا باستعجال

حسن باشا للحضور الى الحجاز ، وكان قبل ذلك بايام أرسل يطلب سبعة آلاف
عسكري وسبعة آلاف كيس ، فشرع كتحدا بك في استكتاب اشخاص من
اخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحى القرى ، فكان كل من ضاق به
الحال فى معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه ، وان كان وجيها جعله الكتحدا
أميرا على مائة أو مائتين»

وفاة سعود بن عبد العزيز

وصل هذا المدد الى جدة ، وفيما كان محمد على باشا يتأهب للزحف ساعدته
العناية الالهية بوفاة خصمه الشديد البأس الأمير (سعود بن عبد العزيز) ، توفى
بالدرعية فى ابريل سنة ١٨١٤

تخلفه فى الامارة نجله (عبد الله بن سعود) ، ولم يكن على صفات أبيه من
الشجاعة والاقدام وبعد النظر وعلو الهمة ، بل كان على العكس شديد التردد
ضعيف الفؤاد لين العريكة لا يعيل الى الحرب والقتال ، فكانت وفاة سعود بن
عبد العزيز من الاسباب التى ساقطها الاقدار لنجاح محمد على ، وهكذا كان للحظ
أثر كبير فى حياة ذلك الرجل العظيم

حصار الوهابيين الطائف

أنفذ محمد على عابدين بك احد قواد جيشه لاحتلال وادى زهران الذى
يفصل اليمن عن الحجاز ، فزحف ولم يلق بادى الامر كبير مقاومة ، ثم ما لبث
الوهابيون ان عادوا يهاجمون الجيش المصرى حتى اضطر الى الانسحاب ونالته
الخسائر الفادحة ، فكان انسحابه هزيمة للمصريين ، وظفروا للوهابيين ، وتعبه هؤلاء
حتى (الطائف) واقبلوا بمجموعهم الحاشدة و ضربوا عليها الحصار وكان فيها
طوسون باشا

بلغ محمد على هذا النبأ وهو فى جدة ، فأخذ يعمل فكره لانتقاذ ابنه من الحصار ،

فاهتدى الى حيلة حربية تدل على شدة ذكائه وحضور ذهنه ، ذلك انه ركب في عشرين من رجاله وسار بهم نحو الطائف ، ووقف على جبل يشرف عليها ، فشهد مركزها وهي محصورة ، وفيما هو كذلك جاءه رجاله بفارس عربي من الوهابيين وقع أسيرا في ايديهم ، فلما رآه محمد على أخذ يسأله عن قوات الوهابيين فيجيبه على ما يسأل ، ثم عرض عليه أن يطلق سراحه على أن يحمل رسالة الى ابنه طوسون في الطائف ، وأخذ عليه موثقا أن يؤدي الرسالة ، فوفى الرجل بعهده ، وحمل الرسالة الى طوسون باشا فاذا هي تحوى الكلمة الآتية « انى قادم اليك فاحضر والحق بنا فوق الجبل »

رفع الحصار عن الطائف

وقد اطلع الوهابيون على نخوى الرسالة ، فتوهموا أن جيشا عرمرما قد أقبل لنجدة طوسون ، وانهم سيقعون حينئذ بين نارين ، والحقيقة أنها خدعة ابتكرها محمد على لايهام الوهابيين أنه قادم في قوة كبيرة وقد كان لهذه الخدعة أثرها الفعال في سير القتال ، فان الوهابيين اجمعوا على الانسحاب ورفعوا الحصار عن الطائف

التأهب لمعاودة القتال

عاد محمد على ونجده طوسون الى مكة (يوفيه سنة ١٨١٤) ومنها الى جدة وأخذ في تدريب السبعة الآلاف من الجنود الذين بعث بهم الكتخدان بك ، وبقي في جدة ثلاثة أشهر يعد العدة لاستئناف القتال ، وفيما هو يتأهب للزحف ، شبت الثورة في قبائل البدو الضاربة بين ينبع والمدينة ، وسببها أن حاكم المدينة قتل شيخ قبيلة حرب ، فقامت القبائل للأخذ بالنار وقطعت السبل بين جدة ومكة وينبع والمدينة وكادت الثورة تستفحل لولا أن عاجلها محمد على باشا بالحكمة فسار طوسون الى ينبع ومنها الى بدر حيث التقى برؤساء القبائل فتعهد لهم بعقاب حاكم المدينة عقابا يتسكفا مع جريمته ، فهدأت بذلك حدة

غضبهم، وساعده على تهدئتهم ما بذله لهم من المال فكان من نتائج ذلك أن تخلوا عن وادى الصفراء الذى يحتلونه

وفى خلال تلك الحوادث تلقى طوسون باشا من المدينة نبأ وفاة حاكمها الذى شبت الثورة بين القبائل بسببه ، فاذاع طوسون هذا النبأ بين القبائل وأفهمهم أن اباه هو الذى أمر بقتله عقابا له على فعلته فهدأت القبائل وجنحت الى السلم وكفت عن قطع الطرق ، وكان موسم الحج قد أقبل فصار طريق الحجاج مأمونا ، وحج محمد على للمرة الثانية وأقبل الحجاج من مصر ومن سائر الاقطار الاسلامية وأدوا الفريضة آمنين مطمئنين

واقعة (بسل) (يناير سنة ١٨١٥)

وبعد أن تمت مراسم الحج، تجددت الحرب، وانفذ محمد على جنوده الى (الطائف) تمهيدا للزحف، وكان الوهابيون قد جمعوا من المقاتلة نحو عشرين ألفا حشدوهم بقيادة فيصل بن سعود بين (بسل) (وتربه) وكان لهم عدا ذلك احتياطي من نحو عشرة آلاف مقاتل، فزحف محمد على فى نحو اربعة آلاف مقاتل على (بسل) الواقعة بين الطائف وتربه، والتقى فيها بجيش الوهابيين (يناير سنة ١٨١٥) فدارت رحى القتال بين الفريقين واستعرت نار الحرب واستمرت المعركة من الفجر حتى المساء، وانتهت بهزيمة الوهابيين وقتل منهم نحو ستمائة وتشنت الباقون، وتعد واقعة (بسل) من اكبر وقائع الحرب الوهابية بل من أهم المعارك فى تاريخ مصر الحربى

احتلال (تربه) و (ورنيه) ثم (بيشه)

تابع المصريون زحفهم بعد واقعة بسل فاحتلوا (تربه) ثم احتلوا كذلك (ورنيه) و (بيشه) ولقى الجيش خلال هذه الغزوة متاعب هائلة ولم يكن غذاء

الجنود في الغالب سوى التمر، وكان محمد على يقاسمهم شطف العيش ليشجعهم على احتماله .

احتلال قنفذة

ثم رجع الى الشاطئ واحتل ميناء (قنفذة) وابقى فيها حامية مصرية وذهب منها الى جدة ومنها الى مكة تحف به أعلام الظفر

احتلال الرأس

وزحف طوسون من المدينة على القسم الشمالى من نجد متشجعاً بتلك الانتصارات ، فبلغ في زحفه الى الرأس ^(١) إحدى مدن نجد المهمة فاحتلها ، ثم احتل (الشبيلية) الواقعة على طريق الدرعية عاصمة الوهابيين ، واستعد الجيشان فأخذ كل منهما يتأهب لمعركة فاصلة

طلب الوهابيين الصلح

على أن طوسون رأى من المغامرة أن يبدأ بالهجوم لانه ادرك أنه امام قوات تفوقه عديداً ، فتشاور وقواد جيشه واتفقوا رأياً على الانسحاب الى المدينة ، ولكنه لم يكند يستقر رأيه على هذا العزم حتى أوفد اليه الامير (عبد الله بن سعود) رسولا يعرض الصلح والطاعة ، فدهش طوسون لهذه المفاجأة على حين كان يشعر بأن مركز عدوه قوى منيع ، لكن ضعف (عبد الله بن سعود) وما جبل عليه من التردد كان من أهم البواعث التي مالت به الى التسليم والخضوع .

(١) تبعد عن المدينة نحو ٢٧٠ ميلاً شرقاً بشمال

فاجاب طوسون على طلب الصلح انه لا يستطيع ان يجيب الطلب الا بعد عرض الامر على والده ، وأنه يمنح الامير الوهابى هدنة عشرين يوما حتى يراجع والده ، فقبل عبد الله بن سعود ، وتمهادن الفريقان ووقفت الحركات الحربية ، وبقي كل جيش مكانه ينتظر الهدنة أن تنتهى

رجوع محمد على الى مصر

وفي غضون ذلك عاد محمد على الى مصر فجأة ، ذلك انه تلقى من مصر أنباء شغلته واهاجت وساوسه ، إذ علم منها ان ثمة مؤامرة دبرها (لطيف باشا) فى غيبته كما سيحىء بيازه ، وبلغه كذلك ان حوادث خطيرة توشك ان تقع فى أوروبا إذ الصراع بالغ أشده بين نابليون والدول المتألمة عليه ، وعلم من الانباء الاخيرة ان نابليون بعد أن هزمه الحلفاء ونفوه الى جزيرة (البا) قد أفلت من منفاه ورجع الى فرنسا واسترد عرشه وسلطته ، فخشى محمد على ان تكون عودة نابليون سببا فى تجديد الحرب والقتال فى أوروبا واستهداف مصر لحملة جديدة اذ يفكر نابليون ثانية فى غزوها ، ومع ان هذه الفكرة لم يهجنس بها نابليون بعد عودته من منفاه الا أن محمد على كان شديد الحذر كثير المواقس خوفا على مركزه ، فأسرع بالرجعة الى مصر لى يتقضى المفاجآت التى ليست فى الحسبان وعاد من طريق (القصير) فقنا فالقاهرة ، وذكر الجبرتى نبأ عودته فى حوادث رجب سنة ١٢٣٠ فقال انه حضر الى الجزيرة ليلة ١٥ رجب (٢٣ يونيه سنة ١٨١٥)

مؤامرة لطيف باشا

أما مؤامرة لطيف باشا فحكايتهما كما يذكرها جمهور المؤرخين انه كان من مماليك محمد على شاب اسمه (لطيف اغا) قر به اليه واختصه وجعله أمين خزانته ، فلما جاءت الانباء باستيلاء الجيوش المصرية على (المدينة) واستخلاصها من أيدي الوهابيين أوفده محمد على الى الاسكندرية ليزف البشرى الى الديوان العالى ،

فانعمت الحكومة التركية على لطيف اغا برتبة امير ميزان قضاة (لطيف باشا) ،
فدأله الزهو والخيلاء ، وزين له بعض رجال (المابيين) ان ياتر بسيدته ومتوّه
الاماني ووعدوه بالمساعدة على ان يخلقه في ولاية مصر ، فقبل لطيف باشا هذه
المهمة ، وخیل له زهوّه وغروره أنها فكرة ناجحة ، وخاصة لان محمد علي عازم على
التوجه الى الحجاز فيكون غيابه خير فرصة لتنفيذ مهمته واعتلائه عرش مصر ،
وعاد الى القاهرة ونفسه مملوءة آمالا كبارا ، وبدأ عليه في مصر من الغطرسة والكبرياء
ما جعل الظنون تحوم حوله ، واستشف محمد علي بشاغب نظره تغيرا في اطواره
وحركاته ، فارتاب في أمره ، وما أكثر ما يستهدف الناس للشبهات والريب في
ذلك العصر ، وزاد في ارتيابه ان كتخداء (محمد لاط اوغلي) المشهور بكراهيته
لجنس المماليك نتم على لطيف باشا كبرياءه وخیلاءه وما ناله من المزايا والرتب ،
فالقي في روع محمد علي انه يسرف في بذل المال ويستكثر من الاتباع والمماليك
فعسى أن يتخذهم جندا ويحدث بهم حدثا ، فترعزعت ثقة محمد علي فيه ، ولما
مضى الى الحجاز عهد الى محمد لاط اوغلي أن يرقب حركات لطيف باشا وأطلق
له ان يتخذ ما يراه في شأنه ، وكان السكتخدا معترضا التنكيل به ، فأخذ يؤلب
عليه رؤساء الحكومة مثل حسن باشا ، وطاهر باشا ، وطبوز اوغلي ، ومحبوبك ،
ومحمود بك الدويدار ، وكذلك أوغر عليه صدر اسماعيل باشا ابن محمد علي ، وصمم
على قتله بعد أن أخذ للامر عدته

وفي اليوم الموعد باغته بدعوته الى اجتماع يعقد في القلعة للنظر في بعض
الشؤون ، وخيره بين ان يحضر أو يغادر الديار المصرية ، وكان لطيف يعلم ما وراء
هذه الدعوة من المبالك ، فخار في أمره ، وبينما هو يفكر في حيلة ينجو بها أبصر
فرأى بيته يحاصره نحو الفين من الجنود جاءوا ليمبضوا عليه وأخذوا يطلقون
الرصاص على داره ، فعلم أن قد أحيط به ، وفكر في الفرار ، فاستتر في مخبأ بداره
ومعه نسائه ومملوك له حتى جن الليل ، فقتل هو الى بيت خازن داره واختفى فيه

أما العسكر فافتحم جماعة منهم دار لطيف باشا وكشفوا مخابئها ، وفتشوها
تفتيشا دقيقا ، فعثروا على النساء والمملوك ، ولم يجدوا ضالهم أى لطيف باشا ، ولما
كان الغد اراد لطيف أن يغادر بيت خازن داره خشية أن تقع عليه عيون الرقباء
لقربه من بيته ، فصعد الى سطح البيت ، واعتزم أن يقفز من سطح الى سطح ليلوذ
بالهرب ، وبينما هو يقفز من سطح خازن داره أبصره أحد الجنود المراقبين له فصاح
به لينبه اليه الرقباء ، فرماه لطيف باشا برصاصة جندلته ، ولكنها أيقظت نظر
الرقباء فتعقبوه ، ولم تمض ساعات حتى اتفوا القبض عليه فكبلاه وساقوه الى
الكتخدا لمحاكمته

فبعد الكتخدا ديوانا من كبار رؤساء الحكومة واتفقوا على اعدامه ، وسبق
لطيف باشا الى ساحة الاعدام تحت سلام سراى القلعة وقطع رأسه
ويلوح لنا أن ما ذكره جمهور المؤرخين من أن قتل لطيف باشا يرجع الى ممالأته
الحكومة التركية على انتزاع ولاية مصر من محمد على أمر مشكوك فيه ، ولا يسهل
تصديقه ، لأن الوقت لم يكن مناسباً لخلع محمد على وهو منصرف الى توجيه كل
قواته لمحاربة الوهابيين ، وحكومة الاستانة لم تكن فى ذلك الحين تخشى بأس
محمد على بل كانت فى حاجة اليه لتفرغ من الدولة الوهابية التى تنازعها السلطة
والسيادة وتهدها بانشاء دولة عربية قد تنتزع منها الخلافة ، فمحمد على كان وقتئذ
مشمولا برضا الحكومة التركية ، ولا يتفق منطق الحوادث مع تأمرها عليه فى
هذه الظروف

وأغلب الظن أن محمد على وحاشيته قد ساءم الانعام على لطيف باشا بالباشوية
إذ لم يسبق للسultan أن انعم بها على أحد بعد تولية محمد على غير ابنائه ، وأخذت
بطانة الباشا وخاصة كتخدائه محمد لآل أوغلى ينظرون بعين المقت والارتباب
الى لطيف باشا ، وزادهم مقتاله ما بدا عليه من الغطرسة والخيلاء بعد عودته من
الاستانة ، وكان لآل أوغلى معروفا عنه كرهه للمالك ، ولطيف باشا كان فى

الاصل مملوكا ، فخذ عليه واعتزم التنكيل به كما تقدم ، واتخذ تهمة المؤامرة وسيلة
لانفاذ عزمه

وقد ذكر الجبرتي حكاية المؤامرة ، ولم يؤيدها في روايته ، وكذلك لم يروها
ماجان بلهجة تفيد اليقين

مشروع الصلح واخفاقه

في خلال الهدنة التي عقدها طوسون باشا مع (عبد الله بن سعود) جاءه
كتاب من والده ينبئه بأنه سافر الى مصر لشؤون هامة وأنه ترك له عددا عظيما من
الجند بقيادة خازن داره ، ويوصيه بالمبادرة الى الزحف على (الدرعية) عاصمة
الوهابيين لاستئصالهم والقضاء عليهم

ورد خطاب محمد علي الى ابنه فارسل يستدعي الخازن دار الى مدينة (الرس)
قبل انقضاء أجل الهدنة ، وتشاور طوسون باشا هو وقواد الجيش ورؤساء القبائل
المالية ، واستقر رأيه على قبول الصلح ، واشترط لذلك شروطا اهمها ان تحتل
الجيوش المصرية (الدرعية) وان يرد عبد الله بن سعود كل ما أخذه الوهابيون
من الحجرة النبوية من النفائس والجواهر ، وان يكون رهن أوامر طوسون باشا
حتى اذا طلب اليه السفر الى أى جهة كائنه ما كانت أذعن للأمر ، وان يؤمن سبل
الحج ويكون خاضعا لحاكم المدينة ، وألا يتم تمام الصلح الا بعد عرضه على محمد علي
باشا واققراره

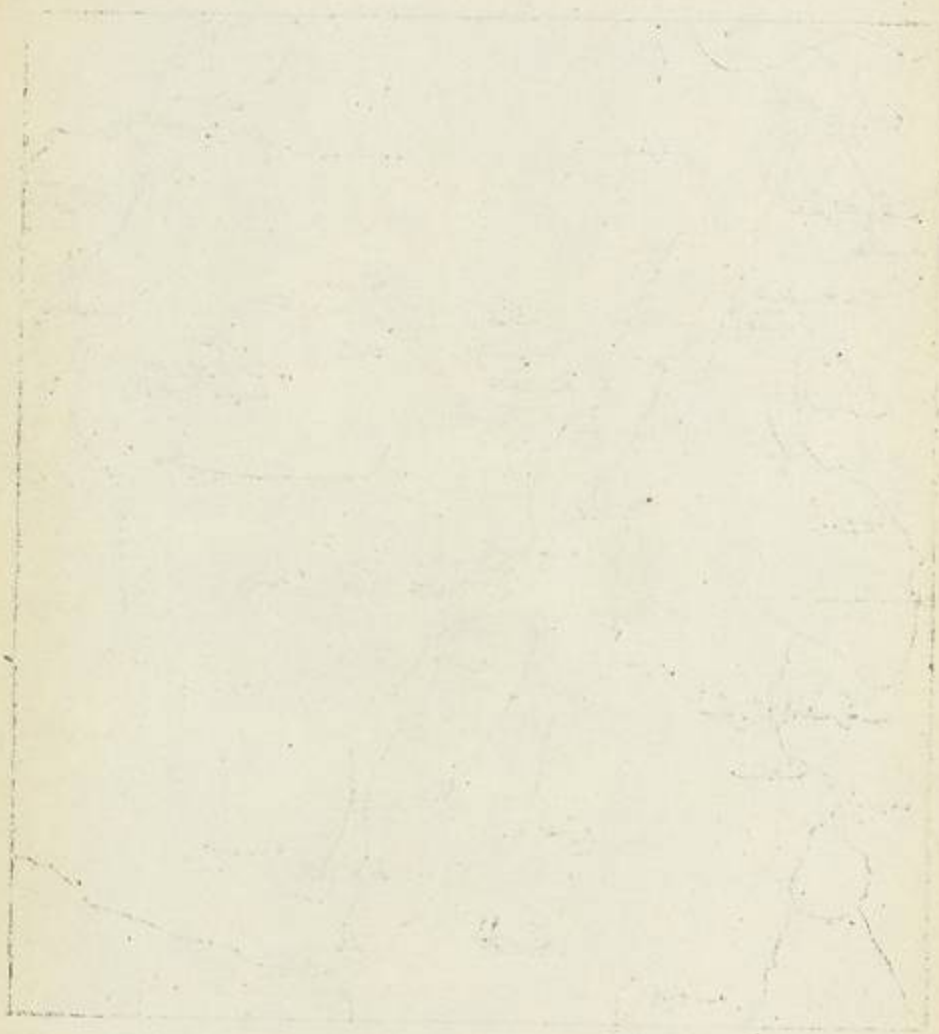
وازل عبد الله بن سعود وفدا الى القاهرة ليعرض الصلح على محمد علي ،
ووصل الوفد الى مصر في سبتمبر سنة ١٨١٥ ، ولكن محمد علي اظهر تشددا ولم
يرض بالشروط التي عرضها ابنه ، وصمم على معاملة أمير الوهابيين معاملة
الخوارج والعصاة ، ولعله كان يرمى الى بسط حكمه على جزيرة العرب ، فأرى في
بقاء ظل لدولة الوهابيين مهما تظاهر عبد الله بن سعود بالخضوع والولاء حائلا

دون استقرار حكمه في الجزيرة ، فأثر ان يمتحق قوته و يأخذه اسيرا ليقضى على دولته القضاء الاخير ، فطلب الى الوفد قبل ان يصفح عن أميرهم ان يرد جميع ما اخذه الوهابيون من نفائس الحرم النبوى وان يسلم الدرعية الى حاكم المدينة وان يحضر بنفسه وينذهب الى الاستانة ليكون رهن أو امر السلطان وليقدم له حسابا عن أعماله ، وكان محمد على يتوقع ألا تقبل شروطه القاسية وخاصة سفر عبد الله بن سعود الى الاستانة لأن معنى ذلك تسليم عنقه الى يد الجلاد ، وقد تحقق ما توقعه فان عبد الله بن سعود لما بلغه نبأ هذه الشروط أرسل يقول انه لم يبق لديه شئ من النفائس التي انتزعها ابوه حتى يرد منها شيئا ، ورضى بأن يعين محمد على نائبا عنه في الدرعية يتولى قبض الخراج أو أن يحدد الخراج بمبلغ معلوم يتعهد بادائه ، ورفض شرط الذهاب الى الاستانة .

فأرسل محمد على يتهدده بالحرب وينذره جيشا جارا يكتسح بلاده ويخربها ، وبذلك اخفقت مفاوضات الصلح ، وتأهب عبد الله بن سعود للحرب والقتال ، وجرى محمد على حملة جديدة على الحجاز بقيادة اكبر انجاله ابراهيم باشا

رجوع طوسون باشا الى مصر

علم طوسون باشا وهو في الحجاز بانباء الفتنة العسكرية التي اثارها الجنود الارناءود بالقاهرة قوموا وقع منهم من النهب والتمرد مما سيجب بيان فقر بالعودة الى مصر ، وسار من المدينة الى ينبع ، ومنها الى السويس بحرا ، وكان وصوله اليها في غاية شهر ذى القعدة سنة ١٢٣٠ ، وقدم القاهرة يوم ٥ ذى الحجة (٨ نوفمبر سنة ١٨١٥) وكان الاحتفال باستقباله عظيما بالغا ، قال الجبرتي في هذا الصدد « في رابع ذى الحجة سنة ١٢٣٠ نودى بزينة الشارع الاعظم لدخول طوسون باشا سرورا بقدمه ، فلما اصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع ، وعملوا له موكبا حافلا ، ودخل من باب النصر وعلى رأسه الطلخان وشعار الوزارة ، وطلع الى القلعة وضر به في ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكا وحرقات »



in the middle of the page
the first page of the book

استئناف الحرب في الحجاز

بقيادة ابراهيم باشا

ابدى محمد على همه كبيرة في تجريد الحملة الجديدة ، وظل ستة أشهر يعد معداتها ، وعقد لواءها لابنه الاكبر ابراهيم باشا^(١) ، فأمر بجمع المراكب في ساحل بولاق لنقل المؤونة والذخائر والمدافع والمهمات الى قنا ومنها تنقل برا الى ثغر (القصير) لتقلع منه الى (ينبع) بحرا ، وسار ابراهيم باشا من بولاق يوم ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ قاصدا قنا ، ولما وصل الى اسبوط جند الفين من الفلاحين لينضموا الى الحملة

ولما بلغت الحملة الى قنا تقلعت على ظهور الابل الى القصير ، واعد ابراهيم باشا ستة آلاف جمل قدمها عرب العبادلة لهذه الغاية ، فمضت الحملة الى ميناء القصير واقلعت بهم سفن الاسطول المصرى الى ينبع ، فبلغتها يوم ٢٩ سبتمبر ، وكان يصحب ابراهيم باشا ضابط فرنسى من ضباط اركان الحرب وهو المسيو فيسيير Vaissiere وطبيب وجراحان وصيدلى من الايطاليين

ولم يكديستقر به المقام فى ينبع حتى سار الى المدينة ، فأدى فروض الزيارة النبوية ، وأخذ يستعد للزحف والقتال

وفى اليوم الرابع من عيد الاضحى سار بجيشه وقصد (الصويدرة) شمالى المدينة واتخذها معسكرا العام ، واخذ يجهز المعدات ويجمع الابل للزحف على نجد ، ولكنه عانى مصاعب كثيرة فى بدء الحملة ، منها أن معظم القبائل كانت ممائلة للوهابيين على محاربة الجيش المصرى ، فأخذوا يناوشون القوافل

(١) اذم عليه السلطان بالشوية مكافأة لايه على خدماته ، وكان يبلغ من العمر سبعا وعشرين سنة

بين الصويديرة والشغو والبحرية ، فأنفذ ابراهيم باشا لمحاربتهم قوة من
الفي جندى التقت بهم على مسيرة يومين ووقعت بهم الهزيمة

ثم اخذ العرب يؤثرون الجانب المصرى على الوهابيين لما لم يجدوا من هؤلاء
منفعة أو طائلا، فانضموا الى ابراهيم باشا وتعهدوا بتقديم ما يطلب من الابل وغيرها
زحف ابراهيم باشا من (الصويديرة) وسار الى (الحنائية) وعسكر بها وتحصن
فيها ، واتخذها نقطة ارتكاز لرحلته ، ثم تحرك منها قاصدا (الرس) التى اتخذها
عبد الله بن سعود معسكرا له ، وكان الوهابيون قد احتلوها بعد عودة طوسون
باشا الى مصر

وفاة طوسون باشا

سبتمبر سنة ١٨١٦

رجع طوسون باشا الى مصر كما قدمنا ، وبعد ان استقر به المقام تولى قيادة
الفرق التى انفذها محمد على لترباط على فرع رشيد ، وكان غرض محمد على توزيع
الجنود فى مختلف انحاء الوجه البحرى حتى لا يكون احتشادهم فى القاهرة خطرا
على النظام بعد ما بدا منهم من التمرد والعصيان ، ولكى يلقى فى روعهم انه لا يقصد
تشتيتهم او معاقبتهم أمر بان يصحبهم فى معسكراتهم الجديدة بعض ابناءه ورؤساء
جندده فتولى طوسون باشا قيادة بعض تلك الفرق كما قدمنا ، واتخذ معسكره فى
(برنبال) الواقعة بالبحر الشرقى للنيل تجاه رشيد ، واتمس بها الراحة من عناء المعارك
التي خاضها فى الحجاز ، فاتخذ الموسيقيين والراقصين والراقصات والمغنيات ومجالس
اللهو وبقي بها الى أن عاجلته منيته ليلة ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦ أثر مرض ثار به
فجأة قيل انه نشأ من تهالكه على اللذات ، ولم يمهل اكثر من عشر ساعات ثم
فاضت روحه ، فنقلت جثته بطريق النيل الى القاهرة ودفن فى مقابر الامام الشافعى

توفي طوسون وهو في مقتبل الشباب إذ لم يتجاوز العشرين من عمره، فخرج أبوه على فقده جزعا شديدا، وحزن الناس لوفاة لما كان عليه من الشجاعة والجلود والميل إلى الشعب

حصار (الرس)

اشتبكت طلائع الجيش المصري بالوهابيين على مقربة من (الرس)، فكانت الغلبة للجيش المصري لما أمتاز به من النظام والتسلح بالبنادق الحديثة ومعونة العربان من قبيلة حرب

هزم الوهابيون ورجعوا القهقري، وامتنع عبد الله بن سعود في (الرس)، فحضر عليها إبراهيم باشا الحصار وجلب المدافع لرميها، وأقام الاستحكامات حولها، لكنها كانت على قوة ومنعة فاستمر الحصار ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما دون أن ينال منها طائلا، ودافع عنها الوهابيون دفاع الأبطال بالرغم من قتلهم جيشا مسلحا بالبنادق الحديثة، ولم يكن عندهم إلا البنادق من الطراز العتيق الذي يطلق بالقتيلة، ومع ذلك صدوا هجمات الجيش المصري ثلاث مرات وكبدوه خسائر جسيمة، وبلغ عدد قتلاه مدة الحصار ٣٤٠٠ جندي على حين لم يقتل من الوهابيين سوى ١٦٠ قتلا، وهذا يدل على فداحة الخسائر التي أصابت الجيش المصري في حصار (الرس)

وقد أدرك إبراهيم باشا أن خسائره ستستفاد إذا هو استمر في الحصار، وأن ذخيره نقصت ومؤنته كادت تنفذ، وأصبح الجيش هدفا للمجاعة، أضف إلى ذلك ما خامر نفوس الجنود من الملل واليأس، وما قاسوه من الشدائد والأهوال، ثم انتشار الأمراض بينهم وهبوب الزعازع والأعاصير التي كانت تقطع الخيام قترى بها فلا يجد الجنود وخاصة المرضى والجرحى مأوى لهم

فاضطرب إبراهيم باشا أن يرفع الحصار عن (الرس)، وأن يقبل من عبد الله ابن سعود شروطا لوقف القتال ما كان ليرضاها لو لم تمتنع عليه، فصالحه على أن يرفع الحصار عن المدينة وأن يضع أهلها سلاحهم وقيموا على الحياد، والا يدخل

الرس احد من جنود ابراهيم باشا أو ضباط جيشه، ولا يجبر الأهالى على تقديم شىء من المؤونة للجيش، ولا يؤدوا اقاوة، وانه اذا استولى الجيش على مدينة (عنيزة) تسلم له (الرس) بدون قتل، وان لم يفلح يعود القتال ثانية
 سار ابراهيم باشا قاصدا (عنيزة) واحتل فى طريقه (الخبراء) بعد ان ضربها بالمدافع عدة ساعات، واستراج الجيش بها أحد عشر يوما، ثم سار الى (عنيزة) وحاصرها ستة أيام الى ان سلمها حاكمها محمد بن حسن على ألا تؤسر الحامية الوهابية وان يؤذن لها بالذهاب انى شاءت بشرط أن تمتلئ عما لديها من الاسلحة والذخائر والمؤونة، فرضى ابراهيم باشا بهذه الشروط ودخل المدينة، ثم أرسل كتيبة من الجند لاحتلال (الرس) طبقا للشروط التى اتفق عليها من قبل
 كان اسقوط (عنيزة) بهذه السرعة أثر كبير فى سير القتال، لأنها من أهم مواقع نجد، فراجع عبد الله بن سعود الى (الشقراء)، واخذ يحصن (الدرعية) مخافة ان تتداعى بتأثير ضربات ابراهيم باشا، وجنحت القبائل فى بلاد القصيم الى التسليم خوفا من بطش ابراهيم واذعست له

فتح الشقراء (يناير سنة ١٨١٨)

استأنف ابراهيم باشا الزحف، فاحتل (بريدة) بعد قتال طفيف، وبقى بها شهرين تلقى فى خلالها المدد من مصر، ثم سار فى اواخر ديسمبر سنة ١٨١٧ قاصدا (الشقراء) وهى من امنع بلاد نجد، فوصلها يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٨ وضرب عليها الحصار وأخذ يشدد فى حصارها ويضربها بالمدافع حتى طلب أهلها التسليم ورضى منهم ألا يأخذ منهم أسرى وان يؤذن لهم بالذهاب حيث شاءوا على ألا يحملوا السلاح ثانيا لقتال الجيش المصرى، واذا نقضوا عهدهم استحل دماءهم
 ودخل ابراهيم باشا المدينة دخول الظافر يوم ٢٢ يناير سنة ١٨١٨
 كان فتح (الشقراء) انتصارا كبيرا للجيش المصرى لما لموقعها من الشأن والخطر، ولما وصلت الى مصر انباء هذا الفتح قوبلت بابتهاج عظيم

قال الجبرتي في هذا الصدد

« وفي أواخر ربيع الثاني سنة ١٢٣٣ (فبراير سنة ١٨١٨) حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية بخبر بنصرة حصلت لابراهيم باشا وانه استولى على بلدة تسمى (الشقراء) وان عبد الله بن سعود كان بها فخرج منها هاربا الى الدرعية ليلا، وان بين عسكر الاتراك والدرعيين مسافة يومين، فلما وصل هذا المبشر ضربوا لقدمه مدافع من ابراج القلعة وذلك وقت الغروب من يوم الاربعاء سادس عشر ينة»
فتح الدرعية (سبتمبر سنة ١٨١٨)

انشأ ابراهيم باشا في الشقراء مستشفى وترك بها فصيلة من الجنود، وسار قاصدا (الدرعية) عاصمة الوهابيين، وكانت تبعد عن المدينة المنورة التي اتخذها ابراهيم باشا قاعدة للحركات الحربية بنحو ٤٠٠ ميل، وهذا يدل على عظم المراحل التي قطعها الجيش في الحرب والقتال

فخرج في طريقه الى (الدرعية) على (ضربة) اذ علم ان بها كثيرا من المؤونة والجياد، فامتعت عليه، فضربها بالمدافع ودافع حاكمها وأهلها عن مدينتهم دفاعا شديدا وقتلوا كثيرا من المهاجمين، واستمر القتال حتى طلب الحاكم التسليم على أن يخلى البلد، فآخلاها وترك الاهالي هدفا لبطش الجيش، وأمر ابراهيم باشا بقتلهم عقابا لهم على ما كبدوا الجيش من الخسائر، فقتلوا جميعا.

بقى ابراهيم باشا شهرين في (ضرمه) حيث عاقته الامطار عن الزحف، ثم غادرها في ٢٢ مارس سنة ١٨١٨ قاصدا (الدرعية) عاصمة الوهابيين فخطت تجاهها يوم ١٦ ابريل في جيش مؤلف من خمسة آلاف وخمسمائة من المشاة والفرسان مجوزين باثني عشر مدفعا

تتألف (الدرعية) من خمسة احياء متجاورة يحيط بكل منها سور، فكانت المدينة محصنة تحصينا منيعا وفيها بعض المدافع يستعملها الوهابيون في القتال رتب ابراهيم باشا مواقع جنوده واعد العدة لمهاجمتها، وعاونه في رسم خطط الحصار الضابط الفرنسي الذي يصحبه وهو المسيو فيسيير Vaissiere، وبدأ ابراهيم

يضرب المدينة بالمدافع ، ولكنها امتنعت عليه ، ودافع عنها الوهابيون دفاع الابطال ، واشترك نساؤهم في القتال ، فكان دفاعهم مجيدا .

استمر الحصار اكثر من شهرين والمدينة مستعصية على الجيش المصرى ، فبدأ مركزه يتحرج ، وزاد في حرجه أن الطبيعة أصابت الجيش بنكبة كادت تؤدى به لولا ثبات ابراهيم باشا وعزيمة الحديدية ، فقد هبت عاصفة على معسكر الجيش يوم ٢١ يونيه ١٨١٨ اطارت نارا كان أحد الجنود يوقدها ، فاندلعت النار الى خيمة منصوبة على قرب من مستودع الذخيرة ، فاحترقت الخيمة وامتدت ناراها الى المستودع فانفجر لساعته ونسف الانفجار من القنابل والرصاص ما ذهب بنصف ذخيرة الجيش ، فدعر الجنود لدوى الانفجار ولما أصاب الذخيرة من التدمير ، وكادت تحل الهزيمة بالجيش ويختل نظامه لولا أن قابل ابراهيم باشا تلك الكارثة بالشجاعة والجلد ، ومما يؤثر عنه في هذا الموقف أنه قال لمن حوله « لقد فقدنا كل شئ ، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا ، فلنتدفع بها ونهاجم العدو بالسلاح الابيض » وأخذ يشجع الضباط والجنود ، وارسل يطلب الذخيرة من المواقع التى يحتلها الجيش المصرى كالشقراء ، وبريدة ، وعنيزة ، ومكة والمدينة وينبع .

وعلم الوهابيون بما حل بذخيرة الجيش المصرى ، فقرروا الهجوم عليه عليهم يأخذونه من ضعف وهاجموه فعلا اليوم التالى ، ولكن ابراهيم باشا احكم خطط القتال وأمر جنوده بالاعتصام فى الذخيرة فرد الوهابيين على اعقابهم ، واستمرت الحرب سجالا الى ان جاءته الذخائر فسد بها النقص ، وتلقى من أبيه رسالة بأنه ممدد بملائة آلاف من المقاتلة بقيادة خليل باشا ، فاعتزم ابراهيم ان يضرب الضربة القاضية قبل ان يتلقى المدد لكيلا يشاركه خليل باشا فى نحر الظهر بالوهابية .

رواية الجبرتي

اشار الجبرتي الى تلك الحوادث بقوله

« وفى منتصفه (رمضان سنة ١٢٣٣ - يولية سنة ١٨١٨) وصل نجات واخبر

بأن إبراهيم باشا ركب الى جهة من نواحي الدرعية لأمر يبتغيه ، وترك عرضيه (جيشه) ، فاغتم الوهابية غيابه وكبسوا على العرضى على حين غفلة وقتلوا من العساكر عدة وافرة ، وأحرقوا الجبخانه (الذخيرة) ، فعند ذلك قوى الاهتمام وارتحل جملة من العساكر فى دفعات ثلاث برا وبحرا يتلو بعضهم بعضا فى شعبان ورمضان ، وبرز عرضى (جيش) خليل باشا الى خارج باب النصر »

وقال فى حوادث شوال من تلك السنة « وفى ثمانه ارتحل خليل باشا مسافرا الى الحجاز من القلزم وعساكره الخيالة على طريق البر » ومعنى هذا ان المشاة ذهبوا من طريق السويس بحرا وسار الفرسان برا من طريق برزخ السويس الى الحجاز ، فتأمل عظم المراحل التى كان يقطعها الجنود والمتاعب الهائلة التى كانوا يتكبدونها فى تلك الحرب الشاقة

قلنا ان ابراهيم باشا اعتزم ان يضرب الدرعية الضربة القاضية ، فوجه قواته الى كل حى من أحيائها واحد اثر آخر ، فاستولى على الاول ثم على الثانى ثم على الثالث ، وبذلك ضاق الخناق على الوهابيين ، وكان الحصار قد دام خمسة أشهر ، فرأى عبد الله بن سعود ان ليس فى مقدوره الاستمرار فى المقاومة بعد ان قدحته الخسائر ونالته الأوصاب من طول الحصار واهواله ، فخرج الى الصلح والتسليم ، وارسل يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ رسولا الى ابراهيم باشا يطلب وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح

فابتهج ابراهيم باشا هذه الرسالة ابتهاجا عظيما ، واذن بوقف القتال ، ثم جاء عبد الله بن سعود بنفسه الى معسكر ابراهيم باشا ، فلتقاها القائد العظيم بالحفاوة والاكرام ، وتم الاتفاق بينهما على ان تسلم (الدرعية) الى البطل ابراهيم وان يتعهد بالابقاء عليهما والا يوقع بالوهابيين أو يناولهم بضرر ، وان يذهب عبد الله بن سعود الى مصر ثم الى الاستانة كما هى رغبة المملطان ، فرضى عبد الله بن سعود بهذه الشروط ، واستولى الجيش المصرى على الدرعية بعد حصار دام نحو ستة

اشهر ، وبعد فتح الدرعية لم تلبث المدن الباقية من نجد ان سلمت وخضعت لقائد الجيش المظفر

كان محمد على في خلال تلك الوقائع قلعا على مصير الحملة التي يقودها ابنه في فيافي نجد ووهادها ، وتأخرت عنه أخبارها ، فاشتدت هواجسه ومرض بعينه وطلب الى العلماء أن يقرءوا البخارى ويتوجهوا الى الله بدعواتهم مبتلين أن ينصر جيشه ، قال الجبرتي في حوادث رمضان سنة ١٢٣٣ (يولييه سنة ١٨١٨) « وانقضى شهر الصوم والباشا متكدر الخاطر ومتقلق ومنتظر ورود خبر يسر بسماعه »

الى أن جاءته البشرى بانتصار ابراهيم باشا ودخوله الدرعية ، فابتهج لهذه البشرى ايما ابتهاج ، واطلقت المدافع من القلعة يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ ، اعلانا لهذا النصر المبين

انتهاء الحرب الوهابية

انتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصرى وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب ، وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر في عهد محمد على وأكثرها ضحايا واعظمها نفقات ، وقد نخلتها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضى على الحملة المصرية ، فان الجيوش التي جردها محمد على استهدفت للخطر في مواطن عدة وخاصة في هزيمة (الصفراء) الاولى ، وحصار (الرس) عند ما استعصت على ابراهيم باشا ، وفي حصار الدرعية ، وعند ما التهمت النار ذخائر الحملة تحت اسوارها ، ففي تلك المرات الاربع كادت الحملة المصرية تقع في الأسر لولا ان القيادة الوهابية كان يعوزها الخزم والكفاية والنظام

ومن الأسباب التي أدت الى اضمحلال قوة الوهابية ضعف غيبه الله بن سعود ، والاموال التي بذلها طوسون و ابراهيم ومحمد على واشتروا بها ذمم البدو ، فان القبائل التي انحازت الى جانب الجيش المصرى قد عاونته معاونة كبيرة ، ولولا

ذلك لسكانت مواصلاته عرضة للانقطاع ولما استطاع ان يقطع تلك المراحل الشاقة في بلاد مقفرة ، اضع الى ذلك ان عزيمة محمد علي و ابراهيم ، وما احتمله الجيش المصرى من الصبر على المشاق والاهوال ، كل ذلك كان له الفضل الاكبر فى ما أدركه من الفوز ، وبفضل تلك التضحيات الجسيمة أمكن مصر أن تبسط نفوذها فى مفاوز جزيرة العرب تلك التى يصعب على أى دولة ان تخضعها ، وقد ظل هذا النفوذ مبسوطا على انحاءها الى ان تقلص ظله فى أواخر عهد محمد علي كما سيحيى بيانه

الحفلات الحربية فى عهد محمد علي

كان للانباء التى جاءت بفتح الدرعية وانتهاء الحرب الوهابية اثر ايهما عظيم فى مصر وقوبلت باحتفالات بالغة وصفها الجبرتي بقوله « فى سابع ذى الحجة سنة ١٢٣٣ (١ أكتوبر سنة ١٨١٨) وردت بشائر من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان اغا الورداني أمير الينبع بان ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية ، فالسر الباشا لهذا الخبر سرورا عظيما ، وانجلي عنه الضجر والقلق ، وأنعم على المبشر ، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة و بولاق والازبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الاعيان لأخذ البقاشيش ، وفى ثمانى عشر وصل المرسوم بمكاتبات من السويس والينبع ، وذلك قبيل العصر ، فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة ، واستمر الضرب من العصر الى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع ، وصادف ذلك شتاء أيام العيد ، وعند ذلك أمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق »

وتجددت الحفلات فى شهر محرم سنة ١٢٣٤ (نوفمبر سنة ١٨١٨) لمناسبة ورود تفاصيل الانتصارات التى نالها ابراهيم باشا ، وأسهب الجبرتي فى وصف تلك الحفلات مما يدلك على نخامتها وبهائها

فقد نودى بزينة المدينة سبعة أيام ، ونصبت السراقات خارج باب النصر ،

ومن بينها سرادق محمد على باشا وباقي الأمراء لمشاهدة الحفلات ، وهي مناورات بحرية تتخللها حركات فروسية قام بها الخيالة والمشاة ، واقتربت باطلاق المدافع بكثرة هائلة « بحيث يتخيل الانسان أصواتها مع أصوات بنادق الخيالة المتراحين رعدوا هائلة » ، وفي الليل كانت توقد المصابيح والمشاعل ، وتطلق السواريح والحراقات ، وتضرب المدافع

وبعد انقضاء السبعة الأيام أعدت حفلات أخرى في جهة بولاق تختلف في نظامها وأوضاعها عن حفلات باب النصر ، فهذه كانت برية ، أما حفلات بولاق فكان ميدانها النيل وشاطئيه ، ولعلها لذلك كانت أبعد وأروع ، فقد استؤجرت الاماكن المطلة على البحر باجور مرتفعة لتزاحم الناس على مشاهدتها واستجلاء مناظرها ، وكان قوام الحفلات مناورات بحرية تقوم بها السفن والمراكب تمثل فيها المعارك البحرية ، ولبست بولاق حلة من الروفق والبهاء ، واقبل الناس من كل صوب لمشاهدة معالم الزينة « وزين أهالي بولاق أسواقهم وحوانيتهم وأبواب دورهم ، ودقت الطبول والمزامير والنقرانات في السفائن وغيرها ، وطبلخانة (موسيقى) الباشا تضرب في كل وقت ، والمدافع الكثيرة تضرب في ضحوة كل يوم وعصره وبعد العشاء ، وتوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسواريح والنفوط ، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين »

ولعلك تلحظ من التأمل في وصف الجبوتي لهذه الحفلات أنها فاقت في جلالها ونفامتها كل ما تقدمها من الحفلات في مختلف المناسبات ، ولم نجد فيها وصفه بعد ذلك من الحفلات لغاية انتهاء كتابه (سنة ١٨٢١) ما يدانيها في الروعة والبهاء ، وهذا يدل على عظم تقدير الشعب للانتصارات الحربية وما تستثيره في النفوس من روح الفخر والعزة ، ولا جرم أن الحفلات الحربية هي مظهر تقدم الشعوب وتقديرها لمفاخرها القومية وتكريم الفضائل والاخلاق الحربية ، فالحفلات التي وصفها الجبوتي تنطوي على هذه المعاني السامية ، وليس عجيبا ان تحتفل مصر بفتح الدرعية

فان فتحها هو أعظم انتصار نالته في أول حرب خارجية خاضت غمارها في تاريخها الحديث ، فالدرعية هي عاصمة الوهابيين ، وافتتحها توجت حرب شاقة دامت سبع سنين وكللت بالنصر والظفر

مقتل عبد الله بن سعود

جاء عبد الله بن سعود الى مصر أسيرا فنزل القاهرة يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨١٨ وتلقاه محمد علي في قصره بشبرا فاكرم مئواه ، ثم أمر برحيله الى الاسكندرية ، فوصلها وهناك قتل بأمر السلطان

تخريب الدرعية

لم يف محمد علي بعهود ابنه ابراهيم في شروط الصلح ، فأرسل اليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها وتخريب منازلها وأن يرسل الى القاهرة اخوة عبد الله بن سعود فنزل ابراهيم على أمر أبيه وأرسل اخوة ابن سعود وخرب الدرعية وأحرقها

عودة ابراهيم باشا الى مصر

بقى ابراهيم باشا بعد سقوط (الدرعية) يوطد نفوذه في تلك الاصقاع ، وظل كذلك الى ان اعتزم العودة الى مصر ، فرجع من طريق القصير فقنا ، واجتاز في النيل حتى بلغ الجزيرة يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ ، وقابل والده في قصره بشبرا فضمه الى صدره مفتخرا بابنه العظيم ، ثم دخل ابراهيم القاهرة من باب النصر في اليوم التالي دخول الظافر ، وشق المدينة من باب النصر الى القلعة في موكب مهيب ، واحتشدت الجماهير لمشاهدته وبحيته ، وجاء محمد علي الى مسجد الغوري وشاهد موكب ابنه اثناء مسيره ، ولما بلغ ابراهيم باشا القلعة استأنف سيره في موكبه الى مصر القديمة وقصد من هناك الى قصره بجزيرة الروضة ، وزينت

المدينة ابتهاجا برجوع القائد الكبير وظلت في افراح وزينات سبعة أيام متواليات
أو كما يقول الجبرني « استمرت الزينة والوقود والسر بالليل ، وعمل الحرافات ،
وضرب المدافع في كل وقت من القلعة ، والمغانى والملاعب في مجامع الناس سبعة أيام
بلياليها ، في مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الاخطاط »

فتح سيوة (فبراير سنة ١٨٢٠)

كان محمد علي لا يفتأ يعمل لتوسيع تخوم الديار المصرية والوصول الى
حدودها الطبيعية ، فمن ذلك انه جيز تجريدة من ١٣٠٠ جندي بقيادة حسن بك
الشاشرجي لفتح واحة سيوة ، فسار اليها حسن بك يقود هذه الحملة ونشب قتال
بينه وبين أهلها دام ثلاث ساعات وانتهى بهزيمة الأهليين وخضوعهم وطلبهم
الامان واعترافهم بالطاعة والولاء للحكومة المصرية (فبراير سنة ١٨٢٠) ،
وانضمت هذه المنطقة من ذلك الحين الى حظيرة الوطن ، وقد أبدى حسن بك
الشاشرجي في تلك الحملة حزمًا ودراية

ومما هو جدير بالملاحظة ان فتح سيوة وقع في أوائل سنة ١٨٢٠ أى قبيل الحملة
التي جردها محمد علي لفتح السودان ، وأغلب الظن انه أراد أن يأمن على حدود مصر
الغربية قبل الزحف جنوبا

وقد انتظمت شؤون سيوة في عهد الحكم المصري ، وقصدها رواد
الاكتشاف وجانبوا انحاءها لتعرف احوالها واكتشاف آثارها ، وعاونهم حسن بك
الشاشرجي في مهمتهم ، ومن هؤلاء المسيو لينان دى بلفون Linant de Bellefonds
كبير مهندسي محمد علي ، والمسيو دروفي Drovetti قنصل فرنسا العام في مصر ،
والمسيو ريتشي Ricci من اطباء ايطاليا وغيرهم ، فكان الفتح المصري ممهدا
السبيل للفتح العلمى والحضارة .

الفصل السادس

فتح السودان

(سنة ١٨٢٠ — ١٨٢٢)

السودان جزء لا يتجزأ من مصر ، والحدود الجغرافية والقومية لمصر تشمل وادى النيل من منبعه الى مصبه ، فمصر والسودان جزءان لا ينفصلان من وحدة سياسية واقتصادية لا تقبل التجزئة ، تربطهما روابط الوطن والتاريخ واللغة والدين ، وصلات الدم والنسب والمرافق المشتركة

والسودان معدود منذ القرون الغابرة جزءا من مصر ، ولقد اثبت (ماسيرو) وغيره من المؤرخين ما بين مصر والسودان من الروابط التاريخية القديمة ، وثبت من النقوش المهرغليفية ان الملك (نحوتس الاول) توغل حتى انتهى الى منطقة البحيرات واحتل بعض النقاط الحربية التي كانت على النهر (١) ، واذا كان السودان قد فصل عن مصر في بعض الأزمنة قديما او حديثا فلم يكن ذلك الا خروجا عن القاعدة الازلية وهي انه جزء لا يتجزأ من مصر

ان ارتباط مصر والسودان ضرورة حيوية لهما ، وخاصة لمصر ، فانها تستمد حياتها من النيل ، فهي هبة النيل كما قال هيرودوت ، أو كما يقول المعاصرون مصر هي النيل ، والنيل هو مصر ، فلا تطمن على حياتها اذا تملكمت منابع النيل دولة أخرى ، ولا يتحقق استقلال مصر التام الا اذا شمل وادى النيل من منبعه الى

(١) شابي لونيغ بك . مصر ومديرياتها المفقودة ص ٤٠

مصبة وصارت هي والسودان وحدة سياسية تتألف منها الدولة المصرية المستقلة هذه المبادئ وتلك الحقائق التي برهنت على صحتها عظات التاريخ على تعاقب العصور، ونطقت بها الحوادث السياسية في مدى مائة العام الأخيرة، قد عمل محمد علي باشا على تحقيقها، فلم يكذب يوطد مركزه وينال الانتصارات العظيمة التي فاز بها الجيش المصري في حرب الوهابيين حتى صحت عزيمته على فتح السودان ونشر علم مصر الخفاق في اصقاعه وربوعه

ان فتح السودان هو ثالث الحروب التي خاضت مصر غمارها في عهد محمد علي لتأليف وحدتها السياسية، ولو لم تلح عليه تركيا في المبادرة الى تجريد الجيوش على شبه جزيرة العرب لكان فتح السودان اول حروبه بعد رد الغزوة الانجليزية، لان محمد علي لم يكن ليفغل عن اهمية السودان الحيوية لمصر، لكن الضرورات السياسية هي التي شغلته ردحا من الزمن عن فتحه وجعلته يبدأ بحرب الوهابيين

أسباب فتح السودان

يذكر المؤرخون بواعث وأسبابا عدة لفتح السودان، فمنها رغبة محمد علي في اكتشاف مناجم الذهب والماس التي تناقل الناس أنها موجودة في اصقاع السودان، وخاصة في سنار، ثم امكان تجنيد السودانيين في الجيش المصري النظامي لما اشتهر به الجنود السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء، ثم رغبته في التخلص من الفرق الباقية من عسكر الارناءود وغيرهم من الجنود غير النظامية (الباشبورق) ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب وعادوا الى مصر وظلوا على ما جبلوا عليه من النزوع الى العصيان والتمرد والاخلال بالنظام، فرأى محمد علي تحلصا منهم ان يجردهم على السودان وخاصة لانه شرع وقتئذ في تأسيس الجيش المصري النظامي كما سيجيء بيانه، ومن أغراضه أيضا القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا لاجئين الى اقليم دنقلة، وهم على ما بلغوا اليه من الضعف

كانوا مصدر قلق لمحمد علي ، فاعتزم القضاء عليهم لكي لا يستردوا قوتهم يوما ما
ويزحفوا على مصر ، وكان يرمى كذلك الى توسيع ملك مصر من الجنوب ، واكتشاف
منابع النيل ، وايجاد الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان ، وتوسيع نطاق
المعاملات التجارية بينهما إذ لم يكن يقصد السودان من المشتغلين بالتجارة سوى
فئة قليلة من التجار المخاطرين بانفسهم من سكان الوجه القبلي ، وكانت أسفارهم
في الغالب عرضة للخطر ، وتحولت معظم متاجر السودان الى طريق سواكن ومصوع
من ثغور البحر الاحمر وكاد ينقطع ورودها الى مصر ، فرأى محمد علي ان يبسط نفوذ
مصر في السودان لتكون طريقا لمتاجرها ، وادرك ان في توسيع نطاق التجارة بين
مصر والسودان فائدة لعمران البلدين وتنمية لما تحببه الحكومة من المكوس
على المتاجر فيزداد دخلها ويعوضها بعض ما فقدته من الاموال والنفقات في
الحرب الوهابية

هذه هي الاسباب والبواعث التي يذكرها جمهور المؤرخين لفتح السودان ،
وكلها كما ترى اسباب صحيحة وجبها ، ولكن يلوح لنا ان ضمان سلامة مصر
وتأليف وحدتها السياسية والاطمئنان على منابع النيل كانت من أهم البواعث التي
حفزت محمد علي الى فتح السودان ، فان ما اشتهر به ذلك الرجل العبقري من بعد
النظر وصدق العزيمة لا بد قد جعله يقدر أهمية السودان لمصر ويدرك ان
الاستقلال لا يتحقق الا اذا تملك مصر مجرى النيل من منبعه الى مصبه

قال في هذا الصدد (سدي بيل) احد نبلاء الانجليز في كتابه (١) : كانت العوامل
التي حملت محمد علي أن يفتح السودان كثيرة ، ولكنه من المعتقدين في فوائد الري
ومنافعه ، فيرجح كثيرا أن يكون الاطمئنان على سلامة النيل الاعلى أحد اغراضه
ويقول ابراهيم باشا فوزي في كتابه :

(١) ضبط النيل والسودان الحديث ص ٢٤١

« قضى ساكن الجنان محمد على باشا محيى الديار المصرية لبانتين من فتح السودان، بل تخلص من ورطتين كبيرتين ، فقد علمت من شيخ ذى منصب معاصر لمحمد على باشا أن دولة أوروبية كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل ، فاهتم لهذا الخبر اكبر اهتمام ، واستشار كثيرا من المهندسين الاوروبيين الذين جاء بهم من بلادهم الى هذا القطر ، فاقروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت برائن هذه الدولة مما لا يتحمد مغيبته حيث تصير حياة مصر فى يدها ، فصمم على انفاذ الحملة الى السودان » (١)

وغير خاف أن تلك الدولة التى يشير اليها فوزى باشا فى كتابه هى انجلترا ، فهى التى كانت تناوئ محمد على وتدأب للسعى فى احتلال مصر وبسط نفوذها عليها ففتح السودان هو اذن حرب قومية بحثة ، والغرض منها من اسنى اغراض الحروب وانبلها قصداً ، إذ كانت الغاية منها تأليف وحدة مصر السياسية والمحافظة على كيانها القومى ، ولا يخفى أن مساحة السودان تزيد عن ضعف مساحة مصر إذ أنه يبلغ مسطح القطر المصرى مرتين ونصفا ، ومساحته تضاهى ربع مساحة القارة الاوروبية ، فبفتح السودان اتسعت رقعة الدولة المصرية فبلغت ثلاثة أمثال ما كانت عليه من قبل ، ووصلت الى معظم حدودها الطبيعية ، فلا غرو أن نعد فتح السودان خير حروب مصر فى عهد محمد على

اعتزم محمد على تجريد الحملة على السودان عقب انتهائه من حرب الوهابيين ، وهذا يدل على قوة ارادته ومضاء عزمته ودأبه على توسيع ملك مصر ، فإنه لم يكد يلتهمى من تلك الحرب الشاقة ويبدى نفوذ مصر على جزيرة العرب حتى بادر الى خوض غمار حرب أخرى أعظم غاية ، وأكثر منفعة ، وأعود بالخبر والرفاهية على مصر وعلى الحضارة والانسانية

كانت حرب السودان على كثرة ضحاياها أقل مشقة واقصر مدة من حرب الوهابيين ، فقد كان الجيش المصرى يواجه فى جزيرة العرب قوما مدربين على

(١) كتاب السودان بين بدى غردون وكثشر جز ١ ص ٥٨

القتال ، اشتهروا بشدة البأس ، وعاشوا للسكر والفِر ، وهم فوق ذلك معزون بان صاراتهم على الحملات العثمانية من قبل ، أما الجيش الذى تحرك لفتح السودان فلم يلق أمامه سوى قوات مشتتة عزلاء لاسلح معها إلا الرماح وما اليها من الاسلحة البائدة ، وهى تجهل أساليب القتال وفنونه ، ولم يلق الجيش المصرى مقاومة تذكر إلا فى بلاد الشايقية وهم قبائل يسكنون جنوبي دنقله ، وفى كردفان التى كانت تابعة لسلطنة دارفور ، وفى مملكة سنار ، والعقبة الكؤود التى اعترضت الجيش المصرى فى فتح السودان هى الحميات والامراض الوبيئة التى حصدت طوائف الجنود ، فكانت أشد خطرا على الجيش من القتال وخوض المعارك

مقدمات الحملة

لجأ بقية الممالك بعد مذبحجة القلعة الى جنوبي النوبة فيما يلى شلال اسوان ، واتخذوا مديرية دنقله معتقلا لهم ، فأوفد محمد على اليهم بعض حاشيته تدعوهم الى العودة الى مصر والاقامة فيها على شروط أهمها ألا يستوطنوا المدن المصرية إلا باذن منه وأن يحضروا العاصمة يخفروهم بعض ضباطه حتى لا ينهاهوا شيئا من القرى والبلاد التى يمرن بها فى طريقهم الى القاهرة ، وأن يتمازلوا عن امتيازاتهم القديمة ولا يطالبوا بما أخذ منهم بعد مذبحجة القلعة

كان محمد على يدرك أن الممالك لا يقبلون هذه الشروط المهينة المدلة ، وبذلك يجد المسوغ لتجريد الحملة للقضاء عليهم ، وقد رفضوا فعلا قبولها ، وأخذوا يتوعدون بالدخول فى حدود مصر ، فلما جاء جوابهم محمد على أمر من فوره بحشد جيش فى مصر القديمة لفتح النوبة ودنقله وعقد لواءه لثالث انجاله اسماعيل باشا وقبل أن يأمر بالزحف ذهب بنفسه الى حدود مصر العليا فى سبتمبر سنة ١٨١٩ ليصحبه حسن باشا قائد الجنود الارناءود ومحمد لاطاوغلى (كتحدا بك) ووصل الى ماوراء شلال اسوان ليرتاد تلك الجهات ويرتب مواقع جنوده ويرسم خطط الزحف ، ثم عاد الى الجزيرة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩ وأخذ يتم معدات الحملة التى أعدها لفتح السودان

معدات الحملة

تتألف الحملة عند بدء الزحف من ٤٠٠٠ مقاتل كما أحصاهم المسيو فرديريك كايو العالم الفرنسى الذى صلب الحملة ، وقد تلقى هذا الاحصاء عن عابدين بك رئيس أركان حرب اسماعيل باشا ، من هؤلاء ١٢٠٠ من الفرسان العثمانيين ، و ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة ، و ٦٠٠ من المشاة ، و ٣٠٠ من رجال المدفعية ، و ٨٠٠ من المشاة العرب والمغاربة ، و ٧٠٠ من عرب العبادية ، فيكون مجموعهم ٤٠٠٠ (١) ثم تلقى اسماعيل باشا خلال الزحف مددا من ١٤٠٠ مقاتل فبلغ الجيش ٥٤٠٠ مجوزين باربعة وعشرين مدفعا

وأنفذ محمد على جيشا آخر بقيادة صهره محمد بك البقتر دار لفتح كردفان بلغ عدده ٤٠٠٠ جندي مجوزين بعشرة مدافع ، فيكون مجموع الجيشين اللذين توليا فتح السودان نحو عشر آلاف مقاتل

وصحب الحملة ثلاثة من العلماء مهمتهم دعوة الاهلين فى البلاد التى يبلغها الجيش الى الدخول فى الطاعة والاعتراف بسلطة الحكومة المصرية حقنا للدماء ، وهؤلاء العلماء هم الشيخ محمد الاسيوطى الحنفى ، والسيد احمد البقلى الشافعى ، والشيخ السلاوى المغربى

وصحب الحملة أيضا بعد فتح دنقلة ، المسيو فرديريك كايو Gailliaud المتقدم ذكره بقصد الاكتشاف والبحث عن مناجم الذهب ، وله فى رحلته بالسودان كتاب ضخيم يعد من أهم مراجع فتح السودان (٢)

احتشد الجيش فى مصر القديمة حيث أعد محمد على باشا ثلاثة آلاف مركب

(١) فرديريك كايو ، رحلة فى مروي والنيل الابيض وفازوغلى جزء ٢ ص ٥٠
(٢) رحلة فى مروي والنيل الابيض وفازوغلى للمسيو فرديريك كايو فى خمسة اجزاء

لنقل الجنود والمهمات والذخائر والمؤن بطريق النيل ، وأمر بإعداد نحو ثلاثة آلاف من الابل في (اسنا) للسير منها برا ، وسار في خدمة الحملة الفان من الاتباع

وقائع الحملة

ركب الجنود المشاة المراكب فانحدروا في النيل ، وسار الفرسان ورجال المدفعية بالبر الغربي ، وتقدمت الجيش طليعة مؤلفة من خمسمائة من الفرسان ، وتحركت الحملة قاصدة حدود دنقلة

وتحرك اسماعيل باشا وحاشيته في ٢٠ يولييه سنة ١٨٢٠ بعد سفر الحملة بيومين ، فبلغوا أسوان ، والتقوا فيها ببقية الجنود الذين سبقوهم اليها ، فقاموا بها ريثما يجتاز المراكب الشلال الاول ، ثم تقدموا جنوبا ، ففر المالك الذين كانوا بالدر ودانت البلاد لاسماعيل باشا

فتح دنقلة

سارت الحملة من اسوان الى (وادى حلفا) على ظهور المراكب ، اما الفرسان فقطعوا المسافة برا في اثني عشر يوما ، وأقامت الحملة في (وادى حلفا) نحو عشرين يوما (١) حتى اجتازت المراكب الشلال الثاني ثم زحفت على مديرية دنقلة فسارت من وادى حلفا الى (سكوت) ، ومن سكوت الى (دنقلة) ، ولم تلق مقاومة تذكر من المالك ، فقد استسلم بعضهم ، ورحل البعض الى (شندي) يريدون الالتجاء الى ملكها ، ولكنه لم يقبل ايواءهم ، فقتلتوا بين القبائل السودانية وسلبهم السودانيون اسلحتهم حتى انقطع دابرهم وقضى على البقية الباقية من المالك

وسلمت البلاد التي مر بها الجيش كسكوت و (الحس) و (ارقو) ، فقدم أهلها وحكامها الطاعة ، وكانوا يظنون ان الجيش المصرى راجع الى مصر بعد تشتيت شمل الممالك اذ كان ظنهم انه جاء لمحاربتهم ، فلم يعدوا لمقاومته فانتهز هذه الفرصة واحتل بلاد دنقلة كلها

معركة كورتى (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠)

ولما دخل الجيش بلاد (الشايقية) جنوبى دنقلة تجمعوا لقتال اسماعيل باشا بالقرب من (كورتى) الواقعة بالشاطيء الغربى للنيل ، ولم يكن معه من الجنود سوى ٨٠٠ فارس ، اما بقية الحملة فقد أبطأ قدومها لتأخر المراكب فى اجتياز الشلالات ، فانقض الشايقية على رهط من رجاله وقتلوا منهم ٧٥ مقاتلا ، فاشتبك اسماعيل والشايقية فى معركة دامت ثلاث ساعات (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠) انتهت بهزيمة الشايقية حيث فتكت بهم نيران البنادق فقتل منهم نحو ٨٠٠ وقتل من جنود اسماعيل باشا نحو الثلاثين ، وقد أبدى الشايقية بسالة كبرى فى قتالهم ، فأعجب بهم اسماعيل باشا ، وعرض عليهم بعد انتهاء القتال ان ينتظموا فى سلك الجيش المصرى فاستجابوا الى طلبه ، وبدلوا ولاءهم للحكم المصرى وظلوا محافظين على عهدهم على مدى السنين

ثم تقدم اسماعيل بهد المعركة وبلغ (كورتى) عاصمة الشايقية من أعمال مديرية دنقلة فأحرقها ، وانتظر بها ريثما تكامل جيشه ثم استأنف الزحف فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ (١) بمحاربا صحراء (يَبْوَضَه) يصحبه الفرسان حتى بلغ النيل تجاه (بربر) وكانت الرحلة اليها شاقة منهكة للقوى احتمل فيها الجند متاعب مضنية ، اما المشاة فقد ساروا حذاء النيل

(١) كابو جزء ٢ ص ٧٦

من بربر الى أم درمان

فتح الجيش المصرى (بربر) فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١ — وقدم ملكها نصر الدين خضوعه ، فاقره اسماعيل على بلده ، ثم (شندى) يوم ٨ مايو بعد أن قدم ملكها الملك (نمر) ولاءه ، وقابع الجيش الزحف جنوبا الى أن بلغ (ملفاهيه) الواقعة على مقربة من ملتقى النيل الازرق بالنيل الابيض فاحتلها ، ثم احتل (أم درمان) الواقعة على النيل الابيض ، واجتاز الجنود النيل فبلغوا مكان مدينة الخرطوم (١) التى كانت قبل الفتح محلة صغيرة لا تحتوى أكثر من عشرة بيوت من الغاب ثم انشئت بها مدينة (الخرطوم) التى صارت عاصمة السودان ومبعث الحضارة والعمران فى الحاضرة

وبعد أن وطد اسماعيل مركزه فى الخرطوم ترك بها حامية عسكرية وسار بباقي جيشه لاتمام فتح مملكة سنار (٢)

فتح سنار

ففتح مملكة (سنار) واحتل (ود مدنى) من أهم مدنها ، وقدم ملكها الملك بادى ولاءه ، ثم دخل اسماعيل (سنار) عاصمة المملكة فى ١٢ يونيه سنة ١٨٢١ (٣) ودانت البلاد للحكم المصرى من جنوبى وادى حلفا الى سنار

فتح كردفان

قلنا ان محمد على عهد الى صهره محمد بك الدقتردار فتح كردفان ، وكانت تلك البلاد تابعة لسلطان دار فور ، فبينما كان اسماعيل باشا يزحف على سنار سار جيش الدقتردار الى وجهته بطريق دنقلة وادى قس ، وكانت الرحلة الى كردفان شاقة

(١) على بعد نحو ١٨٠٠ كيلو متر من اسوان مع حسابان تعاريج النيل

(٢) كانت مملكة سنار تمتد من بربر شمالا الى فازو على جنوبا

(٣) كايو الجزء الثانى ص ٢٢٠

مهلكة للجنود لانهم ساروا سبعة أيام متوالية يقطعون الفيافي في صحراء لا ماء فيها ولا زرع

والتقى الدقتر دار بجيش نائب السلطان محمد الفضل سلطان دارفور فاشتبك الفريقان في واقعة دموية ببلدة (باره) شمالى الابيض (ابريل سنة ١٨٢١) انتهت بانتصار جيش الدقتر اروا تلال (الابيض) عاصمة كردفان كانت معركة (باره) أشد معركة خاضها الجيش المصرى فى الفتح الاول وقد أبدى فيها جيش كردفان شجاعة كبيرة ، ولكن مدافع الجيش المصرى غلبتهم على أمرهم ، وحاول سلطان دارفور بعد المعركة أن يسترد كردفان وأغار عليها لكنه عاد خائبا

فتك الامراض بالجنود

اعترض الجيش المصرى فى فتح السودان خصم لدود أشد وطأة من الحرب وأهوالها ، وهو فتك الامراض وانتشارها وخاصة أمراض المناطق الحارة ، ولم يكن يصحب الحملة إلا قليل من الاطباء خالين من الكفاءة ففتكت الامراض بالجنود واجتاحت عددا عظيما منهم

قال المسيو كايو الذى صحب الحملة فى سنار (١) ان الجيش الذى سار به اسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الازرق مات منه لغاية سبتمبر سنة ١٨٢١ ستمائة مقاتل ، ثم زاد عددهم الى ١٥٠٠ فى ١٠ أكتوبر (٢) وبلغ عدد مرضاه ٢٠٠٠ مريض ، وكان عدد المرضى يزداد كل يوم ، ولما ساءت حالة الجيش من هذه الناحية أرسل اسماعيل الى أبيه يشكو اليه سوء الحال ، قال وكانت حالة الجنود من جهة المأكل والملبس وقلة العناية بهم تدعو الى الاشفاق ، فقد كانوا يأكلون نوعا رديئا من الذرة يضر بصحتهم ، ثم ان ملابسهم بليت فلم يجدوا ملية بهم جو تلك

(١) رحلة كايو جزء ٢ ص ٣١٣

(٢) » » ص ٣١٧

الاصقاع ورطوبتها وكثرة امطارها ، وكانوا اذا ناموا يفرشون الارض فتصيبهم رطوبتها ، ولم يكن بالجيش اطباء ولا أدوية ، فكثر عدد المرضى وفشت العدوى واشتدت وطأة الامراض بالجنود في سنار حتى لم يبق لدى اسماعيل باشا من العسكر الصالحين للخدمة سوى خمسمائة ، وتبرم الجند بهذه الحالة وظهرت بين الاهلين بوادر الانتفاض وراجت الاشاعات السيئة عن حالة الجيش في سنار وكردفان ، فأخذ اسماعيل باشا ينمي الجنود بان مراكب المؤونة والعتاد قادمة عن قريب من جهة شندي

مجيء ابراهيم باشا ثم عودته

بقى اسماعيل باشا متوقفا عن الزحف قلقا على مصير جيشه الى أن جاءه ابراهيم باشا بطل الحجاز^(١) يصحبه بعض الاطباء لمعالجة الأمراض ومعه المؤونة والملابس للجنود ، فانتعش الجيش لقدومه ، ودبت فيه روح الأمل والشجاعة ، ولا غرو فان قدوم بطل الحجاز وقاهر الوهابيين جدير بان يرد الى الجنود قوتهم المعنوية ، وقد وزع المؤونة والملابس على الجنود ودفع لهم رواتبهم المتأخرة وجاء على أثره مدد من الجند

وأخذ ابراهيم باشا يدبر مع أخيه اسماعيل خطة فتح مابقي من بلاد السودان ، فاتفقا على اقتسام الزحف كل منهما في ناحية وتوزيع الجيش الى فرقتين ، فرقة بقيادة اسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الازرق لغاية اقليم فازوغلي^(٢) والاخرى بقيادة ابراهيم باشا ليخترق جزيرة سنار الى بلاد الدنكا على النيل الابيض ويمد فتوحات مصر الى أعلى النيل

(١) يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢١ كما يقول كايو جزء ٢ ص ٣١٨

(٢) سمي باسم الجبل المعروف بجبل فازوغلي جنوبي سنار ويقع على الشاطئ الغربي للنيل الازرق ويمتد حذاء النهر الى بلدة فامكة التي أسسها محمد علي وأخذها عاصمة مديرية فازوغلي ، أما عاصمتها القديمة قبل الفتح المصري فهي قرية صغيرة تدعى (فازوغلي)

فتح فازوغلى

وبعد أن تمت معدات الزحف تركا حامية من الجنود في سنار واتخذ كل من الاميرين سبيله في الجهة التي اعتزم فتحها، ولكن ابراهيم باشا مرض بالدورنتاريا أثناء الفتح، ولم يتجاوز في حملته جبل (القرابين) في وسط الجزيرة، ثم عاد الى سنار، ومنها الى مصر.

ووصل اسماعيل باشا في رحفه الى بلاد (فازوغلى) فدانته له (يناير سنة ١٨٢٢) وقدم له ملكها (الملك حسن) ولاءه وخضوعه.

وقد تكبد الجيش متاعب هائلة في تلك الحملات البعيدة، ونالت منه الجهود والأوصاب، وبعث اسماعيل الى أبيه يطلب الاذن له بالعودة الى مصر، ولكنه أرسل يلومه على هذا الطلب وكلفه البقاء في السودان الى أن يتم مهمته، وقد أذعن وبقي زمنا يوطد دعائم السيادة المصرية في تلك الاصقاع، ثم اشفق محمد علي على صحة ابنه فارسل يأذن له بالرجوع الى مصر، ولكن هذا الاذن لم ينجحه من الردى.

البحث عن مناجم الذهب

وبعد أن فتح اسماعيل باشا بلاد فازوغلى سار الى جبل (بنى شنقول) جنوبي فازوغلى للبحث عن مناجم الذهب يصحبه المسيوكايو، فحفر أما كن عدة، لكنه لم يعثر على ضالته ولم يكتشف إلا شذورا قليلة من التبر، ففعل راجعا الى سنار وفي غيبته طارت اشاعات السوء عن جيشه، وارجف المرجفون أن قد أحيط به وبرجاله، فبدت بوادر التمرد في بعض البلاد، وقتل بعض الضباط في القرى، فاضطر اسماعيل أن يعود الى سنار ليوطد سلطته بها (فبراير سنة ١٨٢٢) رفشت الحيات بين الجنود في (سنار) لكثرة هطول الامطار، فانتقل بجنده الى (ود مدني) لاعتدال مناخها، وبنى بها قشلاقا كبيرا من الطوب بقيت آثاره الى عصرنا الحاضر.

مقتل اسماعيل باشا

مكث اسماعيل زمناً في سناريدير أمر الحكومة التي أسسها ، ثم أرسل أفواجا من الأسرى السودانيين يصحبهم رهط من الجنود الى اسوان لتجنيدهم في الجيش المصرى النظامى الذى كان محمد على جاداً فى تأسيسه ، واستعد هو أيضاً للعودة الى مصر مصعداً فى النيل

وعلم فى غضون ذلك ان أهالى حلفايه وشندى وما حولها ثاروا فى وجه السلطة المصرية ، وكانت مساوئ الجنود وخاصة الأرنؤود من أسباب هياج الاهلين وثورتهم ، فاحتشد الثوار حول حلفايه وشندى وهجموا على قوافل الارقاء السودانيين وانتزعوهم من أيدي الجنود الموكلين بهم ، ورجعوا الى شندى فرحين بهذا النصر المبين

علم اسماعيل باشا بهذا النبأ فقام من فوره قاصدا (شندى) ومعه بقية الجيش ، وكان الملك (نمر) ملك شندى هو المدبر لهذه الثورة ، فجاء اسماعيل المدينة فجأة فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢ ، وأمر باحضار ملك شندى أمامه ، فلما مثل بين يديه أخذ يقرعه ويسرف فى تأنيبه ، ثم تهاذى فلفظه على وجهه (بالشبك) ، فلم يجب الملك على هذه الاهانة البالغة ، ولسكنه أسرها فى نفسه وعزم على ان يغسلها بانتقام ذريع اما اسماعيل باشا فقد عفا عنه مقابل غرامة مالية جسيمة يوفىها فى خمسة أيام وألف من الرقيق ، فأظهر الملك نمر الاذعان وقبل أن يحتمل الغرامة ، ثم دعا اسماعيل باشا وبطانته الى وليمة فى قصره بشندى ، وكان من القش ، فأجابوا الدعوة وذهبوا الى القصر واستووا فيه ، ورحب بهم الملك ترحيبا عظيما ، وأمر اعوانه ان يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر بحجة العلف لخليل الباشا ، ولم يدر بخلد الضيوف ان ثمة مؤامرة رهيبة تدبر لهم ، فلما فرغوا من طعامهم وأكثروا من شراب (المريسة) اخذوا يتأهبون للعودة الى معسكرهم ، فاذا النار

قد طارت في اكوام الخطب والقش المحيطة بالقصر، واذا هي قد عمتها، واندلعت فيما حولها، فجعلت القصر شعلة من الجحيم، وحصرت النيران اسماعيل باشا وحاشيته فلم يستطيعوا الافلات من هذا الحصار الجهنمي لهول النار المشتعلة ولا حاطة جنود الملك بهم يرمونهم بالنبل والسهام من كل ناحية، فسدت المسالك في وجوههم حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يستطع الجند نجاتهم اذ كانوا في معسكرهم بعيدين عن مكان المأساة، ولما وقعت الكارثة انقض عليهم رجال الملك نمر ففتكوا بهم، ولم ينج منهم الا من هرب به العمر.

كانت هذه النازلة كارثة كبرى اثرت تأثيرا سيئا في مركز الجيش المصري، وتصدعت لها هيئته، فان مقتل قائد الجيش بهذه الطريقة الجهنمية من شأنه ان يبعث اليأس والرعب في نفوس الجنود.

فلما بلغ الخبر محمد علي باشا (١) حزن حزنا شديدا لقتل ابنه اسماعيل وخاصة بعد ان فقد منذ اعوام معدودة ابنه طوسون، على انه تلقى المصيبة بالجلد والصبر واعتزم المضي في سبيله.

وكان محمد بك الدفتردار وقت هذه الكارثة في كردفان، فلما جاءه نبؤها بادر من فوره بالزحف على شندى للثأر والتنكيل بمن اشتركوا في الواقعة، وقد خرب شندى، وأسرف في التنكيل والقسوة بما جعله مضرب الامثال في الميل الى القتل وسفك الدماء، وقتل آلافا من الناس ليثأر لصهره، وسبي من الصبيان والنساء آلافا أخرى أرسلهم الى القاهرة، وتعقب الملك نمر لسكنه لم يدركه لفراره الى حدود الحبشة.

ما ذكره الجبرتي عن فتح السودان

دوّن الجبرتي في كتابه حوادث مصر لغاية سنة ١٨٢١، أي أنه أدرك ابتداء

(١) علم به في ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢ كما ذكر ذلك مايجان جز ٢ ص ٢٥٢

ويقول ان اسماعيل باشا لم يمت حرقا بل قتلا، وروايته لا تتفق مع معظم المراجع

فتح السودان ، وذكر عنه شذرات متفرقة خلال يومياته ، تناول فيها الكلام عن مقدمات الحملة ، وبعض وقائعها ، وانتهى الى ذكر فتح سنار ، وقد رأينا تقديرا لهذا المرجع التاريخي القومي الجليل أن نورد هنا ما ذكره في هذا الصدد

قال في حوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٤ (سبتمبر سنة ١٨١٩) ما يأتي

« وفي منتصفه سافر الباشا (محمد علي) الى الصعيد ، وسافر صحبته حسن باشا طاهر ومحمد اغا لاط (لاظ اوغلي) المنفصل عن الكتخدائية ، وحسن اغا ازرجاني وغيرهم من أعيان الدولة »

وهذه هي الرحلة التي سافر اليها محمد علي باشا قبل فتح السودان ليرتاد حدود مصر ويرسم الخطط للزحف على النوبة ودنقلة

وقال في حوادث محرم سنة ١٢٣٥

« وفي ٢٧ (١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩) حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل في سرحته الى الشلال ، وكان الناس يقولون على ذهابه الى قبلى أقاويل ، منها أنه يريد التجريد على بواقي المصريين (المالك) المنقطعين بدنقلة ، فانهم استفحل أمرهم واستكثروا من شراء العبيد ، وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول اليها ، ومنها انهم قالوا أنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد ، وان ذهابه للكشف على ذلك وامتحانه وعمل معدله ومقدار ما يصرف عليه حتى يستخرج صافيه ، وبطل كل ماتوهموه وخمنوه برجوعه »

فالجبرتي في هذه النبذة يذكر عودة محمد علي من رحلته الى اسوان ، ويذكر أقاويل الناس في البواعث لهذه الرحلة ، ومنها (أخذ بلاد دارفور والنوبة) أي فتح السودان ، والبحث عن مناجم الذهب والمعادن الأخرى ، ثم يقول ان ماتوهمه الناس وخمنوه بطل برجوعه ، والواقع أن الجبرتي كان واهما فيما يقول ، فان محمد علي انما رجع لتجهيز الحملة على السودان ، وأن ماتوهمه الناس كان صحيحا ثم قال في حوادث ربيع الثاني سنة ١٢٣٥ (يناير سنة ١٨٢٠) « في أوله

عزل الباشا محمد بك الدقتردار عن امانة الصعيد وقلد عوضه احمد باشا ابن طاهر باشا
وسافر في خامسه »

ويلوح لنا أن لهذا النبأ علاقة بفتح السودان ، لأن محمد علي فصل الدقتردار
عن حكم الصعيد لينضم الى الحملة ويعاون اسماعيل باشا في فتح السودان
وقال عن تعيين اسماعيل باشا ابن محمد علي لقيادة الحملة ومجهز معداتها
« وفيه (جمادى الاولى سنة ١٢٣٥ — فبراير سنة ١٨٢٠) قوى عزم الباشا على
الاغارة على نواحي السودان ، فن قائل ، انه متوجه الى سنار ، ومن قائل الى دارفور ،
وصارى المسكر (القائد العام) ابنه اسماعيل باشا وخلافه ، ووجه الكثير من
اللوازم الى الجهة القبلية ، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلى والشرقية ، واهتم
اهتماما عظيما ، وأرسل أيضا باحضار مشايخ العربان والقبائل »
نقول واستدعاء مشايخ والقبائل كان الغرض منه تجنيد العربان في الحملة ، ومن
المعلوم أنها كانت تضم في صفوفها كثيرا من فرسان العرب المصريين كما
ذكرناه آنفا

وقال في حوادث رجب سنة ١٢٣٥ (ابريل سنة ١٨٢٠) « وفي عشرينه
سافر محمد اغلاظ (لاطاوغلى) وهو المنفصل عن الكتخدائية الى قبلى ، بمعنى أنه
في مقدمة الجردة يتقدمها الى الشلال »

ثم قال في حوادث رمضان ١٢٣٥ (يونيه سنة ١٨٢٠) « واستهل شهر رمضان
بيوم الاثنين ، والاهتمام حاصل ، وكل قليل يخرج عساكر ومغاربة مسافرين الى
بلاد السودان ، ومن جملة الطلب ثلاثة من طلبة العلم يذهبون صحبة التجريدة ،
فوقع الاختيار على محمد افندى الاسيوطى قاضى أسيوط ، والسيد احمد البقلى
الشافعيين ، والشيخ احمد السلاوى المغربى المالكي »

وقال عن تشتيت شمل الماليك في دنقلة وتسليم بعضهم
« وفي هذا الشهر (شوال سنة ١٢٣٥ — يوليه سنة ١٨٢٠) حضرت طائفة
من بواقي الأمراء المصريين (الماليك) من دنقلة الى بر الجيزة ، وهم نحو الخمسة

وعشرين شخصا، وملا بسهم قصان بيض لا غير، فأقاموا في خيمة ينتظرون الاذن، وقد تقدم الارسال بطلب الامان عندما بلغهم خروج التجاريد، وحضر ابن على بك أيوب وطلب أمانا لأبيه، فأجيبوا الى ذلك، وارسل لهم امانا لاجمعهم ماعدا عبد الرحمن بك الذي يقال له المنفوخ فلا يعطيهم أمانا، ولما حضرت مراسلة الامان لعلى بك أيوب وتأهب للرحيل حققوا عليه (أى المماليك) وقتلوه»

وقال أيضا في هذا الصدد « وفي أوائل ربيع الأول سنة ١٢٣٦ (ديسمبر سنة ١٨٢٠) حضر نحو العشرة أشخاص من الامراء المصرية (المماليك) البواقى في حالة رثة وضعف وضميم واحتياج، وكانوا أرسلوا وطلبوا الامان فأجيبوا لذلك» وقال « وفي أواخر رجب سنة ١٢٣٦ (ابريل سنة ١٨٢١) حضر جماعة من المماليك المصرية الذين كانوا بدقلة فيهم ثلاثة سناجق أحدهم احمد بك الإلنى زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير»

وقال عن سفر اسماعيل باشا قائد الحملة ومحمد بك الدقتر دارثم ابراهيم باشا « وفيه (ذى القعدة سنة ١٢٣٥ — اغسطس سنة ١٨٢٠) سافر اسماعيل باشا الى جهة قبلى، وهو أمير العسكر المعين لبلاد النوبة، كل ذلك والباشا الكبير (محمد على باشا) على حاله بالاسكندرية»

« وفي ١٧ رجب سنة ١٢٣٦ (ابريل سنة ١٨٢١) ارتحل محمد بك الدقتر دار مسافراً الى دارفور ببلاد السودان بعد أن تقدم طوائف كثيرة عساكر أتراك ومغاربة»

وذكر عن سفر ابراهيم باشا في حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣٦ (اغسطس سنة ١٨٢١)

« وبعد سفر الباشا الى الاسكندرية سافر ايضا ابراهيم باشا الى ناحية قبلى قاصدا بلاد النوبة»

وقال عن وقائع الحملة

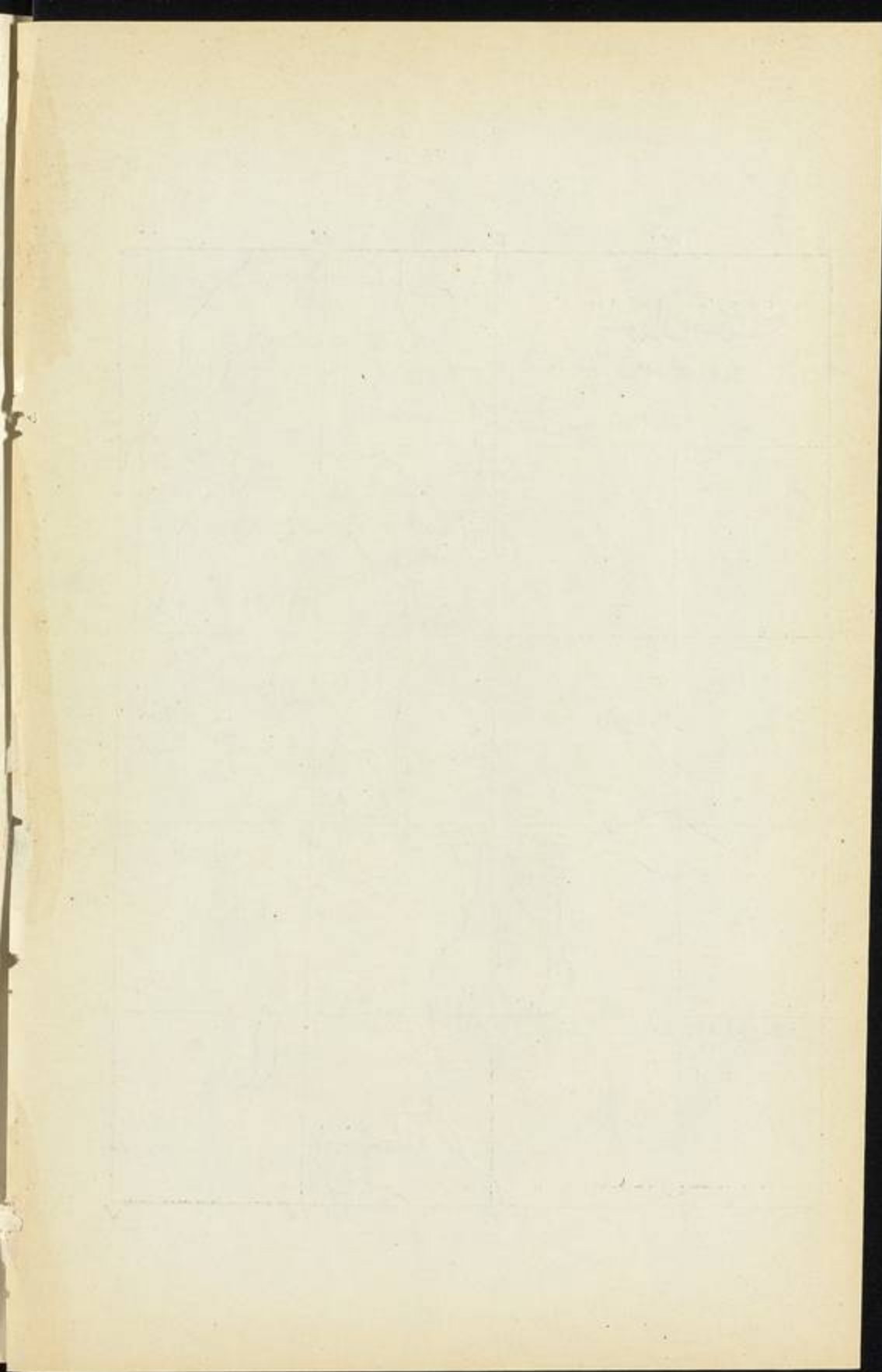
« واستهل شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٦ (٣٠ اغسطس سنة ١٨٢١) وفيه خرجت

عساكر كثيرة ومعهم رؤسائهم وفيهم محو بك ومغار بقو آلات الحرب كل مدافع وجبنانات البارود والغمجية وجميع اللوازم قاصدين بلاد النوبة وما جاورها من بلاد السودان، وفيه أيضا سافر محمد كتحدا لاط (لاظ اوغلي) المنفصل عن الكتخدائية الى اسنا ليتلقى القادمين ويشيع الزاهيين، وفيه وصلت بشار من جهة قبلي باستيلاء اسماعيل باشا على سنار بغير حرب ودخول أهلها تحت الطاعة، فضربت لتلك الاخبار مدافع من القلعة »

نظام الحكم في السودان

جعل محمد علي باشا على السودان حاكما يسمى (حكمدار السودان) يجمع في يده السلطة العسكرية والمدنية ويرجع في ادارته الى ديوان (وزارة) الداخلية بمصر، ولبعد المسافة بين البلدين وصعوبة المواصلات كان لحكمدار السودان سلطة مطلقة في ادارته، وجعلت مدينة الخرطوم التي انشئت في عهده عاصمة السودان ومقر الحاكم العام، ومع الزمن قسمت البلاد الى مديريات لكل منها مدير يحكمها تحت ادارة حكمدار السودان ويتولى قيادة الجند فيها، وقسمت المديريات الى اقسام لكل قسم ناظر، وكانت الادارة تتبع نظام الادارة المصرية، وصار عدد المديريات في اواخر عهد محمد علي سبعة، وهي دنقلة، وبربر، والخرطوم، وكردفان، وكسلا، وسنار، وفازو غلي

وجعل لكل مدير وكلاء، ومعاونين وكتابا، وبجانبه القاضي والمفتي ومجلس اهلي وضبطية، وابقى حكام البلاد الاقدمين من الاهلين في مراكزهم كمشايج النوبة ودنقلة وبربر والحلفاية والرصيرص وفازو غلي، وملك سنار وكان المديرون ومن اليهم من الموظفين تحت رقابة الحكمدار (الحاكم العام)، ومما لا نزاع فيه ان كثيرا من اولئك الموظفين كانوا ينتزعون الى الظلم والعسف مما أدى الى تبرم الاهلين، وقد ظهر عسفهم على الاخص في حمايتهم لتجار الرقيق الذين كانوا ينتزعون الاهلين من قراهم ويبيعونهم في اسواق النخاسة



الجيش المصرى بالسودان

يقول المسيو دارنو المهندس الفرنسى الذى أقام بالسودان من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٤٢ ان الجيش المصرى المراتب هناك كان يبلغ (سنة ١٨٣٨) ٦٨٠٠ جندي، منهم ٦٠٠٠ من الجنود النظامية يتألف منهم الايان، و٤٠٠ من الشايقية من سكان البلاد المعروفة باسمهم و٤٠٠ من المغاربة وقد زاد بعد تلك السنة حتى بلغ ١٨٠٠٠ احصاؤهم كما يأتى :

١٦٠٠٠	خمس الايات من الجنود النظامية المصرية
١٠٠٠	فرسان من الترك
٤٠٠	مغاربة
٤٠٠	شايقية من أهل البلاد
٢٠٠	مدفعية
١٨٠٠٠	المجموع

ويقول الدكتور بيرون Perron ان الجيش المراتب بالسودان سنة ١٨٤٣ بلغ خمس الايات، كل الاى مؤلف من ٣٠٠٠ مقاتل، أى أن عددهم ١٥٠٠٠، وهو قريب من احصاء المسيو دارنو

وكانت وحدات الجيش المصرى موزعة على العواصم والمدن المهمة مثل الخرطوم والابيض وباره وود مدنى وسنار وكسلا

وقد دخل فى هذا الجيش عدد كبير من السودانيين أخذ يزداد مع الزمن، وأثبتت التجارب كفايتهم وولاءهم وحسن ادائهم للخدمة العسكرية، وصار السودانيون ينتظمون فى الجيش المصرى كالمصريين، تظلمهم راية واحدة هى الراية المصرية، ويدينون بالولاء لدولة واحدة هى الدولة المصرية

حكمدارو السودان في عهد محمد علي

بقى محمد بك الدقتردار بعد مقتل اسماعيل باشا يتولى حكم السودان، الى أن جاءه الامر فرجع الى مصر، وتعاقب بعده الحكمدارون الذين عهد اليهم محمد علي حكم تلك البلاد، واستمر ولاية السودان (الحكمدارون) في عهده وعهد خلفائه يتولون حكمه على اعتبار أنه جزء لا يتجزء من مصر الى أن فصلته عنها السياسة الاستعمارية الانجليزية سنة ١٨٨٤ بعد شبوب الثورة المهدية

عثمان بك

ففي سنة ١٨٢٣^(١) جعل الميرالاي عثمان بك حكمدارا للسودان ولم يكن عهده عهد اصلاح وعمران، فانه عسف الاهلين بما فرضه عليهم من الضرائب الفادحة، وجرد عليهم الجنود لجبايتها، فأسرفوا في القسوة والقتل والتنكيل مما أدى الى هجرة الكثير من الاهلين ونقص عدد السكان، ومات عثمان بك قبل أن تمضي على ولايته سنتان فكان عهده وعهد الدقتردار من أسوأ أزمنة الحكم في السودان

محو بك

وأقيم في مكانه محو بك، فكان عادلا رحيا، أحسن السيرة بين الاهلين، وكف اعتداء الجنود عليهم، وحجب فيه مشايخ البلاد وأهلها بما اشتهر عنه من العدل، وبنى بالخرطوم ثكنة لاقامة الجنود، واحتفر في الطرق البعيدة عن النيل آبارا يستقي منها الناس والقوافل تعرف الى عصرنا الحاضر بأبار محو بك^(٢)

خورشد باشا

هو أعظم ولاية السودان شأنًا، وأنهمهم ذكرًا، وأحسنهم سيرة، وأطولهم عهدًا

(١) اعتمدنا في بيان هذه السنة على ما ذكره اللواء المصري محمد مختار باشا

في كتابه التوفيقات الالهامية ص ٦١٩

(٢) السودان بين يدي غردون وكتشنر لبراهيم باشا فوزى الجزء الاول ص ٦٥

خلف محوبك في ولاية السودان سنة ١٨٢٦ ، فسار سيرة عدل واستقامة ، وعنى
 باصلاح ما أفسده الدقتردار وعثمان بك ، فبذل همه في تعمير البلاد وتأمين الاهالى
 على أموالهم وأرواحهم ، وأذاع منشورا بالامان الى الفارين الذين هاجروا الى دارفور
 وجبال النوبة ، فعادوا واطمان الاهلون الى حكمه ، وعمر مدينة الخرطوم كما سيجى
 بيانه ، وهو الذى ادخل في السودان صناعة بناء الدور بالطوب بعد أن كان الاهالى
 يقيمونها بالغاب والجلود ، وقد أمدهم بالطوب والاشباب والألواح تيسيرا عليهم
 وترغيبا لهم فى العمران ، ونظم الدواوين ، ووطد الأمن فى البلاد وانشأ مسجدا فى
 الخرطوم وآخر فى سنار ، وعنى بالزراعة ، وطلب من محمد على مساعدته فى أسبابها ،
 فأرسل اليه طائفة من المزارعين المصريين منهم بعض مشايخ البلاد وبعض (الخولة)
 لتعريف الاهالى على الزراعة

وقد وسع فتوحات مصر فاحتل (القلابات) شرق السودان ، وكان موقعها هاما
 من الوجهة الحربية والاقتصادية لوقوعها بالقرب من حدود الحبشة ، فجعل بها حامية
 عسكرية ثابتة ، وأخضع جبال قلى وغزا قبائل الشلك وقبائل سبدرات
 وقد اثنى عليه محمد على وانعم عليه برتبة الباشوية سنة ١٨٣٥ جزاء ما بذله
 من الهمة فى تنظيم شؤون السودان

وبقى فى منصبه الى سنة ١٨٣٧ حيث اعتزله وخلفه احمد باشا ابوودان

احمد باشا ابوودان

هذا احمد باشا أبوودان حذو خورشيد باشا فأحسن السيرة بين الاهالى ،
 وحجب فيه الامراء ورؤساء القبائل من السودانيين ، واتم عمل خورشيد باشا فى
 تعمير مدينة الخرطوم ، وتنظيم المديریات ، وضم اليها العرب الرحل الضاربين فى
 أوديتها ، وبذلك انتظمت ادارتها ، وجلب من مصر كثيرا من الحيوانات المستأنسة
 والنباتات النافعة وبذورها فتحسنت الزراعة وارتقت شؤونها ، ونشطت الصناعة
 فى (ترسانة) الخرطوم ، واستكثر من السفن الاميرية فى النيل ، وزاد من طرق

المواصلات فاتسعت حركة التجارة والمعاملات بين مصر والسودان والبلاد القاصية من أواسط افريقية ، وصارت الخرطوم ملتقى المتاجر ، وكثر ورود التبر وريش النعام والعاج والصمغ اليها ، وفي عهده فتح اقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الاحمر سنة ١٨٤٠ ، وأسست مدينة (كسلا) وجعلت عاصمة له ، وتوفي ودفن بالخرطوم

احمد باشا المنكلى ثم خالد باشا

وأقيم في مكانه احمد باشا المنكلى فاحمد الثورة التي نشبت في بلاد التاكا والتي أثارها سوء ادارة الموظفين ، وبقي حكامدارا للسودان الى أن عاد الى مصر سنة ١٨٤٥ وخلفه خالد باشا وهو آخر من عين حكامدارا للسودان في عصر محمد علي

رحلة محمد علي في السودان

١٥ اكتوبر سنة ١٨٣٨ — ١٥ مارس ١٨٣٩

اعتزم محمد علي أن يرود بنفسه أصقاع السودان ليتعهد شؤون الادارة المصرية فيها ، وليبحث عن مناجم الذهب ، فسار اليها في ١ اكتوبر سنة ١٨٣٨ (١) عن طريق دنقلة ، ثم قصد الخرطوم مارا بطريق صحراء بيوضه ، فبلغها يوم ٢٣ نوفمبر وأقام بها ٢٢ يوما قابل فيها الاعيان وتفقد أحوال الادارة وشؤون البلاد ، ثم زار سنار وقصد الى جبال فازوغلى للبحث عن معدن الذهب ، ولكن البحث لم يفض الى نتيجة يرضاها ، ففعل الى الخرطوم وأقام بها أياما قليلة ثم عاد الى مصر عن طريق صحراء النوبة من (ابو حمد) الى وادي حلفا (مارس سنة ١٨٣٩) وقضى في رحلته خمسة أشهر

وكان يصحبه في رحلته هذه طائفة من المهندسين والباحثين منهم المسيو ليففر Lefevre والمسيو دارنو D.Arnaud والمسيو لامبير Lambert ، وقد قضى

(١) في عهد حكامدارية احمد باشا ابو ودان

الاول نخبه أثساء رحلته بحمى اصابته ، وظل الآخراث يبحثان وينقبان
ولمناسبة زيارة محمد على للسودان أمر بالغاء تجارة الرقيق لما رآه من فظاعة
النخاسين (تجار الرقيق) وما يرتكبونه من القسوة في جلب الارقاء وترحيلهم الى
مختلف الأمصار ، وأنفذ رسلا يعلنون هذا الامر في جميع البلاد ، ولكن رغم هذه
الاورامر بقي الاتجار بالرقيق ذائعا الى أن أبطله الخديوى اسماعيل

عمران السودان في ظل الحكم المصرى

يطيب لبعض الكتاب السياسيين من دعاة الاستعمار الانجليزى ان يرموا
الحكم المصرى فى السودان بكل نقيصة ، ويذهبوا الحضارة التى دخلت ربوعه
الى الادارة الانجليزية ، وهى دعوى باطلة تقوم على أساس الارجاف وتشويه الحقائق
وفى الحق ان الفضل فى حضارة السودان منذ الفتح الاول ثم الفتح الثانى
يرجع الى الحكم المصرى ، والى الدماء المصرية ، والسواعد المصرية ، والجهود
والاموال المصرية

فلنبين فى هذه العجالة مبلغ ما افاده السودان من الحكم المصرى فى عهد
الفتح الأول ، اى عهد محمد على حيث يقتصر موضوع الفصل السادس
ضحى المصريون بأرواحهم ودمائهم فى سبيل فتح السودان واقرار سلطة الامن
فى ربوعه ، فقد بلغ عدد من ققدم الجيش المصرى فى الفتح الاول سواء ممن قتلوا
فى المعارك أو الرحلات البعيدة الشاقة أو من اجتاحتهم الامراض نحو ثلاثة آلاف
رجل .

لقد حقق الفتح المصرى الوحدة القومية لمصر والسودان ، ثم انه نشر لواء
الحضارة والعمران فى اصقاعه ، فقد أسس فى البلاد حكومة منتظمة كان لها
الفضل الكبير فى بسط رواق الامن واقامة قواعد العمران فى السودان ، ولم ينظر
المصرى الى السودان كمستعمرة للاستغلال ، بل نظر اليه كجزء لا يتجزأ من مصر ،
فعنى بعمرانه كما يعنى بعمران الغربية أو الدقهلية وسائر مديريات القطر المصرى

تأسيس المدن

كان تأسيس المدن من أول ما عنى به الحكم المصرى فى السودان فأنشأ مدناً زاهرة صارت مبعث الحضارة والتقدم فى أنحاء

الخرطوم

يقول المسيو ديهيران فى كتابه ^(١) ان المصريين حينما فتحوا السودان لم يختاروا بلدة من بلاده القائمة مثل بربر او سنار او الابيض عاصمة لأملاكهم ، بل أنشأوا عاصمة جديدة وهى (الخرطوم) ، ولم يكن فى مكانها قبل انفتح المصرى سوى محلة صغيرة للصيادين ، وفى سنة ١٨٢٢ أسس بها معسكر ثابت للجنود ، وفى سنة ١٨٣٠ اتخذها خورشيد باشا حكمدار السودان مقراً للحكم ، فصارت الخرطوم من ذلك الحين عاصمة السودان ، وقد اختار لها المصريون هذا الموقع لأهميته حيث يلتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض وسميت الخرطوم لأن ملتقى النيلين يشبه رأس خرطوم الفيل ، قال وقد اقيمت فيها المباني والعمائر منذ انشائها ، وأهمها سراى الحكومة وكانت مبنية بالطوب الأحمر ، ومؤلفة من دورين ، وكان منظرها نفخاً ، وسراى مديرية الخرطوم مقر مدير المديرية والموظفين ، ومسجدان أحدهما كبير بناه خورشيد باشا ، والاخر صغير اقيم من بعده ، ودار لاهدى البعثات الدينية المسيحية انشئت سنة ١٨٤٨ فى اواخر عهد محمد على ^(٢) وانشئت بها أيضاً ثكنة كبيرة للجنود شرق المدينة ، مستشفى ^(٣) ، ومعمل للبارود تصنع فيه ذخائر الجيش ، ومخازن للمؤن والمهمات ، ثم ترسانة كبيرة كانت تشمل مسبك الحديد ومعملاً للنجارة ، وفيها بنيت السفن النيلية التى أخذت تنقل الجنود والمتاجر على النيل ، ويتخلل تلك العمائر الكبيرة بيوت للسكن ، وقد اكسب المدينة

(١) السودان المصرى فى عهد محمد على ص ١١٧

(٢) هى التى اتخذها غردون باشا مستودعاً للذخائر أثناء حصار المهدي للخرطوم

(٣) ذكره انجان ج ٣ ص ٤٩٦

موقعها على النيل روعه وجالا ، وزادتها الحدائق التي انشأها المصريون حول البحار ونقا
ونضرة وكانت هذه الحدائق تشغل مساحات واسعة من الاراضي كما أنها موضع عناية
القائمين بها ، ولها منظر بديع ، وكان معظمها يحاذي النيل الازرق ولا يفصلها عنه
إلا رصيف ضيق ، وفيها كل ماتنتبت الارض من الخضر والتين والبرتقال والليمون
والموز والنخيل والدوم ، ويتألف من مجموعها منظر بهيج يدخل السرور في نفوس
القادمين (١)

وبعد أن أسست المدينة صارت ملتقى المتاجر القادمة من انحاء السودان
وباطن افريقية أو الواردة اليها من مصر والخارج ، فازدهر العمران فيها ، وصارت
محطة من أعظم المدن التجارية في افريقية كما أنها صارت مركزا للرحلات والاكتشافات
الجغرافية والعلمية ، ومرسى للسفن النيلية التي تنقل في انحاء النيل الازرق والنيل
الابيض

وتزايد مع الزمن عدد سكانها ، فقد جاءها الناس من مختلف انحاء السودان كسائر
وبربر ودنقلة وشندي وغيرها وقدموا اليها المتاجرة ، وأقام فيها الموظفون ورجال
الجهادية ، فبلغ عدد سكانها في عصر محمد علي ثلاثين ألف نسمة كما قدرهم المسيو
مانجان في كتابه (٢) واستمر عددهم يطرد في عهد خلفائه ، فبلغوا اربعين ألفا
سنة ١٨٥٤ وخمسين ألفا سنة ١٨٥٦ ، وقدرهم الكولونيل ستوارت من ٥٠ الى ٥٥
ألفا سنة ١٨٨٣ ، ثم جاءت الفتنة المهدية فدكت معالم العمران فيها وفي انحاء السودان

مدينة كسلا

وانشئت أيضا مدينة كسلا التي صارت عاصمة اقليم التاكا من أهم أقاليم
السودان بل عاصمة السوان الشرقي ، ذكر ابراهيم باشا فوزي في كتابه (٣) ان

(١) دهبان ، السودان المصري على عهد محمد علي ص ١٢٠

(٢) تاريخ مصر في حكم محمد علي جزء ٣ ص ١٠٨

(٣) السودان بين يدي غوردون وكتشر جزء ١ ص ٦٥

احمد باشا ابودان حاكم دار السودان اسس مدينة (كسلا) وحضنها ، وقال في موضع آخر ان كسله اسم مدينة هي عاصمة اقليم التاكا الذى بين محافظتى .صوع وسوا كن وحدود الحبشة ، وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان^(١) وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة ، وفيه ابراج ، ومعدات الدفاع متوفرة فيها منذ دخلت في املاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد على باشا^(٢) ويقول المسيو ديهيران ان مدينة كسلا انشئت على عهد احمد باشا ابودان وذلك أنه أثناء فتح التاكا اتخذ مسكره على نهر (الجاش) بسفح جبل كسلا ، ولما غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود ، فاقبل عليها الاهالى المجاورون واتخذوها موطناً لهم ، وبذلك تأسست مدينة كسلا التى صارت من أهم مدن السودان^(٣)

فامكه

وكذلك انشئت مدينة فامكه على النيل الازرق سنة ١٨٤٠ فى اقليم سنار على بعد ٢٥ ميلا من الرصيرص جنوبا ، وجعلت عاصمة مديرية فازوغلى ، وقد بنى محمد على باشا على نحو خمسة اميال منها جنوبا قصرا ومعملا لاستخراج الذهب بقيت آثارهما الى عصرنا الحاضر

توطيد دعائم الأمن

مهما اختلف الكتاب الافرنجى فى تقديرهم للحكم المصرى فى السودان على عهد محمد على فانهم مجمعون على امتداحه والاعتراف له بالفضل فى بسط رواق الامن فى اصقاعه النائية ، كانت الرحلة اليه قبل الفتح المصرى محفوفة بالاعطال

(١) وضع فوزى باشا كتابه بعد استرجاع السودان الاخير وطبع سنة ١٣١٩ هـ

(١٩٠١ م)

(٢) جزء ٢٠ ص ٨٦

(٣) كتاب السودان فى عهد محمد على ص ١٠٩

إذ كانت الطرق مقطوعة ، والأمن فيها مضطرب ، وسلطة الرؤساء ضعيفة ، وكانت قوافل التجار والحجاج تستهدف في كل وقت للسلب والنهب ، ولكن الحكم المصرى قد قضى على الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد وبسط رواق الأمن عليها . قال المسيو ديهيران في هذا الصدد : ان مقام به محمد على من بسط رواق الامن في مصر هو من اجل أعماله كما يرى المستر بورنج^(١) في تقريره عن مصر ، وهذا الرأي يجب تعميمه ليشمل كل بلد حكمها محمد على ، فحينما بسط نفوذه وحكمه نهض بالأمن ووطد دعائه ، وصانه بعين رعايته ، وعلى العكس اذا تقلص نفوذه عادت البلاد الى الفوضى واختل ميزان الأمن فيها ، خذ لذلك مثلاً أنه لما انسحبت قواته من الحجاز سنة ١٨٤١ واستردها سلطان تركيا شعر التجار بانهم لم يعودوا آمنين على متاجرهم هناك ، وكذلك لما جلا ابراهيم باشا عن سورية اضطرب فيها جبل الأمن وعادت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ، أما البلاد التي يسود فيها حكم محمد على فان الانسان يأمن على نفسه أن يذهب الى أى ناحية بها ، ويقول السكونت بنديقي Benedetti قنصل فرنسا في مصر ان الاهالى والاجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا الى أى مكان في البلاد التي يحكمها محمد على سواء أكان ذلك في وادى النيل الى أقصى حدود السودان أم في سورية وجزيرة العرب ، فان صرامة العدل الذى أقام ميزانه في كل ناحية لا تقبل هراة ولا ضعفا ، فالسودان قد سادته الأمن كما ساد غيره من البلاد التي حكمها ، ففي كردفان مثلاً حيث لم يكن أى تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفرداً استطاع الرحالة بالم *Pallme* أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه إلا خادم واحد ، ولم يقع عليه اى اعتداء أو أذى ، وكذلك ساح فيه الرحالة كوتشى *Kotchy* مطمئناً سنة ١٨٣٩ ، وساح الأمير الالماني بككر مسكو *Musku* في السودان الى الخرطوم دون أن يناله سوء ،

(١) سرامى انجليزى ساح في مصر على عهد محمد على وله منها تقرير واف

وجاءت عائلة الميسيو ملي Melly الى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزعة كما لو ساحت في ربوع ايطاليا (١)

وقد كان من نتائج بسط الأمن في السودان وتأمين طرقه نشاط المعاملات التجارية في انحاءه وبينه وبين مصر وباطن افريقية

ومن نتائجه تنظيم البريد، وقد جعلت الخرطوم مركزا له، وكان ينقل في السفن ثم يحمل على الهجن فيرسل الى مصر وجميع مديريات السودان، وله في الطريق محطات تستريح فيها الهجن وتبدل، وكانت الرسائل تصل من مصر الى الخرطوم مرتين في الشهر وتقطع المسافة بينها في خمسة وعشرين او ثمانية وعشرين يوما، وكان البريد يروح ويغدو ويمتاز تلك المراحل الشاسعة دون ان تنقطع عليه الرحلة، قال الميسيو جومار في هذا الصدد: «من ذا الذي كان يظن قبل أربعين عاما بل قبل خمسة عشر عاما فقط ان تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض الى ضفاف السين (النهر الذي يمر بباريس) في اثنين وثلاثين يوما، وتصلنا من قزنفور (جنوبي فازوغلي) عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء في خمسين يوما؟» (٢)

الزراعات واعمال العمران الاخرى

وادخل المصريون في السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضر وغرسوا فيه اشجار الفاكهة المختلفة انواعها كالبرتقال والليمون والرمان والعنب، ونسجوا الحدائق الغناء

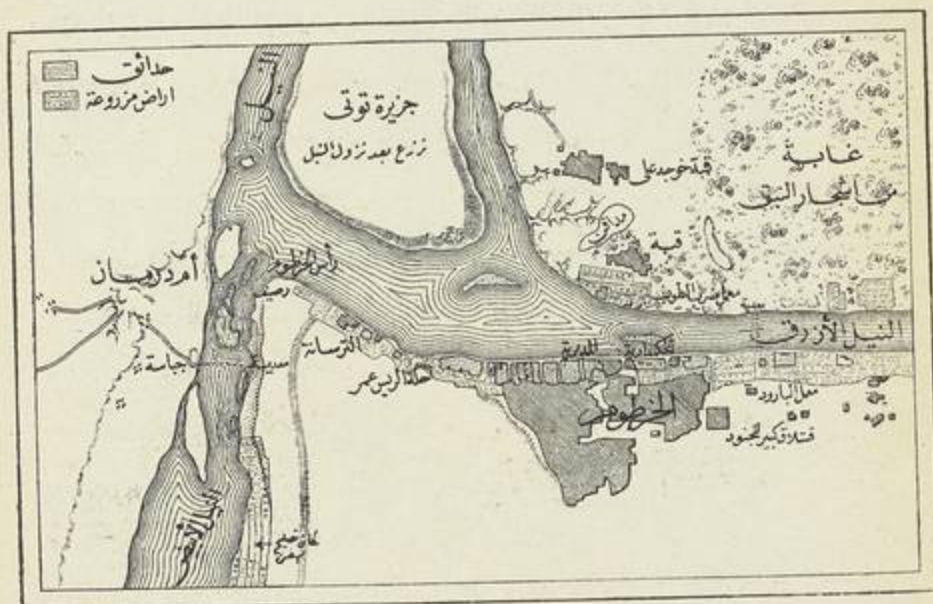
قال الكولونيل ستوارت Stuart في هذا الصدد «ان المصري يميل بطبعه ميلا شديدا الى الزراعة، ففي السودان، وفي أى مكان يعسكر الجنود المصريون، لا يمضى على اقامتهم ستة أشهر حتى يكون من المحقق ان ينبت فيه الزرع والخضر»

(١) دهبيران ص ٢١٥

(٢) بانجان الجزء الثالث ص ٤٨١

ومن اعمال العمران التي تمت في عهد محمد علي بناء ديوان المديرية في مدينة
(سنار) وثكنة الجنود وجامع بها ، وما قام به خورشيد باشا من اعمال الاصلاح
التي تقدم الكلام عنها

وقد أمر محمد علي باحتفار الآبار في الطريق بين كركو وأبو حمد ، وهو طريق شاق يخترق صحراء النوبة ويحتازه المسافر في تسعة أيام ، فأمر باصلاحه وحفر الآبار فيه تسييلا للمواصلات بين مصر والسودان



خريطة الخرطوم في عهد محمد علي باشا (انظر ص ١٨١)
كما رسمها المهندس الفرنسي دارنو الذي
اقام بالسودان من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٤٢

الرحلات والبعثات الجغرافية

ان للفتح المصرى فضلا كبيرا على العلم والعمران بما شجع العلماء ورواد
الكشف والاستطلاع على الرحلات العلمية لاكتشاف اصقاع السودان النائية ،
وخاصة منابع النيل ، وقد كان لمحمد على عناية كبيرة بتعزيد الاكتشاف وتشجيع
الباحثين والعلماء على الرحلة اليها ، وشملهم برعاية الحكومة وعهد الى جنده حمايتهم في
رحلاتهم ، ولولا تلك المساعدات لما استطاعوا ان يسيروا خطوة في تلك الجهات ،
وقد صارت مدينة الخرطوم مركزا للرحلات الجغرافية التي سارت منها لاكتشاف
منابع النيل واواسط افريقية ، ولعلك تلاحظ دلائل عناية محمد على بأعمال الكشف
والتنقيب مما رأيته من اصطحاب ابنه اسماعيل باشا بعض المهندسين مثل الميسو
فريدك كايو اثناء فتح السودان كما تقدم بيانه ، ومن ان محمد على ذاته قد رحل الى
السودان يجوب انحاءه ويتفقد معادنه ، وقد اصطحب في رحلته بعض المهندسين
والباحثين ، ثم انه لما عاد من رحلته تولى بنفسه تنظيم البعثات والرحلات الجغرافية
البعيدة المدى للكشف عن منابع النيل ، فالحكم المصرى في السودان فضل كبير
على الاكتشافات الجغرافية التي تمت في عهده وبارادته ، وهذه الاكتشافات ذاتها
قد مهدت السبيل للرحلات التي جاءت من بعده الى ان تم اكتشاف منابع النيل
بأكملها ، ولئن كان تمام اكتشافها في سنة ١٨٥٨ و ١٨٦٠ و ١٨٦٢ حينما انتهى
الرحالتان (اسبيك) و (جرانت) الى بحيرة فيكتوريا نيانزا وشلالات ريمون ، فلا
نزاع ان الرحلات والتجاريده في عهد محمد على قد عادت الطريق للمكتشفين
وانارت لهم السبل وفتحت بلادا ومناطق لم يكن في مقدورهم ان يجوبوها لو لم
يسط الحكم المصرى رواق الأمن في انحاءها ، فالفتح المصرى فضلا عن نتائجه
القومية قد ساعد العلم والحضارة مساعدة كبرى من تلك الناحية ، وقد كان العامل
الأول في الرحلات التي تمت في عهد محمد على اتجاه فكره وفكر أبنائه الى

اكتشاف منابعه التي كانت الى ذلك العهد مجهولة لعلماء الجغرافية
قال المسيو ديهيران في هذا الصدد : ان محمد علي بانفاذه الرحلات والبعثات
لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذي كان يطمح اليه علماء الجغرافية
وكافة رجال العلم في عصره (١)

وقال عن ابراهيم باشا انه كان شديد التطلع الى تحقيق هذه الغاية ، وقد افضى
بيرناجه الى المسيو كايو حينما قابله يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٢١ فقال له « اننا
سنكشف النيل الأبيض في حملة من مر اكب مسلحة وعدد كبير من القوارب
الخفيفة التي تستطيع أن تمضي في النهر بسهولة دون ان تعترضها الشلالات ،
وستكون وجهة هذه العمارة النيلية ان تنحدر في النهر وروافده حتى تصل
الى منابعه »

وكان اسماعيل باشا ابن محمد علي يطمح ايضا الى ما كان يفكر فيه اخوه
ابراهيم ، فقد قال للمسيو كايو حينما استأذنه في العودة الى مصر (١٨ فبراير
سنة ١٨٢٢) : « اذا ذهبت الى فرنسا فانشر ماوصلت اليه من المعلومات ، ثم عد
الى مصر فانك ستجد أبى لا يقنع بالاكتشافات الضئيلة التي وصلنا اليها ، بل
سنبذل جهودا اخرى ، وسأصحبك بنفسى الى منابع النيل الابيض »

وقد شجع محمد علي الرحلات الجغرافية في حوض النيل من يوم ان بسط نفوذه
في السودان ، فساح فيه الى حالتان Hay وهى وهوش Hocht ، ووصل سنة ١٨٢٤ الى
ما يلى رأس الخرطوم جنوبا ، وفي سنة ١٨٢٧ انحدر المسيو لينان دى بلغون
(لينان باشا) في النيل الى ما يلى الخرطوم ، وفيما بين سنة ١٨٢٨ و ١٨٣١ ساح فيه
ابراهيم كاشف ونزل النيل الأبيض ووصل الى بلاد الشوك والدنكا قريبا
من بحر الغزال

حملات البكباشى سليم بك قبطان

ولما ساح محمد على فى السو ان كانت معتزما ان ينفذ الحملات والتجارب
لاكتشاف منابع النيل الابيض ، فعهد بهذه المهمة الى البكباشى المصرى سليم بك
قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، وجعل تحت تصرفه قوة من الجنود وعمارة
نيلية من المراكب

فاضطلع البكباشى سليم قبطان بهذه المهمة ، وقام بثلاث حملات متعاقبة كانت
موضع اعجاب علماء الجغرافية ورواد الاكتشاف

الحملة الأولى

تحركت الحملة الأولى من الخرطوم يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ برأسة سليم بك
قبطان يصحبه سليمان كاشف أحد ضباط الجيش المصرى ورجل فرنسى اسمه
المسيو تيبو Thibaut كان يتسمى باسم ابراهيم افندى ، وتتألف قوة الحملة من ٤٠٠
جندى اختيروا من جنود الآلاى الاول والآلاى الثامن المرابطين وقتئذى سنار ،
وكانت العمارة التى أقلت الحملة مؤلفة كما يقول سليم بك^(١) من ثمانى ذهبيات مسلحة
كل واحدة بها مدفعان ، ومركبين آخرين ١٥٠ قاربا ، وبها من الذخائر والمؤونة
ما يكفى الحملة لمدة ثمانية أشهر ، وقد وصلت الحملة الى بلدة (العيس) جنوبى الخرطوم^(٢)

ثم حالت الموانع فى النهر دون تقدم العمارة ، فعادت الى الخرطوم ، وفى عودتها
عرجت بنهر سوباط احد روافد النيل لاكتشافه وانحدرت فيه (١٦ فبراير —
٦ مارس سنة ١٨٤٠) الى أن حالت قلة المياه دون تقدمها ، فرجعت الى الخرطوم

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية عدد يوليه سنة ١٨٤٢ ص ٨ ، رسالة البكباشى

سليم بك

(٢) انظر موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ١٧٥

و بلغتها يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠ بعد أن دامت رحلتها ١٣٥ يوما
وقد وضع البكباشى سليم قبطان رسالة ضمنها تفاصيل هذه الحملة والحق بها
جدولا بالارصاد الجوية التى قيدها ، فكانت هذه الرسالة أول مرجع رجع اليه
العلماء فى اكتشاف باطن افريقية ، وقدمت هذه الرسالة الى الجمعية الجغرافية
الفرنسية ببائرس بواسطة المسيو جومار رئيس البعثة المصرية بفرنسا ، ونشرت فى
مجلة الجمعية الجغرافية (اعداد يوليه واغسطس وسبتمبر سنة ١٨٤٢) فحازت اعجاب
علماء الجغرافية بفرنسا ، ومهد لها المسيو جومار بمقدمة اثنى فيها على عمه سليم بك قبل ان
وقال فيها

« ان هذه الحملة المؤلفة من ٤٠٠ رجل بقيادة ضابط مصرى وغايتها الاكتشافات
الجغرافية هى أول حملة من نوعها ، والتقارير المدون به يوميات الحملة محرر بالاوضاع
التي يجرها الرحالة الاوروبيون ، ولا جرم أن هذه الرحلة هى إحدى ثمرات الحضارة
التي دخلت مصر منذ ربع قرن »

الحملة الثانية

تحركت الحملة الثانية من الخرطوم يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ بقيادة سليم قبطان ،
يصحبه أيضا سليمان كاشف قائد القوة انهرية ، وصحبه من الاوروبيين المهندسان
الفرنسيان دارنو D'arnaud وساباتيه Sabatier والرحالة الألماني فرن Verne والمسيو
تيبو المتقدم ذكره

وقد سارت الحملة فى النيل الابيض ، ونحطت الجبهة التى بلغت الحملة الأولى ،
ثم مضت فى سبيلها حتى بلغت يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ جزيرة (جونكر) الواقعة
على الخط الخامس من خطوط العرض (١) ، فتكون الحملة قد اجتازت نهاية الحملة
الأولى بمراحل شاسعة ، والمعلوم أن جزيرة (جونكر) تقع تجاه (غندكرو) التى تبعد

(١) انظر موقعها على الخريطة ص ١٧٥

عن الخرطوم نحو ١٠٨٠ ميلا جنوبا ، فهي قريبة من البحيرات التي ينبع منها النيل ، وقد صارت عند كرو وقتانما عاصمة مديريته خط الاستواء في عهد الخديوي اسماعيل (١)

ولم يبق بين الحملة وبلوغ منابع النيل إلا مرحلة وجيزة بالنسبة لما قطعتة من المراحل ، ولكنها لم تستطع متابعة سيرها لمبوط مياه النيل جنوبى هذه الجهة ولوجود الجنادل والشالات التي تحول دون تقدم السفن في ذلك الجزء من النيل ، ولا تزال هذه العقبات تعطل المواصلات النيلية في هذه الجهة الى عصرنا الحاضر ، فاستقر رأى على العودة الى الخرطوم ، وفي عودتها عرجت أيضا بنهر سوباط فسارت فيه الى أن تعذر المسير فرجعت وتابعت سيرها الى الخرطوم فبلغتها في

١٨ ابريل سنة ١٨٤١

وللمسيو دار نورسالة عن هذه الرحلة نشرت في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية (عدد نوفمبر سنة ١٨٤٢) ثم طبعت على حدة

الحملة الثالثة

تحركت الحملة الثالثة من الخرطوم يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ بقيادة سليم قبطان ذاته ، وكان سيرها بطيئا لمعاكسة الريح ، وأصيب بعض البحارة والجنود بالامراض ومات بعضهم في الطريق ، على أنها تابعت سيرها ، ولكنها لم تتجاوز النقطة التي بلغتها الحملة السابقة وعادت الى الخرطوم يوم ٦ مارس سنة ١٨٤٢

وكان محمد على ماضيا في انفاذ فكرته معتزما أن يستأنف حملات الاكتشاف حتى يصل الى منابع النيل ، ويبسط نفوذ مصر في تلك الاصقاع ، ولكن المرض الذي انتابه في أواخر عهده بالحكم حال دون اتمام قصده ، على أن هذه الحملات الثلاث قد ادركت نتائج عظيمة ، ولو أن البكباشي سليم قبطان قام بهذه الجهود في بلد أوروبى ووصل الى هذه النتائج لقدرت له أمته بطولته وخدماته حتى قدرها ،

(١) قبل أن تصبح مدينة (لادو) عاصمة لها

ولشادت بذكره ، وعاونته وكفأته ، وشجعة بمختلف وسائل التعزيز ، وبذلك تشجذ الأمم عزائم أبنائها ويكثر فيهم العلماء والمكتشفون والنوابغ في كل علم وفن ، اما في مصر فقلما تحفل بهم الامم والحكومة ، فلا جرم أن تضمحل العزائم ويتعثر التقدم القومي في سيره

اكتشفت هذه الحملات بلادا ومناطق كانت الى ذلك الحين مجهولة ، ولم يطرقها من قبل سائح أو مكتشف ، ودرست جغرافيتها ، وعرفت أحوال سكانها ونباتها وأشجارها ومناخها وحيوانها ، فافادت الحضارة والعلم فوائد جمة ، ثم انها بسطت في طريقها نفوذ مصر ، فحققت الراية المصرية لأول مرة في تلك الاصقاع النائية تحمل في طياتها رمز الحضارة والتقدم ، والسيادة المصرية ، فلا غرو ان كان لهذه الحملات فضل كبير من الوجهة القومية ، ولقد مهدت السبيل للحملات التي نظمها الخديوى سماعيل فأكمل العمل الذي قام به محمد على ووصل بحدود مصر الى منابع النيل

حدود السودان المصرى فى عهد محمد على

ان حدود مصر الجنوبية قبل الفتح الاول للسودان كانت تنتهى الى جزيرة (ساي) جنوبى وادى حلفا ، فرقعة مصر كانت اذن أوسع مما تقرره الحدود الحالية ، تلك الحدود الباطلة التي تجعل حدها الجنوبي شمالي وادى حلفا (أنظر الخريطة ص ١٧٥)

وبفتح السودان فى عهد محمد على انضمت الأقاليم السودانية الى حظيرة الوطن ، ووصلت حدود السودان المصرى شرقا الى البحر الأحمر ، فقد فتحت الجنود المصرية سنة ١٨٤٠ اقليم التناكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر أى السودان الشرقى ، وجعلت مدينة كسلا عاصمة له كما تقدم بيان ذلك ، وكان لفتح هذا الاقليم أهمية كبيرة لخصوبة أرضه وكثرة مراعيه ولكونه صلة الاتصال بين السودان وثرى سواكن وموضوع وفتحت الجنود المصرية أيضا (القصارف) بالقرب من حدود الحبشة

و (القلابات) الواقعة على شاطئ نهر عطبرة بالقسم الجنوبي من اقليم التاكا
فوصلت الى حدود الحبشة شرقا

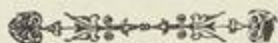
وكذلك دخلت سواكن ومصوع في حدود السودان المصري ، فقد
استأجرها محمد على باشا من سلطان تركيا ، إذ كانتا من قبل من املك السلطنة
العثمانية القديمة ، فلما رأى محمد على ضرورتها للسودان لأنهما منفذاه على
البحر الاحمر وخاصة لاقليم التاكا استأجرها من السلطان ايجارا دائما مقابل مبلغ
سنوى قدره ٥٠٠٠ كيس أى ٢٥٠٠٠ جيهو بذلك دخلتا تحت ظل الحكم المصرى
منذ عهد محمد على

اما من جهة الجنوب فقد بلغت الحملات والتجاريده التى أنفذها محمد على فى
النبيل الأبيض الى جزيرة (جونسكر) تجاه (غوندكرو) كما اسلفنا ، فأتى تلك
النقطة ينتهى الفتح الأول للسودان ، ولم يتعدها لعدم تخطى الاكتشافات الجغرافية
هذه الجبهة ، فلفتح الأول قد جعل من النيل نهرا مصريا الى آخر نقطة وصل
اليها الاكتشاف الجغرافى ذلك العصر

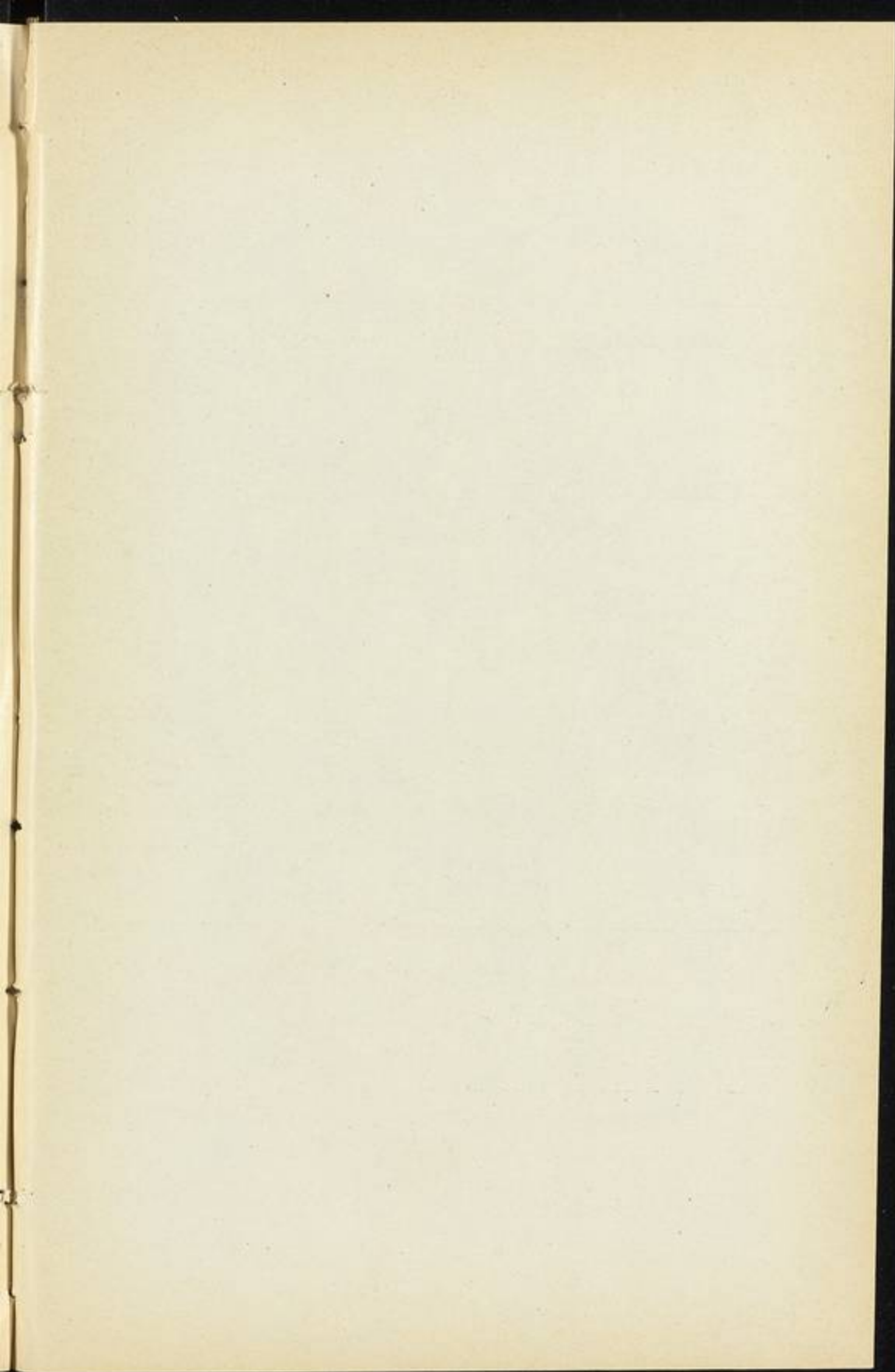
اما مايلي (جونسكر) جنوبا وهو الاقليم المعروف بمديرية خط الاستواء
واوغندة ويشمل منطقة البحيرات فقد فتحته مصر فى عهد الخديوى اسماعيل
ومن جهة الغرب قد شمل الحكم المصرى كردفان ، أما سلطنة (دارفور) فلم
تفتح الا فى عهد اسماعيل باشا ، ولكنها دخلت رسميا فى املك مصر على عهد
محمد على ، وذلك بمقتضى فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ الذى أسند اليه ولاية اقليم
السودان ، وهى كما وردت فى فرمان المذكور « النوبة ، ودارفور ، وكردفان ، وسنار
وجميع توابعها وملحقاتها »

ولم تكن دارفور قد فتحت بعد ، فاستمر محمد على باشا على دخوله فى فرمان
دليل على أنه يعدها من املك مصر الطبيعية ، وغير خاف ان هذا فرمان قد
صدر بتصديق الدول ، فامتلاك مصر للسودان قد حاز الصفة الرسمية
والدولية فضلا عن الحق الطبيعى والصيغة القومية

ولو كان محمد علي ضاعف عنايته باكمال فتح السودان الى منابع النيل، وبذل
في تثبيت ملكه ونشر لواء الحضارة وال عمران فيه ما بذله في حروب سورية
والاناضول، لو طد دعائم الوحدة القومية بالوصول الى منابع النيل، فان الحدود
الطبيعية لمصر والسودان هي وادي النيل وملحقاته من البحر الأبيض شمالا، الى
البحر الأحمر شرقا، وصحراء ليبيا غربا، وإلى منابع النيل والاقيانوس
الهندي جنوبا.



1000



الفصل السابع

حرب اليونان

سنة ١٨٢١ — ١٨٢٨

انتهت حرب السودان ببسط نفوذ مصر في ربوعه ، وانصرف محمد علي وقتا ما الى توطيد دعائم الدولة المصرية العظيمة التي نشأت على ضفاف النيل وامتدت الى شبه جزيرة العرب ، وأخذ يعنى باكمال تنظيم الجيش على الاساليب الحديثة ، وفتح المدارس ، وشق الترع ، وإقامة المصانع ، وتوفير اسباب العمران في ذلك الملك الواسع ، وبينما هو ماض في هذا السبيل اذا بالسلطان محمود يدعوه الى حرب جديدة واسعة المدى كثيرة المتاعب ، ميدانها في البر والبحر ، وهي حرب اليونان ، فكلفه اخاد الثورة الأهلية التي أثارها اليونانيون ورفعوا لواءها بغية تحرير بلادهم من النير التركي وتحقيق استقلالهم القومي

الثورة اليونانية

كانت بلاد اليونان الى أوائل القرن التاسع عشر جزءا من السلطنة العثمانية ، يحكمها الولاة الاتراك الذين ترسلهم حكومة الاستانة ، وظلت على هذه الحال الى أن ظهرت فيها بوادر الثورة الأهلية ، فألف أعيانها وشبانها الجمعيات الثورية لتنظيم الثورة وبث تعاليمها في انحاء البلاد واستمالة الرأي العام في أوروبا ، واتخذوا مركز هذه الجمعيات في روسيا والنمسا لتكون على اتصال بالحكومات الأوروبية وبمنجاة من اضطهاد الحكام الاتراك ، وأهم هذه الجمعيات جمعية كبيرة تسمى (هيتريا) تألفت سنة ١٨١٥ لتحرير اليونان من الحكم التركي وبث روح الثورة

في النفوس ، وقد انضم اليها كل ذى مكانة في اليونان من الاعيان والشبان ورجال الدين ، وعرضها كثير من أمراء أوروبا ووزرائها وسرايتها وذوى رأى فيها ، وساعدوها بأموالهم ونفوذهم ، وعرضها قيصر روسيا اسكندر الأول الذى كان يؤيد مطالب اليونان تأييدا كبيرا ، وقرب اليه بعض زعمائهم فاستوزر منهم المسيو كابودستريا Capo Distria وجعله موضع ثقته ، واستخدم في الجيش الروسى ضابطا يونانيا يسمى اسكندرا بسلنتى جعله ياوره وكان له شأن أيضا شأن في الثورة اليونانية

والى هذه الجمعية يرجع الفضل الاكبر في تعميم الدعوة الى الثورة في بلاد اليونان

وقد ظلت حتى سنة ١٨٢١ تعمل في السر وتدأب في خلال تلك المدة على دعوة الشعب اليونانى الى تأييدها والاندماج في صفوفها ، ثم تشعبت فروعها في الاقاليم وفي عواصم ولايات البلقان حتى بلغ أعضاؤها سنة ١٨٢١ نيفا وعشرين الف عضو يحملون السلاح متهيئين للموت في سبيل الاستقلال

اتصلت هذه الجمعية بقيصر روسيا ، وكان سببها اليه وزيره اليونانى (كابودستريا) والضابط ابسلنتى ، فاعتزت بهذه الصلة وبتعصيد انصارها ، ووضعت بادى الأمر برنامجا واسع النطاق مؤداه استقلال امارات البلقان كلها وطرده الاتراك من أوروبا ، واحياء الدولة البيزنطية القديمة ، وعهدت برياستها الى الضابط اسكندر ابسلنتى المتقدم الذكر

فشبت الثورة بزعامته في (ياسى) من أعمال ولايتى البغدان والافلاق (رومانيا) في شهر مارس سنة ١٨٢١ ، واختارت الجمعية تلك الجهة لقربها من روسيا حتى تمدها بجيوشها

لكن الثورة لم تصادف في دورها الاول تعصيدا حرييا من روسيا ، لأنها قامت في الوقت الذى كانت ملوك أوروبا المستبدون ومنهم قيصر روسيا يأتمرون بالحركات القومية ويتألبون عليها لقمعها ، وكان (مترنيخ) وزير النمسا الاكبر قوام

هذه المؤامرة وله الكلمة النافذة على الحكومات المؤتمرة ، فالثورة التي تولى زعامتها (ايسلنتى) قامت وقبض الروسيا يتفاوض فى مؤتمر (ليباخ) لاختصاص الثوار فى مملكة نابولى ، فكان من التناقض أن ياتمر بالثورات القومية ثم يشد ازر الثورة فى البلقان ، ومع ان الثورة انما قامت بتحريض قيصر الروسيا فانه اضطر الى انكارها وتخلي عن ايسلنتى واعوانه ، وتركهم وجها لوجه أمام تركيا ، فجردت عليهم جيشا عبر الدانوب وهزمهم ففر ايسلنتى الى المجر حيث اعتقلته الحكومة النمساوية (يونيه سنة ١٨٢١) ففشلت بذلك الثورة اليونانية شمالى البلقان

اعلان الثورة فى الموره

٢٥ مارس سنة ١٨٢١

على ان الثورة لم تكن قاصرة على شمال البلقان ، بل كانت جذورها متأصلة فى بلاد اليونان نفسها ، اى فى شبه جزيرة الموره ، فهبت الثورة فيها ، وكان لها طابع دينى ، فلا غرو ان كان أول من اعلنها و نادى بها على رؤس الاشهاد هو القس جريمانوس أسقف باتراس (شمالى الموره) ، فقد غادر باتراس وسار الى كلافريتا Klavveta يتبعه الانصار والاعوان ، وهناك ، فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ ، نادى بالثورة ودعا قومه اليها ، واتخذ شعارها ، الايمان ، والحرية ، والوطن .

فلبى اليونانيون الدعوة ، ورفعوا علم الجهاد فى البر والبحر ، وفى البحر أخذت سفنهم المسلحة تقطع الطريق على المراكب التركية ببحر الأرخبيل وتأسرها او تدمرها ، وتوقع يركابها قتلا وأسرا ونهباً ، وفى البر استولى الثوار على أهم مدن الموره ، واحتلوا (تريبولتسا) غاصمتها ونكسوا بالأتراك المقيمين بها تنكيلا فظيعا ، ثم تألفت (جمعية وطنية) من ستين نائبا يمثلون المقاطعات الثائرة وانعقدت فى يناير سنة ١٨٢٢ (١) واعلنت استقلال الامة اليونانية ، ووضعت لليونان دستوراً قومياً

(١) بمدينة ايدور Epidaure برأسة اسكندر مافرو كرو داتو

ثم اتخذت الحكومة الثورية مهندسنة ١٨٢٣ مدينة (نوبلى) عاصمة ومقر لها ، وقد ساعد الثورة فى بداءة عهدها ان الجنود التركية بقيادة خورشيد باشا (١) كانت مشغولة بمقاتلة على باشا-الثائر الشهير فى يانينا ، فلما أخذت ثورة على باشا وانتهت بقتله زحفت الجنود التركية على الموره وكانت لها الغلبة فى بدء القتال ، ثم درات عليها الدائرة وتضعضع الجيش التركى وظهر عليه الثوار ، وازداد الثوار جرأة بما نالوه من الفوز فى بحر الارخبيل حيث احرقوا كثيرا من السفن التركية ، وعاثوا فى البحر فسادا ، وأحيوا عهد القرصنة

استعانة تركيا بالاسطول المصرى

ولما استفحل أمر السفن اليونانية فى البحر أرسل السلطان محمود الى محمد على يعهد اليه أن يجرد أسطوله لتطهير البحر من قرصنة هذه السفن ، وكان ذلك سنة ١٨٢١ ، أى قبل الحملة المصرية على الموره ذكر المسيو مانجان (٢) أن محمد على أعد الاسطول فى الاسكندرية حيث أقلع منها فى ١٠ يولييه سنة ١٨٢١ بقيادة الاميرال اسماعيل جبل طارق (٣) وكان

(١) هو الذى كان واليا على مصر سنة ١٨٠٤ وثار عليه الشعب وخاعه وأجلس محمد على باشا مكانه سنة ١٨٠٥ كما يينا ذلك بالجزء الثانى ص ٣٥٧

(٢) فى كتابه تاريخ مصر فى حكم محمد على ج ٢ ص ٢٤٠

(٣) تذكره بعض المراجع الفرنسية باسم اسماعيل جبل طارق وبعضها باسم اسماعيل الجبل الاخضر ، مما يجمنا نشك فى هذا الالف الذى ليس من الاعلام المألوفة فى ذلك العصر ، فالاسم الموثوق به أنه الاميرال اسماعيل بك ، ويقول اسماعيل باشا-هناك فى كتابه (حقائق الاخبار فى دول البحار ج ٢ ص ٢٣٨) ان الاسطول الذى أقلع لتأديب الثوار اليونان فى ذلك العهد كان بقيادة محرم بك ، ويورد امرا من محمد على اليه فى هذا الصدد تاريخه ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ (يوافق ٢٥ يونيه سنة ١٨٢١) وهذا نصه قد علم انكم انه احيل تأديب وتربية الاروام الثائرين على الدولة

مؤلفا من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد، وبها ٨٠٠ مقاتل بقيادة طوبوز اوغلى ، فاتجه الاسطول إلى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية والتقى بالاسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد الى الاسكندرية فى مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة الى جزيرة كريت

رواية الجبرتي

أشار الجبرتي الى بعض هذه الوقائع فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣٦ (اغسطس سنة ١٨٢١) (وهو آخر مادونه فى كتابه) قال

« وفى منتصفه سافر الباشا الى الاسكندرية لداعى حركة الاروام وعصيانهم وخرجهم عن الذمة ، ووقفهم بمرآكب كثيرة العدد بالبحر ، وقطعهم الطريق على المسافرين ، واستنصاهم بالذبح والقتل ، حتى انهم أخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر ومن بها أضيامن السفار والحجاج ، فقتلهم ذبحا عن آخرهم ومعهم القاضى وحریمه وبناته وجواریه وغير ذلك ، وشاع ذلك بالنواحى ، وانقطعت السبل ، فنزل الباشا الى الاسكندرية وشرع فى تشييل مراكب مساعدة للدونامة السلطانية ، وسيأتى تتمه هذه الحادثة » (١)

العلية على عهدى ، وبما ان السفن الحربية التى جرى استعدادها لغاية الآن قد بلغت أربع عشرة سفينة ، ولو أن قيادتها عائدة على ، الا انه لكثرة أشغالى قد عيّنكم بدلا عنى لقيادتها ، فتوكلوا على الله واسرعوا بالافلاخ بها للجهة المقصودة وأدوا الخدمة اللازمة عليكم فى هذه الأودية بحسب ما تقضى عليكم حقوقها المقدسة ، وقد تحررت سورة من هذا الامر الى مطوش قبودان الذى تعينت سفينته بمعينكم » نقول وهذا لا يمنعا ان رجح رواية المسيو مانجان لانه عاصر الحوادث التى كتب عنها ، وروايته تؤيدها المراجع الفرنسيه الاخرى ، وبجوز ان محمد على عهد الى الاميرال محرم بك بقيادة الاسطول نيابة عنه كما جاء فى الامر لكن الذى سافر فعلا وقاد الاسطول هو اسماعيل بك كما يقول مانجان

(١) لم يرد ذكر لهذه التهمة لان كتاب العلامة الجبرتي ينتهى بحوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٦ (سبتمبر سنة ١٨٢١)

الحملة المصرية على كريت

سُتبت الثورة في جزيرة كريت سنة ١٨٢١ كما سُتبت في بلاد المورة نفسها وفي جزر الارخبيل ، وظهر الثوار على الحملات التركية التي اضطرت الى الامتناع في بعض القلاع بالجزيرة ، فعهد السلطان محمود الى محمد علي اخمد الثورة فيها ، فاعد محمد علي حملة من ٥٠٠٠ جندي بقيادة حسن باشا واقلعت بهم العمارة المصرية من الاسكندرية قاصدة الى جزيرة كريت فنزل الجنود الى البر في يونيه سنة ١٨٢٢ ، واستمرت الحرب سجالا الى سنة ١٨٢٣ ، وقاتل المصريون الثوار قتالا شديدا وانقذوا الحاميات التركية المحصورة في القلاع ، ومات حسن باشا خلال الفتح فخلعه حسين بك في قيادة الجند ، ودامت الحرب الى أن ظفر المصريون بالثوار وضيقوا عليهم وحصرهم في جهة من الساحل وشتقوا شملهم وفر الكثير منهم الى الجزر اليونانية الاخرى ، واستتبت السكينة في الجزيرة

وكذلك اخمد الجنود المصريون الثورة في جزيرة قبرص

الحملة على المورة

أما في بلاد المورة ذاتها فقد استمرت الحرب سجالا بين الجيش التركي والثوار الى سنة ١٨٢٣ ، وشعر السلطان العثماني بعجزه عن اخمد الثورة وادرك ما كبده اياه من الخسائر الجسيمة ، ورأى في الوقت نفسه أن محمد علي باشا آخذ في تنظيم جيشه على الطراز الحديث وتثبيت دعائم ملكه العظيم ، فغشى اذا استمر ماضيا في هذا السبيل أن يقوى على تركيا ويحقق فكرة الانفصال عنها ، وإعلان الاستقلال ، فأراد أن يشركه في الحرب اليونانية ليحقق بذلك غرضين ، أولهما الاستعانة بالجيش المصري على اخمد ثورة اليونان ، والثاني صرف محمد علي عن المضي في تنظيم الجيش ومضاعفة قوته ، فعهد اليه بتجريد جيشه على الثوار في بلاد اليونان وأصدر له فرمانا يدعوه الى ذلك ويخوله ولاية المورة

كان هذا الفرمان بمثابة توسيع لنطاق الدولة المصرية وبسط لنفوذها فيما وراء البحار ، وبالتالي يرفع من شأن محمد على باشا ويزيد من مكانته ، ولم يكن محمد على ليرفض أن يعلو شأنه ويتسع ملكه ، كما أن استنجد تركيا بجيشه كلما قصرت يدها وعجزت عن مقاومة الثورات سواء في الحجاز أو في اليونان مما يزيده نفراً ويوطد مركز الدولة المصرية التي أسسها ، فلم يكن هناك بد من تلبية دعوة تركيا ، هذا فضلا عن أنه إذا رفض ما عرضه عليه السلطان من التكريم والتهكليف فإن رفضه يكون حجة في يد الساعين الى خلعه عن عرشه واظهاره بمظهر الخارج على ارادة السلطان ، وهو لم يكن قد توصل بعد الى تقرير مركز مصر السياسى حيال تركيا ، فقد كان لم يزل (واليا) عينه السلطان ، والسلطان (رسميا) ان يعزله وقد وازن محمد على بين هذه الاعتبارات واستشار أعضاء أسرته وكبار رجال حكومته فاستقر رأيه على أن يجيب دعوة الباب العالى

معدات الحملة

بذل محمد على همه كبرى فى تجهيز معدات الحملة على المورد ، فأعد جيشا برىا من الجيش النظامى الجديد بقيادة بحله الاكبر (ابراهيم باشا) بطل الحجاز وقاهر الوهابيين ، يتألف فى بدء الحملة من ١٧٠٠٠ مقاتل من المشاة ، واربعة بلوكات من المدفعية ، وسبعماية من الفرسان ، وجهازهم بالمدافع والبنادق والذخائر ، وأعد عمارة بحرية مصرية لنقل الحملة ومهمات بحرسها الاسطول المصرى بقيادة الاميرال اسماعيل جبل طارق ، وكانت القيادة العليا لابراهيم باشا تألفت العمارة من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل (١) واجتمعت

(١) اعتمدنا فى هذا البيان على احصاء المسيو دروفى قنصل فرنسا الذى رأى العمارة فى الاسكندرية وكتب عنها الى وزير الخارجية الفرنسية فى رسالة وردت ضمن وثائق المورد التى نشرتها الجمعية الجغرافية وثيقة رقم ١٤

في ميناء الاسكندرية ، فكان منظرها يأخذ بالالباب ، قل الميسو دريو في هذا الصدد : قد اشترى محمد علي من اوروبا كثيرا من السفن بحيث صار عنده عمارة ضخمة تشبه الارمادا (١) ، ولم ير الشرق حملة تدانيها في ضخمتها منذ حملة بوناپرت ، فكان الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوروبا عليه ، وعكذا تنقلب الاطوار في سير التاريخ (٢)

الحرب البحرية على شواطئ الاناضول

اقلعت العمارة المصرية من ثغر الاسكندرية في شهر يولييه سنة ١٨٢٥ ، ولم تقصد الى شبه جزيرة الموره رأسا ، بل اتجهت الى مياه رودس ، ومنها الى خليج (ما كرى) على شاطئ الاناضول لتلتقي بالاسطول التركي الذي نيط به مطاردة السفن اليونانية في مياه بحر الارخبيل وتطهير البحر من قرصتها واخماد الثورة في الجزر

ولما وصلت العمارة الى خليج (ما كرى) انزل ابراهيم باشا جنوده الى البر وتهيأ للاقلاع باسطوله شمالا ليتصل بالاسطول التركي الذي جاء من الدردنيل بقيادة خسرو باشا ، فالتقى به في ميناء بودروم (على شاطئ الاناضول) في أواخر أغسطس ، ولما التقى الاسطولان ظهر الفرق جليا بين نظام الاسطول المصري وفوضى الاسطول التركي ، وكان هذا الاسطول قد لاقى الأهوال من مهاجمة سفن الثوار اليونان ، فقد كانت هؤلاء مهارة كبيرة في ركوب البحر وحولوا معظم مراكبهم التجارية الى سفن مسلحة أعدوها لغزو السفن التركية ، وكان أشدها فتكا السفن المعروفة بالحراقات فاتها كانت تقذف بنفسها على السفن العثمانية فتحرقها بنارها ، وقد اشتبكت باسطول خسرو باشا واعترضت طريقه في مياه جزيرة ساموس

(١) هي العمارة الكبيرة التي أعدها فيليب الثاني ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا في

القرن السادس عشر

(٢) د. ب. ديو ، تاريخ اليونان السياسية ج ١ ص ٢٥٧

فأحرقت بارجة الاميرال وسفينتين آخرين ، وتراجعت العمارة التركية جنوبا حتى التقت بالعمارة المصرية في مياه (بودروم) كما أسلفنا

هاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين ، فلاذ الاسطول التركي بالفرار من الميدان ، أما ابراهيم باشا فقد صمد للسفن اليونانية حتى اضطرها الى التقهقر (سبتمبر سنة ١٨٢٤)

واتصلت العمارتان المصرية والتركية ثانيا وسارتا الى مياه جزيرة (مدلى) ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا الى الدردنيل

ورجع الاسطول المصرى جنوبا ، فاعترضته السفن اليونانية في مياه جزيرة (سافر) واشتبكت به في معركة شديدة افضت الى غرق سفينتين مصريتين (أكتوبر سنة ١٨٢٤) ثم عاد ابراهيم باسطوله الى ميناء (بودروم)

ادرك ابراهيم باشا من هذه الوقائع أن هزيمة اليونان لا تكون على ظهر البحر حيث لهم السفن المسلحة المنبثة في نواحيه ، وأن خير وسيلة للغلبة عليهم هى القضاء عليهم براً في شبه جزيرة المورة ، فرجع ادراجه الى ميناء (مرمريس) جنوبا ، ثم أقبل الى جزيرة كريت في ديسمبر سنة ١٨٢٤ ورسا بالعمارة في خليج السوده حيث أخذ يتحين الوقت المناسب للاقلاع الى ساحل المورة

ولقد برهن ابراهيم باشا خلال هذه الوقائع البحرية على شجاعته التى امتاز بها في حروب البر ، فانه صمد عدة أشهر لقتال السفن اليونانية التى اشتهرت بعظيم قدرتها في خوض غمار البحار ومهارتها في مهاجمة السفن الحربية ، ولولا عزيمة ورباطة جأشه في مواجهته المخاطر لتشتتت العمارة المصرية وتبددت امام هجمات السفن اليونانية ، قال الميسيو (دوان) في هذا الصدد (١) :

« مضت خمسة أشهر على مغادرة العمارة المصرية ثغر الاسكندرية ، خمسة أشهر تقضت في جهود شاقة ، ومتاعب لاهوادة فيها ، ومخاطر تجدد كل يوم ،

(١) فى كتابه (فرقاعات محمد على الاولى) ص ١٢

وان ما أبداه ابراهيم باشا في هذه الظروف من الثبات وورباطة الجأش لما يسترعى النظر، فان قيادة أسطول بحرى تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التي لايسهل الاضطلاع بها، وان ابراهيم باشا في قيادته عمارة من مائتى سفينة تقل نحو عشرين الف رجل من جنود وبحارة قد اضطلع بمثل المهمة التي حملها بونايرت من قبل، مع حفظ النسبة بين الموقفين، حينما اجتاز البحر الابيض في أواخر القرن الماضى بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨٠٠٠ مقاتل، واذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها الى ذلك الحين اسطول منتظم، ولا تقاليد بحرية، ولا هيئة من الضباط البحريين الا كفاء، ولا العدد الكافى من البحارة المدربين، وكان على ابراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل مايلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد، وان يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين امواجه واهواله، اذ تذكرنا كل ذلك، فانه يحق لنا أن نعجب كيف ان العمارة التي حشدتها محمد على امكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والهجمات الشديدة التي استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربييتين وبضعة نقالات، لاشك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاعف عزيمة ابراهيم باشا وعلو همته، وقطالعتنا بما تحويه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرياسة والقيادة، كما أن مواقفه في ميادين القتال وورباطة جأشه في مغالبة المحن تدل على شجاعة كبرى لايسع أى انسان إلا أن يبادر بالاعجاب بها»

النزول الى بر المورة

قلنا ان ابراهيم باشا مضى بعمارته الى جزيرة كريت وأخذ يتحين خلو البحر من السفن اليونانية ليقطع الى شواطئ المورة، وقد تهيأت له الفرصة اذ وقع اضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر عطائهم وتنازع زعمائهم من رؤساء الحكومة الثورية، فأبى البحارة الاستمرار في القتال، فلما علم ابراهيم باشا بهذا النبأ انتهر الفرصة فأقطع بعمارته من (خانيه) الى ميناء (مودون) جنوبى المورة وانزل جنوده الى البر

في فبراير سنة ١٨٢٥ وألحى القوات التركية في أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحراً وبراً ولم يبق تحت يد الترك من المواقع سوى (مودون) التي نزل بها إبراهيم باشا، وميناء (كورون) التي كان يحاصرها اليونانيون

حصار نافارين

أقام إبراهيم باشا في (مودون) قليلاً يدبر شؤون جنده ويرسم خطة الزحف على داخل البلاد، ثم سار منها مع نخبة من جيشه قاصداً (كورون) لنجدها، فغلب اليونانيين وفك الحصار عنها وادخل إلى الجنود المحصورة المدد والمؤن، ثم أنفذ فرقة من جيشه لضرب الحصار على مدينة (نافارين) التي كان الثوار قد استولوا عليها وامتنعوا بها، وكانت من أهم مواقع المورد، فحاصرها برّاً وبحراً، واشتدت مقاومة اليونانيين وتكبد المصريون الأهوال في حصار المدينة، فقام إبراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) ليشدد الحصار على نافارين، فهاجمته في طريقه إليها فرقة من اليونانيين يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل أتوا لنجدة حامية (نافارين) فهزيمهم إبراهيم باشا وأسر قائدهم وبدد شملهم وشدد الحصار على المدينة برّاً وبحراً وكادت تشرف على التسليم لولا قدوم جيش من متطوعي اليونانيين يبلغ تسعة آلاف مقاتل جاءوا لرفع الحصار عن المدينة وقهر الجيش المصري

لكن إبراهيم باشا قابل هذا الجيش بشجاعة ونظام بديع، فصف جنوده على ترتيب محكم، ولما أصبح الاعداء على عشرة أميال ركب المدافع القوية حول المدينة وترك جزءاً من جيشه يتولى حصارها وقام ببقية الجيش والتقى باليونانيين على مقربة من البلد، فهجم هؤلاء بحماسة عظيمة، ولكن من غير نظام، أما إبراهيم باشا فقد أمر جنوده بالثبات في مواقعهم دون أن يطلقوا النار حتى تصدر إليهم الأوامر بذلك، فلما صار العدو على مائة متر قابله الجنود المصريون باطلاق النار دفعة واحدة فحصد الرصاص الصفوف المتقدمة حصداً وألقى الرعب في قلوب المهاجمين، واختلت

صفوفهم ، ولم يمتز قليل حتى قتل معظم جنود اليونانيين وتشتت الباقون في الجبال وفي انحاء اليونان

كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى أصابت اليونانيين وفتت في عضدهم وزلزلت آمالهم ، كما أنها كانت نصرا مبينا للجيش المصري ، انتهت بسحق الجيش اليوناني وغنم المصريون فيها غنائم كثيرة وأسروا عددا عظيما من الأسرى فيهم عدة من الضباط ورؤساء الجند الذين عليهم اعتماد اليونانيين في تنظيم حركاتهم الحربية

وقد رفعت هذه الواقعة من شأن الجيش المصري ، فانها أول معركة خاضها في في القارة الأوروبية بعد حروبه السابقة في آسيا وافريقية ، وكانت فاتحة انتصاراته في حرب المورة ، وقد شهد الجميع للجيش المصري بالنظام والشجاعة والثبات ، وكان مسلك الجنود فيها حيال اعدائهم مسلكا إنسانيا رائعا ، فلم يرتكبوا شيئا من الفظائع ، وكانوا يحسنون معاملة الأسرى اليونانيين ، كما أن أطباء الجيش المصري كانوا يعنون بتضميد جراحهم انفاذا لاوامر ابراهيم باشا

تمسك الجيش المصري بعد هذه الواقعة من تشديد الحصار على (نافرين) برا ، ولكن المدينة لوقوعها على البحر كان يأتيها المدد والمؤن ، فرأى ابراهيم باشا أن لا سبيل الى منع وصول المدد اليها إلا اذا استولى على جزيرة اسفاختريا التي تحجب المرفأ ليمكن من تركيب المدافع بها واقفال مدخل الميناء ومنع دخول المدد اليها ، وكان اليونانيون يعرفون ما لهذه الجزيرة من الأهمية ، فحاصروها ووضعوا فيها عدة بطاريات من المدافع ، فكان الاستيلاء عليها من أشق الأمور ، على أن ابراهيم باشا بعد أن شاور أركان حربه رأى ان فتح (نافرين) مستحيل بغير الاستيلاء على هذه الجزيرة فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة الى سليمان (باشا) الفرنسي (١) (مايو سنة ١٨٢٥)

فاختار سليمان بك نخبة من الجنود ممن مهرؤا فى النظام الجديد وسار بهم من (مودون) بحراً قاصداً (نافارين) ، ولما علم اليونانيون بان هذه القوة آتية لاحتلال الجزيرة عززوا حاميتها بقوة من شبانهم ومقاتلتهم فلما صارت السفن المصرية على مرمى المدفع اطلقت قلاع العدو المدافع عليها ، فلم تنزل قلوب المصريين ، وأجابوا بضرب المدافع من السفن ، ونزات العساكر البرية منهم فى الزوارق وقصدوا الجزيرة تحت وابل من القنابل ، فتمكنوا من الوصول الى البر ، وترامى الفريقان باطلاق البنادق ، ثم هجم المصريون هجوم الابطال وكان عددهم ١٢٠٠ مقاتل واحتلوا الجزيرة عنوة بعد أن دافع اليونانيون دفاعاً شديداً عنها ، ولكن المصريين غلبوهم بحسن نظامهم وشجاعتهم ورفعوا العلم المصرى على استحكامات الجزيرة

استيلاء المصريين على نافارين

مايو سنة ١٨٢٥

كانت نتيجة هذه الواقعة ان شدد الجيش المصرى الحصار على نافارين براً وبحراً ، وقد حاول اليونانيون أن يمدوا المدينة المحصورة بالرجال والعتاد ، فكان ابراهيم باشا يفسد كل محاولة من هذا القبيل ، فلما يئس الجنود المحصورون من وصول المدد اليهم طلبوا من ابراهيم باشا أن تسلم اليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والاسلحة بشرط أن يؤمنهم على حياتهم ، فاستجاب لهذا الطلب (١٨ مايو سنة ١٨٢٥) ودخل المدينة ، فكان دخول الجيش المصرى اليها من أعظم الانتصارات التى تزين تاريخه الحربى ، وكان لسقوطها أثر بالغ فى الموقف الحربى جعل اليأس يدب فى صفوف اليونانيين ، ووطد مركز الجيش المصرى لأن (نافارين) و (مودون) و (كورون) هى قواعد حربية هامة يتسلط منها الجيش على الموره

نشاط السفن اليونانية

وفي خلال القتال تمكنت السفن اليونانية التي بميناء نافارين من الافلات من الحصار إلا سفينتين وقعتا في أسر المصريين ، وانضمت الى السفن اليونانية التي تمخر في بحر الارخبيل فأخذت تدهش لمحاربة العمارة المصرية ، وتمكن الاميرال اليوناني (ميوليس) من الاقتراب من ميناء (مودون) التي كانت العمارة المصرية راسية بها (١) واستطاعت الحراقات اليونانية ان تشعل النار في السفن المصرية الراسية خارج الميناء ، وكانت الريح شديدة ، فاندلعت النار الى باقى السفن ، فتعذر اطفائها ، ولم ينج بحارتها بانفسهم إلا بعدعناء شديد ، وذهب كثير من السفن ، في هذا الحريق ، وامتدت النار الى المدينة فالتهمت جزءاً منها ، وتماولت مخازن البارود فسفقتها وتهدم بنايها وهدمت الاماكن المجاورة لها ، وقد وقعت هذه الحادثة أثناء حصار نافارين ، فلم تفت في عضد ابراهيم باشا ولم تثنه عن عزمه ، ودأب في القتال الى أن استولى على المدينة

مهاجمة السفن اليونانية سواحل مصر

وفي غضون الحرب استهدفت السواحل المصرية لقرصنة السفن اليونانية التي أحفظها اشتراك مصر في الحرب ، فاقبلت ثلاث من حراقات اليونان الى بوغاز الاسكندرية ودخلت واحدة منها الى الميناء ووصلت امام طابية صالح واشعلت ناراها تريد احراق الاسطول المصرى الذى كان راسيا أمامها ، وهى الطريقة التي اشتهرت بها الحراقات اليونانية ودمرت بها كثيرا من السفن العثمانية ، ولكن حراس القلعة بادروا الى اطلاق المدافع على السفينة اليونانية وبادرت السفن الحربية المصرية الى ارسال بعض زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمتها واتخذت ناراها ، وبرهنت

في تلك الحركة على مهارتها ويقظتها، فلما رأت السفينتان اليونانيتان الآخران
ما حل بالاولى لاذتا بالفرار

ولما علم محمد على باشا بهذه المحاولة الجريئة أصدر أمره الى محرم بك اميرال
الاسطول المصرى ووكيله بلال أغا بالخروج مع خمس سفن حربية لتعقب الحراقتين
اليونانيتين، وخرج محمد على صحبة هذه الحملة على ظهر السفينة الحربية (جناح
بحرى)، ولكن الحملة لم تستطع اللحاق بالحراقتين، وقد تابع محرم بك تجواله
بالاسطول حتى بلغ مياه رودس حيث كانت السفن اليونانية، فلما أبصرت الاسطول
المصرى لاذت بالفرار واقلعت الى مياه الارخبيل

فتح كلاماتا Kalamata

لما سقطت (نافارين) اعتصم الثوار اليونانيون وعددهم نحو خمسة آلاف بقيادة
(بيترو بك) في ميناء (كلاماتا) وكانوا من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة
وشدة البأس واجمعوا الاستبسال في مقاومة الجيش المصرى، ففضى اليهم ابراهيم
باشا، ولما وصل الى (كلاماتا) اشتد القتال بين الجيش المصرى والثوار اليونانيين
وانتهى بهزيمة اليونانيين ودخول الجيش المصرى المدينة، واحتل ابراهيم باشا
كذلك القلاع والقرى الصغيرة القريبة من كلاماتا بعد مقاومات محلية قتل فيها
حاميات تلك القرى أو وقعت في الأسر وفتح كذلك (اركاديا) الواقعة على
البحر غربى الموره (انظر مواقع هذه البلاد بالخريطة ص ١٩٥)

فتح مدينة تريبولتسا Tripolitza

يونيه سنة ١٨٢٥

كانت (تريبولتسا) عاصمة الموره والواقعة في قلب شبه الجزيرة معقلانيها للثوار،
اختاروها وجعلوها مثابة للمقاومة الاهلية لمنعة موقعها وصعوبة الوصول اليها، فقرروا

ابراهيم باشا الزحف عليها للقضاء على الثورة في معقلها فشرع في اجتياز جبل
(تايجنج)

وكان اجتياز مضائق هذا الجبل الوعر من أشق الامور لوعورة الطرق
واستهداف من يجتازها للاخطار ، وقد هزم ابراهيم باشا عند مضيق كورشيكا
قوات الشوار التي كان يقودها الثائران الشهيران (كولوكتروني) و (بتراكو)
وكان غرضهما أن يسدا الطريق امام ابراهيم باشا ويحميا بجمعتهما موقع
(تريبولتسا) ولكن الجيش المصرى قهر هذه القوات وقتل في هذه المعركة نحو
خمسة مائة من اليونانيين ودخل مدينة تريبولتسا فوجدها خالية من السكان اذ
أخلاها أهلها بعد أن أضرموا فيها النار قبل رحيلهم وأووا الى الجبال

وبعد أن تم لابراهيم باشا فتح مدينة (تريبولتسا) تابع زحفه لمطاردة القوات
اليونانية فقصده وادى ارجوس Argos وقهر حشدا من الشوار بقيادة إسلاقتى ،
وفي ٢٧ يولييه سنة ١٨٢٥ عرج على وادى (لسكونيا) حيث كان الشوار يرا بطون
في معاقلة فهزمهم واستولى على استحكاماتهم ، وكذلك احتل باتراس ، وبذلك
صار شبه جزيرة (موره) في قبضة الجيش المصرى عدا مدينة (نوبلى) عاصمة
الحكومة الثورية فأخذ يتأهب لحصارها

فتح مدينة ميسولونجى

٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦

بينما كان ابراهيم باشا يتأهب لحصار (نوبلى) جاءه نبأ من رشيد باشا قائد
الجيش التركية يطلب منه النجدة والممدد ليعاوزه في حصار ميسولونجى فعدل مؤقتا
عن حصار (نوبلى) وولى وجهه شطر (ميسولونجى)

كان رشيد باشا يحاصر هذه المدينة منذ مدة طويلة دون أن ينال منها منالا ،
وكان موقعها ذا منعة لوقوعها على خليج (باتراس) واتصالها بالبحر حيث كان يجيئها

المدد من طريقه ، ولم تستطع العمارة التركية أن تحصرها من هذه الناحية لوجود السفن والحراقات اليونانية بقيادة الاميرال (ميوليس) تمنعها الدنو من المدينة فلما عجز رشيد باشا عن متابعة حصار ميسولونجى واستعصت عليه ، بعث يستنجد بالجيش المصرى ، فأرسل ابراهيم باشا لوالده ينبئ به بذلك ويطلب منه أن يوافيه بالمدد ، فأرسل له مددا كبيرا من الجند والعتاد

فلما تلقى ابراهيم باشا ذلك المدد ترك بيلاد (موره) مايكفيها من الحاميات وعهد الى الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) قيادة القوات المصرية فى تريبولتسا وسائر بلاد الموره وقام من فوره فى عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان الى باتراس ثم عبر الخليج وسار (بحرا) قاصدا مدينة ميسولونجى (فبراير سنة ١٨٢٦) فاشترك مع رشيد باشا فى الحصار واتبع اولا خطة رشيد باشا فأخفقت ورجع عنها منهزما ، فطرح جانبها خطط رشيد باشا ورسم لنفسه الخطة التى نجحت فى حصار (نافارين) بان شدد الحصار عليها برا وبحرا ، وكانت العمارة المصرية البحرية يقودها الاميرال محرم بك ، واحتل الجزر الواقعة على مدخل الميناء وحصنها لينعم ورود المدد بحرا الى (ميسولونجى) كما فعل فى نافارين

وقد اراد ابراهيم باشا بادئ الامر ان يتفادى احوال القتال وسفك الدماء فطلب من المدينة التسليم فأبى أهلها أن يسلموا وأجمعوا امرهم على المقاومة الى النهاية .هما كلفهم من الضحايا ، وارسلوا الى القائد اليونانى (كرايسكاكى) وكان على مقربة من المدينة ينبئونه بانهم عزموا على الخروج جميعا فى ليلة ١٢ ابريل سنة ١٨٢٦ (١) وطلبوا اليه ان يهاجم الجيش المصرى فى ميعاد حدوده ، فلما خرجوا فى الوقت المعلوم فى هدوء وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنار كالصواعق حصدت صفوفهم حصدا قارندوا الى المدينة من غير نظام وتعقبهم المصريون حتى دخلوا المدينة فى اعقابهم وأعملو فيهم السيف والنار وقتلوا منهم مقتلة عظيمة

ولما ضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين اجتمعوا في مستودع الذخائر وكان عددهم نحو ألفين مابين شيوخ واطفال ونساء واتفقت كلمتهم على ان يؤثروا الموت على التسليم ، فوضوا البارود واشعل فيه رئيسهم النار فانفجر وخر المكلان على من فيه وقتلوا جميعا ، وقد احتمل المصريون في فتح المدينة خسائر جسيمة فقد بلغ عدد قتلاهم في الهجمة الاخيرة نحو الف قتيل

حصار اثينا

انفصل الجيش التركي عن الجيش المصرى بعد فتح (ميسولونجى) فعاد ابراهيم باشا الى (موره) وقصد الجيش التركى مدينة (اثينا) لفتحها ، ولم يكن بها من القوة مايكفى لصد هجماته فبادر القائد اليونانى (كرايسكاكى) والكولونل (قافيه) الفرنسى الى نجدة المدينة ولكن رشيد باشا احكم حصارها ومازال يشدد الحصار حتى سلمت (يونيه سنة ١٨٢٧)

اعداد محمد على حملة جديدة

كانت حالة الثورة اليونانية في أوائل سنة ١٨٢٧ تدعو الى اليأس ، فلم يكن بقى في أيدي الثوار سوى مدينة (نوبلى) في بلاد الموره ، واثينا فى الاتيك ، وتمركزت قوة الثورة فى جزيرة (هيدرا) و (استيزيا) من جزر بحر الارخبيل ، وقد عاث الثوار فى البحر فسادا ، وازدادت قرصنتهم ، وكثر انتهابهم للمتاجر التى تحملها السفن

فاعتزم محمد على بعد سقوط ميسولونجى تجريد حملة بحرية جديدة بالاشتراك مع تركيا للقضاء على آخر معقل للثورة اليونانية

فأعد مدداً من عدة آلاف من الجنود حشدتهم فى الاسكندرية كي يرسلهم الى ابراهيم باشا ، واجتمع بمينائها معظم الاسطول المصرى وكان قد عاد من مياه اليونان لاصلاح ما عطب من سفنه ، والعمارة التركية التى جاءت للغرض

نفسه ، وانضم اليها بعض السفن الحربية الجديدة التي كان محمد علي أوصى بها من قبل في ثغور مرسيليا وليفورن وفينسيا (البندقية) ، فكانت الاسكندرية في ابريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة برية وبحرية تستعد للاقلاع الى مياه اليونان للقضاء على آخر معقل للثورة في جزيرة هيدرا واسبتريا وميناء نوبلي

تدخل الدول

وفي غضون ذلك كانت الدول الاوروبية لا تفتأ تتفاوض لانقاذ الثورة اليونانية ، وترجع مفاوضاتها الى ما قبل سقوط ميسولونجي ، ذلك ان الجمعيات اليونانية المنبثقة في بعض العواصم الاوروبية كانت تحرك الرأي العام الأوروبي وتستصرخه للأخذ بناصر اليونان ، وقد تحرك أيضا نصراء الثورة اليونانية من رجال السيف والقلم في روسيا وانجلترا وفرنسا لدعوة الدول الى التدخل لانقاذ الثورة ، ونهض منذ ابتداء الحرب جماعة من أقطاب الشعراء والأدباء أمثال اللورد بايرون وفيكتور هيغو وشارل بران وغيرهم يستصرخون الرأي العام الاوروبي ويضربون على الوتر الديني الحساس لتوجيه ميول الأمم والحكومات في اوروبا الى نجدة اليونانيين ، وبلغ باللورد بايرون انتصاره لهم أن تطوع في صفوفهم ومات في ميسولونجي سنة ١٨٢٤ ، وجاشت العداوة القديمة بين تركيا والروسيا ، فكانت الحكومة الروسية أسبق الدول الى الرغبة في التدخل ، وخاصة بعد ان تولى عرشها القيصر نقولا الأول خلفا للاسكندر (ديسمبر سنة ١٨٢٥) فإنه كان أقوى شكيمة من سلفه ، فاعتزمت روسيا أن تتدخل بمفردها لصالح اليونان ، لكن انجلترا خشيت أن تنفرد روسيا بالتدخل فيقوى نفوذها في البلقان والشرق ، ويعلو على نفوذ انجلترا ، فأوفدت اليها الدوق ولنجتون سفيرا لديها لتوحيد أغراض الدولتين ، وعقدتا اتفاقا مبدئيا في (٤ ابريل سنة ١٨٢٦) يرمي الى تخويل اليونان استقلالها الداخلي مع بقاء السيادة التركية ، ولما سقطت ميسولونجي كان لسقوطها تأثير كبير في الرأي العام الأوروبي

لأن البطولة التي أظهرها أهلها في الدفاع عنها زادت من عطف الأوروبيين عليهم ، وتجددت المفاوضات بين الدول ثم اسفرت عن إبرام معاهدة لوندريه (٦ يولييه سنة ١٨٢٧) ، وهي المعاهدة التي اتفقت فيها كل من انجلترا وفرنسا والروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية على قاعدة استقلال اليونان الداخلي مع بقاء السيادة التركية عليها ، وقضت بان تطلب الدول من الجانبين وقف حركات القتال تمهيدا للوساطة بينهما ، واتفقت فيما بينهما على أن يعرضن على الباب العالي هذه الوساطة ، فاذا لم يقبلها في مدة شهر من ابلاغه نبأها يلجأن الى القبة في تنفيذ مطالبهن

أما النمسا فلم تشترك في المعاهدة ولا في التدخل اتباعا لمبدأ وزيرها الاكبر مترنيج ، وهو الا يعضد اية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية كانت هذه المعاهدة انفاذاً للثورة اليونانية لانها أبرمت في الوقت الذي أشرفت فيه الثورة على الاحتضار وكادت تلفظ النفس الاخيرة ، وقد تخاذل زعمائها وسرى اليأس الى نفوس انصارها ، فلما أبرمت المعاهدة ابتهج لها اليونانيون ابتهاجا عظيما ، وعاودهم الامل في تحقيق مطالبهم بمعونة الدول الاوروبية

وكان الحلفاء يعلمون اصرار تركيا على رفض طلباتهم ، فاتفقوا على ارسال أساطيلهم الى مياد اليونان لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول الى شواطئ اليونان وارسال المدد الى الجيش المصري والتركي بها فانفذت انجلترا الى بحر الارخبيل اسطولا مؤلفا من ١٢ سفينة بقيادة الاميرال كودرنجتون Codrington ، وجاء بعده الاسطول الفرنسي وعدده سبع سفن بقيادة الاميرال ريني Rigny أما الاسطول الروسي وعدده ثمانى سفن فقد جاء متأخرا من طريق بحر البلطيق بقيادة الاميرال هيدن ، فانضم الى الاسطول الانجليزي والفرنسي ، وتولى القيادة العامة للاساطيل الثلاثة الاميرال الانجليزي كودرنجتون

اقلاع الحملة المصرية الى مياه نافارين

واتم محمد علي تجهيز الحملة التي أعدها لامداد ابراهيم باشا، فأقلمت العمارة البحرية من الاسكندرية في أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ بقيادة الاميرال محرم بك، وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية، و ١٦ سفينة تركية وأربع سفن تونسية، وست حراقات وأربعين مركبا لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ مقاتل، وكان الغرض الاول من الحملة محاصرة جزيرة (هيدرا) التي كانت أهم معقل للشورة اليونانية

رست العمارة بميناء نافارين في ٩ سبتمبر ١٨٢٧، وانضمت الى أسطول تركي آخر جاء من الاستانة بقيادة الاميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينة، وتولى ابراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر، وأخذ يتأهب لحملة بحرية على جزيرة (هيدرا) وحملة برية ينفذها الى شمالي (الموره)

أما أساطيل الحلفاء فقد اتخذت مكانها بادئ الأمر بين جزيرتي هيدرا و ترميا وكان الاميرال كودرنجتون لا يفتأ يتجسس اخبار العمارتين المصرية والتركية لمنعهما من الوصول الى سواحل اليونان، وانزال المدد بالبر، ولكنهما وصلتا نغر نافارين دون أن يشعر بهما الحلفاء، فلم يجدوا سبيلا لمنعهما من دخول الميناء أو انزال المدد، وبذلك اخفقوا في خطتهم الأولى

وأخذت السفن المصرية والتركية مكانها في الميناء، وبدأ الفرق جليا بين الاسطولين، فقد تفوقت السفن المصرية بحسن نظامها وترتيبها وجودة سلاحها، وفي هذا الصدد يقول الكبتن فيلوز أحد ضباط الاسطول الانجليزي الذي جاء يستطلع اخبار العمارتين في نافارين « ان السفن الحربية المصرية كانت تبدو في حالة جيدة جدا »

مقدمات واقعة نافارين البحرية

ساء الحلفاء وصول العمارة المصرية التركية الى نافارين واياؤها الى مكان حصين، فتحركت سفنهم وقصدت الى تلك الميناء لاملأ شروط الحلفاء على ابراهيم باشا، وكان الاسطول الانجليزى أسبق الاساطيل المتحالفة الى الحضور، فقد وصل قبالة نافارين يوم ١٢ سبتمبر، ثم اعقبه الاسطول الفرنسى فجاء يوم ٢١ منه، اما الاسطول الروسى فلم يجئ إلا فى أوائل اكتوبر

وقد بادر الاميرال كودرنجتون بفتح باب الشر، فارسل الى ابراهيم باشا رسولا (يوم ١٩ سبتمبر ١٨٢٧) يبلغه مطالب الحلفاء طبقا لمعاهدة لوندرد، ومضمونها وقف حركات القتال برا وبحرا، وأبلغه أن الحلفاء أرسلوا اساطيلهم لمنع وصول السفن الحربية أو القوات البرية الى أى جهة من اليونان أو الى جزائر بحر الارخبيل، ومعنى هذا البلاغ انذار ابراهيم باشا بالكف عن ارسال الحملة البحرية الى جزيرة (هيدرا) أو تحرك جنود البر داخل شبه جزيرة الموره

ولما جاء الاسطول الفرنسى قابل قومندان الاميرال رينى ابراهيم باشا، وكرر عليه مطالب الحلفاء، ثم قابله مرة أخرى لهذا الغرض يصحبه الاميرال كودرنجتون، وكان القصد من هذه البلاغات والمقابلات ارباب ابراهيم باشا وتهديده كي يعود باسطوله الى الاسكندرية، لكن البطل ابراهيم قابل تهديد الحلفاء بالثبات وورباطة الجأش، وكان جوابه أنه سيرسل الى والده بالاسكندرية والى الباب العالى بالاستانة يطلب تعليماتهما فى الموقف الذى يتخذه، والى أن يتلقى هذه التعليمات فانه يتعهد ببقاء الاسطول فى نافارين

لم يكن الحلفاء صادقين فى مسلكهم، لأن المعاهدة كانت تقضى بوقف حركات القتال من الجانبين، لكن خطة الحلفاء الحقيقية كانت ترمى الى فرض هذا الشرط على الجانب المصرى والتركى فقط، مع ترك اليونانيين احرارا فى حركاتهم البحرية والبرية داخل شبه جزيرة الموره أو فى بحر الارخبيل، وبذلك يقوى جانبهم

ويتسنى لهم أن يجمعوا صفوفهم من جديد وان يتلقوا المدد ويهاجموا الحاميات المصرية ويوقعوا بها

ولم يفت نظر ابراهيم باشا الثاقب ادراك هذه الخطة ، فقد فطن اليها وتحققها ، ومما يؤثر عنه في هذا الصدد أنه قال للاميرال ريني خلال حديثه معه « انكم تطلبون منى وقف كل حركات القتال ، وفي الوقت نفسه تتركون الاروام يفعلون ما يشاءون ، ان هذا ليس من الانصاف في شئ »

فسوء النية من ناحية الحلفاء كان أمراً ثابتاً لا نزاع فيه ، وهو الذى أدى الى معركة نافارين البحرية ، على أن ابراهيم باشا أراد أن يتفادى مسؤولية القتال لأن العلاقات بين تركيا والحلفاء كانت فى الظاهر ودية حتى ذلك الحين ، فتعهد ببقاء أسطولها فى نافارين الى أن ترد التعليمات من محمد على والباب العالى ، ورضى بهذا العهد مع أنه كان على تمام الاهبة لانفاذ الاسطول الى جزيرة هيدرا ، ولو هو سار اليها لسحق آخر عقل اليونان ، ولكن سياسة الحلفاء أبت عليه ذلك

عقدت اذن هدنة مؤقتة بين ابراهيم باشا والحلفاء ، ولكن اليونانيين انتهزوها فرصة وقاموا بحركات عدائية فى خليج كورنت واعتزموا مهاجمة (باتراس) شمالى الموره بمعاونة الحلفاء ، وكان الجيش المصرى يحتلها ، فابلى ابراهيم باشا الخبر الى الاميرال كودرنجتون كى يمنع هذه الأعمال المنافية للهدنة ، فلم يلق جواباً مقنعاً ، فاعتزم امداد (باتراس) وسار اليها ببحراً فى عمارة من بعض السفن الحربية

فشارت نائرة الحلفاء ، وعدوا هذا العمل نقضا للهدنة ، على حين أن ابراهيم باشا انما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة هيدرا ، ولم يتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية فى الموره ، وكان مفروضاً أن يحترم الاروام الهدنة ولكنهم نقضوها بحركاتهم الحربية ، فاضطر ابراهيم باشا الى معاونة الحامية المصرية فى باتراس ، لكن الاميرال كودرنجتون لم يكن يصغى لحكم المنطق ، بل كانت لديه خطة مدبرة ينفذها ، فتعقب العمارة المصرية بأسطولها ، ولحق بها تجاه رأس (باباس) شمالى الموره وتهدها بالحرب اذا لم ترجع عن سيرها ، فاضطرت أن تعود ادراجها الى نافارين

ثم جاء ابراهيم باشا جواب محمد على باذنه عرض الامر على الباب العالى، وسيرسل اليه تعليماته النهائية اذا ورد الرد، وفي انتظار هذه التعليمات يوصيه بالتزام خطة السلم وتجنب الاصطدام مع الدول أو التحرش بها حتى ولو طلب اليه الباب العالى ذلك ذلك أن محمد على رأى بعين حكمته أن محاربة الحلفاء أمر لا تحمد عاقبته، لأنهم أقوى عددا واستعدادا، وخاصة لأنهم مالكون ناصية البحار، فالتحرش بهم يعرض الاسطول المصرى للدمار

وقد عمل ابراهيم باشا بهذه الوصية، والتزم في نافرين خطة الدفاع، وكان ابراهيم يقدر اساطيل الحلفاء وبلغها من القوة ويعلم انها وان كانت أقل، عددا من العمارة المصرية التركية، إلا أنها ارق منها نظاما، وبوارجها أقوى سلاحا، ومدافعها أشد فتكا وأبعد مرمى، وقوادها وضباطها أكثر علما وكفاءة، فكان يرى الحكمة في تجنب الاصطدام باساطيل الحلفاء، ووافق رأيه في هذا الصدد رأى محمد على

لكن قواد الحلفاء انفسهم لم يقتنعوا بخطة الدفاع، بل بيتوا الشر للاسطول المصرى والتركى، واتفقوا فيما بينهم على تدميره مهما كان مسلك ابراهيم باشا، ومن هنا وقعت كارثة نافرين، وهذه المؤامرة قد دبرتها السياسة الانجليزية واوعزت بها الى الحلفاء، وغايتها منها أن تقضى على العمارة المصرية الفتية التى انشأها محمد على فلا تعود مصر تنافسها السيادة فى البحر الابيض المتوسط، وهكذا كانت انجلترا ولم تزل تتربص بمصر وتدبر لها المسكايد فى كل ناحية وتحول دون اخذها باسباب القوة والمنعة فى البر والبحر

واقعة نافرين

٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧

غادر ابراهيم باشا نافرين فى منتصف أكتوبر، وزحف بجزء من جيشه داخل الموره لانهجاد الحاميات المصرية، وأوصى الاميرال محرم بك قائد الاسطول المصرى

والاميرال طاهر باشا قائد الاسطول التركي بالآلا يتحرشا بالاساطيل الدولية ولا يخرجوا
ازاءها عن قواعد المودة والمجاملة ، لأن العلاقات بين الحلفاء وتركيا ومصر لم تكن
قطعت ولا اعلنت الحرب بين الفريقين

وبعد أن بارح نافرين أرسل اليه قواد أساطيل الحلفاء انذارا يبلغونه فيه
أنه نقض الهدنة ، ويلقون عليه تبعة هذا العمل وعواقبه الخطيرة ، جاء الرسول الى
نافارين حاملا هذا الانذار يوم ١٨ أكتوبر ، أى قبل الواقعة بيومين ، فلم يلق
ابراهيم باشا ، فعاد بالرسالة الى الاميرال كودرنجتون ، ولم تكن هذه الرسالة إلا
ذريعة لانفاذ الخطة التى اتفق عليها الحلفاء ، وهى القضاء على اسطول ابراهيم باشا
فاجتمع قواد الحلفاء فى ذلك اليوم وتداولوا فى الأمر ، فاستقر رأيهم على الدخول
باساطيلهم ميناء نافرين ليكون ذلك ، فى نظرهم ، ادعى الى اجبار ابراهيم باشا
على تنفيذ مطالبهم ، وتظاهروا بانهم يعملون فى حدود معاهدة لوندره ، وانهم
لا يقصدون إلا المحافظة على السلم ، ومنع وقوع الحرب ، وهكذا تكذب السياسة
فى لغتها وأساليبها ، فهى تبيّت الشر والحرب ، وتبهيّ وسائل الخراب والدمار ،
وتتظاهر فى الوقت نفسه بالمحافظة على الصلح والسلام !

كانت السفن المصرية والتركية مصطفة داخل الميناء على ثلاثة صفوف شبه
متوازية ، كل صف فى شكل نصف دائرة ، يمتد طرفاها من نافرين الجديدة الواقعة
على يمين البوغاز الى جزيرة اسفاختريا التى تحجب عن الميناء أمواج البحر ، ووقفت
البوارج والفرقاطات الكبيرة فى الصف الأول ، وفى الصف الثانى سفن السكورفيت ،
ويليها سفن الابريق وغيرها ، وتجد على الخريطة (ص ٢٢٢) موقع السفن

وكان يحوى مدخل الميناء استحكامات قلعة نافرين وبطاريات من المدافع فى
طرف جزيرة اسفاختريا ، يعاونها أيضا سفن خفيفة من الحراقات ، وهى مراكب
تندفع والنار مشتعلة فيها على بوارج الاعداء لتحرقها بنارها ، وكان على ظهر بعض
السفن المصرية طائفة من الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد على لاصلاح

البحرية، فارسيل اليهم الاميرال ريني^(١) قومندان الاسطول الفرنسى يدعوهم الى الانسحاب من الدونمة المصرية حتى لا يحاربوا اخوانهم ومواطنيهم، فلبوا الدعوة، واستأذنوا من الاميرال محرم بك فى مغادرة الاسطول، فلم يسعه إلا الاذن لهم بما طلبوا، وتركوا الاسطول المصرى يوم ١٨ اكتوبر فى أشد الاوقات حرجا

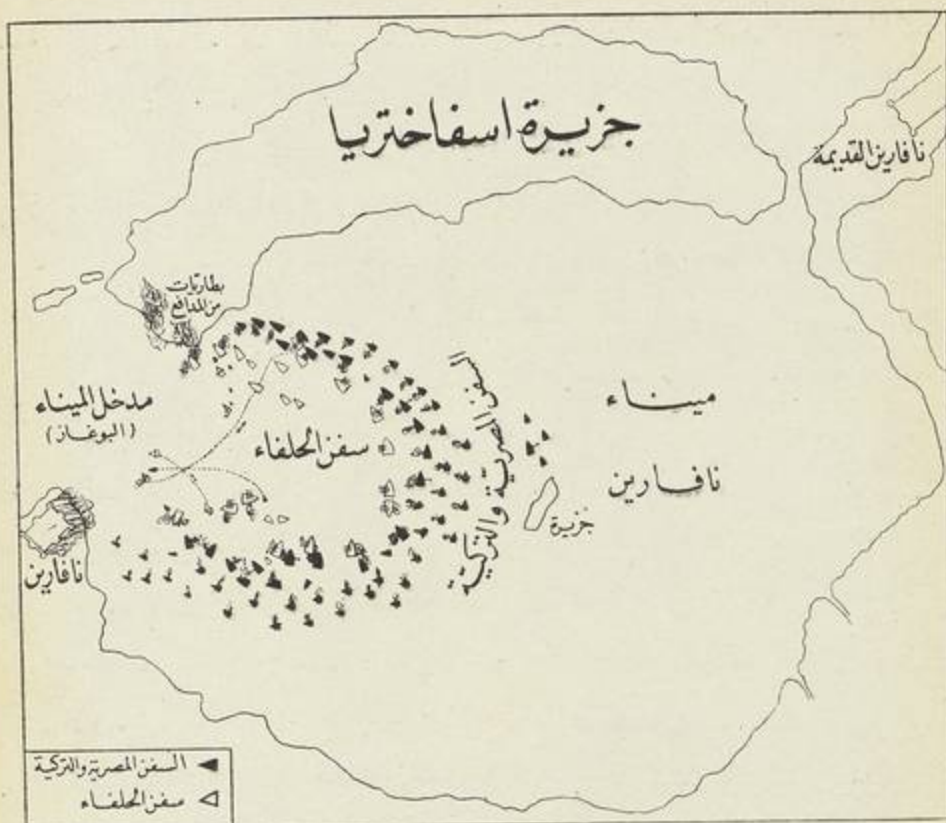
وفى صبيحة ١٩ اكتوبر جمع الاميرال كودرنجتون قباطين الحلفاء على ظهر بارجته (آسيا) وأصدر اليهم تعليماته فيما يجب عليهم عمله عند بدء القتال وأحكم قواد الحلفاء تدابيرهم فى الوقت الذى كان الاميرال محرم بك والاميرال طاهر باشا مطمئنين الى الموقف موقنين أن ليس ثمة حرب ولا قتال

وانقضى يوم ١٩ اكتوبر والحلفاء معتمرون اقتحام البوغاز وتدمير العمارتين المصرية والتركية، وكانوا يزعمون انفاذ خطتهم ذلك اليوم، ولكن الرياح لم تساعد السفن على دخول الميناء (وكانت السفن الحربية الى ذلك الحين تسير بالشرع لا بالبخار) فارجأوا هجومهم الى اليوم التالى

ففى نحو الساعة العاشرة من صبيحة ٢٠ اكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول اشارة تصدر اليها، وفى ساعة الظهر أخذت البارجة (آسيا) التى تقل الاميرال كودرنجتون تتجه على سمت من الخليج تحيط بها بقية السفن الانجليزية، تتبعها العمارتان الفرنسية والروسية

وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر اصدر كودرنجتون أمره الى اساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال، وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز

فارسيل الاميرال محرم بك قائد الاسطول المصرى رسولا الى البارجة آسيا يطلب الى كودرنجتون أن يمنع عمارة الحلفاء من الرسو فى نافرين، فأجاب الاميرال الانجليزى الرسول فى لهجة جافة بأنه لم يحىء ليتلقى أمرا، بل جاء ليملى أوامره، وكان



ميناء نافارين والواقعة البحرية

١٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧

هذا الجواب دليلا على نية الشر والعدوان التي تختلج في نفوس الاميرال الانجليزى وزملائه ، واستمرت البارجة (آسيا) في طريقها يتبعها بقية الاسطول ، وأخذت سفن الحلفاء مكانها الذي رسم لها من قبل ، فاصطفت تقريبا على شكل نصف دائرة في مواجهة اسطول ابراهيم باشا ، واقتربت معظم السفن حتى صارت أمام السفن المصرية والتركية وجها لوجه (انظر الخريطة) ، وصار بعضها على مرمى المسدس منها ، فلم يكن ثمة شك في انها جاءت تتحداها للقتال ووقفت البارجة الانجليزية دارتموث على رأس الصف لتعطل عمل الحراقات

المصرية الراسية في مدخل الميناء ، وطلب قومندانها الى احدى هذه الحراقت أن يغادرها بجارتها وجنودها ، أو أن تنسحب من موقعها ، وكان هذا الطلب ذريعة الى اشعال نار القتال ، فان الرسول الذي حمل هذا الطلب الى السفينة المصرية ذهب اليها في قارب مسلح متحفظاً متحدياً للقتال ، وقد زعم مؤرخو الخلفاء أن رصاصة أطلقت من السفينة المصرية اصابت أحد جنود الخلفاء وكانت السبب في اضرام نار القتال ، وذلك زعم لا يخفى حقيقة الواقع ، وهو أن الخلفاء اقتحموا الميناء بسفنهم مضمينين الشر والعدوان ، وسواء أطلقت تلك الرصاصة أم لم تطلق ، فانهم جاءوا عازمين على تدوير الاسطول المصري التركي وأخذة غيلة وغدرا ، ولو لم تطلق تلك الرصاصة ، ان صح أنها أطلقت ، لما عدموا وسيلة أخرى يتذرعون بها الى اطلاق النار

كانت العمارة المصرية التركية عند ابتداء القتال تتألف من ٦٢ سفينة حربية ، وأساطيل الخلفاء ٢٧ سفينة ، فهي أقل منها عدداً ، ولكن كفة الخلفاء كانت ارجح ، لأن لديهم من البوارج الكبرى عشر بوارج ، في حين أن المصريين والترك لم يكن لديهم منها سوى ثلاث فقط ، ومعلوم أن البوارج هي قوام الاساطيل البحرية ، لانها عبارة عن قلاع كبيرة متحركة تحطم السفن الحربية الاخرى ، دون أن تتمكن هذه من أن تنالها بسوء ، وخاصة قبل اختراع المدمرات الحديثة والغواصات ، اضيف الى ذلك ان الخلفاء جاءوا مستعدين للضرب ، على حين أن الترك والمصريين لم يكونوا متوقعين حرباً ولا قتالاً ، فلم تطلق مدافع القلاع قنابلها على سفن الخلفاء أثناء اجتيازها البوغاز ، ودخلت آمنة سالمة ، هذا فضلاً عن أن سفن الخلفاء كانت أشد بأساً وأقوى سلاحاً وأكثر استعداداً وأرقى قيادة من سفن الترك والمصريين ، وكانت هذه داخل المرفأ ، فحصرتها سفن الخلفاء في مكان ضيق لا يسهل عليها فيه الحركة ، ولم تمض برهة على دخول الاساطيل الدولية الميناء حتى ابتداء القتال ، وأطلقت بوارج الخلفاء مدافعها على السفن المصرية والتركية ، وتجاوب الاسطولان بالضرب ، واستعرت نار الحرب والهيجه ، فانقلب المرفأ بركاناً من الجحيم ، واجتمعت بين

جوانبه أسباب الهلاك والدمار، وصمت الآذان من قصف آلاف المدافع التي كانت تطلق من الجانبين، ومن دوى انفجار السفن التي كانت تنسفها قنابل الحلفاء أثناء المعركة، وغشيت ميدان القتال طبقات متصاعدة من الدخان المتكاثف تتخللها النيران المشتعلة، فكان المشهد رهيباً مروّعاً، ولم تعد السفن يميز بعضها بعضاً إلا على ضوء اللهب الذي كان يتصاعد بين آونة وأخرى من السفن المحترقة، ولم تستطع القيادة العامة متابعة حركات القتال، فأخذت أساطيل الحلفاء تتبارى في الفتك بالسفن المصرية والتركية.

لم تقصر السفن المصرية والتركية في الضرب، وأبدى رجالها بسالة في القيام بواجبهم، ولم يسلموا في أية سفينة من سفنهم، واشتركت مدافع القلاع في القتال قدر ما استطاعت، ولكن ضرب الحلفاء كان أشد فتكاً وأقوى أثراً، فدمر معظم السفن المصرية والتركية.

ابتدأت الواقعة في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر، واستمرت إلى نحو الساعة الخامسة مساءً، وانتهت بالقضاء على العمارات المصرية التركية، فقد هلك معظمها نسفاً وغرقاً، وجنحت البقية الباقية على السواحل، فأحرق البحارة أغلبها حتى لا تقع في أيدي الأعداء، وبلغ عدد قتلى المصريين والترك ثلاثة آلاف في حين لم يخسر الحلفاء سوى ١٤٠ من القتلى و ٣٠٠ من الجرحى.

تعد واقعة نافارين من الوقائع القليلة التي يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق، فإنها وقعت من غير أن تعلن حرب بين تركيا والدول المتحالفة، وأخذ الحلفاء السفن المصرية التركية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال، وكل ذلك مناف لآبسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتقدمة.

وقد فقدت مصر في هذه الواقعة أسطولها الذي قضى محمد علي السنين الطوال يبذل الجهود العظيمة وينفق الأموال الجسيمة في انشائه، فكان معظم الخسارة في هذه المعركة واقعا على مصر وبحريتها، وهكذا شاعت السياسة الانجليزية أن تبيت الشر لمصر وأسطولها حتى أوقعت به في كارثة نافارين.

لم يشهد ابراهيم باشا واقعة نافارين، إذ كان أثناء وقوعها داخل بلاد (موره) يعمل على اخضاعها، فلما بلغه تدمير العمارة المصرية عاد الى (نافارين) وشهد بنفسه آثار الواقعة، فحزن لها حزنا شديدا، ثم أمر باعداد بعض السفن التي نجت من الكارثة وتعويم بعض التي غرقت وانفذها الى الاسكندرية، ثم رأى أن يلزم خطة الدفاع، فأخلى مدن الموره وامتنع بمعظم جنوده في ثغرى (كورون) و (مودون) حتى يأتيه امر أبيه

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد الواقعة

اختلفت وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نافارين أما تركيا فانها رغم تدمير أسطولها في المعركة قد أصرت على رفض مطالب الدول المتحالفة، وطالبتها بتعويض عما لحق أسطولها من الدمار ووقفت موقف الصلابة والعناد بازاء الحلفاء

فاعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت (ادرنه)، وأرسلت فرنسا الى بلاد اليونان جيشا مؤلفا من ١٨٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال (ميزون) لاجلاء المصريين والترك عنها

وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة ادرنه (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول في معاهدة لوندرد، فاعترفت باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً والا يكون لها عليها سوى حق السيادة الاسمية، ثم اتفقت الدول على تخويلها الاستقلال التام (٣ فبراير سنة ١٨٣٠)

أما مصر فقد رأى محمد على أن لا فائدة تنالها من مواصلة القتال بعد أن فقدت أسطولها في واقعة نافارين وانقطعت مواصلاتها البحرية مع جيوشها في بلاد اليونان، فلا سبيل الى امدادها، ولأن فرنسا انفذت الى الموره جيشا عهدت اليه تحقيق ما اتفقت عليه الدول بقوة السيف، وتعجيل جلاء الجيش المصري، فأدرك محمد على باشا

ان ليس من مصلحة مصر مشايعة تركيا في عنادها، وخاصة بعد ان تكبدت خسائر جسيمة في الارواح والافس واحتملت نفقات فادحة تنوء بها خزائنها، وتحقق أيضا أن محاولة استرجاع اليونان عبث لا يجدى، فرأى من الحكمة ألا يجعل سياسة مصر مقيدة بسياسة تركيا وان يتفق مع الحلفاء على وقف القتال وجلاء الجيش المصرى عن الموره

وقد جنح به الى سلوك هذه الخطة ما تلقاه من قناصل الدول في مصر عن تصميم الحلفاء على تحرير اليونان، واستهداف مصر لكوارث الحرب اذا هي استمرت على اتباع سياسة تركيا، وفي غضون ذلك جاء الاميرال كودرنجتون قائد العمارة الانجليزية الى مياه الاسكندرية وأصدر بتحريض المدينة اذا لم يبادر محمد على الى استدعاء ابراهيم باشا من الموره، وسعى المستر باركر قنصل انجلترا في مصر الى اقناع محمد على بالكف عن القتال، فاستمع لهذه النصائح والتهديدات وعقد (١) اتفاقا مع الحلفاء على اخلاء الجيش المصرى لبلاد الموره على شروط وهي :

- (١) يتعهد محمد على باعادة الاسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم في مصر (٢)
- (٢) يتعهد الاميرال الانجليزى بارجاع الاسرى المصريين واعادة السفن المصرية التي اسرت أثناء القتال
- (٣) ان تحلى الجنود المصرية الموره وينقلهم محمد على باشا على سفنه
- (٤) ألا يكره اليونانيون المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها، وكذلك يسمح لمن يشاء من اليونانيين أن يصحبوا الجيش المصرى في عودته لمصر

(١) في اغسطس سنة ١٨٢٨

(٢) يقول المستر باركر قنصل انجلترا في مصر وقتئذ ان عدد هؤلاء الاسرى ٥٠٠ ره وزعوا على بيوت الكبراء في الاسكندرية والقاهرة، ولما ابرم هذا الاتفاق لم يقبل منهم العتق سوى اربعمائة واما الباقون ففضلوا البقاء في مصر

(خامسا) يجوز لابراهيم باشا أن يترك في (موره) عددا من العساكر لا يزيد عن الف ومائتين للمحافظة على (مودون) و (كودون) و (نافارين) و (باتراس) و (كستل توريه) ، أما المواقع الأخرى فتخلي فورا وقد أبلغ ابراهيم باشا هذه الشروط وهو في اليونان فقابلها بالسخط الشديد لما رأى أن جهود جيشه قد ضاعت فضلا عن الخسائر التي تكبدها وخاصة ضياع العمارة المصرية ، ولكنه اضطر للإذعان ، فأصدر أوامره بإخلاء المدن اليونانية والسير إلى الثغور ، ثم أقلت بهم السفن إلى مصر (اكتوبر سنة ١٨٢٨) وهكذا رجع الجيش المصري من اليونان إلى الاسكندرية بعد أن أنهكتهم الحروب والأمراض ، وتكبدت مصر في هذه الحملة متاعب وضحايا هائلة ونفقات جسيمة ، وحسبك أن تعرف أن الجيش الذي جردته في حرب اليونان بلغ اثنين وأربعين ألفا خسرت منه ثلاثين ألفا ، وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥ ألف جنيه ، وفقدت أسطولها الحربي في واقعة نافارين ، فكانت خسائرها في الحملة فادحة وتضحياتها بالغة

نتائج الحرب اليونانية

إن مصر لم تنل من الحرب اليونانية من الوجهة المادية شيئا سوى ضم جزيرة كريت إليها ، فقد عهد السلطان محمود إلى محمد علي ولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته في حرب الموره فلذا صح القول بأن مصر لم تكسب من ناحية التوسع والفتح فيما لا نزاع فيه أن هذه الحرب قد أكسبتها منزلة معنوية كبيرة ، لأن هذه أول حرب أوروبية خاض الجيش المصري غمارها ، ولقد برهن فيها على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرق الجيوش الأوروبية في ميادين القتال ، فلا غرو أن ارتفع شأن مصر ونال جيشها شهرة عالمية ، وهذه المسكنة تعد من أركان عظمة مصر الحديثة ومن عوامل مجدها الخالد ، والأهم الحية تقدر مجدها الحربي تقديرا كبيرا وتبذل في سبيله الجيود والتضحيات

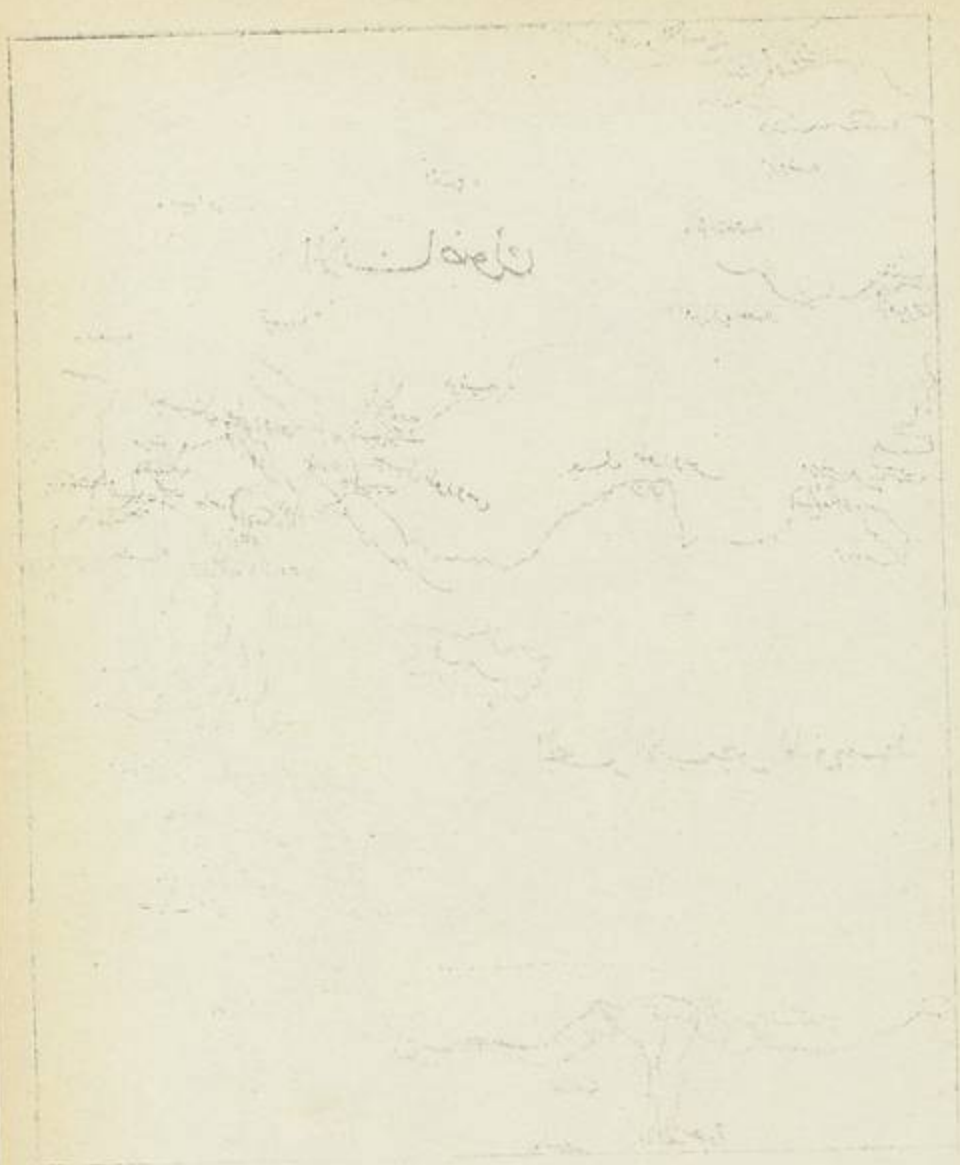
هذا فضلا عن أن الجيش المصرى قد اكتسب في تلك المواقع مرانا على الكفاح، وممارسة لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة، ولا ريب أن خوض الجنود والضباط والقواد غمار المعارك المتوالية مما يغرس في نفوسهم الفضائل والاخلاق الحربية، ويعظم همهم ويزيدهم شجاعة واقداما، ويبصرهم بمواقع الحروب ويزيدهم علما وتجربة.

ولا يخفى من جهة أخرى أن الحرب اليونانية كانت خير اعلان عن قوة الجيش المصرى، وحسن نظامه، وكفاءة قواده وشجاعة جنوده، ولقد ظهر في تلك الحرب أرفع شأننا وأشد بأسا من الجيش التركى، فكان لهذه الميزة أثرها في توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا، بحيث لم يعد يسهل على السلطان أن ينظر الى محمد على كوال من ولاية السلطنة العثمانية، بل جعلته الحرب ندا له وملكا مهيب الجانب قوى البأس والسلطان، فلا غرو ان قويت في نفس محمد على بعد تلك الحرب فكرة اعلان الاستقلال، تلك الفكرة التي ساورتة منذ رسخت قدمه في الحكم وكان يعمل لها بثبات وحكمة وينتهاز الفرص ويهيئ الوسائل ويرسم الخطط لتحقيقها، فكانت الحرب اليونانية مرحلة شجعتة على تحقيق تلك الفكرة الجليلة وكان من نتائج الحرب اليونانية ان أخذت مصر تكسب مركزا دوليا، لان الدول الاوروبية قد فاضت محمد على رأسا دون وساطة تركيا، فكسبت بالفعل مركزا ممتازا بين الدول، وهكذا كانت الحرب اليونانية وسيلة لظهور شخصية مصر الدولية، وقد كان لحسن نظام الجيش المصرى وما أبداه من المهارة والشجاعة والكفاية الفضل الاكبر في ما نالته مصر من المسكنة، اذ خاطبت الدول محمد على لا كما تخاطب واليا من ولاية السلطنة العثمانية، بل مخاطبة النند للنند، وأرسلت اليه الحكومة الانجليزية تبدي أسفها على ما لحق بالاسطول المصرى في واقعة نافارين، وتظهر رغبتها في جعل علاقتها بالبasha علاقة ودية، وفافوضته فيما يكون مركز انجلترا حيال

مصر اذا نشبت الحرب بين الانجليز والترك ، فتعهدت له بأن يكون موقفها حيال
مصر موقف حياد

فال حرب اليونانية قد جعلت من مصر دولة مستقلة فعلا عن تركيا وبذلك نالت
مركزا ممتازا ، وكان من مظاهر هذا المركز أن عقدت والدول اتفاق (أنغسطس
سنة ١٨٢٨) رأسا مع مصر ، ووقع هذا الاتفاق بوغوص بك وزير خارجية
مصر ، وهذه أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة اجنبية في عصر
محمد علي

ويتبين لك مبلغ تصميم محمد علي باشا على انفاذ فكرة الاستقلال والانفصال
عن تركيا من امتناعه عن مد يد المساعدة لها في حربها مع روسيا ، فلقد ألح عليه
السلطان في ارسال المدد لكنه أصر على الامتناع ، واعتذر ببعد المسافة بطريق
البر وعدم توافر السفن التي تنقل الجنود بطريق البحر ، واعتذر ايضا بتفشى الوباء
في مصر والشام ، وكل هذه أعذار ظاهرة ، أما السبب الحقيقي لخطته الجديدة فهو
طموحه الى الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر ، ولذلك لم تسكد تنهى الحرب
اليونانية وينفض الجيش المصرى غبار المعارك التي خاضها حتى بدأت مقدمات
الحرب ضد تركيا ، إذ أخذ محمد علي يتأهب لمنازلتها في ميادين القتال كي يؤلف
الدولة المصرية المستقلة بقوة السيف والمدفع



Handwritten text, likely a description or notes related to the sketch above. The text is very faint and mostly illegible due to fading. It appears to be a single paragraph of cursive handwriting.



خريطة الحرب في سورية والأناضول (مقابل ص ٢٣٠)

وفيها بيان المواقع والبلاد التي ورد ذكرها في الفصل الثامن ، وقد بينا على الخريطة خط سير الحملة المصرية برا وبحرا ، ورسمنا بها حدود مصر الشمالية (التقريبية) طبقا لاتفاق (كوتاهية) سنة ١٨٤٣ ، وكانت هذه الحدود تبدأ من مجرى نهر الساجور أحد روافد الفرات وتمتد شمالا بغرب الى مضيق (كولك) بجبال طوروس ثم تنحدر جنوبا الى البحر الابيض ورسمنا ايضا حدودها الشمالية التي قررتها الدول في معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ولم يقبلها محمد علي (انظر ص ٣٢٢) وكانت تشمل فلسطين وتبدأ من رأس الناقورة شمالا الى عكا الى مصب نهر السيسبان في شمال بحيرة طبرية ، ثم تتبع الشاطئ الغربي لملك البحيرة ، فالضفة اليمنى لنهر الاردن ، فالشاطئ الغربي للبحر الميت ، ومن ثمانية تمتد الحدود جنوبا على خط مستقيم الى رأس خليج العقبة على البحر الاحمر ، ثم تتبع الشاطئ الغربي لخليج العقبة ثم الشاطئ الشرقي لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها .

الفصل الثامن

الحرب في سورية والآناضول

خرجت مصر من الحرب اليونانية دون أن تغفر بفتوحات جديدة ، ففي حين أن الحرب الوهابية قد انتهت ببسط نفوذها في جزيرة العرب وضم إليها فتح السودان الشطر المسكمل للدولة المصرية ، فإن الحرب اليونانية لم تسكبها فتحاً جديداً ، بل انتهت بجلاء الجيش المصرى عن بلاد الموره وعودته الى مصر وقد أرادت تركيا أن تعوض محمد على باشا بعض ما فقدته في الحرب اليونانية ، فاسندت اليه جزيرة كريت ، لكن هذا العوض لم يكن ذا قيمة اذ لم يكن من السهل أن تحكم مصر تلك الجزيرة أو تبسط سيادتها عليها أو تسنفيد منها لزروع أهلها الى العصيان ولأنها كانت ارض قين وثورات

فلا غرو ان طمح محمد على الى ضم سورية الى مصر ، ولم يكتم نيته عن الحكومة التركية فانه طلبها منها تعويضا عما تسكبه الجيش المصرى من الخسائر في حرب الموره ، ولكن السلطان لم يجبه الى طلبه ، فاعترزم ان يناله بحمد السيف ، ورأى ضرورة ضم سورية الى مصر لانها كحاجز حصين بين الدولة المصرية والدولة العثمانية ، وبها تتقى مصر شر تركيا اذا حدثتها نفسها بغزو مصر

اسباب الحملة على سورية

ان حرب الشام يصح اعتبارها حربا دفاعية ، وحربا هجومية ، أما كونها حربا دفاعية فلا أن محمد على كان يعلم أن تركيا لا تفتأ تسعى لاسترداد مركزها في مصر ما وجدت سبيلا الى ذلك ، وان السلطان محمود لم يكن خالص النية نحوه ، بل كان ينظر بعين الحسد الى تقدم مصر وما كسبته من المكانة العالية ، ولم ينس كذلك

أن مصر امتنعت عن مساعدته في حربه مع روسيا (سنة ١٨٢٨) ، فاضطغن السلطان على محمد علي باشا ، وأخذ يتربص به لينتقم منه وينزع منه حكم مصر ، ولم يكن يحول بينه وبين ذلك سوى ارتباك احوال الدولة العثمانية وضعفها ، فاذا ما ساحت الفرصة فإنه لا يتردد في التخلص من خصمه ، فطموح محمد علي الى فتح سورية كان الغرض منه أن يدافع عن مصر وعن مركزه فيها

واذا تأملت فيما كتبه الدكتور كلوت بك في هذا الصدد رأيت أنه يعبر عن وجهة نظر محمد علي في الحملة على سورية إذ يقول « ان ضم سورية الى مصر كان ضروريا لصيانة ممتلكات الباشا ، فمذ تقرر في الاذهان ان انشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن ادراك هذه الغاية إلا بضم سورية الى مصر ، وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربى لا يجعلها في مأمن من الغزوات الخارجية خصوصا عن طريق برزخ السويس ، فاذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بوناپرت نجد أن سائر الغزوات جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس في عهد قبيلز وغزوة الاسكندر والفتح الاسلامى وغزوات الأيوبيين والأتراك ، وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان الى بقاء مصر مستقلة إلا باعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست في السويس بل في طوروس »

فالخرب السورية من هذه الوجهة كانت اذن حربا دفاعية لكنها كانت أيضا حربا هجومية ، وكان الغرض منها التوسع في الفتح والسلطان ، فان محمد علي كان يطمح الى ضم سورية منذ سنة ١٨١٠ ، وكان يأمل أن يصل الى حكمها بموافقة السلطان ، كتب الميسو درو قى قنصل فرنسا في مصر ، وكان من أكبر أعوان محمد علي ، رسالة الى حكومته سنة ١٨١١ يقول فيها « إن محمد علي يطمح في ولاية سورية ، وقد قال لى يوما انه لا يستبعد أن يناهز مقابل مبلغ من المال سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها خزنة السلطان ، وقد أخذت فكرة

الاستقلال تزداد رسوخا عنده منذ استظهاره على أعدائه وقعه فتنة الجند وتخلصه من الارتباك المالية »

وقد أشار المسيو دروقي في رسالة أخرى لحكومته الى معدات الحملة المصرية على الوهابيين فأظهر الشك فيما أضمر محمد على منها وهل يقصد بها الحجاز أم سورية ، قال في هذا الصدد :

« ان جميع الاستعدادات التي يعدها الباشا تدل على ان الحملة تحترق الصحراء وتصل منها الى سورية ، ولا تزال غايتها الحقيقية سرا مكتوما في ضميره ، وخطته في هذا الصدد لم تتغير ، وهي التآني ثم التصرف مع الاحوال بحسبها »

وقد طلب فعلا من السلطان خلال الحرب الوهابية أن يعهد اليه بولاية الشام وكانت حجته في ذلك انه في حاجة الى مدد منها لمعاونته على قتال الوهابيين

ففكرة ضم سورية الى مصر كانت اذن تحتلج في نفس محمد على باشا منذ سنة ١٨١٠ ، ولقد صرفه عنها انهماكه في الحرب الوهابية ، ثم فتح السودان ، ثم الحرب اليونانية ، فلما انتهى من هذه الاخيرة أخذ يفكر في انفاذ فكرته القديمة ومن الراجح الذي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد زلي كان يتناول انشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم اليها البلاد العربية في افريقية وآسيا ، ففي افريقية قد استقل بمصر وفتح السودان ، وفي آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، و بطموحه الى سورية أراد ان يؤسس الدولة المصرية الكبيرة ويؤيد هذه الفكرة رجحانا بعض تصريحات فاه بها ابراهيم باشا خلال الحرب السورية ، فقد ذكر المسيو كادلفين وباروفى كتابهما انه بينما كان الحصار مضروبا على (عكا) سئل ابراهيم باشا الى أى مدى تصل فتوحاته اذا تم له الاستيلاء على عكا فقال ما معناه الى مدى ما يتكلم الناس واتقاهم واياهم باللسان العربي (١)

(١) كادلفين وباروفى . حرب مصر ضد الباب العالي في سورية والاناضول

وقد قابله البارون (لبو السكونت) بالقرب من طرسوس بالاناضول سنة ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهيه ، وكان له معه حديث طويل ، فذكر عنه « ان ابراهيم باشا يجاهر علنا بأنه ينوى احياء القومية العربية ، واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم سواء أفي الادارة أم في الجيش ، وان يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم في ادارة الشؤون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه ، وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب الاخيرة بسورية ، فانه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالذ ، ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بان كل بلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه ، وقد قال لي ان أباه يحكم مصر والسودان وسورية ، ومن الواجب ان يضم العراق الى حكمه ، وان جزيرة العرب تابعة لآبيه الذي يعمل الآن على اتمام فتحها ، وهو في صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعبد نفسه عربيا ، ولذلك لا ينفك يطعن في الاتراك ، وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله عليها وسأله كيف يطعن في الاتراك وهو منهم ، فاجابه ابراهيم باشا على الفور « انا لست تركيا ، فاني جئت مصر صيبا ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيبرت من دمي وجعلته دما عربيا » (١)

فهذه البيئات تدلك على ما اتجه اليه فكر ابراهيم باشا من تأسيس دولة عربية مصرية تجمع شمل الناطقين بالضاد وتحيي عهد الفاطميين والايوبيين والصلاحين البحرية والبرجية حين كانت مصر تضم الى رقعتها سورية وجزيرة العرب

وكان لمحمد علي في فتح سورية اغراض اقتصادية ، فانه اراد استغلال مواردها من الخشب والفحم والنحاس ، تلك الموارد التي كانت مصر مفتقرة اليها ، فهي في حاجة الى الاخشاب للوقود ولبناء السفن الحربية والتجارية ، والى الفحم والنحاس

(١) كتاب مهمة البارون لبو السكونت ص ٢٤٨ و ٢٤٩

والحديد لترقية صناعاتها وخاصة بعد ان انشأ محمد علي المصانع الكبرى (الغابريقات) التي تحتاج ادارتها الى الفحم والحديد والنحاس وكذلك كان يرمى اذا بسط نفوذ مصر في سورية ان يجند من سكانها في الجيش المصرى فيزداد الجيش عددا وقوة

تلك هي الاسباب الحقيقية التي نزعته بمحمد علي باشا أن يطمح الى فتح سورية وقد كانت الظروف في سنة ١٨٣١ ملائمة لانفاذ مشروعه ، فان تركيا قد خرجت من الحرب اليونانية ، ثم من الحرب الروسية سنة ١٨٢٩ ، مضعفة منهوكة القوى ، وزاد في ضعفها كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية فيها ، وقد ألغى السلطان محمود سنة ١٨٢٦ فرقة الانكشارية التي كانت قوام الجيش العثماني ، وذلك لما كانت عليه من الفوضى وأبادهم ، ولكنه لم يجد متسعا من الوقت لينشئ بدلا منهم جيشا جديدا نظاميا ، بل كانت القلاقل والاضطرابات تحول دون انفاذ عزيمته ، في حين ان محمد علي كان على تمام الالهبة للدخول في حومة الوغى معتمدا على الجيش النظامي الذي قضى سنوات عدة في انشائه وتدريبه ، وعلى الاسطول الذي انشأه في ترسانة الاسكندرية ، ولم يكن السوريون متعلقين بالحكم العثماني لكثرة ما عانوا من مساوئه ومظالمه ، فلم يكن متوقعا ان يلتقي الجيش المصرى في زحفه على سورية مقاومة من الاهالي ، وخاصة لان محمد علي باشا قد اجتذب اليه الامير بشير الشهابي كبير امراء لبنان منذ سنة ١٨٢٢ وتوثقت بينهما العلاقات من ذلك الحين اذ كانت الحكومة العثمانية قد عزلته من امارة الجبل فلجأ الى محمد علي في مصر فتشفع له لدى الدولة فاصدرت عفوها عنه وحفظ له هذا الجبل ، فكان له عضدا كبيرا في الحملة السورية ، واستمال ايضا الشيخ حسين عبد الهادي من زعماء نابلس ومصطفى اغا بربر (١) الذي عينه ابراهيم باشا اثناء الفتح متسلما لطرابلس فكان الثلاثة من أعوانه في الفتح

(١) ذكرهما مع الامير بشير الشهابي البارون لبو الكونت في رسائله عن سورية في عهد الفتح المصرى ، ص ٢٢٨ من كتاب (مهمة البارون لبو الكونت)

فمحمد على لم يكن يخشى مقاومة من جانب الاهالى ، اما الجيش العثمانى فكان يأمل ان يظهر عليه لتفوق الجيش المصرى عليه بحسن النظام والتدريب وكفاءة القيادة

الاسباب المباشرة للحملة

تلك هى البواعث الحقيقية للحملة السورية ، والآن فلنعتقب عليها بالاسباب المباشرة التى تدرع بها محمد على باشا للزحف على الشام
وبيان ذلك ان كثيرا من الفلاحين المصريين قد فدحتهم اعباء السخرة والضرائب التى فرضها محمد على باشا ، فهاجروا جماعات الى الاقطار السورية المتاخمة لمصر فرارا من هذه المكاره ، وتخلصا من الخدمة العسكرية ، وقد طمَّ سبل المهاجرين حتى بلغ عددهم ستة آلاف من الفلاحين ، وخشى محمد على من عواقب هذه الهجرة وما تقضى اليه من المضار الاقتصادية فطلب من عبدالله باشا والى صيدا (١) ان يرجع المهاجرين المصريين الى بلادهم ، فرفض عبدالله باشا طلبه محتجا بان المصريين من الرعايا العثمانيين ولهم الحق ان يقيموا فى شاءوا ، فغضب محمد على من هذا الجواب ، وكتب اليه يتوعده وينبئه انه قادم ليعيدهم جميعا يزيديون واحدا وهو عبد الله باشا ذاته
كان عبد الله باشا ذا نفوذ كبير فى ولايته فهو حاكم شبه مستقل فيها وتمتد سلطته الى بلاد فلسطين وقسم من الشام

وكان هذا المركز مما جعل لمحمد على باشا مندوحة فى تجريد الحملة عليه ، فلم يكن فى الظاهر محاربا لتركيا ولا مجاهرا بعصيانها ، وما قىء خلال الدور الاول من الحملة يتظاهر باخلاصه ويزعم انه انما يحارب حاكما شبه مستقل خارجا على الدولة ، ومما يجدر ذكره ان محمد على باشا كانت له يد سابقة على عبدالله باشا هذا ، فقد عزلته الحكومة التركية من ولاية صيدا سنة ١٨٢٢ فتشفع له محمد على فعفت عنه وابقته

(١) ولاية صيدا قاعدتها عكا ولذلك تسمى احيانا ولاية عكا

في ولايته ، ولكن عبد الله باشا لم يحفظ هذه اليد لمحمد علي إذ كان من الباشوات
الكثيرى المطامع ، فقد استأثر بالسلطة في ولاية صيدا وطمع كذلك في ضم ولاية
الشام اليه وكان يخشى على سلطته من امتداد نفوذ محمد علي ، فلم يراع جانبه ولم
يكترث لفضبه ، وكان فضلا عن ايوائه المهاجرين المصريين يساعد قوافل التجارة
على تهريب المتاجر من الجمارك المصرية وتقويتها من طريق صحراء سورية
فأضر ذلك بالخزانة المصرية

فلما امتنع عن ارجاع المهاجرين المصريين صمم محمد علي أن ينفذ الحملة على سورية

تأليف الحملة

كانت الحملة المصرية على سورية مؤلفة في بدايتها من ٦ أليات من المشاة
واربعة من الفرسان ، وعديتهم ٣٠ ٠٠٠ مقاتل بقيادة ابراهيم باشا مجهزين بأربعين
مدفعا من مدافع الميدان وعدة من مدافع الحصار ، وما يكفيهم من الذخائر والمؤن ،
واحشد جنود الحملة ، فريق في ضواحي القاهرة (بالخانكة) ، وفريق في
الاسكندرية

واشتركت العمارة المصرية في الحملة ، فنقلت جزءا من الجيش بطريق البحر وحملت
المدافع الضخمة والذخيرة والمؤونة ، وخاضت في بعض المواطن غمار القتال ، وكانت
مؤلفة من ١٦ سفينة حربية و ١٧ سفينة نقل معتودا لواؤها للأدميرال عثمان نور الدين بك
(باشا) وهو من خريجي البعثات المصرية التي ارسلها محمد علي الى فرنسا ونبع في الفنون
الحربية والبحرية وكان ناظرا للمدرسة الحربية التي انشأها ثم جعله محمد علي اميرالا
لاسطول المصري لما عهد فيه من الكفاية والاخلاص ، وسنعود الى الكلام عنه
تمت معدات الحملة في أوائل سنة ١٨٣١ وكان موعد زحفها في صيف تلك
السنة ، ولكن وقوع الوباء (الكوليرا) في مصر وقتئذ أخر زحف الحملة ، فمئذفتك
مالاتها الى فتكا ذريعا ، ودام فتكها أربعة وثلاثين يوما ، ومات به نحو ١٥٠ ألف

نسمة ، واستطار في الجيش فأودى بحياة خمسة آلاف من الجنود (١) ، فتوقفت الحملة عن السير حتى تكافح الحكومة هذا الوباء

سير الحملة

ولما جاء شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ أصدر محمد علي أوامره بتحريك الحملة ، وكان خط سيرها ان يسير معظم الجيش برا من طريق العريش الى حدود سورية ، وان تقل العمارة ابراهيم باشا القائد العام واركان حربه وجزءا من الجيش والمدافع الضخمة والذخيرة والمؤونة من الاسكندرية الى يافا
ففي اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ (٢) بدأ الجيش البري يتحرك من معسكر (الخانكة) بقيادة ابراهيم باشا يكن (٣) قاصدا الحدود السورية ، مارا ببليس ، فالقرين ، فالصالحية ، فقطية ، فبئر العبد ، فمعدية ، فالعريش حيث استراح بها يوما ، ثم دخل التخوم السورية فاحتل خان يونس

احتلال غزة ويافا وحيفا

واحتل (غزة) بعد ان فرت منها الجنود العثمانية ، ثم زحف على (يافا) فأخبطها الحامية التركية واحتلها الجيش المصري ، وفي غضون ذلك اقلعت العمارة المصرية من الاسكندرية لتحمل باقي الجيش وتقل القائد العام ابراهيم باشا يصحبه أركان حربه ومنهم الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى وكان لم يزل بك) وعباس حلمي باشا (٤)

(١) كان عدد الجيش يبلغ وقتئذ نحو ٩٠ الفا

(٢) كما ورد في كادلفين وبارو ص ٦٢

(٣) هو الذى تعبر عنه المراجع الفرنسية بـ ابراهيم باشا الصغير تمييزاً له عن ابراهيم

باشا ابن محمد علي

(٤) هو عباس باشا الاول الذى تولى الحكم عقب وفاة ابراهيم باشا

وصلت العمارة الى يافا ثم الى حيفا حيث التقت مراسيها وأنزلت بها الذخائر والمدافع ، والتقت القوات التي جاءت براً بالقوات الآتية بحراً ، واتخذ ابراهيم باشا (حيفا) قاعدة للحركات العسكرية وجمع فيها الذخائر والمؤونة وشرع في مهاجمة عكا

حصار عكا

نوفمبر سنة ١٨٣١

كانت عكا على جانب عظيم من المنعة ، ولاغرو فهي التي أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها ، وقد زاد احمد باشا الجزائر في استحكاماتها القديمة بعد انسحاب الفرنسيين من سورية ، فصارت امنع مما كانت ، فكان عبد الله باشا مطمئنا الى امتناعه بها واثقا من عجز الجيش المصري عن اقتحامها ، وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل فاعتزم أن يدافع عنها دفاع المستميت زحف الجيش المصري على عكا وضرب عليها الحصار منذ يوم ٢٦ نوفمبر ، واشتركت العمارة المصرية في حصارها من البحر ، فكان الحصار مضروبا عليها برا وبحرا ، وأطلقت مدافع البر والبحر قنابلها على أسوار عكا وحصونها ، ولكن الحصون جاوبتها بنار حامية وأحدثت اضرارا ببعض السفن المصرية مما اضطرها الى الرجوع للاسكندرية لاصلاح ما اصابها من العطب ، فاستعصت عكا على الجيش المصري ، وانقضت ثلاثة أشهر دون أن ينال منها منالا ، وأخذ ابراهيم باشا في خلال هذه المدة يحتل المواقع المهمة في ولاية صيدا وما حولها ، فاحتلت فرقة من الجنود المصرية بقيادة حسن بك المناستري صور وصيدا ويروت وطرابلس ، واحتلت كتيبة أخرى مدينة (القدس) ، وكان الجيش كلما نزل ببلدة سلمت له بدون قتال

موقف تركيا

اضطربت تركيا أمام زحف الجيش المصري ، وبادرت في بادئ الأمر الى ارسال مندوب عنها الى محمد علي باشا يطلب اليه السكف عن القتال ، وكان الباشا

يعلم بارتبك أحوال تركيا وعجزها عن حشد جيش يصد زحف الحملة المصرية ، فأخذ يماطل في الجواب ، وتظاهر بالاخلاص للدولة العثمانية ، وفي الوقت نفسه أرسل الى ابراهيم باشا يأمره بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يفتحها قبل أن يصل الجيش التركي لنجدتها اذا فكرت تركيا في امدادها

وقد حشد الباب العالي نحو عشرين الف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس وعهد اليه رفع الحصار
فرحف الجيش العثماني يرمى اليها ، وضم اليه كل من لقيهم في طريقه من جموع الاكراد والعرب

علم ابراهيم باشا بتحرك هذا الجيش ، فعقد مجلسا حربيا من نخبة ضباطه وأركان حربه ليتدبر في الأمر ، فاستقر رأيه على أن يترك حول عكا القوة الكافية لمتابعة الحصار ، وأن يتحرك بالجزء الآخر من جيشه ليصادم الجيش التركي في الطريق ويتغلب عليه قبل أن يصل الى عكا

تقدم عثمان باشا يتود بضعة آلاف من جنوده وانهز فرصة اشتغال ابراهيم باشا في حصار عكا فهاجم طرابلس التي كانت تحتلها جامية مصرية ، فدخل المدينة ولكن جنود الحامية ردوا المهاجمين على اعقابهم ، على أن مركزهم لم يلبث أن تخرج بازدياد قوات الاعداء ، وصارت طرابلس مهددة بسقوطها في يد الترك ، فبادر ابراهيم باشا الى نجدتها وسار اليها بطريق الساحل فلما اقترب منها ارتد عنها عثمان باشا

انتصار المصريين في (الزرّاعة)

١٤ ابريل سنة ١٨٣٢

تعقب ابراهيم باشا الترك الى حصص ، ثم رأى أن يرجع الى (بعلبك) ليمتار منها بالذخيرة الكافية قبل أن يمضي في مطاردة الجيش العثماني ، فوصل الى سهل الزرّاعة (١)

(١) قرية جنوبي حصص ، اذنار موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

وقد توهم عثمان باشا أن هذا التراجع علامة الضعف ، فتقدم لمهاجمة الجيش المصرى ، فالتقى به فى سهل (الزراعة) ، ومع أن الجيش العثمانى كان أكثر عدداً إلا أنه دون الجيش المصرى فى النظام وكفاية القيادة

كان جيش عثمان باشا مؤلفاً من فرسان العرب والاكراذ ، فهجموا على الجيش المصرى وأحاطوا به من كل جانب ، وخيل لهم أنه أصبح فى قبضة يدهم ، لكن ابراهيم باشا بمعاونة سليمان بك (باشا) الفرنساوى رتب الجنود المصرية على هيئة صفوف منتظمة متراصة ووضع وراءها المدافع حتى لا يراها المهاجمون ، فأنخدع القائد التركى بهذه الخيلة وهجم بكل قواته على الصفوف المصرية ، فلبثت هذه ساكنة حتى إذا صار الاعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون وراء المدافع وانجرت هذه بقنايلها فحصدت المهاجمين مشاة وركبانا ، ف وقعت بهم الخسائر الفادحة واختل نظامهم وتفرق جمعهم ونكصوا الى الورا ففسار المصريون فى اعتابهم حتى دفعوا بهم الى نهر العاصى (١) حيث غرق الكثير منهم ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش التركى وارتد عثمان باشا وجنوده الى مدينة (حماد) ومكث بها حتى يتلقى المدد ، أما ابراهيم باشا فقد عاد بعد واقعة (الزراعة) الى بعلبك يتأهب لاستئناف الزحف

وفى خلال ذلك اغتم عبد الله باشا فرصة نقص القوات المحاصرة لعسكاً إذ هبطت الى عشرة آلاف نفر ج من معاقلة ، وهاجمهم وظهر عليهم ، واستولى على الكثير من مدافعهم ، على أن ابراهيم باشا لم يعبا بهذا النصر الذى ناله عبد الله باشا لوثوقه أن النصر الحاسم هو فوزه على جيش عثمان باشا

فتح عكا

٢٧ مايو سنة ١٨٣٢

ومكث ابراهيم باشا فى بعلبك يرقب حركات الجيش العثمانى مخافة أن يعاود

(١) نهر ينبع فى لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بمحصر وحماد وانطاكية ويصب عند السويدية ، انظر موقعه على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

كثرة الهجوم ، ولكنه ما لبث ان علم ان عثمان باشا أنفذ يطلب المدد من الاستانة ، وهذا دليل على ضعف مركزه ، ولما كان المدد لا يمكن أن يصل إلا بعد شهرين اذا أعجله الباب العالي فقد اطمأن ابراهيم باشا من هذه الناحية ، وعاد الى (عكا) وشدد الحصار عليها من البر والبحر ، وساعده في ذلك العرب والدروز والموارنة الذين أتوه طائعين

حمل ابراهيم باشا على المدينة وأخذ يرمى سورها بالمدافع القوية ، وما زال الضرب مستمرا حتى تصدع السور وفتحت فيه ثغرتان كبيرتان وأخرى صغيرة ، وعندئذ صمم ابراهيم باشا على مهاجمة المدينة بجيشه وحدد للهجوم يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ ففي صباح ذلك اليوم حملت الجنود المصرية على الثغرات الثلاث ، فاستولوا على اثنتين منها وتردد الجنود الذين قصدوا الاستيلاء على الثغرة الثالثة ولقوا مقاومة شديدة ، فارتدوا الى الوراء ، فلما أبصر ابراهيم باشا ارتدادهم بادى الى نجاتهم بجزء من الاحتياطي وتقدم هو الجنود شاهرا سيفه ، فدبت الحمية في نفوسهم وعادوا الى الثغرة فاقتحموها ، ودار قتال استمر حتى المساء ، ودافعت الحامية دفاعا مجيدا ، وأبدى الفريقان شجاعة كبيرة الى أن عظمت خسائر الحامية وكأنت عن مواصلة الحرب ، فطلب عبد الله باشا التسليم وسلم المدينة في مساء ذلك اليوم

وبذلك انتهى حصار عكا بتسليمها للجيش المصرى بعد ان استمر ستة اشهر ، وقد وقعت بالفريقين خسائر فادحة ، فبلغت خسائر الجيش المصرى أربعة آلاف وخمسمائة قتيل ، وخسرت الحامية ١٤٠٠ قتيل ، وهى خسارة تدل على شدة ما احتمله الفريقان ، فلا غرو ان كان لفتح عكا دوى عظيم تجاوب في الخافقين ، فان عكا هى التى امتنعت على نابليون منذ نيف وثلاثين سنة وعجز عن فتحها وارتد عنها خائبا ، فانتصار ابراهيم باشا فى فتحها هو صفحة مجد ونغار للجيش المصرى

ومن الواجب تقريرا للحقيقة أن ننوه بأن العقبات التى اعترضت نابليون فى حصار عكا كانت أشد وأبلغ مما اعترض الجيش المصرى ، فان نابليون حاصر عكا من البر ، وكان الاسطول الانجليزى يدافع عنها من البحر ويمنع مواصلات الجيش

الفرنسي من هذه الناحية ، ولم يجد نابليون أمامه سوى طريق الصحراء الشاق ، فانقطع عنه المدد ، بينما كان الجزر يتلقى المدد والمؤونة والذخيرة بجرأ ، أما الجيش المصري فقد عاينته العماره المصرية من البحر ، فكانت المدينة في حصار محكم براً وبحراً ، فضلاً عن أن ابراهيم باشا كان على اتصال مستمر بثغور مصر وسواحلها بواسطة العماره المصرية ، واستطاع أن يتابع الحصار ستة أشهر كاملة ، فابراهيم باشا كان من هذه الوجهة أكثر توفيقاً من نابليون ، على أنه لا يغرب عن البال أن ما أبداه الجنود المصريون من الجأء والصبر على مكاره القتال ، وما امتازت به قيادتهم من الدربه والكفاية ، كل ذلك كان له الفضل الاكبر في ذلك الفتح المبين وقد كان لسقوط عكا تأثير ابهةا عظيم في مصر فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات

أما عبد الله باشا والى عكا فانه بعد أن سلم نفسه تلقاه ابراهيم باشا بالحنافه والاحبال ، وأرسله الى الاسكندرية حيث أحسن محمد على مثواه واسكنه في قصر خصص له وحفه بالرعاية والاكرام (١)

فتح دمشق

١٦ يونيه سنة ١٨٣٢

اعتزم ابراهيم باشا بعد أن أراح جنوده ورتب شؤونهم في عكا أن يمضى شمالاً قاصداً فتح دمشق ، فعادر عكا في يوم ٩ يونيه سنة ١٨٣٢ في جيش مؤلف من ١٨٠٠٠ من المقاتلة منهم ٩٠٠٠ من الجنود النظامية و ٩٠٠٠ من العربان المصريين والبدو السوريين والدروز ، فلما اقرب من دمشق وقعت مصادمة خارج المدينة

(١) يقول الدكتور مشاقه في كتابه (مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) ص ١٠٤ ان عبد الله باشا طلب أن يأذن له محمد على بالذهاب الى الحجاز فذهب اليه ومات هناك

بين الجيش المصرى والجيش العثمانى انهزم فيها الترك، وفرّ الى الشام بجنوده ولم يكن الاهالى معتمدين مقاومة الجيش المصرى لان مساوىء الحكام الاتراك جعلتهم لا يميلون الى المقاومة بل كانوا أقرب الى الرغبة فى تغيير حكامهم فخرج وفد من أعيان المدينة وقابلوا ابراهيم باشا وقدموا طاعتهم ، فدخل المدينة يوم ١٦ يونيه ونصب الجيش خيامه خارج البلد ، واحترم الجنود المصريون أملاك الاهالى وأموالهم ، فكان سلوكهم مدعاة للعجب مما حجب الحكم المصرى الى نفوس السوريين وخاصة حينما قابلوا هذا المسلك بما اعتاده الجيش العثمانى من أنواع الاعتداء المنكرة

وأقام ابراهيم باشا فى دمشق ثمانية عشر يوما ، وحضر صلاة الجمعة فى الجامع الاموى ، ورتب الادارة فيها على نظام جديد فعين أحمد بك اليوسف أحد أعيانها متسلما عليها ، وأنشأ (ديوانا) مؤلفا من عشرين من أعيان المدينة سماء (ديوان المشورة) يختص بنظر دعاوى الرعية والحكومة

واقعة حمص

٨ يولييه سنة ١٨٣٢

جزع الباب العالى لسقوط (شكا) فى يد الجيش المصرى ، وكان يظن أنها ترده خائبا كما ردت نابليون من قبل ، فلما واجهته الحقائق خشى على مركزه أن يتزعزع أمام انتصارات المصريين ، وكان قد أعلن عصيان محمد على (١) أثناء حصار شكا وحشد جيشا مؤلفا من ستين ألف جندى لقتاله وأعد اسطولا من خمس وعشرين سفينة للاقلاع من الدردنيل ومحاربة الاسطول المصرى وعهد بقيادة جيش البر الى السر عسكر حسين باشا قاهر الانكشارية ومنحه

(١) فى اوائل مايو سنة ١٨٣٢

لقب (سردار أكرم) ، وكان من أكفأ قواد تركيا ، وذهب له ولاية مصر وكرت
إذا هو قهر الجيش المصرى ، فلو كتب له الفوز لوقعت مصر في وهدة الفوضى التى
كانت تتردى فيها فى عصر الولاية الاتراك ، ولقضى على الاستقلال المصرى فى مهده ،
ولكن بطولة الجيش المصرى حالت دون وقوع الكارثة ومنعت عودة مصر الى
فوضى الحكم التركى

تقدم جيش حسين باشا ببطء ، فلم يصل إلى مضائق جبال (طوروس) إلا فى
أوائل شهر يولييه سنة ١٨٣٢ ، ولم يشأ قائده أن يتقدم بمجموع جيشه لملاقاة الجيش
المصرى ، بل ظل على مقربة من (انطاكية) وأنفذ محمد باشا والى حلب وتحت إمرة
مقدمة الجيش وأمره بالتحصن فى (حمص)

كان هذا التدبير خطأ حريماً كبيراً ، لأن انفصال المقدمة عن باقى قوات
الجيش وتورطها فى مقاتلة الجيش المصرى يعرضها للهلاك المحتوم ، فلما علم إبراهيم باشا
بهذا الخطأ عزم على مواجهة مقدمة الجيش التركى وسحقها ، ثم مهاجمة باقى الجيش
بعد ذلك ، فتقدم من دمشق زاحفاً على (حمص) ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بقيمة
جنده الذين كانوا بقيادة عباس حلمى باشا وحسن بك المناسترى ، فصارت قوة
الجيش عند ما بلغ (حمص) نحو ثلاثين ألف مقاتل (١) وصار أمام معسكر محمد باشا
والى حلب ، وهناك وقعت الواقعة المشهورة بمعركة حمص (٨ يولييه ١٨٣٢)

تقع مدينة (حمص) على الشاطئ الأيمن من نهر العاصى ، وموقعها غاية فى
الاهمية لأنها ملتحق عدة طرق ، فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوباً ، وطريق
انطاكية وحلب شمالاً

ولقد عسكر محمد باشا قائد الجيش التركى بجنوده على نهر العاصى ، جنوبى حمص وتحت
أسوارها ، ورتب جيشه على صفوف ثلاثة ، فوقف المشاة فى الصف الاول ، تمتد

ميسرتهم على مقربة من ضيعة متهدمة على مسافة نصف فرسخ ، والصف الثاني من خلفهم ، ويتألف من الالين من المشاة وعن يمينهم وشمالهم الالان من الفرسان ، ويليهم الصف الثالث ، ومعظمه من الجنود غير النظامية (الباشبوزق) وتحمل المدفعية جناحه الالين ، أما الصف الأول والثاني فلم يكن يسندهما سوى عدد ضئيل من المدافع ، وهذا من سوء التدبير

أما الجيش المصرى فقد رابط فى مواجهة الجيش التركى على ثلاثة صفوف ، فوقف فى الصف الاول فريق من المشاة يبلغ عددهم ثلاثة الالات ، وعن يمينهم وشمالهم الالان من الفرسان ، وفى الصف الثانى وقف جنود الحرس والمشاة ، يشد أزهم من الجانبين الالان آخرا من الفرسان ورابط الاحتياطى من الفرسان والمشاة فى الصف الثالث

ونصب ابراهيم باشا مدافعه على ترتيب بديع ، فجعل أمام الصف الاول ثلاث بطاريات ، واحدة فى القلب ، وأخرى على اليمين والثالثة على اليسار ، ووضع بين الصف الثانى والصف الثالث ثلاث بطاريات ، أخرى ، وفيها المدافع الثقيلة ، وبينها وبين الاحتياطى مهمات الجيش وأمتعته ، وعلى جانبي الصف الثالث فرسان البدو من العرب الهنادى وغيرهم

يدل هذا الترتيب وحده على دقة فى التدبير وكفاية فى القيادة ، ولو تأملت فى خريطة الواقعة لتبينت بداءة ذى بدء مبلغ الفرق بين قيادة الجيش المصرى وقيادة الجيش التركى

ولقد كان ابراهيم باشا أسرع من خصمه الى رسم خطط القتال ، فبينما كان محمد باشا قائد الجيش العثمانى مترددا فى أى طريق يأخذه ، استقر رأى ابراهيم باشا بعد أن استشار خاصة أركان حربه على أن يكون البادى بالهجوم

فأمر كتائب الفرسان التى ترابط على ميمنة الصفوف الثلاثة بالزحف شرقا لتقوم بحركة التفاف حول ميسرة الترك ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة لان على نجاحها يدور مصير المعركة

فتحرك الفرسان وفقاً لهذه الخطة، واجتازوا الضيعة المتهمة المتقدم ذكرها بنحو
الذين كانوا على مقربة من الضيعة، وكان الهجوم شديداً محكم الوضع، فراجع الترك
أمام قوة الهجوم وشدة الضرب، وتفرقوا بدداً، واحتل المصريون الأرض الواقعة بين
الضيعة وحدائق حصص، ثم تقدم الفرسان الترك النظاميون الذين كانوا يرابطون في
ميسرة الصف الثالث لصدم هجوم المصريين، فأمد إبراهيم باشا فرسانه بقوة من
جنود الحرس والمشاة والمدافع، فأطلق المصريون مدافعهم وبنادقهم على فرسان
الترك فأوقعوا بهم وفارقوا جمعهم، وتراجع هؤلاء إلى حدائق حصص، وهجم المشاة
المصريون من القاب هجومه صادقة فتقتل الترك عن مراكبهم وتقهقروا إلى الوراء
وبذلك انهزم الجناح الأيسر من الجيش التركي بأكله وتخلي عن مواقعه
وقامت ميسرة الجيش المصري بحركة بديعة، ذلك أن فرقة منها زحفت غرباً
واجتازت القناة التي تتفرع عن نهر العاصي، تتبعها المدافع، واحتلت شاطئ القناة
الأيسر، وبذلك سدت الطريق أمام ميمنة الترك، وصار من المتعذر عليهم أن يهجموا
بالحجوم من هذه الناحية

نخرج مركز الجيش التركي أمام هجمات المصريين، وزاد مركزه حرجاً أن المدافع
المصرية كانت تطلق قنابلها بمهارة واحكام، فتصيب الهدف وتحصد صفوف الترك
حصد النبات، في حين أن المدافع التركية كانت منصوبة على غير هدى، وفي
مواضع لا تصيب منها الهدف، فضلاً عن قلة الخبرة والدربة في رمايتها، وقد بقي
الكثير منها منصوباً في مؤخرة الصف الثالث فلم يعمل عملاً في صد هجمات المصريين
ولما رأى محمد باشا قائد الجيش التركي حرج مركزه أمر صفوفه بالهجوم، ولكن
المشاة المصريين من جنود الصف الأول قابلوهم برصاص بنادقهم ففتكت بهم النيران
فتكا ذريعاً وارتدوا على أعقابهم، فوقع الذعر في صفوف الترك وولوا الأدبار مدحورين

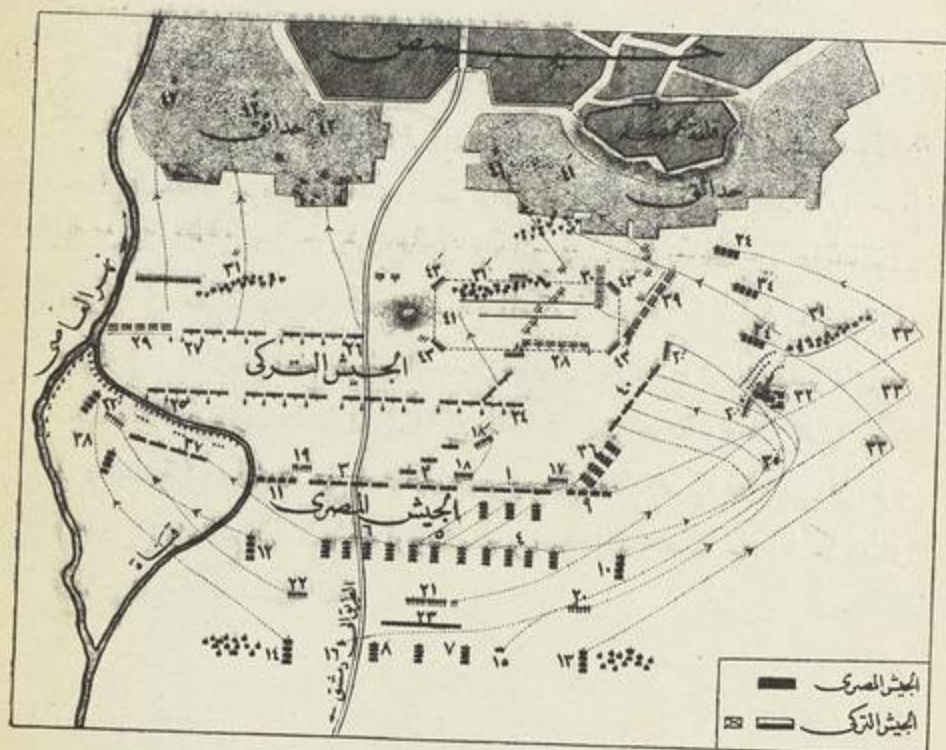
ولقد كان مضمونا أن يعود الترك للقتال بعد أن يلعوا شملهم، إذ كانت قلعة حص تحمي ظهورهم، ومرت لحظة توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال، وزاد هذا الظن رجحانا أن مدافع القلعة كانت تطلق قنابلها، ولكن هذا الظن مالبث أن تبدد، ولم يقوَ الترك بل لم يفكروا في معاودة القتال، وتقدم إبراهيم باشا بجيشه الظافر، فاحتل المواقع التي كان الترك يرابطون بها، وصف جيشه على شكل مربع ووضع المدافع على زواياه الأربع، فازداد مركزه قوة ومنعة، فتابع الترك تهقيرهم منهزمين، وبذلك انتهت واقعة حمص بانتصار الجيش المصري بعد أن دام القتال نحو أربع ساعات إذ بدأت وقت العصر وانتهت عند ما أرخى الليل سدوله، وبأمر إبراهيم باشا فرسل إلى أبيه ينبئه بهذا النصر المبين

بلغت خسائر الجيش العثماني في واقعة حمص ٢٠٠٠ من القتلى و ٢٥٠٠ من الأسرى، واستولى الجيش المصري على عشرين من مدافعه وعلى ذخائره وأمتعته، أما خسائر المصريين فلم تزيد عن ١٠٢ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى، ودخل المصريون في اليوم التالي مدينة (حمص)

وتعد هذه الواقعة من أهم المعارك التي خاضها الجيش المصري، فقد كانت أول معركة كبيرة اقتتل فيها الجيشان المصري والتركي وجها لوجه (١) وكلاهما يتبع بقدر استطاعته النظام الحربى الحديث، وكانت قوات الجيشين متعادلة فكلهما مؤلف من نحو ثلاثين ألف مقاتل، ولكن الجيش المصري امتاز ببراعة القيادة وحسن النظام وبسالة جنوده والتفوق في المراتب العسكرية، فلا غرو أن كسب المعركة

(١) إن حصار عكا وإن كان أسبق من واقعة حمص إلا أنه لا يعد معركة، والمقصود من المعركة اصطدام جيشين في ميدان مكشوف، أما واقعة (الزراعة) فهي وإن كانت أيضا أسبق من معركة حمص إلا أنها لا تعد من المعارك الكبيرة بالنسبة لوقائع حمص وبيلا و قونية ونصيبين

وكان لترتيب الخطط الحربية فضل كبير في انتصاره ، وهنا تبدو كفاية
ابراهيم باشا في القيادة ومهارته في الفنون الحربية
وقد دلت معركة حمص على تفوق الجيش المصرى على الجيش التركى في ميادين
القتال ، فكان لهذه الدلالة تأثير كبير في الأذهان ، لأن أحداً لم يكن يتصور ان
جيش السلطان يهزم أمام الجيش المصرى الذى كان معدودا الى ذلك الحين جزءا
من الجيش « الشاهانى » ، وتلك أول مرة ظهر فيها الجيش المصرى على الجيش
التركى فى معركة كبيرة ، فمحت هذه المعركة ذكرى هزيمة الجيش المصرى فى
معركة (الريدانية) أمام جيوش السلطان سليم فى بدء الفتح العثمانى لمصر ، اى منذ
نيف وثلاثة قرون ، وغسلت الذلة التى لحقتها فى تلك الهزيمة ، واذا كانت معركة
(الريدانية) قد قضت على استقلال مصر وجعلتها ولاية تركية فلا ريب أن معركة
(حمص) والوقائع التى تلتها قد ارجعت لمصر استقلالها وقضت على الحكم العثمانى
فيها فلم تقم له بعد ذلك قائمة



خريطة واقعة حص ٨ يولية سنة ١٨٣٢ وفيها البيانات الآتية

موقع الجيش المصري

- | | |
|--|-----------|
| الصف الأول من المشاة مؤلفا من الألأى الثانى عشر (نمرة ١) ،
والألأى الثالث عشر (نمرة ٢) ، والأألأى الثامن عشر (نمرة ٣) | ١ و ٢ و ٣ |
| الصف الثانى من المشاة مؤلفا من الال الحرس (نمرة ٤) والأألأى
الخامس من المشاة (نمرة ٥) والأألأى الحادى عشر (نمرة ٦) | ٤ و ٥ و ٦ |
| الصف الثالث (الاحتياطى) مؤلفا من الألأى الثامن من المشاة | ٧ - ٨ |

الاي من الفرسان عن يمين الصف الأول	٩
» » » » » » الثاني	١٠
» » » » » » الأول	١١
» » » » » » الثاني	١٢
الفرسان على جانبي الصف الثالث	١٣ و ١٤
كتيبتان من الرماة على جانبي الصف الثالث	١٥ و ١٦
١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ المدافع موزعة أمام الصف الأول وبين الثاني والثالث	
مهمات الجيش وامتعته	٢٣

موقع الجيش التركي

الصف الأول من المشاة	٢٤ - ٢٥
الصف الثاني من »	٢٦ - ٢٧
فرسان الترك النظاميون	٢٨ و ٢٩ و ٣٠
المدافع موزعة هنا وهناك	،،
الفرسان غير النظاميين (الباشبوزق) ومنهم يتألف معظم الصف الثالث	٣١ و ٣١ و ٣١

حركات الجيشين

الضيعة المتهدمة التي اتجهت في طريقها ميمنة الجيش المصري	٣٢
الموقع الذي اتجه اليه الفرسان المصريون للالتفاف بمسرة الترك ومنه تقدموا وهاجموا الفرسان الباشبوزق (نمرة ٣١) قريبا من الضيعة	٣٣
الموقع الذي وصلوا اليه بعد الهجوم المتقدم	٣٤
الموقع الذي تقدمت اليه طواوير الحرس (نمرة ٤)	٣٥
وصول البطارية ٢٠ الى يسار الضيعة واحتلال الرماة المصريين	٢٠
١٥ و ١٦ تلك الضيعة	

- الموقع الذى اتجه اليه الألاى نمرة ١ لشد ازرجنود الحرس ٣٦
 الموقع الذى اتجهت اليه البطارية ١٨ لمعاونة الألاى نمرة ٢ فى ١٨
 هجومه على الترك
 وقد تقدم الألاى نمرة ٥ ليحل محل الألاى نمرة ١ وليشد
 ازرجنود الألاى نمرة ٢ فى هجومه
 الموقع الذى اتجه اليه الألاى نمرة ٦ لشد الطريق أمام ميمنة الترك ٣٧
 الموقع الذى اتجه اليه الألاى نمرة ١٢ ونمرة ١٤ (من الفرسان) ٣٨
 لشد ازرجنود الحركة المتقدمة
 انتقال البطارية نمرة ٢٢ الى موقعها الجديد للغرض نفسه ٢٢
 الموقع الذى تقدم اليه الفرسان الترك نمرة ٣٠ بعد هزيمة الباشبوزق ٣٩
 لصد هجمة الفرسان المصريين
 الموقع الذى وصل اليه جنود الحرس المصريون وعن يمينهم البطارية ٤٠
 ٢٠ وضر بهم فرسان الترك يعاونهم الفرسان من الموقع ٣٤
 ٤١ و٤٢ و٤٣ تقهر ميسرة الترك بعد هزيمتهم
 ٤٢ و٤٣ و٤٤ تقهر ميمنة الترك
 ٤٣ و٤٤ و٤٥ و٤٦ المربع الذى احتله الجيش المصرى بعد هزيمة الترك

الموقف الحربى بعد واقعة حمص

ارتد الجيش العثمانى بعد هزيمته فى واقعة (حمص) قاصداً حلب
 أما جيش حسين باشا فكان قد بلغ (انطاكية) بينما كان جيش محمد باشا
 الى حلب والجيش المصرى على وشك اللقاء فى معركة حمص، وهكذا يتبين لك
 أن انفصال الجيشين العثمانيين بعضهما عن بعض مكن الجيش المصرى من الانتفاض على
 كليهما واحداً بعد واحد، ولو كانت القيادة التركية على شيء من الكفاية لما تقدم

جيش محمد باشا وحده، ولا تنتظر قدوم جيش حسين باشا قبل مواجهة الجيش المصرى، ولكن عجز القيادة التركية وارتباك حكومة الاستانة كانا من الاسباب التى أفضت إلى هزيمة الجيش التركى

بارح جيش حسين باشا (انطاكية) قاصداً إلى حمص، فالتقى في طريقه بقول الجنود المهزومة من جيش محمد باشا، وعرف منهم نبأ هزيمة حمص، فارتد الجميع إلى (حلب) ليتخذوها قاعدة حربية لقتال الجيش المصرى، وطلب حسين باشا من أعيانها أن يمدوه بالموثونة والرجال، ولكن أهالى حلب كانوا كارهين للحكم التركى وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب إذا استهدفت للحرب، فأبوا على الجيش التركى أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول، وأغلقوا أبواب المدينة في وجه الجيش التركى

وفي خلال ذلك كان ابراهيم باشا يتقدم بالجيش المصرى نحو حلب، ولم يجد حسين باشا مكاناً حصيناً يأوى إليه، فانسحب شمالاً إلى مضيق (بيلان) جنوبى الاسكندرونة، وهو أحد مفاتيح سورية من الجهة الشمالية وحصن فيه مواقعه تحصيناً متيناً وساعده طبيعة تلك المواقع على الامتناع بها

واقعة بيلان

٣٠ يولييه سنة ١٨٣٢ (١)

تقدم الجيش المصرى فاحتل من غير مقاومة (حماه) ثم (حلب) ومكث بها بضعة ايام استراح فيها، وجاءته بها وفود من (اورفا) و (ديار بكر) تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على، ثم تاهب لاستئناف الزحف وتابع زحفه حتى صار على مقربة من مواقع العدو في بيلان

كان الجيش العثمانى الذى يقوده حسين باشا مؤلفاً من نحو ٤٥ ألفاً من الجنود

(١) اعتمدنا في بيان يوم الواقعة على رواية كادلفين وبارو ص ٢٠٦

النظامية لديها السلاح السكافي ويعززها ١٦٠ مدفعاً ، وهي قوة لا يستهان بها ترابط في مواقع منيعة ، ولكن قيادتها تعوزها الكفاية والخبرة ، وحالة الجنود المعنوية لم تكن على مايرام ، فان ماحل بالجيش التركي من الهزائم المتوالية وما تعاقب عليه من تغيير القواد واندحارهم قد خذل روح الجنود ، وعلى عكس ذلك كان موقف الجيش المصري فان ذكرى الانتصارات المتتالية قد ملأت جنوده قوة وحماسة وجعلتهم يركنون إلى قائدهم الباسل ابراهيم باشا الذي سار بهم من نصر الى نصر تقع مدينة بيلان جنوبي الاسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها ، ويصل اليها طريقان ، طريق من كليس ، وطريق من انطاكية ، ويقترب الطريقان في سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر ، ثم يلتقيان في المضيق جنوبي بيلان ، فيصبحان طريقاً واحداً يصل الى المدينة ، وترى على الخريطة نقطة تلاقيهما

وقد اتخذ الجيش التركي مواقعه على قمم جبال بيلان ، فاحتشد المشاة فوق هضبة على خط مكسر ، يصل طرفه الأيمن — حيث ميمنة الجيش — إلى طريق وعبر يخترق الجبل ، آتياً من (خان قرووط) ذاهباً الى بيلان ، وطرفه الايسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل إلى بيلان نفسها ، أما ديمرة الجيش فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلي هذا الطريق ، يشد أزرها بعض المدافع المنصوبة على أكمة قريبة من الطريق ، وأقام الترك أمام صفوف المشاة استحكامات نصبوا فيها مدافعهم ، وأماها الفرسان

أما الجيش المصري ، فقد عسكر في السهل المنبسط تحت المضيق ، غربي الطريق الواصل من كليس إلى انطاكية ، وتجد موقعه بالخريطة (نمرة ١ — ٢) ، فتخذ المشاة مواقعهم في الصفوف الامامية ، والفرسان من ورائهم ، والمدفعية في الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهابات الجيش وأمتعته

ذلك هو موقع الجيشين قبيل المعركة

أنعم إبراهيم باشا النظر في مواقع الترك على جبل بيلان ، فأراها منيعة يصعب على الجيش المرباط في السهل المنبسط في سفح الجبل أن ينال منها منالاً ، فاجتمع وخاصة قواده وضباطه ، وأخذ يتداولوا بهم الآراء في الخطة التي تكفل الفوز ، فاستقر رأيهم بعد دراسة الموقف ألا يهاجم الترك مواجهة ، لاستحالة ذلك ، ورأى الخطة المثلى أن يدور حول ميسرتهم من الجانب تمهيداً للاحاطة بها ، ثم يحتلها كما تسلمت على القلب ، فيجعل المشاة الترك هدفاً لنيران المدافع المصرية ، وفي الوقت نفسه يرسل جزءاً من قوته للاحاطة بميمنة الجيش التركي

وعمل بهذه الخطة أنفذ جنود الحرس والألأى الثامن والثامن عشر من المشاة الى طريق كليس — بيلان ، فساروا اليه واحتشدوا وراء أكمة تمتد الى الطريق (نمرة ١٨) ووراءهم الفرسان والمدافع في بطن الوادي غربي الطريق (نمرة ١٩ و ٢٠) ، ثم أخذت كتائبهم تتحرك شرقاً في اتجاه ميسرة الجيش التركي ، تتبعهم المدافع السكافية

وقد تولى إبراهيم باشا بنفسه قيادة هذه الحركة ، لان عليها يدور مصير المعركة ، وأنفذ في الوقت نفسه الألأى الثالث عشر من المشاة بقيادة حسن بك المناستري تصحبه بطارية من المدافع ، فزحف صوب الطريق الآخر الذاهب من انطاكية الى بيلان ، ووصل الى الطريق واحتل الموقع الذي انتهى اليه (نمرة ٢١) ، وتبعه الألأى الخامس من الفرسان لتتألف منه قوة احتياطية له في هجومه على ميمنة الجيش التركي ، فاستقر وراءه (نمرة ٢٢)

كانت هاتان الحركتان ، وخاصة حركة الميمنة التي تولى إبراهيم باشا قيادتها ، تكتنفها مصاعب جمة ، لان المصريين اضطروا أن يسيروا صعداً في طرق وعرة ، فاحتملوا في اجتيازها المتاعب والشدائد الهائلة ، ولما لمح الترك تقدمهم صوبوا اليهم مدافعهم وأطلقوا القنابل عليهم ، فأمر إبراهيم باشا بنصب المدافع وراء الأكمة التي احتشد فيها المشاة ، وأطلق القنابل على وجهة الجيش التركي بين القلب والميسرة ، وتبادل الفريقان إطلاق القنابل

واستمر المصريون في زحفهم شرقاً ، إلى أن تخطوا مواقع الجناح الايسر من الجيش التركي ، فهاجموه من الامام ومن الجنب هجوماً شديداً ، فتقلقل الترك عن مواقعهم واضطروا إلى الارتداد شمالاً ، فابتدأت هزيمتهم ، واستمر المصريون يتعقبونهم .

وفي خلال هذه الحركة استولى الرماة المصريون على المدافع المنصوبة على الأكمة التي تحمي الجناح الايسر (نمرة ١٧) ، ووصل المصريون إلى مرتفعات (نمرة ٢٤) تشرف على مواقع الترك ، وعلى طريق بيلان ، وركبوا فيها المدافع ، فاستهدفت ميسرة الترك في انسحابها إلى نيران المدافع والبنادق المصرية ، فوقع في صفوفها الاضطراب والفشل ، وحلت بها الخسائر الجسيمة .

وتقدم فريق من جنود الألاي الثامن عشر من مكانهم (نمرة ١٨) واقتربوا من فرسان الترك المحتشدين أمام قلب الجيش العثماني ، وهاجموه (بالموقع نمرة ٢٥) وقت احاطة جنود الحرس والألاي الثامن بميسرة الترك فتخرج مركز الفرسان العثمانيين أمام هذا الهجوم الهائل ، وخاصة بعد أن احتل المصريون المرتفعات المشرفة على مواقعهم ، فلم يقاوموا طويلاً ، وسارعوا إلى الارتداد شمالاً نحو بيلان من غير نظام ، وتفرق شملهم وتبددت جموعهم .

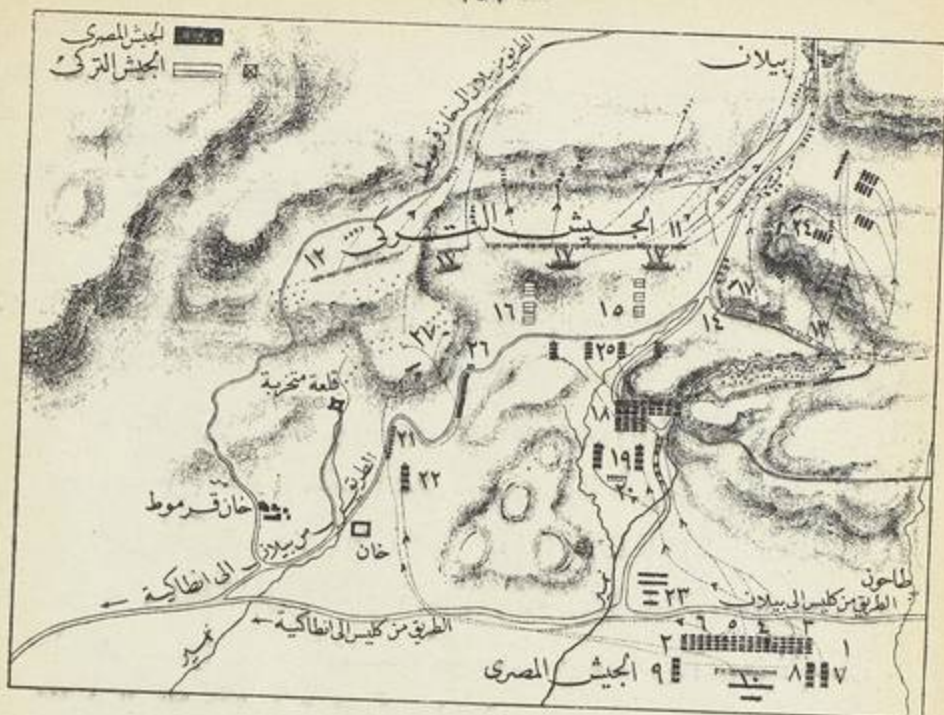
ولما ارتدت ميسرة الترك ووصل المصريون في تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه تخرج مركز قلب الجيش العثماني ، إذ رأى ما حل بالميسرة ، وادرك أن خط الرجعة إلى بيلان أصبح مقطوعاً بوصول المصريين إلى الطريق ، فلم تثبت جموعه أمام هجمة المصريين ، ولاذوا بالفرار ، وتخلوا عن مواقعهم وتشتتوا في الجبال .

وأصاب الجناح الايمن مثل ما أصاب القلب ، فقد تقدم المصريون من جنود الألاي الثالث عشر لمهاجمته ، ووصل رمايتهم ومعهم المدافع إلى أكمة قريبة من أقصى الميسنة (نمرة ٢٧) ، على أن الترك لم يصمدوا للقتال بعد ما علموا بما أصاب الميسرة ، وتخلوا عن مواقعهم وتقهقروا في الجبال .

تخلّى الترك اذن عن مواقعهم على طول الخط ، فاحتلها المصريون ، وبذلك

انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركي بعد قتال دام ثلاث ساعات ، فقد فيه الترك من رجالهم نحو ٢٥٠٠ من قتيل وجريح وأسروا منهم المصريون ٢٠٠٠ أسير وغنموا ٢٥ مدفعا وكثيرا من الدخائر

وبعد انتهاء الواقعة احتل المصريون بيلان تخفق على صفوفهم أعلام النصر والظفر أما الترك ، فقد فرت فلولهم الى الاسكندرونة لتلجأ الى العماراة التركية ، ولكنهم لم يدركوا العماراة اذ أنها أقلعت من الميناء بعد هزيمة بيلان ، فسار المصريون في أعقابهم وأسروا الكثيرين منهم واحتلوا الاسكندرونة ، ثم تقدم فرسانهم وساروا حذاء الساحل واحتلوا (بياس) شمالى الاسكندرونة وأسروا فيها ١٩٠٠ مقاتل من الجيش التركي ، وسلمت ايضا (انطاكية) و (اللاذقية) و (السويدية) كانت نكبة الجيش التركي في هذه الواقعة نكبة ساحقة ، واختفى قائده العام على وجهه متمكرا خوفا من الفضيحة ونجاة بنفسه من القصاص الذى هو لا بد ملاقيه اذا عاد الى الاستانة وفي تبعته هذه الهزيمة



خريطة واقعة بيلان ٣٠ يولية سنة ١٨٣٢ وفيها البيانات الآتية

موقع الجيش المصري

موقع الجيش المصري قبل الواقعة على سفح مضيق بيلان ، غربي الطريق الذهاب من كليس الى انطاكية ، وقد اصطفت قواته بالترتيب الآتى :

- | | |
|-------------------------|---|
| ألاى الحرس | ٣ |
| الالاى الثامن من المشاة | ٤ |
| » الثامن عشر من المشاة | ٥ |
| » الثالث » » | ٦ |

الالاي الثاني من الفرسان	٧
» الرابع »	٨
» الخامس »	٩
المدافع ويليها مهمات الجيش وامتعته تحرسها كتيبة من العرب المصريين	١٠

موقع الجيش التركي (١١ - ١٢ و ١٣ - ١٤)

المشاة الترك منتشرون فوق هضبة على خط منكسر ، تصل يسراه الى طريق انطاكية - بيلان ، ويمناه الى اكمة تقضى الى طريق جبلى يصل من خان قرموط الى بيلان ، ومن هذا الخط يتألف الجناح الايمن وقلب الجيش التركي	١١ - ١٢
الجناح الايسر	١٣ - ١٤
الفرسان الترك	١٥ - ١٦
المدافع منصوبة أمام المشاة	١٧

حركات الجيش المصرى قبيل بدء القتال

وقبيل ابتداء الواقعة اتخذ ابراهيم باشا المواقع الآتية للجيش المصرى	
تحركت جنود الحرس والالاي الثامن من المشاة من مواقعها الأولى (نمرة ٣ و ٤) ووصلت الى الموقع ١٨ وراء الاكمة	١٨
اجتمعت كتائب من الفرسان ببطن الوادى غربى الطريق المذهب الى بيلان بالموقع نمرة ١٩	١٩
المدفعية الاحتياطية وراء الفرسان	٢٠

الاولاى الثامن عشر (نمرة ٥) يتبع الاولاي الثامن والحرس

الثالث عشر من المشاة (نمرة ٦) يتجه نحو الطريق المذهب

٢١

من انطاكية الى بيلان ويحتل الموقع نمرة ٢١ على الطريق

الاولاي الخامس من الفرسان (نمرة ٩) يتبع الاولاي الثالث عشر

٢٢

ويحتشد خلف الموقع (٢١) ليكون له بمثابة الاحتياطى فى هجومه

على ميمنة الترك

بطارية من المدافع تتبع الاولاي الثالث عشر الى الموقع ٢١

نقلت مهمات الجيش الى الموقع ٢٣ تحميها فصيلتان من العرب

٢٣

حركات القتال

زحف جنود الحرس والاولاي الثامن من الموقع نمرة ١٨ الى منبع نهير صغير

للاحاطة بميسرة الترك ١٣ - ١٤ ، وهاجموا الميسرة من الامام ومن الجنب واستولى

الرماة المصريون على المدافع التركية المنصوبة على الالكمة ١٧ ، ووصل المصريون

الى المرتفعات نمرة ٢٤ ، وتحت تأثير الهجوم ارتدت ميسرة الترك بغير نظام الى

بيلان ، وكانت فى انسحابها هدفا لنيران المعريين ، فحلت بها الخسائر الجسيمة

وترى على الخريطة تقدم الاولاي الثامن عشر وفريق من الاولاي الثامن من

الموقع ١٨ الى الموقع ٢٥ لمهاجمة قلب الجيش التركي مع فرسانه وقت احاطة جنود

الحرس والاولاي الثامن بميسرتهم ، وانسحاب الفرسان الترك من الموقع ١٥ و ١٦

وتشتت شملهم ، ثم ارتداد قلب الجيش التركي بغير نظام وتشتته فى الجبال

وترى زحف الاولاي الثالث عشر من المشاة على ميمنة الترك ، فقد تحرك ومعه

عدد من المدافع الى الموقع ٢٦ ، ووصل الرماة الى الالكمة ٢٧ تمهيدا لزحف بقية الجنود ،

ولكن الترك لم يصدوا للقتال بعد ما علموا بما حل بالميسرة ، فتهتمروا فى الجبال

وتخلوا عن معاقلهم كما تخلى بقية الترك عن مواقعهم على طول الخط ، وبذلك

انتهت الواقعة

زحف الجيش المصرى فى الاناضول

اجتاز المصريون بعد واقعة (بيلان) حدود سورية الشمالية، ودخلوا ولاية (ادنه) من بلاد الاناضول، وعبروا نهري (جيحون) و (سيحون) وواحتلوا (ادنه) وطرسوس، وأخذ ابراهيم باشا يوطد مركزه وينظم الولايات التى فتحها قبل أن يزحف بجيشه الى الامام، واحتشد معظم الجيش فى مدينة (ادنه) إذ كانت مفتاح الزحف على الاناضول وكانت أيضا صلة المواصلات بطريق البحرين مصر والجيش المصرى، وانفذ ابراهيم باشا كتائب من جنده فاحتلوا (اورفا) وعينتاب ومرعش وقيصرية

لم تنكسر عزيمه السلطان محمود أمام الهزائم التى حاقت بجيشه، وأعد جيشا جديدا عهد بقيادته الى الصدر الاعظم محمد رشيد باشا (١)، كان هذا الجيش مؤلفا من ٥٣ الف مقاتل (٢) هم خليط من أجناس السلطنة العثمانية لا تربطهم رابطة ولا تجمعهم غاية، فلا غرو أن يفقد الجيش أهم عامل لقوته المعنوية وخاصة اذا كان الجيش الذى يقاومه قويا بوحدة متماسك الصفوف معتزا بقيادته

كان رشيد باشا من خيرة قواد تركيا، لكنه دون ابراهيم باشا فى الكفاية والمران، وقد اشترك معه من قبل فى حروب (الموره) وخاصة أمام مدينة (ميسلونجى)، ومن تهكم الاقدار أن هذين القائدين اللذين اشتركا معا فى ميدان القتال زمنًا ما وكانا يدافعان عن غاية واحدة صارا عدوين لدودين يعمل كل منهما ليسحق الآخر احتشد الجيش التركى فى الامتانة، وعرضه السلطان محمود بنفسه لييث فى قلوب رجاله روح الشجاعة والاقدام، وزوده ببعض الاليات المشاة النظاميين وعدد وافر من المدافع

(١) هو غير مصطفى رشيد باشا الصدر الاعظم فى عهد السلطان عبد المجيد وحاجب الاصلاحات المشهورة

(٢) احصاء كادلفين ص ٢٩٥

ثم تقدم رشيد باشا بهذا الجيش العرمرم في بطاح الاناضول ليلتقي بالجيش
المصرى، وكان ابراهيم باشا يواصل زحفه في الاناضول فانفذ قوة من الجند احتلت
مضيق (كولك) من مضائق جبال طوروس، واقصت عنه الترك، وباحتلال هذا
المضيق ذلت عقبة من أكبر العقبات التي تعترض الجيش المصرى في زحفه على
الاناضول، ثم اعترضتهم عقبة أخرى وهى واد منيع يلى المضيق كان الترك ممتنعين
فيه بالقرب من مدينة (شفيت خان) فانفذ ابراهيم باشا قوة أخرى من الجند بقيادة
سليم بك الحجازى و ابراهيم اغا الجوخدار (١) فهاجموا الترك فى الوادى ونشبت معركة
انتهت بالنسحاب الترك بعد أن فقدوا ٣٠٠ قتيل وثلثمائة أسير، وكذلك امتنع الترك
فى (اولوقشلاق) وهاجمهم فيها المصريون وأجلوهم عنها، وبعد هزيمة الترك فى اولوقشلاق
جلوا أيضا عن هرقله (اركللى) فانفتح الطريق امام الجيش المصرى ووضى فى زحفه حتى
بلغ (قونية) التى أخلاها الأتراك من غير قتال، فتمخذا ابراهيم باشا قاعدة عسكرية
وأخذ يتأهب لملاقاة الجيش التركى ويدرب جنوده على التمرينات فى المواقع
التي توقع نشوب القتال فيها، فكان ذلك دليلا على نفاذ بصيرته وبعد نظره
وبراعته فى القيادة، ولئن كان جيشه أقل عددا من الجيش التركى اذ بلغ نحو
ثلاثين ألف مقاتل (٢) منهم ألف من العرب (البدو) المصريين الا انه يمتاز
بحسن النظام وكفاية القيادة والمران على القتال فى المعارك العديدة التى خاض
عمارها، ولاغرو أن بعثت الانتصارات التى أحرزها فى نفوس الجنود روح الامل
والثقة، فكانت هذه الروح من أقوى اسباب النصر والظفر

(١) كادلفين وبارو ص ٢٤٤

(٢) احصاء مانجان ج ٣ ص ٥١ وابتكار يوس ص ٧٨

واقعة قونية

٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢

في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ وصلت طلائع الجيش التركي بقيادة رءوف باشا الى شمالى (قونية) وكانت مؤلفة فى الغالب من الجنود غير النظامية، فناوشهم ابراهيم باشا ليتحقق مبلغ قوتهم، ولما آنس منهم ضعفا أراد أن يكرهم على القتال، لكن رءوف باشا نجب الدخول فى معركة، فانقضى يوما ١٨ و ١٩ ديسمبر فى مناوشات حربية استولى فيها المصريون على كثير من الاسرى وغنموا فيها بعض المدافع وفى صبيحة يوم ٢٠ ديسمبر تقدمت جيوش رشيد باشا الى قونية، واخذ كل من القائدين يرتب مواقع جنوده

وفى اليوم التالى، يوم الواقعة، كان الضباب يخيم على ميدان القتال من الصباح، فحال دون اكتشاف كل من القائدين موقع الجيش الآخر، على أن ابراهيم باشا كان يمتاز على رشيد باشا بأنه درس الجبهة التى دار فيها القتال دراسة دقيقة، ومرن جنوده على المناورات فيها قبل اشتباك الجيشين

وقد رابط الجيش المصرى شمالى (قونية)، وعلى مقربة من ميمنته شمالا بشرق مستنقعات من المياه، وعلى مسيرة فرسخ من ميسرته تقع مدينة سيه، وامامه الجبال، وعلى سفحها رابط الجيش التركى الذى كان الضباب يحجبه عن انظار المصريين

وكان البرد قارسا، ولاغرو فالمعركة وقعت فى شهر ديسمبر فى أشد ايام الشتاء، فنزلت درجة البرد يوم الواقعة الى ١١ فوق الصفر

واصطف الجيشان فى مواقعهما، يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر، ومرت لحظة خفت فيها وطأة الضباب قليلا، فامكن ابراهيم باشا أن يلمح موقع الجيش

التركي ، وقد رتب خطة الهجوم ترتيبا محكما ، فرأى ان الهجوم على ميمنة الترك امر لا تحمد عواقبه ، لانها مرابطة على سفح الجبل في مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التي كانت تستند الى مستنقعات مكشوفة

وقبل أن يبدأ ابراهيم باشا بالهجوم تقدمت صفوف الترك حتى صارت على بعد نحو ستمائة متر من مواقع المصريين ، وأخذت المدافع التركية تطلق القنابل عليهم ، فلم يجب المصريون على الضرب بضرب مثله ، الى أن تعرف ابراهيم باشا على صوت الضرب مواقع الترك ، وتقدم الصف الثاني من المصريين حتى اقترب من الصف الاول تفاديا من فتك القنابل التركية التي كانت تنصب عليه

واتجه ابراهيم باشا الى بئر (نمرة ٢٣ على الخريطة) تقع على يمين الصف الثاني من الجيش المصري ليزداد علما بمواقع الترك ، وكان يصحبه من خاصة اركان حربيه مصطفى مختار بك^(١) ، وكافى بك ، واحمد افندى^(٢) ، ومعه قوة من ألف وخمسمائة من العرب

وهناك امح مواقع الترك ، وعرف بثاقب نظره نقطة الضعف التي يصيب منها الهدف ، ذلك ان قوة الفرسان كانت تؤلف ميسرة الجيش التركي ، وقد اخطأت القيادة التركية في انها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة اثناء التقدم ، فحدث بينهما ثغرة يبلغ طولها نحو الف خطوة جعلت الميسرة في شبه عزلة عن بقية الجيش (كما تراه على الخريطة)

فانتهز ابراهيم باشا هذه الفرصة ، واعتزم الدخول بقوات الحرس والفرسان في هذه الثغرة ليخترق صفوف الترك ، وبادر فعلا فاصدر تعليماته بتحريك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة ، فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان ، واجتازت البئر

(١) من خريجي البعثات المصرية وقد درس الفنون الحربية بفرنسا ، وهو الذي تولى فيما بعد رئاسة ديوان المدارس اى وزارة المعارف العمومية
(٢) من خريجي البعثات أيضا

بقليل، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجوما شديدا، وشدت المدفعية أزرها، فصبّت قنابلها على الترك وأخذتهم من الجانب، وكان الهجوم شديدا، والضرب محكما، فتقلقل الترك من مراكزهم لشدة الهجوم، وتقهقروا شمالا من غير نظام في المستنقعات، وبذلك انهزمت ميسرة الجيش التركي

ثم تابع المصريون تقدمهم وتوسطوا ميدان المعركة حيث واجهوا الصف الثالث من مشاة الترك الذين اقتحموا الميدان ووصلوا إلى تلك الناحية (نمرة ١٧)، فاصلتهم المدافع ذارا حامية، وأحاط بهم المصريون وضربوهم ضربا شديدا وأوقعوا بهم حتى سلموا سلاحهم

ولما أدرك الصدر الأعظم أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل أراد أن يلم شعنها ويث الحمية في نفوس رجاله فنزل إلى حيث مواقع الجند، لكنه لم يفز بطائل، وضل الطريق لكثرة تكاثف الضباب، وبينما هو يسير على غير هدى وقع في أيدي العرب المصريين، فأحاطوا به وجردوه من سلاحه، واقتادوه أسيرا إلى إبراهيم باشا، وكان قد مضى على نشوب القتال نحو الساعتين

وتابع المصريون من المشاة والفرسان تقدمهم شمالا، واستاقوا معهم بعض المدافع، وهاجموا الصف الرابع من مشاة الترك، فحاق به الهزيمة وسلم وتمزق شمله، وبذلك يم للجيش المصري الفوز على ميسرة الترك والصف الثالث والرابع من مشاتهم

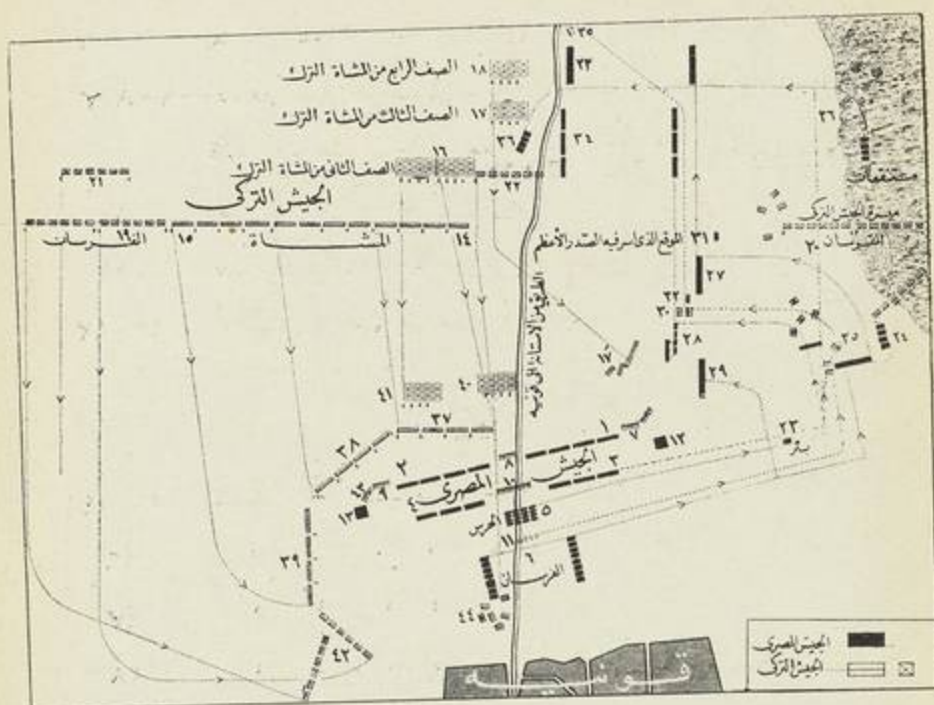
وبينما كانت قوات الحرس والفرسان تقوم بهذه الحركات والهجمات الموقفة تقدم الصف الأول من صفوف الاعداء نحو ميسرة الجيش المصري واتخذوا مواقعهم حولها في خط منكسر بقصد الاحاطة بها، واشترك في هذه الحركة الصف الثاني من صفوفهم، وعاونهم فرسانهم، فكانت الهجمة هائلة، عنيفة في شدتها خطيرة في عواقبها، ولكن ميسرة الجيش المصري تلقتها بثبات وشجاعة، وتحركت مدافع الاحتياط فشدت أزر المدفعية التي تحمي الميسرة، وصبّت المدافع المصرية قنابلها على صفوف الترك، فحصدت صفوفهم حصدا، واستبسلت الميسرة في الضرب

والقتال ، وكان على دفاعها يتوقف مصير المعركة ، واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة ، ثم اسفرت عن كسر هجمة الترك وهزيمتهم وتشيت شملهم في الجبال وكأنا أراد الترك أن يبذلوا آخر جهد في المعركة ، فتحركت قوة من الفرسان ووصلت تجاه الصف الاول من الجيش المصرى ، فلم يحفل بها المصريون لأنها كانت سائرة نحو الفشل المحقق ، فمازالت تتقدم حتى وصلت الى ما وراء صفوف الجيش المصرى ، وهناك تشتت شملها وولت الادبار

انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركى ، ودام القتال فيها سبع ساعات إذ بدأت في الظهر وانتهت بعد غروب الشمس بساعتين ، ولم تزد خسارة المصريين عن ٢٦٢ قتيلًا و ٥٣٠ جريحًا ، أما الجيش التركى فقد أسرقائه ونحو خمسة آلاف الى ستة آلاف من رجاله ، من بينهم عدد كبير من الضباط والقواد ، وقتل من جنوده نحو ثلاثة آلاف ، وغنم المصريون منه نحو ٤٦ مدفعًا وعددا كثيرا من الرايات فلا غرو كانت معركة قونية نصرا مبينا للجيش المصرى ، وصفحة فخار في

تاريخ مصر الحربى

ولقد كانت من المعارك الفاصلة في حروب مصر ، لأنها فتحت أمام الجيش طريق الاستانة إذ أصبح على مسيرة ستة أيام من البوسفور ، وكانت الطريق محلاة لا يعترضه فيها جيش ولا معقل ، فلا جرم ان ارتعدت فرائص السلطان محمود بعد هذه الواقعة إذ رأى قوائم عرشه تنزل أمام ضربات الجيش المصرى وانتصاراته المتوالية



خريطة واقعة قونيه (٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية

مواقع المصريين

- ٢ - ١ الصف الأول من صفوف الجيش المصري يقوده سليم بك المناسترلى
- ٤ - ٣ الصف الثانى بقيادة سليمان بك (باشا) الفرنساوى على بعد ثلثائة خطوة فقط من الخط الأول ، وقد اقترب منه الى هذا الحد بسبب تكاثف الضباب صبيحة يوم الواقعة وتساقط قنابل الترك عليه
- ٥ جنود الحرس يقودهم سليم بك الحجازى (١) ويتألف منهم الصف الثالث

(١) ذكره كادلفين وبارو باسم سليم بك فقط ، ولكن ابكار يوس بك ذكره فى كتابه (المناقب الابراهيمية) ص ٧٦ بلقبه الحجازى

٦ الفرسان يقودهم احمد بك (باشا) المنكلى واحمد بك الاستانبولى
٨٧ و ٩٠ المدافع وقد نصبت فى الميمنة والقلب والميسرة بقيادة سليم بك
قائد الطوبجية

١٠ بطارتان من مدافع الاحتياطى
١١ بطارية من مدافع الاحتياطى مع الحرس
١٢ و ١٣ أورطتان فى هيئة مربعين لحماية الجناحين

مواقع الترك

١٤ - ١٥ الصف الاول من المشاة
» الثانى من » ١٦
» الثالث » ١٧
» الرابع » ١٨
١٩ الايان من الفرسان على يمين الصف الاول من المشاة
٢٠ الايان من الفرسان على يسار الصف الاول من المشاة
٢١ الاى من الفرسان خلف ١٩
٢٢ » » » عن يسار الصف الثانى من المشاة
٢٣ مدافع الترك موزعة أمام صفوف المشاة والفرسان
موقع البئر التى اتجه اليها ابراهيم باشا ليستطلع مواقع الترك
٢٤ الموقع الذى وصل اليه الفرسان المصريون لمهاجمة الجناح الايسر
للجيش التركى بمعاونة جنود الحرس
٢٥ الموقع الذى وصلت اليه المدافع المصرية لشد ازر هذه الهجمة
٢٦ النقطة التى ارتد اليها الجناح الايسر للجيش التركى فى المستنقعات
بعد هزيمته امام هجمة الفرسان المصريين
٢٧ و ٢٨ و ٢٩ المواقع التى وصل اليها المصريون من الفرسان والحرس فى تقدمهم

- واحاطوا بالصف الثالث من المشاة الترك نمرة ١٧ الذى زحف
من موقعه الاصلى الى حيث سلم سلاحه فى الموقع نمرة ١٧
الموقع الذى تقدمت اليه المدافع المصرية الآتية من ٢٦. لتشارك
فى الحركة السابقة ٣٠
- المكان الذى اسر فيه الصدر الاعظم محمدر شيد باشا قائد الجيش التركى ٣١
المكان الذى كان به ابراهيم باشا حينما وقع الصدر الاعظم اسيرا ٣٢
المواقع التى وصل اليها المصريون فى تقدمهم شمالا ٣٣ و ٣٤
الموقع الذى تقدمت اليه المدافع المصرية آتية من الموقع ٣٥
الموقع لذى هزم فيه الأتلى التركى نمرة ١٨ امام هجوم المصريين ٣٦
المواقع التى تقدم اليها الصف الاول من مشاة الترك نمرة ١٤-١٥
للأحاطة بميسرة الجيش المصرى
المواقع التى تقدم اليها الصف الثانى من مشاة الترك نمرة ١٦ ٤١ و ٤٠
للاشتراك فى الحركة السابقة
المواقع التى تقدم اليها الفرسان الترك نمرة ١٩ و ٢١ للاشتراك ٤٢
فى الحركة السابقة
انتقال المدفعية المصرية من الموقع ١٠ وانضمامها الى مدافع الجناح ٤٣
الايسر حيث اشتركت فى كسر هجمة الترك وتشتيت شملهم
المواقع التى تقدم اليها الفرسان الترك نمرة ٢٢ حيث تشتت شملهم ٤٤

حركات الاسطول المصرى

كان للاسطول المصرى فضل كبير فى معاونة الجيش خلال الحرب السورية من مبدئها الى منتهاها ، فان هذه الحرب لم تقتصر على البر بل تعدته الى البحر ، وانا ذا كرون هنا ما قام به الاسطول من الاعمال الجليلة التى ساعدت الجيش على بلوغ النصر

اشترك قسم من الاسطول فى حصار عكا كما قدمنا ، فقد أصدر ابراهيم باشا تعليماته الى سر عسكر الدونمة المصرية الاميرال عثمان نور لدين بك بضرب قلاع عكا من البحر ، فتقدم الاسطول (ديسمبر سنة ١٨٣١) واصطفت سفنه امام حصون المدينة وأخذت تضربها بالمدافع

كان عدد هذه السفن تسع بوارج ، ثقل ٣٨١٠ من البجارة ، وسلاحها ٤٨٤ مدفعاً ، وهذه اسمائها كما ذكرها اسماعيل باشا سرهناك (١) ، وهى الفرقاطة (كفر الشيخ) وعليها القومندان برسيك الانجليزى ، والفرقاطة (الجعفرية) وقومندانها برغمه لى احمد قبودان وعليها علم الاميرال الأول قائد الاسطول ، والفرقاطة (البحيرة) وقومندانها عبد اللطيف قبودان (الذى صار باشا وتولى نظارة البحرية فيما بعد) وتحمل علم الاميرال الثانى مصطفى مطوش باشا ، والفرقاطة (رشيد) وعليها السيد على قبودان ، والفرقاطة (شير جهاد) وعليها نورى قبودان ، والفرقاطة (دمياط) وعليها هدايت محمد قبودان ، والفرقاطة (مفتاح جهاد) وعليها مصطفى قبودان الجزائرى ، والسفينة (بومبه) وعليها بيجان قبودان ، والسفينة (رهبر جهاد) وعليها على رشيد قبودان

أخذت هذه البوارج تطلق مدافعها على حصون عكا طول النهار ، ولكنها لم تصبها بضرر يذكر لمتانتها ، ثم رست مع باقى سفن الاسطول التى لم تشترك فى

(١) فى كتابه (حقائق الاخبار عن دول البحار) ج ٢ ص ٢٤٥

الضرب، وأصيبت بعض السفن المصرية باضرار اضطرتها الى العودة للاسكندرية وكان للاسطول المصرى جولات مهمة على ظهر البحار خلال الحرب، فقد تلقى محمد على باشا من إحدى سفن العماره المصرية فى شهر يونيه سنة ١٨٣٢ نبأ خروج الاسطول التركى من الدردنيل بقيادة الاميرال خليل باشا رفعت ليشارك فى القتال، وكان مؤلفا من خمس وثلاثين سفينة حربية، فصدر تعليماته الى العماره المصرية بالاقلاع الى بحر الارخبيل لتبحث عن الاسطول العثمانى وتقاتله، فسارت الى مياه رودس وكان الاسطول العثمانى قد اتجه فى ذلك الحين الى ثغر الاسكندرونة لامتداد الجيش التركى بالرجال والمؤونة والعتاد

فلما وصل الى الاسكندرونة كانت الهزيمة قد حلت بالجيش التركى فى حمص، ثم وقعت هزيمة (بيلان)، فعاد ادراج، وأقلعت سفنه الى جزيرة رودس تاركة كميات كبيرة من المؤونة لم يستطع الترك حملها لما كانوا فيه من العجلة

أما العماره المصرية فكانت مؤلفة من سبع وعشرين سفينة حربية معقودا لواؤها للأمرال عثمان نور الدين باشا، فسارت تخرج العباب باحثه عن الاسطول العثمانى، واجتمع الاسطولان بعد واقعة (بيلان) فى مياه قبرص، ومع أن الاسطول التركى كان أكثر عددا وعددا من العماره المصرية فإن قبودانه تجنب الاشتباك فى قتال مع الاسطول المصرى، وخشى أن يلحقه البوار اذا اصطدم به، فأثر أن يلزم خطة الدفاع، وأخذ الأمرال عثمان نور الدين باشا من ناحيته يرقب حركات الاسطول العثمانى، دون أن يسعى لمهاجمته، وبقي الاسطولان طويلا فى هذا الموقف، الى أن سار الأمرال الاسطول التركى الى ميناء (مرمريس) من ثغور الاناضول ليأوى اليها فتعقبته، العماره المصرية، وحاصرت الميناء، ولكن هياج البحر واشتداد الانواء فى ذلك الفصل من الشتاء حالا دون استمرار الحصار، فالتج نور الدين باشا بالعماره المصرية الى خليج السوده بجزيرة كريت، وبعد أن بقى الاسطول التركى فى ثغر مرمريس عشرين يوما اقلع الى مياه الدردنيل ثم رجعت العماره المصرية الى الاسكندرية

وقد كان للأسطول المصري عامة فضل كبير في تسهيل المواصلات البحرية بين مصر وسورية ولولاه لما وجدت مصر من سبيل الى امداد جيشها إلا بطريق البر المحفوف بالمتاعب والاختار، ولتعذر عليها الاتصال به وبالبلاد التي فتحتها، فللأسطول المصري فضل كبير في نجاح الحملة على سورية

المسئلة المصرية

وتدخل الدول

استرعت انتصارات الجيش المصري أنظار الدول الاوروبية، وفتحت باب المسئلة المصرية على مصراعيه

ان المسئلة السياسية العالمية المعروفة بالمسئلة المصرية بدأت تظهر - في تاريخ مصر الحديث - منذ الحملة الفرنسية، فمن ذلك العهد اتجهت المطامع السياسية الدولية الى مصر، وتعددت المنازع في شأن مصيرها، فالحملة الفرنسية أول مشار للمسئلة المصرية إذ أنها كانت صراعاً، بين فرنسا وانجلترا على فتح مصر واستعمارها، أما قبل ذلك فإن التنافس بشأنها كان في الغالب تنافساً اقتصادياً، فلما جرد نابليون حملته على مصر تحول الى صراع سياسي، وأخذت مطامع انجلترا تتجه نحو فتح مصر والسيطرة السياسية عليها، ولقد رأيت مما فصلناه في الجزأين الأول والثاني ان الصراع بين فرنسا وانجلترا بشأن المسئلة المصرية استمر طوال الحملة الفرنسية، وبعد انتهائها، وان انجلترا لم تكن تحارب فرنسا لاجلها عن مصر فحسب، بل لتحل فيها محلها ولكي تحقق مطامعها السياسية والاستعمارية في وادي النيل (١)

(١) انظر الجزء الاول ص ٦٣ والجزء الثاني ص ١٢٨ وص ٤٣٤

واستمرت المسئلة المصرية مثارا للمطامع الانجليزية منذ اسس محمد علي الدولة المصرية الحديثة ، فلما اشتبكت مصر وتركيا في الحرب السورية اقترنت المسألة المصرية بالمسئلة الشرقية ، فاشتدت المنازعات الدولية بشأنها وانبعثت المطامع القديمة التي كانت تسعى لها كل دولة حيال السلطنة العثمانية

فالروسيا نظرت بعين الخوف والوجل الى تقدم الجيش المصرى واقترابه من عاصمة تركيا ، وخشيت اذا اطرَد هذا التقدم أن يستولى محمد علي باشا على عرش السلطنة ويمد نفوذ الدولة المصرية الى ضفاف البوسفور والدرديل والبحر الأسود فيؤسس دولة قوية تقوم على انقض السلطنة العثمانية المتداعية الاركان المحتلة النظام ، وليس ممما يوافق سياسة روسيا أن يقع هذا الانقلاب لانه يحول دون تحقيق اطماعها في الوصول الى البواغيز والبحر الابيض المتوسط ، فبادرت الى التدخل لمعاونة تركيا ، وأوفدت الجنرال مورافيف Mouravief الى السلطان محمود ليعرض عليه استعدادها للدفاع بقواتها البرية والبحرية عن السلطنة العثمانية ، ومعنى هذا الدفاع من روسيا بسط حمايتها الفعلية على تركيا ، فهال فرنسا وانجلترا أمر هذا التدخل وخشيا على سياستهما ومصالحهما ان تستهدف للخطر اذا بسطت روسيا حمايتها أو نفوذها في تركيا ، واتقاء لهذا الخطر بذلتا جهودهما لوقف تقدم الجيش المصرى حتى لا تجرد روسيا مسوغا لحماية تركيا ، ففرنسا وانجلترا لم تقصدا من تدخلهما في المسئلة المصرية والمسئلة الشرقية مصلحة مصر ولا مصلحة تركيا ، بل كانتا تعلمان لتحقيق اغراضهما الذاتية

واستخدمت فرنسا علاقاتها الودية مع مصر لاقتناع محمد علي باشا بتسوية الخلاف بينه وبين السلطان ، وأوفدت الى الاستانة الاميرال روسين Rotissin سفيرا لها ليسعى في فض الخلاف بين تركيا ومصر ويمنع التدخل الروسى وبذلك صارت مصر قبله انظار الدول الاوروبية ، إذ كان مناط آمالهن اقناع محمد علي باشا بتسوية الخلاف مع تركيا حتى لا يؤدي تدخل روسيا الى أزمة أوروبية قد تنتهى بتحكيم السيف بينهن

فعلى خطة مصر في ذلك الحين كان يتوقف التوازن الأوربي ، من أجل ذلك وفدت رُسُل التفاهم إلى محمد علي باشا من كل صوب

فجاء الجنرال مورافيف إلى الاسكندرية ، وقابله وعرض عليه الوساطة بينه وبين السلطان ، فأكرم محمد علي وفادته وأحسن لقاءه ، ولكنه تمسك بوجبة نظره

وكذلك أرسل السلطان بإيعاز من السفارة الفرنسية مندوبا عنه وهو خليل باشا ليفاوض محمد علي في حسم الخلاف وديا وأرسل الأميرال روسان إلى محمد علي يطلب إليه ألا يشتط في طلباته حقنا للدماء ، وإن يكتفى من فتوحه بولايات صيدا (عكا) وطرابلس والقدس ونابلس

فرفض هذه الشروط وأصر على ضم سورية وولاية أدنه إلى مصر ، وقد أصر على الاحتفاظ بأقليم أدنه وهو صميم الاناضول لما اشتهر عنه من كثرة مناجحه ووفرة أخشابه ، ولأنه ينتهي بحبال طوروس التي أراد محمد علي جعلها الحد الفاصل بين مصر وتركيا ، أما تركيا فقد ازدادت خضوعا للروسيا ورضيت أن تحميها بقواتها البحرية والبرية ، فجاء اسطول روسي ورسا في مياه البوسفور ، ونزلت قوة من الجنود الروس إلى الشواطئ التركية الاسيوية لتدفع غزوة الجيش المصري

وقدر أي محمد علي باشا أن الدول إنما تسعى إلى هضم حقوق مصر إرضاء لتركيا ، فوقف تجاهها موقفا مشرقا استمسك فيه بحقوق مصر ، وبعث في هذا الصدد برسائل عدة تدل على قوة يقينه ومضاء عزمته وأهمها الخطاب الذي أرسله إلى البارون روسين سفير فرنسا في الاستانة بتاريخ ٨ مارس سنة ١٨٣٣ ردا على رسالته إليه ، قال فيه

« تلقيت رسالتكم المؤرخة ٢٢ فبراير التي تسلمتها من ياوركم والتي تعترضون فيها على وتعلنونني بأن لاحق لي في المطالبة بما عدا بلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام ، وأن الواجب على أن اسحب جيشي فورا ، وتندرونني بأنني في حالة الرفض استهدف لأخطر العواقب ، وقد أضاف ياوركم شفويا بناء على

تعليماتكم بانى اذا بقيت متمسكا بمطالبي فسيجىء الاسطول الانجليزى والروسى الى سواحل مصر

على انى يا جناب السفير اتساءل باى حق تطلبون منى هذه التضحية ؟ ان امى باجمعها تؤيدنى فى موقفى ، وان فى استطاعتى بكلمة منى ان احرض شعوب الروملى والاناضول على الثورة فيلبوا ندائى ، ويمكننى بتأييد امى ان افعل اكثر من ذلك ، لقد امتدت سيطرتى على اقطار عدة ، والنصر حليفى فى كل الميادين ، ومع ان رأى العام يؤيدنى فى امتلاك سورية باكملها فانى قد وقفت زحف جنودى رغبة منى فى حقن الدماء ولكى يتسع الوقت أمامى لأتعرّف ميول الدول الاوروبية ، ومقابل هذا الاعتدال وحسن النية وتلك التضحيات العديدة التى بذلتها امى ، والتى نلت الانتصارات الباهرة بفضلها وبفضل تأييدها لى ، تطلبون منى ان اتخلى عن البلاد التى فتحتها وان انسحب بجنودى الى منطقة صغيرة تسمونها ولاية ! اليس فى هذا حكم على بالاعدام السياسى ؟

« على أن لى ملء الثقة الا تأبى فرنسا وانجلترا الاعتراف بحقوقى ومعاملتى بالانصاف فان ذلك مرتبط بشرفهما ، واذا خاب أملى فليس أمامى الا ان اذعن لقضاء الله ، وهنالك اوثر الموت الشريف على احتمال النذل والعار ، وسأبذل نفسى بكل ابتهاج فداء لقضية امى ، مغتبطا بخدمة بلادى حتى آخر نسمة من حياتى ، ذلك ماصممت عزمى عليه ، وقد روى التاريخ امثلة عديدة لمثل هذا الاخلاص ، ومهما يكن فان لى وطيد الامل فى انكم ستقدرون عدالة مطالبى وتؤيدون اقتراحاتى الاخيرة التى قدمتها الى خليل باشا ، وفى انتظار تحقيق هذا الامل قد كتبت لكم هذا الخطاب الودى الذى تسلمه منى ياوركم يدأ بيد (١)

الاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٨٣٣

محمد على

والى مصر

(١) كادلفين وبارو ص ٢٧٥

احتلال كوتاهيه ومغنيسيا

وإقامة الحكم المصري في أزمير

وفي غضون ذلك تقدم ابراهيم باشا بجيشه فاحتل (كوتاهيه) وصار على مسافة خمسين فرسخا من الاستانة ، ثم أنفذ كتيبة من الجنود احتلت (مغنيسيا) بالقرب من أزمير (انظر الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، وأنفذ رسولا إلى أزمير ليقم الحكم المصري بها ، وقد وصل الرسول اليها ولم يلق بها مقاومة ، وغزل حاكم المدينة (طاهر بك) وأقام بدلا منه أحد أعيانها منصور زاده (فبراير سنة ١٨٣٣) ، ورحبت المدينة بهذا الانقلاب ، ولكن الاميرال رؤسين سفير فرنسا في الاستانة تدخل في الأمر حتى لا يستفحل النزاع وتتخذ روسيا احتلال أزمير ذريعة الى حماية تركيا ، فأرسل إلى ابراهيم باشا يعترض على ما فعله رسوله في أزمير وينذره بقطع العلاقات ، فلم يسع ابراهيم باشا إلا الاجابة بأنه لا يقصد احتلال أزمير ، وبذلك انتهى الخلاف ، وعاد الحاكم القديم إلى منصبه (مارس سنة ١٨٣٣)

اتفاق كوتاهيه (ابريل - مايو سنة ١٨٣٣)

بذات فرنسا جهدها لحسم الخلاف بين محمد علي وتركيا ، وجدت مسعاها بين الفريقين ، وكان ابراهيم باشا يتهدد تركيا بالزحف على الاستانة إذا لم تجب مطالبه ، فاضطر الباب العالي إلى الأذعان وأرسل إلى كوتاهيه ، حيث كان ابراهيم باشا يقيم بها ، مندوبا عنه يهدي رشيد بك (١) يصحبه البارون دي فارين سكرتير السفارة الفرنسية ليقوم بالوساطة بين الطرفين ، وبعد مفاوضة دامت أربعة أيام تم الاتفاق على

(١) هو الذي صار فيما بعد الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا صاحب الإصلاحات المشهورة في عهد السلطان عبد المجيد

الصلح في ٨ ابريل سنة ١٨٣٣ ، وهو المعروف باتفاق كوتاهية ، ويقضى بان يتخلى السلطان لمحمد على عن سورية واقليم ادنه ، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز ، مقابل ان يجلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الاناضول

وقد صدرت « التوجيهات » السلطانية بمضمون هذا الصلح ، وارسل الصدر الاعظم الى محمد على وثيقة مكتوبة (١) بفحوى هذه التوجيهات ، وفيها اسناد ولاية سورية اليه والحقا بولاية مصر وكريت

ولكن هذه التوجيهات كان ينقصها اقليم ادنه ، فبان من ذلك ان الباب العالى اراد الرجوع عن اتفاق كوتاهية بالنسبة لهذا الاقليم ، وقد بقيت المسألة موضع خلاف بين الطرفين ، ووقف ابراهيم باشا جلا. الجيش حتى ينفذ الباب العالى ماتم الاتفاق عليه ، فلم يسع السلطان الا ان يسلم بالتنازل عن ادنه ، واصر فرمانا في ٦ مايو سنة ١٨٣٣ بمضمون الاتفاق بتمامه ، اعلن فيه تثبيت محمد على باشا على مصر وكريت واسناد ولايات سورية اليه ، وتجديد ولاية ابراهيم باشا على جدة مع مشيخة الحرم المكي أى اسناد إدارة الحجاز إلى عهده ، ونحويه إدارة اقليم ادنه (٢)

(١) مذكورة صورتها الفوتوغرافية باللغة التركية في كتاب (خلاصة الوثائق

التركية في مصر) للمسيو جان ديني Deny لوحة نمرة ٢٣

(٢) في الفرمان أنه خول تحصيل أموال الجباية فيها ، ومعنى هذا إدارة الولاية فعلا كما يستفاد من المخابرات الدولية التي تبودلت في هذا الصدد ، وقد أورد البارون دى تستا في كتابه (مجموعة معاهدات الباب العالى ج ٢ ص ٣٧٧) رسالة المسترماند فيل سفير انجلترا في الاسطانه الى اللورد بالمرستون وزير خارجيتها بتاريخ ٤ مايو سنة ١٨٣٣ ينبئه فيها « بأن السلطان خول ابراهيم باشا إدارة ولاية ادنه باسناد تحصيل أموال الجباية فيها الى عهده » ، وكذلك رسالة ابراهيم باشا الى السلطان يشكره فيها على « اسناد حكومة ادنه اليه » ، ولذلك كان الحكم المصرى في اقليم ادنه لا يختلف في حدوده ومظاهره عن مثيله في الاقاليم السورية

وبمقتضى اتفاق (كوتاهيه) صارت حدود مصر الشمالية تنتهى عند مضيق (كولك) بجبال طوروس، ويسمى بواغاز كولك تبعاً لتسمية الترك المضائق بالبواغيز (وترى موقعه على الخريطة)

وبذلك انتهت الحرب السورية بتوسيع نطاق الدولة المصرية وبسط نفوذها على سورية وادنه وتأييد سلطتها على كريت وجزيرة العرب

ولا يعزب عن البال أن السلطان لم يقبل اتفاق كوتاهيه إلا مرغماً، وكان يضمن السعى لنقضه إذا تهيأت له الفرصة في المستقبل، يدلك على ذلك أنه لم يكدم يقر صلح (كوتاهيه) حتى عقد سرا مع روسيا المعاهدة المعروفة بمعاهدة هنكار أسكله سى (٨ يولييه سنة ١٨٣٣) وهى معاهدة دفاعية هجومية التزمت كل دولة بمقتضاها أن تساعد الدولة الأخرى إذا استهدفت لخطر خارجى أو داخلى، وتعهدت تركيا بأن تأذن للأسطول الروسى بالمرور من البحر الاسود إلى البحر الابيض المتوسط، وتسد البواغيز في وجه جميع السفن التابعة للدول الأخرى، ومؤدى هذه المعاهدة تخويل روسيا مديدها في شؤون تركيا وبسط حمايتها الفعلية عليها، وهذه المعاهدة لم يبرمها السلطان على ما فيها من مهانة لتركيا إلا ليسعى في نقص اتفاق كوتاهيه، لأن تركيا لم تكن مهتدة في ذلك الوقت بخطر خارجى أو داخلى إلا من ناحية مصر، فابرام (معاهدة هنكار اسكله سى) غداة اتفاق كوتاهيه معناه أن تركيا لم تكن خالصة النية في ابرام هذا الاتفاق ولا في إقراره

الحكم المصري في سورية

دخلت الشام في حكم الدولة المصرية بعد صلح (كوتاهيه) الذي توج انتصارات الجيش المصري، وأصبحت مصر المرجع الأعلى لحكومة الشام، وصار إبراهيم باشا حاكماً عاماً للبلاد السورية وقائداً عاماً للجيش المصري

نظام الحكم المصري فيها

وأخذ إبراهيم باشا في تنظيم سورية وتسيير أمورها الادارية والسياسية والحربية فعنى بإقرار الأمن والنظام في ربوعها، وأمن الطرق ومنع اعتداء البدو على غلات الاهالى وأملاكهم وأرواحهم وأخذ من الوجهة الحربية عنى بتوطيد مركز مصر في سورية، فأمن حدودها الشمالية وعنى بتحصين مضائق جبال طوروس لصدد هجومات الترك إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام، ورم حصون عكا وأسوارها، وشيد الشكنات والمستشفيات، وخطط الطرق الحربية، واستقرت الحاميات المصرية في أهم المدن السورية وبلغ عدد الجيش المرابط في سورية نحو سبعين ألف مقاتل رابط معظمه في الجهات الشمالية القريبة من الحدود التركية واتخذ إبراهيم باشا مقره العام في (انطاكية) لموقعها الحربي وقربها من التخوم الشمالية

وعين محمد شريف بك (باشا) (١) حاكماً عاماً على سورية سنة ١٨٣٢ (٢)، ولقب

(١) هو الذي صار وزير مالية مصر في اواخر عهد محمد علي، وهو غير شريف باشا الكبير رئيس الوزارة في عهد توفيق باشا وصاحب المواقف المشهودة في التمسك بالسودان (٢) العدد ٤٥٥ من (الوقائع المصرية) الصادر في ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٤٨ (نوفبر سنة ١٨٣٢)

« حكامدار عربستان » وظل في معظم سنوات الحكم المصري يتولى ادارة الايلات السورية جميعها

وجعل سليمان باشا الفرنساوى على ايلة صيدا (عكا) ، وعين اسماعيل بك سنة ١٨٣٨ حاكما لولاية حلب ، وعين محمود نامى بك أحد خريجي البعثات المصرية محافظا لبزوت وبقى في هذا المنصب من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٠

وجعل على ادارة الشؤون المالية حنا بك بحرى أحد أعيان السوريين فصار صاحب النفوذ الاكبر في ادارة شؤون الحكومة وأحوالها المالية ، وقد ذكر المسيو جومار أن تعيين أحد السوريين الاكفاء في هذا المنصب الكبير دليل على رغبة ابراهيم باشا في اسناد كبار المناصب الى ابناء البلاد ، وهو ما لم يكن مألوفاً في عهد الادارة التركية ، وقال الدكتور مشاقه (١) ، وهو معاصر للحكم المصري

« لم يمس على حصار عكا زمان حتى ارسل محمد على تفويضا الى حنا البحري في سن النظامات لحكومة سورية على النمط الحديث ، وكان حنا البحري على جانب عظيم من اصاله الرأي ، وله القدر المعلى في السياسة المدنية ، وكان العدل والانصاف شأنه والنزاهة زمامه ، لا فرق عنده بين القوى المتري والضعيف الفقير أو المسلم والذمي ، وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد على باشا الذي كان عارفا ان لا قيام للدولة الا بالعدل والانصاف »

وعين ابراهيم باشا لكل بلد متسلما أى حاكما يتولى ادارتها

وألف في كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين الف نسمة مجلسا يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و ٢١ عضوا ينتخبون من بين نهباء (أعيان) البلد وتجارها ، وتنظر هذه المجالس في مصالح كل بلدة ومطلوبات الميرى واليهما ترفع بعض الدعاوى للفصل فيها

(١) في كتابه (مشاهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) ص ١٠٢

ووجد الادارة ووطد سلطة الحكومة المركزية ، وأبطل سلطة الامراء والرؤساء
الاقطاعيين وخضد شوكتهم ، وضرب على أيدي الاشقياء وقطاع الطرق ، وبسط
رواق الامن في البلاد ، ونظم طرق الجباية ، وعامل الاهلين بالعدل والمساواة من
غير تفريق بين الطبقات والمذاهب والاديان ، وكان ذلك من أجل أعمال الادارة
المصرية في سورية

ونشطت التجارة والزراعة في عهد الحكم المصري ، فعمم ابراهيم باشا تربية
دود القز (الحرير) وأكثر من غرس أشجار التوت لهذا الغرض ، وغرس في ضواحي
انطاكية أشجار الزيتون ، وازدهرت زراعة العنب ، وعنى باستخراج بعض المعادن
ولاسيما الفحم الحجري في لبنان ، وراجت التجارة واتسع نطاقها ، وكثرت المعاملات
بين سورية ومصر والبلاد الاوربية

وقد كان دخل الولايات السورية أقل من الخرج أى أن غلاتها تقل عن
نفقاتها ، وخاصة لما يقتضيه الانفاق على الجيش الموزع على المدن من المال ، فكانت
الخزانة المصرية توازن بينهما فتسد عجز الميزانية ومحتمل مصر هذا الغرم في مالها
كانت الادارة المصرية في سورية رغم ما بها من عيوب أصلح من الحكم
التركي السابق ، وحسب هذه الادارة فضلا أنها أقرت الأمن في البلاد واستنقذتها
من الفوضى

ويكفيك لتتحقق مبلغ تقدم الادارة السورية في عهد الحكم المصري أن تقرأ
ما كتبه مؤرخو سورية في هذا الصدد

قال الاستاذ محمد كرد علي بك رئيس الجمع العلمي العربي بدمشق (١) خلال
كلامه عن الفتح المصري

« كان من أول أعمال ابراهيم باشا الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية

والعسكرية، واقامة مجالس الشورى وغيرها من النظم الحديثة، وترتيب المالية ، فجعل نظاما لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الامراء والمشايع وأرباب النفوذ أن استنقلوا ظل الدولة المصرية ، وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالخلة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء ، وينالهم من ذلك مصة الوشل ، مع أن البلاد رأت في أيام ابراهيم باشا ابطال المصادرات ونقير حق التملك ، وتوطد الأمن في ربوعها ، واهييت الزراعة والتجارة والصناعة ، وعمت تربية دود القز (الحرير) ، واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل (لبنان) ، وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيسا يتقاضى الامير ضعفها ويدخر في خزائنه الخاصة المال الزائد على المفروض

« وأ كد كثيرون أن بعمله هذا استعادت أ كثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من أعمال الشام عمرانها القديم ، وأخرب بعض القلاع التي كان يعتصم فيها الثائرون أحيانا مثل قلاع جبل اللسكام وقلعة القدموس ، وقرب العلماء والشعراء ، ورخص للأجانب في ارسال معتمديهم الى دمشق ، وكانوا يمنعون من دخولها قبله فيتزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس ، ويقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد على في الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقيم ابنه ابراهيم عملا بابعاز أبيه بتجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الاهلين بالضرائب ، وأقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشا وأعظمها خمسمائة قرش ، فان هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل أهل حلب وأهل دمشق »

وقال الدكتور اسد رستم احد اساتذة التاريخ بجامعة بيروت الامريكية لمناسبة الكلام عن محمود نامى بك محافظ بيروت في عهد ابراهيم باشا

« لما عزم عزيز مصر على ارسال بعض ضباط بحريته الى فرنسا وانجلترا لاتمام علومهم وممارسة الفنون الحربية انتخب حسن افندى الاسكندراني وشان افندى والامير محمود نامى وارسلهم الى فرنسا ، فلتقى محمود علومه العالية وتخصص في الرياضيات ، ولما رجع من فرنسا عينه محمد على باشا محافظا على بيروت وابقاه

في هذا المنصب سبع سنوات (١٨٣٣ - ١٨٤٠) تنشقت بيروت في خلالها نسيماً منعشاً من الغرب المتمدن ، فاستيقظت من سبات العصور الوسطى ، وخطت خطواتها الاولى في سبيل رقيها الحديث ، وكان محمد علي باشا وابنه ابراهيم وعامله الامير محمود نامى لبيرت اول العثمانيين الذين اخذوا الافكار الحديثة فيما يتعلق بالحكومة والادارة ، وهم اول من وضعها موضع الاجراء والتنفيذ ، نعم ان سلطتهم في بيروت كانت مطلقة ولكنهم احكموا التدبير واجمعو اعن الحكم الاستبدادى فشكّلوا في هذه المدينة من سكانها مجالس تباحثوا مع اعضائها في جميع أعمالهم المتعلقة بالحكومة ، فكان هناك مجلس للمشورة يدعى مجلس شورى بيروت ، وديوان للصحة وآخر للتجارة (١) »

وقال سليمان بك أبو عز الدين أحد أدباء سورية (٢)

«على انه لا يسع المنصف الا الاعتراف بان المبادئ التى شاء محمد علي ان يؤسس عليها الادارة والقضاء فى سوريا كانت صحيحة بوجه عام ، لانها كانت ترمى الى تنظيم الاعمال وتوزيع الاختصاص بين هيئات مختلفة ، ومنع الاستبداد بتقييد الاحكام وغيرهم من الموظفين بالنصوص القانونية ، وتدريب الأهلىن على ادارة شؤونهم المحلية ، غير ان جهل الاحكام كيفية تطبيق القوانين وفطرتهم الاستبدادية وعدم وجود مراقبة فعالة على اعمالهم وعدم مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها وكثرة الاضطرابات فى البلاد حالت دون بلوغ الغاية التى وضعت تلك القوانين من أجلها ، ولا ابراهيم باشا فضل خاص فى السنين الاولى بعد الفتح فى ضبط الاحكام وشدة مراقبة الاحكام واجراء العدل بين الاهلىن ، وقد كان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحميدون عن السبيل القويم ، فعاقب كثيرين منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة أو غير ذلك مما يخرج

(١) مجلة السككية (التى تصدر عن جامعة بيروت) مجلد ١٣ ص ١٣٠

(٢) فى كتابه (ابراهيم باشا فى سوريا)

عن جادة الاستقامة ، فلو استمرت حكومة محمد علي في سوريا ناهضة هذا المنهج القويم الحكيم للملكة قلوب السوريين » (١)

وقال في موضع آخر « من التغييرات الاجتماعية التي نشأت عن حكم محمد علي في سوريا اطلاق الحرية الدينية ، ونشر روح الديموقراطية بالضرب على أيدي الزعماء والمتغلبين ، ونزع السلطة من أيديهم ، وانشاء العلاقة ما بين افراد الشعب وحكائه مباشرة ، وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ولها حق النظر في الشؤون المحلية بعد ان كان النظر في جميع الشؤون منوطاً بحكام مستبدين » (ص ٣١١) ثم قال في موضع آخر « لم تقم حكومة محمد علي في سوريا باعمال علمية وأدبية ذات شأن ، فلمدارس التي انشأتها كانت قليلة العدد والتأثير ، وكانت في معظم الأوقات مشغولة بالفتح وتسكين الاضطرابات وإخماد الثورات ومقاومة الدسائس والاعتداءات الداخلية والخارجية ، على أن قيامها في سوريا مهّد السبيل لنهضة علمية أدبية ، لان تنظيماتها استوجبت اختيار المتفهمين لإدارة الاحكام والقيام بالاعمال القضائية والمالية والكتابية ، وسهلت قدوم الافرنج من مرسلين دينيين وتجار وغيرهم ، فانشئت بواسطتهم المدارس ، كما ان ارسال بعض الشبان لدرس الطب في القطار المصري واستخدام بعض السوريين في حكومة محمد علي باشا انشأ صلة أدبية دائمة بين القطرين ، فامتدت تلك الصلة ونتاجها الى وقتنا الحاضر ، وأدخلت حكومة محمد علي روحاً علمية الى البلاد في اعمالها ، فانشأت محجراً صحياً في بيروت ، وبذلت اهتماماً يذكر في الأمور الصحية ، وكانت تجري فيها حسب مشورة الاطباء كما فعلت في دمشق بانشاء مصارف للمياه الراكدة ، واستخدام المهندسين في ذلك وفي الانشاءات التي تحتاج الى معرفة فنية » (٢)

هذا وقد زار المارشال مارمون (الدوق دي راجوز) سورية سنة ١٨٣٤ فاعجب بما رآه من إقرار السكينة والامن فيها ، وكتب في رحلته يقول

(١) كتاب ابراهيم باشا في سوريا لاسلمان بك ابو عز الدين ص ١٣٩

(٢) ص ٣١٥

« اذا بقيت أعمال محمد علي وبقى الأمن الذي بسطه فيما فتحه من البلاد كما صار اليه الآن من الاستقرار الذي يدعو الى الاعجاب فان حالة هذه البلاد سيئمة شأنها وستتطور تطورا كبيرا » (١)

ويقول المسيولويس بلان المؤرخ الفرنسي في كتابه (تاريخ عشر سنوات) « اذا أردنا ان نعرف ما أفادته سورية من انتقالها من الحكم التركي الى حكم المصريين فما علينا الا ان نلقى نظرة على سهول انطاكية التي اكتست باشجار الزيتون ، وضواحي بيروت التي كثرت فيها الكروم ، والنشاط الذي انبعث في حلب ودمشق ، صحيح ان محمد علي أظهر جفأ وقسوة في حكم سورية ، ولكن في ظل هذا الاستبداد العارض الذي كان ضرورة ولزاما حيث سادت الفوضى في تلك البلاد ، قد نالت سورية النظام والعمران » (٢)

الثورات في الشام

لكن الادارة المصرية في سورية لم تلبث أن اصطدمت بثورات محلية نشبت في مختلف الجهات ورزأت مصر بضحايا كثيرة ، وحملتها متاعب وجهودا كبيرة لاحمادها .

فلنتكلم عن أسباب هذه الثورات

وعد ابراهيم باشا السوريين بأن يعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب ولا يكلفهم إلا دفع الاموال الاميرية ، وقد برّ بوعده في السنوات الاولى من حكمه ، تخفف عنهم بعض الابعاء المالية ، وأخذ في تنشيط الزراعة والتجارة ، فشعر السوريون بالاطمئنان الى الحكم المصري وركنوا اليه .

ولكن هذه الحالة مالبثت أن تبدلت لما أصدره محمد علي باشا إلى ابنه في

(١) رحلة المارشال الدوق دي راجوز ج ٣ ص ٢٨

(٢) تاريخ عشر سنوات الجزء الخامس ص ٤٢١

أواخر سنة ١٨٣٣ وأوائل سنة ١٨٣٤ من الأوامر التي أثقلت كاهل الأهليين
بأعباء فادحة وهي

(أولاً) احتكار الحرير في البلاد السورية

(ثانياً) أخذ ضريبة الرؤوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم

(ثالثاً) تجنيد الأهالي

(رابعاً) نزع السلاح من أيديهم

وقد تبرم الأهالي بهذه المحدثات وتدمروا منها، لأن احتكار الحكومة للحرير
من شأنه إلحاق الضرر بمنتجيه ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين
مكاسبهم منه

وقد نفروا كذلك من ضريبة الرؤوس وخاصة المسلمين لأنهم ما كانوا ملزمين
بها من قبل، وزاد في تدمرهم تسخير الحكومة للأهالي في الأعمال العامة

وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الأسباب المباشرة التي أفضت إلى الثورة،
فقد نفذ التجنيد بطريقة قاسية تشيخ الخواطر، وكان كثير من المجندين يرسلون إلى
جبهات لا يقع إلى أهلهم شيء من أخبارهم فيها، وجاء نزع السلاح ثلثة الأثافي،
لأن معظم الأهالي كانوا يحملون السلاح ليدفعوا به سطوات البدو الرحل وعدوانهم،
فانتزع السلاح من أيديهم أمر لا تقبله نفوسهم عن طاعة واختيار، ومن هنا نشأت
الثورات والفتن

وقد كان للدسائس التركية والانجليزية عمل كبير في تحريك تلك الثورات، فإن
الترك والانجليز ما فتئوا يستفزون السوريين إلى الثورة ويوزعون عليهم الأسلحة
ويحرضونهم على القتال، ويستميلون اليهم رؤساء العشائر والعصبيات، تارة بالمال وطوراً
بالوعود، حتى أفلحوا في تهيئة البلاد للثورة، كما أن بعض إصلاحات إبراهيم باشا
كانت من أسبابها، فقد مر بك أنه أبطل سلطة الرؤساء الاقطاعيين وضرب على
أيدي الأشقياء وقطاع الطرق الذين كانت لهم سطوة كبيرة في بعض البلاد، فهؤلاء
وأولئك قد ساء لهم انتزاع السلطة من أيديهم، فكانوا مدفوعين بوازع المنافع الشخصية

إلى تحريض الأهليين على الثورة بالحكم المصري ، قال الدكتور مشاقه في هذا الصدد خلال كلامه عن نظام الحكم المصري في سورية

« هذا النظام وإن يكن عادلاً وشريفاً قد كان باعثاً قويا على كره الأمراء والمشايخ للمصريين حيث كف يدهم وأوقف مطامعهم عند حد لا يمكن اجتيازها ، وأمات استبدادهم بالشعب ، وجعلهم أمام الشريعة سواء لا امتياز ولا فرق بينهم وبين أفراد الرعية ، فحنقوا على الدولة المصرية وودوا إزالتها وارجاع الحكومة التركية (١) »

وقائع الثورة

ثورة فلسطين

وصلت أوامر محمد علي بالمحدثات الجديدة إلى إبراهيم باشا وكان في (يافا) ، فبادر من فوره إلى إذاعتها بين القبائل وفي أنحاء البلاد ، فثقلت هذه الأوامر على الناس وطلبوا رفعها ، فلم يجابوا إلى طلبهم ، فظهرت عليهم بوادر الاضطرابات في فلسطين ابتدأت الثورة على شواطئ نهر الأردن بالقرب من (بيت المقدس) في شهر ابريل سنة ١٨٣٤ ، وتواطأت القبائل في هذه الجهات على ألا يدعنوا لتلك الاوامر ، وفي هذا اعلان للثورة

فلما علم إبراهيم باشا نبأ هذا العصيان سار بالجيش من يافا إلى بيت المقدس ، وقد كان لمبادرته تأثير كبير أضعف عزيمه الثوار ، وهناك جمع نبهاء القوم وأكابرهم (ابريل سنة ١٨٣٤) فاستوضحهم مقصدهم ، فأجابوه بأنهم لا يعارضون في احتكار الحكومة للحرب ، لكنهم يعارضون أشد المعارضة في نزع السلاح وفي تجنيد شبان البلاد في الجيش ، وأنهم تلقاء ذلك يؤدون الضريبة ضعفين ويقدمون بعض أولاد المشايخ

رهينة لضمان طاعتهم واخلاصهم ، غير أن ابراهيم باشا أبى أن يتهاون في تنفيذ أوامر أبيه ، فاستمهلوه مدة يراجعون قوهم وعشيرتهم ، وانفض الاجتماع على غير طائل ، وعاد ابراهيم باشا إلى يافا ينتظر الجواب الاخير الذى وعد المجتمعون ببلاغه إياه بعد مشاورة الأهالى ، ولكى ينتظر ورود النجيدات والتعليمات من مصر ، وكان انتشار الوباء فى هذه الجهات مما دعاه إلى التعجيل بمغادرة بيت المقدس فأثر البقاء فى يافا إذ لم يكن الوباء وقع فيها

أخذت الثورة تستفحل ، وخاصة لما ذاع بين الاهالى من أن تركيا تتأهب بجيش جديد لاسترجاع الشام من محمد على ، فنجح البدو الضاربون بجوار (البحر الميت) إلى العصيان ، وامتدت الثورة إلى نابلس

قمع العصيان

كان زعماء العصيان فى تلك الجهات حاكم (نابلس) المسمى الشيخ قاسم الاحمد ، وهو من رؤساء العشائر ذوى العصبية القوية ، وكان منهم زعيم آخر لا يقل عنه نفوذاً وبكارة وهو (أبو غوش) صاحب قرية الغنب الواقعة بين بيت المقدس ويافا هاجمت جماعة (أبى غوش) المخافر المصرية المعهود اليها تأمين السبل بين يافا وبيت المقدس من سطو قطاع الطرق ، فقفلت الحامية راجعة إلى يافا لقلّة عددها إزاء المهاجمين

وكذلك هاجم العصاة حامية (بيت المقدس) ، وكانت تبلغ ألف مقاتل ، فقتل منهم خمسون جندياً واضطر القائد إلى الامتناع فى قلعة المدينة حتى يأتيتها المدد فلما علم ابراهيم باشا بهذه الواقعة أنفذ الايا من الفرسان بقيادة الميرالاي حسن بك لنجدة الحامية وللتنكيل بقبيلة (أبى غوش) ، ولكن النجدة المصرية لم تقو على مقاومة العصاة ، ورجعت مهزومة مضعضة بعد أن قتل قائدها ونحو ثلاثين من جنودها ، وتسكّثر الثوار على القدس واقتحموا باب داود (من أبواب المدينة)

ودخلوا منه ، ووقع قتال شديد بينهم وبين الحامية المحصورة في القلعة ، ونهبوا حوانيت المدينة وبعض بيوت اليهود ، وكذلك هاجم العصاة (الخليل) وقتلوا حاميتها وكان عددها ٢٠٠ جندي

فلما علم ابراهيم باشا باستفحال الثورة جمع جيشا من ستة آلاف جندي وقام على رأس هذا الجيش ، فسار من يافا في شهر يونيه سنة ١٨٣٤ ، وزحف على معقل العصاة في قرية (العنب) التي امتنع بها جماعة (أبي غوش) ، وكانت محصنة تحصينا منيعا ، فحاصرها الجيش المصري واستمر القتال حولها ثلاثة أيام متوالية ، وفي اليوم الثالث دخل المصريون القرية ، فكان سقوطها في يدهم سببا في تشتت العصاة ، واحتل المصريون الطرق المفضية إلى (بيت المقدس) ، وفرق الجيش جموع العصاة ودخل المدينة بعد أن فر كثير من أهلها ممن انضموا الى الثوار ، ووقعت ثلاث معارك بين الجيش المصري والعصاة كان النصر فيها للمصريين

على أن هذا القتال قد حمل الجيش خسائر جسيمة ومتاعب هائلة ، فتحصن ابراهيم باشا في بيت المقدس

وفي غضون ذلك عمل على التفريق بين القبائل وضرب بعضها ببعض على الطريقة التي اتبعها في حرب الحجاز ، وأفلح في استمالة بعض القبائل فتفككت عراها ، وعقد سليمان باشا الفرنسي اتفاقا مع أولاد (أبي غوش) تعهدوا فيه أن يؤمنوه على اجتياز معابدهم وأن يوالوا الحكومة المصرية على أن تطلق سراح أبيهم الذي كان سجينا في عكا ، وعلى العفو عنهم ، وبذلك أمنت الطريق بين يافا وبيت المقدس

وفي أثناء ذلك عرض الشيخ قاسم حاكم نابلس على ابراهيم باشا أن يقدم طاعته على أن يعفى النابلسيون من الخدمة العسكرية ، وجرت بينهما في هذا الصدد مفاوضات ، فلما تم الاتفاق مع جماعة (أبي غوش) واستوثق ابراهيم باشا من ولائهم قطع تلك المفاوضات

حضور محمد علي باشا

لما استفحل أمر الثورة اعتزم محمد علي باشا المجيء الى فلسطين ليطمئن بنفسه على الموقف وليشرف على حركات القتال التي كان الغرض منها قمع العصيان ، فحضر الى يافا يصحبه عدد كبير من الجنود ، وكان ابراهيم باشا وقتئذ في القدس ، فذهب لاستقباله في يافا

وكان العصيان قد امتد الى (صفد) فقطع أهلها الطرق ونهبوا اليهود ، فبعث محمد علي الى الامير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان ، وكان على ولاء تام للحكومة المصرية ، أن يخمد هذا العصيان ، فصدع بالأمر وزحف على (صفد) وحاصرها وسلمت من غير قتال وأعاد العصاة مانهبوه من اليهود وقد برّ ابراهيم باشا بوعده لآكل أبي غوش فأطلق سراح زعيمهم وعين أحد ابناءه مسلما (حاكما) للقدس

اتحاد الثورة

وجرد جيشا لمحاربة (الشيخ قاسم) حاكم نابلس ، فدار قتال شديد بينهما انتهى بهزيمة الشيخ قاسم وفراره مع اتباعه الى (الخليل) وفي غضون ذلك عاد محمد علي باشا الى الاسكندرية بعد أن اطمان من ناحية الجيش المصري ومركزه ، فوصل الى الاسكندرية في يولييه سنة ١٨٣٤ احتل الجيش المصري قري (نابلس) ثم تعقب الشيخ قاسم ورجاله الاشداء الى (الخليل) ، وتطاحن الفريقان ثلاث ساعات انكسر بعدها الثوار ، فدخل الجيش (الخليل) وانسحب المنهزمون الى (الكرك) و (السلط) ، فتعقبهم ابراهيم باشا الى (الكرك) ولقى جنوده مشقات هائلة في هذه الحملة لاشتداد القَيْظ والعطش ، وسقط منهم نحو ثلثائة مصابين بالرعن (ضربة الشمس) ، واحتل

الجيش المصرى الكرك، وحى القتال حول قلعتها التى اعتصم بها الثوار، وتسكبد
المصريون خسائر جسيمة فى هجومهم على القلعة وارتدوا عنها قليلا ريثما تبلغهم
المدفعية، فانتهم الثوار هذه الفرصة واخلوا القلعة وانسلوا منها الى (السلط)، وتقدم
ابراهيم باشا الى السلط فسلم أهلها من غير قتال
وفر الشيخ قاسم ومن معه من زعماء العصيان الى البادية، ونزلوا على عرب
عنزة، ولكن ابراهيم باشا تعقبهم وما زال بهم حتى أخذهم جميعا وقتلهم، وبذلك
تم اخماد الثورة فى فلسطين، واذعنت القبائل لسطوة ابراهيم باشا وشدة بأسه.

اضطرابات أخرى

وقد هاجت الخواطر فى دمشق لما وقع التجنيد من الحزن فى نفوس أهالى
المجندين، وفر عدد كبير من الناس الى البادية والى الجبال، وخشى شريف باشا
والى ايلات الشام ان يعمّ الهياج، وخاصة بعد ورود انباء ثورة فلسطين، فكف
عن التجنيد، لكنه جمع السلاح من ايدي الاهالى
وكذلك وقعت اضطرابات فى طرابلس (سنة ١٨٣٤) وائتمر الاهلون
بالحامية، فاضطرت ان تنسحب الى الميناء، فأرسل ابراهيم باشا المدد الى طرابلس،
وعاقب مشيرى الفتنة باعدام ثلاثة عشر منهم، ونارت الفتن فى (عكار) و(صافيتا)
و(الخصن)، فأخذتها القوة المسلحة، ووقعت كذلك اضطرابات أقل شأنا منها
فى (حلب) و(انطاكية) وبلبك وببيروت

ثورة النصيرية

وشبت الثورة فى بلاد (النصيرية) شرقى اللاذقية فى اكتوبر سنة ١٨٣٤،
وكانت أهم ثورة بعد ثورة فلسطين، وهاجم الثوار (اللاذقية) فأمد بها ابراهيم باشا
وزحفت قواته على بلاد (النصيرية) ونشبت معارك عدة بينها وبين الثوار انتهت

بانتصار الجيش المصرى ونزع السلاح من أيدي الثوار وتجنيد نحو أربعة آلاف من أهل تلك البلاد

وقد نفذ إبراهيم باشا قاعدة نزع السلاح والتجنيد في البلاد التي اخذ الثورة فيها، واستتب الأمن في ربوعها، وكان اللبنانيون يعاونون الجيش المصرى في اخذ تلك الثورات، فترك لهم سلاحهم الى سنة ١٨٣٥ ثم عمد الى تجريدهم منه، وبدأ بالدروز وخادع المسيحيين أنه لا يريد نزع اسلحتهم، فعلموه على تجريد الدروز، وبعد أن تم له ذلك عاد الى اولئك فجردهم من سلاحهم، واستتبت السكينة في سورية ولبنان، فعمدت الحكومة الى تجنيد الاهالى من البلاد كافة، وترتب على ذلك فرار الكثير من الشبان الى البادية مما أضر بالحالة الاقتصادية ضررا بلغا

ثورة حوران

كان إبراهيم باشا قد اعفى دروز حوران من التجنيد، ثم نراى له أن يطبق عليهم نظام التجنيد، وحجته انه في حاجة الى زيادة عدد الجيش استعدادا لمقاومة هجوم العثمانيين الذي جاءت الاخبار بقرب وقوعه فتمرد الدروز على طلب حكومة دمشق، وكان من ذلك نشوب ثورة خطيرة في حوران (نوفمبر سنة ١٨٣٧)، وهى أشد ثورة عارضا الحكم المصرى في سورية أنفذ إبراهيم باشا ثلاث حملات لكفاح تلك الثورة واخادها، فالحملة الاولى الفها من ٤٥٠ من فرسان الهواة^(١)، ففازت في بدء القتال على الثوار في (بصرى) والكن الثوار استدرجوها الى الجهات الجبلية الوعرة في بلاد اللجاة^(٢) وأمر قائد الحملة بالزحف عليها، حتى اذا بلغ الوعر وانحصر فيه، انقض عليه الدروز، فدارت

(١) احصاء الدكتور مشاقه في كتابه مشهد العيان ص ١١٦

(٢) على حدود حوران جنوبى دمشق بشرق

بين الفريقين معركة بطش فيها الدروز بالحملة المصرية، فقتل قائدها وبادت الحملة قتلا وأسرا وتشريدا

ولما بلغ ابراهيم باشا نبأ هذه الواقعة وكان في (انطاكية) أجمع حملة جديدة يقودها بنفسه ، لكنه علم باحتمال تقدم الترك نحو الحدود الشمالية ، فاضطر الى البقاء في (حلب) وأرسل الى أبيه يستمده ويطلب منه أن ينفذ اليه احمد باشا المنكلي وزير الحربية المصرية لقيادة الحملة ، فجاء هذا على جناح السرعة ، وقاد الحملة الجديدة وكان فيها ٦٠٠٠ (١) مقاتل ، وزحف على بلاد حوران ، فأخذ الثوار يستدرجونها كما استدرجوا الحملة الاولى من قبل ، الى ان أوغلت في الجهات الوعرة ، فقاتلها الثوار في معركة انتهت بهزيمة الحملة ، وخسرت من رجالها نحو اربعة آلاف بين قتيل وجريح ، وجرح قائدها احمد باشا المنكلي جراحا بالغة

تصدعت هيبة الجيش المصري بانتصارات الدروز ، واستشرت الثورة من حوران الى (وادي التيم) فثار الدروز فيها بقيادة (شبلي العريان) وقطعوا مواصلات الجيش

وجيز ابراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين الف مقاتل أطبق بها على ثوار حوران ووادي التيم

ونشبت الحرب وكانت سجالا ، الى أن انتهت بتسليم دروز (وادي التيم) ، ثم تسليم شبلي العريان ، وانحصار الثورة في (اللجاة) ثم انتهت باخماد ثورة اللجاة (اغسطس سنة ١٨٣٨)

وبذلك انتهت ثورة الدروز بعد أن استمرت تسعة أشهر تسكبد فيها الجيش المصري خسائر فادحة ، ولقى فيها من الاهوال ما لم يلقه في اخماد الثورات السورية الأخرى

وغنى عن البيان انه كان في امكان مصر أن تتفادي هذه التضحيات الأليمة

والخسائر الفادحة لو لم يتشدد محمد على باشا في تجنيد السوريين ونزع اسلحتهم ، إذ لم يكن من الحكمة ولا من حسن السياسة أن تبادر دولة فاتحة الى تجنيد الاهالى في بلاد حديثة عهد بفتحها ولما يستقر بعد حكمها فيها ، وخاصة اذا كان أهلها قد اعتادوا من قديم الزمن حمل اسلحتهم ولم يألفوا نظام التجنيد الاجبارى ، ولو أن محمد على جرى على الهوى في كلا الأمرين وترك للزمن تحقيقهما تدريجاً لما استهدف الجيش المصرى لهذه الثورات التي أودت بحياة عشرة آلاف مقاتل ونيف ، وذلك اكثر من العدد الذى استطاع تجنيده من السوريين ، واكثر مما خسره مصر في المعارك الحربية بسورية والاناضول ، هذا فضلاً عن أن اخمد الثورات بالقوة والجبروت قد أوغر صدور السوريين على الحكم المصرى ، فبعد أن استقبلوه في بدء الفتح بقبول حسن وفضله على الحكم التركى جنحوا بعد ذلك الى قديمهم ولقيت الدعاية التركية بينهم مرعى وماوى

على أنه يجب ألا يغرب عن البال ما كان للدسائس الانجليزية والتركية من الاثر الكبير في تحريض السوريين على الثورة كما قدمنا ، ولكن مما لا نزاع فيه ان هذه الدسائس ما كانت لتفلح لو لم تلجأ الحكومة المصرية الى اثاره الخواطر بنزع سلاح الأهلى وتجنيدهم جبراً ، ومن جهة اخرى فان الحكومة المصرية رغبة منها في منع ورود الاسلحة الى البلاد أمرت بمنع دخول السفن التركية الى الشغور السورية وصدت ورود القوافل من جهات الاناضول ، فأصاب التجارة من هذه وتلك ضرر كبير ، وقد كان للدسائس الانجليزية وسوء الحالة الاقتصادية في أواخر عهد الادارة المصرية أثر كبير في الحرب السورية التي شبت بين مصر وتركيا وحلفائهما عقب ابرام معاهدة لوندرد فان الجيش المصرى قد لقي فيها من مقاومة السوريين ما زاد مركزه حرجاً كما سيحىء بيانه

الحرب السورية الثانية

(وواقعة نصيبين (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩)

مافتئت تركيا بعد هزيمتها في معركة (قونية) و ابرامها اتفاق (كوتاهيه) تعدد المعدات وتبذل الوسائل لاسترجاع سورية واقليم اذنه الى حوزتها ، فحدثت منذ سنة ١٨٣٤ جيشا في (سيواس) تأهباً للزحف على سورية عند سنوح الفرصة ، وعهدت بقيادته الى رشيد باشا قائد الجيش العثماني الذي أسر في واقعة قونية ، فأخذ يستعد للزحف آملاً أن يظفر بالجيش المصري فيمحو ما لحقه من العار والهزيمة في واقعة (قونية)

فتمصم تركيا على القتال واعتزامها استرجاع سورية بدأ عقب هزيمتها في (قونية) ، ولم يؤخرها عن امتشاق الحسام حتى سنة ١٨٣٩ الا شعورها بأنها أضعف جنداً من مصر ، فأخذت تتحين الفرصة المناسبة للثأر ، على انها ما فتئت طول هذه المدة تدس الدسائس لمصر في سورية وتحرّض أهلها على الثورات وخلع ايديهم من الطاعة .

ثم توفي رشيد باشا سنة ١٨٣٦ ، خلفه في قيادة الجيش العثماني محمد حافظ باشا أحد قواد تركيا المشهورين في ذلك العصر

وفي خلال ذلك حدثت مفاوضات بين تركيا ومصر لتسوية الخلاف بينهما بطريقة ودية ، فأوفد السلطان محمود سنة ١٨٣٧ مندوبه (صارم افندي) ليمفاوض في ذلك محمد علي ، لكن هذه المفاوضة اخفقت إذ لم يتفق الطرفان على شروط يقبلانها

محمد علي و اعلان الاستقلال

ولما اخفقت تلك المفاوضات ورأى محمد علي دسائس الاستانة تزداد في

سورية اعترزم إعلان الاستقلال ليقطع آخر سبب يربط مصر بتركيا، واستدعى وكلاء الدول في مصر و اعلنهم بعزمه هذا (مايو سنة ١٨٣٨)

وهذه هي المرة الثانية التي اعترزم فيها محمد علي إعلان الاستقلال ، فلمرة الاولى سنة ١٨٣٤ عقب الحرب السورية الاولى إذ صارع وكلاء الدول بما صمم عليه ، فرفضت الدول طلبه ، وحذرتة من العاقبة (١) ، ثم جدد عزمه سنة ١٨٣٨ (٢) معتمدا

على حق مصر ، ولأن استقلالها هو خير ضمانة لاستتباب السلام في الشرق وكان محمد علي يعتقد أن الدول لا تعارضه في إعلان الاستقلال أسوة بما فعلته حيال اليونان ، إذ عضدتها في تحقيق استقلالها وانفصالها عن تركيا وتأييدها في مطالبها القومية ، ولكن الدول الأوروبية تنظر الى مصر بغير العين التي تنظر بها الى اليونان ، فاعترضت على ما عزم عليه محمد علي وحذرتة من جديد عواقب عمله ، وبدا تحيزها لتركيا جلياً ، وظهر تحاملها على مصر مما جرأ السلطان محمود على التحرش بمحمد علي ، فأدى ذلك الى وقوع الحرب السورية الثانية

مقدمات الحرب السورية الثانية

كان سفير إنجلترا في الاستانة (اللورد بونسونبي) يحرض الباب العالي على التشدد في شروطه ، مما ادى الى اخفاق المفاوضات ، وكانت إنجلترا لا تفتأ تضع العراقيل أمام سياسة محمد علي وتؤلب تركيا والدول الأوروبية على مصر فمن ذلك أنها توصلت في سنة ١٨٣٨ الى عقد معاهدة تجارية مع تركيا من شروطها الغاء الاحتكار في جميع انحاء السلطنة العثمانية ، وكان المفهوم ان هذه المعاهدة تسرى على مصر لانها كانت الى ذلك الحين جزءا من السلطنة ، وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة (نوفمبر سنة ١٨٣٨) لأن ظاهرها يوافق المبادئ الانسانية ، ولم يكن من سبيل الى رفض مثل هذه المعاهدة

(١) و (٢) كادلفين وبارو. سنتان من تاريخ الشرق ج ١ ص ٢٢ و ٤٦

وقد فطن محمد علي باشا الى ان المقصود من وضعها هو احراجها ، فلم يعلن اعتراضه عليها ولا قبوله إياها ، وتغيب عن مصر ذاهبا الى السودان في رحلة طويلة ، واطهر انه ماضٍ للبحث عن مناجم الذهب في فازوغلى وتنظيم حكومة السودان ، ولكنه كان يقصد الغياب حتى لا يواجه طلبات وكلاء الدول

وكانت تركيا تزداد تحفظاً لتجريد جيشها على سورية ، ولم يكن غرضها استرجاع سورية فحسب ، بل كانت ترمى اذا ماظفرت بالجيش المصرى أن تستمر في زحفها حتى تغزو مصر ، وأخذت حركات الجيش العثماني تزداد نشاطا بالقرب من التخوم السورية

وفي غضون ذلك بذلت الدول الأوروبية مساعي عدة لحل الخلاف بالطرق الودية بين الدولتين (مصر وتركيا) ، فأخفقت في مساعيها لأن إنجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على القتال

خطة الترك في الزحف على الشام

حصن المصريون مضيق (كوك) من مضائق جبال (طوروس) تحصينا منيعا ، إذ هو طريق الزحف على سورية من ناحية الاناضول ، فشيّدوا فيه القلاع المحكمة ، وركبوا فيها المدافع الضخمة على الأساليب الهندسية الحديثة ، وبلغ عدد المدافع التي ركبها المصريون في قلاع المضيق ونواحيه ١١٥ مدفعا (١)

وبلغت الحاميات المصرية في ولاية ادنة عشرة آلاف مقاتل ، وأصبحت مواقع المصريين من المناعة بحيث صار من المتعذر أن يهاجمها الجيش التركي ، فاعتزم قائده حافظ باشا أن يدع اجتياز هذه المضائق ويزحف على الشام من جهات (اورفه) وديار بكر حيث لا تفصلها عن الشام جبال وعرة كجبال طوروس

فلما علم ابراهيم باشا بهذه الخطة حشد معظم جنوده حول مدينة (حلب) ليرقب

(١) احصاء المسيو اوديفير في مباحثه عن (الحكم المصري في بلاد القرمات) التي نشرت بمجلة الشرق الفرنسية سنة ١٨٦٨ ص ٥٩٠

حركات الجيش التركي ويصد هجماته من كل طريق يجي منه ، وكانت طلائعه ترابط في عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية

عبور النهر الفرات

ولما أتم حافظ باشا استعدادده اعتزم عبور الفرات ليزحف على الشام ، فعهد الى اسماعيل باشا أحد قواده اجتياز هذا النهر عند بيرة جك^(١) الى عدوته النمنى ، فانتقل اسماعيل باشا الى الشاطئ الأيمن يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ ، ووصل هذا النبأ الى ابراهيم باشا ، فأرسل الى والده بمصر يسأله ماذا يكون موقفه اذا هاجمه الاتراك كما تدل الدلائل ، وأخذ في الوقت نفسه يحشد الجنود في حلب ويزيد موقفه مناعة في المدينة وما حولها ، وأرسل الطلائع من العربان لاكتشاف حركات الجيش التركي

ارسال محمد علي المدد الى الشام

وكان محمد علي قد بلغه تقدم الجنود التركية نحو الحدود ، فعلم أنها الحرب لاحالة ، وأمر بجمع الجند وانفاذهم الى الشام ومعهم الذخائر ، وعهد الى وزير الحربية احمد باشا المنكلى أن يلحق بابراهيم باشا ليعاونه في الحرب المنتظرة ، فكان سفر المنكلى باشا اعلانا بقرب وقوع القتال ، وقد علم وكلاء الدول بعزم المنكلى باشا على السفر ، فتدخل قنصل فرنسا العام^(٢) لدى محمد علي لوقف سفر وزير الحربية حتى لا تستعر نار الحرب ثمانية بين تركيا ومصر ، فطلب اليه محمد علي أن تعطيه الدول وثقا ألا يزحف الجيش التركي على الشام ، وفي مقابل ذلك يمنع سفر وزير بحر بيته بل ويستقدم ابراهيم باشا أيضا ، فضمن له القنصل الفرنسي ذلك ، وارتكن على

(١) وتسمى البيرة ، وهي واقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات

(٢) المسيو كوشايه

خطاب بهذا المعنى جاءه من سفير فرنسا بالاستانة ، وكان الحديث بحضور قنصل النمسا ، فالتفت اليه محمد على وسأله أتريد الرسائل الواردة له من السفير النمساوى ما يقوله قنصل فرنسا ؟ فأجاب بالنفي ، فلم يسع محمد على إلا أن صرح القنصلين بأنه إزاء هذا التضارب يرى من واجبه أن يتخذ وسائل الأبهة والاحتياط ، وانفذ من فوره وزير الحربية الى حلب فوصل اليها بعد تسعة أيام من مغادرته مصر ، وكانت الحرب قالب قوسين أو أدنى

حركات الجيش التركى قبيل واقعة نصيبين

احتشدت طلائع الجيش التركى فى قرية (نصيبين) وحولها ، وهى بلدة واقعة فى الاراضى العثمانية لسكنها على مسيرة ساءت قليلة من الحدود التركية السورية (١) وأخذ حافظ باشا يستعد للزحف ، فاحتلت طلائعه من القرى ما حول مدينة (عينتاب) واجتازت سرية من الجيش التركى نهر الساجور (٢) وهو الحد الفاصل بين سوريا وتركيا ، فتخطت بذلك الحدود المرسومة فى اتفاق (كوتاهيه) ، وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية (تل باشر) بعد أن قتلوا وأسروا فريقا من حاميتها التى كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادى وفى غضون ذلك كان ابراهيم باشا قد أرسل الى أبيه نبأ تخطى الاتراك حدود اتفاق (كوتاهيه) وسأله ما يأمر به حيال هذا الاعتداء ولم ينتظر ورود جواب أبيه ، بل قام بجيشه من حلب لاجبار الاتراك على اخلاء (تل باشر) ، ولكن هؤلاء اخلوا البلدة اثر وصول الجنود المصرية (٣ يونيه سنة ١٨٣٩) ، ثم احتل

(١) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيره جك والاسكندرونة ، وموقعها غربى بيره جك القائمة على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، وهى غير (نصيبين) التى بالجزيرة

(٢) نهر الساجور ينبع بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب فى الفرات ، وهو الحد الفاصل بين املاك مصر وتركيا (انظر موقعه على الخريطة الملاحقة بهذا الفصل)

الترك مدينة (عينتاب) واختلها الحامية المصرية

وفي منتصف يونيه ورد جواب محمد على باشا يعهد الى ابنه بالألا يكتفى
بارجاع الأتراك الى الحدود؛ بل عليه حربهم وسحق جيشهم ماداموا لم يراعوا
العهود والمواثيق، فلما تلا ابراهيم باشا الجواب اطمأن اليه فأصدر أوامره الى
قواده بالاستعداد لمهاجمة الجيش التركى الذى احتشد فى (نصيبين)

قوات الطرفين

كان الجيش التركى يتألف من ٣٨ ألف مقاتل ويحتل مواقع حصينة، ولم
يكن ينقصه القواد الاكفاء لان فريقا من الضباط الألمان وعلى رأسهم القائد
الشهير البارون (دى مولتك) الذى انتصر فيما بعد على الفرنسيين فى الحرب
السبعينية كانوا يرافقون القواد الترك، وهم الذين تولوا تحصين نصيبين
حتى جعلوها من أمتع المواقع الحربية، ولو أن الامر ترك كله للقواد الألمان لسكان
الحظ فى معركة نصيبين متراوفا بين الجيش المصرى والتركى، ولكن القواد
الأتراك وعلى رأسهم حافظ باشا لم يعملوا بنصائح (دى مولتك) وزملائه أثناء
القتال، فدارت الدائرة على الجيش التركى

اما الجيش المصرى فكان عدده أربعين ألف مقاتل^(١)، فالجيشان كانا
متقاربين من جهة العدد، لكن الجيش المصرى كان يفوق جيش الترك فى النظام
وبراعة القيادة، ودرية جنوده، وبرانهم على القتال، وثقتهم بانفسهم وقوادهم الذين
خاضوا واياهم المعارك ورفعوا معاً علم النصر من قبل، فكان لهذه الميزة تأثير
معنوى كبير فى نفوس الجنود، هذا فضلا عن أن الجيش المصرى كان مؤلفا من
جنس واحد وهم المصريون، أما الجيش التركى فكان أخلاطا من الأتراك
والاكرد وسائر عناصر السلطنة العثمانية

(١) احصاء كادلفين وبارو فى كتابهما (سنتان من تاريخ الشرق) ج ١ ص ٢٥٩

واقعة نصيبين

(٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩)

اعتزم إبراهيم باشا ان يتبع خطة الهجوم في واقعة (نصيبين) ، فحشد الجيش مشاة وركبانا على ضفاف نهر (الساجور) الذي كان يفصل الحدود المصرية والتركية وتحرك يوم ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٩ صوب قرية (مزار) ليتخذها قاعدة للهجوم وتقع هذه القرية جنوبي (نصيبين) بغرب ، وهي على ساعتين من معسكر الجيش التركي (انظر خريطة الواقعة ص ٣٠٤)

لم يلق المصريون مقاومة تذكر في احتلال (مزار) فقد أخلتها الحامية التركية وانسحبت منها الى معسكر الجيش في نصيبين ، ورتب إبراهيم باشا مواقع جيشه في ضواحي (مزار) بالعدوة اليسرى من النهر المسمى باسمها

وفي اليوم التالي (٢١ يونيه) استقر رأى إبراهيم باشا على اكتشاف مواقع الاتراك أولا لمعرفة الجهة الضعيفة فيها بهم فيها ، فسار يصحبه سليمان باشا لارتداد هذا الاكتشاف ومعهما قوة مؤلفة من ألف وخمسمائة من العرب وأربعة أليات من الفرسان وبطاريات من المدافع^(١) ، واقتربوا من مواقع الاتراك ، فأنفذت القيادة التركية بعض كتائب من الفرسان النظاميين ومن الجنود غير النظامية (الباشبورق) فاشتبكوا مع طلائع الجيش المصري في مناوشة ارتدوا على أثرها الى مواقعهم ، وتعقبهم المصريون ، فأمكنهم اكتشاف التحصينات المنيعه التي أقامها الاتراك أمام (نصيبين) ، فأرك إبراهيم باشا انه يتعذر بل يستحيل على الجيش المصري أن يستولى على معسكر الجيش التركي مواجهة ، وعاد يجهد الفكر في الخطة التي تكفل له الفوز على خصمه ، فرأى أن خير وسيلة يتبعها هي الدوران حول مواقع الترك ليهاجمهم من الخلف

(١) احصاء كادلفين وبارو في كتابها (سنتان من تاريخ الشرق) ج ١ ص ٢٤٧

وغداة هذا اليوم (٢٢ يونيه) شرع إبراهيم باشا ينفذ هذه الخطة وأخذ ينسحب من مواقعه الأولى استعداداً لحركة الالتفاف

أما حافظ باشا فقد جمع مجلساً حربياً ليقرر الخطة الواجب اتباعها حيال هذه المناورة ، فكان رأى البارون (دى مولتك) وزملائه الألمان أن يهاجموا المصريين أثناء حركة الالتفاف وقبل أن ترسخ قدمهم فى المواقع الجديدة ، لكن حافظ باشا ورؤسائه الاتراك لم يقبلوا هذا رأى السيد ، وأبوا أن يغادروا مواقعهم واستحکاماتهم المنيعة ويعامروا بقواتهم فى مهاجمة الجيش المصرى فى العراء وفى سهل مكشوف خال من الاستحكامات التى تحميهم ، واستقر رأيهم على البقاء فى معاقلمهم بنصيبين

أنفذ إبراهيم باشا حركة الالتفاف ، فترك مواقعه الأولى ، وسار مشرقاً محاذياً نهر مزار ثم نهر كرزين (١) بعد أن يلتقى هو ونهر مزار ، ثم انعطف شمالاً حتى بلغ الطريق الموصل من حلب الى بيرة جك والمفقى الى ما وراء مواقع العدو فى نصيبين ، فسار فى ذلك الطريق الى أن بلغ قنطرة (هركون) القائمة على نهر كرزين وأمر الجيش بعبور النهر على هذه القنطرة ، ولو أن حافظ باشا فكر فى مفاجأة الجيش المصرى أثناء هذا العبور حيث كانت قواته موزعة على جانبي النهر لكان محتملاً أن تتغير مصائر الواقعة ، لكن القيادة التركية كانت فى غفلة من الجود وعدم الكفاية ، فتركت هذه الفرصة تغلت من يدها ، وعبر الجيش المصرى باجمعه نهر (كرزين) ليلاً واحتشد على الضفة اليسرى خلف معسكر الجيش التركى ، وبذلك واجهه من الجهة الضعيفة ، فاضطر حافظ باشا أن يدير وجه جيشه لىواجه الجيش المصرى فى مواقعه الجديدة وأقام استحکامات على عجل بدلاً من الاستحكامات القديمة التى كانت أمام وجهته القديمة ولم يعد لها عمل بعد أن تغير موقف الجيشين ، وانقضى يوم ٢٣ يونيه والجيشان يتأهبان للقتال

(١) نهر كرزين هو نهر يصب فى الفرات وتقع نصيبين على ضفته السرى

وفي ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ هاجم حافظ باشا المصريين في جنح الليل آملا أن يأخذهم على غرة ويوقع الفشل في صفوفهم، ولكنه ارتد بعد أن فشلت نيران المدافع المصرية بعدد كبير من جنوده، واستمر ابراهيم باشا تلك الليلة يتأهب لمهاجمة الاتراك في صبيحة الغد

الواقعة

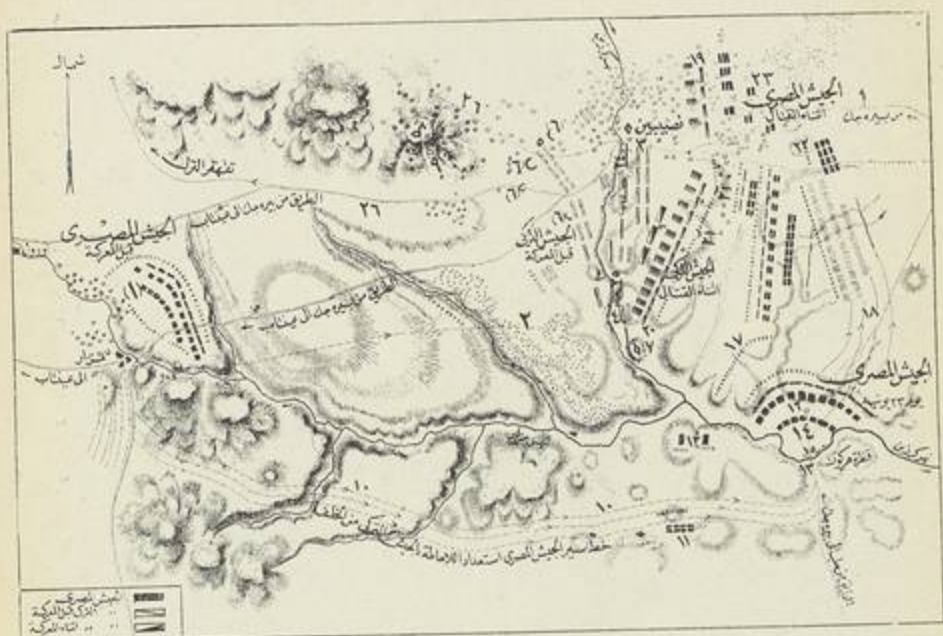
ففي صبيحة ذلك اليوم، ٢٤ يونيه، بدأت المعركة طبقا لخطة الهجوم التي رسمها ابراهيم باشا، وكان الجناح الايمن للجيش التركي يتركز على أخوار عميقة لاسبيل الى اجتيازها، والقلب تحميه الاستحكامات التي أقامها الترك، أما الجناح الايسر فكان يمتد الى نصيبين ويتجاوزها قليلا مرتكزا إلى غابة من أشجار الزيتون، فرأى ابراهيم باشا أن نقطة الضعف إنما هي في هذه الناحية، فقرر مهاجمة الجناح الايسر، وأمر بتقدم الصفوف المصرية لانفاذ هذه الخطة

كان في هذه الحركة خطر كبير على الجيش المصري، إذ لم يكن له من سبيل إلى مهاجمة الجيش التركي من هذه الناحية إلا اذا سار امام جناحه الايمن، ثم امام القلب، وبذلك تتلقفه نيران الترك اثناء مسيره، ولكن القيادة التركية لم تغتنم هذه الفرصة وبقى حافظ باشا غاراً في معاقلة لايمدى حراكا، وصمم على ان يدخر قوته إلى أن يهاجمه المصريون، وترك الجيش المصري ينتقل إلى مواقعه الجديدة، ولقد رتب ابراهيم باشا خطة الانتقال والهجوم باحكام ودقة وفطنة استدعت اعجاب الضباط الاوروبيين الذين كانوا في معسكر الجيش التركي، فقد شهدوا بأن حركات الجيش المصري كانت تسير طبقا لخطط الجيوش الاوروبية المدربة على أرقى فنون القتال العلمية

ومما دل على براعة ابراهيم باشا في وضع الخطط الحربية أنه رأى أكمة عالية (نمرة ٢٢ على الخريطة ص ٣٠٤) تجاه ميسرة الاتراك وقد أهملوا احتلالها، فأمر

لفوره سليمان باشا الفرنساوى الذى كان على ميمنة الجيش المصرى باحتلال تلك
الأكمة ، فبادر هاهو معه فريق من الفرسان والمدفعية ونصبوا عليها المدافع ، فانكشفت
أمام نيرانها مواقع الترك ، وكانت هذه الحركة مفتاح النصر فى واقعة نصيبين
وقد تنبه الترك إلى خطئهم فى اهمال تلك الأكمة ، وحاولوا أن يحتلوها ،
ورماها حافظ باشا بقوة من فرسانه لاقضاء المصريين عنها ، لكنهم عجزوا عن مقابلة
النيران التى سلطها عليهم حماة الأكمة وأبطالها ، فارتدوا عنها إلى مواقعهم الاولى
ولما اكتمل الجيش المصرى تجاه الجناح الايسر أمر ابراهيم باشا باطلاق المدافع
على ميسرة الاتراك والهجوم عليهم ، فتلقى الترك الهجوم بثبات وشجاعة ، واشتد
الضرب بالمدافع والبنادق بين الفريقين ، واستمر نحو ساعة ونصف حتى فيها وطيس
القتال واستحرت ناره

وفى أثناء ذلك فرغت ذخيرة الجيش المصرى ، فانتظر جنود المدفعية وهدءوا
ريثما ترد اليهم الذخيرة ، بينما كان الترك يصبون عليهم نارا حامية ، فتقلقل المشاة من
الجناح الايمن المصرى ، وارتدوا إلى الوراء ، فصدر الامر إلى الفرسان بالهجوم ،
فأقدموا لكنهم اضطروا إلى الارتداد أمام رصاص الترك ، وتقهقروا هم والمشاة ،
ولكن ابراهيم باشا تمكن بعد جهد شديد من وقف تيار التقهقر
وفى غضون ذلك وردت الذخائر للمدفعية ، فصبّت نيرانها على الترك ،
واشترك المشاة والفرسان والمدفعية فى الضرب إلى أن تزلزلت صفوف الجيش التركى
والتوت أمام هجمات المصريين ، وظهر الضعف فى اطلاق مدافعهم ، فأخذ الاكراد
يفرون متقهقرين ، فشدد ابراهيم باشا الهجوم على الميسرة ، فلم يقو الترك على صد
هذا الهجوم ، ولبأوا إلى الفرار تاركين بنادقهم وذخيرتهم ، فاحتل الجيش المصرى
مواقعهم ، وغنم جميع مدافعهم وذخائرهم وخيامهم وكل ما فيها من العتاد والميرة
إذ لم يتمكن الترك من حمل شئ منها أثناء هزيمتهم ، حتى ان حافظ باشا ترك
خيمته المزخرفة وفيها أوراقه وأوسمته ، فكانت معركة نصيبين نصراً مبيناً للجيش
المصرى .



خريطة واقعة نصيبين (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩) وفيها البيانات الآتية

- ١ موقع الجيش المصري يومى ٢٠ و ٢١ يونيه (على نهر مزار)
- ٢ حركة الاستطلاع التى قام بها ابراهيم باشا لاكتشاف مواقع الترك يوم ٢١ يونيه
- ٣-٤-٥ موقع الجيش التركى قبل المعركة (على شكل مثلث)
- ٦ استحكامات لحماية وجهة الجيش التركى
- ٧ استحكامات لحماية ميسرة الجيش التركى
- ٨ آلاى من المشاة الترك فى اكمة محصنة تحمى الجناح الايمن
- ٩ بطارية من المدافع تحمى الاكمة المذكورة
- ١٠ خط سير الجيش المصرى يوم ٢٢ يونيه وانتقاله من موقعه الاول على نهر مزار الى موقعه الاخير استعدادا للاحاطة بالجيش التركى من الخلف

- ١١ الايان من المشاة مصريين احتشدا على يمين الجيش المصرى ومعهما بطاريقان مع المدافع لحماية أثناء انتقاله الى موقعه الجديد
- ١٢ الايان من المشاة والفرسان المصريين احتشدا على يسار الجيش لغرض المتقدم
- ١٣ قنطرة هركون التى عبر عليها الجيش المصرى نهر كرزين
- ١٤ موقع الجيش المصرى يوم ٢٣ يونيه على الضفة اليسرى لنهر كرزين بعد اجتيازه قنطرة هركون
- ١٥ خيمة ابراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى
- ١٦ خيمة سليمان باشا الفرنساوى
- ١٧ موقع المدافع التركية ليلة ٢٤ يونيه بعد عبور الجيش المصرى نهر كرزين
- ١٨ خط سير الجيش المصرى يوم ٢٤ يونيه للاحاطة بالجيش التركى
- ١٩-٢٠ موقع الجيش التركى عند بدء القتال بعد ان ادار وجهه الى الخلف استعداداً لملاقاة الجيش المصرى فى موقعه الجديد
- ٢١ استحکامات اقامها الترك أمام وجبة جيشهم
- ٢٢ الاكمة التى قصد اليها المصريون للتسلط على مواقع الترك ونصبوا فيها المدافع الثقيلة
- ٢٣ الايان من المشاة المصريين وأربعة الايات من الفرسان واربع بطاريات من المدافع الخفيفة فى أقصى اليمين لحماية هجوم الجناح الايمن على مواقع الترك
- ٢٤-٢٥ موقع الاحتياطى المصرى من المشاة والمدفعية الذين احتلوا الاكام
- اثناء تدمير الترك
- ٢٦ اتجاه تدمير الترك

نتائج الواقعة

بلغت خسائر الترك في معركة نصيبين نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح، وكان من قتلاهم بعض القواد والضباط، وأسروا منهم بين اثني عشر ألف إلى خمسة عشر ألف أسير، واستولى المصريون على نحو عشرين ألف بندقية و٤٤ مدفعاً، واستولوا في اليوم التالي على ٣٠ مدفعاً في حصن (بهرجك) وكذلك استولوا على خزانة الجيش التي لم يتمكن الترك من أخذها عند الهزيمة، وكان بها من النقد ما قيمته ستة ملايين فرنك

أما الجيش المصري فقد بلغت خسائره نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح، وهي خسارة عظيمة ولكنها كانت فدأً للنصر المبين الذي نالته مصر في هذه الواقعة قضت هذه الواقعة على قوة تركيا الحربية، وأُنقذت مصر من الخطر الذي كان يهددها من ناحية تركيا، وكان فيها أكبر انتصار حازه الجيش المصري في حروبه مع تركيا، وهي أعظم الوقائع التي خاض غمارها من جهة أهميتها الحربية ونتائجها السياسية، أما من الوجهة الحربية فقد رأيت أنها تفوق المعارك الأخرى في عظم الجهود والخسائر التي بذلت فيها، وأما من الوجهة السياسية فلأنها حفظت استقلال مصر، وكانت له بمثابة السياج الذي صانه من الخطر، فلو أن تركيا فازت في هذه المعركة لاستمرت في زحفها على سورية ثم على مصر، ولتضت على استقلال مصر وردتها ولاية تركية لا تمتاز عن سائر ولايات السلطنة العثمانية في شيء.

وهذه الواقعة تشبه أن تكون كواقعة (جيباب) التي فازت فيها جيوش الثورة الفرنسية على الجيش النمساوي وأُنقذت فرنسا من خطر الغارة عليها وصانت كيانتها، وكذلك كان شأن واقعة (نصيبين) بالنسبة لمصر

وكان وقع هذه المعركة أليماً شديداً الموض على تركيا، لأنها خاتمة الهزائم التي حاقت بجيوشها في معاركها المتعاقبة مع الجيش المصري

وفاة السلطان محمود

توفي السلطان محمود في أول يولييه سنة ١٨٣٩ قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه ، إذ كان على فراش الموت ، فأسلم الروح دون أن يعلم بالطامة التي حلت بالجيش التركي في تلك الواقعة الفاصلة ، وخلف بعده السلطان عبد المجيد في الوقت الذي ترزلت فيه قوائم السلطنة من ضربات مصر ، ولم تكن سن السلطان الجديد تتجاوز السابعة عشرة ، فلم يدر كيف يأخذ في أمره ولا كيف يتجه بين العواصف التي هبت على عرشه .

تقدم ابراهيم باشا

أما ابراهيم باشا فإنه استمر في تقدمه عقب انتصاره ، واحتل (بيردجك) على ضفة نهر الفرات اليسرى (ثم عينتاب) و (مرعش) و (أورفه)

تسليم الاسطول التركي

وأعقب هذه الواقعة كارثة أخرى أصابت تركيا في أسطولها ، وذلك أنه لما بدأت الحركات العدائية الاخيرة بين مصر وتركيا صدرت الأوامر للاسطول التركي بالتحرك من بوزاخر الدردنيل بقيادة القبطان أحمد باشا فوزي لمنازلة العمارة المصرية ، ولكن فرنسا وانجلترا أرسلتا بعض السفن لمنع التصادم بين الاسطولين تنفيذاً للخطة التي كان عليها العمل بينهما من الخيلولة بين تصادم مصر وتركيا

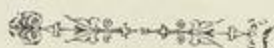
ولما هزم الجيش التركي في واقعة (نصيبين) وتولى السلطان عبد المجيد ورأى دعاء عرشه تنزول أمام فتوحات الجيش المصري ، جنح للسلم ، فبعث برسول يدعى (عاكف افندي) إلى مصر يعرض على محمد علي باشا عقد هدنة يمكن في خلالها إجراء

المفاوضات للاتفاق على حل يرضى الطرفين، وعهد اليه أن يأمر فوزى باشا قائد
العمارة التركية أن يعود إلى الاستانة، ولكن فوزى باشا كان قلقاً على مركزه بعد
موت السلطان محمود إذ كان مقر بالديه وله اختصاص به، فلما خلفه السلطان
عبد المجيد عين خسرو باشا (١) صدرا أعظم، وكان بينه وبين فوزى باشا عداوة
قديم، فعظمت وساوس فوزى باشا وظن أن استدعائه إلى الاستانة لم يكن إلا لعزله
أو لقتله، وزين له وكيله عثمان باشا أن يلتجئ إلى محمد علي باشا خصم خسرو باشا
القديم ويسلمه الاسطول التركي بأ كمله هدية خالصة، فينال منه المكافأة وحسن
الجزاء، فأصغى فوزى باشا لهذه المشورة التي تنطوي في ذاتها على الخيانة والدناءة،
وأقلع بالعمارة التركية وخرج بها من الدردنيل ومضى إلى الاسكندرية، وكانت
هذه العمارة على شأن من القوة، مؤلفة من تسع بوارج كبيرة (غلايين)
واحدى عشرة سفينة من نوع الفرقاطة وخمس من نوع السكورفت وعلى ظهرها
١٦١٠٧ من الملاحين، والايان من الجنود يبلغ عددهم ٥٠٠٠ ره فيكون
الجميع ٢١١٠٧

فلما وصل فوزى باشا على رأس هذه العمارة إلى رودس أرسل وكيله إلى محمد
علي باشا بمصر يخبره بعزمه فابتهج محمد علي بهذه الفرصة السعيدة ابتهاجا عظيما،
وأفند رسولا على السفينة البخارية (النيل) ليبلغه سروره مما أقدم عليه، ثم أقلت
الدونمة العثمانية من رودس بقيادة فوزى باشا وبلغت الاسكندرية، وكانت
الدونمة المصرية خارج البوغاز لاجراء التمرينات البحرية بقيادة الاميرال مصطفى
مطوش باشا، فدخلت الدونمتان إلى الميناء معاً، وعدد سفنهما نحو خمسين سفينة
حربية تقل نحو ثلاثين الف مقاتل، وعليها نحو ثلاثة آلاف مدفع، فكان منظر
دخول تلك العمارة الضخمة إلى ميناء الاسكندرية يملأ القلب جلالاً وروعاً، وصارت

(١) هو الذي كان واليا لمصر سنة ١٨٠٣ واشتهر بعدائه لمحمد علي

مصر بهذه القوة البحرية المزدوجة أقوى دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط
ولما علم جنود الاسطول العثماني بالأمر وكان مكتوما عنهم إلى ذلك اليوم هرب
بعضهم على الصنادل وعادوا إلى الاستانة
وتسلم محمد علي باشا هذا الاسطول الضخم ، فكان لهذا الحادث تأثير كبير في
سير المسألة المصرية لأن تسليم الاسطول التركي إلى مصر بعد انتصارها في معركة
نصيبين جعل كفتها الراجحة على تركيا في البر والبحر ، وبلغت مصر في ذلك الحين
أوج قوتها على عهد محمد علي



الفصل التاسع

معاهدة لندره

ومركز مصر الدولي

تدخل الدول بعد معركة نصيبين

ان انتصار الجيش المصرى فى معركة (نصيبين) قد وضع المسئلة المصرية والمسئلة الشرقية ومسئلة التوازن الأوروبى عامة موضع البحث والنظر، وهذه هى المرة الثانية التى استرعت فيها انتصارات مصر أنظار الدول الأوروبية وأوقعتهن فى الحيرة والارتباك ، فالمرّة الأولى كما تذكر كانت عقب انتصارات حمص وبيلا وبقونيه ، وهذه المرة الثانية بعد نصيبين ، وهذا يدل على مدى تأثير تلك الانتصارات الباهرة ، وحسبك دليلا على عظمها أنها هزّت كيان التوازن الأوروبى هزّاً ، وتداعت لها أركان السلطنة العثمانية ، وفتحت باب المسئلة الشرقية فتجددت أطماع الدول المختلفة بشأنها مما جعل السلام مهدداً فى أوروبا ، وإذا تأملت صرائف تاريخنا الحديث لم تجد لمصر من التأثير البالغ فى السياسة الدولية الأوروبية مثلما كان لها عقب معركة نصيبين، ولا يغيب عنك أن هذا يرجع أول وهلة إلى انتصاراتها الخيرية فى ميادين القتال ، تلك الانتصارات التى هى صفحة نثار لمصر وجيشها وقائده العظيم ابراهيم باشا ، وانك لتلمح عظمة ابراهيم من كونه قاد الجيش المصرى فى ميادين النصر الى حيث جعل تركيا والدول الأوروبية تقف مبهوطة مضطربة أمام وثبات ذلك الفاتح الكبير ، كأنما هى أمام القدر

ان النتيجة المنطقية لمعركة نصيبين كان يجب أن تكون إقرار مصر في حدودها التي نالتها بمقتضى اتفاق (كوتاهيه) أى أن تشمل سورية وجزيرة العرب ، واقليم أدنه ، وجزيرة كريت

ذلك ما يقضى به الانصاف ، لان اتفاق (كوتاهيه) الذى تقدم ذكره قد أبرمته تركيا سنة ١٨٣٣ ، وأقرته الدول الأوروبية ، وكان أساسا للحالة الحاضرة statu quo التي ما فتئت الدول تنادى بوجود المحافظة عليها ، وقد أرادت تركيا أن تنقض هذا الاتفاق بحمد السيف ، فتحرشت بالجيش المصرى وتحدثته الى القتال ، وهاجمت حدود مصر الشمالية التي رسمها اتفاق كوتاهيه ، وأجبرت مصر على خوض غمار القتال ، فوقعت معركة (نصيبين) التي انتهت بهزيمة الجيش التركى ، فالنتيجة العادلة لهذه الهزيمة أن يبقى اتفاق كوتاهيه مرعياً من تركيا ومن الدول ، وخاصة لان سورية أقرب الى الدولة المصرية منها الى تركيا ، اذ هى جزء من البلاد العربية التي جعل محمد على غرضه أن يؤسس منها الدولة المصرية ، فالعدالة ، والمصلحة السياسية والاجتماعية ، والنتيجة المنطقية للمعركة ، كل اولئك يقضى بالاعتراف باستقلال مصر التام وانفصالها عن تركيا وانضمام سورية اليها

ولو أن الدول الأوروبية عاملت مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان ، فى ثورتها على تركيا ، لما كان هناك شك فى إقرار تلك النتيجة ، لابل إن مصر أولى باقرارها على مطالبها العادلة ، لانها فازت على تركيا بقوة جيشها وحده ، اما اليونان فقد انهزمت امام تركيا ولم ينجها من آثار الهزيمة سوى مظاهره الدول الأوروبية وتحالفهن على تركيا ، ومع ذلك فان السياسة الدولية الأوروبية قضت لليونان باستقلالها التام ، أما مصر فقد حكمت عليها أن تبقى تحت السيادة التركية ، وان تتخلى عن سورية وجزيرة العرب وادنه وكريت ، وائتمرت بهما الدول وحاربتهما وقصّت اجنحتها وقضت عليها باضعاف قوتها البرية والبحرية كما سيحىء بيانه ، وهذه المقارنة تصوّر لك الفرق بين معاملة أوروبا لمة غربية ومعاملتها للأمم الشرقية ، وتريك المسكial الواحد يكبر ويصغر ، كأن فيه روح شيطان ...

موقف الدول

قلنا ان انتصار الجيش المصرى فى (نصيبين) حرك مسألة التوازن الأوروبى
والمسألة الشرقية ، فوقفت الدول الأوروبية مواقف مختلفة تبعا لاختلاف
اطماعها ونزعاتها

موقف روسيا

أما روسيا فقد انتهزت هذه الفرصة لبسط حمايتها الفعلية على تركيا بحجة
الدفاع عنها

موقف فرنسا

وفرنسا كانت تميل الى اقرار محمد على باشا على سورية وجزيرة العرب طبقا
لاتفاق كوتاهية ولما أدت اليه معركة (نصيبين)

موقف إنجلترا

وأما إنجلترا فانها جاهرت بعدائها لمصر ، واعلنت وجهة نظرها فى وجوب
المحافظة على كيان السلطنة العثمانية ، وان هذا الكيان لا يقوم إلا برد سورية الى
تركيا ، واخضاع محمد على بالقوة ، وأخذت تؤلب الدول الأخرى على مصر ليشتركن
معها فى اخضاعها ، ولم تسكن المحافظة على كيان السلطنة العثمانية هى وجهة نظرها
الحقيقية ، بل غايتها الجوهرية هى إضعاف الدولة المصرية لانها ترى فيها اذا قويت
مزاها لها فى سيادتها بالبحر الأبيض المتوسط ورقيا عليها فى طريقها الى الهند ،
ومن هنا كانت إنجلترا تتمسك بكل عزم وقوة بوجوب رد سورية الى تركيا لان
امتداد نفوذ مصر فى البلاد السورية يجعلها دولة بحرية قوية من دول البحر الأبيض
المتوسط ، ويجعل لها الاشراف على طريق الهند من ناحية الفرات والعراق ، فضلا
عن طريق البحر الأحمر وبرزخ السويس

وكانت تتمسك ايضا برد الاسطول التركى الى الدولة العثمانية لان اندماجه في

الاسطول المصرى يجعل لمصر قوة بحرية كبيرة تخيف انجلترا

ان عدا انجلترا لمصر من القواعد الاساسية لسياستها الاستعمارية ، فنجد
اخفقت في احتلالها البلاد سنة ١٨٠٧ رأت محمد على يعترضها في طريق مطامعها
الاستعمارية ، فينشئ على ضفاف النيل دولة مصرية قوية ، ويمد نفوذها الى شبه
جزيرة العرب ، ويصل الى نهر الفرات وشاطئ الخليج الفارسي ، وسواحل اليمن ،
وهذه البلاد كلها واقعة في طريق الهند ، فلا جرم ان تحق انجلترا على مصر الفتية
القوية وتبغيتها الغوائل وتدس لها الدسائس ، فالسياسة الانجليزية هي التي سعت
جهدها لتقليم اظفار مصر وقص أجنحتها ، وابقائها تحت السيادة التركية ، وانقاص
قوتها البرية والبحرية ، ترمى من ذلك الى اضعافها طبقا لمبدأ القديم وهو ألا تقوم
في مصر دولة قوية تعترض طريقها الى الهند ، كأن استعمارها للهند يقتضى استعباد
جميع البلاد التي في طريقها اليها ، وهذا من أغرب مايقضى به الجشع الاستعماري
وكان لها من اضعاف مصر غاية أخرى هي التمهيد لامتلاكها ووضع يدها
عليها عند ماتحين الفرصة ، ولو بقيت قوة مصر الحربية على ما كانت عليه في عهد
محمد على لتعذر على انجلترا تحقيق هذه الغاية ، فاضعاف قوة مصر هو من اغراض
انجلترا الاستعمارية ، وقد ظلت هذه الغاية من قواعد السياسة الانجليزية طوال
القرن التاسع عشر والى اليوم ، وأيدت الحوادث سوء نيتها نحو البلاد ، فانها أخذت
تتحين الفرص وتخلق المشاكل حتى احتلتها سنة ١٨٨٢

كانت انجلترا إذن قوام المؤامرة الدولية على مصر في عصر محمد على ، وقد
تولى وزارة خارجيتها في ذلك العصر سياسى ذاهية من اكبر ساسة الانجليز وهو
اللورد بالمرستون ، وكان مشبعا بروح العدا لمصر عاملا على اضعاف مكانتها وتقليم
اظفارها تنفيذا للسياسة التي أوضحنها ، فأخذ يبدئ مبادئه وافكاره بين الدول
الاوروبية ويعمل على انحيازها الى صف انجلترا في الواقعة بمصر ، وكان يتولى
السفارة الانجليزية بالاستانة في ذلك الحين سياسى أشد كراهية لمصر من اللورد

بالمرستون ، وهو اللورد بونسونبى ، كان يجاهر بعدائه لمحمد على باشا ، وما قىء
يدس الدسائس للإدارة المصرية فى سورية ويبدل المساعى المختلفة لاحتداث الثورات
والفتن فيها وتحريض سكانها على الانتفاض على الحكم المصرى ، ويحرض دولته
على محاربة محمد على باشا ، فكان لهذين الرجلين ، بالمرستون وبونسونبى ، أثر
بالغ فى تدبير المؤامرة الدولية وتأليب الدول على مصر

موقف النمسا وبروسيا

أما النمسا فكان وزيرها المشهور مترنيخ يميل الى تعزيز مركز تركيا لغرضين ،
أولهما ألا يجعل للروسيا ذريعة للتدخل فى شؤون تركيا وبسط حمايتها عليها ، فان فى
ذلك خطراً على النمسا ، و (الثنى) أنه كان ينظر الى قيام محمد على ضد تركيا كشورة
على الحاكم الرسمى ، ومبدأ مترنيخ مقاومة الثورات القومية التى يراد منها الخروج
على سلطة الحكومات الرسمية

ولم يكن لبروسيا اطاع خاصة فى هذه الازمة بل كانت ترمى الى المحافظة على
السلم اتقاءً للاخطار التى تنجم عن حرب اوروبية ، وكان ملكها يكره فرنسا من
ناحية أخرى لاسباب قومية ويميل الى السياسة المناقضة لسياسة فرنسا

موقف تركيا

تولى السلطان عبد المجيد عرش السلطنة بعد وفاة السلطان محمود الثانى وسنه
كما قدمنا لا تتجاوز السابعة عشرة ، خلف السلطان محمود والسلطنة تتداعى اركانها
تحت ضربات الجيش المصرى ، وتولى زمام الحكم والدولة لاجيش لها ولا اسطول ،
فرأى من الحكمة أن يمنح الى السلم والمفاوضة رأساً مع محمد على لحسم الخلاف بين
الدولتين بالحسنى ، ومع أنه استوزر خسرو باشا المشهور بعدائه القديم لمحمد على
وجعله صدراً أعظم إلا أنه هو وزيره أبديا رغبتهما فى احلال الصفاء والسلم بين

الدولتين محل الجفاء والخصام ، ولم يكند السلطان عبد المجيد يعتلى عرش السلطنة حتى أرسل الى محمد على مندوباً خاصاً وهو (عاكف افندى) يحمل كتاباً من خسرو باشا يعرب فيه عن عواطف السلطان الودية نحو محمد على ونسبته ما وقع منه فى الماضى ، ويخوله ملك مصر الوراثى ، ومع أن محمد على كان لا يثق بحسن نية خسرو باشا ولا يفتأ يطالب عزله إلا أن من المحقق أنه لو ترك الأمر للحكومة التركية وحدها لرضيت بإبرام الصلح مع محمد على باشا على قاعدة الاعتراف باستقلال مصر واقرار سلطتها فى سورية وجزيرة العرب

مذكرة الدول الى الباب العالى

٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩

لكن مطامع الدول أبت على مصر أن تجنى ثمار تضحيتها وانتصاراتها ، فقدم سفراؤها فى الاستانة مذكرة الى الباب العالى فى ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ يطلبون اليه باسم الدول الخمس ، النمسا ، والروسيا ، وانجلترا ، وفرنسا ، وبروسيا ، ان لا يبرم أمراً فى شأن المسئلة المصرية إلا باطلاعهم واتفاقهم ، وكان السكونت مترنيخ وزير النمسا الاكبر هو المقترح لهذه المذكرة ، ووجهة نظره أن يحول دون انفراد روسيا بالتدخل فى المسئلة الشرقية

وقد يبدو غريباً أن تشترك فرنسا فى هذه المذكرة ، وهى التى كانت تنادى بتأييد مصر فى تلك الازمة ، ولكن السياسة الفرنسية كانت فى مسلكها غير مستقرة ولا آخذة بالحزم واصله الرأى وبعد النظر ، فقد كانت تأمل عبثاً من تدخل الدول ان تصل الى التوفيق بين وجبى نظر مصر وتركيا بطريق الوساطة وكانت تقصد من جهة أخرى الى ان تدخل الدول فى حل الازمة يمنع انفراد الروسيا بحماية تركيا ، ولكنها بتخطيطها واضطرابها تركت الميدان للسياسة الانجليزية تملى فيه ارادتها على الدول الأخرى

كانت مذكرة الدول الى الباب العالى بمثابة إلغاء لنتائج معركة نصيبين ، وكانت

من هذه الناحية انتصاراً لوجهة نظر إنجلترا ، أما تركيا فقد وضعتها المذكورة تحت وصاية الدول الأوروبية ففقدت بذلك استقلالها الفعلي وقد انقضت أشهر في تبادل الآراء بين الدول الأوروبية بقصد التوفيق بين وجهات نظرها ، ولو سلمت فرنسا في خلال تلك الأشهر خطة الحكمة والحزم لوferت على مصر كثيراً من الاعباء والخسائر التي احتملتها فيما بعد ، فقد عرض اللورد بالمرستون حلاً وسطاً للتوفيق بين وجهة نظر إنجلترا وفرنسا ، وهو أن يعطى محمد على الحكم الوريثي لمصر وولاية عكا ماعدا مدينة عكا ذاتها أى جنوبي سورية فرفضت فرنسا هذا العرض وتمسكت بوجهة نظرها ، وكان هذا منها خطأ كبيراً تحملت مصر عواقبه ، فلو أنها قبلته لانتهت الأزمات بخير مما انتهت به بعد ذلك ، إذ أدى رفض فرنسا الى انفراد انكلترا بالعمل وتأليبها الدول الأوروبية لاذلال مصر كما سيجي بيانه

وانتهزت روسيا فرصة الخلاف بين فرنسا وإنجلترا في المسئلة المصرية فتوددت الى الحكومة الانجليزية ووافقتها على وجهة نظرها في المسئلة ، وأوفدت البارون برينوف Brunow الى لندره لتوكيد العلاقات بين الدولتين ، وأصبح سهلاً على إنجلترا وقد انضمت روسيا اليها أن تكسب الى صفها النمسا وبروسيا

تولى الميسو تيرس Thiers رئاسة الوزارة الفرنسية ووزارة خارجيتها في مارس سنة ١٨٤٠ ، وكان متمسكاً بوجهة نظر فرنسا في المسئلة المصرية ، وهي ضم سورية الى مصر وسعى في أن تنتهي هذه المسئلة بالاتفاق رأساً بين الباب العالي ومحمد علي ، وعلم اللورد بالمرستون بهذه المساعي ، فأخذ في احباطها ، وعارضها بالمفاوضة مع الدول الأخرى الروسية والنمسا وبروسيا وتركيا لتقرير الحل النهائي بمعااهدة تضع بها مصر وفرنسا أمام الأمر الواقع

إبرام معاهدة لندرد وشروطها

١٥ يولييه سنة ١٨٤٠

كانت نتيجة هذه المفاوضات إبرام المعاهدة الشهيرة بمعاهدة لندرد في ١٥ يولييه سنة ١٨٤٠ بين إنجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، والمعاهدة ملحق يتضمن الامتيازات التي تعهد السلطان بتحويلها محمد علي ، ويعتبر هذا الملحق جزءاً من المعاهدة ، وهالك خلاصة شروط المعاهدة والملحق

(اولا) ان يخول محمد علي وخلفاؤه حكم مصر الوراثي ، ويكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من سورية (١) المعروفة بولاية عكا (فلسطين) بما فيها مدينة عكا ذاتها وقلعتها ، بشرط أن يقبل ذلك في مدة لا تتجاوز عشرة أيام من تاريخ تبليغه هذا القرار ، وان يشفع قبوله باخلاء جنوده جزيرة كريت وبلاد العرب واقليم ادنه وسائر البلاد العثمانية عدا ولاية عكا ، وان يعيد الى تركيا اسطولها (ثانيا) اذا لم يقبل هذا القرار في مدة عشرة ايام يحرم الحكم على ولاية عكا ، ويمهل عشرة ايام اخرى لقبول الحكم الوراثي لمصر وسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وارجاع الاسطول العثماني ، فاذا انقضت هذه المهلة دون قبول تلك الشروط كان السلطان في حل من حرمانه ولاية مصر

(١) حددت هذه المنطقة في ملحق المعاهدة كياتي : يبدأ الحدمن رأس الناقورة على شاطئ البحر الابيض المتوسط (شمالى عكا) الى مصب نهر السيدبان في شمال بحيرة طبرية ، ثم يتبع الشاطئ الغربى لتلك البحيرة ، فالضفة اليمنى لنهر الاردن ، فالشاطئ الغربى للبحر الميت ، ومن نهايته يمتد على خط مستقيم الى رأس خليج العقبة على البحر الاحمر ثم يتبع الشاطئ الغربى لخليج العقبة ثم الشاطئ الشرقى لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها

(ثالثا) يدفع محمد على باشا جزية سنوية للباب العالي تتبع في نسبتها البلاد التي تعهد اليه ادارتها

(رابعا) تسرى في مصر وفي ولاية عكا المعاهدات التي ابرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها (الاساسية) ، ويتولى محمد على وخلفؤه جباية الضرائب باسم السلطان على ان يؤدوا الجزية ، ويتولون الانفاق على الادارة العسكرية والمدنية في البلاد التي يحكمونها

(خامسا) تعد قوات مصر البرية والبحرية جزءا من قوات السلطنة العثمانية ومعدة لخدمتها

(سادسا) يتكفل الحلفاء في حالة رفض محمد على باشا لتلك الشروط أن يلجأوا الى وسائل القوة لتنفيذها ، وتعهد انجلترا والنمسا في خلال ذلك ان تتخذوا باسم الحلفاء بناء على طلب السلطان كل الوسائل لقطع المواصلات بين مصر وسورية ومنع وصول المدد من احدهما للآخرى ، وتعزيد الرعايا العثمانيين الذين يريدون خلع طاعة الحكومة المصرية والرجوع الى الحكم العثماني وامدادهم بكل ما لديهم من المساعدات (١)

(سابعا) اذا لم يذعن محمد على للشروط المتقدمة وجرد قواته البرية والبحرية على الاستانة فيتعهد الحلفاء بان يتخذوا بناء على طلب السلطان كل الوسائل لحماية عرشه وجعل الاستانة والبواغيز بأمن من كل اعتداء

•••

تم ابرام هذه المعاهدة بأن وقع عليها كل من اللورد بالمرستون عن انجلترا ، والبارون نومان السفير النمساوي في انجلترا عن النمسا ، والبارون بيلوف عن روسيا ،

(١) ومعنى ذلك تحريضهم على العصيان لمناوأة الجنود المصرية داخل البلاد كي لا تتفرغ لمقاومة القوات الانجليزية والنمساوية البحرية والبرية التي اعترمت الدولتان تعيئتها لمحاربة مصر

والبارون برينوف عن روسيا ، وشكيب افندى وزير تركيا المفوض في لندره عن الباب العالي ، وقد أبرمت المعاهدة بغير علم مصر وفرنسا ، فقد فوجئت الحكومة الفرنسية بخبرها مفاجأة ، فلما أذيع نبأ إبرامها أدرك المسيو تيرس مافى هذا العمل من التحدى لفرنسا والغضب منها ، وكان من نتائجها أن هاجت الخواطر فيها وتوترت العلاقات بينها وبين إنجلترا ، وكادت تقع الحرب ، فأرغت فرنسا وأزبدت ، وأخذت تستعد وتحرض محمد على باشا على نبذ قرارات الدول ، لكنها أدركت آخر الأمر أن استعداداتها لا تغير من موقف الدول المؤتمرة ، وانها لا قبل لها بان تخوض غمار حرب أوروبية ، فتراجعت وتركت مصر وحدها أمام الدول المؤتمرة ، فاحتملت مصر نتائج سياسة فرنسا الخرقاء

ان معاهدة لندره تقضى بجعل حكم مصر وراثيا في أسرة محمد على ، أى باستقلال مصر الداخلى التام ، وارجاع مصر الى حدودها الأصلية قبل حروبها الأخيرة ، وحرمانها حكم جزيرة العرب وسورية وكريت واقليم ادنه ، وتخويل محمد على مدة حياته حكم سورية الجنوبية

ولعلك تلاحظ في هذه المعاهدة تعهد الدول باتخاذ وسائل العنف والقوة لتنفيذ شروطها في حالة رفض محمد على قبولها ، وتلاحظ أيضا تعهدا بحماية عرش آل عثمان والدفاع عن السلطنة العثمانية والبواغيز في حالة مهاجمة قوات محمد على البرية والبحرية لها ، وهذا يصور لك ما بلغته مصر في ذلك العصر من القوة والبأس مما دعا الخلفاء الى التسكاتف والتعاون لاجبارها على احترام معاهدة لندره وحماية تركيا من بأسها

دسائس إنجلترا في سورية

ارادت إنجلترا كما قلنا أن تضع مصر بهذه المعاهدة أمام الامر الواقع ، وأرادت أيضا ان تؤيد المعاهدة بالفعل ، فأخذت قبل امضائها تحرض سكان لبنان على خلع طاعة مصر ، ومما بذلته من الوسائل لهذا الغرض ان الورد (بونسونى) سفيرها

في الاستانة أرسل المستر (ريتشارد وود) ترجمان السفارة الانجليزية الى لبنان ، وكان قد تعلم اللغة العربية وجاب انحاء البلاد من قبل ، فأثار اللبنانيين واستمال اليه امرأهم ومشايخهم وكانوا ينفذون على الحكومة المصرية إشاراتها الأمير بشير الشهابي حاكم الجبل واختصاصه بالسلطة ، فأيدوا الثورة واتسع بهم مداها ، فعمت انحاء لبنان

فالثورة على الحكم المصري في سورية كانت كما ترى من عمل الدسائس الانجليزية ، قال الدكتور مشاقه وهو من معاصري تلك الحوادث في هذا الصدد ما خلاصته :

« دخلت سنة ١٨٣٩ والامور في سورية على مارويناه لك ، وبما أن دوام الحال من المحال شاء ربك تغييرا في البلاد ، فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية (الانجليزية) ونزل في كسروان وانتحل من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد ، دخل الرجل الذي سمينه جاسوسا ، واسمه الحقيقي وود وكان ترجمانا لتفصل دولته بالاستانة ، وأظهر في بادئ الأمر ميلا غريبا الى تعلم اللغة العربية ، وتغلب على أمياله لدرس احوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقاد وشاحا اعماها عن معرفة غرضه الرئيسي ، ولا مشاحة أن دولة الانجليز اكثر الدول استعمارا ، وكأنها اوجست خيفة من الدولة المصرية التي مع حداثة نشأتها أصبحت في مصاف الدول المبرقية ، وكأنها لحظت أن محمد علي باشا يطمع بعد ضم البلاد في احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها في تنظيم احوال الرعية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتقدمة ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا - نابليون مصر - بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها في الاستعمار ، فقامت مقاومتها ولذلك ارسلت رجلها الذي ذكرناه فأخذ يلقى بذور الشقاق في قلوب الاهالي ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية وجعل مركزه جبل كسروان » (١)

(١) مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ص ١٢٦

أخذ الثوار يناوشون الحاميات المصرية وقتلوا بعض الحكام المصريين ، وأعلنوا الامتناع عن أداء الضرائب والمؤن العسكرية ، ولكن ابراهيم باشا بادر بقمع هذا العصيان بما لديه من القوات ، وجاءه المدد من مصر بقيادة عباس باشا فأمكنه اخماد العصيان وأحرق بعض القرى وقبض على رؤساء الفتنة وعددهم ٥٧ رجلا ، وأبعدهم الى الاسكندرية ومنها الى (سنار) بأقصى السودان حيث بقوا بها الى أن انتهت الحرب واعيدوا الى بلادهم

ولم تنقطع الفتن في لبنان وسورية بل ظلت مستمرة خلال الحرب ، وكان لها أثر كبير في احراج مركز الجيش ، وأخذ سليمان باشا في تحصين (بيروت) وغيرها من الثغور السورية توقعاً لمحجى السفن الانجليزية

ورأت انجلترا في محمد علي عزيمة على المتابعة ، فقررت تجريد مصر من عمارتها البحرية لكيلا يستطيع محمد علي امداد قواته في الشام بطريق البحر فيعجزه ذلك عن امدادها برا بطريق الصحراء المقفرة التي تفصل مصر وفلسطين ، فأصدرت أوامرها الى الكومودور نابيه Napier قبل امضاء المعاهدة بالاقلاع باسطوله الى مياه مصر والشام ، وعهدت اليه اجبار محمد علي تسليم العمارة التركية وكلفته أسر العمارة المصرية أو تدميرها ، وكان بعض السفن المصرية الحربية وقتئذ في مياه بيروت ، فلما علمت فرنسا بهذا النبأ بادرت بارسال إحدى سفنها الى بيروت لا بلاغ ابراهيم باشا الخبير ، فعادت السفن المصرية من فورها الى الاسكندرية وجاء الكومودور (نابيه) الى بيروت فلم يجدها وظل في عرض البحر يرقب الفرصة السانحة لاختها

وأخذ محمد علي من ناحيته يرصد الابهة للمقاومة والدفاع ، وأصدر أوامره الى الاسطول بالمرابطة في ميناء الاسكندرية وعدم الخروج الى عرض البحر كيلا يستهدف للاسطيل الانجليزية ، لان حكومة انجلترا كانت ممضية عزمها على تجريد مصر من قوتها البحرية

وفي أوائل شهر اغسطس سنة ١٨٤٠ استفاضت انباء معاهدة لندرة في الشام

ومصر ، وأصدرت الحكومة الانجليزية أوامرها للأسطول الانجليزي بمحاصرة سواحل الشام ومصر وأسر السفن المصرية حربية كانت أو تجارية ، فرجع الكومودور (نابيه) الى بيروت واستولى في طريقه على كل مصادفه من المراكب وأعلن الجيش المصري باخلاء بيروت وعكا في أقرب وقت ، ونشر بين سكان سورية ولبنان منشورات انبأهم فيها بما تم عليه اتفق الدول في معاهدة لندره وخاصة ارجاع سورية الى الدولة العثمانية ، ودعاهم الى العصيان ونزع ايديهم من طاعة الحكومة المصرية ، فثار اللبنانيون على الحكم المصري عوداً على بدء

رفض محمد علي باشا

شروط المعاهدة

اغسطس سنة ١٨٤٠

كان محمد علي مصمماً على التمسك بالبلاد التي فتحتها الجيوش المصرية وأقرته عليها معاهدة كوتاهية ، وصمم ألا ينزل عن أي جزء من هذه البلاد ، وهو يعلم قبل إبرام معاهدة لندره ان الدول تأتمر به وأنها لا تحجم عن مهاجمة مصر ذاتها لا كراهها على التسليم ، وتنوى نزع سورية من أملاك مصر ، فأخذ في الاستعداد للدفاع ، وحشد الجنود في ثغور مصر ووزع السلاح على عمال المصانع (الفابريكات) وطلبة المدارس الحربية ، وعهد الى ابراهيم باشا أن يكون على أهبة القتال وأن يتفقد ثغور الشام وحصونها وخاصة عكا وبيروت ، وأمد الجيش المصري في سورية بالرجال والعتاد لم تعتبر المعاهدة إذن من موقفه ، واعتزم ألا يعمل بها وألا يقر شروطها ، وكانت فرنسا تحرضه على رفضها ، وتعهده ألا تتخلى عنه ، وتمنيه بأنها تدافع عنه بقوة جيوشها وأساطيلها ، فازداد تمسكاً بموقفه ، ولولم تعده الحكومة الفرنسية بمعاونته إذا حزب الأمر لكان له موقف غير موقفه هذا ، لأن محمد علي كان مشهوراً عنه الحكمة وبعد النظر ، وهو لا يفوته أن من وراء الطاقة ومن المتعذر على مصر محاربة دول خمس مجتمعات متآلبات عليها ، ولا يمكنه كان مطمئناً الى معاونته

فرنسا الحربية، فركب الشطط وارتدف العناد، وخسرت مصر من جراء ذلك حتوفاً ومزايا وتضحيات جسيمة، ويتبين لك مبلغ هذه الخسائر من المقابلة بين ما أقرته معاهدة لندره وما اضطرت مصر لقبوله بعد حرب شاقة تكبدت فيها متاعب وأهوالاً أرسلت تركيا مندوبها (رفعت بك) الى الاسكندرية لا بلاغ محمد على شروط المعاهدة، فوصل يوم ١١ اغسطس، والتقى بوكلاء الدول المتحالفة، واتفقوا على الخطة التي يتخذونها لتنفيذ ما تأمر به الدول

فبدأ رفعت بك بمقابلة محمد على في سراى رأس التين يوم ١٦ اغسطس، وأبلغه نبأ المعاهدة، وطلب اليه العمل بها، فغضب محمد على وأغلظ له في الجواب، وأقسم ألا ينزل عن شبر أرض من أملاكه

فلما رأى رفعت بك أن بلاغه لم يصنع شيئاً طلب الى وكلاء الدول أن يقوموا من ناحيتهم بتبليغ محمد على شروط المعاهدة، فجاءه قناصل إنجلترا والروسيا والنمسا يوم ١٧ اغسطس، وأبلغوه الشروط، وعرضوا عليه أن تكون مصر له ولورثته، من بعده، وأن تكون له ولاية عكا أى فلسطين مدة حياته، وأمهله عشرة أيام تهيأ فيها للقبول، ودونوا له مذكرة عليها توقيعاتهم، كتبوا فيها ما قالوه، وحذروه عواقب الامتناع عن تنفيذ المعاهدة

ولما انقضى الموعد ذهب اليه رفعت بك مصحوباً بوكلاء الدول ليتعرفوا ما استقر عليه، فألفوه على رفضه، وكان أشد تمسكاً بموقفه السابق، فاعتزم رفعت بك مغادرة الاسكندرية والسفر الى الاستانة، ولكن وكلاء الدول طلبوا اليه البقاء حتى يتموا الاجراءات التي تقضى بها المعاهدة

وفي اليوم التالى ذهبوا الى محمد على، وأبلغوه الانذار الثانى، فاستشاط غضباً وأجابهم بأنه سيرحف على الاستانة اذا تجددت الحرب

وإذ قد علم بعزم رفعت بك على السفر التفت الى وكلاء الدول الاربع وقال لهم: «أتعشم أن ترحلوا معه»

فأجابوه بان ليس لديهم تعليمات بمغادرة مرا كزهم، فقال لهم «ولكنى لم يعد

لى ثقة فيكم ، والعوائد المرعية تقضى فى حالة الحرب أن يرحل وكلاء اعدائنا عن البلاد ، فبقاؤكم لا يتفق مع هذه الحالة »

فانصرف الوكلاء من حضرته بعد أن امهلوه العشرة الايام الثانية المذكورة فى المعاهدة ليراجع رأيه ، وأبلغوه انه لم يعد له حق فى ولاية عكا ، ولا تسمح له الدول الا بولاية مصر له ولذريته

وفى خلال هذه المهلة استدعى محمد على باشا رفعت بك وعرض عليه انهاء الخلاف بينه وبين تركيا دون تدخل الدول الاجنبية ، على ان ينزل عن ولاية ادنه وجزيرة كريت وشبه جزيرة العرب ، وان يكتفى بملك مصر الوراثى وحكم سورية مدة حياته ، وسلمه كتابا بهذا المعنى برسم السلطان ، ولعله أراد أن يتفادى بهذه الوسيلة التقييد بميعاد العشرة الايام التى تقضى بها المعاهدة ، فان كتابه الى السلطان قد يفتح باب المفاوضة ، ثم هو لا يعد رفضا صريحا

ولكن رفعت بك ووكلاء الدول جاءوا فى نهاية الميعاد ، وطلبوا مقابلة محمد على ، فلم يقابلهم ، واستقبلهم بوغوص بك وزير الخارجية ، وسامى بك سكرتير الباشا ، وأبلغاهم بنبا الخطاب الذى كتبه الباشا الى السلطان ، وان هذا الجواب يعد قبولاً للمعاهدة ، فأجاب القناصل : واذا لم يقبل السلطان ان يخول الباشا حكم سورية فماذا يكون موقفه بعد ؟ فقال بوغوص بك وسامى بك انه ليست لديهما تعليمات للرد على هذا السؤال ، فاعتبر القناصل ان هذا الجواب معناه رفض المعاهدة ، وحرروا محضرا بذلك

وغادر رفعت بك الاسكندرية ذاهبا الى الاستانة ليبلغ الباب العالى ما حدث ، وحمل معه خطاب محمد على الى السلطان ، فتشاور الصدر الاعظم مع سفراء الدول فى الاستانة ، واستقر رأيهم على خلع محمد على من ولاية مصر وأصدر السلطان فرمانا بذلك ، أرسل من فوره الى الاسكندرية ، فوصل يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠ ، وبلغ الى محمد على

وفي اليوم التالي غادر وكلاء الدول الاراضى المصرية ، فأصبحت مصر في حالة حرب مع تركيا وحلفائها
وأخذ محمد علي يتأهب للحرب ، وبادر الى تقوية استحکامات الاسكندرية ،
وعهد بذلك الى لجنة مؤلفة من نجله سعيد بك (باشا) ، وسليم باشا ، والمسيو موجيل
والمسيو هوسار ، ومظهر افندى (باشا)

الحرب بين مصر والدول المتحالفة

وثورة السوريين على الحكم المصرى

انتهزت انجلترا فرصة ابرام معاهدة لندره وأخذت في تنفيذها بالقوة ، فأمرت
عمارتها البحرية بضرب الثغور السورية والاشتراك مع الجنود التركية في احتلالها ،
وكان ابراهيم باشا قد استعد للدفاع عنها فحاج الى بيروت وعسكر في ضواحيها
وفي خلال سبتمبر سنة ١٨٤٠ جاءت العارة الانجليزية الى بيروت بقيادة الاميرال
(استوفورد) Stopford للاشتراك مع الكومودور (نايبه) في ضرب بيروت
بالمدافع ، واشترك معها بعض السفن الحربية النمساوية والتركية ، وفي ١٠ منه جاءت
الحملة البرية ، وكانت مؤلفة من ١٥٠٠ من الجنود الانجليز و ٥٥٠٠ من العثمانيين ،
ونزلت هذه القوة في ميناء جونيه (١) تحت حماية العارة الانجليزية

وأرسل الاميرال الانجليزى انذارا الى سليمان باشا باخلاء بيروت فورا ، فطلب
سليمان باشا ميعاد اربع وعشرين ساعة كي يراجع ابراهيم باشا فى الامر فلم يقبل
طلبه ، وبدأ ضرب المدينة بالمدافع واستمر فى اليوم التالى حتى تهدم اكثر مبانيها ،
ولكن الحلفاء لم ينزلوا فى ذلك اليوم جنودهم الى المدينة خوفا من أن يظهر عليهم
الجيش المصرى

قلنا ان ابراهيم باشا كان على أهبة الدفاع عن سورية ، وكان لديه من المقاتلة

(١) شمالا ، بيروت وتبعد عنها نحو عشرين كيلو مترا

نحو تسعين ألف جندي ، ولم يكن لدى الحلفاء في بدء القتال سوى عشرة آلاف مقاتل على الأكثر ، ولذلك تردد قوادهم في احتلال بيروت رغم ضربها بالمدافع ، وبقيت وقتاً ما في يد الجيش المصري ، ولكن جدد في الموقف عامل جديد كان له تأثير سيء في مركز الجيش المصري ، ذلك ان الإنجليز قد بذروا بذور الثورة في نفوس السوريين واللبنانيين وألقوا في روعهم أن الدول المتحالفة مصممة على طرد الجيش المصري من الشام ، فانضموا اليهم وخاصة بعد ان وزع عليهم عمال الإنجليز الاسلحة والذخائر ، وبلغ عدد ما وزعوه عليهم من البنادق نحو ثلاثين ألف بندقية ، فتخرج مركز الجيش المصري وأدرك أنه صار هدفاً لنارين ، نار الحلفاء ونار الثورة ، وهذه كانت أشد وطأة من قوات الحلفاء ، فأثرت تلك الحالة في نفوس الجنود تأثيراً سيئاً نال من قوتهم ، وتقطعت مواصلات الجيش بين مختلف المدن

استيلاء الحلفاء على الثغور السورية

اشتبكت القوات المصرية المبعثرة مع قوات الحلفاء في بعض المواقع ، واستولى الحلفاء على (جبيل) شمالي بيروت ، ثم على البترون ، وكذلك احتلوا حيفا وصور وصيدا ، ثم سقطت بيروت في يد الحلفاء (١ أكتوبر سنة ١٨٤٠) بعد ان التقى المصريون والحلفاء في واقعة (بحر صاف) وكانت الغلبة فيها للحلفاء وكذلك جلا المصريون عن طرابلس واللاذقية وادنه من غير قتال ، فصار معظم الثغور في يد الحلفاء

سقوط عكا (نوفمبر سنة ١٨٤٠)

اعتزم الإنجليز احتلال عكا لانها مفتاح فلسطين والشام ، وكان لاحتلالها من الاهمية أكثر مما لبيروت ، فجاءت العمارة الانجليزية وأخذت تضربها بالمدافع

يومى أول و ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، ولكن ذهب الضرب عبثا وقاومتها الحصون والحامية المصرية مقاومة شديدة ، ثم جاءها مدد من السفن البريطانية ، فاعتزم الاميرال استوفورد استئناف الضرب يوم ٣ نوفمبر ، فاصطفت السفن الانجليزية فى ذلك اليوم ، وكان عددها نحو عشرين سفينة حربية ، وصبت قنابلها على الحصون وعلى المدينة ، فأجابت الحصون ضربا بضرب مثله ، ولكن حدث أن أصابت القنابل الانجليزية مستودع الذخائر ففسفته وانفجر انفجارا مروعا ، وهدم الانفجار نحو ثلث مباني المدينة ، وقضى على طابور باكله من المشاة ، فرأى قائد الحامية المصرية ان استمرار المقاومة لا يجدى ، فأخلى المدينة واحتلها الانجليز والتترك فى صبيحة اليوم التالى

وعلى أثر تسليم عكاسمت يافا ونابلس ، قنزل مركز الجيش المصرى فى الداخل لما اجتمع عليه من تقدم الحلفاء واحتلالهم الثغور ، وقطعهم المواصلات البحرية ، وثورة الاهلين ، وانفصل عنه الأمير بشير حاكم لبنان لما رأى نجمه آخذ فى الأفول ، وعرض على الحلفاء انضمامه اليهم واستأسر لهم ، فلم يطمئنوا له ، ونفوه الى مالطه (اول نوفمبر سنة ١٨٥٠)

انسحاب فرنسا من الميدان

وفى غضون هذه الحرب تغير مسلك فرنسا حيال مصر تغيرا عظيما ، فبعد ان كان الميسو تيرس رئيس الوزارة الفرنسية يشجع محمد على ويطويع له رفض مطالب الحلفاء ويعدده بمعاودة فرنسا له ، تراجع ونكص على عقبيه ، وتبين لمحمد على عدم استعداد فرنسا للحرب وانها لا تتم تأهبها الا بعد انقضاء ستة اشهر ، وظهر كذلك ان الميسو تيرس لم يكن جادا فى وعده ، ولو كان جادا لبادر بنجدة اليه فى سورية يتناسك بها الجيش المصرى ، لكن شيئا من ذلك لم يحصل ، وعهد الميسو تيرس الى سياسة التسوية فلم يعمل ولكنه سيعمل !! ، ثم أخذ يتراجع فى خطته ، فأوفد رسولا وهو الميسو والسكى الى محمد على باشا ليشير عليه بفتح باب المساومة مع

الباب العالى فى مطالبه ، فاتبع محمد على مشورته وعرض الصلح على قاعدة تخويله حكم مصر الوراثى فى اسرته وحكم سورية مدة حياته ، ونزوله عن كريت وادنه وجزيرة العرب ، ولكن الباب العالى رفض هذا الصلح

فخط سعى المسيو تيرس وأمن فى تراجعهم ، فاستدعى الاسطول الفرنسى الذى كان يرقب الاحوال فى مياه الشرق ، وأمره بالعودة الى فرنسا ، وهكذا أخفقت سياسة تيرس وتخط من فشل الى فشل وعرض كرامة بلاده للامتهان ، وجنى على مصر بان ورطها فى رفض شروط معاهدة لندره وسول لها ثم تخلى عنها وتركها وحدها ازاء الدول المتألبة عليها ، فأذعن وت اضطرت الى قبول شروط أسوأ مما عرض عليها فى المعاهدة ، فلم يجد المسيو تيرس تلقاء هذا الفشل الا ان يقدم استقالته فاستقالت وزارته فى ١ أكتوبر سنة ١٨٤٠ ، وليته كان من الممكن أن يستقيل عمله ...

وَألف المارشال سول Soult الوزارة الجديدة فنفضت يدها من المسئلة المصرية البتة وهكذا انسحبت فرنسا من الميدان ، وتركت مصر وجهها لوجه امام الدول الاوروبية ، بعد ان ورطتها فى مقاومة قرار الدول المؤتمرة ، وكانت هذه السياسة الخرقاء من فرنسا سببا فى ازدياد ضغط الدول على محمد على وانقاص المزايا التى سوغتها معاهدة لندره لمصر ، ولولم تحرضه فرنسا وتعهده وتقره لقبول شروط المعاهدة فكان لا يضطر بعد ذلك الى قبول شروط اكثر ضررا على مصر وأشد نكاية .

ولقد حاول بعض المؤرخين الفرنسيين ان يبرروا مسلك فرنسا فى أزمة سنة ١٨٤٠ ، فرغموا ان الحكومة الفرنسية افهمت محمد على من مبدأ الأزيمة أنها لا تحارب أوروبا تأييدا لمطالبه وان رُسُلها طلبوا اليه ان ينزل عن طرسوس وادنه ، وان الملك لويس فيليب وعده تلقاء ذلك ان يسعى لتخويله ولاية مصر والشام له ولورثته من بعده ، ولكن محمد على رفض ما عرضه لويس فيليب ، وسلك خطة

الانتظار والتردد ، فتارة كان يعد قناصل الدول بالخضوع للسلطان وطورا كان يبدى الرفض أن ينزل عن شيء

ويلاحظ لنا أن هذا الدفاع لا يستند الى وقائع صحيحة فان الثابت ان الحكومة الفرنسية هي التي أغرت محمد علي بسلوك مسلك التشدد ثم تخلت عنه في آخر لحظة ، وهكذا كان انسحاب فرنسا من الميدان سنة ١٨٤٠ شبيها بانسحابها من المسئلة المصرية سنة ١٨٨٢ ، أى بعد نيف وأربعين سنة ، فانها تركت انجلترا في آخر لحظة تعمل وحدها على تحقيق مظامعها في مصر

مهمة السكرمودور (نابيه)

ولما تم للحلفاء احتلال الثغور السورية وقطعت مواصلات الجيش المصرى بحرا أنفذ القائد العام لقوات الحلفاء الاميرال استوبفورد Stopford بعض السفن الحربية الانجليزية بقيادة السكرمودور السير شارل نابيه Napier الى مياه الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية امام الثغر لتهديد محمد علي باشا واجباره على الاذعان لمطالب الحلفاء

جاء السير شارل نابيه يقود العمارة الانجليزية ، وكان الشتاء قد اقبل ، فرأى ان التظاهر لا يصنع شيئا ، وانه لا بد لا كراه محمد علي على التسليم من قوة برية تحتل السواحل المصرية ، ولم يكن على ظهر العمارة الانجليزية جنود بريون ، فضلا عن ان فصل الشتاء يحول دون مرابطة السفن الحربية على مقربة من الشاطئ ، ولم يكن لدى الانجليز وحلفائهم من القوات البرية ما يكفي للنزول الى البر والاستظهار على الجيش المصرى ، لان الجيش كان على تمام الابهة لردعادية المعتدين ، ولولا ذلك لما ترددت انجلترا في اغتنام تلك الفرصة لتحقيق اطامعها القديمة واحتلال البلاد كما فعلت سنة ١٨٠٧ ، ثم سنة ١٨٨٢ ، فالقوة التي أعدها مصر للدفاع عن كيانها هي التي حالت دون مخاطرة الانجليز بانزال جنودهم الى الاراضى المصرية ، وهذا ما جعل محمد علي مطمئنا على مركزه ، ومما يذكر عنه في هذا الصدد ان قنصل

انجلترا (١) في مصر جاءه بعد التوقيع على معاهدة لندره وقابله بالاسكندرية وتهده
بان الدول مستعدة لاجباره بالقوة على الاذعان لشروطها ، وان انجلترا وحدها
كفيلة بذلك ، ففهم محمد على ان القنصل يرمى الى التهديد باحتلال مصر ، فاجابه
في لهجة الحزم « اذا كانت الدول المتحالفة تريد أن تكرهني بالقوة على الاذعان
فلتفضل بالجيء ، فاني على استعداد لمقابلتها ، واذا كانت انجلترا تريد ذلك وحدها
فاني اكثر استعداداً لمقابلتها ، اني لا أهاجم أحداً ، ولكنني مستعد للدفاع عن
البلاد حتى آخر نسمة من حياتي »

وقد تأثر محمد على من هذه المناقشة ، وقال لمن حوله « ان الانجليز يتهدونني
بالنزول الى بر مصر ، فليجربوا ! وليسفدوا وعيدهم ! فيسرون أننا على استعداد
لملاقاتهم ، وان الأجنة في بطون امهاتهم ستشارك في قتالهم » (٢)

يتبين مما تقدم ان محمد على كان على تمام الالهبة للدفاع عن البلاد ، ولقد
ادرك الكومودور نابيه أن لا سبيل الى اخضاعه بالقوة ، فرأى أن يجرب معه
خطة المفاوضة والمسالمة ، فوفد له رسولا يحمل اليه خطاباً (٣) يعرض عليه فيه رغبة
الدول في أن تكفل له ملك مصر الوراثي على أن يرد الاسطول التركي الى الباب
العالى ، وان يسحب جنوده من سورية ، وأعرب له في الخطاب عن مقاصده
الودية نحوه ، وانه انما ينبغي ابداء النصيح اليه حقناً للدماء ، ولم يفته في كتابه ان
ينبهه الى الخطر الذي يستهدف له اذا هو أصر على الحرب ، وان مصر ليست في
المناعة التي يعتقدونها محمد على ، وأن الاسكندرية يمكن أن تسقط كما سقطت
عكا من قبل

كانت هذه الرسالة كلمة من سلم وكلمة من حرب ، ثم أعقبتها خطوة أخرى من
الكومودور ، ذلك انه جاء بنفسه وطلب مقابلة محمد على ، فاذن له فيها ، فعرض

(١) الكولونل هودج Hodges

(٢) موريه . تاريخ محمد على ج ٤ ص ٢٥٣

(٣) بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠

عليه الاذعان لمطالب الحلفاء ، وكانت عباراته في المقابلة أشد من أسلوبه في الرسالة ، فأصر محمد علي باشا على الرفض ، قهده نايبيه باحراق المدينة ، فلم يعبا بوعيده ، وأجابه في هدوء وسكينة « هيا فاحرقوها » ، فانسحب نايبيه ، وأمهل محمد علي اربعا وعشرين ساعة ليقرر رأيه الذي سيستقر عليه .

فكر محمد علي في الموقف مليا ، فرأى من الحكمة السياسية ان يمنح الى السلم ويقبل العرض الذي عرضه الكومودور نايبيه ، إذ لا طاقة لمصر بمحاربة الحلفاء مجتمعين ، وخاصة بعد تخلي فرنسا واذحائها من الميدان ، كما ان انباء الحرب في سورية تدل على حرج مركز الجيش المصري هناك ، فان سقوط الثغور وخاصة عكا في يد الحلفاء ، وانسحاب الحاميات المصرية منها ، وقيام الثورات والفتن في مختلف النواحي ، مما رجح عنده فكرة الانسحاب من سورية ، فبادل الكومودور نايبيه المفاوضات في سبيل الصلح ، وانتهت بعقد اتفاق وقع به بغوص بك وزير خارجية مصر والكومودور نايبيه (١)

وهذا الاتفاق يقضى بان يجلو الجيش المصري عن سورية ، ويرد محمد علي الاسطول التركي الى الباب العالي ، مقابل تخويله ملك مصر الوراثي بضمانة الدول وقد رفض الاميرال استوفورد قائد القوات البريطانية الاعتراف بهذا الاتفاق بحجة أن الكومودور نايبيه لا يملك عقده ، ولم يكن منوطا به اجراء المفاوضات فيه ، وكذلك رفضه السلطان وتشبث بعزل محمد علي ، واعترض عليه اللورد بونسونبي سفير إنجلترا في الاستانة وأعلن بطلانه ، لكن اللورد بالمرستون رأى فيه فضا لأزمة خطيرة لم يكن معلوما مدى عواقبها ، فأعلن باسم الحكومة إجازته للاتفاق ، وحمل الدول على قبوله ، فأرسلت إنجلترا والنمسا وبروسيا والروسيا الى الباب العالي مذكرة (في ٣٠ يناير سنة ١٨٤١) تطلب فيها اليه الرجوع عن قرار العزل وتخويل محمد علي حكم مصر الوراثي ، فاستجاب السلطان الى طلبات

(١) بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، وقد نشرناه في قسم الوثائق التاريخية

الدول كما سيحجى بيانه ، وفي غضون ذلك ارسل محمد علي باشا الى ابنه ابراهيم بأمره بالجللاء عن سورية والعودة الى مصر تنفيذا لاتفاقه مع نابييه

اخلاء الجيش المصري سورية

اذعن ابراهيم باشا للأمر ، وأخذ يتأهب لاختلاء البلاد ، فبدأ رجوع الجيش المصرى فى اواسط ديسمبر سنة ١٨٤٠ واحتشد بالقرب من دمشق تمهيدا للانسحاب جنوبا ، فأخلاها فى ديسمبر سنة ١٨٤٠ ، وكان عدد الجيش المصرى وقتئذ نحو سبعين ألف مقاتل يتبعهم عدة آلاف من افراد الاسر والبيوت المصاحبة للجيش من الموظفين وغيرهم ، ولاقى الجنود والملكيون متاعب هائلة فى انسحابهم لما أصابهم من الاعياء والجوع والعطش والتعب فى قطع المسافات الشاسعة ، وما تحمّلوه من نقل المئات والمدافع ، وما استهدفوا له من مناوشات العرب فمات كثير منهم فى الطريق ، وسار الجيش فى انسحابه الى (المزيريب) شرقى بحيرة طبرية ، ومن هناك توزع الى ثلاثة فيالق أخذ كل فيلق طريقا الى مصر ، فالفيلق الأول وهو مؤلف من المشاة والخيالة النظاميين أخذ سبيله بطريق غزة فالعريش ، وكان يتولى قيادته احمد المنكلى باشا ، والفيلق الثانى بقيادة سليمان باشا الفرنساوى وكان مؤلفا من المدفعية ، سار بطريق الحج الى معان ومنها الى العقبة فالتخل فالسويس ، والفيلق الثالث وكان مؤلفا من جنود الحرس وفرسان الهنادى والباشبوزق بقيادة ابراهيم باشا اتخذ سبيله الى غزة ومنها بحرا الى مصر

وقد لقي فيلق المنكلى باشا الالهوال فى طريقه ، وفقد عددا كبيرا من رجاله بسبب الجوع والعطش والاعياء ووعورة المسالك ومناوشات العربان ، وخسر هذا الفيلق نحو نصف رجاله

وسار فيلق سليمان باشا من طريق معان والعقبة ، وكابد كذلك المتاعب المهلكة ، غير أنه لم يلق مالمقية الفيلق الأول وفقد من رجاله نحو الف وخمسمائة ووصل الفيلق الثالث بقيادة ابراهيم باشا الى غزة بعد مالتى الالهوال فى طريقه ،

ومات عدد كبير من جنوده ومن الموظفين والنساء والاطفال الذين صحبوه
في الانسحاب

ولما وصل غزة أرسل ابراهيم باشا الى ابيه يطلب اليه امداده بالمؤن والملابس
والسفن لتتنقل الجيش بحرا الى الاسكندرية، وأخلى غزة يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٤١،
وبذلك تم اخلاء الجنود المصرية لسورية

وقد بلغ عدد الجنود الذين عادوا الى مصر نحو أربعين الف مقاتل، أى ان
ما فقدته الجيش خلال الانسحاب بلغ نحو ثلاثين الفا، اما الخسائر من المملوكين
فلم يتناولها احصاء دقيق، وقد أورد المسيو مورييه Mouriez (١) احصاء مروعا
قد يكون فيه ثمة مبالغة، لكنه يدل على هول الخسائر التي حاقت بالمصريين في
انسحابهم من سورية، فقد ذكر ان عدد افراد الجيش والملحقين بهم من المملوكين
والموظفين وعائلاتهم وحاشيتهم كان قبل الانسحاب ٢٠٠ الف نسمة، فلم يرجع منهم
سوى ستين الفا، وقال تعليقا على هذا الاحصاء ان هذا الانسحاب وما اقترن
به من الأهوال والضحايا يعد من افظع ما روى عن فجائع تفهقر الجيوش في التاريخ

رأى مؤرخى سورية في الحكم المصرى

طويت صحيفة الحكم المصرى في سورية بجلاء الجيش المصرى عنها،
وصار ما له وما عليه ملكا للتاريخ، ولعلك لاحظت مما فصلناه فيما تقدم ان
انتقاض السوريين على الجيش المصرى كان من اهم البواعث التى حملت محمد على
على تقرير الجلاء عن سورية، ويجمل بنا في هذا المقام ان نثبت ما ذكره مؤرخو
سورية عن الحكم المصرى لمناسبة انتضاء عهده، والمقارنة بينه وبين الحكم
التركى، وما اخذوه على السوريين واللبنانيين من الاستجابة لدسائس الانجليز
والترك وقيامهم في وجه الادارة المصرية والجيش المصرى، واعتبار هذا المسلك من
غلطات سياستهم القومية، وفي هذا القول شهادة انصاف للحكم المصرى

قال الاستاذ محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى العربى فى كتابه خطط الشام^(١) ما يلى :

« كانت حسنات حكومة محمد على فى الشام اكثر من سيئاتها ، لانها وضعت أصول الادارة والحياية ورفعت أيدي أرباب الاقطاعات واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك إلا الامير بشير الشهابى والى لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد على فى مصر وظل يتصرف ببلبن ، وبذلك رفعت سلطنة المشايخ والأمرء المستبدين ، قال مشاققة^(٢) وكانت الدولة التركية خبيرة بأحوال الشعب اكثر من الدولة المصرية ، فبعثت تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة طمعا بارجاع نفوذهم ، وكان النصيرية أول من شق عصا الطاعة ، وتبعهم الدروز فى حوران ووادي التيم ، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم فى الشام فى الحروب والقتال

« ومن مآثر الحكومة المصرية التى عددها مشاققة تنجيفها المستنقعات وتصريف الاقدار فى مجار خاصة ، وتحديد اسعار اللحوم ، والعدل بين الرعايا على اختلاف اديانهم وطبقاتهم ، لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ، وانفاق كل مال فى وجهه المخصص له ، ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها الحساب لانه اعتاد ان يكون محكوما لا حاكما نفسه ، عبدا لا حرا »
وقال فى موضع آخر

« اثبتت حكومة محمد على فى فتوحها ان المصرى بل العربى اذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن الغربيين فى سيرته وجلادته ، وأنه لم يضره فى القرون الماضية إلا فناؤه فى الحكومة التركية ، وكانت حكومة محمد على من أفضل ما رأت الشام

(١) ج ٣ ص ٦٦

(٢) هو الدكتور فيخايل مشاققة مؤلف كتاب مشاهد العيان بحوادث سورية ولبنان

من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، بل ان الشام في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلا عما يماثلها ، كتب المستر برانت قنصل بريطانيا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة سنة ١٨٥٨ م . ماتعريبه : لما كانت الالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة ، والى حراثة الاراضى المهملة ، وهذا ماحدث خاصة في حوران وفي الارحاء الواقعة حوالى حص وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية ، وفي هذه الاماكن اكره العرب على احترام سلطة الحكومة ، وجعل السكان بآمن من اعتدائهم ، وكان الشام باسره تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذى يبلغ عدده زهاء ٤٠٠ الف جندى من منظم وغير منظم بامرة ابراهيم باشا ، فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الاهلين وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما أن نشاط ابراهيم وحزمه وطدا الأمن ، ومد رواق الثقة ، وقد عدت الحكومة ظلمة لكنها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك ، إذ كان عليها ان تصلح عدة أمور مختلفة ، وان تبدل الفوضى والتعصب والقلال التى كانت سائدة بالعدل

« فاصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات (رؤساء الجند) امتعضوا كثيرا من ذلك لانهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة ، وقد سر هؤلاء كثيرا خلاصهم من الظلم الذى أنوا تحت عبثه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم الى درجة من الذل لا تطاق ، ولم يكن الفلاحون أقل سرورا منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغالاهم ولا يؤخذ منهم شئ دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين »

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذات لزيادة الخاصلات ، وكم من مرة ذهبت الجنود بامر ابراهيم باشا لاتلاف بيوض الجراد وما نفق منها ، وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تنرقى فى مدارج النجاح والتماء ، فلو طال عليها الحكم المصرى لاستعادت الشام قسما عظيما من وفرة سكانها القدماء وأصاب شطرا كبيرا من الثروة التى كانت فى الماضى وآثارها لم تنزل ظاهرة للعيان فى القرى والمدن العديدة فى جهات حوران ، وفيما وجد فى البادية حيث ترى فيها الطرق التى اختطها الرومانيون

قال : « ولم يكند المصريون يطردون من البلاد ويتملص ظل سطوتهم — وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد — حتى عاد القوم الى نبد الطاعة ، وخلفت الرشوة والتبذير فى ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومنيت المداخليل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، نخلت القرى والمزارع المأهولة جديدا بالتدريج ، حتى أمكن القول انه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والأموال ، وكل شئ يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التى تركها المصريون »

ونقل الاستاذ محمد كرد على بك نبذة عن كتاب (برييه) وما كتبه اطراء للحكم المصرى ثم قال تعليقا عليه (١)

« هذا هو الانصاف فى الحكم على حكومة ابراهيم باشا ، وما هى فى الحقيقة الا روح محمد على الكبير الذى كان يستمد منه ابنه ، ولا يصدر الا عنه فى الخطوب ، ولا يقطع امرا دون الرجوع الى رأيه حتى جاءت احكام المصريين نموذجا فى الادارة ، ولو أرادت الدولة العثمانية أن تستفيد من هذا الدرس لأرادت عملها على تطبيق خطط ابراهيم باشا فى الاصلاحات التى قام بها خلال التسع السنين التى قضاه فى هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال والغرور ، لا يعمدون الى حسن الادارة ولا يتظاهرون بالاحسان الا يوم الشدائد ، فاذا زالت عادوا الى طبائعهم

في إعنات الرعية والقاء الجبل على الغارب ، ونسوا ما أعطوا من عهود وما وضعوا من القوانين ، وهذا ما دعا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار ، وهو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة البريطانية التي حملت الدول على موافقتها على رأيها لا مال لها تريد تحقيقها في مصر والشام ، لتكون هي الحاكمة المتحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا وتساهمها سياستها احيانا ، وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها من البحر المتوسط ، واذا اردنا ان ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على أمانى محمد علي بل امان العرب من انشاء دولة عربية »

وقال في موضع آخر :

« ولم يلبث القصد على ابراهيم باشا الا لما دخلت اصابع الأجانب وأخذوا يشيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال ، واما المدن والسواد الاعظم من الناس فقد استقبلوه وأخلصوا له وشعروا بحسن ادارته . الى ان قال : « ولقد تجلّى في وقائع محمد علي في الشام تجليا لا مجال للريب فيه ، ان اختلاف المذاهب وتباين التربية كان من العوامل القوية في ابقاء الفتنة بين ابناء هذا الوطن ، وأن دول اوروبا عند اغراضها تستحل بث بذور الشقاق بين المتآلفين ، وتستخدم وسائل غريبة في تكدير صفاء الأمنين وتبعث بعقول السذج المساكين ، وانها قلما اهتمت لمصلحة أمة من أمم الشرق ، بل تهمها مصلحتها فقط ، ولو كانت تريد الخير للشام لتركته يسعد ويرق بحكم محمد علي الذي كان باقرار رجالها من أرقى ماعهده البلاد منذ قرون ، ولعل ابناء الشام أيقنوا بخطأهم في الانتقاض على الحكومة المصرية التي هي مثلهم عنصراً ولغة وعادات وانهم كانوا على ضلال في الحنين الى حكم العثمانيين ، وما كان من حقهم ان ينسوا في سنين قليلة كيف كان حكمهم يسارعون في الانتم والعدوان » وقال في موضع آخر :

« تبين الفرق بين الإدارتين المصرية والعثمانية ، ولو طال عهد المصريين أكثر — وكانوا في صدر الفتح يتخوفون بأدارة العثمانيين كل حين — سعدت البلاد حقيقة وأيقن حتى من كانوا ينعمون من دماء الأمة على العهد العثماني أن طريقة المصريين في المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة ، والشدة في انفاذ القوانين ، وتقليد الغرب في كل أمر جوهرى ، أفضل طريقة لراحة البلاد ، وكان يرجى أن يألفوا في مدة قصيرة ما تأصل في فطرتهم على توالى القرون وتعودوه من حكم ارباب الاقطاع الذين صدمهم المصريون عن تجارتهم الشائنة التى أفوها زمن العثمانيين ، وهى الاتجار بالجباية يجبرونها اضعافا ويسلبون الباقي من دم الأمة بمرأى من الحكومة ومسمع ، ولم تكذب على الجنود المصرية بلاد الشام حتى رجعت الى حالتها قبل المصريين واثارت العداوات القديمة فى الصدور وزادت الدسائس الاجنبية »

هذه الشهادة ناطقة بحسنات الحكم المصرى فى سورية ، وبما كان له من الفضل فى نشر لواء الحضارة والعدل وال عمران فيها ، وإنه لقول حق ما ذكره الاستاذ محمد كرد على بك من أن الدسائس الاجنبية وخاصة الانجليزية هى التى خلقت العراقيل أمام الادارة المصرية فى سورية ، فلولا تلك الدسائس لسعدت سورية بانضمامها الى مصر ولتألفت منهما الدولة المصرية العربية التى كانت على عهد الفاطميين والايوبيين والدولتين البحرية والبرجية ، ولكن المطامع الاستعمارية أحاطت مصر الفتية بالدسائس والفتن ، وهذه الدسائس هى التى اعترضت مصر فى طريق تقدمها ، وناهضتها فى سورية ، وفى كل ناحية ، داخل مصر وخارجها ، وحالت دون تأليف الدولة المصرية الكبرى التى كان محمد على يعمل لها ، وما فتئت انجلترا تدبر المكاييد وتخلق المشاك كل طوال القرن التاسع عشر حتى أوقعت مصر فى ازمة سنة ١٨٨٢ فالسياسة التى رسمتها انجلترا ازاء مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر هى التى أملى عليها خططها فى مناهضتها والكيد لها فى الداخل والخارج ، ولم تنل منها فى عهد محمد على بمقدار ما نالته فى عهد خلفائه ، ذلك لما كانت عليه مصر على عهده من القوة والمنعة ، فلم تراخت القوة ، وتفرقت الكلمة ، وانفتحت الثغرات ،

تربصت انجلترا بالبلاد حتى احتلتها سنة ١٨٨٧ ، ذلك الاحتلال الذي لانزال
نعانيه الى اليوم

لم أكن من جناتها علم الله وانى بحرّها اليوم صالى

إخلاء جزيرة العرب

كان محمد على يحرص قبل معاهدة لندن على استبقاء نفوذه وسلطته في الحجاز
لما في ذلك من اعلاء هيئته في انحاء العالم الاسلامى باعتباره حاميا للحرمين ، ولذلك
ماقتى يعمل منذ الحرب الوهابية على توطيد مركزه في ربوع الحجاز وفي شبه
جزيرة العرب ، وباسناد تركيا ولاية جدة الى ابراهيم باشا قد خولته حقوق السيادة
التي كانت لها في شبه جزيرة العرب ، واتصل امام مستط بمحمد على بروابط الود
والصداقة والولاء.

على أن القوات الحربية المصرية التي استقرت هناك كانت دائما عرضة لتوئب
القبائل ، وقد نازعه في بسط نفوذه عامل آخر وهو السياسة البريطانية الاستعمارية ،
فان انجلترا بعد أن وضعت يدها على عدن كانت تنظر متوجسة الى القوات المصرية
المجاورة لها في اليمن ، واحتجت بان هذا الجوار مما يثير في نفوس الالهائى روح
التعصب الدينى ، على أن محمد على ظل محافظا على سلطة مصر في جزيرة العرب
رغم ما يقتضيه ذلك من النفقات الطائلة الى أن تخرجت الحلة في ختام سنة ١٨٤٠
ورأى ملك مصر مهددا في سوريّة فالتجّع قواته من الجزيرة

فالقوات المصرية بقيت محتلة الحجاز ومعظم جزيرة العرب مدى عشرين عاما
تخلاتها ثورات عدة احتملت مصر في سبيل اخادها متاعب هائلة ونفقات طائلة ،
وانا ذاكرون هنا لمعة من تاريخ الحكم المصرى بها وما اعترضه من العقبات
ففي سنة ١٨٢٤ نار الوهابيون في بعض البلدان فاشتبكوا في مناوشات مع
القوات المصرية حتى ظهرت عليهم

وفي سنة ١٨٢٧ نشبت ثورة في مكة حيث قتل الشريف يحيى ابن أخيه

لاتهامه بالاثمار به والتواطؤ عليه مع احمد باشا يكن والى الحجاز من قبل محمد على ، ولما كان يتوقعه الشريف من عواقب انتفاضه غادر مكة ولاذ بقبيلة حرب واستصرخها ، فثارت في وجهه السلطة المصرية

فقام احمد باشا يكن لمحاربتها وقصاصها ، لكنه انهزم بالقرب من جبل عرفات واشتد بذلك ساعد الثوار وانضمت اليهم القبائل ، فلما علم محمد على بنياً هذه الثورة أنفذ الى الحجاز مدداً من خمس أوط من الجنود النظامية والفرسان ، وعين الشريف محمد بن عون الذى كان نزيل القاهرة شريفاً لمكة بدلاً من الشريف يحيى الثائر ، فذهب بن عون صحبة المدد المصرى الى الحجاز ، فتشجع احمد باشا يكن بهذا المدد واستظهر به ، وضرب الحصار على (الطائف) حيث امتنع الشريف الثائر واتباعه ، ثم توقع الشريف سقوط لمدينة في يد الجيش المصرى ففر منها ، فتعقبه الفرسان وما زالوا على أثره حتى أخذوه هو وثلاثة من أشرف مكة الذين ناصروه في ثورته ، فجئ بهم إلى القاهرة واستبقاهم محمد على رهائن في يده ليضمن استقرار الأمن في الحجاز

وفي سنة ١٨٢٩ ثارت هناك بعض القبائل وامتنعت عن اداء ما كان مضروباً عليها سنوياً من البن ومقداره ١٢٠٠ قنطار ، فأنفذ محمد على إلى جدة قوة جديدة لاعادة النظام واقراره

وفي سنة ١٨٣٢ شبت في جدة فتنة عسكرية قوامها بعض الضباط من العناصر غير النظامية من بقايا الجيش القديم ، وكان والى الحجاز وقتئذ خورشيد بك ، فطالبه الضباط والجنود ومعظمهم من الارناءود والترك بما تأخر من عطائهم ، وساروا بمجموعهم إلى مكة يتبعون زعيمهم (زناز اغا) و (تركى بيلمز) ، فتوسط الشريف مكة بين خورشيد بك والمتمردين واتفقوا على أن يعود هؤلاء إلى جدة ويوافيهم بها خورشيد بك ، فذهب اليهم ولكنهم أسروه ، ونادوا بتركى بيلمز واليا على الحجاز ، وكان هذا العمل هو المجاهرة الصارخة بالتمرد والفوضى ، وانضم أهالى مكة إلى المتمردين نكابة بالمصريين ، فشبت نار القتال بين الجنود المتمردين والحامية المصرية ، لكن الحامية ردتهم على أعقابهم

وفي خلال هذه الفتنة ورد الى مكة نبأ استيلاء الجيش المصرى على عكا ، وكانت الحرب السورية الأولى مستعرة ، فأخذ هذا النبأ جذوة المتمردين ، ولما علم الباب العالى بالفتنة ابتهج بها وأرسل فرمانا إلى (تركى بيلمز) يقره والياً على الحجاز نكايه بمحمد على وتشغيلاً عليه .

وصل نبأ هذه الفتنة إلى مصر ، فبادر محمد على إلى إنفاذ الأوامر السابع من الجنود النظامية و ١٥٠٠ من الفرسان ، فبلغت عدتها نحو ٤٠٠٠ مقاتل ، وعقد لواءها لآحمد باشا يكن (١) وجعله رئيساً لعسكر الحجاز ، وناط به اخماد الفتنة ، وكان محمد على عظيم الاهتمام بتوطيد نفوذ الحكومة المصرية فى الحجاز واليمن لما للحرمين الشريفين من الأهمية السياسية والدينية ، ولأن ثغور الحجاز واليمن هى العنود الوثيقة فى خيط الاتصال بين مصر ومتاجر الهند وجزيرة العرب

وصلت الحملة المصرية بقيادة آحمد باشا يكن إلى ينبع ، وسارت منها إلى جدة فاحتلتها بعد أن انسحب منها تركى بيلمز إلى (قنفذة) وكانت بها حامية مصرية ، فلما امتنعت عليه استمر فى انسحابه إلى (الحديدة) من ثغور اليمن ، ثم استقر فى (مخا) ، ولم يقو إمام (صنعاء) على رده ، فعهد محمد على إلى آحمد باشا يكن وإلى الحجاز بمطاردته ، وفى سنة ١٨٣٣ سار إليه فى خمسة عشر ألف مقاتل ، وكان شيخ العسير موالياً للجيش المصرى ، فحاصر (مخا) حتى فتحها عنوة ، وهرب تركى بيلمز والتجأ إلى إحدى السفن البريطانية ، وبذلك انتهت الفتنة ، ولكن شيخ العسير نهب مخا نهباً مدمراً وكانت مستودعاً لمتاجر الهند فبارت التجارة الهندية بسبب هذا النهب سنين عدداً (٢)

وقد أجمع محمد على أن يجتث جذور الثورة فى جزيرة العرب ويستولى على اليمن ، وكانت الحملات والأمراض قد ثغرت فى صفوف الجيش المصرى فنقصتها ، وكذلك

(١) كان قد انفصل عن ولاية الحجاز إلى وقت ثم أعيد إلى منصبه ثانياً وفلده محمد على رأسه عسكر الاقطار الحجازية
(٢) مانجان ج ٣ ص ٦٤

وزعت الحاميات العسكرية في قنفذة والحديدة وبعض بلاد اليمن ، فنقصت قوة الوحدات المتحركة من الجيش ، وقد علم محمد على بهذه الحالة ، فأنفذ قوة جديدة من ثلاثة الايات من المشاة والفين من الفرسان بقيادة ابراهيم باشا يكن الذى جعله سر عسكر اليمن (سنة ١٨٣٦) ، فبلغ عدد الجيش المصرى فى جزيرة العرب ثمانية عشر الف مقاتل ، فضى ابراهيم باشا يكن يزحف على اليمن يعاونه الشريف عون سارت الحملة الى بلاد العسير ، وهناك احتل الجنود مشقات هائلة من وعورة الطرق وسوء المناخ وقلة الماء وفداحة المتاعب ، ووقعت المصادمات والمناوشات بينها وبين القبائل ، فاندحر الجيش المصرى امام البدو وحلت به الخسائر الجسيمة ، ورجع ابراهيم باشا ادراجه الى الحجاز بعد ان فدحته الخسائر ثم استأنف زحفه على اليمن فاحتل الثغور وبعض المواقع فى الداخل

ولما علم محمد على بالانباء الأولى عن حملة اليمن عهد بقيادة جنود الحجاز الى خورشيد بك الوالى السابق الذى وقعت فى عهده فتنة تركى بلعز ، وكانت الهزائم التى حاقت بالجيش المصرى قد شجعت الوهابيين على الانتفاض فى نجد فاتجه خورشيد يزحفه شمالا ووصل الى الدرعية ، وتخطى فتوحات ابراهيم باشا ، وزحف على الاحساء ووصل الى شاطئ الخليج الفارسى ، وجمع عدة من السفن واحتل جزائر البحرين فى الخليج ، ولما رأت القبائل سرعة زحف الجيش المصرى اقبلت تقدم الطاعة له وامتدت سلطة مصر الى الخليج الفارسى ، ولكن السياسة الانجليزية هالها تقدم نفوذ مصر الى مصب دجلة والفرات والى مياه الخليج الفارسى القريب من الهند وخشيت على سلطانها هناك ان يزعمه امتداد نفوذ مصر الى حيث بلغ ، كما انها خشيت من نفوذها فى بلاد اليمن لانها على طريقها للهند ، فاحتلت (عدن) وأرسخت قدمها فيها ، وبذلت مساعيها السياسية ومنها تهديد محمد على بان تثير عليه تركيا والدول الاوروبية ، فاضطر الى مجاملة انجلترا اتقاء لشرها ، فاصدر امره الى خورشيد بك باخلاء (البحرين) ، اما فى اليمن فقد أعلن

إمام (صنعاء) ولأهـ لابرهم باشا يكن يتقى بولائه بطش الانجليز بعد ان احتلوا عدن

ولما اوشكت على نهايتها سنة ١٨٤٠ رأى محمد على أن بقاء الجيوش المصرية في جزيرة العرب يحمل الخزانة نفقات لا قبل لها بها ، وانه في حاجة الى حشد جنوده حشداً واحداً حينما تألبت عليه الدول المتحالفة مع تركيا بعد معركة (نصيبين) ، فاستقر عزمه على استدعاء الجند من جزيرة العرب ، ثم اخلاها الى غير رجعة سنة ١٨٤١ تنفيذاً لمعاهدة لندرة ، وبذلك طويت صحيفة الحكم المصرى فى الجزيرة

مركز مصر الدولى

بعد معاهدة لندره

ان معاهدة لندره هى الوثيقة الاساسية لمركز مصر الدولى من سنة ١٨٤٠ الى نشوب الحرب العالمية سنة ١٩١٤ ، فهى التى حددت هذا المركز وجعلت لمصر شخصية دولية مستقلة ، ورفعت مركزها من ولاية كغيرها لانتخلف عن سائر ولايات السلطنة العثمانية الى دولة مستقلة استقلالاً مقيداً بقيود السيادة التركية ان مصر قد حققت استقلالها بالفعل فى الحرب السورية الأولى التى انتهت باتفاق كوتاهية (سنة ١٨٣٣) ، لكنها فى نظر القانون الدولى لم تكن سوى ولاية ليس لها (رسمياً) من امتياز عن الولايات العثمانية الاخرى ، لكن معاهدة لندره وان تكن حرمت مصر ثمرة انتصاراتها وقيدت استقلالها بقيود شتى ، إلا أنها قد اعترفت بان لمصر مركزاً دولياً مستقلاً عن تركيا ، إذ جعلت حكومتها وراثية فى أسرة محمد على ، ومعلوم أن ولاية الحكم ، وخاصة فى ذلك العهد ، هى مظهر السيادة والاستقلال ، ومعنى ذلك ان معاهدة لندره اعترفت لمصر بالاستقلال مقيداً بالسيادة العثمانية ، ولم يعد لتركيا ، ولا لغيرها من الدول ، ان تعبت بهذا الاستقلال الذى أصبح مكفولاً بمعاهدة دولية

ولم يرد في معاهدة لندره من القيود العملية التي تحد ذلك الاستقلال سوى دفع جزية سنوية للباب العالي ، وسريان معاهدات تركيا في مصر ، واعتبار قواتها الحربية جزءا من قوات السلطنة العثمانية

فهذه القيود هي مظاهر السيادة العثمانية التي فرضتها الدول على مصر في معاهدة لندره

ومن الواجب ان نوضح ابهاما ورد في أحد بنود المعاهدة وهو البند (٥) من الملحق الذي ينص على أن « معاهدات السلطنة العثمانية وقوانينها تسرى في مصر » ، فقد يتبادر الى الذهن ان تركيا كان لها بمقتضى المعاهدة حق التدخل في التشريع بالنسبة لمصر ، وان قوانينها تسرى فيها ، وهذا ليس من الواقع في شيء ، فان هذا الابهام قد اوضحه فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وفرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ الصادر كلاهما لمحمد علي ، وفرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ الصادر للخديوى اسماعيل ، فالفرمان الاول عبّر عن هذه القوانين بالخط الشريف المعروف بالكاخانة والقوانين الادارية للدولة العثمانية ، أى القوانين الاساسية المماثلة له ، وخط الكاخانة هو القانون الاساسى المعروف بالتنظيمات (١) الذى أصدره السلطان عبد المجيد بتقرير حقوق الافراد فى السلطنة العثمانية وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم وشرفهم ومسؤولاتهم أمام القانون والغاء المصادرة والسخرة ، فالمراد من هذا النص فى المعاهدة ان تكفل حقوق الافراد فى مصر كما تكفل فى تركيا طبقا للقانون الاساسى المعروف بالكاخانة ويؤيد هذا المعنى ماورد فى فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ المكرر والمفسر لاحكام فرمان ١٣ فبراير ، فقد جاء فيه صراحة « ان القواعد المتضمنة لامنية الاشخاص والاموال ، وصون الشرف والعرض ، هى من المبادئ التى قدستها

(١) سمي خط الكاخانة لانه قرىء فى الكاخانة ، ومعناها دار الورد ، وهى إحدى دوائر السراى القديمة (طوب قبو) بالآستانة

أحكام ونصوص خطنا الشريف الهيايوني الصادر عن كلخانة ، وكافة المعاهدات المبرمة والتي ستبرم بين الباب العالي والدول المتحابة يقتضى أن تكون جميعها نافذة بكامل احكامها فى مصر ، وكل النظمات التى سنّها وسيسنّها الباب العالى تكون أيضا مرعية فى ولاية مصر مع ملاحظة الظروف المحلية المختصة بالعدل والحقانية »
وفى فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ الصادر للخديوى اسماعيل صريح أيضا فى أن المراد بالقوانين الاساسية الواردة فى فرمانات سنة ١٨٤١ هو خط الكلخانة دون سواه ، فقد جاء فيه :

« ان فرمانى الهيايوني الذى منح نيابة مملكة مصر امتياز التوارث اشترط خلاف ما ذكر وهو ان تكون القوانين الاساسية الجارى العمل بموجبها فى كافة انحاء الممالك العثمانية مرعية الاجراء و نافذة ايضا فى مصر بما يوافق الحق والعدل مع مراعاة عادات الاهلين واخلاقهم ، اما القوانين الاساسية المذكورة فليكن معلوما انها ان هى الا المبادئ العمومية المنشورة فى تنظيمات « كلخانة » اعنى تأمين الارواح والاموال والشرف »

هذا هو المعنى الرسمى لكلمة القوانين الواردة فى معاهدة لندرة ، فهى تشبه ان تكون كالترام دولة ازاء دولة اخرى بان تنفذ تشريع منع الرقيق مثلاً ، وليس فى ذكر هذه الكلمة ما يؤخذ منه لاصراحة ولا ضمناً أن لتركيا حق التدخل فى التشريع بمصر ايا كان نوعه ، وهذا ما جرى عليه العمل منذ صدور معاهدة لندره فان حكومة مصر فى عهد محمد على وخلفائه لم تنازعها تركيا يوماً ما فى حقها المطلق فى التشريع والتقنين بكافة انواعه ، ولم تتدخل البتة فى هذا الصدد اطلاقاً

قيود فرمانات

ذكرنا القيود التى كانت تحمى استقلال مصر فى معاهدة لندره ، ولكن فرمانات التى اصدرتها تركيا تنفيذا للمعاهدة قد تجاوزت فى بعض المواطن القيود الواردة بها ، وظاهر أن السلطان العثمانى اغتتم فرصة تألب الدول الاوروبية على مصر

فاشتط في الغرماءات التي أصدرها لمحمد على وغلاها بالقيود الثقيلة الوطأة ، وخاصة في فرمان الاول المؤرخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ مما دعا محمد على الى الاعتراض لدى الدول على تلك الشروط وأدى اعتراضه الى تعديل فيها كما سيحيى بيانه

فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

وهناك خلاصة الاحكام التي تضمنها فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١
(١) اذا خلا مركز السدة المصرية يختار له السلطان من يشاء من اولاد محمد على المذكور أو اولاد اولادهم المذكور ، فاذا انقرض نسل المذكور كان للباب العالي ان يختار من يشاء للولاية دون ان يكون لاولاد الاناث حق فيها
(٢) يلزم من يختار للولاية خلفا لمحمد على بالذهاب الى الاستانة ليلتقى فرمان التقليد

(٣) ان ولاية مصر بالرغم من حقهم الوراثي تكون مرتبتهم مماثلة لمرتبة وزراء الدولة في المحاطبات والمقابلات السلطانية

(٤) المعاهدات التي أبرمها أو سيبرمها الباب العالي وكذلك الخط الشريف المعروف بخط الكلخانة والقوانين الاساسية للدولة العثمانية تنفذ في مصر
(٥) تكون جباية الضرائب ودخل الحكومة باسم السلطان ويتبع فيها النظام المعمول به في تركيا لكيلا يقع الضيم باهالى مصر

(٦) يرسل رُبع ايرادات الحكومة المصرية الحاصل من دخل الجمارك والخراج والضرائب الى خزانة الباب العالي ، ويخصص الثلاثة الارباع الاخرى لشؤون مصر من نفقات الجباية والادارة العسكرية والمدنية ، وحاجات الحكومة والغلال التي ترسل سنويا الى مكة والمدينة ، وطريقة اداء نصيب الباب العالي من ايراد الحكومة المصرية يعمل بها لمدة خمس سنوات ابتداءً من اول عام سنة ١٢٥٧ (٢٣ فبراير سنة ١٨٤١) ، ويجوز استئناف نظرها بالتعديل تبعاً للظروف والاحوال في مصر

(٧) لما كان من المقتضى تحقق الباب العالى من مقدار دخل الحكومة المصرية فيلزم تعيين لجنة لمراقبة هذا الدخل تؤلف طبقا للاوضاع التى يقررها السلطان فيما بعد بارادة شاهانية

(٨) تكون السكة (النقود) فى مصر باسم السلطان ، ولا تختلف النقود الذهبية والفضية التى تضرب فى مصر عن نقدى الاستانة فى القيمة والنوع والعيار (٩) لا يزيد عدد الجيش المصرى فى زمن السلم عن ١٨٠٠٠ الف جندى ، وللباب العالى أن يرفعه الى ماشاء فى زمن الحرب ، ويتبع فى مصر نظام التجنيد المعمول به فى تركيا ، وهو يقضى بجعل مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ، وعلى ذلك يكتفى من مقترعى الخدمة الموجودين الآن بعشرين الفا يبقئ منهم ١٨٠٠٠ فى مصر ويرسل ٢٠٠٠ الى الاستانة ، ثم يسرح خمس عدد الجيش (أربعة آلاف جندى) كل سنة بطريق القرعة ، ويقترح بدلهم أربعة آلاف مستجدون يبقئ من هؤلاء بالقطر المصرى ٣٦٠٠ ويرسل ٤٠٠ الى الاستانة ، والذين يتمون خدمتهم العسكرية يعودون الى بلادهم ولا يجوز اقتراعهم من بعد

(١٠) لا يختلف شوار الجنود والضباط المصريين وملابسهم واعلامهم وأوسمتهم عن مثلها فى الجيش التركى ، وكذلك ملابس البحارة والجنود والضباط فى الاسطول المصرى واعلام السفن الحربية المصرية

(١١) لوالى مصر حق منح الرتب العسكرية لضباط البر والبحر لغاية رتبة صاغ قول اغاسى ، اما الرتب العليا فيُرسَم بها من السلطان

(١٢) ليس لمصر ان تبني سفنا حربية الا باذن صريح من الباب العالى

(١٣) لما كان امتياز حكم مصر الوراثى الخول لمحمد على واسرته مقرونا بالشروط السابقة فلا خلال بائى منها يؤدى الى سقوط حقهم فى هذا الامتياز (١)

(١) واصدر السلطان فرمانا آخر فى ذلك اليوم (١٣ فبراير) باسناد اقاليم السودان (النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملاحقاتها) الى محمد على وهو الذى تكلمنا عنه فى الفصل السادس ص ١٩٣

هذه خلاصة شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، ومن التأمل فيها يتبين مبلغ تجاوزها لاحكام معاهدة لندرة ، فليس في المعاهدة كما قدمنا قيود عملية لتح استقلال مصر التام فيما عدا الجزية السنوية وسريان معاهدات تركيا واعتبار قوات مصر جزءا من قوات السلطنة العثمانية ، ولكن الفرمان مغال بالقيود الثقيلة التي لم ترد في المعاهدة ، فليس فيها مثلا نصوص تقيد عدد الجيش المصرى وتحدده بـ ١٨٠٠٠ أو تحظر على مصر بناء سفن حربية إلا باذن الباب العالى ، أو تقيد حق الحكومة المصرية فى منح الرتب العسكرية ، أو تقضى بمراقبة مالية مصر ، فهذه القيود قد فرضها السلطان فى فرمانه دون أن يكون لها سند فى المعاهدة ، وكذلك مما لا يتفق مع روح المعاهدة تقويم الجزية بربع ايرادات الحكومة المصرية ، لان ذلك فضلا عما فيه من الارهاق والاعتساف فانه يستتبع تدخل تركيا فى شؤون مصر الداخلية ومراقبة أحوالها المالية بحجة تعرف مقدار دخلها والتحقق من نصيبها فيه ، وكذلك لا يتفق مع روح المعاهدة انتحال السلطان حق اختيار من يشاء من اولاد محمد على أو احفاده لتولى أريكة مصر ، فان جعل حكم مصر الوراثى فى سلالة محمد على ليس معناه تحكم الباب العالى فى اختيار من يشاء منهم ، لان هذا التحكم يضيع قيمة هذا الحق ويطلق يد السلطان العثمانى فى اختيار من يأنس فيه الضعف والخضوع لارادته من تلك السلالة ، وقد اعترض محمد على لدى الدول على ماورد فى ذلك الفرمان من الشروط الثقيلة الوطأة ، وطلب تعديله فى نظام وراثته الحكم ومقدار الجزية السنوية وحق منح الرتب العسكرية

فقبلت الدول طلبه وأرسلت الى الباب العالى مذكرة طلبت اليه فيها ان يعامل محمد على طبقا للشروط المدونة فى ملحق معاهدة لندرة

لائحة ١٩ ابريل سنة ١٨٤١

فأجاب الباب العالى الدول بمذكرة فى ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ بتعديل شروط
الفرمان السابق ، وهالك أهم مآقره من التعديلات الجهورية
(اولا) انه نظم وراثه عرش مصر بان جعل حق الوراثة للا كبر سنا من سالة
محمد على المذكور

(ثانيا) عدل عن تقويم الجزية بربع ايراد الحكومة وجعلها تبعا لتقديره
فيما بعد مع النظر لحالة الحكومة

(ثالثا) ان يكون لوالى مصر حق منح الرتب الى رتبة أميرالاي ، أما مايلوها
من الرتب كدرجة امير لواء وفريق فجعل حق منحهما بعد استئذان الباب العالى

فرمان اول يونيه سنة ١٨٤١

ثم اصدر الباب العالى فى أول يونيه سنة ١٨٤١ فرمانا جامعا يحتوى احكام
فرمان ١٣ فبراير مع التعديلات المتقدمة ، واصدر فرمانا آخر بتحديد الجزية السنوية
بثمانين الف كيس أى ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه

ومما يجدر ملاحظته ان القيود التى وردت فى فرمانات الباب العالى مما لاتنص
عليه معاهدة لندرة لم تكن قيودا دولية ولا شرعية ، بل كانت ذات صبغة داخلية
بين تركيا ومصر ، بمعنى انها لاترتكز على سند دولى من معاهدة أو اتفاق ، والتحليل
منها يكون فيما بين مصر وتركيا ويتم صحيحا بعمل يصدر من جانب احدهما ، لأن
هذه القيود أساسها فرمان صدر من جانب واحد وهو تركيا

ولذلك لم تتقيد مصر بمعظم تلك القيود ، وخاصة فيما يتعلق بعدد الجيش فقد
ترك هذا العدد لمقدرة الحكومة المصرية وارادتها ، ولم يكن ثمة مراقبة على عدد
الجيش المصرى

وتتبين هذه الحقيقة من التأمل في احصاء الجيش المصرى ومقدار قوته من
من اواخر عهد محمد على الى عهد خلفائه لغاية الاحتلال الانجليزى، وهالك البيان

قوة الجيش

السنة

٩٤٠٠٠	سنة ١٨٤٧ (فى اواخر عهد محمد على)
١٠١٠٠٠	» ١٨٥٠ (فى عهد عباس باشا الاول)
٨٥٠٠٠	» ١٨٥٩ (فى عهد سعيد باشا)
٩٢٠٠٠	» ١٨٧٣ (فى عهد الخديوى اسماعيل باشا)
(١) ٨٩٠٠٠	» ١٨٧٩ (فى اوائل عهد توفيق باشا)

فيتبين من هذا الاحصاء أن مصر لم تتقيد فى عدد جيشها بالفرمانات
السلطانية بل كان لها مطلق الحرية فى تحديد عدده

وكذلك استطاع الخديوى اسماعيل أن يحرر مصر من معظم القيود الاخرى
بفرمانات استصدرها رأسا من السلطان من غير مخبرات دولية

وغنى عن البيان أيضا أن الباب العالى كان له بمقتضى فرمانات ان يتنازل
عن الحقوق التى خولتها له معاهدة لندن ، والعكس لا يجوز ، أى ليس له ان يفتقص
حقوق مصر بفرمانات ، لان هذه الحقوق مكفولة بمعاهدة دولية ، فليس للباب العالى
ولا لأى دولة أخرى أن تعبت بها ، وهذا ما قال به السيدى مارتانس الاستاذ
بجامعة سان بطرسبرج إذ يقول « ان فرمانات خاصة قد وسعت الحقوق والمزايا التى
نالها نائب الملك (الخديوى) بازاء الباب العالى ، ولكن من البديهي ان هذه

(١) رجعنا فى بيان قوة الجيش الى الاحصاءات الواردة فى كتاب تقويم النيل
لامين ساسى باشا الجزء ٢ ص ٥٦٩ وهى احصاءات مستمدة من الدفترخانة
المصرية ، وقد استخرجتها الدفترخانة من دفاتر وكشوفات المعية السنية وديوان
الجهادية (الحربية) من سنة ١٨٠٣ الى سنة ١٨٨٢ وهى السنة التى انقضى فيها الجيش
المصرى القديم عقب الاحتلال بايعاز من الانجليز

الفرمانات ليس لها قوة الغاء أو انتقاص المركز الدولي المستقل الذى اوجده مؤتمر سنة ١٨٤٠ « (١)

النتيجة

فركز مصر الدولي قد حددته في سنة ١٨٤٠ معاهدة لندره التى قضت بارجاع الجيوش المصرية الى حدود مصر القديمة ، وضمان استقلالها مقيدا ومشوبا بالسيادة العثمانية ، ومصر طبقا لهذه المعاهدة أصبحت دولة مستقلة غير مستكملة السيادة ، والاستقلال الذى نالته منذ سنة ١٨٤٠ هو استقلال داخلى تام بكل مظاهره مضافا اليه بعض مظاهر الاستقلال الخارجى مثل حق مصر فى قبول ممثلى الدول الاجنبية كالقناصل والوكلاء ، وهو من مظاهر السيادة الخارجية ولا نزاع فى أن قيود السيادة العثمانية التى قيدتها بها معاهدة لندره هى نتيجة تأمر الدول الأوروبية على مصر وانحيازها الى تركيا ، فاذا كانت مصر لم تحقق فى ذلك العصر كل أمانها وحقوقها الشرعية فى الاستقلال المطلق من كل قيد فانما يرجع ذلك الى الاضطهاد الذى وقع عليها من الدول المتحالفة ، فالاضطهاد الاوروبى هو الذى حرم مصر ثمرة انتصاراتها ووقف كحجر العثرة فى سبيل تحقيق استقلالها التام ، ولو عاملتها الدول الاوربية سنة ١٨٤٠ كما عاملت اليونان سنة ١٨٣٠-٢٦ لما وقع ذلك الاضطهاد ، فمصر واليونان كلتاهما كانت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ثارت ضد السلطان فى اوقات متقاربة ، والفرق بينهما أن اليونان هزمت فى ميدان الحرب ، أما مصر فقد فازت وقهرت الجيوش العثمانية ، ومع ذلك كانت النتيجة أن ساعدت الدول الأوروبية اليونان على تحريرها ، أما مصر فقد حالت اوروبادون استقلالها التام ، وهذا من اغرب ما سمع فى معرض الظلم الدولي ، ولا يخفى أن قوام الاضطهاد الذى وقع على مصر إنما هو اطاع انجلترا واهواؤها ، فان الحكومة الانجليزية

(١) دى مارتانس ، المسألة المصرية والقانون الدولي سنة ١٨٨٢ ، ص ٥

كما فصلنا ذلك هي التي أمّلت سياستها على الدول الأوروبية تحقيقاً لاطماعها الاستعمارية في الشرق

ومن الواجب ان نقول انه لولا حروب مصر المتواصلة وانتصاراتها في عصر محمد علي لمسا رضىت اوروبا ولا تركيا باستقلال مصر المقيد بالسيادة العثمانية بل لرجعت بها ولاية كسائر ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة الترك كل سنة أو سنتين ، فلولا تلك الحروب وما أظهرته مصر من القوة والمنعة لما احتفظت باستقلالها الذى نالته في ميادين القتال ، فلجهود التي بذلتها والدماء التي جادت بها والتضحيات التي احتملتها هي التي حفظت ذلك الاستقلال وصانته من الضياع ، فلم يعد في استطاعة تركيا ولا الدول الأوروبية ان تعيدها الى حالتها القديمة ، ولئن حرمت مصر كل ما تصبوا اليه من نتائج انتصاراتها وتضحياتها ، فقد ادركت غايتين من أعظم المقاصد القومية ، فلقد وطلدت دعائم استقلالها وحقت وحدتها بضم السودان الى رقعتها ، ثم نالت مركزاً دولياً وطيداً لم يكن لها من قبل ، ومركزاً معنوياً رفع من شأنها بين الامم ، واذا كانت الأمة الفرنسية تفخر بمعارك نابليون وحروبها العظيمة مع أنها لم تنل من ورائها سوى الخسران والتراجع الى ما وراء حدودها الاصلية ، وتعدها مع ذلك صفحات مجده زاهية في تاريخها القومي ، فأجدر بمصر ان تفخر بحروبها في عصر محمد علي ، تلك الحروب التي رفعت ذكرها في الخافقين وسارت باسمها مسير الشمس ، فضلاً عما انتجته من تحقيق استقلالها وتوطيد دعائمه .

فهذه الحروب هي اذن من أقوى دعائم الدولة المصرية المستقلة ، ومن أعظم أركان القومية المصرية ، وخاصة فتح السودان وحروب سورية والاناطول ، فان فتح السودان قد أتم الوحدة القومية ، وحروب سورية والاناطول كانت من أقوى المقومات المصرية ، إذ لا يخفى انها فتحت اذهان المصريين الى أن لمصر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن القومية التركية ، وجاء قيام محمد علي في وجه تركيا وهي وقتئذ دولة الخلافة الاسلامية تحطياً لفكرة اندماج مصر في السلطنة العثمانية وعملاً بعيد المدى كان له أثر كبير في تشييد صرح القومية المصرية

الفصل العاشر

دعائم الاستقلال

الجيش

ان الجيش هو الدعامة الأولى التي شاد عليها محمد على كيان مصر المستقلة ، ولولاه لما تكونت الدولة المصرية ولا تحقق استقلالها ، وهو الذي كفل هذا الاستقلال وصانه نيفا وستين سنة ، فلا غرو أن خصه محمد على بأعظم قسط من عنايته ومضاء عزمته ، وليس في منشآت محمد على ما نال عنايته مثل الجيش المصرى ، ويكفيك دليلا على مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخرى متفرعة عنه ، والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش ، فهو الأصل وهي التبعية ، فتقرر محمد على باشا إنشاء مدرسة الطب مثلا يرجع في الأصل الى تخريج الاطباء الذين يحتاج اليهم الجيش ، وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة والكساء ، واقتضى اعداد الاماكن اللازمة لاقامة الجنود ببناء الشكنات والمعسكرات والمستشفيات ، واستلزم تخريج الضباط انشاء المدارس الحربية على اختلاف انواعها ، وكذلك المدارس الملاحية كان الغرض الأول منها تثقيف التلاميذ لاعدادهم على الأخص لان يكونوا ضباطا ومهندسين ، وارسال البعثات الى أوروبا كان الغرض الأول منه توفير العدد الكافى من الضباط ومن الاساتذة والعلماء والمهندسين ممن يتصلون عن بعد أو قرب بالاداة الحربية ، صحيح ان هذه المنشآت وغيرها كان لها اغراض عمرانية أخرى ، لكن خدمة الجيش كانت أول ما فكر فيه محمد على

فالجيش إذن فضلا عن مهمته الأولى من الدفاع عن استقلال البلاد كان أداة لتقدم العمران في مصر ، فهو من هذه الوجهة من أجل أعمال محمد علي باشا وكل ما بذل من الجهود والنفقات في سبيله قد أصاب حقه وموضعه ، فلم يكن عبثاً ولم يضع سدئى ، إذ من المحقق أنه لولا قوة هذا الجيش لضاع الاستقلال الذى نالته مصر فى عهده ، ولا ستردت تركيا امتيازاتها القديمة فى البلاد واتخذتها ولاية تحكمها مباشرة كما تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية ، أولاحتلتها انجلترا بجيوشها عند ما ألبت عليها الدول الأوروبية وجردت عليها قواتها البحرية والبرية فى سورية وعلى السواحل المصرية ، ولو لم يكن هذا الجيش متأهباً للقتال ذائداً عن الوطن لاستطاعت انجلترا أن ترمى الكنانة بجنودها ، ولاحتلتها كما فعلت سنة ١٨٨٢ ، حين لم يكن ثمة جيش ولا دفاع ، ولا معاقل لحماية الدمار

مشروع تأسيس الجيش النظامى

أخذ محمد علي باشا يؤسس الجيش المصرى النظامى منذ سنة ١٨٢٠ ، وكان الجيش قبل ذلك العهد اخلاطاً من العناصر المفطورة على التمرد والفوضى يطلق عليهم لفظة (باشبورق) أى الجنود غير النظاميين ، ومثل هذا الجيش لم يكن جديراً بالاعتماد عليه فى رفع هيبة مصر والدفاع عن كيائها وتوسيع حدودها ، لذلك ماقتى محمد على منذ تبوأ عرش مصر يفكر فى انشاء جيش على النظام الجديد ولكن الظروف لم تكن تؤاتيه ، فكان يؤجل انفاذ فكرته الى أن تحين الفرصة المناسبة ، وقد لاقى صعوبات كبيرة فى تحقيقها ، لأن الجنود غير النظاميين الذين كان يتألف منهم الجيش القديم كانوا معتادين الفوضى والعصيان ، ويكرهون كل نظام

المحاولة الأولى لتنفيذ المشروع واخفاؤها

سنة ١٨١٥

ولقد حاول لأول مرة انفاذ فكرته سنة ١٨١٥ بعد عودته من حرب الوهابيين
ولكن هذه المحاولة أخفقت وكادت تودى بمركزه لولا أن عدل عنها وأرجأها الى
وقت آخر

ذلك أنه لما عاد من الحجاز أمر بتدريب فرقة من جنود ابنه اسماعيل باشا
على النظام الحديث ، وذهب هو لهذا الغرض الى بولاق (اغسطس سنة ١٨١٥) ،
وأعلن رغبته في ادخال النظام الجديد في صفوفهم ، وصارحهم بان من لم يدعن لهذا
النظام يعاقب على تمرده ، ولما عاد الى شبرا تذر الجند من هذه الأوامر وأرجفوا
بها ، فانتهمز بعض رؤسائهم هذه الفرصة ليأتمروا بمحمد علي ويسعوا في خلعه ، وكادت
تفلح المؤامرة لولا أن القوم أفضوا باتفاقهم الى عابدين بك أحد رؤساء الارناءود
وكان قد عاد من الحجاز مريضا ، فتوسم فيه المتآمرون الموافقة على
مؤامرتهم ، واجمعوا على أن يهاجموا محمد علي في قصره بالاز بكية ، فأفضى عابدين بك
الى محمد علي بهذا السر ، فبارح قصره وذهب الى القلعة منتصف الليل ، ودخلها من
طريق باب الجبل ، وبالرغم من ذلك توافى المتمردون الى ميدان الاز بكية وتبادلوا
وحرس السراى اطلاق الرصاص ، ف وقعت فتنة تشبه فتنة الجند سنة ١٨٠٧ ،
غير أنها كانت اوسع مدى واعظم خطرا ، فلما لم يجدوا بقيتهم ذهبوا الى ميدان
الرميلة ، ومن هناك انخطؤوا على الاسواق ينهبون ويسلبون (٣ اغسطس سنة ١٨١٥) ،
وقد تدرع محمد علي بالحزم والحكمة في معالجة هذه الفتنة حتى اخدها ، وأرجأ
النظام الجديد في الجيش الى وقتٍ حتى يُهيئ له وسائله ويبتغي ذرائعه

رواية الجبرتي

ذكر الجبرتي نبأ محاولة محمد على ادخال النظام الجديد في الجيش في رواية طويلة نوردها لما فيها من تأييد لما قلناه ، ونفصيل لما أجملناه ، قال في حوادث ٢٥ شعبان سنة ١٢٣٠ (٣ اغسطس سنة ١٨١٥)

« أمر الباشا جميع العساكر بالخروج الى الميدان لعمل التعليم والراحة خارج باب النصر حيث قبة العزب ، فخرجوا من ثلث الليل الأخير ، وأخذوا في الراحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ، على طريقة الافرنج ، وذلك من قبيل الفجر الى الضحوة ، ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين الى المدينة في بكبة عظيمة ، حتى زحوا الطرق بخيولهم من كل ناحية ، وداسوا أشخاصا من الناس بخيولهم ، بل وحيرا أيضا ، وأشيع أن الباشا قصده إحصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد وأوضاع الافرنج ، ويلبسهم الملابس المقمطة ، ويغير شكلهم ، وركب في ثاني يوم الى بولاق وجمع عساكر ابنه اسماعيل باشا وصفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد ، وعرفهم قصده ، وفعل ذلك بجميع العساكر ، ومن أبى ذلك قابله بالضرب والطرده والتقى بعد سلبه حتى ثيابه ، ثم ركب من بولاق وذهب الى شبرا ، وحصل في العسكر قلقة ولغط ، وتناجوا فيما بينهم ، وتفرق الكثير منهم عن مخاديعهم وأكابرهم ، ووافقهم على النفور بعض أعيانهم ، واتفقوا على غدر الباشا ، ثم إن الباشا ركب من قصر شبرا وحضر الى بيت الازبكية ليلة الجمعة ثامن عشرينه ، وقد اجتمع عند عابدين بك بداره جماعة من أكابرهم في وليمة وفيهم حجوبك وعبد الله اغا صارى جلة ، وحسن اغا الازرجاني ، ففقاوضوا بينهم في أمر الباشا وما هو شارع فيه ، واتفقوا على الهجوم على داره بالازبكية في الفجر ، ثم إن عابدين بك غافلهم وتركهم في انفسهم ، وخرج متنكرا مسرعا الى الباشا ، وأخبره ورجع الى أصحابه ، فأسرع الباشا في الحال الى الركوب في سادس ساعة من الليل ، وطلب

عساكر طاهر باشا فركبوا معه ، وأحاط المنزل بالعساكر ، ثم أخلف الطريق وذهب الى ناحية الناصرية ومرمى النشاب ، وصعد الى القلعة ، وتبعه من يثق به من العساكر ، وانخرم أمر المتواقفين ، ولم يسعهم الرجوع عن عزيمتهم ، فساروا الى بيت الباشا يريدون نهبه ، فمالعهم المرابطون وقضاربوا بالرصاص والبنادق وقتل بينهم اشخاص ولم ينالوا غرضا فساروا الى ناحية القلعة واجتمعوا بالرميلة وقراميدان »

ثم ذكر الجبرتي تفاصيل تمرد الجنود وانسياهم في الاسواق ونهبهم الدكاكين والمتاجر وإحداثهم من الشعب والاعتداء على أموال الناس وبضائعهم واختلاصهم بالنظام ما جعل سكان العاصمة يضجون من مساوئهم

موقف محمد علي ازاء الجيش القديم

قلنا ان محمد علي باشا قابل عنده الحركة بالحلم والاناة ورجاحة العقل ، وقد استغلها لخدمة مشروعه في انشاء جيش على الطراز الحديث قوامه النظام والطاعة ، ذلك أنه بادر الى اظهار استيائه مما أحدثه الجنود المتمردون ، وقرر دفع تعويض لجميع التجار الذين نهبت دكاكينهم ، وعهد بتقدير ذلك الى السيد محمد المحروقي كبير التجار ، ودفعت الحكومة فعلا التعويضات^(١) لمن وقع بهم النهب والاعتداء ، فلهج الشعب بالثناء على محمد علي باشا وسخطوا على الجنود المتمردين ، وكان في هذا العمل اكبر دعاية للنظام الجديد ، وأخذ الباشا يهيئ الوسائل لادخال ذلك النظام ، ولكنه لم يبدأ به إلا سنة ١٨٢٠ ، وهذا يدل على أناته وبعد نظره ، وقد مهد لذلك بتشتيت الجنود غير النظامية واخراجهم من العاصمة حتى لا يكون احتشادهم فيها مدعاة لتمردهم وتجيديد الفتن ، فوزعهم على الثغور الواقعة على البحر

(١) يقول مختار باشا في كتابه التوفيقات الالهامية ص ٦١٥ أنها بلغت نيفا

الابيض كرشيد ودمياط ، وبعض البلاد القائمة على فرعى النيل ، ا.ك.يلا يسبق الى قلوبهم أنه يقصد تشيتهم أو معاقبتهم أمر بان يرافقهم في معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه كطوسون باشا واسماعيل باشا ، ورؤساء جنده مثل محوبك وغيره ، وأمر باقامة ثكنات في البلاد التي أعدها لاقامتهم

رواية الجبرتي

قال الجبرتي في هذا الصدد « وفي عاشر محرم سنة ١٢٣١ - ١٢ ديسمبر سنة ١٨١٥ رجع الباشا من غيبته من الاسكندرية ، وأول ما بدأ به إخراج العساكر مع كبرائهم الى ناحية بحرى وجهة البحيرة والشغور ، فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية ، وأخذوا صحبتهم مدافع وبارودا وآلات الحرب ، واستمر خروجهم فى كل يوم ، وذلك من مكايده معهم ، وابعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة ، فخرجوا أرسالا ، واستهل شهر ربيع الأول سنة ١٢٣١ وفيه سافر طوسون باشا واخوه اسماعيل باشا الى ناحية رشيد ، ونصبوا عرضيهما عند الحماة وناحية أبى منصور^(١) ، وحسين بك دالى باشا وخلافه مثل حسن اغا ازرجنلى ومحوبك وصارى جله وحجوبك جهة البحيرة ، وكل ذلك توطين وتلبيس للعساكر بكونه أخرج حتى اولاده العزاز للمحافظة ، وكذلك الكثير من كبرائهم الى جهة البحر الشرقى ودمياط »

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد على بالاقاليم « ان الباشا أمر ببناء مساكن للعسكر الذين أخرجهم من مصر بالاقاليم يسمونها القشلات بكل جهة من أقاليم الاريايف لسكن العساكر المقيمين بالنواحي لتضررهم من الاقامة الطويلة

(١) هى التى يقال لها اليوم ابو مندور من اعمال مركز دسوق والتى كان لها شأن فى وقائع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ انظر ص ٥٧

بالخيام في الحر والبرد واحتياج الخيام في كل حين الى تجديد وترقيع وكثير خدمة ،
وهي جمع قشلة بكسر القاف وسكون الشين ، وهي في اللغة التركية المـكان الشـتوى
لان الشتاء في لغتهم يسمى قش بكسر القاف وسكون الشين ، فـكـتـب مـراسـيم الى
النواحى بسائر القرى بالأمر لهم بعمل الطوب اللبن ثم حرقه وحمله الى محل البناء ،
وفرضوا على كل بلد وقرية فرضا وعددا معيناً ، فيفرض على القرية مثلاً خمسمائة
ألف لبنة أو أكثر بحسب كبر القرية وصغرها ، فيجمع كاشف الناحية مشايخ القرى
ثم يفرض على كل شيخ قدراً وعدداً من اللبن عشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً أو
أكثر أو أقل ، ويلزم بضربها وحرقها ورفعها ، وأجلهم مدة ثلاثين يوماً ، وفرضوا
على كل قرية أيضاً مقادير من أفلاق النخل ومقادير من الجريد ، ثم فرضوا عليهم
أيضاً اشخاصاً من الرجال لحل الاشغال والعماير يستعملونهم في نقل أدوات
العمارة في النواحى حتى الاسكندرية وخلافها ، ولهم أجرة أعمالهم في كل يوم
لكل شخص سبعة أنصاف فضة لا غير ، ولمن يعمل اللبن أجرة أيضاً ، وللمن
الافلاق والجريد قدر معلوم لكنه قليل »

البدء في تنفيذ المشروع

سنة ١٨٢٠

عاد محمد على الى تحقيق مشروعه سنة ١٨٢٠ ، فاعتزم فتح مدرسة حربية في
(أسوان) لتخريج ضباط الجيش ، وكان من الضروري لادخال النظام الجديد
أن يختار ضباطاً ومعلمين على بصيرة بأساليب ذلك النظام ، ولأنه من الواضح أن
يكونوا من الاوروبيين ، لأن هذه الاساليب كانت مجهولة في الشرق الى ذلك
الحين ، وقد وجد محمد على عضداً كبيراً في ضابط فرنسي عظيم من ضباط
الامبراطورية النابليونية وهب نفسه لخدمة مصر وتقدمها وهو الكولونل سيف Seves
الذى عرف بعد ذلك بـسليمان باشا الفرنسي ، فاليه يرجع الفضل الاكبر في معاونته

محمد على ومؤازرته في تأسيس الجيش المصرى على النظام الجديد ، بحيث صار يضارع أرقى الجيوش الأوروبية وبرهن في ميادين القتال على أنه لا يقل عنها دربة وكفاية

سليمان باشا الفرنساوى

سنة ١٧٨٧ — ١٨٦٠

هو الكولونل سيف Seves وهو فرنسى الاصل ولد في ليون سنة ١٧٨٧ (١) وكان ابوه صاحب مصنع في المدينة ودخل في مهنة البحرية وحضر واقعة الطرف الاغر ثم انتظم في سلك الجيش البرى وقاتل في حروب نابليون وارتقى في المراتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونل (اميرالاي) ، ولما انتهى عهد نابليون قضى على الكولونل سيف بالخروج من الجندية وانقطع للتجارة والزراعة ، ثم طلب الى صديق له وهو الكونت دى سيجور السعى لدى شاه العجم في ان يعهد اليه تنظيم جيشه ، فنصح به بالذهاب الى مصر ، فجاءها سنة ١٨١٩ وقابل محمد على فاعجب به وعهد اليه تنظيم الجيش المصرى على الاساليب الحديثة ، فكان له الفضل الكبير في الاضطلاع بهذه المهمة كما تراه مفصلا في سياق الكلام ، وقد اعتنق الاسلام في مصر واختار لنفسه اسم سليمان فصار يعرف بسليمان بك

واشترك في حرب المورة ثم في حرب الشام والاناطول كما فصلناه في موضعه ، وانعم عليه محمد على سنة ١٨٣٤ بالباشوية عقب الحرب السورية الاولى فعرف من ذلك الحين بسليمان باشا الفرنساوى ، واشترك في الحرب السورية الثانية ، وقد عين رئيسا عاما لرجال الجهادية أى للجيش المصرى واحتفظ بهذا المنصب في عهد ابراهيم وعباس الى سعيد باشا ، وتوفى في سنة ١٨٦٠ ، وهو المقام له تمثال في ميدان سليمان باشا بالقاهرة

(١) كادلفين وبارو- سنتان من تاريخ الشرق (سنة ١٨٣٩-١٨٤١) ج ١ ص ١٦٨

المدرسة الحربية الاولى باسوان

جاء الكولونل سيف الى مصر كما قدمنا فلما آتس منه محمد على باشا الكفاءة لتحقيق مشروعه أنفذه سنة ١٨٢٠ الى اسوان لتكوين النواة الأولى من الجيش ، وبدأ في العمل بان قدم اليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدرهم على أن يكونوا ضباطا في النظام الحديث ، وطلب الى بعض رجاله أن يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك ، فاجتمع لدى الكولونل (سيف) ألف من هؤلاء واولئك أخذ يدرهم مدة ثلاث سنوات على فنون الحرب وأساليبها الحديثة ، فصاروا نواة الجيش النظامي إذ تكونت منهم الطائفة الأولى من الضباط

وقد اختار محمد على (اسوان) لتخرج الطائفة الأولى من ضباط الجيش رجاة ان ينفذ مشروعه بعيدا عن الدسائس والانظار معا ، ولكي يتم في رهينة وسرر دون أن يلتفت اليه الناس ، فاذا نجح فالنجاح ، وان اخفق لا يكون لاختفاؤه رد فعل يززع مركز محمد على ، وكان ذلك من دلائل بعد نظره وفراسته ، ومما رغبه أيضا عن القاهرة خشيته أن يكون تعليم التلاميذ على يد ضابط أوروبي مشاراً لهياج الخواطر فيها ، وخاصة بين الجنود غير النظاميين الذين كانوا ينفرون من كل نظام جديد ، ثم ليكون التلاميذ بمنجاة من أسباب اللهو بعيدين عن أما كنه فلا يفسد عليهم الاخلاق الحربية ، فاختار لهم كما قلنا مدينة (اسوان) ، وأنشأ بها اربع ثكنات فسيحة لاقامتهم بها ولتكون مدرسة لهم ، وقد عني محمد على بأمر هذه المدرسة وتنظيمها وإمدادها بما تحتاجه من الأدوات والاسباب ، فهي أول مدرسة حربية أنشأها لتكوين الجيش المصري النظامي

وقد ذكر المسيو فولابل (١) وكوت بك (٢) أن الكولونل (سيف) لقي صعوبات

(١) في كتابه مصر الحديثة جزء ٢ ص ٢٤٩

(٢) في كتابه (لمحة عامة الى مصر) ج ٢ ص ٣١٩

كبيرة في تدريب اولئك الشبان على الاساليب الحديثة ، لان قوام هذه الاساليب النظام والطاعة المطلقة للرؤساء ، والماليك اعتادوا الصخب والضوضاء والاخلال بالنظام ، ولم يألفوا من الحركات العسكرية سوى الكرّ والفرّ ، فكان النظام والسكون اللذان لامندوحة عنهما أثناء المناورات والتمرينات العسكرية ممالا يروق لهم ، أضف الى ذلك انهم لم يعتادوا أن يتعلموا فنون الحرب على ضباط أوروبيين (مسيحيين) ، فغاشت نفوسهم بفكرة التمرد والعصيان ، ودبروا المؤامرات للفتك بالكولونل سيف على مثال مؤامرات الماليك لاغتيال بكواتهم القدماء ، فبينما كان ذات يوم يمرن اولئك الشبان على ضرب النار اذا بأحدهم قد رماه برصاصة كادت ترديه لولا أنها انحرفت ومرت بجانب اذنه ، وسمع صفيها ، فلم يتزعزع ولم يفقد شيئاً من شجاعته ورباطة جأشه ، بل استمر في عمله وأمر التلاميذ باطلاق النار كرتة جديدة

وحديث مرة أخرى أن نزع تلاميذه الى العصيان وتهددوه بالقتل ، فطلب اليهم أن يبارزوه متعاقبين واحداً تلو الآخر حتى لا يدنسوا انفسهم بالخيانة والغيلة ، فكان لهذه الشجاعة والبطولة وسعة الصدر تأثير سحري في نفوس اولئك الفتيان الذين مهما يكن ما اتصفوا به من الغدر فانهم يقدرون الشجاعة حق قدرها ، فبعد ان كانوا ناقلين عليه صاروا من خاصة اوليائه يحيطونه باعجابهم واجلالهم ، فتمكن الكولونل (سيف) من إتمام تعليمهم في مدى ثلاث سنوات

واستمر على هذا النحو الى ان تكونت من تلاميذه الهيئات الأولى من الضباط وقد كان ابراهيم باشا يصحب أحيانا الكولونل سيف في اسوان ، وكان لوجوده تأثير كبير في حمل الشبان على الطاعة واتباع النظام الجديد

يؤخذ من البيانات المتقدمة ان أول مدرسة حربية للجيش النظامي هي مدرسة اسوان ، وقد ذكر العلامة على باشا مبارك^(١) ضمن كلامه عن مدينة اسوان

مايلي « وعلى نحو ثلثي ساعة من جهتها البحرية قصر وبستان من انشاء محمد بك
لاظ اوغلي سنة ١٢٣٨ هـ مدة اقامته بها من العساكر الجهادية الذين جعل العزيز
محمد على عليهم سليمان باشا الفرنسي لتعليمهم القوانين الافرنجية العسكرية ،
وكان بقرب ذلك البستان قشلاق لإقامة ضباط العساكر ، ثم جُمِلَ مكتبا للتلامذة
على طرف الميرى »

فالقشلاق الذى ذكره على باشا مبارك هو المدرسة الحربية باسوان التى تكونت
فيها نواة الجيش النظامى

التجنيد

وبعد أن توافر العدد السكافى من الضباط أخذ محمد على يفكر فى حشد الجنود
وتنظيم صفوفهم ، وهنا نشأت صعوبة جديدة ، وهى طريقة اختيار الجنود ومن أى
الطبقات يحشدهم

لم يشأ فى المبدأ أن يجند الاتراك ولا الارناءود فى النظام الجديد ، لما فطروا
عليه من حب الشغب والنفور من النظام والرغبة عن الطاعة ، فأعرض عنهم ، ولم
يشأ أيضا ان يفاجئ المصريين بتجنيدهم حتى لا يثير الهياج فى البلاد لانهم لم
يعتادوا التجنيد من عهد المماليك ، فخشى اذا هو عجل بحشدهم ان يعدوا ذلك عبثاً
جديداً يثقل كاهلهم فوق اعباء الضرائب والاتاوات التى كانوا ينوءون بها ، وخشى
من جهة اخرى أن يؤدى تجنيدهم الى حرمان مصر من قيامهم على الزراعة فتسوء
حالة البلاد الاقتصادية وتزداد ضنكا على ضنك ، ففكر اولاً فى تجنيد السودانين
من سكان كردفان وسنار ، وقد تقدم القول بان من بواعث فتح السودان تجنيدها
فى الجيش المصرى ، ولقد عهد الى ابنه اسماعيل باشا وصهره الدقتردار ان يرسلوا
اليه حشداً من السودانين يجمعان له ما وسعهما الجمع ، فجاءه منهم نحو عشرين الفا

وأفغذهم الى بنى عدى (١) حيث بُدئ في تدريبهم هناك على النظام الحديث على يد الضباط المالك الذين تخرجوا من مدرسة اسوان ، واعدت الحكومة لاقائهم وتدريبهم الثكنات الكافية والمؤن والمستشفيات والاسلحة والملابس ، وبذل محمد على في هذا السبيل كل ما أوتي من قوة العزيمة والقدرة على التنظيم وقد اشار على باشا مبارك الى هذه الثكنات في كلامه عن بنى عدى (٢) بقوله « وبها أثر قصر كان بناه محمد لاظ اوغلى مدة اقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية اسوان » ، فلا بد أن يكون هذا القصر الذى بقى اثره الى حين تأليف الخطط التوفيقية (١٣٠٥ هـ ١٨٨٧) أحد المباني التى اقيمت في بنى عدى حينما شرع محمد على في اتخاذها مكانا لتدريب الجنود على النظام الحديث ، ومحمد لاظ اوغلى الذى يذكره على باشا مبارك هو كتحدا (وكيل) محمد على باشا فهو اذن قد اقام هذا القصر بأمر من مولاه

على أن تجربة تجنيد السودانين لم تصادف النجاح المرغوب ، فان معظمهم وقع فيهم الموتان لعدم موافقة جو مصر لمزاجهم وصحتهم ، ولأنهم لم يطبقوا أعباء الخدمة العسكرية ، فأخذ محمد على يفكر فى الالتجاء الى تجنيد المصريين ، وانشأ ثكنات لتمرين المجندين منهم فى فرشوط عدا ما أنشأه فى اسوان وبنى عدى

وفى يناير سنة ١٨٢٣ تألفت الاورط الست الأولى من الجيش النظامى ، وجعل المالك الذين تخرجوا من مدرسة اسوان ضباطا لها ، ومضت سنة ١٨٢٣ ثم الأشهر التالية الى يونيه سنة ١٨٢٤ فى اتقان تدريب تلك الاورط ، فأغبط محمد على بهذه النتيجة الأولى ، وأراد أن يشهد بنفسه مبلغ نجاح مشروعه ، فأمر بنزول الاورط النظامية الى القاهرة وعرضها فى (الخانكة) ، وكانوا عدة آلاف من المشاة (البيادة) شاكى السلاح كالمى العدة قاموا بمناورات حربية اثبتوا فيها

(١) بالقرب من منفلوط وهى التى ذكرها فى الجزء الاول ص ٤٢٠ وتسمى الآن بنى عديات

(٢) الخطط التوفيقية جزء ٩ ص ٩٤

دربتهم وحسن نظامهم ، فاعجب بهم محمد على واغتبط بنجاح مسعاه ، وانشأ
معسكرا عاما للجيش في (الخانكة) كان يحتوى دواما من ٢٠ الى ٢٥ الفا من
الجنود النظاميين ، وصارت الخانكة وابوزعبل مباءة للتعليم العسكرى وما اليه ،
ففى ابى زعبل انشئ المستشفى العسكرى الأول ثم مدرسة الطب ، وانشئت المدرسة
الحربية للمشاة ومدرسة اركان الحرب فى الخانكة

واعترم تجربة جنوده النظاميين فى ميادين القتال ، فأنفذ الاورطة الاولى
الى الحجاز حيث كانت الثورات لا تحمد جذوتها ، والثانية الى السودان ، والاربع
الاخري الى بلاد (الموره) لمحاربة اليونانيين تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا
ومن الحق أن نعرف أن محمد على لاقى صعوبات جمة فى تجنيد الاهلين ، وحدث
بسبب تدميرهم من التجنيد قن تغلب عليها بالحزم والحكمة ، وفى سنة ١٨٢٤
(١٢٤٠ هجرية) جاء القصير مغربى يسمى احمد بن ادريس قادما من الحجاز
فوقعت مشادة بينه وبين عمال الجرك على مكوس فرضوها على امتعته ، فسار الى
قنائم الى اسنا ، وحرّض الاهالى هناك على الفتنة وكانوا مستعدين للهباج لتدميرهم
من التجنيد وانضمت اليه الجموع الصاخبة وسار بهم الى فرشوط ، وكادت تستفحل
الفتنة لولا أن الحكومة جردت عليهم القوات السكافية فشتت جموعهم وطاردتهم
الى الجهات الصحراوية

وترجع المصاعب فى تجنيد الاهالى الى أنهم كما قدمنا لم يألفوا الخدمة العسكرية
ولم يكونوا مكلفين بها فى عهد المماليك ، وهذا نقص كبير فى اخلاق الشعب الحربية ،
فانه مامن أمة تنزع الى الاستقلال وتقّس الحرية إلا وتجعل الخدمة العسكرية
فرضا حتما على ابدائها فى طبقاتهم كافة ، فلما شرع محمد على فى تجنيد المصريين
قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط ، ولم ينتظموا فى صفوف الجندية إلا
مكرهين ، فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسرا الى المعسكرات ،
ومن الأسف انه مازالت كراهية التجنيد باقية فى نفوس معظم طبقات الشعب الى
عصرنا هذا ، فالمتعلمون يكرهون التجنيد ويفرون منه ، والسواد الاعظم من الامة

يتحاماه و يمحقه ، وكل من يطلب للتجنيد يؤد أن يفتدى نفسه بما يستطيع من المال ، ولا يمكن تدارك هذا النقص إلا اذا تقدمت الطبقات المتعلمة واعطت المِثَال للطبقات الاخرى فى احترام التجنيد والاقبال عليه باعتبار أنه واجب وطنى عام ، ومالم يتقدم المتعلمون والموسرون الى الانتظام فى سلك التجنيد فلا يجمل بنا أن نلوم الفلاحين على نفورهم منه لانهم إذ يرون المتعلمين يترفعون عن الخدمة العسكرية فلهم العذر أن يتوهموا أنها سخرة تبتلى بها الطبقات الفقيرة ، وهذا الوهم يفسد الروح القومية والحربية فى طبقات الشعب

ولا يغيب عنك أن نجاح تجربة تجنيد المصريين فى عهد محمد على وما برهن عليه الجيش من الكفاية والنظام يدل على مبلغ استعداد الامة المصرية لأن تكون أمة حربية ، ويكفيك أن تتأمل فى ما كان عليه الجيش من الفوضى والتأخر حينما كان مؤلفا من الارناء وط وغيرهم من اخلاط السلطنة العثمانية ، وكيف استعصى على محمد على أن ينشئ من تلك العناصر جيشا نظاميا ، وكيف انتقاد له ذلك حينما اعتمد على المصريين دون سواهم ، فألف منهم الجيش الذى تردد ذكره فى الخافقين لما ناله من الانتصارات الباهرة فى ميادين القتال

وجد إذن محمد على صعوبة كبيرة فى تطبيع المصريين على نظم التجنيد ، على أنه وفق فى مساعاه بفضل المثابرة وقوة العزيمة ، ولأن الفلاحين بعد ان كانوا متهميين من التجنيد رأوا الحياة العسكرية أرفق وأحسن حالا من معيشتهم فى القرى طعاما ولباسا ومظهرا ، فأخذوا يالفونها ويعتزون بها

قال المسيو مورييه Mouriez فى هذا الصدد « لما انتظم الفلاحون فى صفوف الجيش النظامى الفوا بسرعة حياتهم الجديدة ، وبعد ان كانوا معتادين الذل والمسكنة فى قرَاهم استشعروا تحت راية الجيش بكرامتهم الانسانية ، وأخذوا يفخرون بانهم جنود محمد على ويقابلون غطرسة الترك بمثلها ، ولم يقبلوا أن يسموا فلاحين وعدوها تصغيرا لشأنهم لان هذه التسمية كانت تشعر (وقتئذ) بشئ من المهانة ، وقالوا من الحكومة أمرا أن لا يبرزهم أحد بكلمة فلاحين »

ولما اتسعت دائرة التجنيد استدعى محمد على من فرنسا طائفة من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش المصرى ، فتكونت طوائف الضباط المصريين على يد المعلمين الاوروبيين ، وأرسل طائفة من الشبان الى اوروبا لاتمام دروسهم الحربية هناك ، فعادوا الى مصر بعد أن حذقوا العلوم والفنون العسكرية ، وحلوا فى المدارس الحربية محل المعلمين الاجانب ، واذا تأملت فى البعثات التى أوفدها محمد على الى اوروبا وجدت معظم أفرادها قد تخصصوا للفنون الحربية وما إليها من الهندسة والرياضيات

المدارس الحربية

مدرسة اسوان

قلنا ان مدرسة (اسوان) هى أول مدرسة حربية أسسها محمد على باشا على النظام الحديث ، وقد أسست مدرسة حربية أخرى فى فرشوط ومثلها فى النخيلة وأخرى فى أببار (جرجا)

مدرسة قصر العينى

وانشئت سنة ١٨٢٥ مدرسة اعدادية للتعليم الحربى بقصر العينى ، كانت تعرف بالمدرسة التجهيزية الحربية ، وعدد طلبتها نحو ٥٠٠ تلميذ يعدون لدخول المدارس الحربية والمدرسة البحرية ثم للمدارس العالية الأخرى ، ونقلت الى ابى زعبل بعد أن خصص قصر العينى لمدرسة الطب ، وقد زارها المارشال مارمون سنة ١٨٣٤ فالفى بها من التلاميذ ١٢٠٠ تلميذ (١)

ويقول المسيو مانجان (٢) ان بهذه المدرسة مكتبة كانت تحوى (سنة ١٨٣٧)

١٥٠٠٠ مجلد

مدرسة المشاة بالخانكة ثم بدمياط ثم بأبي زعبل

وجه محمد على عنايته لتنظيم فرق المشاة (البيدة) في الجيش المصري ، وإنشأ لتخريج ضباط هذه الفرق مدرسة حربية في (الخانكة) على أحدث نظام ، بلغ تلاميذها ٤٠٠ تلميذ قسموا الى ثلاثة بلوكات ، يتعلمون فيها التمرينات والادارة الحربية ، واللغات العربية والتركية والفارسية ، ثم نقلت المدرسة الى دمياط سنة ١٨٣٤ وكان ناظرها ضابط من مقاطعة البيمونت بإيطاليا واسمه المسيو بولونيني Bolognini كان من ضباط الامبراطورية النابليونية فاستخدمه محمد على ورقاه الى رتبة قائمقام ، ثم نقلت المدرسة الى أبي زعبل سنة ١٨٤١

مدرسة الفرسان بالجيزة

ذكر كلوت بك في كتابه أن تشكيل فرق الفرسان في الجيش المصري لم يبدأ بحسب النظام الجديد إلا بعد عودة الجيش من حرب المورة ، ذلك أن ابراهيم باشا قد شاهد في خلال هذه الحرب حسن نظام الخيالة الفرنسيين فأدرك أهمية تنظيم الفرسان ، وعلى أثر عودته الى مصر شرع في تشكيل فرق الخيالة على النظام الاوروبي ، واستدعى لهذا الغرض عددا من المعلمين الاوروبيين أنشئت المدرسة الحربية للفرسان بالجيزة في قصر مراد بك (٢) فحول الى ثكنة جميلة للفرسان ، وتولى تنظيم المدرسة المسيو فاران Varin من ضباط الامبراطورية النابليونية ياور المارشال جوفيون سانسير Gouvion Saint Cyr ، وتلاميذها من الشبان يتعلمون مناورات الفرسان وحركات المشاة ويلبسون أ كسية تطابق ملابس الفرسان الفرنسيين ماعدا القبعة ، ويتولى التدريس في هذه المدرسة ضباط لقيادتهم ومدرسون يدرسون لهم اللغتين العربية والتركية

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٢٤

(٢) انظر ما كتبناه عن هذا القصر بالجزء الاول ص ١٤٦ و ٢١٨

وكانت المدرسة تتبع نظام مدرسة سومور Saumur الحربية بفرنسا إلا بعض تعديلات طفيفة استلزمها الظروف المحلية ، وفيها اساتذة لتعليم اللغة الفرنسية والرسم والمبارزة وترويض الخيل ، وفيها رئيس للإدارة الحربية ، ويتعلم فيها الطلبة فوق ماتقدم استعمال النفيير وسائر ضروب الموسيقى المستعملة في فرق الفرسان ، وطلبته خليط من الشبان المصريين والترك يخرجون منها ضباطا لفرق الفرسان ، وكان لهذه المدرسة ناظر يقوم على النظام فيها وله توقيع الجزاءات على من يستحقون العقاب من مرؤوسيه ، وتوزيع الاغذية والعلف ، ويتصل بناظر الحربية ويتبع أوامره وقد زار المارشال مارمون هذه المدرسة سنة ١٨٣٤ وكان بها إذ ذاك ٣٦٠ تلميذا فاعجب بها وكتب عنها في رحلته مايلي (١)

« عند مشاهدت هؤلاء الطلبة في الميدان يقومون بالمناورات خيّل لي أنى أمام طابور من أرقى الايات الخيالة عندنا ، ولئن كان ينقص المدرسة لتصل الى درجة الكمال بعض دروس في اللغة والرسم وغير ذلك ولكن مما لا نزاع فيه أنها من جهة تنظيم فرق الفرسان لا ينقصها شيء ، فالطلبة يجيدون ركوب الخيل ، والمناورات التي يقومون بها تجري بخفة ودقة واحكام ، ونظامهم وهندامهم على أحسن ما يكون ، والروح المعنوية فيهم على مايرام ، فهم جنود بكل معانى الكلمة ، وحمة الابواق يؤدون عملهم باتقان »

مدرسة المدفعية بطرّة

شكلت المدفعية النظامية في الوقت الذي نظمت فيه المشاة على الطراز الحديث ، وتولى تنظيمها جماعة من الضباط الفرنسيين ، وعاونهم في العمل ضباط من المصريين وفي مقدمتهم الضابط القدير ادم بك (باشا) الذي اسس ترسانة القلعة وتولى ادارة المهات الحربية ثم رئاسة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية)

وانشئت في (طره) مدرسة حربية للطوبجية (المدفعية) تولى ادارتها ضابط اسباني يدعى الكولونل (الميرالاي) الدون انطونيو دى سيجيرا Segura ، وهو الذى عرض على محمد على انشاءها لتخريج ضباط المدفعية للجيش المصرى ، وعرض مشروعه ايضا على ابراهيم باشا قائد الجيش العام فنال تأييده ، ومن ثم انشئت المدرسة على الوضع الذى اقترحه الميرالاي سيجيرا ، وقد ذكر العلامة على باشا مبارك هذه المدرسة في كلامه عن (طره) فقال « وكان بطرا مدرسة الطوبجية وهى مدرسة جليلة من انشاءات العزيز محمد على تربى بها جملة من الامراء برعوا في فنون الطوبجية » (١) ، ثم نقل ما كتبه الدوق دى راجوز (المارشال مارمون) عنها مما سنده في موضعه

وقد اختير لهذه المدرسة من التلاميذ ثلثائة من خريجي مدرسة قصر العيني الاعدادية اخذوا يتلقون فيها الدروس الحربية ، واللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكامات ، ويتمرنون على الرمي بالمدافع على يد معلمين حربيين ، وكان الكولونل سيجيرا نفسه يعلمهم دروس الرياضة والرسم ، وقد تقدموا في علومهم وبرهنوا على كفايتهم في الحرب السورية (٢) ، وتبارت المدفعية الثقيلة والمدفعية الخفيفة في النشاط والجدارة ، قال مانجان : وضباط المدفعية المتخرجون من هذه المدرسة متعلمون مثقفون

ولم يغرب عن بال محمد على باشا اهمية هذه المدرسة فأراد ان يرى بنفسه سير التعليم فيها فزارها واختبر شؤونها فأبدى ارتياحه وسروره من اساتذتها وتلاميذها ومعداتنا ، وكافأ الكولونل سيجيرا بالانعام عليه برتبة البكوية مع لقب لواء ، والحق بالمدرسة اورطة للمدفعية المشاة وأورطة اخرى للمدفعية الركبان ، وانشى لها ميدان لضرب النار والتلاميذ وضع به اربع وعشرون بطارية من المدافع للتمرين عليها

(١) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٣٢

(٢) مانجان ج ٣ ص ١٢٩

وكان للمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب يساعد على معالجة المرضى

مدرسة اركان الحرب بالخانكة

انشئت هذه المدرسة بالخانكة بناء على اقتراح عثمان نور الدين باشا بالقرب من المعسكر العام للجيش وقد ذكرها المسيو دور في كتابه عن التعليم العام بمصر (١) وكوت بك (٢) ولم يذكر تفصيلات عنها ، ويسمىها رفاة بك رافع (٣) مكتب الرجال بالخانقاه

مدرسة الموسيقى العسكرية

قرر محمد على تنظيم الجيش المصرى على مثال الجيوش الأوروبية من كل وجه ، فأمر باعداد طائفة من الموسيقيين لكل ألى ، وأحضر من اوروبا ما يلزم الجيش من الآلات الموسيقي ، وكذلك أحضر المدرسين الأوروبيين لتعليم المصريين الموسيقى الافرنجية الحربية ، فأنشأ فى (الخانكة) معهدا لتعليم الموسيقى يسع ١٣٠ تلميذا تولى التدريس فيه اربعة من الموسيقيين الفنيين ، وعين المسيو كاريه Carré مديرا له ، وكانت تدرس فيه ايضا اللغة العربية على يد اساتذة مصريين وقد ابدى التلاميذ المصريون اتقاناً وبراعة ونبوغاً فى فنون الموسيقى شهد بها الافرنج ، قال المسيو مانجان فى هذا الصدد « ان اولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من السهولة فى توقيع الالحان الصعبة من النوتات ما أدهش العارفين بالفن وخاصة الافرنج الذين اجتذبتهم الى وادى النيل شهرة محمد على » (٤)

(١) ص ٢١١ ج ٢ ص ٥١٠ ، لمحة عامة الى مصر

(٢) فى كتابه مناهج الالباب المصرية ص ٢٤٧ طبعة ثانية

(٤) مانجان ج ٣ ص ١٣٠

وهذه المدرسة كانت تخرج الموسيقيين الذين يحتاج اليهم الجيش المصرى ،
ولكن الدكتور كلوت بك لاحظ في كتابه (١) أن برنامج المدرسة قام على قاعدة
خاطئة ، ذلك أنه تضمن نقل الموسيقى الاوروبية بنغماتها واناشيدها الاوروبية الى
بيئة شرقية لم تتعود الا لحن الاوروبية ، فلم تؤثر في نفوس التلاميذ التأثير الفنى
المطلوب ولم تتحرك لها قلوبهم ، وان الواجب كان يقضى باحضار فنانين عارفين
بالموسيقى العربية ليؤلفوا منها ومن الا لحن الاوروبية موسيقى خاصة تتأثر لها نفوس
المصريين ، ويقول ان الحكومة في عهد محمد على ذاته قد الغت معهد الموسيقى
بالخانكة مع انه خرج عددا لا بأس به من الموسيقيين القادرين واستعاضوا عنه بان
جعلوا لكل الاى من الجيش معلما اوروبيا ، ولكن لم يكن من الميسور لمعلم واحد
ان يضطلع بهذه المهمة ولذلك لم تصل الموسيقى الحربية في مصر الى مجارة
الموسيقى الاوروبية

المدرسة البحرية بالاسكندرية

تسكلمنا عنها فى الفصل الحادى عشر

مصانع الاسلحة والمدافع بالقلعة

راى محمد على بشاغب نظره ان إنشاء جيش يحمى الذمار أمر لا قوام له
الا بان يجد كفايته من السلاح والذخيرة والمدافع فى داخل البلاد ، إذ الاعتماد على
جلب السلاح من الخارج يعرض قوة الدفاع الوطنى للخطر ويجعل الجيش والبلاد
تحت رحمة الدول الاجنبية ، لذلك بذل جهده فى إنشاء مصانع الاسلحة فى مصر ،
فأسس قائد المدفعية ادهم بك ترسانة القلعة لصنع الاسلحة وصب المدافع ،
وتولى ادارتها

وقد حدث فى القلعة حريق هائل سنة ١٨٢٤ امتد الى مخزن البارود فخرّب

معظم الترسانة ونحرب نحو خمسين منزلا من المنازل المجاورة للقلعة ومات في هذه الكارثة نحو اربعة آلاف نفس (١)

ويقول المسيو مانجان (٢) ان ترسانة القلعة لم تكن شيئا مذكورا الى سنة ١٨٢٧ ، ولكنها عظمى واتسعت ارجاؤها بمضى الزمن فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين الى باب الانكشارية الذى يطل على ميدان الرميطة وكان بها ٩٠٠ من العمال لصنع الاسلحة ، ويصنع فيها كل شهر من ٦٠٠ الى ٦٥٠ بندقية ، تتكلف كل بندقية اثني عشر قرشا مصريا ، ويدفع لرؤساء العمال مرتبات ثابتة ، اما العمال الآخرون فتدفع لهم أجور يومية

وكان بها قسم خاص لصنع زناد البنادق ، والسيوف والرماح للفرسان ، وحقائب الجنود ، وحمايل السيوف ، وكل ما يلزم لتسليح الجنود من المشاة والفرسان ، وحلية الخيل من اللجم والسروج وما إليها ، وفيها مصنع واسع لعمل صناديق البارود ومواسير البنادق ، ومصنع آخر لصنع ألواح النحاس التى تستخدم لوقاية السفن الحربية

معمل صب المدافع

وكان أهم مصانع الترسانة وأكثرها عملا وأولها باستعراء النظر معمل صب المدافع ، تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع او اربعة من عيار اربعة وثمانية ارطال ، وتصنع فيه أحيانا مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة ولا يقل عمال هذه الترسانة عن ١٥٠٠ عامل وتستهلك فيها كل شهر كمية عظيمة من الفحم والحديد (٣)

(١) رسالة المسيو دروفى المؤرخة ٣٠ مارس سنة ١٨٢٤ الواردة فى وثائق

حرب الموره وثيقة رقم ٦

(٢) مانجان ج ٣ ص ١٣٢

(٣) مانجان ج ٣ ص ١٣٣

مخازن البارود والقنابل

أما مخازن البارود والقنابل فقد أعدها محمد علي مكانا خاصا على سفح المقطم

رأى المارشال مارمون في ترسانة القلعة

وقد زار المارشال (مارمون) ترسانة القلعة سنة ١٨٣٤ وأعجب بنظامها وأعمالها، وكتب عنها في رحلته مايلي « زرت دار الصناعة بالقلعة وعينت بها فحصا وتقصيا، فألفت البنادق التي تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع في معاملنا، وهي تصنع على الطراز الفرنسي، وتتخذ فيها الاحتياطات والوسائل التي نستعملها نحن لضمان جودة الاسلحة، وتتبع النظام نفسه الذي نتبعه نحن في تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه، وكل ما يصنع فيها يعمل قطعة قطعة، ومعمل القلعة يضارع أحسن معامل الاسلحة في فرنسا من حيث الاحكام والجودة والتدبير » (١)

ابراهيم أدهم باشا

تقدم القول بان أدهم بك (باشا) كان في مقدمة الضباط الكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية، وانه تولى ادارة المهات الحربية، وأسس دار صناعة (ترسانة) القلعة لصنع الاسلحة وصب المدافع وأدهم بك هذا هو من خيرة رجال محمد علي ومن أصدق من بذلوا جهودهم في تأسيس الجيش النظامي، وهو أيضا ممن حملوا لواء نهضة التعليم في مصر، فقد تولى ادارة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) عشر سنوات ونيفا وقد ذكره العلامة على باشا مبارك فقال عنه انه « كان من أشهر رجال الحكومة، صادقا في القيام بوظائفه مع الاجتهاد »

(١) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٣

وذكر عن ترجمته ما خلاصته (١) ان أصله من الاستانة ثم استوطن مصر في عصر محمد علي باشا حين تأليف الجيش النظامي ، فجعله ضابطا في المدفعية ، وكان ملما باللغات الفرنسية والعربية والتركية والتشكيلات العسكرية ، وتنظيم المهات ، وقد جعله محمد علي ناظرا للمهات الحربية (٢) « فبذل فيها جهده وحمدت مساعيه » وأقام بهذه الوظيفة زمنا ثم ترقى الى رتبة أميرالاي ، وكان يتلقى عنه الهندسة جماعة من رجال الحكومة مثل ابراهيم بك رافت وكيل ديوان المدارس ، ومصطفى راسم مدرس الهندسة بمدرسة القصر العيني ، وحسن افندي الغوري مدرس الهندسة بمدرسة المدفعية بطره

وقد وشى في حتمه أحد حساده سنة ١٢٤٩ وأوغر عليه صدور رؤسائه ، ففصل عن وظيفته ، وأقيمت عليه قضية استمرت نحو ثمانية أشهر وظهرت براءته منها ، وكان خلال ذلك لا يفتأ يؤدي واجبه نحو البلاد ببذل النصيح والارشاد الى من يقصدونه من محبي العلم

قال علي باشا مبارك في هذا الصدد « وكان المعلمون في الورش يحضرون اليه بمنزله ويستفهمون منه عن العمل في البنادق والمدافع ونحو ذلك وهو يفيدهم بجده واجتهاده رغبة منه في خدمة الديار المصرية »

ولما عاد ابراهيم باشا من الحرب السورية سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٢٤ م) اثنى عليه عند محمد علي باشا وذكر نصحه واجتهاده في خدمته فأنعم عليه برتبة أمير لواء وأعيد الى وظيفته ، وبعد وفاة مصطفى مختار بك أضيفت اليه شؤون المدارس فصار مدير ديوان المدارس (وزير المعارف العمومية) وتولى هذا المنصب نحو عشر سنوات (١٨٣٩ — ١٨٤٩)

وفي زمن عباس باشا الاول تولى وزارة المعارف بضعة أشهر (اكتوبر

(١) الخطط الوفيقية ج ١٢ ص ٥

(٢) جاء في العدد ٤٣٢ من الوقائع المصرية انه امير اللواء اداهم بك

مفتش المهات الحربية

سنة ١٨٤٩ — مايو سنة ١٨٥٠) ثم نقل مديراً للمهمات الحربية وجعل له نظراً
أوقاف الحرمين الشريفين ، وانعمت عليه الحكومة جزاء خدماته بأرض مساحتها
٥٨٠ فدانا في جهة (سبرباي) بمديرية الغربية

وفي زمن سعيد باشا جمل (محافظ مصر) وانعم عليه بالباشوية فصار يعرف
بأدهم باشا وأحيل عليه قلم الهندسة مع المهمات الحربية

وتولى من جديد في عهد اسماعيل باشا وزارة المعارف العمومية عدة أشهر
(يناير — يولييه سنة ١٨٦٣) ثم اعتزل الخدمة ، وكانت وفاته سنة ١٨٦٩

قال عنه علي باشا مبارك « وكان رقيق القلب ، رحيم ، كثير الصدقة ، مباشر
المصالح بنفسه بلا تعاضم ولا تكبر ، ويلاطف اصحاب الحاجات حتى يقف على
حقيقة شكواهم ، ويقوم بنصرة المظلوم ، واعتنى بالمدارس واجتهد في أسباب الرغبة
فيها ، فكان يجلب المجددين من التلامذة والمعلمين ، ويسعى في ترقيةهم ليجتهد
غيرهم ، فظهرت النجابة في جميعهم أو أكثرهم وحصلوا في وقته تحصيلًا جمًا ، ومن
انشأه مكتب (مدرسة) السيدة زينب رضي الله عنها ، ومكتب بولاق ومكاتب
أخرى ، وبالجملة فكان كالوالد لآبناء المدارس وله اصلاحات أيضا بالجامع الأزهر
زمن نظارته على الاوقاف »

وقد التقى به المارشال مارمون خلال زيارته لمصر وأعجب به وبكفاءته فقال عنه
« انه تعلم اللغة الفرنسية بقوة ارادته على غير استاذ ، وأنه يتكلمها بلمهجة صحيحة ،
وتبحر في الرياضيات ، وفنون المدفعية ، وصار في نظري يضارع أحسن ضباط
المدفعية وكفأ مديري مهماتها ، وهو من أقوى من عرقهم في حسن الادارة ،
وان اختيار محمد علي لمثل هذا الرجل لمعاونته لدليل على صدق نظره وفراسته وحسن
توفيقة في اختيار رجاله (١) »

مصنع البنادق في الحوض المرصود

لم يكتف محمد علي بمصنع البنادق في القلعة بل أنشأ في الحوض المرصود حوالى سنة ١٨٣١ م عملا آخر لصنع البنادق ، وكان من قبل معدا للنسيج ، وقد تكلم عنه المسيو مانجان (١) ، فقال ان محمد علي عهد بإدارته الى رجل ايطالى من (جنوه) يسمى المسيو مارجو وقد تسمى باسم على افندى ، قال عنه « وقد اكتسب خبرته بعمله في ترسانة القلعة تحت امره ادم بك ، وقد اشتغل بمجد وعزيمة وتخرج على يديه طائفة من الصناع مهروا في طريقة صنع البنادق على اختلاف طرازها »

وبلغ عدد عمال الحوض المرصود (حوالى سنة ١٨٣٧) ١٢٠٠ بين صناع ورؤساء عمل يصنعون في الشهر نحو ٩٠٠ بندقية من مختلف الانواع والاشكال ، فنهاماهو للمشاة ، ونههاماهو للفرسان وللطوبجية على الطراز المتبع في الجيش الفرنسى ، وكذلك الحال في معامل القلعة

ومتوسط ما تتكلفه البندقية اربعون قرشا ، أى بازيد مما تتكلفه البندقية التى تصنع بترسانة القلعة بثمانية وعشرين قرشا ، وقد سأل المسيو مانجان عن سبب هذا الفرق ، ف قيل له ان ذلك راجع الى الفرق في عدد العمال وكمية الفحم والحديد في كلا المصنعين ، على أنه لم يفتح بهذا السبب

وكانت تعمل تجربة للمدافع فى كل اسبوع ، وقد لاحظ المسيو مانجان ان الحديد الذى كانت تصب منه المدافع التى شاهدها سنة ١٨٣٧ من نوع غير جيد ، فكانت النتيجة أن يستغنى عن خمس عدد المدافع المصنوعة لانه لم يحتمل التجربة ، قال واذا كان الحديد من النوع الجيد الواجب استعماله لا تتجاوز الكمية المبلغا منه السدس ويقول ان البنادق التى تصنع في معامل القلعة والحوض المرصود كانت صناعتها جيدة ، ولا يستطيع الانسان أن يلاحظ عيبا في صناعتها إلا اذا كان على خبرة بسر الصناعة ، والعيوب آتية على الأرجح من نوع الحديد لا من عدم مهارة الصناع

وذكر المارشال مارمون في رحلته (١) انه شاهد مصنعا ثالثا للأسلحة في ضواحي القاهرة، وان المصانع الثلاثة تصنع في السنة ٣٦ ألف بندقية عدا الطبنجات والسيوف

معامل البارود

واقیم معمل للبارود في المقياس بطرف جزيرة الروضة، وكان بناؤه فسيحا ومناسبا وبعيدا عن المساكن، وقد تولى ادارته المسيو Martel الذي كان من قبل مستخدما في معمل البارود بمدينة سان شاماس Saint Chamas وتولى العمل تحت ادارته تسعون عاملا موزعين على اقسام المعمل، منهم ١٨ عاملا كانوا يشتغلون في خلط الكبريت والفحم وملح البارود، و٢١ عاملا يشتغلون في تقليب البارود في الطواحين وعددها عشرة، ولكل طاحون عشرون مدقة، تحركها عشر آلات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال، واربعون عاملا يشتغلون في صنع الرش ويصنع منه كل يوم ٣٥ قنطارا

وكان يصنع البارود بطريقة التبخير، وهذه الطريقة أوفر من طريقة النار وقد تعددت معامل البارود في مصر وكانت تسمى (كهر جالات) وهالك اسماءها ومقدار الناتج منها سنة ١٨٣٣ (٢)

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطار
» البدرشين (٣)	» ١٦٨٩
» الاشمونين	» ١٥٣٣
» الفيوم	» ١٢٧٩
» اهناس	» ١٢٥٠
» الطرانه	» ٤١٢

الجملة ١٥٧٨٤

(١) ج ٣ ص ٢٨٤ (٢) مانجان ج ٣ ص ٢٢٤
(٣) ذكر العلامة على باشا مبارك الجزء التاسع من الخطط التوفيقية ص ١٤ في

ملابس الجنود ومرتباتهم

وصف كلوت بك^(١) ملابس الجنود في عهد محمد علي ، فقال انها غاية في البساطة تتألف بالنسبة للجنود من الطربوش الاحمر ، وصدار ، وبنطلون ، وهو يشبه السروال الواسع يُشدُّ بتكة على الوسط ، ويربط على الركبة برباط الساق (القلشين) ويتمنطق الجنود على خواصرهم بحزام ، وملابسهم في الشتاء من الجوخ ، وفي الصيف من قماش القطن السميك ، اما الفرسان ورجال المدفعية والحرس فيلبسون في الشتاء صدرا ازرق اللون ، وغيرهم يلبس صدرا احمر ، ويرتدي رجال الجيش جميعهم في الصيف الملابس البيضاء ، ويحتدون باحذية من الجلد الاحمر (مراكيب) ولا يختلف رداء الضباط عن رداء العساكر ، الا في نوع الجوخ وما يزينه من التطريز ، واللون الاحمر يميز الضباط عن سواهم ، أما الشارات التي تميز بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ، فهي كما يلي :

يحمل الاونباشي شريطا واحدا على الصدر ، والجاويش شريطين ، والباشاويش ثلاثة ، والملازم الاول يحمل على صدره من ناحية اليمين نجمة فضية ، واليوزباشي نجمة وهلالا فضيين ، والصاغ هلالا من الذهب ونجمة فضية ، والبكباشي هلالا ونجمة من الذهب ، والقائم مقام هلالا من الذهب ونجمة من الماس ، والميرالاي هلالا ونجمة من الماس ، وامير اللواء نجمتين في هلال كلها من الماس ، والفريق (الميرميران) ثلاث نجوم في هلال كلها من الماس

ويقول كلوت بك ايضا ان عطاء (مرتب) الجندي البسيط ١٥ قرشا في الشهر ،

كلامه عن البدرشين ما يأتي « وفي جهتها البحرية معمل بارود من زمن العزيز محمد علي مستعمل الى قبيل تولية الخديوي محمد باشا توفيق كانت تجلب له الاسباخ من منية رهينة وتلؤل مصر العتيقة » .

(١) لحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٣١ (٢٢٣ الاصل الفرنسي)

ومرتب الاونباشى ٢٥ قرشا، والجاويز ٣٠ قرشا، والباشجاويز ٤٠ قرشا، والصول ٦٠ قرشا، والملازم الثانى ٢٥٠ قرشا، والملازم الاول ٣٥٠ قرشا، واليوزباشى ٥٠٠ قرش، والصاغ ١٢٠٠ قرش (١٢ جنيها)، والبكباشى ٢٥٠٠ قرش (٢٥ ج.) والقايم مقام ٣٠٠٠ قرش (٣٠ ج.)، والميرالاي ٧٠٠٠ قرش (٧٠ جنيها) والميرلواء ١١٠٠٠ قرش (١١٠ ج.)، والميرميران ١٢٥٠٠ قرش (١٢٥ ج.) ومرتبات كبار الضباط جسيمة كما ترى مما تقدم، وقد لاحظ كلوت بك ان السبب فى ذلك ان محمد على باشا اراد استمالة الاثراك الى النظام الحديث على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه فضلا عن ان الرؤساء فى الجيش تدعوهم طبيعة مراكرهم الى بسط اليد بالنفقة

الادارة الحربية

انشأ محمد على نظارة للحربية كانت تعرف بديوان الجهادية، عهد اليها قيادة الجيش وادارة شؤونه وناط بها جميع ما يجلب للجيش من سلاح ومهمات وثياب، وهى التى تجلب من مخازن الحكومة ما يلزمه من الذخائر والمؤن والادوية وما اليها وقد نظمت الجيوش المصرية على نمط الجيوش الفرنسية، وكذلك ادارتها الصحية، وبكل اورطة العدد اللازم من الموظفين والادوات لاقامة المستشفيات الخاصة بالاورط

الروح الحربية

ان تأليف الجيوش النظامية والمران على الحياة العسكرية وخوض غمار القتال كل ذلك مما قوى الروح الحربية فى نفوس الشعب صحيح ان المصريين لم يعتادوا الانتظام فى سلك الجيش منذ الفتح العثمانى، ولكنهم لم يفقدوا الروح الحربية فى عهد المماليك، اعتبر ذلك بالمقاومة المستمرة البعيدة المدى التى قام بها المصريون قاطبة فى وجه الحملة الفرنسية، مما بسطنا الكلام

عنه في الجزأين الأول والثاني، وهم وإن كانوا لم يألفوا الاندماج في سلك الجيوش النظامية ولم يُقبلوا على التجنيد الذي رسم محمد على قواعده طائعين، بل سيقوا إليه مكرهين، إلا أن الفلاحين الذين انتظموا في سلك الجيش ما لبثوا كما قلنا أن رأوا في حياة الجندي نظاماً أرقى من حياتهم الفردية، فأخذوا يألفونه مع الزمن، وقد أفادهم الفوائد العظيمة، فلا يعزب عن البال أن تنظيم الجيش كان له آثار بعيدة المدى في حالة البلاد السياسية والاجتماعية، فإن تأليف جيش قومي خاض غمار الحروب في ميادين عدة من شأنه أن يغرس في النفوس فكرة القومية، إذ هو نفسه جسم هذه الفكرة

قال المسيو مانجان في هذا الصدد « إن محمد على بهدمه الجيش غير النظامي، وتجنيد الفلاحين على النظام الأوروبي قد أكسب شعبه تقدماً عظيماً، ورد إلى مصر قوميتهما »

ويقول كادلفين وباروف في كتابهما (١)

« إن العرب (يريد المصريين) من سكان وادي النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثماني حق الانتظام في الجيش، ولكن محمد على قد أعاد إليهم هذا الحق، وهو بتجنيدهم - ولو أن ذلك كان على كره منهم - قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوهدة التي نزلوا إليها، وقد استردوا سمعتهم بما أظهره من الشجاعة في ميادين الحروب التي خاضوها » ولا شك في أن انضواء الجنود والضباط تحت علم الجيش مما يعودهم حب النظام، والنظام هو من العوامل الرئيسية لارتقاء الأمم وتقدمها، فليس ثمة نهضة من غير أن يكون النظام رائدها، وكذلك من خصائص الحياة العسكرية أن تبث الشجاعة في نفوس الأمة وتغرس فيها مبدأ افتداء الوطن بالنفس والنفس، ذلك المبدأ الذي هو من أقوى دعائم الاستقلال والحرية، فالروح الحربية المصرية قد تجلّت تحت راية الجيش النظامي وساعدت على تأليفه، كما أن تكوين الجيش نفسه كان له أثر فعال في نمو تلك الروح وبرورها وكتماها

هذا فضلا عما فطر عليه المصري من الايمان والقناعة والطاعة ، والصبر على
المسكاره ، والاطمئنان الى قضاء الله وقدره ، كل هذه الصفات جعلت من الفيالق
المصرية النظامية جيوشا ضارعت ارقى الجيوش الاوروبية في الدربة والكفاية
والشجاعة ، ولقد برهنت على هذه المزايا في ميادين القتال التي خاضت غمارها

شهادة الثقات للجيش المصري

ويكيفيك ان تقرأ في هذا الصدد شهادة الثقات لتزداد اعتقادا بصحة هذه الحقائق

رأى سليمان باشا الفرنساوى

فقد شاهد البارون (بو الكونت) الجيش المصري في سورية سنة ١٨٣٣ وقابل
الكونونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) فقال له يصف الجنود المصريين :
« ان العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيتهم من الجنود ، فهم يجمعون بين
النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطئتها على احتمال صنوف
الحرمان ، وهم بقليل من الخبز يسرون طول النهار يحدوهم الشدو والغذاء ، ولقد رأيتهم
في معركة (قونية) يبقون سبع ساعات متوالية في خط النار محتفظين بشجاعة
ورباطة جأش تدعوان الى الاعجاب دون ان تحتل صفوفهم أو يسرى اليهم الملل
أو يبدو منهم تقصير في واجباتهم وحركاتهم الحربية » (١)

رأى كلوت بك

وقال كلوت بك في كتابه (٢)

« ربما يعد المصريون أصلح الامم لأن يكونوا من خيرة الجنود (٣) ، لانهم
على الجملة يمتازون بقوة الاجسام وتناسب الاعضاء والقناعة والقدرة على العمل ،

(١) رسائل البارون بو الكونت ص ٢٤٠

(٢) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٢٢٦ (الاصل الفرنسى)

(٣) Les Arabes sont peut être les hommes les plus propres
à devenir de bons soldats

واحتمال المشاق ، ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامنثال للأوامر والشجاعة ، والثبات عند الخطر ، والتدرع بالصبر في مقابلة الخطوب والحن ، والاقدام على المخاطر ، والاتجاه الى خط النار وتوسط معامع القتال بلا وجل ولا تردد »
وذكر كلوت بك حوادث عدة تأييدا لتلك الحقيقة ، وقال انه يكتفى منها بالحوادث الآتية :

حدث في معركة (حمص) ان جنديا من الأورطة السابعة من الفرسان يدعى (منصور) فصلت ذراعه من جسمه بقنبلة ، فأبى وهو في هذه الحالة التراجع عن ميدان القتال ، بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد البأس وأروع البسالة وظل يحارب الى ان مات (١)

وحدث في معركة (قونية) أن ترك جميع الجرحى القادرين على حمل السلاح أسرهم في المستشفى ونفروا الى ميدان القتال ليشاطروا اخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت وفي تلك المعركة سقط جندي من الاورطة الرابعة من الفرسان عن ظهر جواده مجروحاً ، فما شهد أمير لوائه احمد المنكلي بك دفع اليه جواده ليرجع به الى الساقة ، فأبى الجندي قائلاً انه يفضل البقاء في ميدان القتال ليشهد اخوانه منتصرين ولو لقي الموت (٢)
وفي إحدى المعارك أصيب شاب يحمل النفير من جنود الاورطة الخامسة عشرة بجرح ، ورأى ان رفاقه في فصيلته قد هزمهم العدو وشتتهم ، فعلى الرغم من خطورة جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ في بوقه ، بإشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم ، ولم يتراجع خطوة واحدة الى الوراء ، ولما شاهد زملاؤه الفارون فعلة عراهم الخجل من رؤيته وهو فتي صغير يضرب لهم أمثال الشجاعة البطولة فحى دهم وتوا في بعضهم الى بعض ، ثم كروا الى القتال ليثأروا لشرفهم الذي ثلمه العدو لحظة من الزمن »

(١) ذكر كادلفين وبارو هذه الحادثة في كتابهما (حرب محمد علي ضد الباب

العالى) ص ١٨٩ ونقاها عنهما كلوت بك

(٢) ذكر كادلفين وبارو هذه الحادثة ص ٣١٣

ثم ذكر كلوت بك حادثة أخرى قال عنها انها من أهم الحوادث وأخصها بالذكر، وهي أن سليمان باشا الفرنساوى كان ذات يوم يعرض اورطة وصلت اليه حديثا، فوقع نظره على قتي ضا ونحيل في السادسة عشرة من عمره يدعى الحاج على، فهم سليمان باشا ان يردّه معترضا بانه لا يصلح أن يكون جنديا كفتا، فأبى (الحاج على) إلا أن يبقى في السلاح قائلا لسليمان باشا ان الحكم عليه انما يكون في عمله ومتى سنحت الفرصة تبين الحكم، فلما ضرب الجيش المصرى الحصار على (عكا) خرجت الحامية يوما فاستظهرت على المشاة المصريين وردت جنود الاورطة الثامنة المقاتلة في الجبهة على أعقابها، فتقدمت الاورطة الثالثة من الفرسان التي كان (الحاج على) منتظما في سلكها لتعزيز جانب اولئك الجنود، وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصورين والجأتهم الى مواقعهم، ولم يكتف الحاج على أن شاطر رفاقه بمجد فوزهم بل انقذ يده يوزباشيا كان على وشك الوقوع في أسر العدو، ثم انقض على ضابط تركى فأسره، وجاء بالضابطين المصرى والتركى الى سليمان باشا وقال له « اقترى اننى جندى لا اصلح لشيء؟ »

قال كلوت بك : وكان الاتراك لما يشعرون به من الغطرسة والكبرياء ينظرون بعين الزراية الى المصريين ولا يكثرئون بهم ويعتقدون فيهم العجز عن مجاراتهم، ولكن حرب (المورة) اثبتت لهم ببرهان القاطع ان ذلك الشعب الحي المنكمش الذى ارهقه الضغط والعسف قدير على استرداد مجده القديم وأهل المنازعتهم نحر النجاح والفوز في القتال، ولقد اثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و (بيلان) و (قونية) ^(١) تفوقهم عليهم باعتبار كونهم افرادا، كما اثبتت كفايتهم باعتبارهم مجموعا اذا وجدوا القيادة الصالحة

(١) وانصيبين

ولكن كلوت بك لاحظ ان المصريين لم يكن لهم نصيب في القيادة ، ومع
اذه أطراهم بوصف كونهم جنودا فإنه يقول انهم لم يضطلعوا بالمهام التي اقتضتها
مراكز القيادة في الجيش ، وبرر عمل محمد علي في اقصائهم عن المراتب السامية
في الجندية واسنادها الى الاتراك والماليك ، بقوله

« انهم في المراتب العالية لا يقدرّون كرامة مراكزهم الجديدة ووجهاتها ،
فهم يغيرون العثمانيين والماليك في الاهلية للقبض على زمام القيادة ، وسرعان
ما يتحولون الى عاداتهم القديمة بما اضطر محمد علي باشا وابنه ابراهيم علي الرغم منها
الى الكف عن ترقيةهم وترقيتهم الى المراتب السامية في الجندية ، ومن هذا
النقص ، أسندت الى الماليك والاتراك في الجيش المناصب العليا »

هذا ما قاله كلوت بك ، ولم يذكر لنا تفصيل التجربة التي جربها محمد علي باشا
في اسناد المراتب العالية في الجيش للمصريين والتي ظهر فيها عدم اهليتهم ، وأغلب
الظن انه لم يجربها اصلا حتى يقام لهذا الرأي وزن ، ولو أنه عود المصريين تقلد
المناصب الرئيسية في الجيش لاضطلعوا بها ولظهرت فيها كفايتهم ومقدرتهم مع
الزمن والممارسة ، هذا فضلا عن ان رأى كلوت بك في هذه المسألة ليس له كبير
اعتبار لان الماليك والاتراك قد اندمجوا في الكتلة الوطنية كما سيحيى بيانه

رأى المارشال مارمون

على ان المارشال مارمون يمدى في رحلته رأيا يتعارض ورأى الدكتور
كلوت بك في هذا الصدد ، فقد ذكر ان مناصب ضباط الجيش كانت في مدى
سنوات عدة تسند الى الترك والماليك لان محمد علي لم يشأ بادئ الامر ان يستسلم
للاهلين ويجعل نفسه تحت رحمتهم ، ولكن لما رخت سلطته واطمان الى اخلاص
الجيش بدأ يسند مناصب الضباط الى العرب فبرهنوا على ذكاء وافر ونشاط كبير ،
والذين ارتقوا من بينهم الى سلك الضباط صاروا أحسن وكفاً من الترك ، والآن

— سنة ١٨٣٤ — لم يعد يعترض تقدمهم في المناصب العسكرية أى مانع وانفتح أمامهم سبيل المراتب العالية (١)

وقد شهد المارشال سنة ١٨٣٤ فيالق الجيش المصرى على اختلاف وحداتها واطنّب في صفاتها الحربية وأعجب بكفاءتها وحسن نظامها ، فقال عن المشاة (٢)

« كان لواء المشاة المؤلف من الألاى التاسع والألاى العشرين في طريقه الى السويس للابحار منها الى الحجاز لمنجدة الجيش المصرى فيه ، وعرضت بنفسى هذا اللواء ، فقام أمامى بمناورات دامت ثلاث ساعات في سهل (القبة) ، فاعجبت به أيما اعجاب ، وإذا كان عساكره في مقتبل السن وحديثى عهد بالانتظام في صفوفه فقد لاحظت مبلغ تأثير القائد الاعلى للجيش في تشكيله ونظامه ، والحق ان العساكر الذين عرضتهم يجمعون الى الدقة والنظام الدراية بالفنون العسكرية ، وقد رأيت في قائد اللواء وضباطه دلائل العلم والكفاءة ، وشهدت أيضا الألاى السادس من الفرسان ولم يكن مضى على جنود في الخدمة اكثر من عشرة اشهر ومع ذلك رأيتهم فيما عدا بعض ملاحظات طفيفة يستحقون كل الثناء » (٣)

وقال عن جنود المدفعية الذين يتمرنون في مدرسة المدفعية بطره : « قامت أورطة المدفعية الراكدة أمامى بمناورات تدل على المهارة والنشاط والنظام والدقة وكانت مؤلفة من ستة بلوكات رجالها على مايرام من الجمال والتعليم ونظام الحركات العسكرية ، كما أن مركبات المدافع متقنة منتظمة رغم كون الجياد التى تجرها صغيرة الجسم شأن خيل القطار المصرى ، ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسنا »

(١) رحلة المارشال مار.ون ج ٣ ص ٢٩٣

(٢) » » » ج ٣ ص ٢٩٤

(٣) » » » ج ٣ ص ٢٩٥

الكفاءة في الرماية ، يصيبون الهدف بدقة وسرعة ، فالمدفعية المصرية جماعة لشروط الكفاية ، تضارع مدفعيات الجيوش الأوروبية ، وأميرالايها رجل كفء ممتلئ نشاطا وغيرة

أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ١٨ بلوكا ، وقد قامت بمناوراتها فكانت مدافعها تصيب الهدف بأحكام ، أما مدافع الهاون فهي أقل ضبطا واحكاما ، ولا يسع المشاهد لهذه المدفعية الا الاعجاب بالقوة التي حولت الفلاحين الى جنود على جانب عظيم من الكفاءة » (١)

رأى المسيو مريو

وقد احتفظ الجيش المصرى بسمعة بعد انتضاء عصر محمد على و بعد أن تناقص عدده ، فبدأ حسن المسيو مريو (٢) الذى جاء مصر فى عهد سعيد باشا الشهادة فى حقه بقوله

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى واتباعه ، وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الاعداء كل هذه الميزات قد قامت عليها البيئات لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسورية فى عصر محمد على لحسب ، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلسيريا فى حرب القرم الاخيرة »

القلاع والاستحكامات

عنى محمد على عناية كبيرة باقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن ثغور البلاد وعاصمتها ، فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وشحنها بالمدافع ، وبنى على مقربة منها قلعة أخرى على ذروة المقطم تعرف بقلعة (محمد على) وتشرف على الأولى ،

(١) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٥

(٢) فى كتابه « مصر الحديثة من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٥٧ »

واصلح قلاع الاسكندرية وانشأ غيرها ، واستدعى من فرنسا لهذا الغرض مهندسا حربيا فى فن الاستحكامات يسمى المسيو جليس Galice وانعم عليه برتبة البكوية فصار يعرف بجليس بك ، وعهد اليه اختبار سواحل مصر ووضع مشروع لخصونها واستحكاماتها وجعله باشمهندس الاستحكامات

ولكى تعرف مبلغ عناية محمد على بالدفاع عن مصر نورد هنا احصاء ذكره اسماعيل باشا سر هنك (١) عن كشف قديم من أوراق حسن باشا الاسكندراني مدير ترسانة الاسكندرية ، يتضمن عدد قلاع الاسكندرية وابوقير والبرلس ورشيد ودمياط وعدد ما بها من المدافع سنة ١٨٤٨ اى السنة التى تولى فيها ابراهيم باشا حكم مصر

حصون الاسكندرية

اسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
طابية قايتباى (او قلعة برج الظفر)	١١٠	٦	١
» الأطة	٥٧	٧	٢
» الفنار	٥٧	٦	٢
» » الصغيرة	١		١
» التراب (وتسمى الهلالية) (٢)	٦١	١٢	٣
» الاسبتالية الجديدة	١٣	١٠	١
» » القديمة	٢٥		١
» ظهر منزل الفرنسيس	٦	٦	١
» المفحمة	٨		١

(١) فى كتابه حقائق الاخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٥٩

(٢) محلها الآن (سنة ١٩٣٠) حلقة السمك بالانفوشي

تابع حصون الاسكندرية

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	خبزخانه
طابية مسلة فرعون (١)	٩		١
» قبور اليهود القديمة	١٠		١
» » » الجديدة	٢٠		١
» برج السلسلة	١١	١	١
» باب شرقى (٢)	٦		
» كوم الناضورة	١٠	١	١
» الدخيلة	٣		١
» السلمية (٣)	٢٠	٢	١
» المكس	٤٠	٩	١
» القمرية (٤)	٩	١	١
» أم قبيبة (كبيبة) (٥)	٥٦	٤	٢
» الملاحه القديمة	١٤	١	١
» » الجديدة	٣٤	١	١
» صالح اغا (٦)	١٣		٢
» باب سدره	٨		١

(١) مكانها الآن المستشفى الاميرى

(٢) موجود بعض آثارها الى اليوم فى شارع باب رشيد

(٣) بين المكس والدخيلة

(٤) و(٥) بالقبارى

(٦) المعروفة الآن بطابية صالح بالقبارى

تابع حصون الاسكندرية

اسماء الحصون	مدافع	اهوان	جبخانة
طابية كوم الدماس (١)	٩	٢	١

حصون ابوقير

قلعة ابوقير	٤٨	٣	٢
طابية كوم الشوشة	٤٧	٣	١
» كوم المعجوز	٢٤	٢	١
» السد نمرة (١)	١٠		١
» السد نمرة (٢)	١٠		١
» » » (٣)	١٠		١
» » » (٤)	١٠		١

حصون رشيد

اسماء الحصون	مدافع	جبخانة
طابية التني	٦	١
» العباسي	٦	١
» الطواجنية	٥	١
» المنزلاوى	٣	
» محل الشركة	١	
» برج رشيد	١٤	١
» قلعة البوغاز	١٨	١
الطابية الشرقية	١٠	١

(١) بجوار مسجد النبي دانيال ، ويضاف الى حصون الاسكندرية طابية العجمي

بجزيرة العجمي فقد كانت موجودة في عهد محمد علي

١	١٠	» الغربية
	البرلس	
١	٦	قلعة البرلس
	حصون دمياط	
جبخانة	مدافع	اسماء الحصون
١	٢٠	القلعة القديمة
١	١٠	الطابية الشرقية
١	١٠	» الغربية

احصاء الجيش المصرى

فى عهد محمد على

كان الجيش المصرى مؤلفا فى اوائل حكم محمد على من نحو ٢٠٠٠٠ من المقاتلة ، جميعهم من الجنود غير النظاميين (باشبوزق) ، فلما ادخل النظام الحديث فى الجيش واتبع طريقة التجنيد على مامر بك بيانه تألف الجيش النظامى وصار يضارع فى قوته وعدده وكفايته احدث الجيوش الاوروبية

احصاء سنة ١٨٣٣

جاء البارون بو الكونت Boislecomte الى مصر منتدبا من الحكومة الفرنسية فى مهمة سياسية لدى محمد على باشا ، وله عن مهمته رسائل مطولة طبعت أخيرا فى كتاب مستقل (١) ، وقد استقصى احوال مصر فى ذلك العصر ، فذكر عن الجيش أنه تلقى بيانا من محمد على نفسه عن عدده فى تلك السنة (١٨٣٣) ،

(١) مهمة البارون بو الكونت ، من مطبوعات الجمعية الجغرافية

ومن هذا البيان الرسمي يتضح أنه يتألف من ١٩٤٠٣٢ من المقاتلة بما فيهم ١٤٣٠٥٠ من البحارة وعمال الترسانات البحرية

فيكون مجموع جنود البر ١٦٨٠٨٨٩ جندي وزعين بحسب الاحصاء الآتي :

٢٢	الايام من المشاة وعددهم	٧٠٣٢٧	جندى
٣	الايام من الطوبجية	٦٣٥٧	»
١٣	الايام من الفرسان النظاميين	٧٩٦٢	»
	بفرقة الهندسة	٣٩٤٢	»
	الفرسان غير النظاميين	٣٤٣٥	»
	البدو	٥٣٧٠	»
	طلبة المدارس الحربية	٣٤٨٨	»
	الزديف ورجال الشرطة	٦٧٩٩٨	»
	مجموع جنود البر سنة ١٨٣٣	١٦٨٠٨٨٩ (١)	

احصاء سنة ١٨٣٩

وقد بلغ الجيش المصرى اوجه من جهة العدد سنة ١٨٣٩ وقد اعتمدنا في احصاء هذه السنة على مااورده الدكتور كلوت بك في كتابه (لحة عامة الى مصر) ، وهو وان اختلف عن احصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٣٧ (٢) وزاد عنه الا اننا نعتقد أن كلوت بك لمكانته في الحكومة قد توفرنه من وسائل التحقيق والتحصيل اكثر مما توافر للمسيو مانجان

ونتيجة احصاء الدكتور كلوت بك (٣) أن الجيش المصرى يتألف من الجنود الآتية

(١) مهمة البارون (بو الكونت) ص ١١٣، وهذا الاحصاء يختلف قليلا عن احصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٣٣ في كتابه ج ٣ ص ١٣٦، على انه قريب منه
(٢) بحسب احصاء مانجان (ج ٣ ص ١٤٠) عن سنة ١٨٣٧ يكون العدد ١٥٩٣٠٠ مقاتل (٣) ج ٢ ص ٣٥١

- ١ — جنود نظامية من مشاة وفرسان ومدفعية ١٣٠٢ ر ١٣٠٢ جندي
 - ٢ — جنود غير نظامية او باشبورق ٤١٦٧٨ ر ٤١٦٧٨ »
 - ٣ — الرديف ٤٧٨٠٠ ر ٤٧٨٠٠ »
 - ٤ — عمال (الغابريقات) المدربين على القتال ١٥٠٠٠ ر ١٥٠٠٠ »
 - ٥ — طلبة المدارس الحربية المستعدون منهم للقتال ١٢٠٠ ر ١٢٠٠ »
- ١٨٣٩ ر ٢٣٥٨٨٠ مجموع جنود البر سنة ١٨٣٩

تفصيل للاحصاء المتقدم

١ — الجنود النظامية

وهاك عدد الجنود النظامية مع بيان الجهات التي يقيمون فيها

عدد الجنود	محل الإقامة	بيان الجيوش
١٣٧٢	حماه	الاولى من طوبجية الحرس
٢٣٤٩	الاسكندرية	» الثاني » المشاة
١٩٤٩	حلب	» الثالث »
٠٩٨٢	حمص	» الاولى » الفرسان
١٠٠٧	دمشق	» الثاني »
٣٣٧	عكا	اربع فصائل من طوبجية متفرقة
٣٧٩	الحجاز	الاورطة الاولى من المدفعية
٣٠٤٨	عينتاب	الاولى من مشاة الحرس
٢٦٤٥	مرعش	» الثاني »
٢٤٣٥	حلب	» الثالث »
٤٥٤٧	السودان	» الاولى من المشاة (الاورطة الخامسة)

محل الإقامة عدد الجنود

٢٢٥١	عينتاب
١٥٢٦	اليمين
٢٥٩٣	مرعش
٢٦٢٩	ادنه، الاناضول
٢٣٦٢	كليس
٢١٩٢	الحجاز
٣٣٩٦	السودان
٢٣٠٤	حلب
٢٠٥٤	»
٢٣٣٨	أورفا
٢٣٢٦	عينتاب
١٢٢٥	الحجاز
١٩٨٨	حلب
٢٥٥٥	الدرعية (نجدة)
٣١٤٩	قنديا (كريت)
٢٣٦٩	أورفا
٢٠٤٩	عكا
٢٣٤٩	الحجاز
٢٦٧٧	اليمين
٢٣٦٣	الحجاز
٢٢١٢	أورفا
٢٣٤٢	ينبع

بيان الجيوش

من المشاة

»	الثالث
»	الرابع
»	الخامس
»	السادس
»	السابع
»	الثامن
»	التاسع
»	العاشر
»	الحادي عشر
»	الثاني
»	الثالث
»	الرابع
»	الخامس
»	السادس
»	السابع
»	الثامن
»	التاسع
»	العشرون
»	الحادي و
»	الثاني و
»	الثالث و

عدد الجنود	محل الإقامة	بيان الجيوش
٣١٣١	انطاكية	الألأى الرابع والعشرون من المشاة
١٧٥٥	بيت المقدس	» الخامس والعشرون
٣٣١٨	القاهرة	» السادس والعشرون
٢١٢٩	الحديدة (اليمين)	» السابع والعشرون
٢٤٤٦	» »	» الثامن والعشرون
٣١٧٢	اذنه	» التاسع والعشرون
٢٩٢٥	حماه	» الثلاثون
٢٤٠١	حلب	» الحادى والثلاثون
٣٣١٨	القاهرة	» الثانى والثلاثون
٢٦٠٤	الاسكندرية	» الثالث والثلاثون
٢٥٦٤	كليس	» الرابع والثلاثون
٣٣١٨	القاهرة	» الخامس والثلاثون
٧٩٦	اللاذقية	» الاول من فرسان الحرس
٨٤٤	بيسان	» الثانى من الحرس المدرعين
٨٢٥	أورفا	» الاول من الفرسان
٨٣٠	زانبه	» الثانى » »
٨٤٧	الاسكندرية	» الثالث من الفرسان فى الطريق الى
٦٧٨	اذنه	» الرابع من الفرسان
٨٣٢	الاسكندرية	» الخامس من الفرسان فى الطريق الى
٧٧٠	دمشق	» السادس من الفرسان
٧٤٢	طرسوس	» السابع » »
٧١٢	دمشق	» الثامن » »
٨١٦	الاسكندرية	» التاسع من الفرسان فى الطريق الى

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
الاولاى العاشر من الفرسان	عكا	٧٦٨
» الحادى عشر »	كليس	٧٥٦
» الثانى عشر »	طرسوس	٦٦٢
» الثالث عشر »	اورفا	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
ألالاى الاول من البلطجية	عكا	٨١٢
الاورطة الاولى من المتقاعدين	الاسكندرية	٧٩١
أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
اورطة من المتقاعدين	دقلة	٨٥٥
» من فرقة المهندسين	ادليب	٧٥٨
» من البلطجية	اسكندرية	٨٠٨
فصيلة من اللغامين	القاهرة	٩٤
الاساس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكان من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	١٦٧١
رجال الالعب النارية والسوارىخ	مصر العتيقة	١٨٥
الايمن حملة القرايينات حرس القائد العام ابراهيم باشا		١١٥٢
فصيلة من حملة القرايينات	الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين	»	٢٠٠

مجموع الجنود النظامية ١٣٠٢٠٢ (١)

(١) صححنا بهذا الرقم عمالية الحساب الواردة فى كAUT بـك ج ٢ ص ٢٣٢
(الاصل الفرنسى) كما صححنا عملية الحساب الواردة فى كتاب البارون (بوا لسكونت)

٢ - الجنود غير النظامية

عساكر	ضباط	في الحجاز
١٥٨٠	٤	فرسان اترك
٣٩٥	١	مشاة اترك
٩٤٥	٩	فرسان مصريون
٣٣٩	٥	مشاة مصريون
٧٨٧	—	مدفعية
<u>٤٠٤٦</u>	<u>١٩</u>	المجموع

		في القطر المصري
٢٧٨٥	١٠	فرسان اترك
٢٧٧٥	٧	مشاة اترك
١٦٦٠	٧	فرسان مصريون
١٣٩٩	—	مدفعية
<u>٨٥١٩</u>	<u>٢٤</u>	المجموع

		في اليمن
١٩٧٠	٥	فرسان اترك
٧٦٠	٩	مشاة اترك
٢٠٠	—	مدفعية
<u>٢٩٣٠</u>	<u>١٤</u>	المجموع

في قنديا (جزيرة كريت)

عساكر	ضباط	
٤٥٠	٢	فرسان اترك
٢٤٠٥	٦	مشاة اترك
٢٨٠	—	مدفعية
<u>٣١٣٥</u>	<u>٨</u>	المجموع

في المدينة المنورة

٣٠٢٠	٣	فرسان اترك
٢٧٥٠	١٠	مشاة اترك
٢٢٥	—	مدفعية
١٢٢٥	١٦	مصريون
<u>٨٠٢٠</u>	<u>٢٩</u>	المجموع

في السودان

١١٧٠	١٧	فرسان اترك
١٢٨٠	٤	فرسان مصريون
٩٥٠	١٠	مشاة مصريون
٠١٨٦	—	مدفعية
<u>٣٥٨٦</u>	<u>٣١</u>	المجموع

في سورية

٤١٢٥	١٤	فرسان اترك
١٩٣٠	٥	مشاة اترك
٤٩٨٠	٦٣	فرسان مصريون
<u>١١٠٣٥</u>	<u>٨٢</u>	المجموع

فيكون مجموع الجنود غير النظامية كما يأتي

ضباط	٢٠٧
عساكر	٤١٤٧١
	<hr/> ٤١٦٧٨

وكانت قبائل العربان في القطر المصري كقبائل اولاد علي والجميعات والجوادي والهنادي وولد سليمان والزوفة وجهينة والهواره والعبابدة والمعازة وغيرهم كاللدد المدخر في الرجال والخيول والجمال وأسباب القتال ، وكل ذلك تقدمه لاول اشارة من الحكومة

٣- الرديف

الاسكندرية	ألايان	٦٨٠٠ جندي
البرلس ورشيد	الاي واحد	» ٣٤٠٠
دمياط	»	» ٣٤٠٠
القاهرة	ثمانية أليات	» ٢٧٤٠٠
مصر القديمة	الاي واحد	» ٣٤٠٠
بولاق	»	» ٣٤٠٠
		<hr/> » ٤٧٨٠٠

خلاصة الاحصاء المتقدم

جنود نظامية	١٣٠٢٠٢
جنود غير نظامية	٤١٦٧٨
رديف	٤٧٨٠٠
عمال الفابريقات	١٥٠٠٠
طلبة المدارس الحربية	١٢٠٠
	<hr/> ٢٣٥٨٨٠
مجموع جنود الجيش البري سنة ١٨٣٩	

الفصل الحادى عشر

الاسطول

النواة الاولى للاسطول سنة ١٨١٠

بدأت عناية محمد على باحياء البحرية المصرية منذ شرع فى خوض غمار الحرب الوهابية ، فقد رأى ان انفاذ الجنود الى الحجاز يقتضى اعداد السفن لنقلهم عن طريق البحر الاحمر ، فبادر الى انشاء ما استطاع من السفن فى دارصناعة (ترسانة) بولاق بعد أن عمر هذه الترسانة ، فأمر بتجهيز القطع اللازمة من الخشب فيها ثم بنقلها على ظهور الابل الى السويس لتركب هناك وتنزل الى البحر ، فكانت هذه السفن هى النواة الأولى للاسطول المصرى فى عهد محمد على فبالبحرية المصرية ابتداء ظهورها وتكوينها فى تاريخ مصر الحديث أوائل سنة ١٨١٠ ، ولقد كان لهذه العمارة فضل كبير فى نجاح الحملة الوهابية لانها كانت صلة الاتصال بين مصر وجنود الحملة فى الحجاز ، وهى التى مكنت مصر من السيطرة على البحر الاحمر وثورته

ويقول المسيو (مانجان) أن محمد على عند ما اعتزم انشاء بحرية فى خليج السويس جلب الى بولاق الاخشاب اللازمة لصنع السفن من ثغور الاناضول^(١) ، وكذلك المهمات والأمراس (الجبال) واستحضر العمال قاعد الاخشاب وهيا المواد اللازمة لتركيب السفن ونقل كل ذلك الى السويس على ظهور الابل ، وكان هذا العمل شاقا وطويلا المدى ، وقد استخدم فى ذلك عشرة آلاف من الابل ، ومات كثير منها فى الطريق من ثقل ما حملت وطول ما أرهقت ، فكان

(١) ومن القطر المصرى ايضا

للايهلك بعير الا جاء بغيره ، وبذلك تيسر له انشاء ثمانى عشرة سفينة كبيرة كاملة
العدة وانزالها الى الماء فى مدة عشرة أشهر

رواية الجبرتي

وهاك ماقاله الجبرتي فى هذا الصدد: « واستهل شهر ذى الحجة بيوم الاحد
سنة ١٢٢٤ (٧ يناير سنة ١٨١٠) وفيه شرع الباشا فى انشاء مراكب لبحر القلزم
(البحر الاحمر) ، فطلب الاخشاب الصالحة لذلك ، وأرسل المعينين لقطع اشجار
التوت والنبق من القطر المصرى القبلى والبحرى وغيرها من الاخشاب المجلوبة
من الروم (الاناضول) ، وجعل بساحل بولاق ترسخانه وورشات ، وجمعوا
الصناع والنجارين والذشارين فيهيئونها وتحمل اخشابا على الجمال ويركبها
الصناع بالسويس سفينة ثم يقلفونها ويبيضونها ويلقونها فى البحر ، فعملوا
اربع سفائن كبارا احداها يسمى الابريق^(١) وخلاف ذلك (داوات) لحل
السفائر والبضائع »

ترسانة بولاق وإنشاء السفن

انشئت اذن العمارة البحرية الاولى فى ترسانة بولاق ، وهى الترسانة التى
اعتمد عليها محمد على فى صنع السفن الكبيرة الى ان اسس ترسانة الاسكندرية
الحديثة التى سيرد الكلام عنها

فترسانة بولاق كان لها فضل كبير على البحرية المصرية ، وفيها انشئت السفن
التي استخدمتها مصر فى الحملة الوهابية ، وانشئت بها ايضا السفن التجارية التى
استخدمتها الحكومة لنقل المتاجر والمهمات على النيل وعلى شواطئ البحر الابيض

(١) سميت كذلك لانها شبه الابريق ويسمى الافرنج بريك وهى سفينة بساريتين

وقد ذكر الجبرتي هذه الترسانة غير مرة في تاريخه مما يدل على عظم شأنها وذكر ما بنى فيها من السفن

فقال في حوادث سنة ١٢٢٧ (١) «ومنها ان الباشا عمل ترسخانه عظيمة بساحل بولاق، واتخذ عدة مراكب بالاسكندرية لجلب الاخشاب المتنوعة وكذلك الخطب الرومي من اماكنها على ذمته ويبيعه على الخطابين بما حدده عليهم من الثمن، ويحمل في المراكب المختصة به باجرة محددة ايضا، واستمر ينشئ المراكب الكبار والصغار التي تسرح في النيل من قبلى الى بحرى ومن بحرى الى قبلى ولا يبطل الانشاء والاعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته ومرميتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها باجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان في السابق، ولهم قومة ومباشرون متقيدون بذلك الليل والنهار»

وذكر ايضا من حوادث تلك السنة «ان الباشا أرسل لقطع الاشجار المحتاج اليها في عمل المراكب مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية والبحرية، فانبت المعينون لذلك في البلاد فلم يبقوا من ذلك الا القليل لمصانعة اصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون، فيجتمع بترسخانه الاخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم اليها من الاخشاب الرومية شئ عظيم جدا يتعجب منه الناظر من كثرتة، وكلما نقص منه شئ في العمل اجتمع خلافه اكثر منه»

وقال في حوادث سنة ١٢٣١ (سنة ١٨١٦) «والعمل والانشاء بالترسخانه مستمر على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالاجرة، وعمارته خلها واحبالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسانة، ولذلك مباشرون وكتاب وامناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد، وهذه الترسانة بساحل بولاق بها الاخشاب الكثيرة

(١) هذه السنة توافق سنة ١٨١٢ ميلادية، وقوله سنة ١٢٢٧ فيه نظر، لان العمل في الترسانة بدأ سنة ١٨١٠ (١٢٢٤هـ) عند ابتداء الحرب الوهابية كما ذكره الجبرتي نفسه في حوادث ذى الحجة سنة ١٢٢٤، فلزم التصحيح

والمتنوعة وما يصلح للعائر والمراكب ، ويأتى اليها المجلوب من البلاد الرومية (التركية) والشامية ، فاذا ورد شئ من انواع الاخشاب سمحوا للخشابة بشئ يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقي الى الترسانة »

الدونمة المصرية

فى البحر الابيض المتوسط

منذ بنى محمد على العمارة المصرية الأولى فى البحر الاحمر وثبت له مزايا الاساطيل البحرية اعتزم انشاء اسطول قوى يمحى عباب البحر الابيض المتوسط وأخذ يتحين الفرص لانفاذ هذا المشروع

وقد رأى انه وان كانت مصر مستعدة لبناء السفن عامة إلا أنها لم تكن على تمام الالهبة لصنع السفن الحربية ، وكان يرى بثاقب نظره أن قوة مصر الحربية لا تكون كافية للدفاع عن استقلال مصر وبسط نفوذها فى الخارج إلا اذا عاونها على ظهر البحار اسطول حربى قوى ، لذلك جاء تنظيم البحرية المصرية عقب تشكيل الجيش المصرى النظامى بزمان يسير

أخذ محمد على ينشئ الدونمة المصرية بشرائه بعض السفن الحربية أو توصيته بانشاءها فى الثغور الاوروبية ، كمرسيليا وليفون وتريستا ، وقد سلحها بالمدافع وعهد بقيادتها الى قباطين السفن النجارية من الاسكندريين والأتراك ، وجعل ملاحها ونوتيتها من المتطوعين ، وجعل بها بعض الضباط من فرنسيين وايطاليين لتعليم البحارة وتدريبهم

وكان بالاسكندرية ترسانة قديمة تبنى فيها بعض السفن على الطراز القديم ، وقد عهد براسة الهندسة فيها الى رجل يدعى شاكر افندى الاسكندرى يعاونه فى ذلك مهندس بارع من أهالى الاسكندرية اسمه (الحاج عمر) ، وهو من مشاهير المعلمين فى فن بناء السفن ، فجعله محمد على رئيسا للانشاء وعماراة السفن ، وجعل على مناظرة

بناء السفن موظفا يدعى الحاج احمد اغا، وحضر في ذلك الحين - سنة ١٨٢١ -
قبطان فرنسى يسمى المشيو بيسون Besson كان من ضباط السفن الحربية الفرنسية،
فعرض على الحكومة المصرية خدماته فجعلته ملاحظا للسفن التى أمرت بصنعها في
ترسانات أوروبا، وقد نال ثقة محمد على وأخذ يرتقى الى أن نال رتبة البكوية فصار
يعرف بالفيس اميرال بيسون بك

فتكونت الدونمة المصرية الأولى في البحر الابيض، وانشأ محمد على ادارة
خاصة للاسطيل المصرية جعل على رأسها صهره محرم بك مع بقائه محافظ الاسكندرية
وقد اشتركت تلك الدونمة في حرب (الموره) وعاونت الجيش المصرى على
محاربة اليونانيين كما بيناه في الفصل السابع

تجديد الاسطول بعد وقعة نافارين

سنة ١٨٢٩

ولكن هذه الدونمة قضى عليها بالدمار في واقعة نافارين البحرية (١) وقد
حزن محمد على حزنا شديدا على ضياعها غدرا في تلك الواقعة، لكنه لم يدع
للأس سبيلا الى قلبه، بل عزم على انشاء اسطول جديد يعوض مصر اسطولها
القديم، وشرع في تكوينه من السفن الحربية التى كان أمر بصنعها في الثغور الاوروية

انشاء دار الصناعة الكبرى بالاسكندرية

ثم اعتزم ان ينشئ اسطولا جديدا بأيدي مصرية، لكيلا تكون مصر عالة
على البلاد الاوروية في انشاء تلك السفن، فوجه همهته الى تأسيس دار صناعة
(ترسانة) اكبرى بالاسكندرية لبناء السفن الحربية، وقد استعان لتحقيق هذا
المشروع بمهندس فرنسى على جانب عظيم من المهارة والصدق يدعى المشيو
سريزى Cerisy، وهو مهندس بحرى فرنسى من ثغرون اشتهر بالكفاية والخبرة

(١) ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ انظر تفصيل ذلك بالفصل السابع ص ٢١٧ وما بعدها

في فنون البحرية وخاصة في فن بناء السفن والاحواض والترسانات ، وقد كان عهد اليه من قبل بالانشاء سفينتين حربييتين في مرسيليا ، فعرض عليه أن يحضر الى مصر ليستعين به في احياء البحرية المصرية

سريزي بك

قدم الميسودي سريزي بك الى مصر في ابريل سنة ١٨٢٩ ، وكانت اذ ذاك بالاسكندرية سفن قليلة العدد وهي البقية الباقية من العماره المصرية التي نجت من واقعة نافارين ، ذكر منها كلوت بك سفينة من نوع الفرقاطة بها ستون مدفعا انشئت بشعر البندقية ، واخرى انشئت في ثغر ليفورن ، وجملة سفن من طراز الكورفيت والابريق ، وكانت هذه السفن مفتقرة الى مهمات القتال ومعداته لانها مفسأة في ثغور تجارية لاحربية فجهزها الميسو سريزي بمجهازها وانشأ فيها مخازن للبارود لجعلها صالحة للقتال

فطلب محمد علي الى الميسو سريزي ان يضع له تصميما لاقامة ترسانة كبرى ولم يكن بالاسكندرية وقتئذ سوى الترسانة القديمة وكانت تصلح أن تكون نواة لها ، وهي مظلات من الخشب في مكان قريب من البحر ، وقد بنيت في تلك الترسانة سفينة من طراز (الكورفيت) ، وأخرى من طراز الابريق ، وثالثة ذات حجم كبير حولت فيما بعد الى فرقاطة

الحاج عمر

قلنا ان محمد علي عهد برآسة هندسة السفن وبنائها في الترسانة القديمة الى الحاج عمر ، وهو من أهالي الاسكندرية ، وقد تردد اسمه كثيرا في المراجع الاfrنجية والعربية وفي جريدة الوقائع المصرية ، إذ كان مهندسا بارعا في فن بناء السفن ، فلما انشئت الترسانة الجديدة كان نعم المساعد للميسودي سريزي في انشاء السفن الحربية الجديدة

وقد ذكره الدكتور كلوت بك في كتابه (١) فقال عنه : كان يرأس اشغال بناء الاساطيل وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر ، وهو رجل يجمع بين الشهامة والكفاءة فى بناء السفن ، فاعجب الميسو سرىزى به وبكفاءته وجعله عضده الايمن فى تحقيق برنامجه ، وكان يصحبه رجل تركى الجنس (وهو شاكر افندى المتقدم ذكره) يقول عنه كلوت بك انه يزعم العلم بالهندسة ولكنه خلو منها ، فاستغنى عنه الميسو سرىزى وفصله من وظيفته وبقي الحاج عمر يعاون سرىزى بك فى عمله خير معاونة

وقال على باشا مبارك (٢) « وقبل حضور المهندس سرىزى بك المذكور كان الرئيس على انشاء وعمارة السفن بتلك الميناء رجلا من الاهلين يسمى الحاج عمر ، وكان صاحب ادارة ومعرفة طبيعية ، واقدم على هذه الاعمال مع الاصابة ، فلما حضر الميسو سرىزى بك اتحد معه وساعده فى جميع اعماله »
وكان للحاج عمر المذكور شخصية محبوبة بين معاصريه ، فقد تضمنت (الوقائع المصرية) ثناءً عليه (٣) لمناسبة بنائه إحدى السفن الحربية وقالت عنه ما يلى :

« الحاج عمر يوزباشى من اهالى الاسكندرية رئيس المعمارين فى ترسانة الاسكندرية ، لم يكن له نصيب من علم الهندسة ، ومع ذلك زاول اعمال سفن التجارة مدة ، وصار كأنه مهندس رياضى بكثرة المزاولة فى الاعمال وبسبب قوة ذكائه وفطنته ، والآن تم انشاء سفينة الفرقلون الذى شرع فى انشاءه بمعرفة المرقوم ، وطولها من قربينتها ١٣٢ قدما ، ومن كوريتها ١٤٧ قدما وعرضها ٣٧

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٥٤ (٢٣٧ من الاصل الفرنسى)

(٢) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٢

(٣) بالعدد ١١٢ الصادر فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٤٥ (فبراير سنة ١٨٣٠)

قدما ، وعمقها ٣١ قدما ، وبطاريتها الاولى تسع ٢٨ مدفعا ، وكذلك بطاريتها الثانية ، ودوارتها تسع مدفعين ، فنزلت في يوم الاثنين الموافق ١٥ شعبان المعظم ، ولما رآها موسيو سرىزى الذى جاء من فرنسا وهو مهندس ماهر فى انشاء السفن المنصورة تعجب من حال المعمار المرقوم حيث انشأ تلك السفن من دون علم بالهندسة واكمل جميع ما يحسن لها »

كيف اسست الترسانة

درس الميسو سرىزى مشروع انشاء ترسانة كبيرة بدل الترسانة القديمة ، وبعد أن تم دراسته وضع تصميمها وقدم الرسوم اللازمة لانفاذ المشروع الى محمد على فى ٩ يونيه سنة ١٨٢٩ ، فأذن النظر فيها ثم وافق عليها ، وشرع من فوره بخرج المشروع الى حيز العمل ، ولم تمض هنيهة على اقراره حتى كان عدة آلاف من الجنود يحفرون الاساس للعباني اللازمة ، واشترى بعض اماكن على شاطئ الميناء بخط (الصيداين) من اصحابها والحققها بمشروع الترسانة ، واستدعى من سائر انحاء القطر الشبان والعمال الذين يعهد اليهم العمل فى اتمام الترسانة والتوفير على الاعمال البحرية ، فكان منهم النجارون والحدادون والقلاطه والسباكون والميكانيكيون ، وتألفت هذه الفرق تدريجاً ، وأخذ الميسو سرىزى هو والحاج عمر فى تدريب الشبان على التعليم البحرى حتى تخرج منهم الاونباشية والجاويشية والضباط ممن امتازوا بالهمة والنشاط والذكاء ، وصاروا تحت ملاحظة الحاج عمر المذكور ، وتم بناء الترسانة سنة ١٨٣١ ، ووجد الميسو سرىزى من ذكاء المصريين وحسن استعدادهم وحذقهم الصناعات من قبل بيئة صالحة لاتمام بناء الترسانة وانشاء السفن الحربية فيها ، وقد جعله محمد على باشمهندس الترسانة ورقاه الى رتبة البكوية فصار يعرف بسرىزى بك ، ثم رقاها الى درجة لواء ، وتولى تدريب العمال على مباشرة الاعمال كل فى

الصناعة التي اختير لمزاوتها ، وبذلك سار العمل في اقامة المباني وتدريب العمال على مختلف الصناعات سيرا مطردا

و كان محمد على لا يألو جهدا في تنشيط العمل وتشجيع العمال فكان كثيرا ما يحضر بنفسه الى دار الصناعة ويستحث الصناع على العمل ويعطيهم المثل في الجد والمثابرة ، وكذلك كان يفعل ابراهيم باشا ، فكان لعملهما تأثير كبير في تقدم العمل حتى تم في يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ انشاء بارجة حربية ذات مائة مدفع نزلت الى البحر تنهادى ، فابتهج محمد على باشا لهذه النتيجة العظيمة ، ورأى أن مشروعه في احياء البحرية المصرية بعد واقعة نافارين قد خطا الخطوة الأولى في النجاح ، واطرد العمل ونما حتى صار لمصر في عدة من السنين اسطول حربي عوضها ما فقدته في (نافارين) وزادت قوتها على ما كانت عليه

اقسام الترسانة

وصارت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية ، كما كانت معبدا لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وترميمها وما يلزمها من الآلات ، فكانوا يوزعون على اقسامها ليتخصص كل جماعة في فرع من فروع هذه الصناعة ، ويكفيك لتبين مبلغ عظمها القاء نظرة على اقسامها والمصانع (الورش) التي تتألف منها فقد ذكر المرحوم اسماعيل باشا سرهنك^(١) انها تتألف من الاقسام الآتية:

- ١ - ورشة الحبال أو التيالة لعمل الخبال ٢ - ورشة الحدادين لصناعة الحديد
- ٣ - ورشة القلوع لعمل أشرعة السفن ٤ - ورشة السوازي لعمل ساريات السفن
- ٥ - ورشة البوصلات والنظارات ٦ - ورشة الدمخانة لصب الآلات وسبك الحديد
- ٧ - ورشة البوية لصنع الدهانات ٨ - ورشة المحرطة لعمل البكرات وغيرها
- و اعمال الذشر والخرط ٩ - ورشة التريزية لعمل الاعلام والرايات

(١) في كتابه حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٤٢

١٠ — ورشة الفلائك لصنع الزوارق ١١ — ورشة النجارين لعمل النجارة اللازمة للسفن ١٢ — ورشة الطلومبات ١٣ — ورشة القلاطية لقلطة السفن ١٤ — ورشة البورغوجية لثقب الاخشاب ١٥ — مخازن الذخائر والمهمات (١) وانشئ بالترسانة خمسة مزلقانات لبناء السفن عليها ، واهتم الميسو سرى بك والحاج عمر بتعميق البحر من ناحية الترسانة الجديدة حتى جعلاه في عمق كاف لرسو اكبر السفن الحربية واتسعت اعمال الترسانة وكثر عمالها حتى بلغ عددهم نحو ٨٠٠٠ عامل من الاهالى حذق منهم ١٦٠٠ صناعة بناء السفن فاستغنت مصر عن ابتياع السفن من الخارج

اخشاب السفن

وإذ كان محمد على راغبا في الاستكثار من انشاء السفن الحربية ففكر في وسيلة فعالة لجلب الاخشاب من الخارج ليكمل بها ما تنتجه اشجار القطر المصري من الخشب الذى يصلح لبناء السفن ، فحصل على اذن من حكومة الاستانة يبيح له قطع الاخشاب اللازمة من غابات الاناضول ، وعهد بذلك الى طائفة من العمال والصناع برئاسة كل من الحاج حسن بك كبير نجارى الترسانة ، والسيد احمد احمد عمالها ،

(١) ذكر الدكتور كلوت بك في كتابه ج ٢ ص ٣٧٠ أقسام الترسانة بما لا يخرج في مجموعها عما ذكره اسماعيل باشا سرهنك غير ان بيان سرهنك باشا جاء اوفى واكثر تفصيلا ، ولا غرو فكتاباه ظهر بعد كتاب كلوت بك بنيف وخمسين سنة ، وفي كتاب كلوت بك انه انشئت برشيد فابريقة لتسج قماش الاشرء ، ومصانع أخرى للحداة كى يستعان بها عند الضرورة لتسكلة أعمال ترسانة الاسكندرية ، وكانت فابريقات القاهرة ومعاملها تشتغل أحيانا لهذا الغرض ، قال وكان الميسو سرى لايميل الى حصر الصنائع في مكان واحد ، فدرب جماعة من المصريين على صناعة حبال السفن وأمراسها ، ثم اعادهم الى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها

وبذلك أخذت الأخشاب ترد الى الاسكندرية لتصنع منها السفن في الترسانة ،

تذليل العقبات

وقد لقي الميسو سرىزى عقبات شتى في المضى في عمله ، ذكرها كلوت بك في كتابه (١) ، من ذلك انه استعان في بدء الأمر بجماعة من الصناع الاوروبيين الفنيين للقيام بالاعمال الفنية التي لم يكن المصريون قد حذقوا فيها بعد ، وكان اقدامه على انشاء الترسانة قد ازعج بعض البيوت التجارية الاوروبية التي كانت تربح الارباح الوفيرة من وساطتها في التوصية في الخارج على بناء السفن الحربية لمصر ، فأخذت تدس الدسائس للميسو سرىزى وتثبط العزائم وتذيع اشاعات السوء عن فشل مشروعه بين العمال الأوروبيين الذين يتولون رئاسة الاقسام الصناعية في الترسانة ويدربون العمال المصريين ، وسعت الى تحريضهم على الشغب والعصيان ، ووقعت في بعض الورش والمعامل بالترسانة بسبب ذلك قتن أفضت الى الارتباك والخلل في العمل حتى لقد حدث عند الشروع في دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة الى البحر ، ان انقطعت حبالها المثبتة لها في مكانها قبل الأجل المعين ، وكان ذلك بفعل فاعل يقصد اتلافها ، وكان العمال الماطليون والليفورنيون يحرضون زملاءهم من عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم في ترسانة الاسكندرية ويحضونهم على التمرد ، وكان الميسو سرىزى قد جاء بهم في السنة التالية لتعيينه ليتولوا رئاسة الاقسام المختلفة ، لكن هذه العقبات لم تدخل اليأس الى قلب الميسو سرىزى ، ولم ينزعج لها ، بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجأش ثبت وإرادة قوية ، أما محمد على باشا وهو صاحب العبقرية العالية في كل شأن فقد اهمل الوشايات التي احيط بها الميسو سرىزى فهد له بذلك سبيل التفرغ لاعماله والاهتمام بانجازها من غير توان ولا امهال ، ومن الصعب ان نتصور مبلغ العقبات التي اضطر ذلك المهندس

(١) ج ٢ ص ٣٦٤ (ص ٢٤١ من الاصل الفرنسى)

الخبير الى مكافئها يتمكن من انجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات ، وكانت ظروف الاحوال قد الجأتها في بادئ الأمر الى استخدام الجهم الغفير من الاوروبيين لتسليح السفن التي كانت تبني بسرعة مذهشة ، فأدت معالجته هذا الأمر الى وقوع قن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته ، وما انفك يهتم ايضا بمنع السرقات وبحسم ما يقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنيين ، ومعاقبة المقصرين في اداء أعمالهم ، سواء أ كان هذا التقصير عن اكمال او خطأ ، أم سوء نية ، وقد وفق الى تعليم المصريين تدريجاً الصناعات التي حدقوها حتى ضارعوا الاوروبيين فيها ، فاستطاع محمد على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث ان الاعمال صار ينجز الشطر الاو في منها بايدي العمال الوطنيين ، ولم يحتفظ من الاوروبيين إلا بفرقة صغيرة من المعلمين الفرنسيين ، قصد ببقائهم في الخدمة الاشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن ، قال وم هو جدير بالذكر ان امثال المصريين للأوامر وانسكابهم على العمل فضيلتان كبيرتان عرفتاه الميسو سرى على اداء المهمة التي وكلت اليه على خير مايرام

ولم تنقطع دسائس التجار الاوروبيين بعد انتظام العمل في الترسانة ، فانه بعد ان صارت تخرج السفن الحربية وبعد ان استغنت الحكومة عن ابقاء السفن من الخارج كانت مع ذلك مضطرة الى جلب المهات والادوات التي تدخل في انشائها من الخارج ، كالاخشاب والحديد والنحاس ، فكان التجار الاقرب يتغالون في اثمانها ويوردون الاصناف الرديئة منها ، فالخشب مثلاً كانوا يستوردونه من الاناضول وايطاليا غير مستوف شرائط الجودة والمتانة ، ولذلك كثيراً ما سرى العطب الى السفن التي كانت تصنع منه فتحتاج الى الاصلاح والترميم بعد زمن قليل ، على ان محمد على لم تفر عزيمته عن مغالبة تلك العقبات ومتابعة انشاء السفن بهمة لا تعرف الملل ، وألف مجلساً نظ به كل ما يلزم لاعمال السفن وجعل الميسو سرى رئيساً له

السفن التي انشئت اورممت

في ترسانة الاسكندرية

أورد كلوت بك في كتابه (١) بيانا عن السفن التي انشئت اورممت في ترسانة الاسكندرية اثناء وجود سرى بك على رأسها ، وهذا البيان يعطينا فكرة عن عظمتها وضخامة العمل الذي قامت به

فقد بنيت بها البارجتان (مصر) و (اعكا) وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة السطوح المعروفة في ذلك العصر الا انهما لم توضع بهما البطارية الرابعة ، والسطح الاول لكل منهما يحمل ٣٢ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ والسطحان الآخران يحملان ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠

وأربع بوارج من ذات مائة مدفع ، وهي المعروفة باسماء (المحلة الكبرى) و (المنصورة) و (الاسكندرية) و (حصص) ، وفي كل من هذه السفن ٣٢ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى ، و ٣٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ في البطارية الثانية ، و ٣٤ مدفعا من الزهر (كاروناد) من عيار ٣٠ في مقدم السفينة ومؤخرها و البارجة (ابوقير) ذات ٧٨ مدفعا ، منها ٢٨ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى ، و ٣٠ مدفعا قصيرا في البطارية الثانية ، و ٢٠ مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ في مقدمة السفينة ومؤخرها

والكورفيت (طنطا) وفيها ٢٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٢ انجلىزى والجوليت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيار ٤ ، وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤

وسفينة لمدافع الهاون ، وسفينة نقالة لحمل اخشاب الساريات وقد تولت الترسانة تسليح البارجة (بيلان) ذات ٨٦ مدفعا ، فركب فيها

(١) ج ٢ ص ٣٧٣ (٢٤٣ من الاصل الفرنسى)

٢٨ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى ، و ٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية ، و ٢٨ مدفعا من الزهر فى المقدمة والمؤخرة
وكان العمل جاريا (١) فى بارجتين من البوارج الضخمة ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ ، وهما (حلب) و (دمشق) وفى فرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠

واستنتج كلوت بك من البيان المتقدم ان الميسوسريزى قد عنى بالتوحيد بين عيارات السفن الحربية الكبرى ، وهو الامر الذى كثيرا ما طالب به الخبراء البحرىون فى أوروبا على ذلك العهد
أما سفن الدوننمة التى اقتضى ترميمها وتعهدها فى الترسانة من الوقت والعمل اكثر مما كانت تقتضيه السفن المنشأة حديثا ، فهى الفرقاطة (الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ انجليزى وكان انشاؤها بميناء (ليفورن) بايطاليا والفرقاطة (البحرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان انشاؤها فى ثغر مرسيليا

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ ، و ٢٨ مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ ، وكان انشاؤها بمدينة البندقية (فينسيا) و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انجليزى ، واربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ وقد انشئت فى ثغر (اركانجل) بالروسيا للنقل واكمل انشاؤها فى (لندره) كفرقاطة حربية (وشيرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ ، وكان انشاؤها فى ثغر ليفورن ثم عدلت فى الاسكندرية تعديلا يعد انشاء جديدا

و (دمياط) وهى ذات اربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ ، وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨ ، وكانت سفينة كبيرة وحولت فى ترسانة الاسكندرية الى فرقاطة حربية

(١) وقت تأليف كتاب كلوت بك سنة ١٨٣٩

و (مستاجهاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٨ ، وثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٢ ، وكانت فرقاطة جزائرية اهدتها فرنسا لمصر والسفن (جناح بحرى) وأصلها من ثغر جنوه بايطاليا و (جهاد بيكر) وأصلها من جنوه ايضا ، و (فوه) وأصلها من الاسكندرية ، و (بلنك جهاد) وأصلها من مرسيليا ، وكلها من طراز الكورفيت ذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤ و (واشنطن) وأصلها من بوردو ، و (فولينان) وأصلها من (ليفورن) ، و (الفشن) وأصلها من الاسكندرية و (شاهين دريا) وأصلها من تركيا ، وكلها سفن من طراز الابريق الكبير وتحمل كل منها اثنين وعشرين مدفعا من الزهر ، و (سمند جهاد) وأصلها من مرسيليا ، و (شهباز جهاد) وأصلها من سيوتا ، و (التمساح) وأصلها من مرسيليا ، و (بادى جهاد) وأصلها من الاسكندرية ، و (امريكان) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز الابريق الصغير ، وتحمل كل منها من ستة عشر مدفعا الى ثمانية عشر مدفعا من مدافع الزهر

وأربع سفن نقالة حمولة كل منها ٤٠٠ طن

وفرقاطة ، و ابريق ، وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت اثناء الحرب السورية وكذا جملة سفن صغيرة ، وبخرة تسمى (النيل) اصلها من لندره تديره بالبخار وقد راى الميسو سرىزى فى بنائة السفن الحربية الاصلاحات والتعديلات التى كان الضباط الفرنسيون يطالبون بادخالها على السفن الفرنسية ، وكذا الاصلاحات التى اهتمدى اليها بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فرنسا ، والملاحظات التى لاحظها فى انجلترا ورأى من الافضل العمل بها لفائدة البحرية ، ولذلك بنيت السفن التى انشئت فى ترسانة الاسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه

وختم كلوت بك بيانه بقوله من المستطاع التحقق بان قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية فى بنائة السفن الحربية الفرنسية وجدت فى السفن التى انشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فى فرنسا بزمان طويل ، أى ان ترسانة الاسكندرية سبقت ترسانات فرنسا الى الوسائل الحديثة فى بناء السفن

ولما ظهر استعمال البخار أمر محمد على دار الصناعة بإنشاء سفن حربية بخارية (وكانت السفن الحربية قبل ذلك تسير بالشرع)، فصنعت عدة بواخر منها وابور (النيل) الذى ذكره كلوت بك و (اسيوط) و (رشيد) و (جبلان) خصصها لحمل البريد وجعل لها ادارة خاصة سماها القومبانية المصرية

سفن النقل

وشيدت فى الترسانة عدا السفن الحربية سفن عديدة للنقل جعل لها ادارة خاصة تولى رآستها محمد قراقيش قبودان ثم خلفه محمد راشد بك ثم خلفه اوزون احمد قبودان

حفلات نزول السفن الحربية الى البحر

وكانت السفن التى يتم انشاؤها تقام لها حفلات نفمة ابتهاجا بنزولها الى البحر كالحفلات التى تقيمها الحكومات الاوروبية فى ثغورها البحرية لمناسبة انشاء البوارج الجديدة ، وكان محمد على باشا يحضر بنفسه معظم هذه الحفلات تقديراً لها واعلاء لشأن الاسطول ، قال رفاعه بك رافع فى هذا الصدد :

« وكان محمد على يديم النظر فى السفن عند صنعائها ، ويصور الغرض منها ، وكلما شارفت الاتمام ازداد فرحاً وسروراً ، واذا نزلت سفينة فى البحر لم يتمالك نفسه مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار ان يظهر اماراة السرور ، فلماذا كملت عنده دوننمة ملوكية طبق مرامه ، وطعمها بالمدافع والعساكر ، ونظمها على نسق نظام العساكر البرية ، وأنشأ مدرسة بحرية بثغر اسكندرية ليخرج منها من الضباط ما تحتاج اليه هذه الدوننمة ، وترجم العلوم البحرية وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الاخرى » (١)

(١) مناهج الالباب المصرية للعلامة رفاعه بك رافع ص ٢٤٦ طبعة ثانية

وانا ذا كرون هنا ما جاء بالوقائع المصرية^(١) في وصف احدى تلك الحفلات فنقله بنصه لتعرف منه تفاصيل الحفلة ، ولتطلع على نموذج من لغة الجريدة الرسمية في ذلك العصر

« ان الغليون^(٢) ذا الهيئة السنية ، المحلى باسم الاسكندرية ، تعريف انشاء آلاته البهية وعمل ادواته الخربية ، ووصف ابعاده الثلاثية ، قد تقدم ذكره الشائع ، واندرج في سلك السطور والوقائع ، والمراد ذكره الآت قطع حبال تعلقاته من القطر البرى ، ليطير باجنحة العنقاء الى العالم البحرى ، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم فى الساعة الرابعة من النهار ، حيث تجلت مشاهد الانوار ، وكان ذلك بحضرة جميع الامراء والعظماء ، وزمرة الصلحاء والعلماء ، وقناصل الدول المستأمنين ، وقاطبة الاهلين ، مع جملة اولادهم الكبار ، وعيالهم الصغار ، وكانوا لدى ساحة الترسانة الواسعة الارعاء ، منتشرين كنجوم السماء ، واما سعادة افديننا ولى النعم فانه ركب الفلك بجرا ، وهلم جرا ، واستصحب ببعيته أحد رجال الدولة العلية ، المأمور بتشريف الديار المصرية ، اعنى به مصطفى افندى نظيف ، حتى وضع لدى موضع الترسانة قدمه الشريف ، وكان الغليون إذ ذاك قد بادر الى قطع اكثر العلائق ، ووداع الاخلائق ، بحضور المهندس الذى هو لسلكل منقبة حاوى ، الخواجه سريزى الفرنساوى ، فتقدم الموما اليه لدى ساحة مكارم ولى النعم ، واثار الى أن هذا هو وقت الدعاء ، من زمرة العلماء ، فتقدموا الى جهة الغليون الراسى كالطود المتين ، ولدى دعائهم قل الحاضرون آمين ، فتلا حينئذ لسان حال الغليون ، عم يتساءلون ، ثم نبذ باقى العلائق ، وانشد بمحضر الاخلائق

لست اخشى عسف الرياح اذا ما
بنت عن ساحل ووسطت بجرا »

(١) عدد ٣٤٠ الصادر فى ١١ شعبان سنة ١٢٤٧ (يناير سنة ١٨٣٢)

(٢) المركب الحربى

استقاله سرى بك

خلا مكان سرى بك فى دار الصناعة باستقالته من منصبه ، وترجع استقالته الى ائتمار التجار الاوروبيين به كما قدمنا ، فزالوا يخرجونه حتى استقال ، على ان اعمال الترسانة سارت بعد استقالته فى تقدم مستمر بفضل ادارة مهندسيها المصريين ، وبذل حسن بك السعران ومحمد بك راغب من خريجي البعثة البحرية همة كبرى فى تنظيم العمل حتى بلغت العمارة الحربية المصرية درجة تفوق كثيرا من الدول الاوروبية

المعسكر البحرى للتعليم برأس التين

وانشأ محمد على باشا معسكرا لتعليم البحارة من الجنود الأعمال البحرية ليكونوا بحارة الاسطول وجنوده ، انتقام من كل المديرىات وأعد لاقامتهم وتدريبهم الجهة الشمالية الشرقية من رأس التين بحيث تسع عشرة آلاف نفس ، واعد لهم مركبا فوق البر بسوارىها وقلوعها لتعليمهم استعمال الشراعات ، ولما تم تدريب البحارة ، وزعوا على السفن الحربية ، فانتظمت طوائف الجنود والبحارة ، وصار نظامهم يضارع النظمات البحرية بالاساطيل الأوروبية ، ونقل من كان بتلك السفن من النوتية غير النظامية الى سفن النقل

وانشأ محمد على مستشفى للبحرية فى شبه جزيرة رأس التين وآخر فى الترسانة

مدرسة بحرية على ظهر البحر

وكذلك انشأ مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين على ظهر احدى السفن الحربية ، ولما اتسع نطاقها قسمت الى فرقتين كل واحدة بسفينة ، وكان ناظرها حسن بك القبرسلى ، وبعد وفاته جعل مكانه كنج عثمان بك ، ويشرف عليها ناظر البحرية ، وقد نبغ من هذه المدرسة كثير من

الضباط البحريين الذين اشتهروا في الاعمال والحروب البحرية ورفعوا علم مصر عالياً فوق ظهر البحار أو تولوا الادارات البحرية في مصر ، ذكر اسماعيل باشا سرهنك (١) بعض من عثر على اسمائهم فأثرنا ان نثبتهم هنا لنعرف بعض ضباط البحر ممن ازدان بهم تاريخ الاسطول المصري :

خير الدين قبودان ، عبد اللطيف قبودان ، أحمد نوري قبودان الملقب بالجوخدار ، حسين شرين قبودان (٢) ، جعفر مظهر قبودان ، حافظ خليل قبودان (وهؤلاء ترقوا الى رتبة الباشوية) :

حافظ قبودان مصطفى ، برغمه لى احمد قبودان ، مصطفى قبودان الكريدى ، حاجو قبودان ، حافظ قبودان الشيرازى ، بودرملى احمد خوجه قبودان ، عارف قبودان ، اسماعيل قبودان ، أمين قبودان الملقب بالطويل ، بوزجه اطه لى خليل قبودان ، خورشيد قبودان ، هدايت محمد قبودان ، بابا سليم قبودان ، احمد شاهين قبودان ، خورشيد قبودان الملقب بابى فصادة ، محمد راشد قبودان ، سليم قبودان ، مرجان قبودان ، وسيل قبودان ، ابراهيم قبودان الملقب بكرة كوز ، عثمان قبودان الملقب بقاح ، عثمان قبودان الملقب بالبوتى ، سليمان قبودان الملقب بالبيرقدار ، مصطفى قبودان الملقب بالبلاوجى ، بونغجه اطه لى أمين قبودان ، بونغجه اطه لى سليمان قبودان ، مطوش قبودان

البعثات البحرية

لم يكتب محمد على باشا بانشاء المدرسة البحرية بل كان يختار بعض الضباط البحريين

(١) حقائق الاخبار ج ٢ ص ٢٤٣

(٢) هو حسين شرين باشا من مشاهير قواد البحر فى عهد محمد على واسماعيل ووكيل وزارة البحرية فى اوائل عهد توفيق باشا ، وهو جد صديقنا النبيلين اسماعيل شرين بك وحسين شرين بك

ويرسلهم الى فرنسا وانكلترا لانما علومهم بها وممارسة الفنون البحرية على ظهر السفن الحربية الاوروبية ، فن هؤلاء عثمان نور الدين افندى (باشا) الذى سترجم له فيما يلى ، وحسن افندى الاسكندراني (باشا) ، وشنان افندى ، ومحمود افندى زامى (١) ، وهؤلاء ارسلوا الى فرنسا ضمن البعثة العلمية الاولى

وعبد الحميد افندى ، ويوسف اكاه افندى ، وعبد الكريم افندى ، وهؤلاء ارسلوا الى انجلترا ضمن البعثة العلمية الثالثة

ولما اتوا علومهم وتجاربهم عادوا الى مصر ووزعوا على السفن الحربية المصرية ومن الذين ارسلهم محمد على باشا كذلك الى اوروبا لتعليم فن انشاء السفن ، وهما حسن افندى (بك) السمران ، وهذا سافر الى فرنسا ، ومحمد راجب افندى (بك) (٢) ، وهذا سافر الى انجلترا ، وبعد ان اتقن التلميذان المذكوران فن الهندسة البحرية عادا الى مصر وعينا رئيسين لقسم الهندسة وانشاء السفن بقرسنة الاسكندرية ، ونوليا العمل الذى كان يقوم به سرىزى بك فى دار الصناعة وقد ادنى خريجوا المدرسة والبعثات البحرية خدمات جليلة للبحرية المصرية . فعين بعضهم قباطين للسفن الحربية لقيادتها وتدريب بحارتها على الاعمال البحرية ، وترجم بعضهم مؤلفات عدة عن البحرية ذكرها اسماعيل باشا سرهنك (٣) وترجم جركس محمود نامى قبودان كتابا فى فن الحرب البحرية ، وترجم عبد الحميد بك الديار بكرلى مؤلفا فى مقياس السفن ، وترجم محمد شنان افندى قانون البحرية وترجم عثمان نور الدين باشا كتاب القواعد واللوائح البحرية المتبعة فى فرنسا ، وآخر فى قانون العقوبات البحرية

وترجم احمد خليل افندى المهندس قانون البحرية وكتابا فى فن الطوبجية البحرية ، وترجم هؤلاء ايضا وغيرهم كثيرا من القوانين واللوائح والنظامات البحرية

(١) مجد ترجمتهم فى فصل البعثات

(٢) ضمن البعثة العلمية الثالثة انظر الفصل الثانى عشر

(٣) ج ٢ ص ٤٧

المستعملة في سفن اساطيل فرنسا وانجلترا ، ونشرت هذه المؤلفات بين ضباط البحرية واتبعت احكامها في الدونمة المصرية ، فازدادت نظاما وقوة وصارت في زمن قليل تحاكي أعظم بحريات اوروبا

اصلاح الميناء

بذل محمد علي جهداً كبيراً في توسيع ميناء الاسكندرية وتعميقها واستحضر لهذا الغرض الكراكت من اوروبا حتى صارت السفن ترسو على الشاطئ بعد ان كانت ترسو بعيدة عنه ، واذن للسفن الاوروبية التجارية والحربية بالدخول في الميناء الغربية بعد أن كان غير مباح لها من عهد المماليك ان ترسو إلا في الميناء الشرقية ، فلما اذن لها محمد علي بالرسو في الميناء الغربية أخذت السفن الاجنبية تتوافى الى الاسكندرية واتسعت حركة التجارة فيها ، وأنشأ رصيفاً داخل الميناء لرسو السفن عليها ، وملأ المتخلف بين الارصفة والشاطئ بالاحجار والاتربة فاتسع الشاطئ وأنشأ في ذلك الفضاء ما يحتاج اليه الميناء من المخازن وابنية الجمر وكسكن الموظفين (١) ، وكان المباشر لذلك شاكرا فندي المتقدم ذكره الى أن توفي فخلفه مظهر باشا المهندس الماهر الذي تخرج من البعثة العلمية ، وكذلك وضع علامات في بوغاز الاسكندرية كي يهتدى بها ربابين السفن في دخولهم الى الميناء وخرجهم منها

انشاء حوض لترميم السفن

وأنشأ محمد علي في الميناء حوضاً لترميم السفن مما لا تستغنى عنه الثغور الكبيرة فجاء وفق المرام وقد تم انشاؤه على يد موجيل بك المهندس الفرنسي سنة ١٨٤٤ واشترك في انشائه مظهر باشا وبهجت باشا المهندسان المصريان اللذان تخرجا من بعثات فرنسا

(١) الخطة التوفيقية ج ٧ ص ٥٢

وبعد أن أنشأ رصيفا للشحن في الميناء مدسكة حديدية تصل مستودعات البضائع والغلال بالرصيف لتسهيل نقلها الى السفن

فنار الاسكندرية

أنشأه المهندس مظهر باشا احد خريجي البعثات بشبه جزيرة رأس التين لارشاد السفن القادمة الى الميناء والخارجة منها وهو من أجل اعمال العمران التي تمت في عصر محمد علي ، وقد كتب عنه كلوت بك^(١) مايلي
« لقد احرزت هذه البناية الجليلة في كلياتها وجزئياتها اعجاب من شاهدها من السياح وهو مما يكمل بالفخر المهندس المصري مظهر افندي الذي تلقى العلم في فرنسا ويوجب مدحه والثناء عليه »

البحرية المصرية كما وصفها شهود العيان

زيارة المارشال مارمون للترسانة

زار المارشال (مارمون) ترسانة الاسكندرية سنة ١٨٣٤ فاعجب بنظامها وضخامتها ، وبهرته دقة اعمالها وكفاءة عمالها المصريين ، وكتب عنها مايلي^(٢)
« زرت الترسانة والاسطول ، وكنت شديد اللفتة لزيارة هذه المنشآت المدهشة التي لم يكن يتصور العقل تأسيسها ، ففي سنة ١٨٢٨ لم يكن بالاسكندرية الا ساحل مقفر ، ولكن هذا الساحل أصبح في سنة ١٨٣٤ مغطى بترسانة كاملة بنيت على مساحة واسعة ، وأحواض للسفن ، ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع ، ومما استوقف نظري ورشة الحبال التي يبلغ طولها ١٠٤٠ قدما اي في طول ورشة الحبال بثغر طولون ، وقد شاهدت في الترسانة عمالا يعملون في مختلف معاملها ، ولهم مهارة في كل مايعهد اليهم من الاعمال البحرية ، وهم جميعا من المصريين

(١) ج ٢ ص ٧٥٣ (٢) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ١٧١

ويسود بينهم النظام والعمل والنشاط ، وهذه الترسانة التي لم يعض على انشائها أكثر من ست سنوات قد صنع فيها عشر بوارج سلاح كل منها مائة مدفع ، وقد تم تسليم سبع منها تمخر العباب الآن ، أما الثلاث الأخرى فلا تزال بالخوض على وشك نزولها الى الماء ، هذا عدا السفن التي من نوع الفرقاطة والكورفت والابريق ، مما جعل عدد الاسطول يزيد عن ثلاثين سفينة حربية ، وقد تمت هذه المنشآت ووصلت البحرية المصرية الى هذه النتائج المدهشة في ذلك الزمن القصير في بلاد ليس فيها اخشاب ولا حديد ولا نحاس ، ولم يكن فيها عمال ولا بحارة ولا ضباط مجربون ، أى انها كانت مفتقرة الى كل العناصر اللازمة لانشاء اسطول ، وهذه همة لا نظير لها في التاريخ ، والفضل في هذا العمل الجليل راجع الى كفاية المسيو سريرى والى عزيزة محمد على الحديدية التي تغلبت على كل الصعاب ، وقد كان العمل يتولاه الرجال الفنيون ، ولكن محمد على كان يقضى أياما باكملها وسط العمال ، فكان حضوره يبعث في نفوسهم روح النشاط والهمة ، ويدل العقبات التي تعترض العمل ويحمل كل واحد من العمال على بذل كل ما في طاقته من الجهود »

رأيه في كفاءة المصريين

وقال المارشال مارمون يصف كفاية المصرى
« ان العربى - يريد المصرى - له حظ عظيم من المقدرة على التقليد تبلغ درجة النبوغ ، وهو متصف بالاستقامة والنشاط والغيرة مع المرونة والطاعة ، وهذه الصفات يمكن الوصول الى تحقيق كل ما يريده الانسان ، وبفضل هذه المزايا صار العمال الذين خرجوا من صفوف الفلاحين اخصائيين في الفروع والفنون التي توفروا عليها كل فيما خصص له
« ولم يقتصر الأمر على تدريبهم على اعمال الخشابين والنجارين والحدادين

بل تخصص منهم كثيرون لاعمال بلغت غاية الدقة فنجحوا في صنع آلات البحرية كالبوصلات والنظارات

« وقد شاهدت بنفسى المعامل التى يصنع فيها هذه الآلات ، والعمال الذين يصنعونها ، ورأيت الاتقان فى صنعها ، والعمال الفنيون الذين يصنعونها لم يمض عليهم سنتان فى التمرن على تلك الاعمال ، ومن الحق ان يقال انه لا ينتظر الوصول الى هذه النتيجة بمثل هذه السرعة من عمال اوروبيين يؤخذون من صفوف الفلاحين معها كانت الامة التى يختارون منها »^(١)

زيارته للاسطول

وقل يصف زيارته للاسطول المصرى سنة ١٨٣٤^(٢)

« نزلت الى الميناء لزيارة البوارج المصرية الراسية بها ، وكان عددها سبعا عادت حديثا من جولة فوق ظهر البحار على سواحل اسيا (سوريا والاناضول) قضت فيها ستة اشهر ، وكل بارجة منها مسلحة بمائة مدفع ، ومدافعها كلها من عيار واحد ، وقذائفها من حجم واحد ، ولا شك ان وحدة العيار لها فائدة كبرى عند ما تشتبك البوارج فى القتال ، ومن المدهش ان هذه الميزة السهلة فى ذاتها لم تلتفت لها الدول البحرية الكبرى وان ابتكارها يجىء على يد دولة حديثة تبدأ عهدا بالحضارة »

وقال عن زيارته لبارجة الاميرال مصطفى مطوش باشا قائد الدونمة :

« استقبلنى مطوش باشا بالتعظيم المعتمد وعلى قصف المدافع فوق ظهر بارجته (عكا) التى كان يركبها ، وكان يصحبنى الاميرال بيدسون Besson ، وقد تفقدت البارجة ، وامعنت النظر فيها بعناية خاصة ، فلم ار إلا ما يستوجب الاعجاب بنظائها وترتيبها ، وهذه البارجة كغيرها من البوارج الكبرى هى المنشآت البديعة التى اخرجتها ترسانة الاسكندرية ، وقد اشتركت فى الحرب مرتين على ظهر البحر »

(١) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ١٧٣ (٢) ص ١٧٨

رأى كلوت بك

وانظر ما كتبه كلوت بك عما بلغته البحرية المصرية من القوة والتقدم (١) :
 « مما لا ريب فيه ان ايجاد ترسانة وانشاء اسطول على ذلك الوجه من السرعة لما
 يقضى بالعجب ، ويدل على قوة العبقرية ، فقد كان شاطئ البحر بالاسكندرية
 كالصحراء الخالية من كل اثر لسكان ، فلم تمض سنوات اربع حتى عمر بترسانة
 كاملة الادوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات ، فن قواعد منحدرة لانشاء
 السفن عليها وتزليجها الى البحر ، ووُرش ومخازن ، ومصنع للجمال تمتد بنيته
 طولاً ألفاً واربعين قدماً الى كطول مصنع الجبال في ثغر طولون ، وانشئت خلال تلك
 المدة دونمة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجال ، وجربت
 للمرة الأولى من انشاءها في مطاردة احد الاساطيل العثمانية

« وما هي الا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين
 علم البحر وثقاته سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدرجة البحارة وحسن
 قيامهم على الاعمال المنوطة بهم ، وقد أصبح المصريون ، وهم شعب مفضل على
 الامتثال ومحامد الخصال ، كأنهم خلقتوا لممارسة البحر ، ولقد سبق لنا ذكر
 فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ، ونقول الآن إنه بالنظر الى سكنائهم شواطئ
 النيل وهو النهر الذي بلغ من السعة في نظرهم مادعاهم الى تسميتهم اياه بالبحر ،
 كانوا من أقدر الناس على السباحة وأميلهم الى معاناة فنون الملاحة ، ومن
 المناقب التي توافرت فيهم غير ما تقدم تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم
 ألا يحرز قصب السبق سواهم ، « ومعلوم أن ثغر الاسكندرية تتردد عليه باسم
 الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها اعلام دول مختلفة ، فكان منظر هذه السفن يبعث
 في نفوس الشبان المنتظمين منهم في سلك البحرية روح الغيرة والحاسة ويستفزهم

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٨٤ (٢٥١ من الاصل الفرنسي)

الى الرغبة فى اطلاع الخبيرين فى الفن كل يوم على ما حذقوه من الحركات فى المناورات ، ونما بذلك فى نفوسهم إحساس الشمم ، وتنبيه الشعور بالكرامة ، فكانت هذه المظاهر من أقوى العوامل على تنافسهم فى إحراز أوفر قسط من العلوم والفنون ، ويؤخذ من آراء الاخصائيين فى حالة البحرية المصرية أن الفرق بينها وبين بحرية الاستانة كالفرق بين جيوش محمد على البرية وجيوش الباب العالى

« وامتازت بحرية محمد على أول وهلة بالتفوق فى شبه جزيرة (موره) ، وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليونانية التى طالما هلعت لمرآها قلوب أهل الاستانة وقبعت بسببها اساطيلهم ، لم تخش بأسها السفن المصرية التى كان يقوم على امرها فى ذلك العهد ربان السفينة الفرنسى الميسولوتالييه ، ولقد شرف الاسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها اثناء حملة الشام ، اذ قامت سفنه بمراقبة سواحل الشام ومنعت الاتراك من النزول اليها ، وقبضت فى انحاءها على بعض السفن العثمانية ، وساعدت المصريين على حصار عكا ، واقتفت اثر الدونمة العثمانية التى كانت اكثر منها عددا او فرمدا حتى حصرتها فى مرسى (مر مرسى) ثم دفعها امامها حتى مضيق الدردنيل التى اشرفت ان تجتازه لولا مداخله الدول الأوروبية التى حالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة »

كفاية عمال الترسانة المصريين

وذكر كلوت بك (١) عن كفاءة العمال المصريين ومهارتهم وحسن استعدادهم ما يأتى

« ان العمال المصريين هم الذين كانوا ينجزون أعمال انشاء السفن ، وقد أظهروا فيها من الاهلية والدراية ما يوجب الدهش ، وكان يشتغل منهم بالترسانة

(١) ج ٢ ص ٣٧٨ (٢٤٦ من الاصل الفرنسى)

من ستة آلاف عامل الى ثمانية آلاف ، اما العمال الاثراك فلم يبد منهم ما يستوجب ارتياح المسيو سريزي ورضاه عنهم ، لانهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع الى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لاجادة ما ينط بهم من الاعمال ، فكانوا من هذا الوجه على نقیض المصريين الذين كانوا يدركون بسهولة سر الصنعة مما كان ينجز امامهم من الاعمال ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الاخلاق والامثال للرؤساء ، هذا فضلا عن انهم فطروا في فهم ما يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظرا اكثر منه على الذكاء والعقل ، حتى ان الرسم البسيط يرشدكم الى فهم حقائق الاشياء بمجرد النظر اليه قبل امعان الفكر والروية فيه ، إلا ان المصرى مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه ، فضلا عن انه اذا بلغ من التعلم درجة ما لا يرغب فى تجاوزها الى ما بعدها ، وهذا النقص يحول بلا ريب دون سعيه الى السكمال

» وهم أميل الى مزاوله الصناعات التى أساسها تقليد الاشكال والنماذج الثابتة ، ومن ثم تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الاشرعة والحبال والبراميل والنجارة الدقيقة ، ويحسنون ثقب الثقوب وقلفطة المراكب ، وانما لا يمكن الاعتماد عليهم فيها اذا مست الحاجة الى تغيير الاحجام واستنباط اشكال تخالف ما عهدوه عليه من المثل ، كما يتفق احيانا فى مصانع الآلات والحدادة والسبك ، ما لم يراقبهم أثناء ادائهم إياها الرؤساء الأوروبيون ، فانهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير مايرام

» وترسانة الاسكندرية التى يصنع فيها كل شئ بأيدي المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا ، دليل ناطق على مبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ، ويقتضى ان عامة الشعب فى اوروبا لا يستطيعون ان يؤدوا من جلائل الاعمال ما يؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بهافيه

قواد الاسطول المصرى

نأتى هنا على لمعة من تاريخ القواد الذين تولوا رئاسة الاسطول المصرى فى عهد محمد على تحليداً لذكراهم وتبييناً لما قاموا به من جلائل الاعمال

الاميرال اسماعيل بك

هو الذى قاد العارة المصرية فى اوائل الحرب اليونانية كما بينا ذلك فى الفصل السابع (١)، وهو الذى تسميه المراجع الفرنسية اسماعيل جبل طارق وبعضها يسميه اسماعيل الجبل الاخضر، وقد توفى اثناء الحرب اليونانية

الاميرال محرم بك

أصله من قوله ثم اتخذ مصر وطناً له، فالتصل بمحمد على باشا واستخدمه فى كثير من مهام الحكومة، ورأى فيه من الصدق والاخلاص وحيد الصفات ما جعله يقربه إليه وزوجه بكريمته تفيدة هانم، وجعله حاكماً للجيزة، ثم محافظاً للاسكندرية، فاحسن ادارتها، وبعد ان انشأ الاسطول المصرى الاول جعل محرم بك اميرالاً له سنة ١٨٢٦، وتولى قيادته فى الدور الثانى من حرب اليونان، وحضر واقعة نافارين البحرية وشهد نكبة الاسطول فيها كما فصلنا ذلك فى الفصل السابع (٢)

ولما عاد الى مصر بقى فى وظيفته الأولى محافظاً للاسكندرية وانفرد بهذا المنصب الى ان توفى بها فى ١٧ محرم سنة ١٢٦٤ (٣) (٢٠ ديسمبر سنة ١٨٤٧) فأسف عليه الناس اسفاً كبيراً لجميل سيرته وحبه للخير، وباسمه سُمى الحى المشهور فى الاسكندرية بحى «محرم بك»

(١) ص ١٩٩ و ٢٠٢ (٢) ص ١٩٩ و ٢٠٢ و ٢١٦ وما بعدها

(٣) عدد ٢٧ محرم سنة ١٢٦٤ من الوقائع المصرية

الاميرال عثمان نور الدين باشا

أصله من جزيرة مدلى (١) ولحق بمصر واتخذها وطناً وخدمها خدمات جليلة ، دخل فى مدارسها الحربية ثم التحق بالبعثة التى ارسلها محمد على باشا الى أوروبا ، واتقن فيها العلوم الحربية والبحرية ، ولما عاد صار له شأن كبير فى المهمات التى اسندت اليه وفى تنظيم البعثات الكبرى التى تدفقت نحو فرنسا ، فقد كان عضواً عاملاً من اعضاء اللجنة التى الفت سنة ١٨٢٢ لوضع برنامج التعليم العسكرى بالمدارس الحربية المصرية على النظام الحديث ، فكان ثالث الثلاثة الذين تألفت منهم تلك اللجنة ، وزميله فيها هما الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) واحمد افندى المهندس ، وهو الذى أسس المدرسة الاعدادية الحربية بقصر العينى ، ومدرسة اركان الحرب بالخانكة ، وقد اثنى عليه كلوت بك فى كتابه وجعله فى مقدمة من اشاد بذكركم من خريجي البعثات

وقد نال منزلة كبيرة لدى محمد على باشا لما آتته فيه من الاخلاص والكفاءة ووصل الى رتبة سر عسكر وجعل رئيساً للاسطول المصرى سنة ١٨٢٧ بدلا من محرم بك ، وانعم عليه برتبة الباشوية وبنى له محمد على باشا منزلاً على ساحل الميناء غربى سراى رأس التين ليكون قريباً من السراى الخديوية ومن سفن الاسطول بالميناء ، وجعله رئيس الجهادية فى البر والبحر ووصل من المنزلة والمكانة الى ان صار ثالث رجل فى الدولة بعد محمد على وابراهيم

وقد كان له فضل كبير فى إيفاد البعثات الكبرى الى فرنسا ، ذلك انه اثناء تلقيه العلوم بها تعرف بالمسيو جومار Jomard أحد اعضاء لجنة العلوم والفنون الذين اصطحبهم نابوليون فى مصر اثناء الحملة الفرنسية (٢) ، وكان وقتئذ مكلفاً

(١) انظر موقعها بالخرطة ص ١٩٥

(٢) انظر ترجمته بالجزء الاول ص ١٢٦

من قبل الحكومة الفرنسية اخراج كتاب (تخطيط مصر) الذى وضعه علماء الحملة،
فنال لديه عثمان نور الدين مكانة سامية واقترح عليه وهو فى فرنسا ان يرغب الى
محمد على باشا عند عودته لمصر إرسال بعثات كبيرة الى فرنسا لتلقى مختلف العلوم
والفنون فيها، وعرض ان يتعهد هذه البعثات بعنايته واشرافه، وان يبذل قصارى
جهده فى تخريج تلاميذها دون مقابل

فلما عاد عثمان افندى نور الدين الى مصر سنة ١٨٢٠ رأى محمد على باشا من
كفاءته ونبوغه مارغبه فى ارسال طائفة من الشبان الى اوربا وعرض عليه هو
فكرة الميسو جومار، فتلقتها بالقبول والارتياح وشرع فعلا فى إيفاد البعثات الى
فرنسا سنة ١٨٢٦ كما سيجىء بيانه

وقد تولى قيادة الاسطول المصرى فى الحرب السورية الاولى وخاصة فى
حصار عكا كما سبق بيان ذلك فى موضعه (ص ٢٣٦ و ٢٦٩)

وكان له فضل كبير فى ترقية شأن الاسطول المصرى بما كان يعنى به من
تطبيق النظام البحرية الحديثة على شؤونه وحث قباطين السفن على تنفيذ أوامره
بالدقة حتى ساد النظام فى سفن الاسطول، وكان يخرج بالسفن الحربية فى الصيف
من الميناء لاجراء المناورات وتدريب الجنود والبحارة على الحركات البحرية ويتجول
مدة ثلاثة اشهر رافعا علم مصر فوق ظهر البحار

وفى سنة ١٨٣٣ ارتحل محمد على الى جزيرة كريت لتنظيم الحكم المصرى
بها، وكان فى معيته عثمان نور الدين اميرال اسطول، فأقر بالجزيرة عدة
اصلاحات ادارية واجتماعية ولكنه اعتزم تجنيد اهلها، وكان ينوى اتخاذ ميناء
(السودة) نفرا حربيا ليكون قاعدة للاسطول المصرى فى جولاته بالبحر الابيض،
فلم يكدهم يعود الى مصر ويذاع فى الجزيرة نبأ العزم على تجنيد الكريتيين حتى
سبت الثورة بينهم وحمل السلاح نحو ستة آلاف من الفلاحين وقصدوا الى حيث كانت
الحامية المصرية ترابط فى ثكناتها، فامتنعت الحامية فى معاقبتها وارسل حاكم
الجزيرة (مصطفى باشا الارناؤوطى) نبأ الثورة الى محمد على، فانفذ قوة من الجند

برئاسة عثمان نور الدين باشا لاختاد الفتنة ، فلجأ عثمان باشا الى اخذ الثوار باللين ، ولكنهم اصرروا على عنادهم ، فاستبكوا مع الحامية في قتال فرقتهم فيه نيران المدافع ، ووقع ثلاثون منهم في أسر الجيش المصرى ، فارتأى عثمان باشا ان يعفو عنهم املا في ان يكسب الثوار ويقل من حدهم ووعدهم بالعفو ، وارسل يطلب الى محمد على باشا تعليماته في هذا الصدد ، ولكن الباشا رفض العفو عنهم وأمر بقتلهم ، فكبر على عثمان باشا ان لا يؤمنه لرأيه ويرفض العمل به ، ولم يجد وسيلة يخرج بها من هذا الموقف سوى الاستقالة من خدمة الحكومة ، فارتحل من الجزيرة في اواخر سنة ١٨٣٣ وكتب الى بوعوض بك ناظر خارجية مصر يفبئه انه اعتزل خدمة الباشا وذهب الى جزيرة مدلى ومنها الى الاسكندرية حيث مات بها بعد قليل ، وقد أرسل محمد على باشا يأمر باعدام زعماء الفتنة في كريت وادخال الشبان من اهلها قهرا فى الخدمة العسكرية ، فاشتعلت فيها نيران الفتنة ثانيا ، ثم اخذت سنة ١٨٣٤ ، وبقي الحكم المصرى قائما فيها الى ان اعيدت الجزيرة للدولة العثمانية بمقتضى معاهدة لوندره سنة ١٨٤٠

الاميرال مصطفى مطوش باشا

اصله من قوله ، و كان قبودانا فى السفن التجارية ، ولما قدم الى الديار المصرية استخدمه محمد على باشا فى الدونمة المصرية ، و كان يثق به ويعرف مقدار معارفه البحرية فجعله وكيلا للدونمة (فيس اميرال) التى بعث بها لمساعدة الدولة العثمانية فى حرب اليونان ، وحضر واقعة نافارين البحرية ثم عين اميرالا ثانيا للعاراة التى ارسلت لضرب عكا تحت قيادة الاميرال عثمان نور الدين باشا فى الحرب السورية الاولى ، وعين وزيرا للبحرية وكان يسمى (ناظر السفائن) ، ثم جعله محمد على باشا قائدا عاما للدونمة المصرية بدلا من عثمان نور الدين سنة ١٨٣٣ م وجعل بيسون بك Besson الفرنسي وكيلا له ، وعين مصطفى بك الكريدى فى

وظيفة رياله (أى كنتراميرال) وقد بقى مطوش باشا رئيسا للدو نممة المصرية الى ان توفى سنة ١٨٤٣ ، وكان من خيرة قواد البحر الذين زانوا تاريخ البحرية المصرية

محمد سعيد باشا

ابن محمد على باشا ، وهو الذى ارتقى عرش مصر خلفا لعماس باشا الاول ، وقد خصصه ابوه لتعلم الفنون البحرية ، وهذا يدل على مبلغ عنايته بالاسطول ، فلما نال حظا من الفنون البحرية (وكان وقتئذ سعيد بك) عينه ابوه معاونا لمطوش باشا سر عسكر الدو نممة وناظر البحرية ، وأصدر امره اليه بان يمثل لأوامره ويؤدى له التعظيم العسكرى بوصف كونه رئيسا له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على باشا إذ عود ابنائه على احترام النظام الذى هو اساس التقدم والعمران ، وقد جعله ابوه قبودانا للسفينة الحربية (دمنهور) برتبة صاغتول اغاسى ، وجعل فى معيته المسيو كوتليك واليوز باشية عرفان قبودان الذى صار عرفان باشا ، وذو الفقار قبودان (الذى صار ذو الفقار باشا ناظر الخارجية) وسرهنك قبودان والد اسماعيل باشا سرهنك صاحب كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار ، وما زال يرتقى حتى صار قائدا عاما للدو نممة المصرية (سر عسكر) بعد مصطفى مطوش باشا ، وكان فى الوقت نفسه قومندانا للبارجة (بنى سويف) واحتفظ بمنصب رئاسة الدو نممة فى عهد عباس باشا الاول ، ولكن البحرية المصرية اهل شأنها وبدأ تقهرها فى عهد عباس

احصاء الاسطول المصرى فى عهد محمد على

لدينا ثلاثة احصاءات عن سفن الاسطول المصرى تختلف باختلاف مصادرها ، والسنين التى عملت فيها ، وقد راينا ان نضع امام القارئ صورة من هذه الاحصاءات الثلاثة لانها مع تقاربها تدل على التقدم المحسوس فى قوة الاسطول على مر السنين

احصاء سنة ١٨٣٧

للمسيو مانجان

قال المسيو مانجان (١) ان عدد السفن الحربية المصرية بلغ سنة ١٨٣٧
 ٢٨ سفينة حربية ، منها ١٠ بوارج كبيرة و ٦ فرقاطات و ٤ سفن من نوع الكورفيت
 و ٨ من نوع الابريق ، وهاك اسماء السفن التي وردت في هذا الاحصاء (٢) وعددها
 ٢٤ أما البقية وعددها اربعة فكان العمل لايزال جاريا لاتمامها وتسليحها

اسم السفينة ضباط اركان الحرب عدد الضباط عدد المدافع
 والجنود والبجارة

١٣٦	١١٧٢	٣٣	١ - مصر
١٠٠	١٢٠٨	٣٤	٢ - عكا
١٠٠	١١٠٢	٣٣	٣ - المحلة الكبرى
١٠٠	١١٠٢	٣٣	٤ - المنصورة
١٠٠	١١٠٢	٣٣	٥ - اسكندرية
٨٤	٨٠٣	٣٢	٦ - ابوقير
٦٠	٥٢٩	١٧	٧ - رشيد
٦٠	٥٢٩	١٧	٨ - البحيرة
٦٠	٥٢٩	١٧	٩ - شيرجها
٦٠	٥٢٩	١٧	١٠ - كفر الشيخ
٦٠	٥٢٩	١٧	١١ - واسطة جهاد
٥٢	٥٠٠	١٧	١٢ - دمياط

(٢) مانجان ج ٣ ص ١٤٦

(١) ج ٣ ص ١٤٤

عدد المدافع	عدد الضباط والجنود البحارة	ضباط اركان الحرب	اسم السفينة	
٢٤	٢٤٢	١٣	سمند جهاد	١٣
٢٤	٢٤٢	١٣	طنطا	١٤
٢٢	٢٤٢	١٣	جناح بحرى	١٥
٢٠	٢٠٠	١٢	جهاد بيكر	١٦
٢٠	١٧٧	١١	واشنطن	١٧
٢٠	١٧٧	١١	شاهين دريا	١٨
٢٠	١٧٧	١١	الصاعقة	١٩
٢٠	١٧٧	١١	تمساح	٢٠
١٦	١٣٨	١١	شاهد جهاد	٢١
١٦	١٣٨	١١	شهباز جهاد	٢٢
١٦	١٣٨	١١	بادى جهاد	٢٣
١٤	١٣٨	١١	امريكان	٢٤
١٢٠٤	١١٨٢٠	٤٣٩		

احصاء سنة ١٨٣٩

للدكتور كلوت بك

وقد أحصى الدكتور كلوت بك عدد السفن الحربية سنة ١٨٣٩ وهى السنة التى وضع فيها كتابه (١) واحصاؤه يختلف قليلا عن احصاء المسيو مانجان وفيه زيادة ظاهرة فى عدد السفن

(١) طبع الكتاب سنة ١٨٤٠ لكن لا بد أن يكون قد انتهى المؤلف من تأليفه

- احصاء اجمالي -

فقد ذكر ان الدونمة المصرية تتألف من السفن الآتية (١)

بارجة كبيرة	١١
فرقاطات	٧
سفن من طراز الكورفت	٥
من طراز الابريق	٩
قطعة	٣٢

وان مجموع جنودها بلغ ١٦٠٠٠ رجل، وهذا بيان احصائه لاسماء السفن وعدد رجالها

اسم السفينة	عدد رجالها
١ - مصر	١٠٩٧
٢ - عكا	١١٤٨
٣ - المحلة الكبرى	١٠٣٤
٤ - المنصورة	١٠٣٤
٥ - الاسكندرية	١٠٣٤
٦ - ابو قير	٧٣٦
٧ - رشيد	٥١٠
٨ - البحيرة	٥١٠
٩ - شيرجهاد	٥١٠

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٢٧٦ (٢٥٢ من الاصل الفرنسي)

(كفر الشيخ) غير موجودة في احصاء كلوت بك لانها اسرت اثناء
حرب الاناضول سنة ١٨٣٩ إذ اسرتها العمارة التركية
في مياه قبرص

(واسطه جهاد) غير موجودة في احصاء كلوت بك

٤٧٠	١٠ — دمياط
٩٧	١١ — سمند جهاد
١٨٣	١٢ — طنطا
١٥٩	١٣ — جناح بحرى
١٥٩	١٤ — جهاد بيكر
١١٥	١٥ — واشنطن
١١٥	١٦ — شاهين دريا
١١٥	١٧ — الصاعقة
٩٧	١٨ — تمساح
شاهد جهاد (غير موجودة في احصاء كلوت بك)	
٩٧	١٩ — شهباز جهاد
١٥٩	٢٠ -- بلنك جهاد

امريكان (غير موجودة في احصاء كلوت بك)

بيان السفن الواردة في احصاء كلوت بك ولم ترد في احصاء الميسو مانجان

عدد رجالها	اسم السفينة
١٠٣٤	٢١ — حمص
٩٠٠	٢٢ — بيلان
١٠٣٤	٢٣ — حلب

عدد رجالها	اسم السفينة
١٠٣٤	٢٤ — الفيوم
١٠٣٤	٢٥ — بنى سويف
٥٥٨	٢٦ — المنوفية
١٥٢	٢٧ — وابور النيل
٢٦٢	٢٨ — دمنهور
٥٢	٢٩ — وابور الجوكا
٢٧	٣٠ — الوابور الجديد
١٧	٣١ — وابور بولاق
٢٩	٣٢ — قوطر نمرة ١
٣١	٣٣ — قوطر نمرة ٢
<hr/> ١٥٥٤٣	

احصاء سنة ١٨٤٣

لاسماعيل باشا سرهنك

وأورد اسماعيل باشا سرهنك (ج ٢ ص ٢٥٣) احصاءً أوفى من الاحصائين المتقدمين ، يتضمن بيان السفن الحربية فى عهد سر عسكرية سعيد باشا أى سنة ١٨٤٣ ، ومحل انشاءها وتاريخها واسماء قباطينها وعدد مدافعها وعدد رجالها ومقاساتها وابعادها ، وقد ذكر أنه اخذ هذا البيان من وثيقة مكتوبة بيد المرحوم حسن باشا الاسكندراني ناظر ترسانة الاسكندرية وجدها عند ابنه محسن باشا ، وهالك احصاءه وقد رتبنا اسماء السفن بحسب ترتيب احصاء مانجان وكوت بك لسهولة المقابلة

اسم السفينة	محل انشاءها	اسم قبودانها في زمن	عدد المدافع	عدد رجالها
١ - مصر	الاسكندرية	شنان قبودان (١)	١٠٦	١٠٩٧
٢ - عكا	»	عثمان بك قاح	١٠٦	١١٤٨
٣ - المحلة الكبرى	»	بوزجه اطة لي خليل بك	١٠٠	١٠٣٤
٤ - المنصورة	»	طاهر قبودان	١٠٠	١٠٣٤
٥ - الاسكندرية	»	جر كس محمود (٢)	١٠٠	١٠٣٤
٦ - ابوقير	»	حافظ خليل	٨٤	٧٣٦
٧ - رشيد	تريستا	السيد على	٦٠	٥١٠
٨ - البحيرة	»	كاور خوشد	٦٠	٥١٠
٩ - شيرجهاد	ليفورن	نورى قبودان بك	٦٠	٥١٠
كفر الشيخ (لم ترد في احصاء اسماعيل باشا سرهنك لانها أسرت كما أسلفنا)				
١٠ - واسطة جهاد	جزائر الغرب	دلى محمد خورشيد قبودان	٢٨	١٨٦
١١ - دمياط	اسكندرية	محمد هدايت قبودان	٥٦	٤٧٠
١٢ - سمند جهاد	مرسيليا	احمد شاهين قبودان	١٨	٨٩
١٣ - طنطا	اسكندرية	دلى خسرو قبودان	٢٨	١٨٦
١٤ - جناح بحرى (٣)	جنوه	زينل قبودان	٢٤	١٨٥
١٥ - جهاد بيكر	جنوه	حسن اباطه قبودان	٢٤	١٨٥
واشنطن (غير موجودة في احصاء اسماعيل باشا سرهنك)				

(١) احد خيريجي البعثات

(٢) لعله محمود نامى بك أحد خيريجي البعثات لانه كان يلقب بجر كس ، وقد ذكرنا في الفصل الثاني عشر انه كان محافظا لبيروت لغاية سنة ١٨٤٠ في عهد الحكم المصرى

(٣) كانت معدة لتعليم تلاميذ البحرية

اسم السفينة	محل انشائها	اسم قبودانها	عدد المدافع	عدد رجاها
١٦ - شاهين دريا	(غير موجودة في احصاء سرهنك باشا)			
١٧ - صاعقة	ليفورن	طاهر قبودان	٢٤	٨٨
١٨ - تمساح	مارسليا	غير معروف	١٦	٨٨
١٩ - شاهد جهاد	اسكندرية	ابراهيم قبودان	٢٤	١٨١
٢٠ - شهباز جهاد	مارسيليا	حسن الارناءود قبودان	١٨	٨٨
٢١ - بادى جهاد	امريكا	غير معروف	٢٤	٨٩

امريكان (غير واردة في احصاء اسماعيل باشا)

السفن الواردة في احصاء سرهنك باشا ولم ترد في احصاء مانجن ووردت في احصاء كلوت بك

٢٢ - حمص	اسكندرية	عثمان بوتي بك	١٠٠	١٠٣٤
٢٣ - بيلان	»	حسين شرين بك	٨٦	٩٠٠
٢٤ - حلب	»	ازميرلى محمد قبودان	١٠٠	١٠٣٤
٢٥ - الفيوم	»	عبد اللطيف بك	١٠٠	١٠٣٤
٢٦ - بنى سويف	»	الامير محمد سعيد باشا	١٠٢	١٠٣٤
٢٧ - منوف	»	عثمان بوتي قبودان (١)	٦٤	٥٥٨
٢٨ - النيل	انجلترا	غير معروف	٦	٥٢
٢٩ - دمنهور	اسكندرية	مرجان قبودان	٢٦	١٨٦
٣٠ - غوات جديد (نوطر ٢)	»	سرهنك قبودان	١٢	٥٢
			<u>٥٩٦</u>	<u>٥٨٨٤</u>

(١) اسم مكرر ، فقد ورد انه قبودان البارجة حمص ، ولعله اسم لعلمين لانه مذکور بلقب بك بالنسبة لخص ومن غير هذا اللقب بالنسبة لمنوف

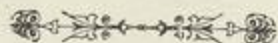
السفن الواردة في احصاء سرهنك باشا ولم ترد في احصاء مانجان ولا في كلوت بك

اسم السفينة	محل انشائها	اسم قبودانها	عدد المدافع	عدد رجالها
٣١ - الجعفرية	ليفورن	برغمه لى احمد قبودان	٦٠	٥١٠
٣٢ - رهبر جهاد	مارسليا	على رشيد قبودان	٣٠	٢٠٠
٣٣ - بومبه	تريستا	بيجان قبودان	٤٥	٣٠٠
٣٤ - بلنك جهاد	مارسليا	(غير معروف)	٢٤	١٨٥
٣٥ - فوه	اسكندرية	مرجان قبودان	٢٤	١٨٥
٣٦ - ابريق نمرة ٢	امريكا	الياس قبودان	١٨	٨٩

١٦٨٠١ ١٨٥٧

المجموع

ويتبع هذا الاحصاء ثلاث بواخر وهى الوابور (برواز بحرى) والوابور (اسيوط) والوابور (جيلان)



الفصل الثاني عشر

التعليم والنهضة العلمية

إذا ذكرت حسنات محمد على كان من أجل أعماله توجيهه جزءا كبيرا من جهوده الى احياء العلوم والآداب في مصر ، وذلك بنشر المدارس على اختلاف درجاتها ، وإرسال البعثات العلمية الى أوروبا ، وقد اتبع في هذا السبيل تلك الفكرة التي اتبعها في انشاء الجيش والاسطول ، ذلك انه اقتبس النظم الأوروبية الحديثة في نشر لواء العلم والعرفان ، فأسس المدارس الحديثة ، وأخذ من الحضارة الأوروبية خير ما انتجته العلوم والقرايح ، قهض بالافكار والعلوم في مصر نهضة كبرى كانت أساس تقدم مصر العلمي الحديث

عنى محمد على بنشر التعليم على اختلاف درجاته من عال وثانوى وابتدائى ، ويتبين من مقارنة تاريخ المنشآت العلمية أنه عنى أولا بتأسيس المدارس العالية وايفاد البعثات ، ثم وجهه نظره الى التعليم الابتدائى ، ونعم ما فعل ، لأن الأمم إنما تنهض أولا بالتعليم العالى الذى هو أساس النهضة العلمية

وقد اراد بادئ الأمر أن يكون طبقة من المتعلمين تعلموا عاليا يستعين بهم فى القيام بأعمال الحكومة والعمران فى البلاد ، وفى نشر التعليم بين طبقات الشعب ، وهذا هو التدبير الذى برهنت التجارب على انه خير ما تنهض به الأمم ، وقد ساعد على تكوين طبقة تعلمت تعلموا عاليا قبل انشاء المدارس الابتدائية والثانوية ان الازهر كفل امداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطا يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية فى مصر أو فى أوروبا ، فكان الازهر خير عضد للتعليم العالى

مدرسة الهندسة بالقلعة

ويبدو لنا أن أول ما فكر فيه محمد علي من بين المدارس العالية مدرسة الهندسة ، وهذا يدل على الجانب العملي من تفكيره ، فإنه رأى البلاد في حاجة إلى مهندسين لتعهد أعمال العمران فيها ، فبدأ بتعليم الهندسة

وظاهر مما ذكره الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) أن أول مدرسة للهندسة بمصر يرجع عهد تأسيسها إلى تلك السنة ، وذلك أن أحد « أبناء البلد » على حد تعبير الجبرتي ، واسمه حسين شلبي عجوة ، اخترع آلة لضرب الارز وتبييضه ، وقدم نموذجها إلى محمد علي ، فأعجب بها وانعم على مخترعها بمكافأة ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة في دمياط ، وأخرى في رشيد ، فكان هذا الاختراع باعثاً لتوجيه فكره إلى إنشاء مدرسة للهندسة ، فأنشأها في القلعة

رواية الجبرتي

قال الجبرتي : إن الباشا لما رأى هذه « النكتة » من حسين شلبي هذا قال إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية (بالقلعة) ، ورتب فيه جملة من أولاد البلد ، ومماليك الباشا ، وجعل معلمهم حسن افندي المعروف بالدرويش الموصل ، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات ، والارتفاعات ، واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومي (تركي) يقال له روح الدين افندي ، بل واشخاصاً من الافرنج ، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من اشغال الانجليز يأخذون بها الابعاد والارتفاعات والمساحة ، ورتب لهم شهرات وكساوى في السنة ، واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب ، وسموه مهندسخانة في كل يوم من الصباح إلى بعد الظهر ، ثم ينزلون إلى بيوتهم

ويخرجون في بعض الايام الى الخلاء لتعلم مساحات الاراضى وقياساتها بالاقصاف وهو الغرض المقصود للباشا »

فهذه بعينها هى مدرسة الهندسة أو المهندسخانة بما فيها من دروس الرياضة والهندسة وما اليها ، وتلاميذها يتعلمون مجاناً وترتب لهم رواتب شهرية وكسوى ، ولها اساتذة من امثال حسن افندى الدرويش الموصلى وروح الدين افندى « بل واشخاص من الافرنج » كما يعبر الجبرتي

وقد عاد الجبرتي الى الكلام عن هذه المدرسة فى ترجمة حسن افندى الدرويش المتوفى سنة ١٢٣١ فقال

« لما رغب الباشا فى انشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة تعين المترجم رئيسا ومعلما لمن يكون متعلما بذلك المكتب ، وذلك انه تداخل بتحولاته لتعليم ممالك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك ، ورتب له خروجا وشهرية ونجب تحت يده المالك فى معرفة الحسابيات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بان يفرد مكانا للتعليم ، ويضم الى ممالكه من يريد التعليم من اولاد الناس ، فأمر بانشاء ذلك المكتب وأحضر اليه اشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلسكية من بلاد الانكليز وغيرهم ، واستجلب من اولاد البلد ما ينيف على الثمانين شخصا من الشبان الذين فيهم قابلية للتعليم ، ورتبوا لكل شخص شهرية وكسوة فى آخر السنة ، فكان يسعى فى تعجيل كسوة الفقير منهم ليتجمل بها بين اقاربه ، ويواسى من يستحق المواساة ، ويشترى لهم الخمر مساعدة لطلوعهم ونزولهم الى القلعة ، فيجتمعون للتعليم فى كل يوم من الصباح الى بعد الظهر ، واضيف اليه آخر حضر من اسلامبول له معرفة بالحسابيات والهندسيات لتعليم من يكون اعجميا ليعرف العربية مساعدا للمترجم فى التعليم يسمى روح الدين افندى ، فاستمر نحو من تسعة اشهر ومات المترجم وانفرد برياسة المكتب روح الدين افندى » هذا ما ذكره الجبرتي ، ومنه يؤخذ قطعا ان اول مدرسة للهندسة انشئت سنة ١٨١٦ بالقلعة ، وبذلك تكون هذه المدرسة اول مدرسة عالية انشئت فى

عصر محمد علي ، لان المدارس الأخرى انشئت بعد ذلك التاريخ ، ويؤخذ من كلام الجبرتي ان التعليم فيها كان مجانيا ، وكانت الحكومة تؤدي رواتب شهرية لتلاميذها ، وكذلك كان شأنها في كل المدارس التي انشأتها ، ويفهم ايضا من كلام الجبرتي ان انشاء هذه المدرسة راجع الى مآثر من المصريين من المواهب في الكفاءة والابتكار ، فان مآثر محمد علي من حسين شلبي إذ وفق الى هذا الاختراع ، او « النكتة » كما يقول الجبرتي ، جعله يفكر في انشاء المدرسة ، فحسن استعداد المصريين وذكوهم الفطري كانوا من اعظم مآثر محمد علي الى انشاء المدارس في مصر

ويحصل من رواية الجبرتي ان مدرسة الهندسة كان بها مدرسون من الافرنج ، ولعل هذه المدرسة هي التي يشير اليها الأمر الصادر من محمد علي باشا بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٣٥ (١٢ سبتمبر سنة ١٨٢٠) الى كتحدايك بتعيين احد القسس لاعطاء دروس في اللغة الطليانية والهندسة لبعض تلامذتها وان يخصص له محل للتدريس في القلعة ، واليها ايضا يشير الأمر الصادر بتاريخ ١٦ سبتمبر من تلك السنة بتعيين الخواجه قسطنطين مدرسا بمدرسة المهندسخانة لتدريس الرياضة والرسم بها

مدرسة المهندسخانة ببولاق

والظاهر ان مدرسة القلعة لم تف على مر السنين بحاجات البلاد الى المهندسين ، او ان برنامجها لم يكن وافيا بالمرام ، فانشأ محمد علي في سنة ١٨٣٤ مدرسة أخرى للمهندسخانة في بولاق ، وعين ارتين افندي احد خريجي البعثات العلمية وكيلا لها ، ثم تولى نظارتها يوسف حاككي ن افندي احد خريجي البعثات ايضا ، وفي سنة ١٨٣٨ اسندت نظارتها الى الميسو لاميير بك لغاية سنة ١٨٤٩ إذ تولاها على مبارك بك (باشا) ، وهذه المدرسة من اجل وانفع المدارس التي انشأها

محمد علي باشا ، ومنها تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة ، ومن اشهر اساتذتها في ذلك العهد طائل افندى ، ومحمد بيومى افندى ، ومحمد بك ابوسن ، ومحمود باشا الفلكى ، ودقلة بك ، وابراهيم بك رمضان ، واحمد بك فايد وسلامة باشا

مدرسة الطب

اسس محمد علي مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ اجابة لاقتراح الدكتور كلوت بك ، وكان مقرها في اول عهدها بابى زعبل لوجود المستشفى العسكرى بها من قبل ، فانشئت المدرسة بالمستشفى إذ كان أليق مكان في ذلك الحين لا يواءم المدرسة لتوافر وسائل التعليم الطبى والتمرين ، والغرض منها تخريج اطباء المصريين للجيش ، ثم صار الغرض عاما بان صار الاطباء يؤدون الاعمال الصحية للجيش والبلاد عامة

واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الازهر ، وتولى ادارتها وإدارة المستشفى الدكتور كلوت بك ، فاختار لها طائفة من خيرة الاساتذة الاوروبيين ومعظمهم من الفرنسيين يدرسون علوم التشريح والجراحة ، والامراض الباطنية ، والمادة الطبية ، وعلم الصحة ، والصيدلة ، والطب الشرعى ، والطبيعة ، والكيمياء ، والنفات ، وكان فيها اساتذة آخرون لتدريس اللغة الفرنسية للتلاميذ الازهرين

وقد بذل كلوت بك جهودا صادقة للنهوض بالمدرسة والسير بها الى ذروة الجاه ، واعترضته صعوبات جمة واهمها لغة التعليم ، فقد كان المقرر جعل التعليم باللغة العربية ، ولكن الاساتذة كانوا يجهلون تلك اللغة ، فاختر لهم مترجمون يجيدون اللغتين الفرنسية والعربية ، فكان المدرس يأتى الى الفرقة ، ومع المترجم فيلقى الدرس بالفرنسية وينقله المترجم الى العربية ، ويكتبه التلاميذ بخطوطهم في كرايسهم

ثم صار المترجمون يُختارون من بين أوائل تلاميذ المدرسة الذين تعلموا اللغة الفرنسية في ساعات فراغهم وفي معهد الحق خصيصا بالمدرسة لتعلم تلك اللغة لكن هذا المعهد لم يلبث ان ألغى وألحق بالمستشفى حديقة للنبات فيها كل ماتنتبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة

وبعد خمس سنوات من انشاء المدرسة تخرجت الطائفة الأولى من تلاميذها ، فوزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش ، واختير من بينهم المتفوقون على أقرانهم وهم عشرون ، فأبقى منهم ثمانية في المدرسة في وظيفة معيدين للدروس ، وأرسل الاثنا عشر الباقون الى باريس لاتقان علومهم واتمامها ، فلما عادوا عينوا اساتذة في المدرسة ، وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الرابعة كما سيجيء بيازه

ذكر المسيو (مانجان) ان عدد تلاميذ مدرسة الطب بلغ (سنة ١٨٣٧) ١٤٠ طالبا و ٥٠ طالبا في مدرسة الصيدلة ، ووصف مستشفى ابى زعبل ، فقال إنه احتوى ٧٢٠ سريرا ، وان غرفه مرسقة تنسيقا بديعا ، يتخللها الهواء الطلق ، وتسودها النظافة حيث عهد الى مدرسى مدرسة الطب ملاحظة خدمة المستشفى فجمعوا بين التدريس وملاحظة المستشفى

ثم نقلت المدرسة ونقل معها المستشفى الى مصر سنة ١٨٣٧ ، واختير لها (قصر العينى) فصارت المدرسة والمستشفى أقرب الى القاهرة وادعى الى نشر التعليم الطبى ومعالجة المرضى

مدرسة الصيدلة ومدرسة الولادة

والحققت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة ، ثم مدرسة للقبالات والولادة واختيرت لهذه الاخيرة طائفة من السودانيات والحبيشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفى الولادة والحق بمدرستهن مستشفى صغير للنساء ثم نقلت المدرسة من ابى زعبل الى القاهرة

كلوت بك

هو كما ترى صاحب الفضل الكبير على النهضة الطبية الحديثة في مصر ، ولد في مدينة جرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣ من أبوين فقيرين ، ولما ترعرع اكب على الدرس على ما كان فيه من عوز وفاقة ، وتعلم الطب واضطر ان يشتغل صبيًا عند حلاق بمرسلها ليتابع دروسه ، ولم يزل مكبًا على تعلم الطب الى ان اخذ اجازته وعين طبيبًا نانيًا في مستشفى الصدقة بمرسيليا ، ثم انفصل عن هذا المنصب ومارس مهنة الطب في تلك المدينة الى ان تعرف الى تاجر فرنسي كان محمد علي عهد اليه بان يختار له طبيبًا للجيش المصري ، فرغب اليه قبول هذه المهمة فرضى بها وجاء مصر سنة ١٨٢٥ ، وكان على اخلاق فاضلة وعزيمة صادقة ، فعهد اليه محمد علي تنظيم الادارة الصحية للجيش المصري المنشأة حوالي سنة ١٨٢٠ (١) ، وجعله رئيس اطباء الجيش ، فعنى بتنظيم هذه الادارة عناية تامة ، ولما كانت (الخانكة) حين مجيئه الى مصر مقرا للمعسكر العام للجيش اشار على محمد علي باشا با إنشاء مستشفى عسكري بابي زعبل بجوار المعسكر العام . فأنفذ محمد علي اقتراحه وانشأ المستشفى الذي صار فيما بعد مستشفى عامًا لمعالجة الجنود وغيرهم ونموذجًا للمستشفيات التي انشئت من بعده ، ثم خطر له ان ينشئ بجوار المستشفى المذكور مدرسة لتخريج الاطباء من ابناء البلاد ، فعمل محمد علي باقتراحه وانشأ بابي زعبل سنة ١٨٢٧ مدرسة الطب التي صارت مبعث النهضة الطبية في مصر ، وتولى كلوت بك ادارتها ثم نقلت المدرسة ومعها المستشفى الى قصر العيني سنة ١٨٣٧ كما رأيت في سياق الكلام ، ولكلوت بك كثير من المؤلفات الطبية ترجم معظمها خرمجو مدرسة الطب ، وقد أسس مجلسًا للصحة على النظام الفرنسي كان له فضل كبير في النهوض بالحالة الصحية للبلاد ، وعنى بتنظيم المستشفيات وانشأ مجلس الصحة البحري في الاسكندرية

(١) كما ذكر ذلك لدكتور نيرتسوس بك Neroutsons bey في كتابه (نظرة .

وقد بذل جهودا صادقة في ترقية حالة البلاد الصحية ومقاومة الأمراض ، وهو الذى أشار باستعمال تطعيم الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض فى القطر المصرى بعد ان كان يودى بحياة نحو ستين ألفا من الاطفال كل عام ، وكافح هو وتلاميذه وباء السكوليرا الذى وقع بمصر سنة ١٨٣٠ ، وقد سر محمد على لما بذله من جهود فى مقاومة هذا الوباء فأنعم عليه بالبكوية فصار يعرف بكوت بك

وبذل ايضا جهودا كبيرة فى مقاومة الطاعون الذى حل بالبلاد سنة ١٨٣٥ وأنعم عليه لهذه المناسبة برتبة أمير لواء

ولما تولى عباس باشا الأول اضمحلت مدرسة الطب وعاد كلوت بك الى فرنسا ، ثم اقبلت المدرسة فى عهد سعيد باشا وانتظم تلاميذها فى سلك الجيش ، غير ان سعيد باشا عاد واعتزم فتحها فاستدعى كلوت بك من فرنسا واعيد فتح المدرسة سنة ١٨٥٦ باحتفال نخم ، غير ان كلوت بك قد ضعفت صحته فارتحل الى فرنسا سنة ١٨٥٨ وأقام بها الى أن وافته منيته فى اغسطس سنة ١٨٦٨

مدرسة الاسن

انشئت سنة ١٨٣٦ مدرسة (الاسن) بالازبكية (مكان فندق شبرد الآن) وهى التى تولى نظارتها رفاعة بك رافع وسيجىء الكلام عنها فى ترجمته بقية المدارس العالية والخصوصية

مدرسة المعادن بمصر القديمة أسست سنة ١٨٣٤

مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب أسست سنة ١٨٣٧

مدرسة الفنون والصنائع (وتسمى مدرسة العمليات) أسست سنة ١٨٣٩ وتولى نظارتها يوسف حككيان بك

مدرسة الصيدلة بالقلعة أسست سنة ١٨٢٩

مدرسة الزراعة ببنبرود، ثم نقلت الى (شبرا) سنة ١٨٣٦ ، ثم ألغيت سنة ١٨٣٩ مدرسة الطب البيطرى ، انشئت أولا برشيد ثم نقلت الى ابى زعبل بالقرب

من مدرسة الطب ، ثم الى شبرا وتولى ادارتها المسيو هامون
المدرسة التجهيزية (الثانوية) بابي زعبل ، ثم نقلت الى الازبكية
المدرسة التجهيزية بالاسكندرية

المدارس الحربية والبحرية

تسكلما عنها فى الفصل العاشر والحادى عشر

ديوان المدارس

(وزارة المعارف العمومية)

لما تقدمت المدارس العالية والخصوصية التى انشأها محمد على واتسع نطاقها
رأى ان يفتى لها ادارة خاصة سميت (ديوان المدارس) سنة ١٨٣٧ ، وكان
موجودا من قبل باسم (مجلس شورى المدارس) ، وقد ساعد على تنظيم هذه
الادارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم الى مصر ، فرأى محمد على أن يهيى لهم
الفرصة للانتفاع بمواهبهم فى تنظيم نهضة التعليم فأسس (ديوان المدارس) ، واستند
رياسته الى أمير اللواء (مصطفى مختار بك) أحد خريجي البعثة الأولى ، فكان
هذا الديوان أول وزارة للمعارف فى مصر ، وقد توفى مختار بك سنة ١٨٣٨ وخلفه
سنة ١٨٣٩ أمير اللواء أدهم بك (باشا) وهو ذلك الضابط القدير الذى كان مديرا
لترسانة القلعة ، وتكلمنا عنه آنفا ، وبقي يتولى هذا المنصب الى سنة ١٨٤٩

وكان لديوان المدارس مجلس مؤلف من مصطفى مختار بك رئيسا ، ومن الأعضاء
الآتية اسماؤهم : كلوت بك ، كيافى بك ، ارتين بك ، اسطفان بك ، حكيان بك
فارين بك ، رفاعه رافع بك ، محمد بيومى افندى ، لامبير بك ، هامون بك ، دوزول
وبعض هؤلاء الأعضاء من خريجي البعثات المصرية

وقد قرر هذا المجلس تنظيم التعليم بالمدارس ، ووضع لائحة لنشر التعليم
الابتدائى تشمل ٢٧ مادة ذكر فيها ضرورة انشاء خمسين مدرسة ابتدائية ، منها
٤ بالقاهرة ، وواحدة بالاسكندرية ، والباقي فى أنحاء القطر المصرى لنشر التعليم بين

طبقات الأمة ، وقضت هذه اللائحة بان يكون عدد التلاميذ بكل مدرسة بمصر
والاسكندرية ٣٠٠ تلميذ ، وبكل مدرسة من مدارس الاقاليم ١٠٠ تلميذ
فديوان المدارس إذن هو مبتكر نظام التعليم الابتدائي في مصر ، ولذلك
يلاحظ ان معظم المدارس الابتدائية (وتسمى مكاتب) انشئت سنة ١٨٣٧ أو بعدها

المدارس الابتدائية

وهناك اسماء المدارس الابتدائية التي انشئت في عصر محمد علي مرتبة بحسب
المديريات (١)

البحيرة

مدرسة الرحمانية ، مدرسة النجيلة وشبراخيت ، مدرسة دمنهور (ثم احيلت
على مدرسة الرحمانية)

الغربية

مدرسة ابيار ، مدرسة المحلة الكبرى ، مدرسة زقني ، مدرسة شربين ، مدرسة
طنطا ، مدرسة فوه ، مدرسة الجعفرية ، مدرسة نبروه

المنوفية

مدرسة اشمون جريس ، مدرسة شبين الكوم ، مدرسة منوف (ثم احيلت
على مدرسة اشمون جريس)

الدقهلية

مدرسة المنصورة ، مدرسة ميت غمر ، مدرسة المنزلة ، مدرسة صهرجت ،
مدرسة فارسكور ، مدرسة محلة دمنه

(١) راجع كتاب (التعليم العام في مصر) ليمقوب ارتين باشا (بالفرنسية)
ص ١٧٦ طبعة سنة ١٨٩٠ ، وكتاب (التعليم في مصر) لامين سامي باشا ص ٣٤ ملحق ٥

الشرقية

مدرسة الرقازيق ، مدرسة العزيزية ، مدرسة بابيس ، مدرسة كفور نجم ،
مدرسة ميت العز

القليوبية

مدرسة بنها ، مدرسة قليوب ، مدرسة الخانكة (ثم نقلت الى السيده زينب)
مدرسة ابى زعبل ، مدرسة طوخ

الجيزة

مدرسة حاو ان

الفيوم

مدرسة الفيوم

بنى سويف

مدرسة بنى سويف ، مدرسة بوش

المنيا

مدرسة المنيا ، مدرسة القشن ، مدرسة بنى مزار

اسيوط

مدرسة اسيوط ، مدرسة ابوتيج ، مدرسة الساحل ، مدرسة ساقية موسى ،
مدرسة سنبلو ، مدرسة ملوى ، مدرسة منفلوط

جرجا

مدرسة اخميم ، مدرسة جرجا ، مدرسة سوهاج ، مدرسة طهطا .

قنا واسنا

مدرسة قاهوله ، مدرسة قنا ، مدرسة فرشوط ، مدرسة اسنا

ويلاحظ ان معظم المدارس الابتدائية قد الغيت في اواخر عهد محمد علي
وكان التعليم في المدارس كافة عالية وتجهيزية وابتدائية مجانية ، والحكومة
تنفق على التلاميذ من مسكن وغذاء وملبس ، وتجري على كثير منهم الارزاق
والمرتبات ، ولكن لم يكن الاهالى في بدء افتتاح المدارس راضين عن ادخال
ابنائهم فيها ، بل كانوا نافرين منها نفورهم من الجندية ، فكانت الحكومة
تدخلهم المدارس في غالب الاحيان بالقوة ، ولكن مالبث الاهلون أن رأوا ثمرات
التعليم فكفوا عن المعارضة في تعليم ابنائهم في المدارس وأقبلوا عليها
وذكر كلوت بك (١) ان عدد التلاميذ بمدارس القطر المصري قاطبة بلغ
على عهد محمد علي ٩٠٠٠ تلميذ تتولى الحكومة الانفاق على تعليمهم وسكنهم وغذائهم
وملبسهم وتؤدى لهم رواتب ضئيلة

البعثات العلمية

وجه محمد علي همه الى ايفاد البعثات المدرسية الى اوروبا ليلم الشباب
المصريون دراستهم في معاهدها العلمية ، وهذه الفكرة تدل على ناحية من نواحي
عبقريه محمد علي باشا ، فهو لم يكتف بان يؤسس المدارس والمعاهد العلمية بمصر
ليتلقي فيها المصريون العلوم التي تنهض بالمجتمع المصري ، بل اعتزم ان ينقل الى
مصر معارف اوروبا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصنائع والفنون
فيها ، وأراد ان تضارع مصر أوربا في مضار التقدم العلمى والاجتماعى ، فقصد
من إرسال البعثات تكوين فئة من المصريين المثقفين لا يقلون عن أرقى طبقة
مهذبة في أوروبا

وأراد من جهة أخرى أن تجد مصر من خريجي هذه البعثات كفايتها من الملمين في مدارسها العالية ، والقواد والضباط لجيشها وبحريتها ، ومهندسيها والقائمين على شؤون العمران فيها وإدارة حكومتها لكيلا تكون مع الزمن عالة على أوروبا من هذه الناحية

ولوتأملت مليا في العصر الذي نشأت فيه هذه الفكرة واختلجت في نفس محمد علي لعجبت لعبقريته كيف انبثت هذا المشروع ، ففي ذلك العصر لم يفكر حاكم شرقي ولا حكومة شرقية في إيفاد مثل هذه البعثات ، وهذه تركيا وسلاطنتها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد علي لم تفكر حينذاك أصلا في إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوروبية ، فصدور هذه الفكرة ، في ذلك العصر ، وفي الوقت الذي كان محمد علي مشغولا فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدل حقيقة على عبقرية نادرة وهمة عالية

الارساليات الاولى

ابتدأ محمد علي يرسل الطلبة المصريين إلى أوروبا حوالي سنة ١٨١٣ وما بعدها ، وأول بلاد اتجه إليها فكره إيطاليا ، فأوفد إلى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما وغيرها من المدن الإيطالية طائفة من الطلبة لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغير ذلك من الفنون

وأفراد هذه الرسالة لم يتناولهم الإحصاء الدقيق ، وإنما يعرف منهم (نقولا مسابكي) أفندي الذي أوفده إلى روما وميلانو سنة ١٨١٦ بواسطة المسموروستي قنصل النمسا في مصر ليتعلم فن الطباعة وما إليها من سبك الحروف وصنع قوالبها ، فأقام أربع سنوات ثم عاد إلى مصر فتولى إدارة مطبعة بولاق سنة ١٨٢١ وبقي مديرا لها إلى أن توفي سنة ١٨٣١

ثم اتجه نظر الباشا إلى فرنسا فأرسل إليها طائفة من الطلبة

وكذلك أرسل الى انجلترا بعض التلاميذ لتلقى فن بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه ، والميكانيكا وبلغ عدد هؤلاء جميعا ٢٨ طالبا ، ولم يعرف افراد هذه الارساليات ، وإنما عرف من افراد بعثة فرنسا شاب كان له شأن كبير في تنظيم البعثات الكبرى التي أخذت تتدفق نحو فرنسا وهو عثمان نور الدين افندى الذى صار امبرالا للاسطول المصرى وترجعنا له فى الفصل السابق

البعثات الكبرى

أرسل محمد على أول بعثة من البعثات الكبرى سنة ١٨٢٦ ، وهى مؤلفة من أربعين تلميذا ، ولحق بهم أربعة تلاميذ آخرون فصار عدتهم سنة ١٨٢٨ أربعة واربعين طالبا ، واستمر يرسل الطلاب الى فرنسا فيضمون الى البعثة الأولى وفى سنة ١٨٤٤ أوفد بعثة كبرى من الطلبة لتلقى العلوم والفنون الحربية مؤلفة من سبعين تلميذا اختارهم القائد سليمان باشا الفرنساوى من بين تلاميذ المدارس المصرية ، ثم لحق بهم غيرهم ، وكان بينهم أربعة من الامراء ، منهم اثنان من أبناء محمد على وهما الامير عبد الحليم والامير حسين ، واثنان من أبناء ابراهيم باشا وهما (الخدوي) اسماعيل والامير احمد ، وهذه البعثة الأخيرة انشئت المدرسة المصرية التى تولى ادارتها اسطفان بك واستمرت تؤدى عملها وهو تأهيل الطلبة لاتقان اللغة الفرنسية ومماشة المدارس العليا بفرنسا الى ان اوقلت سنة ١٨٤٨ (١) ، وقد أوفد بعثة صغيرة سنة ١٨٤٧ الى فرنسا من طلبة الازهر لتلقى علم الحقوق فتعلم هؤلاء جميعا بارشاد المسيو جومار (٢) وتحت رعايته ، وأرسل غير هؤلاء بعض التلاميذ الى انجلترا والتمسا

(١) أعيدت فى عهد اسماعيل باشا ثم اوقلت لمناسبة الحرب السبعينية

(٢) راجع ترجمته بالجز الاول ص ١٢٦

قلنا ان الرسائل الثلاث الأولى لم يتناول الإحصاء الدقيق بيان اعضائها ،
ولذلك صار مألوفاً تعداد البعثات ابتداء من بعثة سنة ١٨٢٦ ، ويعد العلامة على باشا
مبارك بعثة تلك السنة « اول رسالة ارسلت الى اوروبا من الديار المصرية في زمن
المرحوم العزيز محمد علي » (١)

عدد طلبة البعثات وما انفق عليهم

وقد بلغ عدد الطلبة جميعا الذين أوفدهم محمد علي الى أوروبا من سنة ١٨١٣
الى سنة ١٨٤٧ — ٣١٩ تلميذا منهم ٢٨ في الرسائل الثلاث الأولى ابتداء من
سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨٢٥ ، و ٢٩١ في البعثات الكبرى ابتداء من سنة ١٨٢٦ ،
فيكون مجموعهم ٣١٩ تلميذا ، وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التي بلغتها
مصر في ذلك العصر ، وعظيم في نتائجه لان هذه البعثات كان لها أوفر قسط في
نهضة مصر الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية
وكما أن عدد تلاميذ هذه البعثات مما يسترعى النظر فانه مما يحسن معرفته مبلغ
النفقات التي تكلفتها ، فقد دل الإحصاء على انها بلغت ٣٠٣٣٦٠ من الجنيهات ،
من ذلك ٣٠٠٠٠ قيمة ما انفق على الرسائل الأولى و ٢٧٣٣٦٠ قيمة ما انفق
على البعثات الكبرى التي ارسلت من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٤٧ ، بما في ذلك
نفقة الامراء انجال محمد علي باشا واحفاده ممن التحقوا بالبعثة الخامسة ، وهو مبلغ
ضئيل بالنسبة للخيرات التي نالتها مصر على أيدي خريجي تلك البعثات

(١) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٨

عناية محمد علي بأعضاء البعثات

ونموذج من رسائله اليهم

وكان محمد علي شديد العناية والاهتمام بأعضاء البعثات ، يتقصى انباءهم ويتتبع احوالهم ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد وينبهم الى واجباتهم ، وقد اورد رفاعة بك رافع نموذجا من رسائله ، وهو كتاب بعثه الى طلبة البعثة الأولى في سبتمبر سنة ١٨٢٩ يدلك على مبلغ عنايته بشأنهم وحثه اياهم على الجد والاجتهاد ، قال فيه مانصه حرفيا : (١)

« قدوة الاماثل السكرام ، الافندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم ، ننهي اليكم انه قد وصلنا اخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المستملة على شغلكم ثلاثة اشهر مبهمه لم يفهم منها ما حصلتكم في هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئا ، وانتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون ، فتمسكوا على قلة شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الامر غمنا كثيرا ، فيا افندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغي لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظنتم انكم تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطل ، فعندنا والله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغي للانسان ان يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل الايفوت الفرصة وان يجنى ثمرة تعبته ، فبناء على ذلك انكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم

(١) نقلا عن تخلص الابرز ص ١٥١

انفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا في المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا اليكم لتمييزوا بين امثالكُم ، فان اردتم أن تكتسبوا رضانا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه في خلاص هذه العلوم ، ويكتب في كل شهر ما يتعلمه في هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وان قصرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو إما من عدم اعتنائكم ، أو من تشويشكم ، وأى تشويش لكم ، هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام انكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقروا هذا الامر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الارادة ، قد كتب هذا الامر في ديوان مصر في مجلسنا في اسكندرية بمكة تعالى ، ففى وصلكم امرنا هذا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه » (٥ ربيع الاول سنة ١٢٤٥)

البعثة الاولى

سنة ١٨٢٦

أرسلت هذه البعثة الى فرنسا في يولييه سنة ١٨٢٦ ، وأخذ اعضاؤها ينتظمون في سلك المدارس الفرنسية ويتلقون العلوم والفنون باشراف الميسو جومار ، وكان عدد البعثة أول ما أرسلت اربعين تلميذا ، ثم لحق بهم اربعة آخرون فصار عدتهم ٤٤ طالبا

رجع منهم خمسة قبل اتمام دروسهم لضعف صحتهم او نقص كفاءتهم ، ووزع الباقون على مختلف العلوم والفنون ، وقد احصاهم الميسو جومار في رسالته المنشورة بالمجلة الاسيوية Journal Asialique (١) وعنه نقلنا اسماءهم

(١) عدد اغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩

وسندكر هنا عددهم و بيان اسمائهم والفروع التى تخصصوا فيها والالقباب التى
حازوها فى المناصب التى تقلدوها بعد تخرجهم من البعثات

٤ - لدراسة الادارة المملكية أو الحقوق

عبدى شكرى (باشا) * (١) ارتين (بك) *

سليم افندى محمد خسرو افندى

٤ - لدراسة الفنون الحربية والادارة العسكرية

مصطفى مختار (بك) * راشد افندى

احمد (بك) * سليمان افندى

٢ - للعلوم السياسية

اسطفان (بك) * خسرو افندى

٣ - للملاحة والفنون البحرية

حسن (باشا) الاسكندرانى * محمود نامى (بك) *

محمد شنان (بك) *

٣ - للهندسة الحربية

محمد مظهر (باشا) * سليمان افندى البحيرى

على افندى

٢ - للمدفعية

عمر افندى سليمان لاظ افندى

٢ - للطب والجراحة

على هيبه * الشيخ محمد الدشطوطى

٢ - للزراعة

يوسف افندى * خليل محمود افندى

(١) * هذه العلامة تدل على انه سيرد الكلام عن ترجمة صاحب الاسم

٣ - للتاريخ الطبيعى والمعادن

على حسين افندى احمد النجدلى افندى احمد افندى

٢ - لهندسة الرى

مصطفى بهجت (باشا) المعروف اصلا بمصطفى محرجى افندى *
محمد بيومى افندى *

١ - للميكانيكا

الشيخ احمد العطار

١ - امام البعثة

الشيخ رفاعه (بك) زافع الذى صار انبه رجال البعثة ذكرا وارفعهم شأننا *

٢ - لصنع الاسلحة وصب المدافع

امين (بك) الكرجى * احمد حسن حنفى

٢ - للطباعة والحفر

حسن افندى الوردانى * محمد اسعد افندى

٤ - للكيمياء

احمد يوسف *

عمر الكومى

يوسف العياضى

احمد شعبان

٢ - بدون تخصيص

احمد افندى

امين افندى

٢ - سافرا الى مرسلية وطولون

قاسم الجندى

حسين افندى

٣ عادوا لمضر لاسباب صحية او لعدم اهليتهم

الشيخ العلوى (١)

ابراهيم وهبه

الشيخ محمد الرقيق

(١) كما وردت اسماؤهم فى رسالة المسيو جومار ص ١١٢ عدد اغسطس سنة ١٨٢٨
من المجلة الاسيوية

البعثة الثانية

سنة ١٨٢٨

ارسلتها الحكومة الى فرنسا أو آخر سنة ١٨٢٨ ، وكانت مؤلفة من ٣٤ تلميذا
مخصص معظمهم في الهندسة والرياضيات ، وتخصص بعضهم في الطبيعيات وبعضهم
في الحربية أو العلوم السياسية أو الطب
وهناك أسماء من تناولهم الاحصاء

٤ - للهندسة والرياضيات

ابراهيم رمضان (بك) * احمد دقلة (بك) *
احمد طائل افندى احمد فايد (باشا) *

١ - للطبيعيات

حسنين افندى على البقل * *

٢ - للإدارة الملكية

حسن جر كس افندى حسين جر كس افندى

٢ - للحربية

خليل جراكيان افندى | عين وكيلا للمدرسة المصرية التي انشئت للبعثة
الخامسة ببافيس عثمان نوري افندى

١ - للعلوم السياسية

عابدين افندى (توفي أثناء تعلمه)

١ - للطب والترجمة

محمد افندى عبد الفتاح *

٢ - واحد من الاحباش وهو واوى بن كلهو ، وواحد من امراء السودان
وهو سلطان ابو مدين

البعثة الثالثة

سنة ١٨٢٩

هذه البعثة تغلب عليها الصبغة الصناعية ، فمعظم أفرادها ارسلاو للتخصص في مختلف الصناعات ، ذلك حين اتجهت عزيمة محمد علي الى انشاء الصناعات الكبرى واقتباس العلوم والفنون الخاصة بالصناعة من المعاهد الأوروبية

ارسلت الحكومة هذه البعثة سنة ١٨٢٩ ، وهي مؤلفة من ثمانية وخمسين تلميذا ، أرسلوا الى فرنسا والنمسا وانجلترا ، وهالك توزيعهم بحسب الفروع التي تخصصوا لها كما ورد في (الوقائع المصرية) عدد ٧٣ (١)

التلاميذ الذين أرسلوا الى فرنسا وعدددهم ٣٤

- | | |
|----------------------------------|---------------------------------|
| ٢ - لتعلم صناعة بصم الشيت | ٢ - لتعلم صناعة الآلات الجراحية |
| ٢ - لتعلم الرى | ٢ - لتعلم صناعة الساعات |
| ٢ - لتعلم صناعة الصياغة والجواهر | ٢ - » » شمع العسل |
| ٢ - » » نسيج الاقشة الحريرية | ٢ - » » النقش والدهان (٢) |
| ٢ - » » صبغ الاجواخ | ٢ - » » السراجة (السروجية) |
| ٢ - » » صنع السيوف | ٢ - » » الشيلان |
| ٢ - » » البنادق والطبنجات | ٢ - » » الاحذية |
| ٢ - » » انشاء السفن | ٢ - » » شمع الاختام |
| ٢ - » » الاجواخ | |

(١) الصادر في ٢٦ ربيع الاول سنة ١٢٤٥ (١٥ اكتوبر سنة ١٨٢٩) ولم تذكر اسمائهم فيه
 (٢) هما محمد افندي مراد ومحمد افندي اسماعيل وقد تكلمنا عنهما في تراجم نوابغ البعثات

التلاميذ الذين ارسلوا الى فينا وعددهم ٤

٤ - لتعلم صناعة نسيج الاجواخ والأكسية المعروفة بالعباءات

التلاميذ الذين ارسلوا الى انجلترا وعددهم ٢٠

٢ - لتعلم صناعة آلات البوصلة وميزان الهواء والنظارات ومقاييس الابعاد
وآلات الدوائر المنعكسة وغير ذلك من الآلات الفلكية

٢ - لتعلم صناعة الآلات الهندسية ٢ - لتعلم صناعة التنجيد والفراشة

١٠ - » » الميكانيكا ٢ - » » الصنفي والفخار

٢ - » » صب المدافع والقنابل وما يتبعها

٥٨

وقد أرسل طلبة هذه البعثة الى اوروبا بمعرفة بوغوص بك وزير التجارة
والشؤون الخارجية

وقد لحق بالتلاميذ العشرين الذين ارسلوا من هذه البعثة الى انجلترا طلبة
آخرون منهم

٣ - لتعلم الفنون البحرية وهم

عبد الحميد (بك) الديار بكري* يوسف اكاه افندي* عبد الكريم افندي*

١ - لتعلم صناعة بناء السفن وهو

محمد راغب (بك)*

١ - للهندسة وهو

يوسف حككيان (بك)

اسماعيل حنفي افندي

١ - لتعلم صناعة السجاجيد وهو

- ٥ - مصطفى السبكي (بك) *
٦ - احمد حسن الرشيدى (بك) *
٧ - عيسوى افندى النحراوى *
٨ - الشيخ حسين غانم الرشيدى *
٩ - محمد افندى السكرى
١٠ - حسين الهياوى افندى
١١ - محمد منصور افندى
١٢ - احمد نجيب افندى

البعثة الخامسة

سنة ١٨٥٤

هى اكبر البعثات التى ارسلت الى فرنسا واعظمها شأنًا ، وهى آخر بعثة كبرى أوفدها محمد على باشا ، وكان فيها بعض انجاله واحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك فى بعض المواطن (بعثة الانجال)

وقد انتخب القمء سليمان باشا الفرنساوى تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية بمصر ، وانتظم فى سلكها بعض المعلمين والوظفين قال على باشا مبارك - وكان أحد أعضاء هذه البعثة - يصف تأليفها وسفرها وابتداء عهدها بالدراسة فى فرنسا

(وفى سنة ١٢٦٠ انتخب سبعة من متقدمى الفرقة الأولى من مدرسة المهندسخانة ببولاق للسفر مع انجال العزيز محمد على باشا الى بلاد فرنسا لتعلم العلوم العسكرية ، فكنت انا من جملتهم ، وكذلك أخذ من غير هذه المدرسة كمدرسة الطوبجية بطرء ، ومدرسة السوارى (الفرسان) بالجيزة ، والمكتب العالى بالخانقاه ، ومدرسة الألسن بالازبكية ، غير من طلب التوجه برغبته من الدواوين (موظفى الحكومة) وخلافها ، فساfrنا ، وأفرد لنا محل مخصوص بباريس ومن يلزم من الضباط والمعلمين ، فأقنا فيه جميعا ، وبعد سنتين انتقل المتقدمون منا فى العلوم الى المدارس الخصوصية ^(١))

(١) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٠

وقال في موضع آخر « في سنة ١٢٦٠ عزم العزيز (محمد علي) على ارسال انجاله الكرام الى مملكة فرنسا ليتعلموا بها ، وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم ، وحضر المرحوم سليمان باشا الفرنساوى الى المهندسخانه فانتخب عدة من تلامذتها ، فكنت فيهم ، وكان ناظرها يومئذ لامبير بك ، فسافرنا الى تلك البلاد ، وجعل مرتبى كل شهر مائتين وخمسين قرشا ماهية كرفتي ، فجعلت نصفها لاهلى يصرف لهم من مصر كل شهر ، وكانت هذه سقنى معهم منذ دخلت المدارس ، فأقما جميعا بباريس سنتين فى بيت واحد مختص بنا ، ورتب لنا المعلمون لجميع الدروس ، والضباط والناظر من جهادية الفرنساوية لاث رسالتنا كانت عسكرية ، وكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم » (١)

فالبعثة كما ترى كان الغرض منها تخصيص اعضائها فى العلوم الحربية ، وعددهم فى مبدئها ٧٠ تلميذا ثم لحق بهم غيرهم ، وقد بلغت نفقات اعضائها ٦١٥ ر٩٤ جنيبها ، وهاك اسماء انبيهم شأننا

من انجال محمد علي

١ - الامير عبد الحليم ٢ - الامير حسين (توفى اثناء تعلمه)

من انجال ابراهيم باشا

٣ - الامير احمد (٢) ٤ - الامير اسماعيل (الخدوى اسماعيل باشا) *

٥ - الشيخ نصر ابو الوفا (امام البعثة) وصاحب كتاب (المطالع النصرى للمطابع المصرية فى الاصول الخطية) وكتاب (تسليمة المصاب على فراق الاحباب)

(١) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٤٠

(٢) هو احمد باشا الذى غرق فى حادثة كفر الزيات المشهورة وكان ولى عهد

سعيد باشا

بقية من تخصصوا للفنون الحربية

- ٦ - محمد شريف (باشا) *
- ٧ - علي مبارك (باشا) *
- ٨ - علي ابراهيم (باشا) *
- ٩ - حماد عبد العاطي (باشا) *
- ١٠ - حسن افلاطون (باشا) ، وكيل وزارة الحربية في عهد توفيق باشا
- ١١ - عثمان صبرى (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٨٩
- ١٢ - علي شريف (باشا) رئيس مجلس شورى القوانين
- ١٣ - اياظه مراد حلمي (باشا)
- ١٤ - محمد عارف (باشا)
- ١٥ - محمد راشد (باشا)
- ١٦ - حسن نور الدين (بك) *
- ١٧ - مصطفى مصطفى مختار افندى
- ١٨ - عبد الفتاح افندى
- ١٩ - حسين كوجك (باشا) *
- ٢٠ - ولي حلمي (بك)
- ٢١ - سليمان نجاتي (بك) مأمور المدارس الحربية ثم قاض بمحكمة اسكندرية المختلطة ثم وكيل محكمة الاستئناف الاهلية سنة ١٨٨٣
- ٢٢ - محمد افندى
- ٢٣ - محمد شاكر افندى
- ٢٤ - احمد عجيله (بك)
- ٢٥ - شافعى رحى (بك)
- ٢٦ - احمد راسخ (بك) مدير الوقائع المصرية ثم مستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٦ وتوفى سنة ١٨٨٥
- ٢٧ - احمد احمد افندى
- ٢٨ - منصور عطيه افندى
- ٢٩ - قيصرلى احمد افندى
- ٣٠ - خليل افندى
- ٣١ - احمد نجيب (باشا)
- ٣٢ - حنفى همد (بك)
- ٣٣ - شحاته عيسى (بك) ناظر مدرسة اركان الحرب في عهد اسماعيل باشا
- ٣٤ - فريد افندى
- ٣٥ - محمد اسماعيل افندى
- ٣٦ - خورشيد افندى
- ٣٧ - صليح افندى
- ٣٨ - محمد خفاجى (بك)
- ٣٩ - حسين سلمان افندى
- ٤٠ - محمد خفاجى (بك)
- ٤١ - حسين سلمان افندى

- ٤٢ - كوجك على افندى
٤٣ - حسن شكيب افندى
٤٤ - صادق سليم (بك) ناظر المهندسخانة في عهد اسماعيل وتوفيق
٤٥ - خورشيد برتو افندى
٤٦ - احمد بك السبكي *
٤٧ - محمد شوقي افندى
٤٨ - لطفي افندى
٤٩ - سعيد نصر (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٩٠٣
٥٠ - اباضه راشد افندى
٥١ - احمد حلمي افندى
٥٢ - علي فهمي (بك)
٥٣ - محمد مصطفى افندى
٥٤ - احمد خير الله (بك) فيما بعد قاض بالمحكمة المختلطة
٥٤ - شاكر افندى
٥٥ - محمد حسن افندى
من تخصصوا للطب والطبيعات
٥٦ - احمد ندا (بك) *
٥٧ - عبد العزيز الهراوي (باشا) مدير دار الضرب في عهد اسماعيل باشا
٥٨ - عبد الرحمن الهراوي (بك) مدرس بمدرسة الطب
٥٩ - ابراهيم السبكي افندى
٦٠ - محمد الفحام افندى
٦١ - مصطفى الواطي (بك) تخصص لطب الاسنان وبعد عودته ترأس قسم
ترجمة الطبيعات بفروعهها في قلم الترجمة وصار وكيل مدرسة الطب
٦٢ - عثمان ابراهيم افندى تخصص لآلب الاسنان وعهد الى الاثنين تدريس
طب الاسنان في مدرسة الطب ومعالجة المرضى في المستشفى
٦٣ - محمد افندى يونس
٦٤ - محمد افندى الشرقاوي
٦٥ - بدوي سالم افندى مدرس الكيمياء والصيدلة بمدرسة الطب
٦٦ - حسن بك هاشم
٦٧ - محمد ابراهيم افندى تخصص في التعدين
٦٨ - علي عيسى افندى

- ٦٩ - ابراهيم جركس (بك) مدرس بمدرسة الطب البيطرى
٧٠ - عبد الهادى اسماعيل افندى ناظر مدرسة الطب البيطرى فى عهد
الخدوي اسماعيل
٧١ - بترو افندى

علوم اخرى

- ٧٢ - محمد صادق (باشا) *
٧٣ - عبد الله السيد بك *
٧٤ - نوبار افندى (هو غير نوبار باشا الوزير المشهور)
٧٥ - اوهان اسطفان افندى
٧٦ - يوسف اسطفان افندى
٧٧ - بولص لابي افندى
٧٨ - اسطفان خشادور افندى (١)
٨٠ - عبد الرحمن محو افندى
٧٩ - ارتين خشادور افندى (١)
٨١ - حسن الشاذلى افندى

البعثة السادسة

ارسلت الى النمسا سنة ١٨٤٥

طب العيون

حسين عوف (باشا) *
ابراهيم ديقى افندى *

الكيمياء الصناعية

مصطفى المجدلى (بك) مدرس بمدرسة قصر العيني

(١) عين احدهما مستشارا لمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٥ وتوفى
سنة ١٨٧٦ كما ورد فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة

البعثة السابعة

سنة ١٨٤٧

هي بعثة مؤلفة من خمسة من طلبة الأزهر، أرسلت الى فرنسا لتعلم الحقوق والوكالة في الدعاوى (المحاماة) وقد ذكرت هذه البعثة في الوقائع المصرية دون بيان اسماء اعضائها

البعثة الثامنة

سنة ١٨٤٧

هي بعثة مؤلفة من واحد وعشرين نجارا أرسلوا الى إنجلترا على ظهر السفينة الحربية المسماة (الشرقية) التي تم انشاؤها في ترسانة الاسكندرية صحبة محمد راغب بك ناظر الترسانة لاتقان فن بناء السفن الحربية، وقد ذكر اسماعيل باشا سرهنك عن هذه البعثة مايلي (١) « انه لما أتمت دار الصناعة المصرية بناء الفرقاطة المسماة (الشرقية) سنة ١٨٤٧ صدر أمر الباشا الى محمد بك راغب الاستانبولى مدير بناء السفن بدار الصناعة بالاسكندرية أن يسافر عليها الى إنجلترا لتصفيحها وتركيب آلاتها البخارية، وأرسل معه واحدا وعشرين نجارا من تجارى دار الصناعة ليتقنوا فن النجارة هناك مدة وجود الفرقاطة المذكورة بإنجلترا ثم عادت وعاد معها هو والنجارون فى السنة المذكورة، وقد ركبت لها آلات بخارية قوة خمسمائة وخمسين حصانا »

البعثة التاسعة

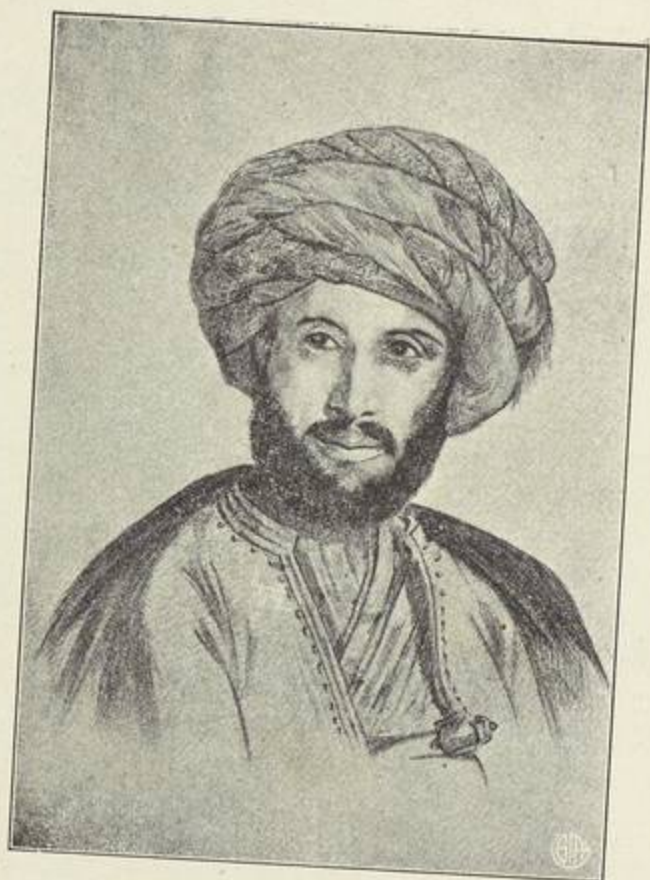
سنة ١٨٤٧

عدد أعضاء هذه البعثة ٢٥ طالبا اختيروا من طلبة مدرسة المهندسخانة المتقدمين لارسالهم الى انجلترا للتخصص في الميكانيكا وبعضهم الى فرنسا واليك اسمائهم

اسماعيل ارناؤوط	حسن افندى ذو الفقار
على صادق (باشا) فيما بعد وزير المالية	احمد افندى المهدي
فيما بعد قاض بمحكمة الاسكندرية	(عثمان عرفى (باشا)
على افندى صالح	(المختلطة ثم محافظ الاسكندرية
عبد الله افندى بيرون	على افندى حسن الاسكنداني
ابراهيم سامى (باشا) فيما بعد عضو	غاتم عبد الرحمن
بقومسيون السكة الحديد	
سليمان افندى سليمان	احمد طلعت افندى
اسماعيل بوشناق افندى	عثمان يوسف افندى
عمر على افندى	سلامه افندى الباز
عثمان دكرورى (بك)	عثمان القاضى افندى
جوده عوض (بك)	سليمان موسى (بك)
كلاهما تعلم بانجلترا و وصل الخط التلغرافى على يدهما الى السودان	
على الفداوى افندى	عباس عبد العزيز
خطاب عبد المغيث افندى	سليمان طه افندى
	عيسى جاهين افندى



Very faint, illegible text or a signature, possibly a name, located below the portrait.



رفاعة بك رافع الطهطاوى
(١٨٧٣ - ١٨٠١)

زعيم نهضة العلم والادب فى عصر محمد على

مقابل ص ٤٧٠

تراجم طائفة من أعضاء البعثات

وما أدوا لمصر من خدمات

نذكر هنا تراجم طائفة من أعضاء البعثات ليكون لدينا فكرة عامة عن تاريخهم وشخصياتهم وما أدوا لمصر من جليل الخدمات ، ولسهولة التبويب رتبناهم طوائف بحسب العلوم والفنون التي تخصصوا لها لا بحسب ترتيب البعثات

التاريخ والجغرافية والادب

رفاعة بك رافع الطهطاوى

زعيم نهضة العلم والأدب

في عصر محمد علي

ولد سنة ١٨٠١ وتوفي سنة ١٨٧٣

مصري صميم ، من اقصى الصعيد ، نشأ نشأة عادية من أبوين فقيرين ، قرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره ، ودخل الازهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار الكثيرون ، لكنه بذل الاقران ، وتفرد بالسبق عليهم ، وتسامت شخصيته الى عليا المراتب ، ذلك انه كان يحمل بين جنبيه نفساً عالية ، وروحاً متوثبة ، وعزيمة ماضية ، وذكاء حاداً ، وشغفا بالعلم ، واخلاصاً للوطن وبفيه ، تهيأت له أسباب الجهد والنبوغ ، فاستوفى علوم الازهر في ذلك العصر ، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد علي ، وارتحل الى معاهد العلم في باريس ، واستروح نسيم الثقافة الاوروبية ، فزادت معارفه ، واتسعت مداركه ، ونفذت بصيرته ، لكنه احتفظ بشخصيته ، واستمسك بدينه

وقوميته ، فأخذ من المدينة الغربية أحسنها ، ورجع الى وطنه كامل الثقافة ، مهذب
الفؤاد ، ماضى العزيمة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان ، عاد وقد اعتزم خدمة
مصر من طريق العلم والتعليم ، فبرأ بوعده ، ووفى بعهده ، واضطلع بالنهضة
العلمية تأليفا وترجمة وتعلما وتربية ، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعارفاته ، وتخرج على يديه
جيل من خيرة علماء مصر ، وحمل مصباح العلم والعرفان يضيء به أرجاء البلاد ،
وينير به البصائر والاذهان ، وظل يحمله نيفا واربعين سنة ، وانتهت اليه الزعامة
العلمية والأدبية في عصر محمد علي ، وامتدت زعامته الى عصر اسماعيل ، ذلك هو
رفاعة رافع الطهطاوى

فلنستعرض تاريخ تلك الشخصية الكبيرة التى ازدان بها عصر محمد علي ،
والتي لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والادبية فى تاريخنا الحديث

نشأته الأولى

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع ، يتصل نسبه بمحمد
الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء بذت الرسول ﷺ ، فهو
من نسل الحسين ، وامه يتصل نسبها بالانصار
ولد فى طهطا بمديرية جرجا ، ولذلك سمي الطهطاوى ، وكانت ولادته
سنة ١٢١٦ هـ (١٨١١ ميلادية)

كان اجداده من ذوى اليسار ، ثم اخنى عليهم الدهر ، فلما ولد المترجم كانت
عائلته فى عسر ، فسار به والده الى (منشأة النيدة) بالقرب من مدينة جرجا ، وأقاما
فى بيت قوم كرام من أقاربه يقال لهم بيت ابى قطنه من ذوى اليسار والمجد ، فأقاما
هناك ، ثم انتقلا الى قنا ، ثم الى فرشوط ، وفى خلال ذلك كان المترجم يحفظ
القرآن ، ولما عاد الى طهطا أتم حفظه ، وأخذ يتلقى مبادئ العلوم الفقهية ، فقرأ
كثيرا من المتون المتداولة فى ذلك العصر على اخواله وهم بيت علم من الانصار

الخزرجية ، وفيهم جماعة من أفاضل العلماء كالشيخ عبد الصمد الانصارى ، والشيخ
ابى الحسن الانصارى ، والشيخ فراج الانصارى والشيخ محمد الانصارى
ثم توفى والده فجاء رفاعة الى القاهرة ، وانتظم فى سلك طلبة الازهر سنة ١٨١٧م
(١٢٣٢ هـ) (١)

دراسته بالازهر

وميله الى الأدب

بدأت عليه مخايل الذكاء والنباهة من صباه ، وكان محبا للعلم والتحصيل ،
ذا عزيمة قوية ، فجاهد فى المطالعة والدرس ، وأخذ العلم عن شيوخ عصره ، وفى
جملة من تلقى عنهم المترجم الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الازهر ، فقد أحبه
لما آتته فيه من الذكاء والاكباب على العلم ، وقربه اليه ، وحفه برعايته ، وكان
الشيخ رفاعة يتردد عليه كثيرا فى منزله ، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ
وكان الشيخ حسن العطار من علماء مصر الاعلام ، وامتاز بالتضلع فى الأدب
وفنونه والتقدم فى العلوم العصرية (٢) وكان هذا نادرا بين علماء الازهر ، فاقببس
منه المترجم روح العلم والأدب ، فكانت تلك الميزة من اسباب نبوغه ، ذلك
أن الأدب قد فتح ذهنه الى البحث والتفكير وهدهد الى سداد الرأى وحسن
الديباجة وسلامة المنطق

-
- (١) رجعنا فى هذه البيانات الى (حلية الزمن) للسيد صالح مجدى بك وهى فى
مجموعها لا تختلف عما ذكره على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٣
(٢) يقول رفاعة بك عن الشيخ حسن العطار انه كان له حظ فى العلوم العصرية
حتى العلوم الجغرافية ، وانه وجد بخطه هوامش جارية على كتاب تقويم البلدان لآبى
الفداء ، وهوامش أخرى على أكثر كتب التاريخ وطبقات الاطباء وغيرها ، وكان
يطالع على الكتب المعربة وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية وله بعض تأليف
فى الطب وغيره (عن مناهج الابواب المصرية لرفاعة بك ص ٣٧٦ طبعة ثانية)

من هنا نشأت ميول رفاعة بك منذ نشأته العلمية الى العلوم العصرية ، والى الأدب والانشاء ، ويتبين من ذلك فضل الشيخ حسن العطار على المترجم ، فانه أول من وجه الفقيه الى الاعتراف من ينبوع الأدب الفياض ، وقد بدر الشيخ رفاعة الى الارتواء من منهل العذب ، وهو بعد في الازهر ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ومهر في فنونه ، واذا تأملت في رحلته (تخلص الابريز) وهى أول كتاب ألفه فى باريس ، شهدت فيها ما يدلك على سعة مادته من بدائع الادب العربى فى النثر والنظم والشيخ العطار كما يقول رفاعة بك (١) هو الذى أشار عليه قبل رحيله الى فرنسا ان يدون رحلته فى تلك الاقطار ، فكانت هذه الرحلة (تخلص الابريز) با كورة مؤلفاته ، فالشيخ العطار كما ترى له يد طولى فى تكوين الفقير وهو الذى اختاره اماما للبعثة كما سيجىء بيانه

تدريسه فى الازهر

لم يمحض على المترجم بالازهر بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء ، وتولى التدريس فيه سنتين ، وكان يتردد بين حين وآخر على طهطا ويلقى بعض الدروس بجامع جده ابي القاسم ، فامتازت دروسه بمجاذبية كانت تحببه الى المستمعين وترغبهم فى الاستزادة من بحر علمه ، وهنا ظهرت خاصية جديدة فى المترجم ، وهى قدرته ونبوغه فى التعليم والتثقيف ، وليس كل عالم ينال هذه الموهبة ، بل هى ميزة تحتاج الى جاذبية معنوية ، وكفاءة ممتازة ، ومما يذكر عنه ان علماء طهطا شهدوا له بالسبق فى هذا المضمار ، وكانت دروسه تحفل بالسامعين وطلبة العلم قال صالح مجدى بك فى هذا الصدد (٢) « وكان رحمه الله حسن الالقاء ، بحيث يفتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الازهر بتدريس

(١) تخلص الابريز ص ٣

(٢) فى رسالته (حاية الزمن بمناقب خادم الوطن) وهى ترجمة حياة رفاعة بك بقلم السيد صالح مجدى أحد تلاميذه

كتب شتى في الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصا بالجم الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع في جميع ما أخذ عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب ، سهل التعبير ، مدققا محققا ، قادرا على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب .

اتصاله بالجيش

قضى الشيخ رفاعة ثمانى سنوات في الأزهر ، وصنف وألف ودرس وهو ابن احدى وعشرين سنة ، وكان الى ذلك الحين فقيرا رقيق الحال إذ كانت والدته تنفق عليه مما تبقيه من الحلى والمقار ، وكان يستعين على معاشه باعطاء دروس لحسين بك نجل المرحوم طبوز اوغلى ، وكان كذلك يلقى بعض الدروس بالمدرسة التى انشأها محمد لالا اوغلى

وفى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) عين راعظا واماماً فى أحد الايات الجيش المصرى النظامى الذى أسسه محمد على ، فانتظم فى سلك الاى حسن بك المنسترلى ثم انتقل الى الاى احمد بك المنكللى ، وكلاهما من اعظم قواد الجيش المصرى فى عصر محمد على ، وظل الشيخ رفاعة مضطلعا بوظيفة الامامة من سنة ١٢٤٠ الى شعبان من السنة التالية

بدأت حياة المترجم العملية بالتدريس فى الأزهر ، ثم بتقلده وظيفة الامامة فى الجيش ، فانتقل بذلك من بيئة الأزهر الى بيئة جديدة ، وهى الجيش النظامى ، ولنعتمد ان هذا الانتقال قد أحدث تطورا فى حياته وفى سيرته وذهنيته ، لانه بدأ يتصل بالحياة العسكرية ، ويألف نظاما لا عهد له به من قبل ، وعيشة فتحت ذهنه الى نواح جديدة من الحياة والتفكير ، ولا بد ان تكون الحياة العسكرية التى اتصل بها عن كثب قد افادته بما فيها من احترام للنظام ، وتقدير لمزاياه وايلاف لاوضاعه ، واحساس بالدفاع عن الزمار

والكفاح في سبيل الوطن ، ومواجهة للاخطار ، مما يغرس في النفس روح الوطنية والشجاعة والاقدام

ويلاحظ لنا ان هذه المعاني قد انطبعت الى حد كبير في نفس المترجم ، فندعاش طوال عمره ذا أنفة و اباء ، يكره الذل ، ولا يقيم على الضيم ، محبا لبلاده يبذل في سبيلها راحتته ووقته وعلمه وذكاءه ، وعاش كذلك محبا للنظام في كل عمل تولاه ، في تلقى العلوم ، وفي التأليف والتعريب ، وفي حسن تنظيم المعاهد التي تولى ادارتها

انتظامه في سلك البعثات

وحياته في باريس

ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن توفيق المترجم ان اختاره محمد علي ضمن اعضاء البعثة الاولى التي سافرت الى فرنسا سنة ١٨٢٦ هـ

ويقول علي باشا مبارك (١) « ان محمد علي باشا طلب الى الشيخ العطار (شيخ الجامع الازهر) ان ينتخب من علماء الازهر اماماً للبعثة الأولى يرى فيه الاهلية والايقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة »

فهو اذن لم يكن مرسلًا بصفته طالباً ، بل كان اماماً للبعثة ، وتقرر له مرتب يوز باشي (٢)

وعنها يبدأ عهد جديد من حياة المترجم ، بل قل ان باب النبوغ قد انفتح أمامه على مصراعيه ، فقد أخذ يستثمر المواهب الدفينة في نفسه ، وأهمها الذكاء ومضاء العزيمة ، وقوة العارضة ، وسلامة المنطق وحب العلم ، والمثابرة في الاكباب عليه ، فوصل بمجده وذكائه الى مكانة عالية من العلم والثقافة .

لم يكن مطلوباً من أمام البعثة أن يتعلم « علوم الفرنسيين » وانظمتهم ، بل يكفيه أن يؤدي وظيفة الامامة لاعضاء البعثة ، وما اليها من الوعظ والارشاد

(١) في الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ (٢) كانت الرتب العسكرية سارية في السلك المدني

ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحد منهم الى الاعتراف من مناهل العلم في فرنسا ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاة فكان ذا نفس طامحة الى العلا ، فأخذ يدرس اللغة الفرنسية ، وعكف عليها من تلقاء نفسه رغبة منه في تحصيل علومها وآدابها

وبذلك على مضاء عزيمته وولعه بالدرس انه — كما يقول عنه علي باشا مبارك « شرع عند ركوب الباخرة من الاسكندرية في تعلم مبادئ اللغة الفرنسية بهمة عالية وعزيمة صادقة ، واتخذ له بعد وصوله الى باريس معلما خاصا على نفقته » ، ولما استقر به المقام في باريس أكب على العلوم يعترف من مناهلها ، وتعرف الى العلماء يقتبس منهم الحكمة والمعرفة ، قال علي باشا مبارك « وما لبث في هذه البلاد حتى عرفه أعظم العلماء وأكبرهم ، وكان للعالم المشهور مسيو جومار عليه فضل التعهد بالارشاد والتعليم ، والمحبة الخصوصية ، وقد ساعده مساعدات جمة في هذه البلاد ، وكذلك حاله مع العالم الشهير (المستشرق) البارون دي ساسي ، وفي مدة أقامته بباريز من سنة ١٢٤١ الى سنة ١٢٤٦ (١٨٢٦ — ١٨٣١) نبغ في العلوم والمعارف الاجنبية ، وعلى الخصوص فن الترجمة في سائر العلوم على اختلاف اصطلاحاتها من حيث الاستعمال والمفردات ، وأكب كل الاكباب على ادامة النظر واستعمال الفكر والحرص على التحصيل والاستفادة » (١)

ويقول رفاة بك عن نفسه (٢) انه ابتداء يتعلم مبادئ الفرنسية وهو في مارسيليا واستمر في دراستها بباريس الى أن أتم تعلمها في ثلاث سنوات (٣) وقد اتجهت ميوله الى دراسة التاريخ والجغرافية ، وكذلك درس الفلسفة والآداب الفرنسية ، فنال حظا وافرا منها ، وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسو

(١) الحطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤

(٢) في كتابه تخلص الابريز ص ٣٦

(٣) تخلص الابريز ص ١٥٨

ومونتسكيو وراسين ، فالتسعت مداركه وارتقت افسكاره ، ومما ذكره عن مونتسكيو قوله « وقرأت أيضا مع مسيو شواله جزأين من كتاب يسمى (روح الشرائع) ، مؤلفه شهير بين الفرنسيين يقال له مونتسكيو وهو اشتهر بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا مونتسكيو الشرق ، أى مونتسكيو الاسلام (١) »

وقرأ أيضا بعض الكتب فى علم المعادن وفن العسكرية والرياضيات ومالت نفسه اثناء دراسته بباريس الى التأليف والتعريب ، فكان ينتهز أوقات فراغه فيعرب ويؤلف ، فوضع رحلته وسمها « تخليص الابريز فى تليخيص باريز » وعرب نحو اثنتى عشرة رسالة وهى (١) نبذة فى تاريخ اسكندر الاكبر مأخوذة من تاريخ القدماء . (٢) كتاب أصول المعادن . (٣) تقويم سنة ١٢٤٤ من الهجرة ألفه مسيو جومار لاستعمال مصر والشام متضمنا شذرات علمية وتديرية (٤) كتاب دائرة العلوم فى اخلاق الأمم وعوائدها (٥) مقدمة جغرافية طبيعية (٦) قطعة من كتاب العلامة ملطرون فى الجغرافية (٧) ثلاث مقالات من كتاب جندر فى علم الهندسة (٨) نبذة فى علم الهيئة (٩) قطعة من علميات الضباط (١٠) أصول الحقوق الطبيعية التى تمتبرها الافرنج أصلا لاحكامهم (١١) نبذة فى الميشولوجيا يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم (١٢) نبذة فى علم سياسة الصحة

وترجم فى باريس كتابه « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والأواخر » وقد بدأ يترجم جغرافية ملتبرون كما رأيت ضمن رسائله الاثنتى عشرة وكان يجتمع بطائفة من العلماء والمستشرقين ، فاقتبس منهم واتصل بهم بصلات الود والصدقة ، وبديهي أن اتصاله بهم يدل على ما جيل عليه من الميل الى العلم والعلماء والرغبة فى الاستزادة من المعارف ، وقد نشر فى رحلته

(تخليص الابريز) رسالتين من المستشرق المشهور البارون سلفتردى ساسى تدلان على ماناله من المسكاة في نفسه ، كتب الأولى لمناسبة اهداء المترجم رحلته اليه وكتب الثانية قبل ان يغادر رفاعة بك باريس عائدا الى مصر قال فيها

« بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعة ، يحصل لى حظ عظيم اذا جاء عندى يوم الاثنين الاكثى فى الساعة ٣ ان امكنه ان يسرنى برؤيتى له لحظات لطيفة ، ويحصل لى أيضا غاية الانبساط اذا بعث لى اخباره بعد وصوله الى القاهرة ، فاذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائما آثاره واستدشق اخباره مع انجذاب قلب وانسراح صدر ، البارون سلفتردى ساسى »

فمثل هذه الرسالة لا تكتب للشيخ رفاعة إلا اذا كان قد نال فى نفوس علماء فرنسا مكانة سامية ، وهذه المكانة قد احرزها بذكاءه واكباديه على العلم ، ومساجلته العلماء فى مجالسهم ومعاهدهم مما حبيبه الى نفوسهم وجعل له عندهم ذلك المقام المميز

مباحثه فى الدستور

قد تعجب ان يكون لرفاعة بك مباحث فى الدستور ، فالمعروف ان هذه المباحث حديثة العهد فى تاريخ مصر القومى ، لكن الواقع ان رفاعة بك هو فيما نعلم أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، ذلك انه درس اثناء اقامته بباريس نظام الحكم فى فرنسا ، وعرب فى كتابه (تخليص الابريز) دستور فرنسا فى ذلك الحين^(١) وما تضمنه من نظام المجلسين ، واختيار اعضائهما ، وحقوق الأمة أفرادا وجماعات ، وهذا يدل على ميله الفطرى الى العلوم السياسية ، ولا يتجه فكر المرء فى ذلك الحين الى خوض هذه المباحث إلا اذا كان ذا رأس مفكر وقلب يخفق بحب الوطن

(١) هو الدستور سنة ١٨١٤ الذى استمر معمولاً به الى سنة ١٨٣٠

وهو لا يكتفى بالتعريب حسب ، بل له على مواد الدستور الفرنسي تعليقات
تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه ، وميل فطرى الى النظم الحرة
فقد قال تعليقا على نصوص الدستور (١)

« ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وان السياسة
الفرنساوية هي قانون مقيّد بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور
في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين (البرلمان) وأن ديوان البير (٢) يمنع عن
الملك ، وديوان رسل العائلات (٣) يحامى عن الرعية ، والقانون الذى يمشى عليه
الفرنساوية الآن (سنة ١٨٢٧) ويتخذونه أساساً لسياساتهم هو القانون الذى ألفه
لهم ملكهم لويز الثامن عشر ، ولا زال متبعاً عندهم ومرضياً لهم ، وفيه أمور لا ينكر
ذوو العقول أنها من باب العدل »

وقال فى موضع آخر (ص ٨٠) : « قوله فى المادة الأولى إن سائر الفرنسيين
متساوون قدّام السريعة ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع ،
لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى أن الدعوى الشرعية
تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المسألة فانها لها تسلط
عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً الى
إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الحكم عند
الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية
وتقدمهم فى الآداب الحضارية »

(١) تخلص الابريز ص ٧٢

(٢) مجلس الشيوخ Chambre des pairs وقد نقل كلمة بير Pairs الفرنسية

كهاى

(٣) رسل جمع رسول أى نائب ، والعائلات جمع عمالة أى مديرية ، يريد مجلس
النواب ، ويسمى أحياناً « نواب الرعية » وأيضاً « أمناء الرعية »

وقال تعليقا على المادة الثانية الخاصة بالمساواة في الضرائب :

« وأما المادة الثانية فانها محض سياسة ، ويمكن أن يقل إن الفرد (جمع فردية أى ضريبة) ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس خصوصا إذا كانت الزكوات والنفى والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها أصل في الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الأعظم ، ومن الحكم المتبررة عند قدماء الحكماء ، الخراج عمود الملك ، وفي مدة إقامتي بباريس لم اسمع أحدا يشكو من المكوس والفرد (الضرائب) والجبايات أبداً »

وقال تعليقا على المادة الثامنة الخاصة بحرية الرأي والنشر : « وأما المادة الثامنة فانها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه ، وسائر ما يخطر بباله ، مما لا يضر غيره ، فيعلم الناس سائر ما في نفس صاحبه »

وامتدح الصحافة ، وهو يسمى الصحف « الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات » (١) وقل عنها « ان الانسان يعرف فيها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى الا أنها ربما تتضمن اخبارا تكشف نفس الانسان الى العلم بها ، على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم ، ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلا عظيما أوردتيا وكان من الامور المهمة كتبه أهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته في هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص

(١) جمع كازيطة مأخوذة من الكلمة الفرنسية Gazette

والعام ، فتعرف قضية المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ،
وتصل الى محل الحكم (المحكمة) ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل
هذا الامر عبرة لمن يعتبر »

وقال عن المادة التاسعة (الخاصة بحرمة الاملاك) « وأما المادة التاسعة فانها
عين العدل والانصاف ، وهى واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعاف »

وقال تعليقا على المادة الخامسة عشرة (التى تنص على ان السلطة يتولاها
الملك ومجلسا النواب والشيوخ) : « وفى المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة ، وهى
ان تدبير امر المعاملات لثلاثة مراتب ، المرتبة الاولى للملك ووزرائه ، والثانية
مرتبة البيرية الحامية للملك ، والثالثة مرتبة رسل العائلات ، الذين هم وكلاء
الرعية والمحامون عنهم حتى لا يظلم أحد ، وحينما كانت رسل العائلات قائمة مقام
الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال
فهى مانعة للظالم عن نفسها بنفسها ، وهى آمنة بالكلية »

ثم ذكر تعديل الدستور الذى اعقب ثورة سنة ١٨٣٠ وأسهب فى الكلام
عن تلك الثورة التى شهدتها فى باريس ، وظاهر من كلامه مبلغ عظمته على الثورة
وقضيتها ، ومما قاله فى هذا الصدد

« فلما كانت سنة ١٨٣٠ واذا بالملك قد اظهر عدة أوامر ، (١) ، منها النهى
عن ان يظهر الانسان رأيه وان يكتبه أو يطبعه بشرط معينة خصوص الكازيطات
(الجرائد) اليومية فانها لا بد لطبعها من ان يطلع عليها أحد من طرف الدولة (٢)
فلا يظهر فيها الا ما يريد اظهاره ، مع ان ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه

(١) هى الاوامر الشهيرة Ordonnances التى أصدرها الملك شارل العاشر وكانت

سببا لقيام ثورة سنة ١٨٣٠

(٢) الرقيب على الصحف

عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجماع آراء ثلاثة ، رأى الملك ، ورأى
اهل ديوانى المشورة (١) ، فصنع الملك وحده مالا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره»
فهذا كلام يدل على أن صاحبه يفهم روح الدستور والنظم الدستورية حق
الفهم ، ويعرف معنى سلطة الأمة ، ويؤمن بان الأمة مصدر السلطات
وأدل على ذلك ، رايه فى موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة فى
باريس ، قال

« فلما اشتد الامر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة
حكماً ، وجعل قائد العسكر اميراً من اعداء فرنساوية ، مشهوراً عندهم بالخيانة
لمذهب الحرية ، مع ان هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلم هذا
على ان الملك ليس جليل الرأى ، فانه لو كان كذلك لاطهر امارات العفو والسماح ،
فان عفوا الملك أبقى لأملك ، ولما ولى على عساكره الا جماعة عقلاء ، احباً له
والرعية غير مبغوضين ولا اعداء ، ولكنه اراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم
بمنزلة اعدائه ، مع ان استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم
عليك بالحلم وبالحياء والرفق بالمذنب والاغضاء
إن لم تقل عثرة من يقال يؤشك أن يصيبك الجهال

« فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم فى
اعطاء الحرية لأمة بهذه الصفة حرية ، لما وقع فى مثل هذه الحيرة ، ونزل عن
كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لاسيما وقد عهد فرنساوية بصفة الحرية وألفوها
واعتمادوا عليها ، وصارت عندهم من الصفات النفسية ، وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد ألفوا بها لها سنن يرعونها وفروض

فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقیل عندهم وبغیض ^(١) فتأمل في هذا الكلام ! وتدبر معانيه ، واذكر أنه كتب سنة ١٨٣٠ ، أي منذ مائة سنة ، تجدد إله كلام عليه طابع المبادئ الدستورية العصرية ، تتمشى فيه روح الحرية والديمقراطية ، ولا يصدر إلا عن نفس أشربت روح الأنفة والشعور بالحقوق القومية ، ولولم يكن دفاعه بك يمثل هذه الصفات لما صدر عنه مثل هذا القول ، بل أغلب الظن أنه كان يضرب صفحا عما شاهده في باريس من ثورة الشعب على الحكم الاستبدادي ، وما كانت هذه الثورة تترك في نفسه من أثر سوى استنكار قيام الرعية على ولى الامر ، ولكن روح دفاعه كانت روحا حرة متطلعة الى المثل العليا ، في العلم ، والاخلاق ، والسياسة ، فلا غرو ان صادفت مبادئ حقوق الشعب موضع الاقتناع من نفسه

وتأمل فيما ذكره المترجم عن الجنرال لافاييت أحد زعماء الثورة ، تجده يقول : « وفي اليوم التاسع والعشرين في الصباح ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا في ايديهم قصر طويلرى ولوور فلما كوها ، ونشروا عليهما بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك سر عسكر (قائد الجند) المأمور بأدخال أهل باريس في طاعة السلطان (الملك شارل العاشر) رجع ، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقى وديوان مؤقت لمنظم البلاد حتى ينحط الرأي على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت سر عسكر المسمى لافييه ، وهو الذى قتل في الفتنة الأولى للحرية أيضا ^(٢) وهذا الرجل شهير بانه يحب الحرية ، ويحامي عنها ، ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد في البوليتيكة (السياسة) »

(١) تخلص الابريز ص ١٧٢

(٢) يريد الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٩٨

فرفاعه بك يمجّد في الجنرال لافاييت دفاعه عن الحرية ، وثباته على مبدئه السياسي ، وعدم تقلبه مع الاهواء ، وهي محامد وصفات اشتهر بها لافاييت في كل أدوار جهاده ، فوصل بذلك الى المنزلة السامية التي نالها ، وصار كما يقول المترجم يكرم ويعظم كما يعظم الملوك ، وهذا من ابداع مايقال في تمجيد الوطنية الصادقة والجهاد الخالص لوجه الله والوطن

وقد ظل رفاعة بك بعد عودته الى مصر متأثراً بالتعاليم الدستورية التي تلقاها في باريس ، وحسبك دليلاً على بقاءه محتفظاً بتلك المبادئ السامية على مدى السنين أنه عدّ أكبر عمل للخديوي اسماعيل انشاء مجلس شورى النواب (١) فقد قال عنه في معرض الثناء عليه « ولو لم يكن له من المآثر إلا كونه حمل الاهالي على أن يستنبيوا عنهم نواباً ذوي فكرة ألمعية ، ليتذكروا في شأن مصالحهم (٢) المرعية ، لكفاه ذلك شرفاً ومجداً ، وعزاً وسعداً ، حيث صار مستولياً على أمة حرة الرأي ، باستشارتها في حقائق التراتيب والتنظيمات التي يراد تجديدها لاجلهم (٣) »

عودته الى مصر

عاد رفاعة بك الى مصر سنة ١٨٣١ ، فكان أنه قضى في باريس نحو ست سنوات مكباً على الدرس والتحصيل ، يطالع ، ويقرأ ، ويكتب ويعرب ، ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة ، وينعم النظر في أحوال الشعوب الأوروبية وتاريخها وأسباب حضارتها وتقدمها ، واستمر عزمه وهو في باريس على أن يخدم

(١) سنة ١٨٦٦

(٢) أي مصالح الاهالي

(٣) مناهج الالباب المصرية ص ٣٢٣ طبعة ثانية

بلاده من طريق نقل علوم الافرنج الى مواطنيه فتتسع مداركهم ، وتسموا افكارهم ، ويسلكون سبيل الشعوب التي هذبها العلم والعرفان ، ومالت نفسه الى التعريب آخذاً بنهج الدولة العباسية إذ بدأت نهضة العلوم والمعارف في عهدها بترجمة كتب اليونان الى اللغة العربية ، قال في هذا الصدد وهو بعد في باريس « وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون حتي تعد دولته من الازمنة التي تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة في مصر مثل تجددها في زمن خلفاء بغداد » (١)

ولقد بر بوعده فحلاً البلاد علماً وحكمة ، وحمل لواء النهضة العلمية وخدمها بتأليفه وتعاريبه وتلاميذه الذين تخرجوا على يده في مدرسة الألسن وغيرها

اعماله بعد عودته

كانت البلاد عند عودة رفاعه بك في حاجة الى التعريب لنقل العلوم الأوروبية الى لغة البلاد ، فتولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب بابي زعبل

وفي سنة ١٨٣٣ م (سنة ١٢٤٩ هـ) انتقل من مدرسة الطب الى مدرسة المدفعية (الطوبجية) بطره ، وعهد اليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، وله فيها رسالة مترجمة في الهندسة العادية ، وهي من الرسائل التي كانت تدرس في المدرسة الحربية بسان سير بفرنسا

وفي غضون ذلك وقع وباء بالقاهرة سنة ١٢٥٠ فسافر الى طهطا وترجم بها مجلداً من جغرافية ملتبرون التي بدأ بتعريبها في باريس ، ثم عاد به الى القاهرة وقدمه الى محمد علي فنال اعجابه ، واجزل له العطاء ، وانعم عليه برتبة صاغ قول اغاسي واستمر بمدرسة طره الى سنة ١٢٥١ .

مدرسة الألسن

ثم رأى المترجم ان البلاد في حاجة الى طبقة من العلماء الاكفاء في الآداب العربية وفي آداب اللغات الاجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الافرنكية وخاصة الفرنسية وليكونوا صلة الاتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وينهضوا بالأداة الحكومية في المناصب التي تعيد اليهم ، فاقترح على محمد علي باشا انشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد علي انه يحسن تقدير الاقتراحات والآراء السديدة التي تعود على البلاد بالخير والتقدم ، فبادر الى انفاذ الاقتراح وانشأ مدرسة الألسن بالقاهرة سنة ١٨٣٦ ، واختار لها سراي الالفى بالازبكية بجوار قصر زينب هانم كريمة محمد علي (حيث فندق شبرد الآن) ، وهذا يدل على مبلغ عنايته بشأنها ، وكانت تعرف حين انشائها بمدرسة الترجمة ، ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن ، وعهد بنظارتها في السنة التالية الى الشيخ رفاعة ، وهنا تهيأت فرصة جديدة لظهور نبوغ المترجم كعالم محقق ، ورئيس قدير ، ومعلم كفء ، ومربى لا يشق له غبار ، فلقد قام بادارة تلك المدرسة خير قيام ، واختار لها التلاميذ من مدارس الارياف والاقليم ، ومن طلبسة الازهر ، فبلغ عددهم في بداية عهدها خمسين تلميذا ، ثم زاد حتى صار ١٥٠ ، وعنى بتثقيفهم وتفتيحهم النشأة الصالحة حتى تخرج منها نخبة من العلماء والشعراء والادباء ممن ازدان بهم تاريخ النهضة العلمية والأدبية

كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ثم الايطالية والانجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الاسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهي أشبه ماتكون بكلية للآداب والحقوق فلاغرو ان كانت اكبر معهد لنشر الثقافة في مصر

وكان رفاة بك يتولى التدريس فيها بنفسه ، يعاونه طائفة من خيرة المصريين والاجانب ، ذكر على باشا مبارك من اساتذتها الوطنيين الشيخ محمد المنهورى ، والشيخ على الفرغلى الانصارى (ابن خال رفاة بك) ، والشيخ حسنين حريز الغمراوى ، والشيخ محمد قطة العدوى ، والشيخ احمد عبد الرحيم الطبطاوى ، والشيخ عبد المنعم الجرجاوى ، وكلهم من علماء ذلك العصر واشتهر رفاة بك بغيرته على تثقيف تلاميذ المدرسة بلا كلل ولا هوادة ، وكان فى بعض الاحيان كما يقول على باشا مبارك « يمكث نحو ثلاث ساعات أو اربع ساعات يلقي الدرس واقفا على قدميه فى دروس اللغة أو فنون الادارة أو الشرائع الاسلامية والاجنبية ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس فنون الآداب العالية »

وأحيل عليه فى سنة ١٢٥٧هـ علاوة على نظارة مدرسة الألسن نظارة المدرسة التجهيزية التى كانت بابى زعبل ثم نقلت الى الازبكية وألحقت بمدرسة الألسن ، وأسأذتها من تلاميذ هذه المدرسة ، ومعهد الفقه والشريعة الاسلامية ، ومدرسة محاسبة ، ومدرسة ادارة افرنجية ، فكان رفاة بك يدير هذه المعاهد مجتمعة ، أى انه كان بمثابة مدير جامعة ، وأحيل عليه تفتيش مدارس الاقاليم ، واسندت اليه وقتا ماراسة تحرير (الوقائع المصرية)

وفى سنة ١٢٥٨هـ شكل قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن ، ونال المترجم بعد سنة ونصف من انشاء هذا القلم رتبة القائم مقام ، ونال سنة ١٢٦٢هـ رتبة أميرالاي لمناسبة انتهائه من ترجمة مجلد آخر من جغرافية الملبرون ، فصار يدعى رفاة بك بعد ان كان الشيخ رفاة ، وكانت هذه الرتب بمثابة مكافأة معنوية له على ما أداه من الخدمات فى المناصب التى عهدت اليه ، كما أنها دليل على حسن تقدير الحكومة فى ذلك العصر للعلماء العاملين ، وتشجيعهم على متابعة جهودهم وابحاثهم ، ومن الحق أن نقول إن تنشيط الحكومة لرفاعة بك كان له دخل فى وفرة انتاجه العلمى ، فقد كان موضع رعاية ولالة الامور ومعاونتهم ، فانعم عليه محمد على

بـ ٢٥٠ فرانا ، وأقطعته ابراهيم باشا « حديقة نادرة المثال في الخاتمة تبلغ ٣٦ فداناً »
على ما يقول على باشا مبارك (١) ، وانعم عليه سعيد باشا بمائتي فدان ، واسماعيل باشا
بـ ٢٥٠ فداناً ، فيكون مجموع ذلك نحو ٧٠٠ فدان ، ولا شك أن هذه الانعامات الكبيرة
من الوسائل التي تنهض بدولة العلم والادب

رفاعة بك في منفاه بالخرطوم

لم يزل رفاعة بك ناظراً لمدرسة الألسن مع نظارة قلم الترجمة الى أن اقبلت
المدرسة على عهد عباس باشا الأول سنة ١٨٥١ ، ولم يكتف عباس باقفلها بل أمر
بارسال رفاعة بك الى السودان بحجة توليته نظارة مدرسة ابتدائية أمر بانشائها
في الخرطوم

وغريب أن عباس باشا الذي يقفل المدارس في القطر المصري يعنى بانشاء
مدرسة ابتدائية في الخرطوم ، نعم ان فتح المدارس في السودان قاطبة أمر مطلوب
ومرغوب فيه لذاته ، فما السودان الا جزء من مصر ، ونشر لواء العلم والمعارف في
انحاءه واجب على الحكومة ، ولكن اقبال المدارس في مصر ينم على محاربة
عباس باشا للعلم والتعليم ، فكيف تتفق هذه النزعة مع التفكير في فتح مدرسة
ابتدائية بالخرطوم يرسل اليها جماعة من اركان النهضة العلمية في مصر وعلى رأسهم زعيم
هذه النهضة رفاعة بك ، وفيهم محمد بيومي افندى كبير اساتذة الهندسة والرياضيات
في مدرسة المهندسخانة وقد توفي في منفاه بالخرطوم ، واحمد طائل افندى استاذ
الرياضيات ، وغيرهم ، ولا يقبل المنطق ان يكون الغرض من ارسال هؤلاء الاقطاب
الى السودان نشر العلم في ربوعه إذ لو كان عباس يقصد خدمة العلم بانشاء « مدرسة
ابتدائية بالخرطوم » لما كان معقولا ان يقع الاختيار على كبير علماء مصر في ذلك
العصر ليتولى نظارتها ، ولا ان يعهد بتدريس الحساب فيها الى كبير علماء الرياضيات

بين اساتذة مدرسة المهندسخانة، فلا بد أن يكون للأمر سر آخر غير الرغبة في انشاء
المعاهد العلمية

وقد يكون سره الحقيقي رغبة عباس باشا في اقضاء علماء مصر الى السودان ،
فكما أنه أقفل مدارس مصر تراءى له ان يبعد عنها علماءها الاعلام ، وقد وشى له
في حق رفاعة بك فاتسع صدره للوشاية ، ولم ير وسيلة للتخلص من رفاعة بك
إلا ارساله الى السودان ، وكان الذهاب الى السودان في ذلك العصر يعد نفيا
مقصودا به العقاب والقصاص وخاصة لمن كان في منزلة رفاعة بك ، ولم أتبين ماهية
هذه الوشاية من اقوال من ترجعوا له (١) ، أما رفاعة بك ذاته فلم يزد في هذا
الصدد عن قوله « وفي سنة ١٢٦٧ كنت سافرت الى السودان بسعى بعض الامراء
بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل
وتوفى نصف من بمعيتي من الخوجات المصريين (٢) »

ويلوح لي ان لكتابه (تخليص الابريز) سببا يتصل بنفيه ، إذ لا يخفى
انه طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ هـ أى في أوائل عهد عباس باشا والكتاب
كما مر بك يحوى آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، وعباس
باشا الأول كان في طبعه مستبدا غشوما ، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره
الى ما في كتاب رفاعة بك مما لا يروق لعباس ، فرأى ان يبعده الى الخرطوم ليكون
السودان منفى له ، ولا غرابة في ذلك فلو أن هذا الكتاب ظهر في تركيا على عهد
السلطان عبد الحميد لكان من المحقق ان يكون سببا في هلاك صاحبه ، فمن الجائز

(١) ترجم له من المتقدمين على باشا مبارك في الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٣ ،
وصالح مجدى بك في رسالته حامية الزمن بمناب خادام الوطن ، ومن المعاصرين
جرجى زيدان بك في كتابه (تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر) ج ٢
ص ١٩ ، ومحمد الصادق حسين بك في مجلة السياسة الاسبوعية السنة ٢ عدد ٦٤
(٢) منهاج الالباب المصرية ص ٢٦٥ طبعة ثانية

ان يكون عباس باشا قد رأى نفي رفاة وامثال رفاة الى السودان ليعدهم ويبعد افكارهم وثقافتهم عن مصر، واتخذ لنفهم صورة ظاهرة وهى انشاء مدرسة بالخرطوم، والله اعلم

كان رفاة بك يشعر فى الخرطوم بانه فى منفى سحيق، ويعلم ان الحكومة انما اقسته الى السودان لتتخلص منه لا لتفتح مدرسة ابتدائية، ولقد احس بغضاة النفي فى بدء عهده به، ولكنه قابل المصاب بالصبر والجلد، وعادوته عزيزته التى لاتعرف الكلال، فأخذ يسرى عن نفسه هم النفي والعزلة بتعريب كتاب تلماك (١)، وانك لتلمح من مقدمة كتابه مبلغ تألمه مما جوزى به على جليل خدماته للعلم والنهضة العلمية، والوطنى فى محنته يذكر ما أداه لوطنه من خدمات، كأنما يراجع نفسه ويحاسبها ليتعرف اسباب محنته، فلا يزداد يقينا الا أنه جوزى جزاء سنيما، وقوبل على احسانه بالاساءة والنكران، وكذلك فعل رفاة بك، فقد جمع فى كلمات وجيزة ما فصله التاريخ من خدماته الجليلة، قال فى مقدمة كتاب تلماك

« أما بعد فيقول المرتجى أن يكون لوطنه خير نافع، رفاة بدوى رافع، ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس، قد تقلدت بعناية الحكومة المصرية، الفائقة على سائر الامصار، فى عصر المسدة المحمدية العلوية، السامى على سائر الاعصار، بوظيفة تربية التلاميذ مدة مديدة، وسنين عديدة، نظارة وتعلما، وتعديلا وتقويما، وترتيما وتنظيما، وتخرج من نظارات تعليمي من المتفنين رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال، وفى صناعة النثر والنظم أبهر بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال، وحماة صفوف لا يُبارون فى نضال ولا سجال، وعربت لتعليمهم من الفرنسية المؤلفات الجمّة، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة، من كل كتاب عظيم المنافع، وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها، ومالت طباع الجميع الى مطبوع ذوقها وطبعها، وسارت بها الركبان فى

(١) مواقع الافلاك فى اخبار تلماك

سائر البلدان ، وحدا بها الحادى فى كل واد ، وقصدها القصاد كأنها قصائد حسان ،
وكان زمنى الى ذلك مصروفا ، وديدنى بذلك معروفا ، بحجارة لامير الزمن (١)
على تحسين حال الوطن ، الذى حبة من شعب الايمان ، وفى مدة نحو ثلاثين سنة
لم يحصل لهنى فتور ولا قصور

فاذا ملكت نجد فان لم تستطع فاجهد بوسعك كله أن تنفعنا
« وانما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر ، الى بلاد السودان وليس فيما قضاء
الله مفرا ، أقت برهة خامد الهمة ، جامد القريحة فى هذه الملمة ، حتى كاد يتلفنى
سعي الاقليم الفائر بحره وسمومه ، ويبلغنى فيل السودان السكاسر بخرطومه ، ومع
ذلك فكنت فى الوقت الحاضر مصداق قول الشاعر

فما انا للايام غير محارب أصحابها مستبشرا متبهلا
فان كان حظى راحما كنت راحما وان كان حظى اعزلا كنت اعزلا

فكيف وان لى نصيبا فى السعود المقبلة ، والعهود المستقلة ، وحظا من الاوقات
المفيدة ، وسهما من العدالة اباعد به عنى وجوه هذه البلاد البعيدة ، فما تسليت
الا بتعريب تلياك ، وتقريب الرجاء بدور الافلاك »

اقول ، ولرفاعة بك بعض العذر فى تبرمه من الإقامة فى السودان ، فانه فضلا
عن شعوره بانه لم يذهب اليه بارادته واختياره وانه انما كان مضطهدا منغيا على
غير ذنب جناه ، فقد شهد فى منغاه مصرع زميله محمد بيومى كبير علماء الرياضيات
فى عصره ، والظاهر ان صحته وبنيته لم تحتملا غضاضة النفى وسوء المناخ فعاجلته
منيته فى الخرطوم ، فهذا الحادث الاليم كان له اثر عميق فى نفس رفاعة بك جعله
يشكو ويتململ من طول اقامته فى منغاه ، ولولا ذلك لما افاض فى الاعراب عن
ألمه الى الحد الذى اخرجه عن جادة الصبر والاعتدال ، فما ذنب « وجوه تلك
البلاد البعيدة » التى يطلب الى العدالة أن تباعد به عنها ؟ انه لاشك كان فى شدة

الحنّة حتى ضاق صدره بما يعانيه من الألم ، على انه ما لبث ان استمسك بخصاله الحميدة من الصبر على المكاره ومغالبة الشدائد ، فراض نفسه على احتمالها والصبر على آلامها ، وانك لتتبين نفسيته وما جبل عليه من قوة العزيمة وصدق الايمان في قوله « فما انا للأيام غير محارب الخ » فان هذا القول يدل على قوة نفس كبيرة ارتضت مغالبة الايام ومقاومة الحن ، ويتصل بهذا المعنى قوله عن نفسه رفاعة **رَفَاعَةُ كَتَمَسِ الْمَنْظُومَ مَرْتَجِلًا قَرِيضُهُ وَهُوَ بِالْخَرْطُومِ قَدْ وَجَلَا قُلْتُ هَوَاتِفَهُ بِاللَّهِ كُنْ رَجُلًا فَإِنْ جَدَّكَ طَه**) للخطوب جَلَا فأمر خطبك هذا الحد يحسمه

والحق ان رفاعة بك كان في منغاه رجلا بكل معاني الرجولة ، فلم يستسلم لليأس ، ولم تفتر عزيمته ، ولا جمدت قريحته ، وحسبك دليلا على قوة ارادته انه ترجم في منغاه كتاب تليماك وهو يقع في نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، كما انه رتب مدرسة الخرطوم احسن ترتيب وادارها احسن ادارة ونخرج منها طائفة من الشبان تولوا مهمة التدريس في المدارس التي انشأتها الحكومة في السودان على عهد الخديوى اسماعيل ، وقد امتدح رفاعة بك اخلاق السودانين فاشاد بقابليةتهم « للتمدين الحقيقي لدقة اذهانهم ، فان أكثرهم قبائل عربية لاسيما الجعليين والشايقية وغيرهم ، واشتغالهم بما الفوه من العلوم الشرعية هو عن رغبة واجتهاد ، ولهم ما أثر عظيمة في حسن التعلم والتعليم ، حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعيّنه اهل بلده على ذلك بتوزيع المجاورين (الطلبة) على البيوت بحسب الاستطاعة فكل انسان من الاهالى يخصه الواحد او الاثنان فيقومون بشؤونهم مدة التعلم والتعليم » (١)

رجوعه من منفادو المناصب التي تولاهها

ولما توفي عباس باشا الأول سنة ١٨٥٤ وتولى سعيد باشا الحكم عاد رفاعة بك من السودان ، فأسندت اليه المناصب المختلفة ، فجعل ناظرا للقلم الافرنجى بمحافضة مصر تحت رئاسة ابراهيم ادحم باشا ، ثم عهد اليه سعيد باشا سنة ١٨٥٥ وكالة المدرسة الحربية بالحوض المرصود التي كان يتولى نظارتها سليمان باشا الفر نساوى رئيس رجال الجهادية ، وبعد قليل تولى نظارة المدرسة الحربية التي انشأها سعيد باشا بالقلعة ، وجمع بين هذا المنصب ونظارة قلم الترجمة ، ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية ، ومدرسة العمارة ، ونال رتبة المتمايز

وفي سنة ١٨٦٠ ألغيت هذه المدارس كما ألغى قلم الترجمة فبقى رفاعة بك بغير منصب الى عهد اسماعيل باشا ، إذ هبَّت على العلم والتعليم نسمة الحياة ، فأعيد قلم الترجمة بوزارة المعارف العمومية وعهد الى رفاعة بك برياسته سنة ١٨٦٣ وعين عضوا في (قومسيون المدارس) الذي يشبه أن يكون مجلس المعارف الاعلى والذي كان له فضل كبير في تنظيم التعليم على عهد اسماعيل وكان له فضل كبير في نشر العلوم بجمته الحكومة على طبع طائفة من امهات الكتب العربية على نفقتها كتفسير الفخر الرازى ومعاهد التنصيص وخزانة الادب والمقامات الخيرية وغير ذلك

فضل رفاعة بك في نهضة المرأة

ان رفاعة بك هو أول من دعا الى نهضة المرأة الى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين ، وتحتل لك فكرته من كونه وضع كتابا مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء وسماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) ، وهو كتاب في الاخلاق والتربية والآداب وضعه كما يقول في مقدمته بحيث « يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية » ودعا في هذا الكتاب الى وجوب تعليم البنات واعدادهن من طريق التربية والتعليم للعمل والقيام بواجبهن في المجتمع ، قال في هذا الصدد :

« ينبغي صرف الهمّة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرّة الأزواج فتمتع البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ، ويجعلهن بالمعارف أهلاً ، ويصلحهن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأى ، فيعظمن في قلوبهم ويكظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرّة المرأة الجاهلة لمراة مثلها ، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل السذّجات بالباطيل ، وقلوبهن بالاهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقرّبها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء »

فالدعوة الى نهضة المرأة في مصر ترجع كما ترى الى رفاة بك ، ثم جاء من بعده المرحوم قاسم بك أمين فجددها ووسع نطاقها ، وكتاب رفاة بك طبع لأول مرة سنة ١٢٨٩ هـ أي سنة ١٨٧٢ ميلادية ، وقد أسست أول مدرسة لتعليم البنات في مصر سنة ١٨٧٣ م وهي المدرسة التي أنشأتها جشم آفت هانم إحدى زوجات اسماعيل بالسيوفية ، على أن دعوة رفاة بك ترجع الى ما قبل ظهور كتابه ، فإنه كما تعلم كان عضواً في مجلس ديوان المدارس سنة ١٨٣٧ ، وقد ذكر يعقوب ارتين باشا (١) أن هذا المجلس قدر ما لتعليم المرأة من الفضل في النهوض بالمجتمع المصري فاقترح ادخال تعليم البنات في مصر ، ولكن الاقتراح لم يخرج الى حيز العمل في عهد محمد علي باشا لأن المجتمع كما يقول ارتين باشا لم يكن يألف تعليم البنات في المدارس فاكتمل في محمد علي بمدرسة الولادة التي أنشأها لتخرج طائفة من القابات المتعلّقات ، على أن فكرة تعليم المرأة لاقت من ذلك الحين تقديراً من الطبقات العالية فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها في البيوت على يد اساتذة من معلمين ومعلمات فظهرت طبقة من سالة البيوت الكبيرة نالت حظاً وافراً من العلم والثقافة ، ومن هذه الطبقة نبغت

(١) في كتابه التعليم العام في مصر (بالفرنسية) ص ١٢٨

الكاظمة الشاعرة عائشة هانم تيمور (١) كريمة اسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام في عصر عباس وسعيد واسماعيل ، وقد بقيت فكرة تعليم البنات قاصرة على البيوت الى أن انشئت مدرسة البنات بالسيوفية كما قدمنا

فضله في نهضة القضاء والقانون

ورفاة بك فضل كبير في نهضة القضاء والقانون ، فان الحكومة حينما فكرت في اصلاح النظام القضائي على عهد اسماعيل مهدت الى ذلك بتعريب القوانين الفرنسية المعروفة بالكود (قانون نابليون) وهي مهمة شاقة تحتاج الى اطلاع واسع في القوانين الفرنسية واحكام الشريعة الاسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمبادئها في القانون الفرنسي وتحتاج أيضا الى علم غزير وصبر على العمل والمام تام بأسرار اللغتين الفرنسية والعربية ، فلم نجد الحكومة من يضطلع بهذه المهمة سوى رفاة بك وتلاميذه ، فعرب هو وعبد الله بك السيد (٢) القانون المدني الفرنسي ، واشترك معهما عبد السلام افندي احمد ، واحمد افندي حلمي ، واذا لاحظت ان هذا القانون اوسع مدى من القانون المدني المصري المقتبس منه لانه يشمل عدا المعاملات المدنية احكام الاحوال الشخصية عرفت مبلغ الجهد الذي بذله رفاة بك ومساعدوه في تعريبه ، وحسبك أنه يقع في ٢٢٨١ مادة طبعت (٣) في مجلدين كبيرين ، يقع الأول في نيف وثلثمائة صفحة ، والثاني في مائتي صفحة من الورق الكبير ، وعرب قانون المرافعات عبد الله ابو السعود افندي ، وحسن افندي فهمي ، وعرب محمد قدرى باشا قانون العقوبات ، وصالح بك مجدي قانون تحقيق الجنايات ،

-
- (١) ولدت سنة ١٨٤٠ وتوفيت سنة ١٩٠٢ ، راجع ديوانها (حلية الطراز) وانظر ترجمتها المسهبة للأنسة (محي)
 (٢) من تلاميذ مدرسة اللسان وقد ترجمنا له فيما يلي
 (٣) سنة ١٢٨٣ ١٨٦٦ هـ ميلادية

وهم من تلاميذ رفاعة بك ، ومن هذه القوانين قد استمد الشارع المصرى معظم أحكام قوانين المعاملات المدنية والمرافعات والعقوبات تلك القوانين التى بنى على أساسها النظام القضائى الحديث ، ومن ذلك يتبين فضل رفاعة بك وتلاميذه فى إقامة صرح العدالة فى مصر

روضة المدارس

ومن أجل أعماله انه تولى رئاسة تحرير مجلة (روضة المدارس) التى أنشأها العلامة على باشا مبارك سنة ١٨٧٠ حين كان وزيرا للمعارف العمومية فى عهد اسماعيل ، وهى مجلة علمية أدبية اجتماعية ، أنشأتها وزارة المعارف كما قدمنا لاحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة وتولى رأسها رفاعة بك ويباشر تحريرها ابنه على بك فهمى رفاعة مدرس الانشاء بمدرسة الادارة والألسن وقتئذ وكان المترجم يتولى تحرير ابواب المجلة يعاونه فى ذلك نخبة من العلماء والادباء امثال على باشا مبارك ، وعبد الله بك (باشا) فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، والمسيوبى وكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، واسماعيل بك (باشا) الفلكى ، ومحمد قدرى بك (باشا) ، ومحمود باشا الفلكى ، والدكتور محمد بك بدر ، واحمد بك ندا العالم النبائى الشهير ، والشيخ عبد الهادى نجا الاييارى ، وصالح مجدى بك ، وابو السعود افندى محرر جريدة وادى النيل ، والشيخ عثمان مدوخ أحد اساتذة اللغة العربية بالمدارس التجبيزية ، ورأيت فيها بعض المباحث الفقهية للشيخ حسونه النواوى ، وبعض شذرات لغوية للشيخ حمزة فتح الله «من افضل ثغر الاسكندرية» ، فكانت المجلة ميدانا يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وفيها المباحث الطريفة فى العلم والادب والاجتماع والتاريخ والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وقد صدر العدد الاول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ هـ (سنة ١٨٧٠) واستمرت تصدر بانتظام فافادت الثقافة فائدة

كبرى ، وقد ذكرها المسيو دور مفتش التعليم العام على عهد اسماعيل في كتابه (١) فقال عنها « وهذه المجلة كانت توزع مجاناً على التلاميذ وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لانها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للتأبيين منهم لنشر ابحاثهم القيمة ، فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث همهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم »

وقد أصاب المسيو دور في قوله فان المجلة كانت تنشر مباحث طريقة لبعض نبهاء التلاميذ ، وقد رأيت فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم اسماعيل باشا صبرى تتجلى فيها روح الشعر الحديث وكان وقتئذ « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة »

فمنها قصيدة في مدح الخديوى اسماعيل بالعدد ٢٠ من السنة الاولى (٢) قال في مطلعها

سَفرْتُ فلاح لنا هلال سَعُود ونمى الغرام بقلبي المعمود
وقصيدة اخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية (٣) يقول في مطلعها

أغرَّتْكَ الغراء أم طلعةُ البدر وقامتْكَ الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در
وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية (٤) استهلها بقوله

لا والهوى العذرى والوجد عَذْلُ عذولى فيك لا يُجْدَى
إني مع الصدد وطول الجفأ باق على الميثاق والعهد

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر في روضة المدارس على عهد رفاعة بك

(١) التعليم العام في مصر ص ٢٥٣ (٢) غاية شوال سنة ١٢٨٧

(٣) ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٨ (٤) ١٥ دى الحجة سنة ١٢٨٨

وفاة رفاعة بك

واستمر رفاعة بك يشرف على تحرير المجلة ويكتب فيها ويتولى نظارة قلم الترجمة مع مبادرته على التأليف الى ان ادركته الوفاة سنة ١٨٧٣ م (سنة ١٢٩٠ هـ) وله من العمر ٧٥ سنة، ونشر نعيه في الوقائع المصرية، وفي روضة المدارس بالعدد ٧ من السنة الرابعة (١) وكتب نجله على بك فهمي (رفاعة ٢) مباشر تحرير المجلة عن نعيه الكلمة الآتية:

« انه ليحزنني ان انقل من عدد الوقائع المصرية الاخير، ما كتبه حضرة محررها الاستاذ الشهير (٣) ايذانا بوفاة والدي رفاعة بك رافع طاب ثراه، وجعل الجنة مثقله ومثواه، وحيث كانت دموع الاسف على فقده، شاغلة لي عن القيام بحقوقه الواجبة على من بعده، فليس في وسعي الآن، الا الدعاء له بالرحمة والرضوان» وكانت المجلة تنشر تباعا آخره مؤلفات المترجم وهو كتاب نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز (في تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام فاستمرت تنشر تنمة الكتاب بعد وفاة المترجم

صفاته واخلاقه

وصف صالح مجدي بك استاذة رفاعة بك بقوله:

« كان قصير القامة، عظيم، واسع الجبين، متناسب الاعضاء، اسمر اللون، ثابت الكون، وكان فيه دهاء وحزم، وجراة وثبات عزم، واقدام ورياسة، ووقوف تام على أحوال السياسة، وتفرد في الامور، وكان حميد السيرة، حسن السريرة» هذا ما كتبه أقرب الناس اليه واعرفهم باخلاقه وصفاته، ويلوح لنا أن من

(١) ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٩٠

(٢) الذي صار على باشا رفاعة وكيل نظارة المعارف العمومية

(٣) الشيخ احمد عبد الرحيم

أخص صفات المترجم الصبر على المسكاره وقوة العزيمة والاباء والشهامة ، أما الصبر فقد برهن عليه بما احتمل من مضض النفي في الخراطوم بشجاعة وثبات ، وتتحلى لك قوة عزمته من مثابرته طول حياته على التأليف والترجمة على ما يقتضيه ذلك من الجهد والعناء ، ومن كونه عرب كتابا من خيرة كتبه وهو في منغاه ، فالنفس التي لا يحول النفي دون مثابرته على العمل هي نفس يزينها الايمان ومضاء العزيمة ، ورفاعة بك في عمله بمنغاه يشبه الفيلسوف الفرنسي (كوندورسيه) الذي ألف وهو مطارد كتابا من خيرة مؤلفاته

ومن أخص مزايا القميد كما قلنا الشم والاباء والشهامة ، وقد تكون هذه المزايا مما عرقل تقدمه في مناصب الحكومة ، إذ أنه على ما عرف به من عظيم الكفاءة لم يتجاوز « نظارة قلم الترجمة » بوزارة المعارف العمومية ، و « نظارة قلم الترجمة » على ما لها من المكانة العلمية أقل مما يستحقه رفاعة بك من رفيع المناصب ، وكذلك يلاحظ انه لم ينل رتبة الباشوية مع أن اقاربه ومن هم دونه مرتبة ومنزلة نالوها ، ولا يمكن تعليل كل ذلك من ناحية الكفاءة والجدارة فإن كفاءة رفاعة بك كانت منقطعة النظير ، وجدارته معترف بها من الجميع ، فبقاؤه في « نظارة قلم الترجمة » وعدم بلوغه مرتبة الوزارة وهي النهاية التي يتطلع اليها من يفتطمعون في سلك المناصب الحكومية لا بد ان يكن ذلك راجعا الى ما اتصف به رفاعة بك من الشم والاباء ، فإن هذه الصفات على كونها من اسمى الفضائل ليست محببة الى الرؤساء وولاة الأمر ولا ترغبهم كثيرا في اصحابها ولا تميل اليهم الى اسناد المناصب الرفيعة اليهم واشتهر رفاعة بك أيضا بالكرم والجود ، والزهد في المنفعة والخيلاء ، وفي ذلك يقول تلميذه صالح بك مجدى « وكان فيه زيادة كرم وسماحة ، ومزيد بلاغة وفصاحة ، كثير التواضع جم الادب ، محبا للخير ، وكان كلما ارتقى الى اسنى المناصب وجلس على اسمى المراتب ازداد تواضعا للرفع والوضع ، وتضاعف سعيه في قضاء حوائج الجمع ، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها ، وكان قليل النوم كثير الانبهاك في التأليف والتراجم حتى انه ما كان يعتنى بملابسه »

وطنيته

لقد أشربت نفس رفاة بك الوطنية منذ نعومة اظفاره ، تلقاها من ايمانها الصادق (وحب الوطن من الايمان) ومن فطرته السليمة وحبها للخير ، وقد استثار رحياله عن الديار تلك العاطفة الشريفة ، فحركت الغربة في نفسه الحنين الى الوطن ، ووجدت قريحته باسعار تدل على وطنية عميقة ، ولا غروفا العواطف الانسانية تنشأ في قرارة النفس ثم تبدو وتظهر كما استثارها الحوادث والمناسبات

وكان لاقامة رفاة بك في باريس أثر كبير في تكوين وطنيته ، فقد رأى في تلك الديار مظاهر اخلاص الفرنسيين لوطنهم وشهد ثورة الشعب سنة ١٨٣٠ ورأى مفاداة الناس للوطن وبذلهم ارواحهم ودماءهم في سبيله ، فاثرت هذه المشاهد الرائعة في نفسه الحساسة وصادفت منها موضع الانجذاب والاقناع ، وغرست في قلبه الفضائل والمبادئ الوطنية التي كان يميل اليها بفطرته الطيبة ، وانك لتلمح ضوء الوطنية الساطع من قصيدة له بباريس قالها في الحنين الى مصر وأهلها والاشادة بذكرها ، قال فيها :

نأح الحمام على غصون البان	فأباح شيمه مغرم ولهان
ماخلته مذ صاح الا أنه	اضحى قفيدة أليفه ومعاني
وكأنه 'يلقى الى' اشارة	كيف اضطبارى 'مذناى' خلانى
مع اننى والله مذ فارقهم	ماطاب لى عيشى وصفو زمانى
لكنى صب اصون تلمقى	حتى كأتى لست باللهفان
وبباطن الاحشاء نار لو بدت	جراتها ماطاقها الثقلان
ابكى دما من مهجى لفراقهم	واود الاتشعر العيمان
لى مذهب فى عشقهم واريته	ومذاهب العشاق فى اعلان
ماذا على اذا كتمت صبايقى	حتى لو ان الموت فى السكتان

وانتقل الى التغنى بمصر وذكّر محاسنها فقال :

هذا لعمري ان فيها سادةً قد رُيّنوا بالحسن والاحسانِ
يايها الخافي عليك فخارها فاليك ان الشاهد الحسانِ
ولئن حلفتُ بأنّ مصرَ جنةٌ وقطوفها للفائزين دواني
والنيل كوثرها الشهيّ شرابه لأبرُّ كلَّ البرِّ في أيمانِي
دارٌ يحقُّ لها التفاسخ سببا بعزيرها جدوى بنى عنانِ
وامتدح محمد على وابراهيم باشعار نهج فيها منهج الاشادة بالمفاخر القومية قال:
من كان مثل أميرنا فقريته اسكندرٌ او كسرٌ نُوشِرُوانِ
في وجهه النصرُ المبين على العدا لاحت بشائره لكل معاني
في كفه سيفان سيفٌ عنايةٍ والشهمُ ابراهيمُ سيفٌ ثانِي (١)
وله قصائد ومنظومات وطنية قالها في مناسبات مختلفة ، فتأمل في القصيدة
الآتية تجدها تعبر عما يجيش في نفسه من انبل العواطف ، وقد قدمها هو للقارئ
بقوله « وقلتُ أيضا وطنية »

مذهب

ياصاح حُبُّ الوطن حلية كل فطن

دور

محبةُ الاوطان من شعب الايمان
في انحر الاديان آية كل مؤمن

مذهب

ياصاح حُبُّ الوطن حلية كل فطن

دور

مساقط الرءوس تلذ للنفوس

تذهب كلُّ بوسٍ عنا وكلُّ حزنٍ

دور

ومصر ابهى مولدٍ	لنا وازهى محمداً
ومربعٍ ومعهدي	للروح أو للبدن
شدت بها العزائم	نيطت بها التمايم
إطبعمنا تلائم	في السر أو في العلن
مصرُ لها أيادي	عليها على البلاد
وغرُّها يُنادي	ما المجد الا ديدني
الكون من مصراقتبس	نوراً وما عنه احتبس
وما نغارها التبتس	الا على وغرِّ دني
نغرُّ قديمٍ يؤثر	عن سادة ويُنشر
زهور مجد تنثر	منها العقول تجتني
دارُ نعيمٍ زاهية	ومعدنُ الرفاهية
آمرةٌ وناهية	قدما لكل المدن
تحنو على القريب	تحلو لدى الغريب
ترنو الى الرقيب	شزراً بسهم الاعين
طول المدى ولود	وللهدي ودود
ما أمها جحود	الا انثى بالوهن
قوة مصر القاهرة	على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهرة	خُصت بذكر حسن

منازل	رحيبة	وبلنتى	خصيبة
وللهنا	بجيبة	وهى اعز	موطن
علموها	حقائق	فهومها	دقائق
رموزها	رقائق	تحلو لاهل	الفطن
اما ترى	الاهالى	ترقى ذرا	المعالى
هم سادة	موالى	جمال وجه	الزمن
ابناؤها	رجال	لم يشتمهم	مجال
ولا بهم	أوجال	فى ليل وقع	دجر
وذوقهم	مطبوع	وقدرهم	مرفوع
وصيتهم	مسموع	يشرف	التمد
وجندهم	صنديد	وقلبه	حديد
وخصمه	طريد	بل مدرج	فى كفن
كل قى	جليل	يعشق وادى	النيل
كم فيه	من نزيل	يقول مصر	وطقى
فان ترم	السعادا	ياسعد دع	سعادا
ولد بمن	اعادا	لمصر نخرها	السنى
صادق وعدي	محسن ^(١)	وذكره	'يستحسن'
ولا تزال	الألسن	تشدد	بذكر المحسن
رب	'دلا' وحسب	عن جده	وعن أب

(١) الاشارة هنا الى الحدبوى اسماعيل

فقتل لمصر انتسبي الى جزيل المن
ادامه رب العلا أمير عز وولا
بجاه طه من علا بالعدل جور الفتن (١)

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره

نُنَظِّمُ جُنْدَنَا نَظْمًا عَجِيبًا يُعْجِزُ الْفُهْمَا
بِأَسَدٍ تُرْعِبُ الْخَصْمَا فَمَنْ يَقْوَى يَنَاضِلُنَا
رِجَالٌ مَالَهَا عَدَدُ كَمَالِ نِظَامِهَا الْعُدُدُ
حُلَاهَا الدَّرْعُ وَالزَّرْدُ سِنَانُ الرِّمَحِ عَامِلُنَا
وَهَلْ خَلِيلُنَا شَبَهٌ كَرَامٌ مَا بِهَا شَبَهٌ
إِلَيْهَا الْكُلُّ مُنْتَبَهٌ وَهَلْ تَخْفَى أَصَائِلُنَا
لَنَا فِي الْجَيْشِ فِرْسَانٌ لَهِمْ عِنْدَ الْأَقْمَا شَانٌ
وَفِي الْهَيْجَاءِ عَنَوَانٌ تَهَيَّمُ بِهِ صَوَاهِلُنَا
فَهَا الْمِيدَانُ وَالشُّقْرَا سَقَتْ أَذْنَ الْعَدَاوِ قَرَا
كَأَنَّا نُرْسِلُ الصُّقْرَا فَمَنْ يَبْغَى يَرَا سِلْنَا
مَدَافِعُنَا الْقَضَا فِيهَا وَحَكْمُ الْحَتَفِ فِي فِيهَا
وَاهْوَنُهَا وَجَافِيهَا تَجُودُ بِهِ مَعَامِلُنَا
لَنَا الرُّؤْسَاءُ أَبْطَالٌ رِجَالٌ أَيْنَا جَالُوا
بِصَوْلَةِ عَيْلِمٍ صَالُوا يَفُوقُ الْحَدَّ صَائِلُنَا
لَنَا فِي الْمُدُنِ تَحْصِينٌ وَتَنْظِيمٌ وَتَحْسِينٌ
وَتَأْيِيدٌ وَتَمَكِينٌ مَنِيَعَاتُ مَعَاقِلُنَا

ولعمري ان هذه الابيات لمن خير ما قيل في وصف الجيش المصرى ، ولا شك ان رفاة بك قد استلهم شعره من مفاخر الجيش في عصر محمد على ، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويرا صحيحا لا مبالغة فيه ولا اغراق ، وان قصيدته لتشبه ان تكون صورة يخيّل للقارئ انه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير الى ميادين الحرب تحف بها أعلام النصر والظفر ، وتخوض غمار القتال بقلوب ملؤها الشجاعة والاقدام ، وتجاهه الاخطار قوية الايمان ثابتة الجنان ، مجهزة بالسلاح والمدافع « تجود بها معاملنا » تلك التى كانت قائمة فى عصر محمد على ، ولولم يشهد رفاة بك مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر لما جادت قريحته بهذا الشعر ، وهكذا يتأثر الشاعر والاديب بالعصر الذى يعيش فيه والبيئة التى تحيط به ويصور الحياة على عهده ، فكأنما هو قطعة من عصره ، او مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية ومظاهر الحالة الفكرية والخلقية وانك لتلمح ايضا عظمة الجيش المصرى من قول رفاة بك فى قصيدة اخرى يخاطب فيها الجنود :

يايها الجنودُ	والقادة الاسودُ
إن أُممكم حسودُ	يعودُ هَامِي المدْمَعِ
فكم آسكمُ حروبُ	بنصركم تؤوبُ
لم تثنِيكمُ 'خطوبُ'	ولا اقتحامُ مَعْمِعِ
وكم شهدتم من وغي	وكم هزتم من بَغَى
فمن تعزى وطفى	على حماكم يُصرع

وتمجلى لك روحه الوطنية فى تعريبه نشيد فرنسا القومى (المارسليز) ، فان النفس لا تميل الا الى ما هو محبوب اليها ، فهذا النشيد قد استثار ولا شك اعجاب رفاة بك حتى مالت نفسه الى تعريبه واظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حلة عربية قشيبية ، وتبين ايضا وطنيته من انك تراه يكثر من عبارات

الوطن وخدمة الوطن والوطنية في مؤلفاته ، وهو أول من استعمل هذه الكلمات في نثره ونظمه ، فتأمل في فصول كتابه الممتع (مناهج الألباب المصرية) تجد انه جعل عنوان مقدمته « في ذكر هذا الوطن ومآله في شأن تدينه ارباب الفطن » وتجد انه يقول عن سبب تأليف الكتاب انه القيام بواجبه نحو الوطن (ص ٤) ويتكلم عن الترغيب في حب الوطن (ص ٧) ويشيد بمفاخر مصر في فصول متعددة ، على انه لا يتعلق الجماهير فيما يكتب بل يخلص النصيح والارشاد لبني وطنه ، وبذلك برهن على وطنية صادقة خالية من شوائب التغرير والتضليل وافردي كتابه (المرشد الامين للبنات والبنين) فصلا بعنوان (في ابناء الوطن وما يجب عليهم) وتكلم عن لزوم اتحاد الكلمة بين اهل الوطن « لان الله سبحانه وتعالى انما اعدهم للتعاون على اصلاح وطنهم ، وان يكون بعضهم بالنسبة الى بعض كاعضاء العائلة الواحدة ، فكأن الوطن انما هو منزل آبائهم وامهاتهم ومحل مربيهم فليكن ايضا محلا للسعادة المشتركة بينهم » ، وقال ايضا « فالوطني المخلص في حب الوطن يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويفديه بروحه ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر كما يدفع الوالد عن ولده الشر ، فينبغي ان تكون نية ابناء الوطن دائما متوجهة في حق وطنهم الى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئا مما يخل بحقوق او طائفتهم واخوانهم فيكون ميلهم الى ما فيه النفع والصلاح ، كما ان الوطن نفسه يحمي عن ابنه جميع ما يضر به »

وضرب المثل بما بلغته الأمة الرومانية من العظمة حينما كان ابناءؤها مستمسكين باهداب الوطنية وقال (ص ٩٥) « فمن هذا يفهم أن امة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها ، ولهذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها ، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين اعضاء هذه الملة وفسد حالها وانحل عقد نظامها »

(استدراك)

سقطت كلمة (الهامة) من السطر ١٦ بالصفحة ٤٩٨ فلزم التصحيح ، والصواب هكذا « كان قصير القامة ، عظيم الهامة »

اسلوبه

من التأمل فيما نقلناه من شعر رفاعة بك ونثره نستطيع أن نتبين مبلغ تقدم اللغة والاسلوب في إنشائه تقدما نسبيا عن العصر الذي سبقه ، وخاصة إذا قارناه بأسلوب رجال المدرسة القديمة كالجبرتي والمهدي والخشاب وغيرهم ، وهذا التقدم هو نتيجة النهضة الادبية والعلمية التي ظهرت في عصر محمد علي باشا واعقبت حركة الركود التي اصبحت بها العلوم والآداب في عصر المماليك (١)

فأسلوب رفاعة بك قد تحلل من قيود الركاة القديمة ، وامتاز بصحة العبارة والتأثر من الثقافة الاوروبية ، وهو وان كان قد تقيد في بعض المواطن بقيود السجع المتكلف والبديعيات اللفظية الا انه خطا باللغة والانشاء خطوة في طريق التقدم ، وفي بعض شعره ونثره تلمح روح البلاغة ونسيم الترسل والسهل الممتنع فرفاعة بك هو اول من نهض بالشعر والادب في العصر الحديث ، ويعتد شعره دور الانتقال الى دولة الادب الجديدة التي حمل لواءها البارودي واسماعيل صبري وشوقي وحافظ ومطران وغيرهم من اعلام الادب ، نعم اننا اذا وضعنا شعره الى جانب « شوقيات » امير الشعراء « ووطنياته » لجاء في المرتبة الثالثة او الرابعة من جهة الروح والاسلوب والبلاغة وابتكار المعاني ، ولكن يجب الان نسي ان رفاعة بك نشأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخرها واضمحلالها ، فله على النهضة الادبية والعلمية فضل لا ينكر ، واغلب الظن انه لو تفرغ للادب والشعر دون التعريب والتأليف العلمي لبلغ في دولة الادب شأوا اعظم مما ادركه

تلاميذ رفاعة بك

ان الكلام عن رفاعة بك يستتبع الكلام عن تلاميذه الذين تخرجوا على يده في مدرسة الألسن ، لانهم ثمرة هذه المدرسة وأثرها انخالد ، على ان من الواجب

ان تنوه بانه من يوم ان تولى منصب الترجمة في مدرسة الطب ، ثم في مدرسة المدفعية بطره ، صار له تلاميذ ومريدون ، ومن تلقوا عنه في مدرسة الطب الدكتور محمد علي البقلى باشا ، فقد نقل عنه صالح مجدى بك (١) أنه اخذ هو وزملاؤه عن رفاة بك بعض العلوم الأولية بمدرسة الطب باني زعبل سنة ١٢٤٧ هـ وانه شهد له شهادة اوجبت اختياره ضمن اعضاء البعثة الطبية الاولى التي ارسلت الى فرنسا ، ومعلوم ان البقلى باشا هو من اعلام الطب في عهد محمد علي وعهد اسماعيل ، ولم يفتأ بعد عودته واسناد كبرى المناصب اليه يذكر لرفاعة بك فضله عليه ثم جاء عهد مدرسة الألسن ، فكثرت عدد تلاميذه وتخرج على يديه نخبة من العلماء والادباء ممن اضطلوعوا بمهمة التعريب والترجمة والانشاء سواء في الادب والتأليف أوفى دواوين الحكومة

وقد ذكر السيد صالح مجدى بك اسماء النوابغ والتأهين منهم ورتبهم الى ثلاث طبقات بحسب دخولهم المدرسة

فذكر من الطبقة الأولى عبد الله ابو السعود افندى ، وهو العالم النثر محرر جريدة وادى النيل اول صحيفة سياسية حرة ظهرت في مصر على عهد اسماعيل ، واكبر رجال قلم الترجمة ثم ناظره ، ومدرس التاريخ العمام بدار العلوم ، وصاحب المباحث الشيقة في مجلة روضة المدارس

وخليفة افندى محمود مترجم كتاب (اتحاف الملوك الالباء بتقدم الجمعيات في بلاد اوروبا) وكتاب (اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارل كان) في ثلاثة مجلدات ، ومحمد افندى مصطفى البياع الموظف بالتحريات الافرنجية ، ومحمد افندى عبد الرازق مترجم كتاب (غاية الارب في خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سديليو ، وعبد الجليل بك من كبار موظفي المعينة السنية ، وشحاته عيسى بك من نوابغ البعثات العالمية وناظر مدرسة اركان حرب في عهد اسماعيل ، وابراهيم بك مرزوق

الشاعر الاديب، وحنفي افندى هند من نوابغ من تخصصوا فى الفنون الحربية بفرنسا،
وحسن بك فهمى المصرى وكيل سكك الحديد بالوجه القبلى ثم القاضى بالمحكمة المختلطة
واحمد بك عبيد وكيل المحكمة التجارية بالقاهرة ثم قاض بمحكمة الاسكندرية
المختلطة وله تراجم فى القوانين العسكرية وترجم تاريخ بطرس الاكبر

ورمضان افندى عبد القادر مترجم بديوان البحرية وله تراجم عسكرية
عديدة ، ومحمد افندى الحلوانى ، وعبد الرحمن افندى احمد وله تراجم طبية وتاريخية
لم تطبع ، وحسن افندى الجبيلى مترجم بديوان الاوقاف وله تراجم فى التاريخ ،
وسعد افندى مجدى ، ومحمد افندى السمسار مترجم ضبطية مصر وله تراجم غير
مطبوعة ، ومحمد افندى على القوصى مأمور التذاكر الافرنجية باسكندرية ،
وحسين افندى على الديك مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة وله كتاب قيم فى مسك
الدفاتر ، والسيد عثمان افندى الدوينى قاضى محكمة الواسطة الشرعية ، وحسن افندى
الشاذلى من خريجي البعثات ، واحمد افندى عياد مترجم باسكندرية ، وعطيه
افندى رضوان ، ومصطفى افندى رضوان كاتب المجلس الصحى ومدرس اللغة
الفرنسية بمدرسة الطب ، ومحمد افندى زهران مدرس بمدرسة الطب

ومن الطبقة الثانية وهى التى دخلت المدرسة سنة ١٢٥٢هـ: عبد الله بك السيد
من نوابغ البعثات وقد ترجمنا له فيما يلى ، ومصطفى بك السراج وقد شرع فى عمل
قاموس فرنسى عربى لم يتمه ، وصالح مجدى بك صاحب رسالة (حلية الزمن) فى
ترجمة رفاة بك ومؤلف كثير من الكتب ، ومحمد رشدى بك ، ومحمد افندى الطيب
مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة المحاسبة والمساحة ، ومحمد افندى البجيرى مدرس اللغة
الفرنسية بالمدرسة التحضيرية ، ومحمد افندى سليمان مدرس اللغة الانجليزية بالمدارس
الحربية وأول من برع فى الترجمة من الانجليزية ، وخورشيد افندى فهمى من
خريجي البعثات ، وعلى افندى سلامة مدرس اللغة الفرنسية والجغرافية ، وحسين
خاكي افندى ، وعبد السلام سامى افندى ، وعلى افندى شكرى ، وقاسم افندى محمد ،
ومحمد افندى لاط ، ومصطفى افندى صفوت ، ومصطفى افندى السكريدلى ، ومحمد

افندى زيور ، واحمد افندى صفي الدين ، وعثمان فوزى باشا ، والسيد عمارة افندى ، ومنصور عزمى افندى ، وبجر افندى احمد ، وحسن افندى قاسم ، وقاسم افندى اسعد ، واسماعيل سري افندى ، وحسن عيسوى افندى ، والدكتور مصطفى ابوزيد ومراد مختار افندى ، وحسن افندى وفائى الخطاط الشهير

ومن الطبقة الثالثة : محمد قدرى باشا العالم المشرع الكبير صاحب الكتب الثلاثة الخالدة فى جمع وترتيب أحكام الشريعة الاسلامية فى المعاملات المدنية والاحوال الشخصية والوقف على مذهب الامام الاعظم ابى حنيفة وصوغها فى قالب القوانين الحديثة ، وهى كتاب (مرشد الخيران الى معرفة احوال الانسان) فى المعاملات الشرعية ، وكتاب (الاحكام الشرعية فى الاحوال الشخصية) وكتاب (قانون العدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الاوقاف) وهذه الكتب الثلاثة هى مرجع رجال القضاء والقانون الى اليوم والى ما شاء الله فى المحاكم الاهلية والشرعية والمختلطة ، وقدرى باشا هو ايضا مؤلف كتاب (تطبيق ما وجد فى القانون المدنى موافقا لمذهب ابى حنيفة) ووزير الحقانية ثم المعارف فى عهد توفيق باشا ومحمد عثمان جلال بك الشاعر النادر والاديب الكبير صاحب كتاب « العيون اليواقظ » عربى عن لافوتين ورواية « الشيخ متولف » ورواية « بول وفرجينى » ومحمد شيمى بك مأمور التشهيل بالاسكندرية ثم قاض فمستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة (١)

وعبد السميع افندى عبد الرحيم ، واحمد خير الله بك المترجم بمحافظة الاسكندرية ثم قاض بالمحكمة المختلطة ، واحمد محمود افندى ، وبجر عبد الله افندى ، وعبد الله محفوظ افندى ، وحسن يوسف افندى ، وعمر صبرى افندى ، وعلى رشاد افندى ، واحمد حلمى افندى ، وعبد الله يوسف افندى ، ومتولى محمود افندى مترجم ديوان الاسكندرية

هذا وقد ذكر العلامة محمد قدرى باشا احد خريجي مدرسة الألسن ان تلاميذ

(١) كما جاء فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة

هذه المدرسة قد عربوا نحو ألفي كتاب أو رسالة في مختلف العلوم والفنون ، وان جميع الذين نبغوا في الترجمة والتعريب على عهد محمد علي واسماعيل هم تلاميذ رفاعة بك أو تلاميذ تلاميذه ، وظاهر مما كتبه قدرى باشا (١) عن هذه المدرسة أن مستوى الترجمة قد هبط في مصر بعد اقفالها ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الا كفاء في التعريب ، ولذلك استعانت الحكومة كما يقول قدرى باشا بالاجانب ، واقترح لهذه المناسبة انشاء مدرسة خاصة لتعليم اللغات الاوروبية والشرقية ، والذي نعرفه ان هذا الاقتراح لم يلق تنفيذا وتقديرا ، فالمعروف ان مدرسة اللسن بعد أن اقلت في عهد عباس باشا اعيدت في عهد اسماعيل سنة ١٨٦٨ باسم مدرسة الادارة التي كانت تسمى مدرسة الادارة واللسن ، ثم عرفت بمدرسة الادارة فقط ، ثم تطورت منذ سنة ١٨٨٦ الى مدرسة الحقوق ، فمدرسة الحقوق هي خليفة مدرسة اللسن ، ولكن فن الترجمة وما يقتضيه من تخريج المترجمين العلماء الا كفاء لم يكن موضع العناية لافي مدرسة الادارة ولا في مدرسة الحقوق

مؤلفاته

نشأ رفاعة بك في فجر النهضة العلمية والادبية الحديثة ، وكان هو اول من حمل لواءها ، استوفى العلوم الازهرية ونال حظا كبيرا من العلوم انعصرية الاوروبية ، فكان منهاجه العلمي أن ينقل الى بنى وطنه علوم الافرنج في التاريخ والجغرافية والرياضيات والقانون وكان طليعة حركة التعريب في النهضة الحديثة وقد اقترن انتاجه بنزعة وطنية قوية تلقاها كما اسلفنا من فطرته الطيبة وكرم اخلاقه وما اثارته مشاهد الثورة الفرنسية سنة ١٨٣٠ في نفسه من عواطف وطنية صادقة ، فأتجه انتاجه الى تهذيب النفوس وارشادها الى مافيه رفعة الوطن ومجده وكانت له نفس شاعرة جادت بشعر تترقرق فيه معاني الوطنية ، وله قلم جمع بين الادب العربي والثقافة الاوروبية ، ولم يقف انتاجه عند حدود التعريب بل ألف وابتكر صحائف وكتبا ممتعة في التاريخ والادب والتربية والاخلاق

(١) في كتابه (معلومات جغرافية) المطبوع سنة ١٨٦٩

ويضاف الى هذه الخصاص والمزايا ايمان ثابت وعقيدة دينية صادقة ، وعزيمة ماضية ، وصبر طويل ، وجلد على العمل انفرديه عن النظير وكان له اكبر الاثر في خصب انتاجه العلمى والادبى ، فمن هذه العناصر تتكون شخصية رفاعة بك من ناحية التأليف والتعريب ، وسند كرهنا على ضوء هذه الملاحظات مؤلفاته ومعارفاته ، وسنجهده في ترتيبها بحسب ظهورها

(١) فأول تأليفه رحلته الى فرنسا المعروفة (بتخليص الابريز في تلخيص باريز) تتضمن مشاهداته في رحلته وما انطبع منها في ذهنه اثناء اقامته بباريس ، وفيها وصف احوال فرنسا ونظام الحكم فيها واخلاق اهلها وعاداتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم وعقائدهم وصنائعهم واحوالهم المعاشية والسياسية والاجتماعية ، وفي هذه الرحلة يتبين اتجاه المترجم الى الابحاث التاريخية والجغرافية ، فانه يجعلها الغاية الاولى من مشاهداته ، فما من بلد مر به أو أقام فيه الا ويذكر لمعة من ماضيه وحاضره ، ويتبين منها ايضا وفرة مادته من الادب واللغة ، ويميله الى التعمق في البحث والاستقصاء ، ودقة ملاحظاته ونفاذ بصيرته ، وتمسكه باهداب الدين مع سعة الفكر والرغبة في الاخذ باسباب تقدم الأمم الأوروبية ، ويدلك على شغفه بالعلم اسبابه في وصف علوم فرنسا وعلمائها ومكاتبها وجمعياتها العلمية ومدارسها ومعاهدها وثروتها العلمية من الكتب والمجلات والصحف

وهذه الرحلة كما قدمنا هي اول رحلة مصرية باوروبا في تاريخ مصر الحديث ، وقد طبعت ببولاق وسر لها محمد على سرورا كبيرا وامر بقراءتها في قصوره وتوزيعها على الدواوين والوجوه والاعيان وقراءتها في المدارس المصرية

(٢) وعرب وهو في باريس كتاب (قلائد المغاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر) طبع ببولاق سنة ١٨٣٣ بعد عودة المترجم من فرنسا - (٣) واخذ وهو في فرنسا يعرب كتاب المسيو ملتبرون Maltbrun في الجغرافية فعرب الجزء الاول منه بعنوان (الجغرافية العمومية) ثم عرب في مصر جزء آخر - (٤) وله في الجغرافية العمومية كتاب آخر اسمه السكندر المختار في كشف الاراضى والبحار - (٥) وكتاب

(التعريفات الشافية لمريد الجغرافية) وهو كتاب ضخيم عربى عن عدة كتب فرنسية و اضاف اليه ايضاحات واسعة ويتناول جغرافية مصر وسائر بلدان العالم وقد عرضه على محمد على باشا فأمر بطبعه ونشره لتعميم نفعه وطبع ببولاق سنة ١٨٣٨

(٦) وله فى الرياضيات والطبيعات كتاب (مبادئ الهندسة) عربى عن لوجندر وطبع سنة ١٨٤٣ وكتاب (تعريف المعلم فرادر) فى المعادن النافعة لتدبير المعاش طبع سنة ١٨٧٣ - (٨) وعرب وهو بالخرطوم كتاب (مواقع الافلاك فى وقائع تليهاك) مؤلفه لافونتين وقد تكلمنا عنه

(٩) وله فى النحو كتاب (جمال الاجرومية) طبع سنة ١٨٦٣ - (١٠) والتحفة

المكتبية فى تقريب اللغة العربية ، جمع فيها قواعد النحو ، طبعت سنة ١٨٦٨ (١١) وظهر له سنة ١٨٦٦ (تعريب القانون المدنى الفرنسى) المعروف بالكود (قانون

نابليون) وهو عمل ضخم يدل على علو كعب رفاة بك فى العلم والفقه والقانون والتعريب وقد اسلفنا الكلام عنه - (١٢) وعرب (قانون التجارة الفرنسى) وظهر سنة ١٨٦٨

(١٣) وفى سنة ١٨٦٩ ظهر كتابه الممتع (مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية) وهو فيما نعلم اجل مؤلفاته واولها بياننا واعمها نفعها واغزرها

مادة ، يشتمل على وصف مصر وبيان حضارتها وأخلاقها وعلومها وصنائعها وحكومتها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويتضمن مباحث قيمة فى التاريخ والجغرافية والآداب والاخلاق والمواعظ والحكم ، وفيه نبد ممتعة عن الحقوق والواجبات الوطنية

(١٤) روضة المدارس ، وهى المجلة التى تولى الاشراف على تحريرها وله فيها مباحث قيمة فى الادب والتاريخ وقد سبق الكلام عنها

(١٥) وظهر له سنة ١٨٧٢ كتابه القيم (المرشد الامين للبنات والبنين) وهو كتاب اخلاق وتربية للتعلمين والمتعلمات وقد تكلمنا عنه واقتبسنا منه - (١٦) وظهر له

سنة ١٨٦٥ الجزء الاول من كتاب (انوار توفيق الجليل فى اخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل) طبع ببولاق فى تاريخ مصر ولم يصدر منه الا الجزء الاول وفيه تاريخ مصر القديم وتاريخ العرب قبل الاسلام ، ويقول صالح مجدى بك انه اخرج الجزء

الثاني ولكننا لم نعثر عليه وليس في دار الكتب الا الجزء الاول - (١٧) وله رسالة (الكواكب النيرة ، في ليالى افراح العزيز المقمرة) في تهانى الخديوى اسماعيل بافراح انجالة - (١٨) وآخر مؤلفاته كتاب (نهاية الایجاز فى سيرة ساكن الحجاز) وهو تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام وقد نشر تباعا فى مجلة روضة المدارس بالعدد ٤ من السنة الثالثة والاعداد التالية من السنة الثالثة والرابعة والخامسة

وعدا هذه المؤلفات قد نقح وهذب مؤلفات اخرى لتلاميذه ، وذكر صالح مجدى بك فى رسالته حلية الزمن مؤلفات اخرى لرفاعة بك لم تطبع ولم اعثر عليها ، وهى (رسالة فى الطب) و (مختصر معاهد التخصيص) و (مجموع المذاهب الاربعة) و (شرح لامية العرب) و (ترجمة منتسكيو)

وعن (ترجمة موننتسكيو) قرأت للاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان رسالة يقول فيها انه سمع من ابن رفاعه بك ان اياه عرب هذا الكتاب ، ورأيت فى قصيدة لرفاعة بك فى (مناهج الالباب المصرية) ما يؤيد ذلك اذ يقول عن نفسه

على عدد التواتر معربا تفى بغنون سليم اوجهاد
و (ملطبرون) يشهد وهو عدل و (منتسكو) يقر بلامادى (١)

هذا ماوسعه المقام فى الكلام عن مؤلفات رفاعه بك ، عليه الرحمة والرضوان

على مبارك باشا

هو العالم الجليل ، ابو التعليم فى عصر اسماعيل وتوفيق ، وناظر المعارف والاشغال والاولاف ، وصاحب الخطط التوفيقية

كانت البعثة التى التحق بها بعثة عسكرية هندسية تخصصت فى العلوم الحربية والرياضيات ، ولكن نبوغه اتجه الى التربية والتعليم والى الجغرافية والتاريخ اكثر من اتجاهاه الى الحربية والرياضيات ، ولذلك جعلناه قرينا لرفاعة بك

وقد عاد من البعثة بعد وفاة محمد على باشا ، ونظراً لأن معظم سنى حياته العلمية والقومية اقترنت بعصر اسماعيل وتوفيق فقد ارجأنا ترجمته والكلام عنه الى الجزء الرابع

الهندسة والرياضيات

مصطفى بهجت باشا

المعروف اثناء دراسته بمصطفى محرجي افندي ، هو مصطفى بهجت باشا المهندس المشهور ، تلقى علومه بمدرسة قصر العيني ، وكانت اعدادية للمدارس الحربية والعالية^(١) وأقام بها ثلاث سنوات ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة بالقاهرة ، وسافر الى فرنسا ضمن اعضاء البعثة الأولى ، وأقام ببباريس عشر سنوات أتمن في خلالها العلوم الرياضية والفنون الهندسية ، ولما أتم دروسه عاد الى مصر فعين ناظرا لمدرسة قصر العيني المذكورة ، وبقي في هذا المنصب سنتين ، ونال رتبة بكباشي ، ثم عين ناظرا لمدرسة المدفعية بطره ، ثم باشمهندس الجفالك ، وعهد اليه وضع مشروع لتسهيل الملاحة في الشلالات ، فقدم مشروعاً في هذا الصدد لم يتغذ ، ونال رتبة ميرالاي ، ثم اشترك مع المهندس الفرنسي موجيل بك في بناء القناطر الخيرية ، ثم عين مفتشاً لهندسة المنوفية والغربية ، وعهد اليه عباس باشا بوضع تصميم لتجديد الجامع الاحمدى بطنطا فقام بمهمته خير قيام الى أن تم بناؤه في عهد اسماعيل ، وباشر انشاء السكة الحديدية من بنها الى كفر الزيات سنة ١٨٥٧ ونال رتبة لواء ، وعين مفتش هندسة الوجه القبلي مدة ثلاث سنوات ثم اعتزل العمل وفي عهد الخديوى اسماعيل عين مفتشاً لهندسة الوجه القبلي ثانياً ، ومن أعماله أنه خطط تصميم التربة الابراهيمية من أسسوط الى جسر كوم الصعايدة الفاصل بين مديرتي المنيا وبنى سويف^(٢) ، وعين ناظراً لديوان المدارس (وزير المعارف العمومية) من سبتمبر سنة ١٨٧٠ الى مايو سنة ١٨٧١ ، ثم كلف بالاقامة بالقناطر الخيرية وموالة مظهر باشا بالرسوم والتفصيل التي يطلبها منه اثناء اقامة الاخير ببباريس مع موجيل بك والاختصاصيين من كبار المهندسين الفرنسيين لاصلاح العيون التي ظير بها خلل بقناطر فرع دمياط الى أن ادر كته الوفاة ، ويعد من كبار المهندسين في تاريخ مصر الحديث

(١) انظر ص ٣٦٧ (٢) الخطط التوفيقية ج ١٦ ص ٥٦

محمد بيومي افندى

كبير الاساتذة بمدرسة المهندسخانة ، ومن نوابغ علماء الرياضيات ، ولد بمصر ، وأصله من (دهشور) بمديرية الجيزة ، ذهب الى فرنسا ضمن البعثة الأولى سنة ١٨٢٦ وأقام بها تسع سنوات اتقن في خلالها دراسة الهندسة والعلوم الرياضية في مدرسة الهندسة ونال اجازتها (الدبلوم) ونفع في الرياضيات

ولما عاد من فرنسا عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، وكان استاذ او مرجعا لكثير من نوابغ المهندسين المصريين ، امثال سلامة باشا ، ومحمود باشا الفلكي ، وطائل افندى ، ودقلة افندى ، واسماعيل باشا محمد ، وعامر بك حمودة ، وغيرهم ، وصار كبير الاساتذة بمدرسة المهندسخانة في عهد نظارة الميسر لاميير بك فكان « المرجع اليه والمعول عليه » كما يقول على باشا مبارك في ترجمته (١)

ثم انتقل من التدريس في مدرسة المهندسخانة الى قلم الترجمة بديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) واشترك مع رفاعه بك رافع في العمل

وله جملة مؤلفات في الهندسة والرياضيات ومنها كتاب (جر الاثقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٠ ، و (ثمره الاكتساب في علم الحساب) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٦ ، وكتاب (الهندسة الوصفية) في مجلدين ، و (جامع الثمرات في حساب المثلثات) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٧

وعين في عهد عباس باشا الاول مدرسا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفي بها في منفاه

قال عنه على باشا مبارك « وكان من أعظم رجال تلك الرسالة ، حسن الاخلاق ، هيبا جليلا ، ذا رأى حسن »

محمد مظهر (باشا)

من تلاميذ البعثة الأولى ، اقام ببغداد عشرين سنة ، وتخصص لدراسة

الرياضيات والهندسة ، ونمى في العلوم الهندسية والرياضية ، وقد امتدحه المسيو جومار في رسالته عن اعضاء البعثات وقال عنه « ان نبوغ مظهر افندى في الرياضيات لما يسترعى النظر (١) » ولما عاد الى مصر عين ناظراً لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطره ، ونال رتبة بكباشى ، وتولى وظائف هندسية متنوعة ، وهو الذى بنى فناء الاسكندرية الكبير القائم بطرف شبه جزيرة رأس التين وهو من اجل اعماله ، وكان وقتئذ مظهر افندى ، واشترك مع المسيو موجيل بك فى بناء القناطر الخيرية ، واختص بالاشراف على انشاء قناطر فرع رشيد ، ونال رتبة ميرالاي ، ونال فى عهد اسماعيل باشا رتبة الباشوية (ميرميران) ، ولما ظهر خلل فى بعض عيون هذه القناطر أرسل الى فرنسا ليجمع بموجيل بك الذى كان مشرفاً على بنائها وبعض الاختصاصيين للنظر فى امر اصلاحها

ابراهيم رمضان بك

من كبار المهندسين ، عاد قبل أن يتم دراسة بعض العلوم الرياضية ، وعين فى وظيفة معيد مدرس لمظهر (باشا) ناظر مدرسة المدفعية ، فاستطاع استكمال ما ناقصه ، ثم عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، وله مؤلفات عديدة فى الرياضيات منها (القانون الرياضى فى فن تخطيط الاراضى) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٤ ، وكتاب (اللائى البنية فى الهندسة الوصفية) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٥ ، و (المنحة الدنية فى الهندسة الوصفية) طبع بمطبعة المهندسخانة سنة ١٨٥٢

احمد دقلة بك

هو من بلدة (بسيون) غربية مركز كفر الزيات ، نشأ فى مدارس مصر وارسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة ١٨٢٨ ، وتخصص فى العلوم الرياضية ، وعاد سنة ١٨٣٥ وعين معيدا للاستاذ محمد بيومى افندى كبير الاساتذة بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم عين بعد ذلك مدرسا لعلوم الجبر ، وهندسة الرى والقناطر والجسور ، ثم وكيلا

(١) المجلة الاسيوية Journal Asiatique عدد اغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٥

للمدرسة مع القائه الدروس بها ، وانتقل سنة ١٨٤٩ الى قلم الهندسة وتوفي سنة ١٨٥٦
قال عنه على باشا مبارك^(١) « وأكثر المهندسين الموجودين الآن (سنة ١٣٠٥ هـ)
تلقوا عنه ، وكان حسن اللقاء ، يجتهد في التعليم ، ويبحث على الفهم ، وكان من
أعظم المهندسين » ، وله من المؤلفات كتاب (رضاب الغايات في حساب المثلثات)
ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٣

احمد طائل افندى

هو من بلدة بلمتان قليوبية مركز طوخ ، نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر ،
والتحق بالبعثة بمدارس فرنسا الهندسية ، وعاد منها سنة ١٨٣٥ ، وعين بمدرسة
المهندسخانة مساعد مدرس ومعيداً لدروس الاستاذ محمد بيومى افندى ، ثم عين
بعد ذلك مدرسا للعلوم الميكانيكية والجبر ، ثم مهندسا للركاب العالى سنة ١٨٤٢
ثم ارسل للخرطوم مدرسا بالمدرسة الابتدائية التى انشاها عباس باشا الاول ، فذهب
اليها صحبة رفاعة بك رافع والاستاذ بيومى افندى ، وعاد من منفاه في أول حكم
سعيد باشا مصابا بالحمى ، وتوفي بعد وصوله الى بولاق ببلتين ، قال عنه على باشا
مبارك^(٢) « وكان قصير القامة صغير الجسم كثير الفهم لا يبالي باكثر الأمور ، وله
جرأة على الأمراء واقدام ، وكان محبا للتلامذة يرغب في تعليمهم ، وأخذ عنه
أكثرهم أوجميعهم »

احمد فايد (باشا)

نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر ، وأقام بفرنسا عشر سنوات يتلقى العلوم
بمدارسها ، وعين بعد عودته مدرسا للرياضيات بمدرسة المهندسخانة ، وصار من

(١) الحطط التوفيقية ج ٩ ص ٦٥ (٢) الحطط التوفيقية ج ٩ ص ٧٨

كبار اساتذتها ثم وكيلا لها ، وتخرج على يده كثير من المهندسين المشار اليهم
بالبنان ، وله مؤلفات في الهندسة والرى ، منها كتاب (الاقوال المرضية في علم بنية
السكره الارضية) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤١ ، و (تحرك
السوائل) طبع سنة ١٨٤٧ ، و (الدررة السنية في الحسابات الهندسية) طبع سنة ١٨٥٢

محمود باشا الفلكى

لم يكن محمود باشا الفلكى من تلاميذ بعثات محمد على لانه التحق بالبعثة في عهد
سعيد باشا ، لكنه تعلم علومه الأولى في مدارس محمد على وهو من زملاء العلماء المتقدمين
ذكرهم ، على أن حياته العامة ترتبط بعصر اسماعيل ، لذلك ترجمناه في الجزء الرابع

احمد بك السبكى

من اعضاء البعثة الخامسة ، وهو من (سبك الثلاث) منوفية ، ترجم له العلامة
على باشا مبارك لمنااسبة الكلام عن سبك الثلاث (١) فقال « ومن هذه البلدة ايضا
الأمير احمد بك السبكى ابن احمد ابن سليمان عجيلة من عائلة تسمى العجيلة يقال
ان اصلهم من بيت عجيلة من مديرية الشرقية » ، وذكر عنه انه دخل صغيرا
مكتب (مدرسة) منوف سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) « ضمن اولاد المكاتب الذين
جلبهم العزيز المرحوم محمد على باشا من البلاد » ، ثم نقل الى مدرسة قصر العيني ، ثم
الى مدرسة ابى زعبل ، ثم الى المهندسخانة ببولاق ، ثم سافر ضمن بعثة الانجال
الى فرنسا ، فقام ببباريس سنتين ، ثم دخل مدرسة الفرسان الحربية ، وبعد تمام
تعليمه حضر الى مصر في عهد ابراهيم باشا فجعل ضابطا من ضباط الفرسان بالالاي
الأول برتبة ملازم اول سنة ١٢٦٤ ، (١٨٤٧ م) ، وجعل مدرسا في ذلك الالاي ،
وبعد سبع سنوات خرج من خدمة الالاي والحق بالمهندسين الذين عهد اليهم
رسم خريطة قنال السويس برتبة يوزباشى في عهد سعيد باشا ، وبعد انتهاء هذه
المهمة عهد اليه معاونة العالم الكبير محمود باشا الفلكى في رسم خريطة الوجه البحرى

وبعد انتهائها انعم عليه برتبة صاغقول اغاسى ، ونال رتبة البكباشى فى اوائل عهد اسماعيل ، وألحق بديوان (وزارة) الاشغال ، ونال رتبة قائممقام ، وندب لمهمات عديدة ، وصحب محمود باشا الفلكى الى دنقله لرصد الكسوف الكلى للشمس سنة ١٢٧٦ ، (١٨٥٩ م) وسافر الى سواكن بمعية اسماعيل باشا الفلكى لاكتشاف موضع يوافق انشاء سكة الحديد من سواكن الى شندى بالسودان ، فأقام فى هذه المهمة نحو أربعة اشهر فى عمل الرسوم ثم اتضح عدم امكان انفاذ المشروع وقتئذ لما كان فى الطريق من الاودية والعقبات ، وعهد اليه مرة اخرى فى رسم خريطة الوجه القبلى من اسيوط الى القاهرة ، فاستوفها رسماً وميزانية ، وايضاً فى وضع تصميم ترعة تخرج من القناطر الخيرية الى بحيرة مريوط ، فوضع لها الرسوم والميزانيات وبالجملة كان من كبار المهندسين الذين انتفعت البلاد من خدماتهم

حسن بك نور الدين

هو من (سنهور) غربية ، ومن زملاء على باشا مبارك فى بعثة الانجال ، ترجم له فى كلامه عن سنهور (١) فقال عنه ما خلاصته ان مولده سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢ م) وتلقى التعليم الاوى فى مكتب (كفر مجر) القريبة من سنهور ، وانتقل بعد سنتين الى مدرسة طنطا فأقام بها سنة ، ثم التحق بمدرسة قصر العينى بمصر ، وانتقل منها الى مدرسة ابى زعبل ، ثم الى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وكان فى فرقة على باشا مبارك فأقام بالمدرسة خمس سنوات أتم فيها دراسة العلوم الرياضية النظرية والعملية ، وكان من ضمن السبعة الأوائل من الفرقة الأولى الذين اختارهم الحكومة فى بعثة الانجال لاتقان العلوم الحربية ، فسافر ضمن هذه البعثة ، ودخل مدرسة المهندسخانة ببيريس ، واستمر بها سنتين ، ثم انتقل الى مدرسة القناطر والجسور ، فأقام بها أربع سنوات ، وكان يجمع بين العلم والعمل ، فيقضى كل سنة ثمانية اشهر فى تلقى العلوم وأربعة اشهر فى مشاهدة الاعمال الهندسية فى المدن

(١) الخطط التوفيقية جز ١٢ ص ٦٠

والاقاليم والنفور، كالقناطر والموانى والسكك الحديدية والمصانع وعاد الى مصر سنة ١٨٥٤ وتقلد المناصب الفنية، وكان من نوابغ المهندسين وله أعمال وخدمات جليلة فى السكك الحديدية والمالية، منها، انه رسم تصميم سكة الفيوم الحديدية، وانشأ سكة حديد سدسوق، وخط الصالحية، وعين باشمهندس سكة حديد القاهرة وتنقل فى مناصب عدة، قال عنه على باشا مبارك انه «انسان حسن السير والسيرة، دين صالح، محب للصلحاء والعلماء»

الطب والجراحة

محمد على البقلى باشا

ناظر مدرسة الطب، وكبير أطباء وجراحي مستشفى قصر العينى، وهو من (زاوية البقلى) مركز منوف، ومن أنبغ نوابغ البعثات العلمية، ترجم له العلامة على باشا مبارك فوصفه «بالعلم النحرير، والسيد محمد على باشا الحكيم»، ولد فى زاوية البقلى سنة ١٨١٥، وقد اشتهرت هذه البلدة بمن نبغ من ابنائها، قال على باشا مبارك عنها (١) «وهذه القرية وان كانت صغيرة لكنها اختصت دون غيرها بمزية كثر من ترقى منها فى الوظائف السنية والخدمات اميرية، من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة»

ترعرع المترجم فأدخله أهله مكتباً ببلده، فتعلم الكتابة وشيئاً من القرآن الحكيم وفى التاسعة من عمره أدخله احمد افندى البقلى مكتب ابى زعبل فلبث فيه ثلاث سنين وأتم قراءة القرآن، ثم دخل مدرسة ابى زعبل التجهيزية، فكث بها ايضا ثلاث سنين، وبدأت عليه مخايل الذكاء، واشتهر بحسن السير، فكان أول فرقته ثم دخل مدرسة الطب، وكان ناظرها الدكتور كلوت بك، فاشتهر بالنبوغ وتوقد القريحة، وبذل جهده فى الدرس والتحصيل ففاز أقرانه، ولما اتم دراسة الطب

اختاره كلوت بك ضمن البعثة التي ارسلت لفرنسا للتبحر في العلوم الطبية ، فالتحق بمدرسة الطب بباريس « وبذل غاية جهده في تحصيل العلوم الطبية والجراحية ، وشهد له جميع اساتذتها بالتفوق على من معه مع كونه أصغرهم سناً »

وكان باراً باهله ، ذكر عنه على باشا مبارك ان مرتبه حين الحق بالبعثة كان مائة وخمسين قرشاً ، فترك لوالدته خمسين ، وأبقى لنفسه المائة ، وأتم مع زملائه امتحانات الطب بمدرسة باريس ، ولم يبق عليه سوى تأليف الرسالة الطبية التي ينال بها دبلوم الطب ، فألف رسالة طبية في الرمد الصديدي المصري ، وحصل على الدبلوم ، وعاد الى مصر سنة ١٨٣٨ ، فعين مدرسا للجراحة والتشريح بمدرسة الطب وكبيراً لجراحي المستشفى ، ونال رتبة صاغقول اغاسى ، ثم بعد قليل اعطى رتبة البكباشى ، وفي عهد عباس باشا الأول انتقل من منصبه بالقصر العينى ، وعين طبيباً في أحد اقسام القاهرة وهو قسم قيسون وذلك « لمنافسة حصلت بينه وبين بعض اطباء المستشفى الأوروبيين » ، ولما ناله من الشهرة صار مقصد المرضى من جميع الجهات ، وقل الوارد على مستشفى قصر العينى ، وظلت شهرته في اتساع ، ومكث كذلك نحو خمس سنين ، ثم نال رتبة قائم مقام وعين كبيراً لأطباء الايلات السعيدية ثم عاد لمنصب كبير جراحي مستشفى قصر العينى وعين وكيلاً للمدرسة ومدرس الجراحة بها ، ثم انعم عليه برتبة اميرالاي ، وجعله سعيد باشا طبيبه الخاص ، مع ابقاء وظائفه وأخذه في معيته ، وانعم عليه برتبة المتمايز واصططحبه في رحلته بأوروبا

وفي عهد الخديوى اسماعيل باشا عين ناظراً لمدرسة الطب ورئيساً لمستشفى قصر العينى ورغب اليه الخديوى أن يؤلف الكتب لاهياء العلوم الطبية ، ونال الرتبة الأولى ، ثم عين رئيساً لأطباء الحملة الحربية التي جردها الخديوى اسماعيل على الحبشة بقيادة السردار راتب باشا ، فأدى خدمات جليلة لجنود الحملة ، واستشهد هناك سنة ١٨٧٦ ، فكانت وفاته في ساحة الواجب والجهاد ومما يذكر له انه بذل جهداً كبيراً في مكافحة الكوليرا التي انتابت مصر

سنة ١٨٦٥ ، وكافأته الحكومة على جهوده بالنيشان المجبدي من الرتبة الثالثة وأظهر ناحية في شهرته أنه كان نابغة الجراحين ، وكان باراً بالناس ، محباً للخير ، يعطف على الفقراء من المرضى ، فلا يطلب منهم أجراً ، وله في الطب تأليف قيمة ، كتاب في الجراحة الصغرى سماه « روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى » طبع سنة ١٨٤٣ وكتاب « غرر النجاح في أعمال الجراح » في جزأين طبع سنة ١٨٤٦ و « نشر الكلام في جراحة الاقسام » لم يطبع ، وكتاب في العمليات الجراحية الكبرى في مجلدين سماه « غاية الفلاح في أعمال الجراح » طبع سنة ١٨٦٥ ، وأصدر سنة ١٨٦٥ مجلة « اليعسوب » بالاشتراك مع الدكتور ابراهيم دسوقي بك وهي أول مجلة طبية عربية ظهرت في مصر

ابراهيم بك النبراوى

هو من (نبروه) بمديرية الغربية ، تلقى التعليم الأولى في مكتب البلد ، ثم ترك المكتب وتعلق بالبيع والشراء والتجارة ، وسافر الى مصر للتجارة فحضر فيها فدخل الازهر ، واشتغل بطلب العلم الى أن اختارت الحكومة من الازهر بعض تلاميذه للاحاقهم بمدرسة الطب بأبى زعبل ، فرغب المترجم الا لحاق بها فانتظم في سلمكمها ونال بها رتبة ملازم ، ونبغ فيها ، فكان أحد أعضاء البعثة الطبية الذين اختارهم الدكتور كلوت بك لاتمام علومهم في فرنسا ، فسافر ضمنها وأقام بفرنسا ١٣ سنة وأتم علومه وعاد سنة ١٨٣٣ ، وارتقى الى رتبة يوز باشى ، وعين استاذاً بمدرسة الطب وكانت قد انتقلت الى (قصر العينى) وبعد قليل نال رتبة صاغ قول اغاسى ، وذاع صيته ، واشتهرت كفاءته ، فاختره محمد على طبيباً له ، وقربه وأغدى عليه من المنح والانعامات ، ونال رتبة اميرالاي ، وكان مقصد الامراء والبيوت الكبيرة في العلاج ، واصطحبه محمد على في رحلته بأوروبا سنة ١٨٤٨ ، واختاره عباس باشا الأول أيضاً طبيباً له بعد ولايته الحكم ، واصطحبته والدته عباس باشا في رحلتها الى الحجاز ، ولما رجع المترجم من الحج وجد زوجته الافرنجية التي تزوج بها أثناء

دراسته بأوروبا قد توفيت ، فتزوج بأشراقه من جوارى والدته عباس باشا انعمت بها عليه ، ومازال في عز ونعمة الى أن توفي سنة ١٨٦٢ ، وقد وصفه العلامة على باشا مبارك الذي نقلنا عنه معظم هذه الترجمة بأنه كان انسانا كريم الشيم ، رفيع الهمة ، يغلب عليه الفرح والانبساط ، فكانت تراه دائما مستصحبا للمغاني وآلات الطرب ، قال : وهو أنجب من اشتهر في الجراحة ، ذو اقدم على مالم يقدم عليه غيره ، فمن ذلك انه كان يشق على ادرة الرجل ويعمل فيها العمليات المنتجة للصحة ولم يسبقه في ذلك غيره (١)

وله من المؤلفات (الاربطة الجراحية) ترجمه عن الفرنسية وطبع سنة ١٨٣٨ ، ونبذة في (الفلسفة الطبيعية) تأليف كلوت بك ترجمها الى العربية ، ونبذة في (أصول الطبيعة والتشريح العام) لسكلوت بك أيضا ترجمها الى العربية

احمد حسن الرشيدى بك

هو من نوابغ خريجي مدرسة الطب المصرية والبعثات ، ومن اركان النهضة الطبية العلمية بما ليفه وترجمه ، واكثر علماء الطب تأليفا وترجمة وتعريباً ، نشأ في الازهر ، وانتقل منه الى مدرسة الطب في ابى زعبل ، وأتم العلوم الطبية في فرنسا ضمن أعضاء البعثة الرابعة ، وبعد عودته عين استاذاً في مدرسة الطب ، وأخذ في الترجمة والتأليف بهمة لا تعرف السكل وكفاءة ومقدرة ومثانة في اللغة فاق فيها زملاءه وانداده ، وقد بلغت مؤلفاته تسعة في عهد محمد على ، ثم ركزت حركة العلم والتأليف في عصر عباس وسعيد ، فلما صارت الاريكة الخديوية الى الخديوى اسماعيل قرب به اليه وحثه على العمل فألف كتاب (عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج) وتوفي سنة ١٨٦٦ وهناك مؤلفاته ١ - (رسالة في تطعيم الجدري) ترجمها عن كلوت بك وطبعت سنة ١٨٣٦ ، ٢ - كتاب (الدراسة الأولية في الجغرافية الطبيعية) طبع سنة ١٨٣٨ ، ٣ - (ضياء النيرين في

مداواة العينين) معرب عن الفرنسية طبع سنة ١٨٤٠، ٤- (طالع السعادة والاقبال في علم الولادة وأمراض النساء والاطفال) ترجمه على هيبه افندى الحكيم وصححه الرشيدى في جزأين طبع سنة ١٨٤٢، ٥- نبذة في (تطعيم الجدري) طبع سنة ١٨٤٣، ٦- (بهجة الرؤساء في امراض النساء) طبع سنة ١٨٤٥، ٧- (نزهة الاقبال في مداواة الاطفال) طبع سنة ١٨٤٥، ٨- (الروضة البهية في مداواة الامراض الجلدية) في مجلدين طبع سنة ١٨٤٧، ٩- (نخبة الامائل في علاج تشوهات المفاصل، ١٠- (عمدة المحتاج في علمى الادوية والعلاج) وهو اعم كتبه وهو دائرة معارف طبية في اربعة مجلدات كبيرة طبع سنة ١٨٦٧ بعد وفاة المؤلف

محمد الشافعى بك

من اعضاء البعثة الرابعة، ولما عاد من فرنسا عين استاذاً بمدرسة الطب، ثم ناظراً عليها، وهو استاذ سالم باشا سالم الطيب المشهور وله في التأليف والترجمة كتاب ١- (احسن الاغراض في التشخيص ومعالجة الامراض) طبع سنة ١٨٤٣ في جزأين، ٢- (الدرر الغوال في معالجة امراض الاطفال) لمؤلفه كاوت بك عربه المترجم وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٤، ٣- (السراج الوهاج في التشخيص والعلاج) طبع سنة ١٨٦٤ في اربعة مجلدات

محمد الشباسبى بك

من اعضاء البعثة الرابعة، أقام بفرنسا ١٣ سنة لاتمام العلوم الطبية، ولما عاد الى مصر عين استاذاً للتشريح بمدرسة الطب وله في التأليف كتاب (التنوير في قواعد التحضير) ألفه بارشاد الدكتور كاوت بك وطبع سنة ١٨٤٧ - وعرب كتاب (التمقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٥

مصطفى بك السبكي

من أعضاء البعثة الرابعة ، ومدرس الرمد بمدرسة الطب ومن مشاهير اطباء
العيون — توفي سنة ١٨٤٤

عيسوى افندى النجراوى

من أعضاء البعثة الرابعة ، استاذ علم التشريح بمدرسة الطب ومترجم كتاب
(التشريح العام) المطبوع بمطبعة بولاق سنة ١٨٣٥

حسين غانم الرشيدى افندى

من أعضاء البعثة الرابعة ، كان قبل سفره الى فرنسا من مصححي السكتب
الطبية بمدرسة الطب ، سافر الى فرنسا سنة ١٨٣٢ واقام بها ١٣ سنة ، واتفق علم
الصيدلة ، وبعد عودته عين استاذاً لهذا الفن بمدرسة الطب ، ثم عين مديراً لمعمل
الصيدلة فى عهد محمد على ، وهو مؤلف (الدر الثمين فى فن الاقرباذين) طبع بمطبعة
بولاق سنة ١٨٤٨ ، وقد أشاد كلوت بك بذكركه هو والسيد احمد حسن الرشيدى
وعدهما من نوابغ البعثات المصرية

محمد عبد الفتاح

من خريجي البعثة الثالثة ، ترجم كتباً عدة فى الطب والتاريخ الطبيعى ،
منها كتاب ١- (نزهة المحافل فى معرفة المفاصل) ، طبع سنة ١٨٤١ ، و ٢- (مشكاة
اللائذين فى علم الاقرباذين) طبع سنة ١٨٤٤ ، و ٣- (البهجة السنية فى اعمار
الحيوانات الاهلية) طبع سنة ١٨٤٤ ، و ٤- (المنحة لطالب قانون الصحة)
طبع سنة ١٨٤٥

على هيبه

من خريجي البعثة الأولى ، ومن كبار الاطباء ، ترجم كتاب (طالع السعادة

في فن الولادة) الذي صححه احمد حسن الرشيدى — وكتاب (اسعاف المرضى
في علم منافع الاعضا) ترجمه عن الفرنسية وطبع ببولاق سنة ١٨٣٦

حسين عوف باشا و ابراهيم دسوقى بك طبيبا العيون

كلاهما من تلاميذ البعثة السادسة ، وكلاهما أتم دراسة الطب والجراحة بمدرسة
قصر العينى ، وبلغ رتبة يوزباشى ، ثم ارسل الى النمسا سنة ١٨٤٥ لاختصاص في
الرمد على الدكتور بجر الاختصاصى في الرمد بمدينة (بيج) ونال كلاهما شهادة
التخصص من الاستاذ المذكور ، ولما عادا الى مصر أمر محمد على باشا باقامتهما
بالقاهرة للانتفاع بفنهما وعلاجهما أمراض العيون ، واختارت الحكومة بعض
التلاميذ للتخرج على يدهما والتخصص في الرمد لارسالهم الى البنادر المهمة للقيام
بمهام أطباء الرمد

وانعم على كل منهما برتبة صاغقول اغاسى ، وقد وصل حسين عوف الى رتبة
الباشوية ، وكان من كبار أساتذة الطب ، وتخرج على يده كثير من الاطباء ،
وكان ابراهيم دسوقى بك ايضا من اساتذة المدرسة المذكورة

مصطفى الواطى بك

من تلاميذ البعثة الخامسة ، أتم الطب في مدرسة الطب المصرية ، وارسل الى
باريس وأقام بها سنتين ونصفا للتخصص في صناعة طب الاسنان ، وترأس في مصر
قسم ترجمة الطبيات بفروعها في قلم الترجمة ثم صار وكيلا لمدرسة الطب

عثمان افندى ابراهيم

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وكان زميلا لمصطفى الواطى ، ولما عاد الاثنان
أصدر محمد على باشا أمره باقامتهما بالمستشفى لتدريس هذا الفن للتلاميذ ومعالجة المرضى

رجال الدولة والسياسة

الأُمير اسماعيل (الخديوى اسماعيل باشا)

كان من تلاميذ البعثة الخامسة ، ودرس الفنون الحربية بفرنسا ، وتولى اريكة مصر بعد وفاة سعيد باشا ، وقد خصصنا الجزء الرابع للكلام عن عصر اسماعيل

محمد شريف باشا

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وهو الوزير الكبير شريف باشا مؤسس النظام الدستورى فى مصر ، وصاحب الموقف المشرف فى الدفاع عن وحدة مصر والسودان ، والمستقبل من راسة الوزارة اعتراضا على سلخ السودان عن مصر ، والقائل كتيه الخالدة « اذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » ، ولما كانت حياته العامة قد اقترنت بعهد اسماعيل وتوفيق فقد ترجمناه فى الجزء الرابع

الحربية والادارة العسكرية

مصطفى مختار بك - مدير ديوان المدارس

من تلاميذ البعثة الاولى ، وكان من قبل موظفا بديوان محمد على ، وتخصص لدراسة الفنون الحربية ، وكان هو وعبدى شكرى (باشا) وحسن (باشا) الاسكندراني بمثابة الرؤساء الثلاثة للبعثة الاولى ، وقد خصهم رفاعة بك الذى زاملهم فى الدراسة بالذكرفقال عنهم (١) « قد بعث صاحب السعادة (محمد على باشا) فى السفر الى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء من اكابر ديوانه السعيد ، وجعلهم ارباب نظر عام على من عداهم ، وهم على هذا الترتيب ، فأولهم صاحب الرأى التام ، والمعرفة والاحكام ، حائز فضيلتى السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم ، حضرة

(١) فى كتابه تخايف الايرىز ص ٢٠

عبدى افندى المهردار ، والثانى صاحب رأى السديد ، والطالع السعيد ، من خلع فى حب المعالى العذار ، حضرة مصطفى مختار افندى الدويدار ، والثالث الحاوى بين العلم والعمل ، والبراع والأسل ، حضرة الحاج حسن الاسكندراني «
وقد عاد المترجم من فرنسا بعد أن أتم دراسته سنة ١٨٣٢ ونال رتبة بكباشى ولقب بك ، واشترك فى الحرب السورية الأولى وكان فيها من خاصة اركان حرب ابراهيم باشا وياوراه (١) ، ثم عين بعد ذلك رئيس مجلس شورى المدارس ثم مدير (ديوان المدارس) ، فهو أول وزير للمعارف فى تاريخ مصر الحديث ، وعين رئيسا للمجلس العالى فى عهد محمد على باشا خلفا لعبدى شكرى باشا ، وكانت الاعمال الهندسية محالة الى عهده ، فكان وزيرا للمعارف والاشغال وتوفى سنة ١٨٣٨

١ بن بك السكرجى

من تلاميذ البعثة العلمية الأولى ، اتقن فى فرنسا فن صب المدافع وصنع الاسلحة ، وعين بعد عودته بالطوبخانة المصرية (معمل الاسلحة والمدافع) برتبة يوزباشى ، وأخذ يتدرج الى ان صار ناظر الكهرجالات (معامل البارود) فى عهد محمد على ونال رتبة ميرالاي ، وقد ذكره كلوت بك فى كتابه وعده فى مقدمة نوابغ البعثات المصرية ويسميه (امين بك مدير فابريكة ملح البارود)

احمد بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص فى فرنسا لدراسة الفنون الحربية ، وقضى فى دراستها ست سنوات ، واشترك فى الحرب السورية الأولى ، وكان من اركان حرب ابراهيم باشا ، وقد عهد اليه بعد صلح كوتاهيه بتحصين مضائق جبل طوروس التى انتهت اليها حدود مصر الشمالية فاضطلع بهذه المهمة وقام بها خير قيام واشترك معه فيها السكولونل سليم بك ، ولازم ابراهيم باشا فى واقعة نصيبين

(١) رسائل البارون (بو الكونت) ص ٢٤٤

على باشا ابراهيم

ناظر المعارف العمومية في عهد توفيق باشا ، تعلم بمدارس مصر ، وسافر الى فرنسا سنة ١٢٦٠ ضمن البعثة الخامسة ، واقام بباريس سنتين ، ثم نقل الى مدرسة الطوبجية بمدينة (متس) Metz واقام بها سنتين ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الأخرى ، والحق بالولايات الفرنسية ، وفي سنة ١٢٦٦ امر عباس باشا الاول بعودة جميع طلبة البعثة ، فعاد المترجم الى مصر ، ونال رتبة يوز باشى ، وعين مدرسا لالهامى باشا ابن عباس باشا (١) ، ثم الحق بأركان حرب سليمان باشا الفرنساوى (الكولونل سيف) وصار ناظرا للمدرسة التجهيزية سنة ١٨٦٤ ثم ناظرا لدروس المدارس الحربية ، ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة ، ثم ناظرا للمعارف العمومية

حماد عبد العاطى (باشا)

اصله من (دير الجنادلة) مركز ابوتيج ، يسميه على باشا مبارك « الامير الجليل حماد بك ابن عبد العاطى ، كان له جد شهير يسمى عيسى له زاوية هناك تسمى زاوية عيسى » (٢)

نشأ نشأته العلمية الأولى فى مدرسة ابوتيج سنة ١٢٤٩ ، ثم انتقل منها الى مدرسة قصر العيني ، ثم مدرسة ابى زعبل ، ثم الى مدرسة المهندسخانة ببولاق ثم انتخب ضمن تلاميذ البعثة الخامسة لتعلم الفنون الحربية بفرنسا ، فدخل مدرسة المدفعية بمدينة (متس) ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الأخرى ، وخدم فى الولايات الطوبجية الفرنسية نحو سنة ، ثم عاد الى مصر ، وتدرج فى وظائف عدة ، منها التدريس بالمدارس الحربية ، ونظارة قلم الهندسة بديوان الاشغال ، ونال رتبة البكباشى ، ثم الميرالاي ، وصار مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة (٣) سنة ١٨٧٩

(١) الخطط النوفيقية ج ٩ ص ٤٥ (٢) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٧١

(٣) كما ذكر فى الكتاب الذهبى للمجاهم المختلطة

الملاحة والعلوم البحرية وبناء السفن

الاميرال عثمان نور الدين باشا

هو من اول من أرسلهم محمد على الى اوروبا لتلقى العلوم ، وقد ترجمنا له في
الفصل الحادى عشر (ص ٤٢٨)

الاميرال حسن باشا الاسكندراني

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لدراسة فنون الملاحة والهندسة البحرية
في فرنسا ، وكان يبلغ من العمر حين سفره بهذه البعثة ٣٧ سنة ، وعاد من فرنسا
سنة ١٨٣١ ، فالتحق بالاسطول المصرى ، وبرهن على كفاءته ومهارته ، وارتقى في
المناصب الى ان صار رئيس ترسانة الاسكندرية وناظرا للبحرية وذل رتبة الباشوية
وقد تولى قيادة الاسطول المصرى الذى حارب الروسيا في حرب القرم سنة
١٨٥٣ في عهد عباس باشا الاول وسعيد باشا ، وكان هذا الاسطول مؤلفا من
١٢ سفينة حربية ، واطهر شجاعة ودراية ، وغرق في تلك الحرب سنة ١٨٥٥ مع
السفينة (مفتاح جهاد) التى كانت تقله وغرق معه معظم جنود وضباط السفينة ،
وكانت هذه آخر الحملات التى قامت بها السفن الحربية من الاسطول الضخم
الذى انشأه محمد على الكبير

محمد شنان بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لدراسة العلوم والفنون البحرية ، وبعد
عودته خدم الاسطول ، وتولى قيادة السفينة الحربية (البجيرة) من سفن الاسطول
المصرى الذى كان يقوده الاميرال حسن باشا الاسكندراني في حرب القرم كما تقدم
ذكره ، وغرق مع السفينة المذكورة

محمود نامى بك

من تلاميذ البعثة الاولى وزميل حسن (باشا) الاسكندراني وشنان (بك) في
البعثة المذكورة ، وبعد عودته عينه محمد على محافظا لبيروت اثناء الفتح المصرى ،
فبقى بهذا المنصب سبع سنوات من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٠ وسار سيرة عدل
واصلاح مما حبا به الى نفوس الاهلين ، وهو جد الداماد احمد نامى بك رئيس
حكومة سورية سابقا

محمد بك راغب

من تلاميذ البعثة الثالثة ، تخصص فى انجلترا لتعلم فن بناء السفن وعين مع
حسن بك السمران لرأسة قسم الهندسة وانشاء السفن فى ترسانة الاسكندرية
وتوليا العمل الذى كان يقوم به الميسر سريزى بك فى الترسانة

عبد الحميد الديار بكرلى ويوسف اكاه افندى وعبد الكريم فندى

تعلموا الفنون البحرية فى انجلترا وصاروا من أمهر ضباط الاسطول المصرى

الحقوق والعلوم السياسية

عبدى شكرى باشا

من تلاميذ البعثة الأولى وهو ابن حبيب افندى كمتخدا محمد على ، وقد التحق
بالبعثة وعمره ٢٩ سنة ، وتخصص لدراسة الحقوق والادارة الملكية ، وعاد من فرنسا
سنة ١٨٣٠ ، ثم عين مأمورا للبعثة بفرنسا وترقى فى المناصب الى أن صار رئيسا للمجلس
العالى فى عهد محمد على ونال رتبة الباشوية ، وعين مديرا لديوان المدارس أى وزيرا
للمعارف العمومية فى عهد عباس باشا الاول وقد ذكره الدكتور كلوت بك ضمن
نوابغ خريجي البعثات

ارتين بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، عاد من فرنسا بعد أن أتم دراسة الحقوق والادارة الملكية ، وعين وكيلا لمدرسة المهندسخانة بمولاي ، ثم سكرتيرا أول وترجانا لمحمد علي باشا ، وهو الذي تولى ابلاغ وكلاء الدول بمصر (ابريل سنة ١٨٣٩) ابلاغ محمد علي قبل الحرب السورية الثانية انه كتب الى ابراهيم باشا الانحوض غمار الحرب الا اذا تحقق من زحف الجيش العثماني ، وقد صار وزيرا للتجارة والخارجية خلفا لبوغوص بك ، ويعده الدكتور كلوت بك من نوابغ البعثات المصرية ، وهو والد يعقوب ارتين باشا وكيل نظارة المعارف العمومية سابقا

اسطفان بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، وقد عين مديرا للمدرسة المصرية التي انشئت للبعثة العلمية الخامسة ببواريس ، ويعده الدكتور كلوت بك من نوابغ البعثات ، وكان من كبار موظفي الحكومة في عهد عباس باشا الاول ووزيرا للخارجية في عهد سعيد باشا

عبد الله بك السيد

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وهو من العجميين بالفيوم ، تعلم في مدرسة اللسان واتفق علومها والتحق بالبعثة الخامسة ، وتخصص في فرنسا لدراسة الحقوق وبعد عودته تقلد المناصب في الحكومة وأخرها انه عين رئيسا للمحكمة التجارية بالاسكندرية ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٥ وتوفي سنة ١٨٧٦ (١)

(١) كما جاء في الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة

الطبيعيات و الزراعة

احمد يوسف افندى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص فى دراسة العلوم الكيماوية ، وعين بعد عودته ششنجيا بدار الضرب سنة ١٨٣٢ ، وقد صحب محمد على باشا فى رحلته بالسودان للكشف عن مناجم الذهب ، وذكره فى هذا الصدد رفاعة بك رافع ويسميه احمد افندى يوسف الجشنجى (١) ورحل ايضا الى بلاد المكسيك بامريكا لزيارة مناجم الذهب بها ، ثم عين مديرا لدار الضرب وكانت من المناصب الكبيرة فى ذلك العهد

حسنين افندى على البقل

من تلاميذ البعثة الثانية وهو اخو محمد على باشا البقل ، تعلم بمدرسة قصر العيني ثم التحق بالبعثة الثانية وبعد عودته عين جشنجيا بدار الضرب بالقلعة ومدرس الكيمياء والطبيعة بقصر العيني وتوفى سنة ١٨٥٣ ، قال عنه على باشا مبارك (٢) انه « كان من احسن الناس خلقا وخلقا وله وقوف تام على صنعتة »

احمد بك ندا

من تلاميذ البعثة الخامسة ، تخصص فى العلوم الكيماوية واتقن صناعة الصابون وشمع العسل وعين بعد عودته استاذ فى مدارس الطب والمهندسخانة واركان الحرب ، وله مؤلفات جلية منها (الاقوال المرضية فى علم الطبقات الارضية)

(١) مناهج الالباب المصرية ص ٢٥٦ طبعة ثانية

(٢) الحطط التوفيقية ج ١١ ص ٨٩

طبع ببولاق سنة ١٨٧١ و (حسن البراعة في علم الزراعة) ترجمه من الفرنسية عن فيجى بك طبع ببولاق سنة ١٨٦٦ و (حسن الصناعة في علم الزراعة) وهو من تأليفه طبع ببولاق سنة ١٨٧٤ و (الآيات البينات في علم النباتات) طبع ببولاق سنة ١٨٦٦ ؛ و (الحجج البينات في علم الحيوانات) ترجمه من الفرنسية طبع ببولاق سنة ١٨٦٧ ، وله مباحث جلية في علم النبات نشرت بمجلة روضة المدارس

عبد الهادى اسماعيل

من تلاميذ البعثة الخامسة ، اتم دراسته بمدرسة الطب البيطرى بمصر ثم بفرنسا وعين بعد عودته مدرسا بمدرسة الطب البيطرى وآخر المناصب التى تولاهها أن عين ناظراً لمدرسة الطب البيطرى فى عهد الخديوى اسماعيل

يوسف افندى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لعلوم الزراعة وعين بعد عودته مديرا للحدائق وناظراً لمدرسة الزراعة بنهر وه

الفنون الجميلة

حسن افندى الوردانى

من تلاميذ البعثة الأولى ، اتم فى فرنسا دراسة الرسم والزخرفة والفنون الجميلة ، وعين بعد عودته مدرسا لفن الرسم والنقش بمدرسة المهندسخانة ببولاق بدل الاستاذ الفرنسى الذى كان بها ، ونبغ فى فنه وتخرج على يده كثير من التلاميذ ، وقد اشاد الدكتور كلوت بك بذكوره فى كتابه وعده من نوابغ البعثات المصرية

محمد افندى مراد

من تلاميذ البعثة الثالثة ، عين بعد عودته استاذاً فى الرسم والنقش والزخرفة وكان نابغاً فى فنه ، وقد امتدحه الدكتور كلوت بك فى كتابه وعده من نوابغ البعثات

محمد افندى اسماعيل

من تلاميذ البعثة الثالثة أيضاً ، قضى فى اورو با ٢١ سنة ، وعين بعد عودته استاذاً بمدرسة المدفعية (الطوبجية) فى طره وكان ماهراً فى الرسم والنقش والزخرفة وقد اثبت عليه الدكتور كلوت بك فى كتابه

حسين باشا كوجك

هو حسين باشا فهمى المعمار ، كان من تلاميذ البعثة الخامسة ، ونبع فى فنون الهندسة والرسم والزخرفة ، وتولى وظيفة وكيل ديوان الأوقاف ، وهو واضع رسم ومقاسات مسجد الرفاعى بالقاهرة بناء على تكليفه من قبل والدته الخديوى اسماعيل باشا (١) وقد تم بناء المسجد بعد وفاته

محمد صادق باشا

اتم فى فرنسا دراسة الرسم والزخارف وعين بعد عودته مدرسا للرسم بالمدارس ثم بالمدرسة الحربية بالقلعة فى عهد سعيد باشا

الطباعة والصحافة والنشر

ان الكلام عن الطباعة يتصل بالنهضة العلمية ، فهى من أهم أسباب هذه النهضة إذ هى الوسيلة العملية لنشر العلوم والمعارف ، ولم يفت محمد على باشا توجيه عنايته اليها ، فقد تقدم القول بأنه أرسل الى روما وميلانو نقولا مسابكى افندى سنة ١٨١٦ للتخصص فى فن الطباعة (٢) ، وقد اعترزم من ذلك الحين انشاء مطبعة بولاق تلك المؤسسة الجليلة التى مازالت قائمة الى اليوم تشهد بما أداه محمد على للنهضة العلمية من جليل الخدمات

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١١٤

(٢) راجع ما كتبناه عن الطباعة فى عهد الحملة الفرنسية بالجزء الاول ص ١٤٤

است المطبعة في نوفمبر سنة ١٨٢١ ، وُجمل نقولا مسابكي افندى مديرا لها وأمدّها محمد علي باشا بكل ما يلزمها من الحروف والمكابس والآلات حتى استوفت حظا كبيرا من الاتقان ، وأعدّها لطبع لوائح الحكومة ومنشوراتها ولطبع الكتب العلمية في الطب والرياضيات والآداب والتاريخ والعلوم الفقهية وغيرها

ومما يدل على شديد عنايته بها انه اختار للقيام بتصحيح مطبوعاتها طائفة من علماء الازهر ، والتصحيح فن دقيق ينبغي عليه اخراج الكتب والمؤلفات صحيحة خالية من الاغلاط المطبعية التي تشوهها ، ولعلك تلاحظ في الكتب التي كانت تطبع في ذلك العصر خلوها من الاغلاط وهذا راجع الى حسن اختيار المصححين في مطبعة بولاق

ففي هذه المطبعة ظهرت با كورة الكتب المترجمة والمؤلفة في بدء النهضة العلمية الحديثة، فلاغروا ان كانت من دعائم هذه النهضة، وقد عني خريجو المدارس والبعثات بنقل العلوم التي نقلوها الى اللغة العربية ثم بالتأليف فيها ، ومن هنا نشأت نهضة الترجمة والتأليف التي ازدان بها عصر محمد علي واخذت العلوم والمعارف تنتشر تدريجا بين طبقات الشعب ، وكان لحسن تنشيط الحكومة لهذه النهضة اثر فعال في اظهارها ، فان محمد علي كان يستحث العلماء والمؤلفين على الترجمة والتأليف ويكافئهم مكافآت سخية ويستثير في نفوسهم روح الهمة والعمل ويأمر بطبع مؤلفاتهم على نفقة الحكومة وتوزيعها في المدارس والدواوين

ومما يروى عنه في هذا الصدد انه لما عاد اعضاء البعثة الأولى الى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة وسلم كلا منهم كتابا بالفرنسية في المادة التي درسها باوروبا ، وطلب اليهم أن يترجموا تلك الكتب الى العربية، وأمر بابقائهم في القلعة والا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به اليهم ، فترجموها فعلا وامر بطبعها في مطبعة بولاق وتوزيعها على المدارس التي وضعت لها تلك الكتب ، ونظرا لان المترجمين في بدء النهضة كانوا في حاجة الى من يراجع كتبهم قبل طبعها لضبط عباراتها فقد اختار محمد علي طائفة من « المحررين » من علماء الازهر مهمتهم مراجعة عبارات

الكتب قبل طبعها وضبط ألفاظها ومصطلحاتها ، وقد قام بهذا العمل وقتما اساتذة مدرسة الألسن وتلاميذها ، ومن المحررين الذين مهرؤا في عملهم الشيخ محمد عمر التونسي صاحب « الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية » وهو معجم للمصطلحات الطبية ، والشيخ محمد عمر الهراوي ، والشيخ مصطفى حسن كساب وغيرهم وقد ذكرنا في تراجم أعضاء البعثات نموذجا من الكتب العربية والمؤلفة التي طبع معظمها في مطبعة بولاق

وعدا هذه المطبعة كان يوجد مطابع أخرى صغيرة ، منها مطبعة بمدرسة المدفعية بطره ، وأخرى في أبي زعبل ، وثالثة في مدرسة الفرسان بالجيزة ، وكانت هذه المطابع تخرج لوائح ومطبوعات هذه المدارس وبعض مؤلفات تلاميذها وفي مطبعة بولاق كانت تطبع (الوقائع المصرية) وهي الجريدة الرسمية للحكومة ، أسست سنة ١٨٢٨ وصدر أول عدد منها في ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ (٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨) وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم اقتضت على اللغة العربية ، وتُنشر أخبار الحكومة ودواوينها ومصالحها وبعض الأنباء الخارجية ، وهي أول جريدة عربية أسست في مصر ، ولم يسبقها إلى الظهور جريدة أخرى في تاريخ مصر الحديث ، إذ أن الجرائد التي ظهرت على عهد الحملة الفرنسية كانت تنشر باللغة الفرنسية ، أما « سلسلة التاريخ » التي كان يحررها السيد اسماعيل الخشاب فلم تكن جريدة وان كان بعض المؤلفين يسميها خطأ جريدة الحوادث اليومية ، بل كانت سجلا لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ، وكذلك صحيفة « التنبيه » التي اعتزم الجنرال منو إصدارها بالعربية لم تصدر فعلا كما بيناه في الجزء الثاني من الكتاب (١)

وقد ظلت (الوقائع المصرية) الجريدة الرسمية للحكومة المصرية حتى اليوم فهي أقدم الصحف العربية وأطولها عمرا

الفصل الثالث عشر

اعمال العمران

والحالة الاقتصادية

من القواعد الأساسية في نهضة الأمم إنماء ثروة البلاد والمحافظة على كيانها المالى من أكبر دعائم الاستقلال ، لأن العمران مادة التقدم ، والثروة الأهلية هي قوام الاستقلال المالى ، ولا يتحقق الاستقلال السياسى ما لم يدعمه الاستقلال المالى والاقتصادى ، تلك الحقائق التى اجمعت الآراء على صحتها ووجوب العمل بها ، كان محمد على اول من قدرها قدرها ، فقد اتجهت نظاره منذ أوائل حكمه الى إصلاح حالة البلاد الاقتصادية وانشاء اعمال العمران فيها لتنمو ثروتها القومية ، ولم تقتر عزيمته عن متابعة جهوده من هذه الناحية حتى خلف اعمالا ومنشآت يزدان بها تاريخه

منشآت الري والزراعة

سد ترعة الفرعونية

من أول أعماله سد ترعة الفرعونية ، وقد ذكره الجبرنى في حوادث سنة ١٢٢١ (١٨٠٦ م) ذى الحجة سنة ١٢٢٣ (يناير سنة ١٨٠٩) وذكر اتمامه في شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٤ (ابريل سنة ١٨٠٩) ، وذكر الميسو لينان (باشا) دى بلفون^(١) كبير مهندسى الري في عصر محمد على عن هذه الترعة انها كانت تصل بين فرعى النيل بادئة من بير شمس ومارة بمنوف ثم تصب في فرع رشيد ، وكان الغرض منها تغذية هذا الفرع من مياه فرع دمياط ، وأن هذه الترعة

(١) في كتابه (مذكرات عن اهم اعمال المنفعة العامة التى تمت في مصر) ص ٣٤٣

قد أضرت بالبلاد والاراضى القائمة على فرع دمياط والتي تروى منه وخاصة من المنصورة وما يليها شمالا ، لان التربة كانت تستنفذ الكميات الكبيرة من هذا الفرع فيقل ماؤه ، ويطنى عليه البحر فيختلط بماء النيل ويفسده بملوحته الى قبلى فارسكور ، فتحرم زراعة الأرز فى تلك الجهات من ماء الرى العذب ، وقد شكوا أهلها على توالى السنين ما تجلبه عليهم هذه التربة من المضار ، فسدها محمد على بجسر من الاحجار لمنع انسياب مياه فرع دمياط الى الفرع الآخر ، وانشأ ترعا أخرى تعوض جهات البحيرة ما كان يجيئهم من ترسة الفرعونية قبل سدها

فتح ترعة المحمودية

ومن أعماله الجليلة شق ترعة المحمودية (ترعة الاسكندرية القديمة أو خليج الاشرفية) (١) ، وكانت التربة والرمال قد طمرتها ، فشرع فى حفرها وجعل فتحتها من (العطف) بعد ان كانت التربة القديمة تأخذ مياهها من الرحمانية ، ولم يجعل فتحتها عند الرحمانية لما كان بها من تراكم الردم والرمال وقد عنى بفتح هذه التربة عناية كبيرة ، فكان يتعهد الاعمال فيها بنفسه ، وبذل همه عالية فى سبيل اتمامها ، وكان غرضه من شقها احياء الاراضى الزراعية فى مديرية البحيرة ، وجعل التربة طريق المواصلات النيلية بين الاسكندرية وداخل البلاد ، وكانت المواصلات من قبل بطريق رشيد ، ولكن صعوبة اجتياز البوغاز كانت تعطل المواصلات من هذا الطريق ، وكان ذلك من أهم البواعث التى حفزت محمد على باشا الى انشاء التربة ، وقد عهد بتصميم حفرها الى مهندس فرنسى ، وهو المسيو كوست Coste ولما تم حفرها افتتحها فى ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ وذهب خصيصا الى الاسكندرية لحضور الافتتاح مصحوبا بابنه ابراهيم باشا وصهره المقتردار ، وطبوز اوغلى

(١) كانت الترع تسمى فى ذلك العصر خالجانا فيقال خاليج الاشرفية عن ترعة الاشرفية .

وقد اقتضى حفر هذه التربة بذل مجهودات هائلة ومتاعب جسيمة وضحايا كثيرة احتملها المصريون واحتسبوا فيها وصابروا وصبروا ، ويكفيك لتعرف مبلغ الضحايا التي بذلت في هذا السبيل ما كتبه في هذا الصدد المسيو (مانجان) الذي كان شاهد عيان لحوادث مصر في ذلك العصر ، فقد ذكر انه مات من الفلاحين الذين اشتغلوا في حفر ترعة المحمودية اثنا عشر الفا في مدة عشرة اشهر ، وان هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتي التربة تحت اكداس التراب الذي كانوا يرفعونه من قاعها ، وقال ان معظمهم مات من قلة الزاد والمؤونة أو من الاعنات في العمل ، وكذلك من سوء المعاملة التي كانوا يلتقونها من الجنود القساة المنوط بهم حراستهم ، فقد كانوا يجبرونهم على العمل المهلك بدون انقطاع ولا هوادة من الفجر الى الليل ، وقال ان عدد من اشتغلوا في حفرها بلغ ٣١٣٠٠٠ من الملاحين جئ بهم من مديريات البحيرة ، والغربية ، والشرقية ، والدقهلية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجيزة

وقد أتت هذه التربة بثمرات عظيمة ، فمن جهة المواصلات صارت تجري فيها السفن بين الاسكندرية والداخل تحمل حاصلات البلاد أو وارادتها ، وكانت سبباً في عمران البلاد التي مرت بها في اقليم البحيرة واحياء أراضيها ، وأفاد عمران الاسكندرية منها فائدة كبرى إذ جعلتها التربة ملتقى المتاجر الذاهمة الى داخل البلاد أو الآتية منها ، فأتسعت حركة التجارة والعمران فيها ، فضلاً عن أن مياه التربة قد ساعدت على الاكثار من الزرع وغرس الاشجار والحدائق في ضواحي المدينة ، فأتسع نطاق العمران ، وابتنى الاغنياء القصور وأنشأوا البساتين على ضفاف التربة في جهات كانت من قبل مقفرة جرداء

وقد زار المارشال (مارمون) هذه الجهات سنة ١٨٣٤ فاستوقفه ماشاهده من الحدائق الغناء المنشأة بعد فتح ترعة المحمودية ، وكان يعرف حالة الاسكندرية وضواحيها منذ كان قومنداناً للثغر في عهد الحملة الفرنسية ، فاستطاع أن يدرك الفارق العظيم بين حالتها القديمة وما أوجدته التربة من العمران والتقدم وأفرد الجبرتي نبذاً عديدة لفتح ترعة المحمودية ، وهذا يدل على أنها كانت

عملا جليلا من أهم أعمال العمران في ذلك العصر ، فذكر بدء حفرها في حوادث
جمادى الثانية سنة ١٢٣٢ (ابريل سنة ١٨١٧) ، وأُنع الى استمرار العمل فيها في
حوادث شعبان سنة ١٢٣٢ (يونيه سنة ١٨١٧) ثم انقطعت أخباره عنها ، والظاهر
أن انهماك محمد على في الحرب الوهابية إذ كانت في دورها الاخير أدى الى انقطاع
العمل في حفر الترعة وقتا ما ، وعاد الجبرتي الى ذكر اهتمام الباشا بأمر الترعة وحفرها
في حوادث ربيع الثاني وجمادى الاولى سنة ١٢٣٤ (يناير وفبراير سنة ١٨١٩) ،
وتسكلم في حوادث شوال سنة ١٢٣٤ (اغسطس سنة ١٨١٩) عن ضحايا الترعة ،
ولعمري إن وصفه ليعطينا فكرة جلية عن مبلغ ما قاساه الفلاحون من الاهوال في
حفرها ، وكثرة من مات منهم من الشدائد التي عانوها

فإذا قرأت ما ذكره الجبرتي فارجع بفكرك الى الماضي ، واذا كر أن الاراضى
الواسعة والبلاد العامرة التي تمر فيها الآن ترعة الحمودية من منبعها الى مصبها كانت
صحراء قاحلة لا ينبت فيها زرع ، ثم تحولت بعد حفرها الى مزارع تزدهر بالحياة
والعمران ، واذا ذهبت يوما الى دمنهور وأخذت الطريق الزراعى المعبد الذى يصل
بك الى الاسكندرية ، رأيت ترعة الحمودية تذاب بمنظرها البيع ومائها الرقيق
بين بلدان عامرة ، وحدائق غناء ، ومزارع نظرة ، وأشجار باسقة ، وطيور تحلق
زرافت في السماء أو تغرد فوق الاغصان المتهدلة على جانبي الطريق ، ووجدت على
امتداد البصر مناظر تملأ النفس بهجة وسرورا ، وكلما سرت في الطريق رأيت مكتملا
بالمركبات والدواب تمقل الناس من مختلف البلاد ، وتحمل حاصلاتهم ومتاجرهم ،
وترى الترعة ذاتها لا ينقطع فيها عبور المراكب والصنادل والبواخر حاملة المتاجر
ذاهبة وآتية بين الاسكندرية ودمنهور ، فحينما ذهبت تجد معالم العمران
لمترامى مداه ، وتلمح دلائل الحياة والنشاط والتقدم مرتسمة على كل ما يقع عليه
نظرك من مشاهد الطبيعة والخلائق ، فاذا سرحت الطرف في تلك المناظر البهجة
فاذا ذكر أن الفضل في ذلك العمران يرجع لمن حفروا بأيديهم ترعة الحمودية ، وبدلوا
مهبهم وأرواحهم حتى جرى ماء النيل في تلك النواحي حاملا الى الخلائق والناس

والاراضى عناصر الخصب والحياة، واذا تأملت في كل ذلك فاذا كر تضحيات الآباء
والاجداد ، ومبلغ ما بذلوه في سبيل رفاهية الاجيال والاعتقاب ، وتمهل في سيرك قليلا
واستمطر الرحمة على من استشهدوا في سبيل ذلك العمران وتمثل بقول المعري
خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والاجداد
قال الجبري في وصفه « وكان الباشا سافر الى الاسكندرية بسبب ترعة الاشرفية ،
وأمر حكام الجهات بالارياف بجمع الفلاحين للعمل ، فاخذوا في جمعهم ، فكانوا
يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المراكب ، وتعلقوا عن زرع الدراوى الذى
هو قوتهم ، وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى بعد ما قاسوا ما قاسوه ، ومات
الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أهلكوا عليه تراب الحفر ولوفيه
الروح ، ولما رجعوا الى بلادهم للحصول طولوا بالمال ، وزيد عليهم عن كل فدان حمل
بغير من التبن ، وكيلة قح ، وكيلة فول ، وأخذ ما يبيعونه من العلة بالثمن الدون ،
الكيل الوافر ، ففهم إلا والطلب للعود الى الشغل في الترعة ونزع المياه التى لا ينقطع
نبعها من الارض ، وهى في غاية الملوحة ، والمرة الأولى كانت في شدة البرد ، وهذه
المرة في شدة الحر وقلة المياه العذبة ، فيقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة
وتأخرى الاسكندرية » ، وذكر انتهاء حفر الترعة في حوادث ربيع الأول
سنة ١٢٣٥ (ديسمبر سنة ١٨١٩) وختم كلامه بقوله « ورجع المهندسون والفلاحون
الى بلادهم بعد ما هلك معظمهم » وذكر سفر محمد على باشا الى الاسكندرية للاحتفال
بفتح الترعة في حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٣٥ (يناير سنة ١٨٢٠)

الترع الاخرى

وشق محمد على ترعا أخرى في مختلف المديرىات ، وكان يعنى بتطهيرها وصيانتها ،
وهناك بيان أهم الترع التى أنشئت في عهده
(فى البحيرة) الحمودية ، والخطاطبة

(فى الغربية) امتداد ترعة الجعفرية ، وترعة مسجد الخضر (الخضر اوية) ، وبحيرم
 (فى الدقهلية) البوهية ، والمنصورة ، والشرقاوية ، وأم سلامة ، ودويده
 (فى المنوفية) النعناعية ، والسرساوية ، والباجورية
 (فى الشرقية) ترعة الوادى ، والمسلمية ، وبحر مشمول ، والصادى ، وبحر
 الرمل ، وترعة بردين ، ومصرف بلبيس
 (فى القليوبية) الزعفرانية ، والباسوسية ، والشرقاوية ، والقرطامية ، والبولاقية
 القبيلية ، وترعة قنبه ، ومصرف العموم
 (فى بنى سويف) ترعة البرانقة
 (فى المنيا) ترعة الفشن
 (فى جرجا) ترعة السبخة ، والمرعشلى
 (فى قنا واسنا) ترعة الشنهورية ، وتوسيع ترعة بلاجيا ، والرمادى ، والعقيل ،
 والشال ، والنياه

الجسور

ومن أعماله انشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة الى البحر الأبيض
 لمع طغيان المياه على الضفتين ، وقد اشتركت البلاد والقرى فى اقامة هذه الجسور بنسبة
 ما يخص زمامها ، وانشأ جسورا أخرى فرعية ، منها جسر الرقة فى بنى سويف ، وجسر
 الطهنشاوى ، والقيسى ، والبرانقة فى المنيا ، وجسر دنهيا ، وجسر فاو ، وبنى كلب
 والمحرق ، وكودية باسيوط ، وجسر مشطا ، والشبسات ، والواديه ، والمنشأة فى جرجا ،
 وجسر فرشوط ، وجسر ابو دياب فى قنا

القناطر

وانشأ قناطر عديدة على الترع لضبط مياهها تيسيرا للانتفاع بالرى منها ،
 وأهمها القنطرة الكبرى ذات العيون التسع على بحر مويس بالقازيق ، وقناطر
 المسلمية ، وبحر مشمول ، والصفراء ، والعلاقة ، وفاقوس بالشرقية

وقناطر البريجات والمحمودية (في البحيرة) - وقناطر البوهية، والمنصورية (في الدقهلية) - وقناطر السنطة، والراغبين، ودهيرة، وتيرة، وبيلة، ونشرت (في الغربية) - وقناطر النعناعية، والقرينين والسرساوية، والباجورية، وميت عفيف (في المنوفية) - وقناطر الشراوية، والزعفرانية، وأبي المنجى (في القليوبية) - وخزان طامية وسنورس (في الفيوم) - وقناطر جسر شوشة في بني سويف - وقنطرة الرقة في الجزيرة

وقناطر منبال، والجرنوس، وسنشتاد، والطحاوية، والطهنشاي (في المنيا) وقناطر العتامنة بمنفلوط، وقطع أبو عفرية بملوى، وعلى بك بالقرب من ابنوب، وبسرده، واسيوط، وبني سميع، وقلاي في مديرية (اسيوط) - وقنطرة السوهاجية، وقنطرة الشباسات، وسمهود، والمصالحة في مديرية (جرجا)، وقنطرة المراشدة بفرشوط في مديرية (قنا)

اصلاح جسر أبو قير

ومن أجل أعماله اصلاح سد أبو قير القديم الذي كان متهدماً، وسد فتحة بحيرة أبو قير بجسر من الاحجار يقيها تسرب مياه البحر اليها ويقي ترعة المحمودية طغيان المياه الملحة عليها، ومن ذلك الحين أخذت بحيرة أبو قير تجف تدريجاً حتى صارت الآن أراضي زراعية

قال المسيولينان دي بلقون^(١) إن اقادة جسر أبو قير وسد فتحة البحيرة كان عملاً شاقاً اقتضى عدة سنين لعمق المياه في داخل خليج أبو قير، إذ كان عمقها خمسة أمتار في ناحية الجسر، وطول هذا الجسر ١٢٤٣ متراً، وقد ذكر الجبوتي نبأ هذا الاصلاح في حوادث سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) وعده « من محاسن الافعال »

سد أشتوم الديبة في بحيرة المنزلة

وكذلك سد فتحة الديبة من فتحات بحيرة المنزلة بالاحجار، والغرض منه تقليل

(١) مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة التي تمت في مصر ص ٣٤٢

تسرب مياه البحر الى البحيرة لأن هذه المياه كانت تطفئ على الاراضى المجاورة لها فتتلفها ، ويقول لينان باشا (١) ان الفتحة القريبة من دمياط وفتحة الطينة قد انسدتا من ذاتهما فلا يدخل منهما الا القليل من مياه البحر ، وكذلك فتحة أم مفرج ، ولم يبق من فتحات البحيرة سوى أشطوم الجميل

القناطر الخيرية

كانت اراضى الوجه البحرى الى أوائل القرن الماضى تروى بطريق الحياض كرى الوجه القبلى ، فلا يزرع فيها الا الشتمى ، ولا يزرع الصيفى الا على شواطئ النيل أو الترع القليلة المشتقة منه ، وقد أخذ محمد على فى تغيير هذا النظام تدريجاً إذ اخذ فى شق الترع وتطهيرها واقامة الجسور على شاطئ النيل ليضمن توفير مياه الري فى معظم السنة ، وصارت الترع تروى الاراضى فى غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ، ولا سيما بعد اقامة القناطر عليها

وقد توج محمد على اعمال الري التى اقامها بانشاء « القناطر الخيرية » ، واسمها يغنى عن التعريف ، فانها قوام نظام الري الصيفى فى الوجه البحرى ، وهى وان كانت آخر اعماله فى الري الا أنها أعظمها نفعا وأجلها شأنًا وبقاها على الدهر أثرًا وقد فكر فيها بعد ما شاهد بنفسه فوائد القناطر التى انشأها على الترع المتقدم ذكرها ، ورأى أن كميات عظيمة من مياه الفيضان تضيع هدرًا فى البحر ، ثم تفتقر الاراضى الى مياه الري فى خلال السنة فلا تجدد كفايتها منها ، فاعتزم ضبط مياه النيل للانتفاع بها زمن التحريق ولاحياء الزراعة الصيفية فى الدلتا وذلك بانشاء قناطر كبرى فى نقطة انفراج فرع النيل المعروفة ببطن البقرة

عهد محمد على بدراسة هذا المشروع الى جماعة من كبار المهندسين ، منهم الميسو لينان دى بلفون (لينان باشا) كبير مهندسيه ، فوضع له تصميمًا وشرع فى العمل وفقا لهذا التصميم سنة ١٨٣٤ (٢) ، ثم ترك لوقت آخر ، وعندما اعتزم محمد على استئناف

(١) ص ٣٤٥ (٢) مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر ص ٣٨١

العمل استرشد بمهندس فرنسى آخر وهو المسيو موجيل بك Mougel اذ أعجبت منه
مقدرته الهندسية فى انشاء حوض السفن بميناء الاسكندرية ، فعهده اليه وضع تصميم
إقامة القناطر الخيرية ، فقدم مشروعا يختلف عن تصميم الميسو لينان
فالميسو لينان كان يرى انشاء القناطر على الأرض اليابسة بعيداً عن المجرى
الأصلى للفرعين ، واختار لذلك قطعتين بين ملتوين من ملتويات فرعى النيل
حتى إذا تم انشاؤها حوّل الفرعين اليها بحفر مجريين جديدين ، ولكن مشروع
موجيل بك يقتضى إقامة القناطر مباشرة فى حوض النهر

ويتألف المشروع من قنطرتين كبيرتين على فرعى النيل يوصل بينهما برصيف
كبير ، وشق ترع ثلاث كبرى تتفرع عن النيل فيما وراء القناطر لتغذية الدلتا ،
وهى الرياحات الثلاثة المعروفة برياح المنوفية ورياح البحيرة ورياح الشرقية الذى
عرف بالتوفيقى لأنه أنشئ فى عهد الخديوى توفيق باشا

وقد شرع فى العمل على قاعدة تصميم موجيل بك وبمعاونة مصطفى بهجت
(باشا) ومظهر (باشا) المهندسين الكبيرين المتخرجين من البعثات العلمية
ووضع محمد على باشا الحجر الأساسى للقناطر الخيرية فى احتفال فخم يوم الجمعة
٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ (سنة ١٨٤٧) وكانت مدة حكمه الى ذلك العهد ٤٣ سنة ،
ولكن العمل كان قد بدأ قبل ذلك ، واستمر العمل لانفاذ المشروع ، ثم اعتراه
البطء والتراخى لما أصاب همّة الحكومة من الفتور فى أخريات أيام محمد على ، ثم
توقف العمل بعد وفاته أثناء ولاية عباس الأول بحجة أن حالة الخزانة لا تسمح
ببذل النفقات الطائلة التى يتكافها انفاذ المشروع ، وارتأى عباس توفيراً للنفقات
أن تؤخذ الأحجار اللازمة للبناء من الهرم الكبير ، ولكن الميسو لينان أقنعه بخلاف
هذا رأى بفكرة أن اقتلاع الأحجار من الهرم يقتضى من النفقات ما يزيد عن نفقات
اقتلاعها من المحاجر (١) وقد تم بناء القناطر وأنشئ رباح المنوفية فى عهد سعيد باشا .

(١) فى كتاب (مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر) ص ٤٢٠ أن
المسكرة نبتت أولاً فى رأس محمد على فاقنعه لينان بالعدول عنها

ويقول المسيو شيلو Chelu (١) « ان مشروع القناطر الخيرية كان يعد في ذلك العهد أنه أكبر أعمال الري في العالم قاطبة ، لأن فن بناء القناطر على الأنهار لم يكن بلغ من التقدم ما بلغه اليوم ، فاقامة القناطر الخيرية بوضعها وضخامتها كان يعد اقداً ما يد اخله شيء من المجازفة »

وقال المسيو باروا Barois (٢) « ان هذه أول مرة أقيمت فيها قناطر كبرى من هذا النوع على نهر كبير »

وقد ظهر خلل في بعض عيون القناطر في عهد اسماعيل سنة ١٨٦٧ فأصلح الخلل طبقاً لآراء موجيل بك (وكان قد غادر مصر الى فرنسا) وبهجت باشا ومظهر باشا ، ثم أصلح بناء القناطر ثانية في العصر الحديث لتقويتها ، وتمت أعمال الاصلاح والتقوية سنة ١٨٩١ حتى بلغت شأوها الحالي ، ورجعت الحكومة الى رأى موجيل بك في هذا الاصلاح ، وجاء مصر وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من سنه ، فعينت الحكومة مهندساً مستشاراً للقناطر قتم الاصلاح وفقاً لرأيه ، وبذلك تسنى لهذا المهندس الكبير أن يكون على يده انشاء القناطر من ابتداء العمل فيها الى تمام بنائها

توسيع نطاق الزراعة

كانت الحاصلات التي تزرع في مصر هي القمح والشعير والارز والفول والعدس والحبص والذرة والتمرس والزعفران والبرسيم وقصب السكر والتيل (القنب) والسكتان والزيلة والقرطم والدخان والحناء والبصل والسهم والسلمج والعصفر والخضر والفواكه وقليل من القطن الرديء ، ففكر محمد علي في توسيع نطاق الزراعة بابتكار أنواع جديدة زادت في ثروة مصر الزراعية

(١) كبير مهندسي السودان المصري في كتابه (النيل والسودان ومصر) طبع

سنة ١٨٩١ ص ٣٩٤

(٢) السكرتير العام لوزارة الاشغال في كتابه (الري في مصر) طبع سنة

١٩١١ ص ٣١٦

غرس أشجار التوت

فتم بغرس أشجار التوت لتربية دود القز (الحرير) واختار لهذا المشروع اراضى وادى الطميلات بالشرقية ، فخصص ثلاثة آلاف فدان ليغرس فيها أشجار التوت ، وخصص لخدمتها ألفين من الفلاحين جهزهم بستة آلاف رأس من المواشى ، واحتفر نحو ألف ساقية للرى ، وجلب من سورية ولبنان خمسمائة مزارع وصانع من الاخصائيين للقيام على تربية دود الحرير ، ثم عمم غرس اشجار التوت فى الدقهلية والمنوفية والغربية والقليوبية ودمياط ورشيد والجيزة وبلغ عدد ماخصص لغرس اشجار التوت ثلاثة آلاف فدان فى وادى الطميلات وسبعة آلاف فى المديرىات الاخرى ، وبلغ عدد أشجار التوت فى القطر المصرى ثلاثة ملايين شجرة باعتبار ٣٠٠ شجرة فى كل فدان (١) وبلغ محصول الحرير سنة ٣٢ - ١٨٣٣ (١٢٠٠٠) أقة (٢)

وذكر الجبرتى البدء فى غرس اشجار التوت بوادى الطميلات فى حوادث سنة ١٢٣١ (سنة ١٨١٦ م .) وذكر فى حوادث جمادى الاولى سنة ١٢٣٢ (مارس سنة ١٨١٧) انفاذ المشروع واتمام انشاء السواقي وغرس الاشجار ، وايفاد الفلاحين الى الوادى لتعميره وبناء الكفور والمساكن لهم ، وجلب العمال والمزارعين الاخصائيين فى تربية دود القز من الشام ولبنان ، وقال فى حوادث رجب سنة ١٢٣٥ (ابريل سنة ١٨٢٠) « إن الباشا » توجه لناحية الوادى لينظر مايجدد به من العمار والمزارع والسواقي ، وقد صار هذا الوادى إقليماً على حدته وعمرت به قرى ومساكن ومزارع »

يتبين مما تقدم ان تجربة دود القز فى البلاد التى غرست فيها أشجار التوت قد نجحت نجاحاً عظيماً ، واسكنها أصيبت بعد ذلك بمرض انتاب دود الحرير فى أوروبا ومصر فقل الانتاج وأفسد تقاوى الدود وأهملت تربيته فى أواخر عصر محمد على .

(١) مانيجان ص ٣ ١٨٨ (٢) احصاء كادلفين فى كتابه (مصر والنوبة) ج ١ ص ٧٣

غرس الاشجار

وقد غرس محمد على في بعض انحاء القطر العدد الوفير من الاشجار على اختلاف انواعها لاستخدام اخشابها في بناء السفن واعمال العمران ، وذلك بعد أن قطع كثيرا من الاشجار المغروسة لاتخاذ اخشابها في اقامة السواقي وصنع عربات المدافع والسفن الحربية

زراعة القطن

كان القطن المألوف زرعه الى سنة ١٨٢١ من صنف ردي لا يصلح إلا للتنجيد ، وكان هناك صنف نادر يزرع في بعض الحدائق ويفوق القطن القديم في طول تيلته ونعومته ، ومحصول هذا النوع ضئيل لانه يزرع كاشجار الفا كهة ويغزله النساء في البيوت ، ففي سنة ١٨٢١ حدث في مصر انقلاب في زراعة القطن بها ، ذلك ان المسيو جومل Jumel الذي استقدمه محمد على من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج شاهد في حديقة محوبك (١) هذا النوع الجديد من القطن ، فاعجبته رتبته وأشار على محمد على باشا أن يعمم زراعته في الاراضي الزراعية بعد أن كان زرعه مقصورا على الحدائق ، وقد فطن محمد على الى ما ينال مصر من الأرباح الوفيرة اذا اكثر من زراعته ، فاعزم تعميمه ، وأنشأ السواقي اللازمة لرى الاطيان التي تزرعه ، واشترى باثمان مرتفعة ليشجع الفلاحين على زرعه ، فلم تمض عدة سنوات حتى انتشر هذا النوع من القطن وصار يعرف باسم قطن محوبك أو قطن جومل ، ثم ادخل محمد على نوعا آخر وهو قطن (سى ايلاند) الأمريكى ، ومن ثم أخذ القطن المصرى ينافس قطن البنغال وأمريكا ، وأقبلت على طلبه مصانع النسيج في فرنسا وانكلترا ، وتقدمت زراعته وأخذ محصوله يزداد سنة فسنة ، ولم تمض سنوات معدودة حتى صدرت مصر من

(١) أحد كبار الحكام في عصر محمد على وحكمدار السودان فترة من الزمن

هذا القطن سنة ١٨٢٧ - ٣٤٤ الف قنطار، وأصبح القطن على توالى السنين أساس ثروة مصر الزراعية

وقد احتكرت الحكومة بيع قطن القطر المصرى بأكله طبقا لنظام الاحتكار الذى سنتكلم عنه فيما يلى ، فكانت الفلاح الذى يزرع القطن لا يتصرف فى محصوله الا بالبيع للحكومة ، والحكومة تشتري القنطار الذى زنته ١٢٠ رطلا بثمان يتراوح بين ١١٢ و ١٥٠ او ١٧٥ قرشا ، وعلى البائع ان ينقل قطنه الى المخازن الشون التى انشأتها الحكومة لهذا الغرض فى عواصم المراكز والمديريات ، ويخصم من الثمن قيمة ما على الفلاح من الضرائب اذا لم يكن وفاها من قبل ، وقد أقبل الفلاحون على زراعة القطن بعد أن رأوا الحكومة تشتري القنطار من النوع الجيد بـ ١٧٥ قرشا ، فان الفدان كان يغل من الربح أكثر مما تفتج، زراعة الحبوب والفلال ، وشجعت الحكومة زراعة القطن بما انشأته من السواقى فى القرى ، وبما فتحت من الترع وأقامت من القناطر والجسور ، فتوافرت مياه الري اللازمة لزراعة القطن ، ويقول المسيو مانجان ان الحكومة انقصت سعر مشتري القطن حوالى سنة ١٨٣٧ مما حدا بالفلاحين الى التراخى فى زراعته

زراعة الزيتون

كانت زراعة الزيتون قبل عصر محمد على نادرة فى مصر ، فلم تكن تغرس اشجاره الا فى مديرية الفيوم وفى بعض المدايق بضواحي القاهرة ، ففكر فى الاستكثار من اشجار الزيتون لاستخراج الزيت من ثمره ، ولكونه غذاء صالحا للجنود ، وخاصة بحارة الاسطول

فأمر بغرس كثير من اشجار الزيتون فى الوجه البحرى والوجه القبلى ، وحذا ابراهيم باشا حذو أبيه ، فغرس آلاف عدة من الاشجار فى اطيانه الواسعة ، ويقول المسيو مانجان ان اشجار الزيتون تثمر فى مصر بعد ثلاث سنوات أى فى أسرع مما تثمر فى البلاد الاخرى ، وهذا يدل على صلاح معدن الاراضى فى مصر ومناخها لهذا النوع من الشجر

زراعة النيلة

كانت زراعة النيلة معروفة في مصر وبقيت على حالتها القديمة لغاية سنة ١٨٢٦ الى أن جلب محمد علي في تلك السنة بزور النيلة الهندية ، واستحضر بعض الهندود الاخصائيين في زراعتها ، فأخذت زراعتها في النمو والتقدم ، وبلغ ما تنتجه الاطيان المخصصة لزراعتها ، ٧٧٣٠٠٠ أقة في السنة ، وقد احتكرت الحكومة تجارتها وبيعها لطالبيها ، وأنشأت الفابريقات الخاصة بها

زراعة الخشخاش (الافيون)

واستحضرت الحكومة من أزمير بعض الأرمين الذين مارسوا زراعة الافيون وخصصتهم لزراعته في مصر ، وقد بلغت حاصلاته سنة ١٨٣٣ — ١٤٥٠٠ أقة ، واحتكرت الحكومة بيع المحصول ، فكانت تباع الأقة بـ ١١٠ قرشا صاغوا ويستخرج من بذرة الافيون زيت للوقود ، وحاولت الحكومة زراعة البن النيني في اراضي مصر ولاكن المحاولة اخفقت رغم تكرارها ، ووسع محمد علي نطاق زراعة القنب (التيل) فنجحت زراعته واستخدم ثمره لصنع التيل والحبال

منشآت الصناعة

ان الكلام عن الصناعة في عهد محمد علي يقتضى التمييز بين الصناعات الكبرى والصناعات الصغرى ، أما الصناعات الصغرى فيمكن القول اجمالاً بأنها تدهورت في هذا العهد بسبب نظام الاحتكار الذى سنتكلم عنه في موضعه بالفصل الرابع عشر ، فان الاحتكار قد شمل الصناعات التى كانت قائمة وهى الصناعات الصغرى فاضر بها وبأصحابها ضرراً كبيراً ، وأما النهضة الصناعية التى حدثت في ذلك العهد فهى نهضة الصناعات الكبرى التى استحدثها محمد علي بإنشاء الفابريقات اى المصانع الكبيرة التى تدار بالآلات

وقد أسلفنا الكلام عن المصانع الحربية والبحرية التي تعد من أعظم المنشآت الصناعية في ذلك العصر كما بيناه في موضعه بالفصل الحادى عشر والثانى عشر ، ونحن ذا كرون هنا معاملى الصناعات الأخرى كالغزل والنسيج وما إليها ومعامل الحديد والنحاس

مصانع الغزل والنسيج

مصنع الخرنفش

من أول المصانع التي أنشأها محمد على باشا فابريكة الغزل والنسيج بالخرنفش ، أنشئت سنة ١٨١٦ (١) ، واستدعى لها عمالاً فنيين من فلورانس بإيطاليا ، تخصصوا في غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف ، وبعد قليل من الزمن نقلت الأنوال الخاصة بصناعة الحرير إلى فابريكة أخرى ووضعت بدلها مغازل للقطن وما كينات لصنع الأقمشة القطنية ، فركب بها مائة دولاب ، عشرة منها للغزل السميك ، وتسعون دولاباً للغزل الرفيع ، أى بنسبة دولاب للخيوط السمكة إلى تسعة للخيوط الرفيعة وهى النسبة المتبعة عادة في معامل الغزل ، وتحمل الدواليب الأولى ١٠٨ مغزلاً على خط واحد ، والتسعون الثانية ٢١٦ مغزلاً ، وفى الفابريكة سبعون ما كينة ، وعدد يوازىها من العدد الأخرى لتجهيز القطن قبل غزله

وعدا دواليب الغزل ومغازله كان يوجد بالفابريكة قسم للنسيج به ثلثائة نول تنسج من خيوط القطن أقمشة مختلفة أنواعها كالبافتة والموسلين والبصمة والشاش والباتست ، والأقمشة التي تنسج في هذه الفابريكة كانت ترسل لتبييضها في المبيضة التي أنشئت لهذه الغاية على شاطئ النيل بين بولاق وشبرا ، ثم تعاد إلى مخازن الخرنفش لتباع لمن يطلبها ، ويوجد بالفابريكة ورش للحدادين والسباكين والخراطين والنجارين لإصلاح الآلات التي يصيها العطب

فابريقة مالطة ببولاق

وأنشأت الحكومة في بولاق فابريقة أخرى سميت فابريقة (مالطة) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى العدد الكبير من العمال المالطيين الذين كانوا يشتغلون فيها، وعهد بادارتها إلى الميسيو جومل، وقد أعدت لغزل القطن ثم نسجه أقمشة مختلفة الأنواع، وكان فيها من دواليب الغزل ٢٨ دولابا و٢٤ عدة، وآلات تجهيز القطن، وتدور هذه الآلات كما في فابريقة الخرنفش بواسطة أربعة عشر طنبرورا تحركها عدة يجرها ثمانية من الثيران، وكل دولاب يشتغل عليه رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التي تقطعها حركة العدة، ويبلغ عدد الانوال في فابريقة مالطة ٢٠٠ نول تنسج خيوط القطن ويصنع منها البافطة والبصمة والباتست والموسلين

وفيه ورشة تحتوي عمالا من سائر الحرف معيين لاصلاح آلاتها واصلاح آلات مصانع الوجهين البحري والقبلي، وفيها ورشة للنجارة يشتغل فيها صناع فرنسيون وأروام يصنعون نماذج وأشياء أخرى دقيقة الصنع، وفيها أيضا ورشتان للخراطة بكل منها آلة ضخمة تحركها ثمانية من الثيران، واحدى هاتين الورشتين اذا تحركت دواليبها تتحرك لها صوانى وأقلام من الفولاذ للتضليع والتخريم والتثقيب ومحافر ومناشر لشر الخشب والنحاس، ومخارط عديدة، وفي الورشة الاخرى مخرطة كبيرة ومرازب ومطرقة ومنفاخان كبيران

وكان بالقرب من فابريقة (مالطة) ثمانون ورشة حدادة لصنع مراسى المراكب وكل ما يلزم لبناء السفن، وما يستهلك من الحديد والفحم في هذه الورش عظيم جداً، ويلحق بالفابريقة معمل لسبك الحديد، وقد لاحظ عليه الميسيو مانجان (١) بعض العيوب فقال ان أفرانه ليست محكمة الوضع وتستهلك من الوقود أكثر مما يلزم، والرمال المستعمل لم يكن مدقوقا دقا جيدا، وفي غالب الاحيان

كان يفسد العمل لاهمال العمال ولكونهم لا يدعون القوالب تحجب الجف في المطلوب ،
وفي هذا المسبك ثمانية أفران كانت تعمل باستمرار ، وعملها مصريون يعملون تحت
ادارة رؤساء من السوريين .

فابريقتا ابراهيم اغا والسبتية

وكان بالقرب من فابريقة مالطة مصنعان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما
بفابريقة ابراهيم اغا ، والاخر بفابريقة السبتية ، وفيهما تسعون دوলাبا لغزل القطن
وستون ماكنة لتجهيز القطن للمغازل ، ولم يكن في هاتين الفابريقتين سوى ورش
الغزل وليس فيها ورش للصنائع الأخرى كما في فابريقة مالطة ، وهذه الفابريقة
تمدها بكل ما يلزم لاصلاح عددها وآلاتها وتستورد القطن الذي تغزله من مستودع
الحكومة للاقطان كما تفعل الفابريقات الأخرى ، وأجور العمال فيها تساوى أجورهم
في تلك الفابريقات

المبيضة

وقد انشئ فيما بين بولاق وشبرا على شاطئ النيل مبان ومنازل خلوية وحظيرة
واسعة أطلق على ذلك كله اسم (المبيضة) وفيها كانت تبيض الاقشة التي تصنع في
الفابريقات بالأساليب الصناعية الحديثة ، وتطبع فيها ثياب البصمة (الشيت)
بواسطة الألواح او الاسطوانات ، وتطبع في الشهر نحو الثمانمائة مقطع من البصمة ،
ويقول المسيو مانجان الذي نقلنا عنه هذه البيانات (١) ان البصمة التي تصنع
في مصر قد امتازت بجودتها واتقانها ودقة صنعها ومتانتها وجمال رسومها وتنوع
أشكالها وثبات ألوانها على الغسيل ، فصار الجمهور يفضلها على أنواع الشيت الواردة
من المانيا وانجلترا حتى قل الوارد منها ، وانشئ ايضا في شبرا شهاب (بالقليوبية)
وشبين والحلة الكبرى والمنصورة مبيضات أخرى ، والأثواب المعدة للبيع تلمع في

هذه المبيضات ثم تطوى ، وتطبع المبيضات المناديل التي تزين بها الفساءر وسهـن
ويستعمل لهذا الغرض اربعمائة ثوب من المسلمين في الشهر

مصنع نسيج البركال

وبالقرب من مبيضة بولاق انشئ بناء جميل تم في سنة ١٨٣٣ لنسيج البركال
(نوع من الشيت الرفيع) ركب فيه ١٥٠ نولا للنسيج ، منها تسعة فقط تشتغل ، وهي
تدار بواسطة آلة بخارية ، وكل نول ينسج في الاسبوع اربعة اثواب من البركال ،
وطول الثوب اربعون ذراعا في عرض ذراع ونصف ، وكان في هذا المصنع اربعة
من الصناع الانجليز يتولون تعليم العمال المصريين صناعة هذا النسيج ، والطابق
العلوى لهذا المصنع خاص بالغزل

مصنع امشاط الغزل بحى السيدة زينب

وانشئ في حى السيدة زينب معمل لصنع امشاط الغزل يخرج في كل شهر
ثلاثين مجموعة من الامشاط التي تستعمل للغزل ، ويدرب الصبيان على هذا النوع
من العمل ، وكان المصنع يورد لفابريقات الغزل الامشاط اللازمة ويتولى أيضا
اصلاح ما يعطب منها ، وفي هذا المصنع قسم للنسيج به ثلثمائة نول وخمسمائة عامل
ويخرج في الشهر ١٢٠٠ ثوب تقريبا طول الثوب ٣٢ ذراعا في عرض ذراعين ، والعامل
ينسج ثمانية اذرع في اليوم من أيام الصيف وستة في أيام الشتاء

مصنع الجوخ في بولاق

وانشأت الحكومة مصنعا للجوخ على شاطئ النيل في بولاق ، وقد لقي في مبدأ
أمره عقبات عديدة فانقضت عدة سنوات وهو لا يؤتى ثمرة ، وكلف الخزانة أموالا
طائلة ، على أن إرادة محمد علي باشا لم تنثن أمام هذه الصعاب ولم يتراجع عن عزمه
في انجاح هذا المصنع لما كان ينتظره من النفع في سد حاجات الجنود من جهة

الملبس ، ورأى أن أساس النجاح هو في اختيار الخامات وفي مهارة العمال الذين يعهد اليهم بالعمل ، فأمر وكلاءه في مرسيليا أن يفتحوا له رؤساء ماهرين للعمل تتوافر لديهم من الكفاءة أكثر ممن سبقوهم ليعهد اليهم تدريب العمال والتلاميذ على إتقان العمل كل فيما يخصه ، فاختار خمسة فرنسيين من رؤساء العمل في مصنع الجوخ بلاجنديك Languedoc قضوا أربع سنوات في تخرج التلاميذ في مصنع بولاق وتعليمهم أسرار الصناعة وإدارة الآلات الحديثة ، وبذلك تكون في مصنع بولاق طائفة من الغزاليين والذساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والعصارين

ولم يكتف محمد علي باشا بذلك بل أنفذ الى فرنسا طائفة من المصريين الأذكياء وأحقهم بالبعثة العلمية وتعلموا هذه الحرف المتنوعة في معامل ريمس Reims وإلبوف Elbouf حيث أرسلهم اليها مدير البعثة المصرية اتباعاً لأوامر محمد علي ، وكان في العمل مائة نول للنسيج الجوخ تدور بعدتين يحرك كلا منهما ثمانية ثيران وتحرك العدتان تسع عجالات ، ويحتوي العمل على كثير من العدد ، وآلات الكبس والعصر وغيرها من الجهارات والاسطوانات ، وفي مصبغة المصنعة ست خواني (قزانات) منها واحدة من القصدير ، والألوان التي تستعمل لصبغ الجوخ هي الأزرق الأدكن والأزرق السماوي ، والأحمر ، والبني ، والأخضر الأدكن وكان الجوخ ينسج أيضاً في دمنهور وفي بعض المصانع الأخرى بالقاهرة ، ويستعمل في نسجه الصوف الرديء ويعمل منه الكبايدت ويرسل ما يصنع منها الى مصنع بولاق لدهنه وصبغه وكبسه ، ويبلغ ما تخرجه هذه المصانع في الشهر نحو عشرين ألف ذراع تقريباً ترسل الى الاسكندرية وتستهلك في ملابس بحارة الأسطول ، وقد امتاز الجوخ الذي يصنع في مصنع بولاق بالجودة ، وكان من خير الملابس للجنود والضباط

مصنع الحرير

كان ينسج في مصر من الاقشة الحريرية قبل عصر محمد علي باشا القطنى

والألحاجية وبعض أنواع الحرير والقطن ، ولكن محمد على أكثر من غرس أشجار التوت ليكثر من إنتاج الحرير واحضر من الاستانة عمالا متخصصين في الحرير لنسجه وصنع الأقمشة الحريرية منه على اختلاف أنواعها كما ينسج في الاستانة وفي الهند ، وأنشأ لهذا الغرض مصنعا من الحرير في الخرنفش وتولى اولئك العمال الاختصاصيون تدريب العمال المصريين على اتقان نسج الحرير ، فلقى المصنع نجاحا وصار به مائتا نول لنسج الحرير الخالص الوارد من الشام او من تربية دود القز في مصر ، ولنسج الاسلاك الذهبية المعروفة بالمقصب ، وقد بلغت زنة الحرير الذي نسج في مصر سنة ١٨٣٣ أربعة آلاف أقة ، وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعة وكانوا في غاية من الخدق ولهم ذوق في تحليته بالالوان والرسوم الجميلة ، ولكن مذبذباتهم في الحرير لم تصل الى مرتبة المنسوجات الايطالية في ثبات الوانها

مصنع الحبال

وانشأت الحكومة في القاهرة مصنعا للحبال ترسل مصنوعات الى الاسكندرية لاستخدامها في ترسانة الثغر وفي السفن الحربية والتجارية وتصنع الحبال في هذا المصنع من القنب

نسيج الصوف

وصنعت في القاهرة منسوجات الصوف وكانت تعمل منها ملابس البحارة المصريين وأغطية النوم (البطانيات) ويستعمل لهذا الغرض الصوف السميك الوارد من الوجه القبلي وبلغت أنوال نسيج الصوف الموجود منها من قبل وما أنشئ في ذلك العصر ٤٠٠٠ نول

فابريكة الطرايش في فوه

كانت فابريكة الطرايش التي أنشأها محمد على في فوه من أنفع وأهم المصانع التي أسسها سواء في نظامها أو في قلة نفقاتها أو جودة مصنوعاتهما ، وأول مدير لها تاجر

مغربى استدعى لها الصناع من تونس المشهورة بصناعة الطرايش ، وقد تدرب العمال المصريون على يد أولئك الصناع فصاروا معلمين بعد ان كانوا تلاميذ ، واتقنوا طريقة تحضير الصوف ونسجه طرايش وكبسها وصبغها ، ويستورد الصوف المستعمل فى هذه الصناعة من (أليكانت) وثمان الأنة منه ٢٥ قرشا ، ومن الصنف الجيد الرفيع ٣٠ قرشا ، ولا يغسل هذا الصوف قبل نسجه لنظافته ونصوع بياضه وكان يصنع كل طربوش من خيط واحد لا من خيوط متعددة ، وبغير ذلك لا يمكن كبسه جيدا ، وعند ما توضع الطرايش فى المسكس تترك به ثلاثة أيام بلياليها مع صب الماء المغلى عليها باستمرار ، ثم يصب عليها مخلوط الصابون الذى يصنع فى الفابريكة نفسها ، ثم تمر فى الماء البارد لتنظيفها

وكانت الطرايش تصبغ بالقرمز والعفص والطرطير والشبة وتصنع فابريكة فوه كل يوم ستين دسته (٧٢٠ طربوشا) مختلفة أنواعها وألوانها ، وتصنع الطرايش الرديئة من الصوف المخلوط ، ويستورد الجيش المصرى من مصنع فوه ما يطلبه من الطرايش للجنود ، واذا ما استكمل الجيش حاجته منها يباع ما زاد الى التجار من الاهلين

مصانع الغزل والنسيج فى الوجه البحرى

قليوب

أنشئت فى الوجه البحرى عدة مصانع لغزل القطن ونسجه ، وأول هذه المصانع مصنع قليوب ، وكان واسعا مستوفى العدد والآلات تصنع فيه الدواليب والامشاط ويشغل فيه عدد كبير من العمال ، وبه عدة عمال من الافرنج يرأسون بعض الاقسام ، وبه سبعون دولابا ، وثلاثون محالجا (مشطا) تحركها ثلاث عدد ، ويغزل القطن فى هذا المصنع من نوع الغزل الذى تصنعه فابريكات القاهرة ، وبقليوب مسبك للحديد ولكنه كان غير منتظم وبه عيوب عديدة

شبين الكوم

وفي شبين الكوم مصنع آخر لغزل القطن به سبعون دولا با وثلاثون محلاجا (مشطا) يحركها عدتان وترسل مصنوعاته من الغزل الى القاهرة

الحلة الكبرى

وانشئ في الحلة الكبرى مصنع كبير لغزل القطن به مائة وعشرون دولا با وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد تدور كل عدة بواسطة ثمانية من الثيران ، وبه مائتا نول تنسج عليها الاقمشة من الخيوط التي تغزل فيه ، ويحتوى هذا المصنع على مسبك وورش للحدادة والبرادة والخراطة تصنع فيه دواليب الغزل وأمشاطه وغيرها من الآلات التي ترسل للمصانع الاخرى

زفتى وميت غمر

وانشئت في زفتى فابريقة لغزل القطن بها ٧٥ دولا با و ٥٠ محلاجا بملحقاتها تحركها ثلاث عدد ويستورد هذا المغزل من مصنع الحلة ما يلزمه من المهبات والخامات ، وفي ميت غمر مغزل يشبه مغزل زفتى في عدد دواليبه ومحالجه

المنصورة

وانشئت في المنصورة فابريقة للغزل والنسيج ولها مخزن يلحق بها ، وبها أربع عدد تحرك ١٢٠ دولا با وثمانين محلاجا ، والخيوط التي تغزلها هذه الدواليب والمحالج تنسج في الفابريقة على ١٦٠ نولا ، وفي هذه الفابريقة مسبك للحديد ومصنع للحدادة والبرادة والخراطة

دمياط

وكان في دمياط قبل عصر محمد على مغزل صغير ، فانشئت فيها فابريقة للغزل والنسيج على مثال فابريقة المنصورة

دمهور

وانشئ في دمنهور مصنع للغزل به ١٠٠ دولار وثمانون محلاجا ، وفابريقة أخرى للغزل الصوف ونسجه تصنع فيها السكبا بيت وأغطية النوم (البطانيات) اللازمة لجنود البر والبحر ، وترسل مصنوعاتهما الى مصنع الجوخ في القاهرة ببولاق حيث تضغط وتلوّن وتكبس

فوه

وفي فوه مصنع لغزل القطن فيه ٧٥ دولارا للغزل واربعون مشطا تحركها عدتان تدير كل واحدة منها ثمانية من الثيران

رشيد

وفي رشيد مصنع للغزل به ١٥٠ دولارا للغزل و ٨٠ محلاجا يحركها اربع عدد ، وتنسج فيه قلع المراكب ، وبها مصانع للحداثة لعمل الحدايد اللازمة للسفن ، وقد انشأ بها المستر توماس جالويه وهو ميكانيكي انجليزي آلة بخارية لتدير طواحين تببيض الأرز

مصانع الغزل في الوجه القبلي

بنى سويف

وانشئت عدة مصانع لغزل القطن في الوجه القبلي ، ففي بنى سويف مصنع كبير به ١٢٠ دولارا وثمانون محلاجا تحركها ثلاث عدد

أسيوط

وفي اسيوط مصنع للغزل به من العدد والآلات مثل ما في مصنع بنى سويف ، والقطن المغزول في هذين المصنعين يرسل الى القاهرة لنسجه في فابريقاتها وبيعه

بقية مصانع الغزل

واسس محمد على عدا المصنعين السابقين مصانع لغزل القطن في المنيا ، وفرشوط ، وطهطا ، وجرجاء وقنا ، فكانت تشتغل ولكن في حالة غير مرضية ، ولم ترسل الى الحكومة شيئا من مصنوعاتهما

نظرة عامة في مصانع الغزل والنسيج

كان بمصانع غزل القطن كافة ١٤٥٩ دولا با للغزل منها ١٤٥ دولا با للغزل السميك و ١٣١٤ للغزل الدقيق ، وتصنع الاولى ١٤٥٠٠ رطل من الخبوط في كل يوم من أيام الصيف و ١٠١٥٠ رطلا في أيام الشتاء ، وتصنع الثانية (دواليب الغزل الدقيق) ١٣١٤٠ رطلا في كل يوم من أيام الصيف و ٨٥٤٠ رطلا في أيام الشتاء

وكان يصدر جزء من القطن المغزول الى ثغور البحر الادرياتي وثغور التوسكان (بايطاليا) ومن هناك يرسل الى داخل ايطاليا والمانيا ، اما باقى القطن المغزول فانه ينسج اقشة في مصر فتباع الاقشة المنسوجة في المدن والقرى بالقطر المصرى ، ويصدر بعضها الى سورية والاندول وجزر بحر الارخبيل ، قال المسيو مانجان وكان يمكن أن تزداد مصنوعات الغاريقات بمقدار الخمس اذا ضاعف رؤساء العمل رقابتهم على العمال واذا دفعت اجور هؤلاء بانتظام

وقد راجت الاقشة التي صنعتها الغاريقات المصرية في الاسواق رواجاً اضر بالواردات الاجنبية التي من نوعها وخاصة المصنوعات الرخيصة كالبسمة (الشيت) فان وارداتها قلت عن ذى قبل ، والبغلة الهندية بعد ان كانت تغمر الاسواق المصرية انقطع الوارد منها لما حلت محلها البغلة المصرية ، وكذلك حصل لاقشة البنغال ولكن العيب الجوهري في مصانع الغزل والنسيج التي أنشأها محمد على انها كانت قائمة على نظام الاحتمكار ، وهذا النظام لا يتفق والتقدم الصناعى ، وقد انتقده المسيو مانجان الذى عاينه وخبره فقل في صدده إن الصناعة الحرة هي التي

توافق مصلحة الأهلىن ومصلحة الحكومة معاً ، وكان من الأوفق ترك الصناعة حرة فى يد الأهالى ما عدا بعض مصانع غزل القطن التى يمكن الحكومة أن ترجى من بقائها ، وقال ان كثيراً من الأيدى العاملة التى تستخدمها الحكومة فى معاملها كانت تعود على البلاد بفائدة أكبر لو اشتغلت فى الزراعة

والواقع ان معظم المصانع التى أنشأها محمد على قد أقفلت فى أواخر عهده وأقفل باقىها فى عهد عباس باشا الأول ، وسبب اضمحلالها أن إدارتها كانت فى يد موظفى الحكومة ، فاعدمت فيها الادارة الحرة التى هى مناط ارتقاء المشروعات الصناعية والاقتصادية ، ولم يكن الموظفون أمناء ولا أكفاء لإدارتها ولا غيورين على عملهم فيها ، فأدى سوء الادارة فى معظم تلك المصانع وضعف الرقابة على الموظفين الى اضمحلالها ، وكانت الحكومة تستورد الفحم والآلات من أوروبا وتنفق على إدارة المصانع النفقات الطائلة ، فكانت النتيجة أن إيراداتها قلت على مر السنين عن مصروفاتها وتسبب عنها خسارة على خزانة الحكومة ، كما أن إنقاص الجيش والبحرية فى أواخر عهد محمد على قد عطل المصانع التى تصنع حاجات الجيش لعدم الحاجة الى مصنوعات

ولكن مما لانزع فيه ان انشاء مصانع الغزل والنسيج كان اساساً للنهضة الصناعية كبيرة وتجربة جليلة يمكن الاستفادة منها لاقامة النهضة الصناعية على قواعد صحيحة

مصانع نسيج الكتان

كانت الاقشة الكتانية تصنع فى مصر قبل عصر محمد على ، ومصانعها موزعة فى مختلف المديرىات وقد بلغت ما تنتجه فى ذلك العصر كل سنة ثلاثة ملايين مقطع يستهلك أكثرها فى مصر ويصدر قسم منها الى (تريستا) و (ليفورن) وكان فى مصر ثلاثون ألف نول لنسيج اقشة الكتان

معمل سبك الحديد

أقيم في بولاق مسبك للحديد وهو بناء مشيد تشييدا فخا وله منظر رائع ، وكان يؤدي أعظم الخدمات ، وقد تسكف البناء وحده نحو ستين ألفا من الجنيهات ، وضع تصميمه المستر جالويه المهندس الميكانيكي الانجليزي الذي كان يشتغل في خدمة الحكومة ، وجعله على نموذج مسابك لندره ، وكان يتولى رئاسة العمل فيه رئيس انجليزي يعاونه خمسة من العمال الانجليز وثلاثة من المالطين واربعون تلميذا مصريا موزعين على جميع أقسام المسبك ، ورئيسه القائد ادم بك الذي تكلمنا عنه آنفا

وكان يصب في هذا المسبك كل يوم خمسون قنطارا من الحديد المعد لصابورة السفن والاكات اللازمة للمعامل والفابريكات

مصنع ألواح النحاس

وانشأت الحكومة مصنعا لعمل ألواح النحاس التي كانت تبطن بها السفن ، وتولى ادارته المستر جالويه الميكانيكي الانجليزي يعاونه أربعة رؤساء عمل ، اثنان للاسطوانة ، وثالث لمراقبة الآلة البخارية ، والرابع للمسبك وتنقية النحاس من المواد الغريبة

وكان في المصنع عشرون عاملا مصريا من العمال الفنيين موزعين على الاعمال المختلفة ، منهم واحد للمسبك ، وثلاثة للاسطوانة ، يشتغلون في اخراج ألواح النحاس ، وعملية السبك الواحدة تقتضى ٣٥ قنطارا من النحاس ، والاسطوانة تخرج كل يوم من سبعين الى مائة لوح من النحاس مختلفة المقاس والسمك

معامل السكر في الوجه القبلي

أسست الحكومة سنة ١٨١٨ معملا للسكر في (اليرمون) (١) على مشال

(١) الان من بلاد مركز ملوى بمديرية أسيوط

مصانع السكر في جزائر الانتيل بامريكا تولى ادارته في اول امره انجليزى ثم خلفه صاحب مصنع في جزيرة كورسيكا ، وقد اشتهر هذا المعمل بحسن الادارة والنظام والاقتصاد ، فاتسعت اعماله وتقدمت حاصلاته وانتشرت مقطوعيته في البلاد ، ولكن استيراد السكر المكرر من معامل اوروبا منذ سنة ١٨٢٦ أضرب انتاج معمل الريرمون وفضل الناس السكر الوارد من اوروبا لجودته ورخص اسعاره

وبلغ انتاج معمل الريرمون (سنة ١٨٣٣) ١٢١٩٥ قنطارا من السكر الخام ، وأنشأت الحكومة معملين آخرين للسكر أحدهما في (ساقية موسى) والثاني في الروضة (مركز ملوى) ، وقد كرر من السكر الخام في المعمل الاول ٢٠٠ قنطار واستخرج الروم من مصنع الريرمون واستعمل لهذا الغرض ٨٠٠ قنطار من العسل

مصانع النيلة

وأنشئت مصانع للنيلة في شبرا شهاب ، والعزازنة ، وميت غمر ، والمنصورة ، ومنوف ، وايمار ، والأشمونيين ، وبركة السبع ، والحلة الكبرى ، والجيزة ، وأبوتيج ، وملوى ، ومنفلوط ، وطهطا ، وأسيوط ، والفشن ، وهذه المصانع تستنفد سدس محصول القطر المصرى ، وكانت النيلة ترسل من المصانع الى القاهرة حيث تبيعها الحكومة وتصدر منها للخارج بعد استنفاد حاجة المستهلكين

مصانع اخرى

وانشئت مصانع اخرى مختلفة ، منها مصنع للصابون ، ومدبغة للجلود برشيد ، ومصنع للزجاج والصينى ، وآخر للشمع ، وانشىء مصنع للورق ولكنه لم ينجح في تجربته وأهمل العمل فيه (١) ، ومعاصر للزيت وكانت موجودة من قبل

(١) كما يقول كادلفين في كتاب (مصر والوبة) ج ١ ص ١٣١

اعمال العمران الاخرى

وقد عنى محمد على بعمران المدن بما استحدثته فيها من المباني العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما اليها ، فمن ذلك انه انشأ بالقلعة قصره الشهير الذى كان مقر الحكم فى عهده ، وقصر شبرا ، وسراى رأس التين بالاسكندرية وهى اعظم قصوره وأنخمها ، وابنى القصور فى بعض عواصم المديريات ليقم بها اثناء تجواله بالاقاليم

وانشأ الدفترخانة بجوار القلعة لتحفظ بها وثائق الحكومة ودفاتها وسجلاتها ، وهى من اجل منشآت تولا تزال قائمة تؤدى الغرض منها ، وقد حفظت وثائق الحكومة طوال هذه السنين بعد ان كانت تبدد ويعنى أثرها قبل ذلك العهد

واصلح قنطرة المجراة التى كانت تنقل المياه من النيل بمصر القديمة الى القلعة ، وفتح طريقا واسعا محفوفاً بالاشجار بين مصر وشبرا ، وهدم كثيرا من التلال والكيان التى تحيط بالقاهرة أو تتخللها وتثير الرياح ما بها من الاتربة والقاذورات وتهيلها على المدينة فتفسد الجو وتضر بصحة الناس وابصارهم

واصلح بركة الازبكية واحتفر حولها قناة تنصرف اليها مياه البركة فظهرت ارضها ونحوت الى بستان كبير ، وهو البستان الذى انشئت فى وسطه حديقة الازبكية الحالية على عهد اسماعيل

وبنى جامعه الكبير بالقلعة وأوصى أن يدفن فيه

وانشأ داراً للرصد (رصدخانه) فى بولاق ولكن ادارتها لم تنتظم فأقفلت فى اواخر عهده ، واصدر امرا بمنع خروج الآثار القديمة من مصر وتأسيس دار للآثار فى منزل الدفتردار ، وعنى باستخراج الاحجار والرخام من المحاجر المصرية وعنى بعمران الاسكندرية التى تقدمت تقدما عظيما فى عهده بفضل وصول ترعة المحمودية اليها وانشاء الترسانة والاسطول بها ولانها صارت ملتقى التجارة بين

مصر والخارج وكان يطيل الإقامة بها كل سنة ، وقد فتح شارعا كبيرا مرصوفا
بالاحجار بين باب رشيد وسراى رأس التين

وانشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر موسى ، وعنى بشؤون البلاد
الصحية كما بيناه فى الكلام عن كلوت بك وانشأ المستشفيات والمحاجر الصحية
على النظام الاوروبى

ورتب البريد ليحمل برأ على ايدى السعاة يقطعون المراحل على متون الجياد
وبحرأ على ظهر السفن

وانشأ خطوطا لتلغرافية بان اقام أبنية مرتفعة على شكل ابراج ممتدة على خط
واحد ، واقام على كل بناء آلة التلغراف على طريقة (شاب) القديمة فكانت الانباء
تنقل من مرحلة الى اخرى الى ان تصل الى الجهة المقصودة ، وتستغرق الرسالة
التلغرافية بهذه الطريقة من الاسكندرية الى مصر خمسا وثلاثين دقيقة (١) اما
التلغراف الحالى فقد ادخله سعيد باشا

وشرع فى انشاء سكة حديدية من القاهرة الى السويس بطريق الصحراء
ولكن المشروع لم يدخل فى دور التنفيذ وعدل عنه محمد على ، واستخدمت
القضبان التى اعدت له فى مد سكة حديدية قصيرة بمحاجر طره (٢) لنقل الاحجار
الى شاطئ النيل كى تستعمل فى بناء القناطر الخيرية

التجارة

اتسع نطاق تجارة مصر الخارجية فى عصر محمد على لازدياد حاصلاتها وخاصة
القطن ، وقد ربحت الحكومة منها ارباحا وفيرة لانها كانت تحتكر التجارة الخارجية
باجمعها .

وقد ساعد انشاء الاسطول فى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط على توسيع
نطاق المواصلات البحرية بين مصر والبلدان الاخرى ، وكان لاصلاح ميناء

(١) كما قدرها كادلفين فى كتاب (مصر والنوبة) ج ١ ص ٨٧

(٢) لبنان (مذكرات عن اعم اعمال المنفعة العامة فى مصر) ص ٥٤٠

الاسكندرية فضل كبير في هذا الصدد، فنشطت التجارة الخارجية نشاطا عظيما، ومنذ انشئ أسطول مصر في البحر الأحمر فكر محمد علي في إعادة طريق التجارة بين الهند وأوروبا عن طريق مصر بعد أن تعطلت زمنا طويلا لاكتشاف رأس الرجاء الصالح (١) فبسط سيادة مصر في البحر الأحمر وطهره من القرصان الذين كانوا يتهدون السفن التجارية فيه، ومد طريقا لسيير قوافل التجارة بين السويس والقاهرة وانشأ به المحطات وبسط الأمن في مراحلها لتأمين القوافل على متاجرها، وأنشأ لذلك ديوانا سمي ديوان المرور كان مقره بالأزبكية، وكانت المتاجر القادمة من البحر الأحمر ترسل من السويس إلى النيل ثم إلى الاسكندرية، فأعاد جهد المستطاع سبيل المواصلات القديم بين الشرق وأوروبا عن طريق مصر

وقد لفت هذا الطريق انظار الشركة الهندية الانجليزية ورأته آمن واقصر من طريق رأس الرجاء الصالح وطريق البصرة والفرات وحلب والاسكندرونة، فاتفقت مع الحكومة المصرية على نقل طرود البريد والمسافرين عن طريق السويس، وكان المستر (توماس واجهورن) أحد كبار موظفيها واسطة هذا الاتفاق، وقد لقي من محمد علي باشا تعظيدا كبيرا فكانت السفن التجارية تسير من بمباي إلى السويس ثم ينتقل منها البريد والسياح إلى الاسكندرية عن طريق القاهرة ومن الاسكندرية إلى مرسليا بحرا ومنها إلى إنجلترا

الصادرات والواردات

تتألف صادرات مصر في ذلك العهد من القطن، والارز، والحبوب، والصمغ، والانسجة السكتانية، والصودا، والتمر، والخضر الجافة، والافيون، والحناء، وغير ذلك وكانت تستورد من الخارج الانسجة القطنية، والاجواخ، والطرايش، والانسجة الصوفية، والاثواب الحريرية، والاشخاب، والحديد، والاوانى، والخردوات، والنحاس، والسكاكين، والورق، والعقاقير، واصناف العطاره،

والفحم ، والقرمز ، والسكر ، والزجاج ، والمرايا ، والزيت ، والانبذة ، والمشروبات
الروحية ، وغير ذلك ، واحصى الدكتور كلوت بك تجارة مصر الخارجية مع اوروبا
وتركيا سنة ١٨٣٦ فبلغت بحسب احصائه (١)

٢١٩٦٠٠٠ ر جنيه للصادرات * و ٢٦٧٩٠٠٠ ر جنيه للواردات

واورد على باشا مبارك (٢) احصاء عن صادرات وواردات الاسكندرية دون
سواها من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٤٢ استخلصنا منه البيان الآتى :

الصادرات	الواردات
سنة ١٨٢٣	٨٠٤٥١٩ ر ج
١٨٤٢ سنة	٢٤٧٠٩٢٠ ر ج
١٨٢٣ سنة	٥٨٤٧٦٤ ر ج
١٨٤٢ سنة	٨٠٦٨٨٠ ر ج

(١) لحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٢٧ من الاصل الفرنسي

(٢) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٩

الفصل الرابع عشر

نظام الحكم

النظام السياسي

كانت الحكومة المصرية على عهد محمد على حكومة مطلقة تسود فيها قاعدة حكم الفرد، لكن الفرق بينها وبين ما كانت عليه في عصر المماليك، ان محمد على باشا وضع نظاما لادارتها، فخل هذا النظام محل الفوضى والارتباك، فهو وان كان يعد من دعاة الحكم المطلق (وهذه نقطة ضعف في تاريخه)، الا أن ميزته انه كانت لديه فكرة النظام والاصلاح كما انه كان يميل الى مشاوره مستشاريه في الامور قبل ابرامها

الدواوين

ومن هنا جاءته فكرة تأسيس بعض المجالس أو الدواوين التي كان يرجع اليها في مختلف الشؤون

فقد ألفت مجلسا للحكومة يسمى (الديوان العالي) ومقره القلعة، وكان يتداول مع اعضائه في الشؤون المتعلقة بالحكومة قبل الشروع في تنفيذها، ورئيس هذا الديوان يلقب بكتخدا بك او كتخدا باشا وهو بمثابة وكيل الباشا او نائبه، وله سلطة واسعة المدى في كافة شؤون الحكومة، وكان بمثابة رئيس الوزراء ووزير الداخلية، وصار هذا الديوان يعرف على مدى السنين بالديوان الخديوي وصي أيضا وقتاً ما (ديوان المعاونة)

وألف على التعاقب لكل فرع من فروع الحكومة مجلسا أو (ديوانا) يختص به، فكان هناك ديوان للحربية (الجهادية) وديوان للبحرية، وديوان للتجارة والشؤون الخارجية، وديوان للمدارس (المعارف العمومية) وديوان للابنية وآخر للاشغال، وكانت هذه الدواوين بمثابة فروع وأقسام للديوان العالي

ولما تقدمت شؤون الحكومة ألف سنة ١٨٣٤ مجلس ادعاه (المجلس العالى) يتألف من
نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الازهر ،
واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة ، واثنين من ذوى المعرفة بالحسابات
واثنين من الاعيان عن كل مديرية من مديريات القطر المصرى ينتخبهما الاهالى
وعين لرأسه هذا المجلس عبدى شكرى بك (باشا) أحد خريجي البعثة العلمية
الأولى ، وكان قد تلقى فى فرنسا علم الادارة والحقوق ، ومدة عضوية اعضاء المجلس
النائبين عن التجار والعلماء والمديريات سنة واحدة

وغنى عن البيان ان هذه المجالس أو الدواوين لم تكن على درجة كبيرة من
الرقى وحسن النظام ، لكنها كانت الخطوة الأولى لنظام حكومى لم تعرف البلاد
مثله من قبل حيث كانت الفوضى ضاربة اطنابها فى مختلف نواحي الحكم
قال الدكتور كلوت بك فى هذا الصدد « من المحقق ان هذه الهيئات
الحكومية لم تبلغ درجة الاتقان ، لكن ينبغى ملاحظة ما بذله محمد على من الجهود
فى هذا السبيل وما بثه من روح النظام وتقرير اوضاعه وما اظهره من سداد النظر
وصدق العزيمة فى وضع النظام الادارى الحكومى ، ولا ريب انه اذا توافر عنده
الوقت الكافى وتخلص من مشاغله الحالية (١) ، وخرجت المدارس عددا كافيا من
الاكفاء سيضع لمصر نظاما دستوريا ثابتا يكون قد بحثه ونفذه بما عهد فيه
من الحكمة » (٢)

مجالس المشورة (سنة ١٨٢٩)

كانت المجالس المتقدمة مجالس حكومية تنفيذية تتألف فى الجملة من كبار
الموظفين ، ولم تكن هيئات شعبية تمثل طبقات الأمة أو يصح اعتبارها نواة لنظام
نيابى أو شبه نيابى ، ولكن هيئة واحدة ألفها محمد على سنة ١٨٢٩ يصح أن تعد

(١) سنة ١٨٣٩ ابان اشتداد الازمة بينه وبين تركيا

(٢) لحة عامة الى مصر تأليف الدكتور كلوت بك وتعريب الاستاذ محمد مسعود بك.

نواة لنظام شورى وهى (مجلس المشورة) ويتألف من كبار موظفى الحكومة والعلماء وأعيان القطر المصرى برئاسة ابراهيم باشا وهذا المجلس يشبه فى عدد أعضائه وتمثيلهم لمختلف الطبقات أن يكون جمعية عمومية مؤلفة من ١٥٦ عضواً ، منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء ، و ٢٤ من مأمورى الأقاليم ، و ٩٩ من كبار أعيان القطر المصرى وهو من جهة التمثيل أفضل من (الديوان العومى) الذى أنشأه نابليون فى عصر الحملة الفرنسية ، فإن هذا الديوان كان مؤلفاً من أعيان وتجار القاهرة فقط (١) ، وهو أقرب فى تشكيله الى (الديوان العام) الذى أسسه نابليون أيضاً ، إذ كان مؤلفاً من العلماء والأعيان النائبين عن مختلف مديريات القطر المصرى (٢)

أما من جهة السلطة فلم يكن لمجلس المشورة سوى سلطة استشارية ، وكذلك الديوان العمومى والديوان العام فى عهد الحملة الفرنسية ، وكانت مشورته مقصورة على مسائل الادارة والتعليم والأشغال العمومية ، وما يقترحه الاعضاء فى هذا الصدد مما ترشدهم اليه اختباراتهم ، وينظر فى الشكايات التى تقدم اليه ، وينعقد مرة واحدة فى السنة ويجوز أن يستمر الانعقاد عدة جلسات

أعضاء مجلس المشورة

يهمنا كثيراً أن نذكر هنا أسماء أعضاء مجلس المشورة ، فمنهم تألفت أول هيئة نيابية شورية فى عصر محمد على ، وجدير بنا أن نعرف أسماءهم بعد أن أثبتنا فى الجراين الأول والثانى أسماء أعضاء الهيئات التمثيلية التى تألفت على التعاقب فى عهد الحملة الفرنسية (٣) لىكون لدينا صورة جلية لمن يصح التعبير عنهم بأنهم نواب الشعب فى مختلف أدوار الحركة القومية ، ولنتقف من هذا البيان على أسماء كبار أعيان مصر فى ذلك العصر ، لأن الذين انتخبوا لعضوية مجلس المشورة كانوا بالبداية رؤساء العشائر والعائلات وكبار الأعيان البارزين فى القاهرة والأقاليم

(١) انظر الجزء الثانى ص ١٥ (٢) انظر الجزء الأول ص ١٠٤

(٣) انظر الجزء الاول ص ٩٦ والجزء الثانى ص ١٦ و ١٨ و ٢٢٠

ذكرت جريدة (الوقائع المصرية) (١) نبأ انعقاد مجلس المشورة لأول مرة، فقالت إنه اجتمع عصر يوم ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ (٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩) في قصر ابراهيم باشا (القصر العالي) وتحت رآسته، وحضر الاجتماع جميع الأعضاء وعرض عليه كل الشؤون الخاصة بالأقاليم خصوصاً ما كان موجوداً منها بالديوان العالي، وذكر أسماء الأعضاء نقلها بترتيب نشرها في الوقائع مع بيان وظائفهم وألقابهم بعد حذف عبارات التفضيم التي كانت مألوفة في لغة ذلك العصر

ابراهيم باشا، رئيس المجلس

اعضاء من رؤساء مصالح الحكومة والعلماء

عباس باشا (حفيد محمد علي)، احمد باشا مأمور الاقاليم الوسطى، محمد خسرو بك مأمور الجزيرة والمنوفية والبحيرة، شريف بك (الكتخدا بك) مأمور الاقاليم الصعيدية، محمود بك ناظر الجهادية، السيد البكري نقيب الاشراف، السيد السادات، الشيخ الأمير مفتي المالكية، الشيخ محمد انهدى مفتي الحنفية، الشيخ علي، الحاج ابراهيم افندي ناظر مجلس المشورة، كتخدای اغا والى جدة، أمير اللواء محمد بك ناظر عموم المهمات الحربية ومعمل البارود والطبخانة وعموم الغابريقات، حسن اغا رئيس بوابى الركاب العالي وناظر المواشى الأميرية، خليل افندي ناظر الترسانات، عبد الباقي افندي مدير خزانة الجهادية وباشمخاسبجى، محمد افندي الداوندار سابقاً، محمد امين افندي ناظر الابنية الاميرية، حسين بك ناظر الارز والغلال، الحاج عبد الله اغا سرکر دكان، حسين اغا ناظر الجوقه، عمر افندي ناظر الجلود، محمد افندي ناظر المنسوجات، أمين افندي ناظر البيع، حافظ افندي معاون الغابريقات، عرقى افندي معاون جورنل المحروسة، احمد ميمش افندي المعاون، محمد عارف افندي المعاون، علي راغب افندي المعاون، خالد افندي المعاون، سامى افندي محرر الوقائع المصرية، كاشف افندي باشكاتب الوقائع

أعضاء من مأمورى الاقاليم

خليل بك محافظ دمياط ، سليمان اغا مأمور الجعفرية ، حسين بك مأمور
 زقى ، حسين اغا مأمور الفيوم ، اسماعيل اغا مأمور نصف البهنسا ، حسن بك
 مأمور الجزيرة ، رستم افندى مأمور نصف المنوفية ، محمد افندى مأمور نصف المنوفية ،
 رستم افندى مأمور نصف البحيرة ، حسن افندى مأمور نصف الشرقية ، ابراهيم
 اغا مأمور طنطا ، ابراهيم بك مأمور نبروه ، محرم اغا مأمور نصف البهنسا ، تيمور
 اغا مأمور نصف الشرقية ، يوسف افندى مأمور فوه ، صالح افندى مأمور ميت غمر
 والسنبلاوين ، محمد اغا مأمور القليوبية ، ابراهيم اغا مأمور شرق اطفح ، الحاج
 عبد الرازق اغا مأمور محلة دمنه ، محمود اغا مأمور المنيا ، محمد افندى مأمور اسيوط ،
 حسين اغا مأمور منفوط ، الشيخ المصرى بجر نال المحروسة ، الشيخ عبد الله فواز
 بجر نال اسيوط

مشيخ واعيان الاقاليم

(الجزيرة) الشيخ حسن ، الشيخ عبد الواحد
 (السنبلاوين) الشيخ موسى خليفة ، الشيخ حفناوى ، الشيخ على الغول ،
 الشيخ اسماعيل ابوجاد ، الشيخ خضر ، الشيخ عبد الرحيم سلامى ، الشيخ حسين
 سالم ، الشيخ احمد سعدى
 (ميت غمر) الشيخ رزق الله ، الشيخ الحاج شريف ، الشيخ محمد خليل ،
 الشيخ عبد الله هلال ، الشيخ حنفى شرف الدين ، الشيخ على غندور ، الشيخ
 الحاج منصور ، الشيخ هام حبيب ، الشيخ عيسى سالم ، الشيخ قاسم طه ، الشيخ
 محمد المغربى ، الشيخ سليمان حجاب ، الشيخ سليمان منصور
 (الفيوم) الشيخ نصر عثمان ، الشيخ محمد الشبكي
 (زقى) الشيخ محمد فتوح ، الشيخ على سالم
 (اشمون جريس) الشيخ محمد عبيد

(منوف) الشيخ ابراهيم شحاته
 (ابو كبير) الشيخ ايوب عيسوى ، الشيخ عبد الغالب سالم ، الشيخ صالح ،
 الشيخ منصور ، الشيخ على المكلاوى ، الشيخ مصطفى على
 (شيمية «شرقية») الشيخ حسن اباطه ، الشيخ غيث ، الشيخ بغدادى اباطه
 (مليج) الشيخ محمد ابو عامر ، الشيخ ابو عماره
 (ايبار) الشيخ حاجى سليمان ، الشيخ حاجى احمد
 (غربية) الشيخ ابراهيم ابو درباله ، الشيخ على ابو احمد
 (هيبا) الشيخ احمد دريمه
 (قسم اول شرقية) الشيخ ابراهيم سالم ، الشيخ محمد خضر ، الشيخ محمد عليود
 (المنيا) الشيخ فرج ، الشيخ عبد الهادى
 (الفشن) الشيخ على شريعى ، الشيخ حبيب
 (شرق اطفيح) الشيخ حسين ابو على ، الشيخ حماد
 (بنى سويف) الشيخ بكر بدر ، الشيخ محمد الخولى ، الشيخ عبد الرحمن
 ابوزيت

(سمنود) الخواجه على
 (بشبيش) الشيخ ابو يوسف ، الشيخ احمد سرجانى ، الشيخ حسن ابوزيت
 (نبروه) الشيخ على كرفوز ، الشيخ فوده ، الشيخ احمد ابو اسماعيل ، الشيخ
 غانم محمد ، الشيخ اسماعيل رضوان ، الشيخ محمد ابو على
 (المحلة الكبرى) الشيخ حبيب جاويش ، الشيخ مطاوع دهلان ، الشيخ
 مصطفى ، الشيخ عيسوى خضر ، الشيخ على ابو عامر
 (الشباسات) الشيخ يونس ، الشيخ عبد الرحمن ، الشيخ شمس الدين ،
 الشيخ اسماعيل
 (كفر الشيخ) الشيخ محمد ابو صادر ، الشيخ عمر ، الشيخ ابراهيم سليمان
 (فوه) الشيخ يوسف رجب

(طططا) الشيخ احمد المذشوى ، الشيخ احمد ربيع ، الشيخ على ابو عائد
(العزيزية) الشيخ موسى ، الشيخ محمد عبد الله ، الشيخ ابراهيم ،
الشيخ ابو نصير

(المحلة) الشيخ يوسف سماح ، الشيخ محمد عبد الله ، الشيخ الخولى عبيد
(دمنهور) الشيخ دسوقي خير الله
(الرحمانية) الشيخ محمد
(النجيلة) الشيخ مصطفى
(كفر الزيات) الشيخ حسن سليمان
(القليوبية) الشيخ محمد القاضى ، الشيخ خضر ، الشيخ محمد الشواربى ، الشيخ
جمعه منصور ، شيخ العرب احمد حبيب

بعض اعمال مجلس المشورة

يتبين من الاطلاع على ما نشرته الوقائع المصرية من قرارات مجلس المشورة نوع
الاعمال التى كان يتداول فيها ، فغالبا كان خلاصا بالادارة والتعليم والاشغال
والقضاء ، ومعظم قراراته كان بناء على اقتراحات الاعضاء الموظفين فيه
ومما يلفت النظر أن أول قرار له فى أولى جلساته كان خلاصا بالتعليم ، اذ قرر
اعداد مكتب لتعليم كتبة الديوان اللغتين العربية والتركية ، واحوال الفلاحة ،
وتعيين محمد افندى دويدار ناظرا لهذا المكتب ، والشيخ مصطفى مدرسا للغة
العربية ، وقررا انه كلما يتم تعليم عدد من كتبة الديوان يرسلون الى الاقاليم ويحجى
خلافهم لتعليمهم ثم ارسالهم « ويستمر العمل حتى يصير القائمون بالعمل فيهم
الكفاءة لادارة مصالح البلاد »

فالقرار كما ترى مفيد وحكيم ، اذ هو يرمى الى ترقية المستوى العلمى لكتبة
الدواوين وارسال من يتم تعليمهم الى الاقاليم حتى يشغلوا الوظائف عن جدارة
واستحقاق ، وذلك هو عين الصواب

وقرر في جلسة ١٢ ربيع الاول ارتداء جميع الموظفين كساوى الجهادية، وقرر في جلسة ١٣ ربيع الاول بناء على طلب الدفتر دار (مدير الشؤون المالية) جعل اعمال السخرة بالمناوبة بحيث يتناوب أهل كل بلد العمل أسبوعا بعد أسبوع ، إلا إذا كان كثيراً فيستخدمون بأجمعهم حتى يتم ، ولا يعنى من العمل إلا اعمال الفابريقات

وقرر في هذه الجلسة ذاتها بناء على طلب مأمور السنبلاوين أن يكون عمل الفلاحين في التطهيرات وبناء القناطر وإصلاح الجسور في أشهر توت وبابه وكيهك، وطوبه وأمشير وبرمات وبؤونه ، وبني اقتراحه على أن الفلاحين في باقى أشهر السنة يكونون مشغولين بالزراعة والحصاد وجنى القطن ، فوافق المجلس على الاقتراح ، وكلف مأمور الديوان الخديوى بأن يأمر بذلك نظار الأقسام ومأمورى الأقاليم

ومن قراراته انه قرر أخذ ١٠٠ غلام من كل ثمن من أمان القاهرة وبولاق ومصر القديمة وجملتهم ١٠٠٠ غلام لتشغيلهم بالأجرة في فابريقات الحكومة ، وكذلك قرر أخذ الصالحين للعمل من المتسولين (الشحاذين) للالتحاق بهذه الفابريقات وأن يرتب لهم أرزاق يومية وبعد تعلمهم الصناعة ترتب لهم أجور يومية ، ولهذا القرار قيمته في تليم الصناعة ومحاربة البطالة

وبحث في عقاب الموظفين ومشايخ البلاد (العمد) الذين تمتد يدهم الى الرشوة (البرطيل) أو سلب أموال الأهالى ، فقرر إلزامهم برد ما أخذوه ومجازاتهم بالعقوبات الشديدة

ويقول المسيولينان باشا في كتابه (مذكرات عن اهم اعمال المنفعة العامة بمصر ص ٤٣٣) انه عرض مشروعه في بناء القناطر الخيرية على مجلس المشورة ، فطلب منه المجلس بيان ما يقتضيه المشروع من النفقات ، فأبدى له رقما تقديريا ، ويطالعا المسيولينان بحقيقة هذا المجلس فقد قال عنه انه « مؤلف من مشايخ الاقاليم الذين كان المراد ان يحلوا محل الترك في الحكم ، ولكنه لم يدم طويلا » ،

فيقبن من ذلك ان هذا المجلس الذي كان يمكن أن يكون نواة لنظام نيابي لم يكن طويل العمر ، ولذلك لم يظهر له أثر في معظم عهد محمد علي

القانون الاساسى سنة ١٨٣٧

وفي سنة ١٨٣٧ وضع محمد علي باشا قانونا اساسيا يعرف بقانون (السياسة) احاط فيه بنظام الحكومة واختصاص كل مصلحة من مصالحها العامة ، وقد حصر السلطة في سبعة دواوين وهي

(أولا) - الديوان الخديوى ، وينظر في شؤون الحكومة الداخلية العامة ، وله سلطة قضائية إذ كان يفصل في بعض الدعاوى الجنائية ، فقد ورد في لائحة تأسيسه انه يختص بالضبط والربط في مدينة القاهرة والفصل في الخصومات والشكايات التي ترفع اليه ، اما الدعاوى الشرعية فكان يحيلها الى المحاكم الشرعية ، وكان يختص بالحكم في جرائم القتل والسرقات الى ان انشئت سنة ١٨٤٢ (جمعية الحقانية) التي سيرد الكلام عنها ، وكان له الاشراف والراية على عدة مصالح ، منها مصلحة الابنية (المباني) وفروعها ، والمخبر الملوكى ، والكيلار العامر (ادارة المخصصات الغذائية للبasha) ، والسليخة ، والقوافل ، وديوان المواشى ، وترسانة بولاق ، والمستشفيات الملكية ، والروزنامة (ادارة اموال الميرى) وبيت المال ، والاقواف المصرية ، والتمرخانة ، وجبال المرمر ، ومحاجر طره وأثر النبي ، ومهمات ترعة الحمودية ، وخزينة الامتعة ، والبوستان ، وأمور الاحكام باسكندرية

(ثانيا) - ديوان الايرادات ، وهو قسمان ، أحدهما يختص بحسابات كافة المديرية وجزيرة كريد والحجاز والسودان ، والثاني يختص بايراد مدينتى مصر والاسكندرية والكمارك والمقاطعات والزامات ، وكان هذين القسمين مفتشون يعرفون بمفتشى الاقاليم للتقريب على المصالح

(ثالثا) - ديوان الجهادية ، واليه يرجع النظر في نظام الجنود البرية وضبط وربط حركاتها وتعليماتها ، ومهمات الفيالق والشكنات ومواقع الخيام والقلاع ،

والمستشفيات العسكرية، والشؤون الصحية للجنود وورش ومخازن المهمات الحربية،
ومعامل البارود وتعلقاتها وأشوان المؤن العسكرية والمخازن، وعلى العموم كافة
المصالح العسكرية

رابعا — ديوان البحر، واليه يرجع النظر في ادارة وتنظيم الدونامة (الاسطول)
وضبط وربط حركاتها، والترسانة والمخارن والخزينة البحرية وتجهيز المهمات والمؤونة
وسائر حاجات الدونامة والمستشفيات البحرية

خامسا — ديوان المدارس واليه يرجع النظر في أمور المدارس الابتدائية
والتجهيزية والخصوصية (العالية) والكتبخانات ومخازن الآلات والادوات، والقناطر
الخيرية، ومطبعة بولاق وادارة الوقائع المصرية ومصلحة الأمور الهندسية وادارة
زرائب المارينوس والاصطبلات الكبرى في شبرا

سادسا — ديوان الأمور الافرنكية والتجارة المصرية واليه يرجع النظر في
العلاقات الخارجية ومعاملة الأجانب وبيع متاجر الحكومة ومشترياتها

سابعا — ديوان الغابريقات واليه يرجع النظر في ادارة فابريقة الطرايدش في
فوه وكافة الغابريقات التي كانت توجد في مدينة مصر ومدن الاقاليم

وكان مفروضا على رئيس كل من هذه الدواوين ان يقدم للباشا تقريرا في
كل اسبوع عن احوال ديوانه وكشفها شهريا بحساباته الى تفتيش الحسابات وميزانية
سنوية عن الايراد والمصرف

المجلس الخصوصي والمجلس العمومي

وفي يناير سنة ١٨٤٧ ألف محمد علي ثلاثة مجالس جديدة عدا الهيئات المتقدمة،
اهمها (المجلس الخصوصي) واختصاصه النظر في شؤون الحكومة الكبرى وسن
الوائح والقوانين واصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة وكان يرأسه ابراهيم باشا،
واعضاؤه كتحدا باشا (عباس باشا حفيد محمد علي) واحمد باشا يكن
وحسن بك رئيس جمعية الحقانية، وبرهان بك

و (المجلس العمومى) او (الجمعية العمومية) بديوان المالية وهى هيئة مؤلفة من مدير المالية ووكيل الديوان الخديوى ومدير المدارس (ادهم بك) ومدير الحسابات (باسليوس بك) ومفتش الغابريقات (لطيف بك) ومفتش الشفالك (حافظ بك) ورؤساء اقلام دواوين الحكومة، وينعقد هذا المجلس مرتين فى الاسبوع على الاقل وينظر فى شؤون الحكومة العمومية التى تحال عليه ويرسل قراره الى (المجلس الخصوصى) فاذا وافق عليه احاله على الباشا ليأمر بتنفيذه اذا اقره و (مجلس عمومى) آخر بالاسكندرية يختص بالنظر فى شؤونها يرأسه ناظر ديوان الاسكندرية واعضاؤه ناظر ديوان البحرية وناظر ديوان التجارة ومأمور الضبطية وامين الجرك وناظر الترسانة ووكيل الدونمة

نظرة عامة فى هذا النظام

إن انشاء حكومة قوية من أجل الاعمال التى قام بها محمد على ، لانها قضت على الفوضى التى كانت ضاربة اطنابها فى البلاد ، وبهذه الحكومة امكنه أن يتم الاصلاحات التى فكر فيها ، وكان لها الفضل الكبير فى نشر لواء الامن فى البلاد وهذا الامن الذى بسطه محمد على باشا كان من أهم دعائم العمران فى وادى النيل ، ومن الحق ان نقول ان استتباب الامن والنظام من مميزات هذا العصر ، لان عصر المماليك اشتهر بفقدان الضبط والربط فلم يكن المزارعون والتجار والملاك يأمنون على مواهم واملاكهم بل كانت تتخطفها المناسر وقطاع الطرق ، ومعلوم أنه اذا لم يستتب الأمن فى بلد فلا يرجى له تقدم أو حضارة ، فمحمد على قد وضع أول دعامة لعمران مصر بضبط الامن والضرب على ايدي الاشقياء وقطاع الطرق وقرصان النيل ، وهذا من أجل أعماله مدة حكمه ، قال المسيو جومار فى هذا الصدد « ان من أهم نتائج حكم محمد على وأدعاها للاعجاب بسط رواق الامن بحيث يستطيع

الانسان أن يجتاز الجهات البعيدة عن النيل آمنا مطمئنا بعد أن كان يستهدف لاختطاف العربان اياه اذا تخطف عتبة الصحراء ، بل في وسط الجهات الزراعية ، وقد اخضعت الحكومة سطوة العربان ومنعت غزواتهم ، ويمكن الانسان أن يسير وسط مضاربهم آمنا على نفسه ، وهم يشتغلون بتربية المواشى والغنم والاتجار بها في الاسواق »

فبزة حكومة محمد على انها وطدت دعائم الامن في البلاد ، وبذلك امكنها أن تقوم بالاصلاحات التي مر بك ذكرها ، ولكن بجانب ذلك لامندوحة عن القول بان محمد على لم يتجه ذهنه قط الى انشاء نظام دستورى أو شبه دستورى بالمعنى المفهوم منه ، وهذه نقطة ضعف وموضع نقد شديد في تاريخه ، وما الهيئات التي اسسها الا مجالس تنفيذية كانت الكامة العليا فيها له او لكتختدائه ، ومجلس المشورة لم يعمر طويلا ، والظاهر ان ميوله النفسية لم تتجه الى ناحية النظام الدستورى ، ولو انه غنى بهذه الناحية لامكنه أن يعد الأمة للاضطلاع بمسؤوليات الحكم في عهده ، ولكنه لم يفعل ، وترك المسألة فوضى بين خلفائه والشعب ، فوقع التصادم بينهما في اواخر عهد اسماعيل واوائل عهد توفيق حتى أفضى الى الثورة العربية ثم الى الاحتلال الانجليزى

التقسيم الادارى والموظفون

كانت مصر مقسمة الى ١٦ اقليبا طبقا للتقسيم الذى كان معمولاً به في عهد الحكم التركى (١) ، فادخل محمد على تعديلا في هذا التقسيم بان جعل من مصر سبع مديريات جعل عليها حكاما محامى المديرين ، وهى التسمية الباقية الى اليوم وجعل في الوجه البحرى اربع مديريات ، فالمديرية الاولى تشمل البحيرة والقلوبية والجيزة ، ثم صارت البحيرة مديرية قائمة بذاتها ، وكذلك الجيزة

(١) انظر الجزء الاول ص ٥٨

والمديرية الثانية تشمل المنوفية والغربية ، ثم انفصلت كل منهما وصارت
مديرية قائمة بذاتها ، والمديرية الثالثة تشمل المنصورة (الدقهلية) ، والمديرية الرابعة
تشمل الشرقية

وواحدة تتألف منها مصر الوسطى من جنوبى المنيا الى جنوبى الجيزة ، ثم
سميت مديرية الاقاليم الوسطى ، وشملت بنى سويف والفيوم والمنيا
وانفتان تتألف منهما مصر العليا ، الاولى من شمالى قنا الى جنوبى المنيا ،
والثانية من وادى حلفا الى قنا ، ثم سميت اسيوط وجرجا مديرية (نصف اول وجه
قبلى) وسميت قنا واسنا مديرية (نصف ثانى وجه قبلى)

أما القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس فكل منها محافظة
وقسمت كل مديرية الى مراكز ، والمراكز الى اقسام (اخطاط) ، أما المراكز
فقد سمي رؤساؤها المأمورين ، وهى التسمية الباقية الى اليوم ، ورؤساء الاقسام بالنظار ،
وهذه التسمية لم يعد لها وجود الآن ، والقسم يشمل فى دائرته جملة نواح (قرى)
لكل ناحية رئيس يدعى شيخ البلد الموجود منذ القدم (والمعروف الآن بالعمدة) ،
وبقى بجانبه (الخولى) ووظيفته مسح الاطيان و (الصراف) لجمع أموال الميرى
و (الشاهد) وهو المعروف بالمأذون

فمحمد على هو أول من سمي أقسام مصر الادارية (مديريات) وأول من سمي
رؤساءها (مديرين) ، وسمى رئيس المركز مأمورا ، ورئيس القسم ناظرا ، فهذه
الاسماء من مبتكراته

البوليس

وكان يتولى ادارة الأمن وحفظ النظام فى القاهرة موظفان كبيران ، يسمى
أحدهما والى ، وكان موجودا قبل عصر محمد على ، والآخر الضابط (ويسمى
ضابط مصر) وهو بمثابة حاكمدار البوليس الآن ، ثم آل الامر الى الاقتصار على

الثانى ، وتحت امرته ضباط موزعون فى انحاء المدينة تميزهم من غيرهم علامة خاصة ، وعليهم ضبط الأمن ، والمحافظة على سلامة الافراد ، ويقومون أثناء الليل بالنوبة ، فاذا مضت ساعة ونصف من غروب الشمس القوا القبض فى الطريق على كل شخص لا يحمل بيده مصباحا ، وبهذا تقفر الشوارع وتسكاد تخلو من السابلة أثناء الليل ، ويتولى رقابة الاسواق موظف يعرف بالحتسب

النظام القضائى

لم يتغير النظام القضائى كثيرا عما كان عليه فى عهد المالك (١) . ولم يدخل محمد على فى هذا النظام تعديلا أو اصلاحا ، غير انه جعل للديوان الخديوى اختصاصا قضائيا كما مر بك ببيان ، وانشأ سنة ١٨٤٢ هيئة قضائية جديدة تسمى (جمعية الحقانية) جعل من اختصاصها محاكمة كبار الموظفين على ما يهتمون به فى عملهم ، وتحكم أيضا فى الجرائم التى تحيلها عليها الدواوين ، وكانت بمثابة محكمة جنائيات وجنح ، وهى مؤلفة من رئيس وستة أعضاء منهم اثنان من أمراء الجهادية واثنان من البحرية واثنان من ضباط البوليس وانشأ محكمة تجارية تسمى (مجلس التجار) لفصل فى المنازعات التجارية بين الاهلين ، أو بينهم وبين الافرنج ، وتتألف هذه المحكمة من رئيس ونائب رئيس ، وباشكاتب ، وكاتب ، وثمانية أعضاء من التجار خمسة منهم من الوطنيين وثلاثة من الاجانب ، وكان بكل من الاسكندرية والقاهرة محكمة من هذا النوع وكان المديرون يجمعون بين السلطتين القضائية والادارية ، ولهم اختصاص جنائى واسع المدى يصل الى الحكم بالاعدام ، ومن هنا جاء اسرافهم فى الظلم والارهاق

النظام المالى والاقتصادى

الملكية والضرائب

تكلمنا فى الجزء الاول (ص ٢٨ وما بعدها) عن نظام ملكية الأراضى فى عهد المماليك ، وخلاصة ما ذكرناه ان السلطان سليم اعتبر نفسه مالكا لأراضى مصر ، وبذلك كان صاحب الارض لا يملك رقبته بل حق الانتفاع بها ، وان المماليك بسطوا أيديهم على الكثير من اراضى مصر فصارت ملكا لهم ، وباقى الارض موزع بين الفلاحين والملتزمين والاقواف ، وان الفلاحين كانوا يملكون النزر اليسير من الأراضى ينتفعون بها ويوارثونها ، لكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والاتاوات ، وهذه الضرائب والاتاوات تدفع للملتزمين ، والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى «اللزما» اى يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه على أن يلتزموا بالحكومة بدفع نصيبها من الضرائب

الغاء نظام الالتزام

تغير هذا النظام فى عهد محمد على باشا تغيرا عظيما ، فانه بعد أن غلب المماليك وخاصة بعد أن قضى عليهم فى مذبح القلعة عهد الى املاكهم التى كانت تحت أيديهم واستخلصها لنفسه ، ثم ألغى نظام الالتزام ونزع الاراضى التى كانت تحت ايدى الملتزمين والى كان الفلاحون يزرعونها ويدفعون ضريبتها لهم ، واعتبرها ملكا للحكومة ، ووزع منفعتها على الفلاحين كأطيان مؤجرة ، وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة افدنة او أربعة او خمسة ، وبذلك آلت له حقوق الملتزمين وسلطتهم ، وصارت علاقة الفلاحين بالحكومة مباشرة بعد أن كانت علاقتهم بالملتزمين وقد توصل محمد على الى الغاء نظام الالتزام بان طلب من الملتزمين ان يطلعوهم

على سندات ملكيتهم ، فلما قدموها له قرر بطلانها جميعا ، واعتبر الحكومة أو
 بعبارة أوضح اعتبر ذاته مالكا لجميع أراضي مصر
 أحدث الغاء نظام الالتزام استياء شديدا بين الملتزمين ، وكانوا يؤلفون طبقة
 كبيرة من الملاك والاعيان والمشايخ في مختلف البلدان يتعيشون منه ، فأراد محمد على
 أن يعوضهم شيئا مما فقدوه من مزايا التزامهم ، فأبقى تحت ايديهم (الأطياف
 الوسية) اى التى أقطعها اياهم ولاية الأمور من قبل للقيام بأعباء الالتزام ،
 نفوهم حق الانتفاع بها مدى الحياة مع اعفائهم من دفع ضريبتها ، وقرر لهم عدا
 ذلك معاشات سنوية تدفع لهم من ادارة الروزنامة تعادل ما كانوا يربحونه من
 الاطياف الداخلية فى التزامهم ، وكان حقهم فى هذا الربح مستمدا من أساس
 الالتزام نفسه ، فأساسه أن يعجل الملتزم للحكومة ضريبة سنة يدفعها مقدما على ان يجيبها
 بعد ذلك من الفلاحين ، فجعل محمد على هذه الرواتب السنوية فى مقابل ما كان
 يصل الى ايديهم من ارباح الألتزام وسميت (الفاض) وقيدت فى الروزنامة لاسم
 كل ملتزم ، تدفع له مادام حيا ، على أنه مما يجدر ملاحظته ان هذا الفايض أقل
 بكثير مما كانوا ينالونه من مزايا الألتزام ، لان محمد على لجأ الى طريقة تدل على
 ذكائه ودهائه فى حساب هذا الفاض ، ذلك أنه قبل أن يعلن عن نيته فى الغاء
 الألتزام طلب من الملتزمين أن يقدموا له كشوفا بارباحهم من التزاماتهم ، وهى التى
 تسمى بالفائض او فائض الألتزام ، فظنوا أن الغرض من هذا الطلب عزم الحكومة
 على زيادة الضريبة التى يلتزمون بدفعها للحكومة ، فأنقصوا قيمة هذه الأرباح جهدا
 ما استطاعوا ، فاعتمد محمد على باشا على هذا الحساب وحدد لهم رواتب مساوية
 لها ، واسترد فى مقابل ذلك الاملاك التى كانت تحت يدهم التزاما
 وضع محمد على إذن يده على أطياف الملتزمين ، أما الأراضي الموقوفة على
 المساجد ومعاهد البر والخيرات فقد تركها بداءة ذى بدء حتى لا يثير عليه هياج
 المستحقين والنظار ، لكنه ما لبث أن ألغاها وضمها الى أملاك الحكومة ، آخذاً

على عهده الانفاق على المساجد ، ورتب للشيخ الذين كانوا يتولون إدارة الأقطان الموقوفة معاشات سنوية ضئيلة ، ولم يبق من الأوقاف على الخيرات سوى النزر اليسير ، وبذلك توصل محمد على الى وضع يده على أقطان الملتزمين ثم على الاقطان الموقوفة ومما يجب الامناع اليه انه لم يكن في مصر ملك بالمعنى الصحيح حينما ألغى محمد على نظام الالتزام ، ولم يكن سوى الملتزمين ، ولذلك يسميهم كثير من المؤلفين الافرنج (ملاك) ، فالغاء الالتزام كان بمثابة إلغاء للملكية المعروفة في ذلك العصر ، وهي ملكية الانتفاع ، ولو أن محمد على بعد إلغاء نظام الالتزام ملك الفلاحين الأراضى لكان ذلك إنشاءً لنظام الملكية ، ولكنه اعتبر الحكومة مالكة لجميع الاراضى ، ولم يرتب للفلاحين حقوق الملكية عليها بل كانت الحكومة تعد الفلاحين اجراءً عندها أو منتفعين بأطيانها ، ففستأجرهم للعمل في الأرض بالمياومة وتعين لواحد منهم قرشاً واحداً في اليوم ، إما نقداً وإما أصنافاً ، ويبقى لهم حق الانتفاع بالأرض ماداموا يدفعون ضريبتها ، فإذا تأخروا عن أداء الضريبة نزع الأرض من تحت يدهم ، وأعطيت لفلاحين آخرين ينتفعون بها ، وكان للحكومة أن تنزع الأرض من تحت يد من تشاء إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك دون أن تدفع له تعويضاً ، وكانت تعطى الفلاحين ما يلزم الزراعة من آلات الري والحراث والمواشى ، ومأمور المركز هو الذى يحدد لكل فلاح مساحة الأرض التى تعطى له ومقدار ما ينحصر لكل نوع من الزراعات ، وإذا جاء الحصاد اشترت الحكومة من الفلاح حاصلاته بالتمن الذى تحدده طبقاً لنظام الاحتكار ولا تترك له إلا الحبوب ، ثم شمل الاحتكار الحبوب أيضاً .

وكان الانتفاع قاصراً على المنتفع مدى الحياة ، فلا يتوارثه أعقاباه ، على أن العمل جرى على أنه بعد وفاة المنتفع يتولى مشايخ البلاد ثم المديرون إعطاء حق الانتفاع لورثة المتوفى على سبيل المنح ، كما منج من قبل الى المورث لا على أنه حق موروث ، ولذلك كان الفلاحون عرضة لاهواء المشايخ وتحكمهم كلما أرادوا أن يمنح لهم هذا الحق .

ومما تقدم يتبين أن حق ملكية الفلاحين الاراضى الزراعية لم يتقرر فى عصر محمد على ، وإنما جاء تقريره بمقتضى قانون سنة ١٨٥٨ فى عهد سعيد باشا ولا نزاع فى أن إلغاء الالتزام مع عدم تقرير حق الملكية لا يمكن أن يعد إصلاحاً ، بل هو أبعد ما يكون عن الإصلاح ، قال المسيو مانجان ، وهو صديق لمحمد على ، إن التعديلات التى أدخلها الباشا فى نظام الملكية لم تكن متفقة مع الصالح العام ، فلا هو احترام الملكية الفردية ، ولا هو اعتراف بها ، كما ان الذين عجزوا عن دفع الاتاوات والضرائب المختلفة التى فرضت على أملاكهم اضطروا أن يتنازلوا عنها ، وقال إنه لما أمر محمد على بمسح الاراضى فى القطر المصرى زاد عدد الافدنة بسبب تغيير مقياس المساحة و إنقاص طول القصبه ، وزاد بالتالى ما يطلب على الارض من الضرائب ، وبإلغاء الالتزام حرّم الملتزمون من الاملاك التى كانوا يستثمرونها ، فالغاء الالتزام مع عدم إنشاء الملكية الفردية ، معناه إلغاء الملكية وامتلاك الحكومة لجميع الاراضى الزراعية ، ولئن كان محمد على قد أمر بترتيب إيراد سنوى للملتزمين الذين نزعت الاراضى من تحت ايديهم إلا أن هذه الرواتب لا تتوارث فكانت تسقط بوفاة الملتزم ، ويقول المسيو مانجان أيضاً إن هذا النظام القاسى قد نشر الاحزان فى العائلات ، وقد أسهب الجبرتى فى وصف تدمير الناس من هذا النظام فى حوادث ربيع الاول سنة ١٢٢٩ هـ (سنة ١٨١٤ م)

ولقد دافع بعض الكتاب الافرنج عن هذا النظام ، ولكنهم دافع ضعيف لا يرتكز على أساس صحيح ، ولم يجحدوا ما يبررونه به سوى قولهم ان هذه الطريقة مكنت الحكومة من ان تنظم زراعة الاراضى على الاساليب الجديدة ، وتدخل الزراعات التى لم تكن معروفة عند الفلاحين من قبل ، وان هذه الطريقة هى التى نهضت بمحاصلات مصر الزراعية فى عصر محمد على ، وغنى عن البيان ان هذا الدافع لا يثبت أمام البحث والتحقيق ، فان تحسين الزراعة وادخال الزراعات الجديدة لا يستلزم جعل جميع الاراضى الزراعية ملكاً للحكومة ولا يتعارض مع تحويل الفلاحين حق الملكية . ولقد خول لهم هذا الحق فى عهد سعيد باشا

فلم تقف معه حركة النهوض الزراعى ، بل كانت الملكية الفردية - ولم تزل - من دواعى نشاط الفلاحين وجهدهم فى العمل ، وهذا الجهد والنشاط هما قوام العمران على أن الذين دافعوا عن هذا النظام مثل الدكتور كلوت بك اعترفوا بأنه نظام مؤقت وأنه يمهد السبيل لتقرير حق الملكية الزراعية ، ومعنى ذلك أن حق الملكية هو النظام الطبيعى الذى لا ندحه عن تقريره فى كل بلد من البلاد المتحضرة أحدث الغاء الالتزام كما قلنا تدمرا بين الملتزمين ، على أن الملتزمى الوجه البحرى والجزيرة قد أذعنوا لأمر الحكومة ورضوا بما رتبته لهم من الفائض السنوى مهما كان ضئيلا ، أما ملتزمو الوجه القبلى ومعظمهم من سلالة المالك ورؤساء العشائر ذوى النفوذ والعصبية فانهم لم يذعنوا ، واضطر محمد على ابن مجرد عليهم قوة حربية لاختضاعهم فغلبتهم وحرمتهم من ميزة (الفائض) واضطر بعضهم الى الهجرة ، ونزع محمد على املاكهم و اضافها الى مجموع الاراضى الزراعية التى اعتبرها ملكا له

ولما كانت أراضى الوسية حقا للملتزمين مدى الحياة فقط فقد شرع كثير من الملتزمين فى وقفها حتى لا يحرم ورثتهم من ريعها ، وزادت الوقفيات زيادة كبيرة حتى اضطرت الحكومة فى عهد سعيد باشا سنة ١٨٥٥ الى تحويل اصحاب (الاواسى) حق توريثها لاعتقابهم الى ان تنقرض ذريتهم فتعود ملكيتها الى الحكومة

الابعاديات والشفالك

ويظهر أن محمد على بعد احتكاره ملكية اطيان القطر المصرى رأى ان يخفف غلواء هذا الاحتكار ويقرر نوعا من الملكية الفردية ، بان أقطع كثير من أعيان الدولة ورجال الجهادية والموظفين وبعض كبار الاعيان مساحات شاسعة من الاراضى البور قدرها كلوت بك بـ ٢٠٠ الف فدان ليستحدثهم على اصلاحها واحياء مواتها ، وبذلك يزداد عمران البلاد وتتسع الاراضى الزراعية ، وهذه الاراضى مما لم يسمح فى دفاتر التاريع ، وقد أعفاها من الضرائب ، وسميت أباعد او ابعاديات لانها

كانت مستبعدة عن مساحة فك الزمام التي عملت سنة ١٨١٣، ولأجل ان يستحث اصحاب تلك الابعاديات على العمل فيها واصلاحها أصدر امرا في سنة ١٨٣٨ بمنعهم من أن يؤجروها ويأمرهم ويؤكد عليهم أن يشتغلوا بانفسهم في اصلاحها وخص أفراد أسرته وكبار حاشيته باراض أخرى أوسع من الابعاديات سميت (جفالك) أو (شفالك) وأعفاها ايضا من الضرائب ، وكانت تعطى بهذه الاطيان (تقاسيط) من مصلحة (الروزنامة) أو حجج تحرر المحاكم الشرعية ، وكانت كذلك في المبدأ خارجة عن الاراضى المسووحة التى تجبى منها الضرائب وحقوق أصحاب هذه الاطيان من الابعاديات والشفة لك كانت مقصورة على حق الانتفاع الى أن لاحظ محمد على ان عدم تخويلهم حق الملكية قد صرف أصحابها عن العمل لاصلاحها فحولهم حق الملكية والتصرف الشرعى فيها فى أواخر حكمه (سنة ١٨٤٢)

مساحة الأراضى الزراعية

ورأى محمد على باشا من وسائل العمران مساحة الاراضى الزراعية فى جميع المديرىات توصلا الى حصرها وفرض ضرائب ثابتة سنوية عليها ، وذلك هو (التاريخ) المشهور الذى بدأ بعمله فى سنة ١٨١٣ وعهد به الى ابنه ابراهيم بك (باشا) ومعه المعلم غالى بصفته رئيس المساحين ، وتعد دفاتر التاريخ التى أمر محمد على بوضعها من أهم أعماله العمرانية ، وفيها مساحة أطيان القطر المصرى المزروعة وحدود كل أطيان البلاد واحواضها ومساحة سكن كل بلد ومساحة الأراضى المستعملة للمنافع العمومية كالترع والجسور والطرق والمدافن وعرف كل فلاح ماعليه من الضريبة ، ومنح مشايخ البلاد عن كل مائة فدان من زمام البلد خمسة افدنة لا يدفعون عنها ضريبة مقابل خدماتهم للحكومة وإيواء من يحضر اليهم من الموظفين ، وقد سميت هذه الاطيان (مسموح المشايخ) أو مسموح المصطبة على أن معظم هؤلاء المشايخ ساءت تصرفاتهم واستبدوا بتسخير الفلاحين

في خدمة أراضيهم وكثرت شكاوى الناس منهم فأمر سعيد باشا سنة ١٨٥٨
بإبطال مسوح المشايخ وضم تلك الأراضي الى زارعيها من الفلاحين بأعلى ضريبة
في كل بلد

وكانت مساحة الأراضي المزروعة سنة ١٨٢١ مليون فدان، وبلغت سنة ١٨٤٠
٣٨٥٦٠٠٠ فدان (١) أى أنها بلغت الضعف تقريبا في مدى عشرين عاما

الضرائب

لم يكن للضرائب قاعدة أو نظام قبل ان يسمح محمد على اراضى مصر (سنة ١٨١٣)
بل كانت القاعدة انه كلما احتاجت الحكومة الى المال فرضت اقاوة جديدة أو
زادت الاتاوات القديمة

وقد كان محمد على يستشير العلماء فيما يفرضه من الضرائب، وذلك في السنوات
الأولى من حكمه، الى أن تخلص من نفوذ السيد عمر مكرم فأطلق يده في فرض
ما يشاء من الضرائب والاتاوات كلما احتاج الى المال، وعظمت حاجته الى الاموال
بحجبهامناسبة الحملة على الوهابيين، فانها اقتضت نفقات طائلة، ولما اخفقت الحملة
الأولى جيز حملات اخرى واحتاج الى اموال جديدة، ففرض ضريبة على اراضى
الرزق التي كانت معفاة من المال من قبل، فشكا المشايخ والاهلون من أن مثل
هذه الضريبة تؤدي الى ضياع غلة الاطيان الموقوفة على المساجد والمعاهد الدينية
والأسبلة والمنشآت الخيرية، ولكن هذه الشكوى لم تلق قبولا

ولماتت عملية مساحة اطيان القطرى المصرى قررت الحكومة فرض ضريبة
ثابتة على الاطيان، وفرضت الاراضى الزراعية الى درجات بحسب قيمتها ونوعها
وجعلت لكل درجة ضريبة محدودة، فقدرت الضريبة على كل فدان بأربعة قروش نصف
على الأقل في عموم القطر، وبخمسة وأربعين قرشاً أو تسعة وأربعين قرشاً على الأكثر، ثم
عدلت الضرائب غير مرة على مر السنين بوضع تقسيمات جديدة للاراضى ومراتبها، وكان

(١) احصاء، كاوت بك ج ٢ ص ٢٦٤ (من الاصل الفرنسى)

الغرض من هذه التعديلات زيادة سعر الضريبة وبالتالي زيادة ما يجبي منها ، وحجة محمد علي في هذه الزيادات ان الاصلاحات التي قام بها والحروب التي باشرها استنفدت إيرادات الحكومة ، فكان لا مندوحة له عن زيادة الضرائب كما انه استحدث ضرائب جديدة لسد العجز في ميزانية الحكومة

وكان من نتائج زيادة الضرائب وافتقار الاراضى الى الأيدي العاملة بسبب تجنيد الآلاف من الفلاحين في الجيش أن تأخرت قرى كثيرة عن أداء نصيبها في الضريبة ، وهجر كثير من الفلاحين بلادهم لغداحة الضرائب ، ففكر محمد علي في ابتكار الوسائل لاداء المنكسر من الخراج فقرر وقتا ما (سنة ١٠٣٩) تضمين القرى خراج القرى المجاورة وتضمين الاهالى الموسرين خراج المعسرين ، على أن هذه الوسيلة كان لها نتائج سيئة ، لانها فضلا عما فيها من الظلم والحيف فانها تؤدي الى افقار القرى الموسرة واجبارها على دفع الضرائب اضعافا مضاعفة

ففكر في طريقة أخرى وهى نظام العهد (جمع عهدة) ، وذلك انه عهد الى بعض الاعيان والمأورين ورجال الجهادية ان يكون في (عهدهم) جباية ضرائب بلاد بأكملها ، على أن يكونوا مسؤولين عن الدفع من مالهم الخاص اذا لم يجبوها ، ولا ريب ان هذا النظام قريب الشبه بنظام الالتزام الذى انشاها محمد علي ، على انه يختلف عنه في كون (المتعهد) لا يستطيع ان يجبي من اصحاب الاراضى إلا الضريبة المحددة ، أما الملتزم فكان يجبي منهم ما يشاء أهواؤه وأطامعه

على أن مركز الفلاح إزاء (المتعهد) لم يكن مما يغبط عليه ، لأن المتعهد بما التزم به من اداء الضريبة كان يسخر الفلاح لاطماعه لانه يعتبر نفسه كاللدائن الذى يسدد عنه دينه ، وكانت الحكومة ملزمة اذا هجر الفلاحون بلادهم ان تعيدهم اليها حتى يستوفى المتعهد منهم مادفعه عنهم ، وفي هذا من مطاردة الناس وارهاقهم ما لا يغيب عن البال

ولقد أحدث نظام (العهد) مساوئ كثيرة ، فالغته الحكومة سنة ١٨٥٠

اذ أصدرت أمرا باسترجاع البلاد من المتعهدين، على انها انعمت على بعضهم بما كان في أيديهم من العهد وجعلتها لهم رزقة بلا مال يملكون رقبته ومنفعتها مملكا مطلقا، وسمحت لآخرين من المتعهدين بان يتمتعوا مدى حياتهم بمنفعة العهد التي كانت في أيديهم (١)

فرضة الروس أو الضريبة على الدخل

هي ضريبة تجبي من الافراد على اعتبار انها جزء من اننى عشر جزءا من المال المفروض انه يعادل الدخل، وهذه الضريبة مفروضة على الذكور المراهقين كافة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم، وتختلف تبعا لتفاوت الناس في الثروة من ١٥ قرشا الى ٥٠٠ قرش في السنة، وتجبى هذه الضريبة في المدن عن النفوس، وفي القرى عن المنازل، ويبلغ ما يحصل منها عادة سدس ايراد الحكومة

ضرائب أخرى

وهناك ضرائب أخرى تجبي على الماشية، فالبقر والجاموس يدفع عنها عشرون قرشا للرأس الواحد في السنة، وسبعون اذا كانت تباع للجزارين وتخصص للذبح على أن تبقى جلودها مملكا للحكومة، والجمال والنعاج يدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش، وقوارب النقل يدفع عن كل قارب منها ٢٠٠ قرش، والنخيل يدفع عنه ضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ومتوسطها قرش ونصف عن كل نخلة، وقوارب الصيد يدفع عنها ضريبة

(١) عاد العمل بنظام العهد مرة أخرى في عهد اسماعيل باشا الى أن صدر قرار مجلس شورى النواب في ١٦ شعبان سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦ م) بفك عهد البلاد ابتداء من سنة ١٢٨٤ مساواة الاهالى بعضهم ببعض

نظام الاحتكار

احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية والتجار بها

ان الكلام عن نظام الملكية والضرائب يستتبع الكلام على الاحتكار للارتباط بينهما، ذلك انه كان ألوفاً من عهد المالك ان تجبي الضرائب نوعاً من حاصلات الارض، ولم يكن الفلاحون الذين خولهم محمد على حق الانتفاع بالاراضى من اليسار بحيث يستطيعون أداء الضريبة نقداً في موعدها، كما أن الحكومة من جهة اخرى كانت تعطى الفلاحين أدوات الزراعة والمواشى والبزور التى يحتاجون اليها قرضاً، فكانت قيمتها ديناً عليهم يجب أن يؤدوه مع الضرائب، وهم كما قدمنا عاجزون عن أدائها نقداً لما كانوا عليه من الفقر والفاقة، لذلك أذن محمد على باشا للفلاحين أن يؤدوا الضريبة صنفاً من حاصلات اراضيهم، وانشأ فى المديرية شونا (جمع شونه) لتحفظ فيها الحاصلات التى تجبى من الفلاحين، ومن هنا صارت الحكومة مالكة لمعظم حاصلات القطر المصرى الزراعية.

و كانت الحكومة تتولى بيعها للأهالى والتجار الجملة من الاجانب الذين يصدرونها للخارج، وتتولى هى ايضا تصديرها لحسابها وبيعها فى شعور فرنسا وايطاليا والنمسا وانجلترا، فربحت من هذا العمل ارباحاً طائلة، فكانت هذه الارباح مغرية لها باحتكار حاصلات القطر المصرى والتجار بها

وذلك ان محمد على قرر أن تحتكر الحكومة جميع الحاصلات الزراعية بحيث يحظر على الفلاحين ان يبيعوها الى التجار، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة بائمان تقررها هى، فصارت الحكومة محتكرة لتجارة حاصلات القطر المصرى بأكملها، وهكذا تسلسل نظام الاحتكار، فبعد ان تملك الحكومة معظم الاراضى الزراعية واحتكرتها بالغاء نظام الالتزام واسترداد املاك الملتزمين والغاء معظم الاوقاف، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعية، أى أن الحكومة صارت المالكة

للأراضي الزراعية ثم المحتكرة لحاصلاتها جميعا ، فلم يكن للفلاح ملكية لا على الأرض ولا على ما تنتجه

قررت الحكومة إذن شراء الحاصلات من الفلاحين بأثمان تحددها هي ، وكانت تخصم من الثمن ما عليهم من الضريبة وتدفع لهم الباقي نقدا ، وصارت هي التي تتولى التصرف في الحاصلات وبيعها والاتجار بها وتصديرها ، وشمل الاحتكار حاصلات القطن المصري باجمعهما كالقطن والأرز والغلل والقمح والنبيلة والسكر والافيون الخ .

وصار الفلاحون اذا احتاجوا للغلل للقوت يضطرون الى شرائها من الحكومة ثانية ، وكثيرا ما يحدث أن ترفع الحكومة سعر البيع لتربح من ثمن المبيع ، فتشتد الضائقة بالناس وترفع اسعار الغلال في الوقت الذي تفيض بها مخازنها ولا جرم أن هذه الوسيلة وان كانت تعود على الحكومة بالمكاسب (زمننا ما) الا انها من الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية تشل حركة التقدم الاقتصادي ، لان اجبار الفلاحين على بيع حاصلات أراضيهم للحكومة وتحديد هـا هي سعر البيع عمل ينطوى على الظلم والارهاق ، وفيه مصادرة لحق الملكية وحرمان المالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع من تراحم التجار على الشراء ، ذلك التراحم الذي ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع ، كما أن العمل بمثل هذا النظام يقتل كل همة فردية ويقبض ايدى الناس عن العمل ، ومن ثم يحول دون تقدم البلاد ادبيا وماديا ، ويضرب على الشعب حجابا من الفقر والجوهر

وقد ذكر الجبرتي احتكار الحكومة للغلل والسكر في حوادث سنة ١٢٢٧ (١٨١٢) وسنة ١٢٣٠ (١٨١٥) ، وذكر في حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣١ (١٨١٦ م) احتكارها حاصلات السكتان والسهم والعصفر والنبيلة والقطن والقرطم والقمح والفول والشعير والأرز ، وذكر في حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٣٢ (مارس ١٨١٧) اشتداد ازمة الاقوات بسبب الاحتكار

ولم يفت معظم كتب الافرنج انتماء هذا النظام فيما كتبوه عنه ، فقد قال المسبو

مورييه « إن هذا الاحتكار هو الجانب السيء في تاريخ محمد علي » وقال المسيو مريو Merruan (١) « لا حاجة بنا الى الاطالة في عيوب نظام الاحتكار كما وضعه محمد علي ، لقد ربح الباشا منه ارباحا طائلة لكنه افضى الى فقر الفلاحين المدقع وكاد يهوى بهم الى المجاعة لولا ما اعتادوه من القناعة وشطف العيش »

احتكار الصناعة

سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة والتجارة الى الصناعة ، فبعد أن صار محمد علي المالك الوحيد لاراضى مصر ، ثم التاجر الوحيد لحاصلاتها ، صار الصانع الوحيد لصنائعها ، والظاهر أنه رأى الاحتكار مما يزيد ايراد الحكومة لانه يفتح بابا جديدا للربح ، فعمد الى احتكار الصناعة ، لكن هذه الطريقة أضرت بالحالة الاقتصادية في مصر ضررا بليغا

قال المسيو مانجان في هذا الصدد « كان في البلاد صناعات يتولاها الافراد ويربحون مما يبيعونه من مصنوعاتهم الى أهل البلاد ، وما يصدرونه منها للخارج ، كنسيج أقمشة الكتان والقطن والحرير وصناعة الحصر والجلود واستقطار ماء الورد وصبغ النيلة وغير ذلك (٢) وكانت هذه الصناعات تشغل عددا من السكان يربحون منها نحو ثلاثين ألف كيس كل سنة (١٥٠٠٠٠٠ جنيه) ، ولكن محمد علي احتكر هذه الصناعات و اضاف ارباحها الى حسابه ، وبعد ان كان الصناع يستثمرون هذه الصناعات صاروا يعملون فيها لحساب الحكومة ، ويقبضون رواتب معلومة كعمال مأجورين ، وقال ان من نتائج هذا النظام ان كثيراً من صناع النسيج فضلوا ترك صناعاتهم واشتغلهم بالزراعة وآثروها على الاشتغال عمالا لحساب الحكومة ،

(١) في كتابه مصر الحديثة (١٨٤٠ — ١٨٥٧) (٢) ذكرنا أنواع الصناعات الصغرى الموجودة في ذلك العصر تفصيلا في الجزء الأول ص ٥٤

والاستهداف لسوء معاملة موظفيها ، وان المصنوعات في نظام الاحتكار قد هبطت جودتها عما كانت عليه حين كانت الصناعة حرة ، ولا غرو فان الصانع الذي لا يعمل لحسابه لا يتقن العمل كما يتقنه لو كان ربحه عائدا اليه
وقال ان احتكار الصناعات قد أضر بالاهاالى ، لان الاحتكار من طبيعته ان يتلف مصادر الثروة ، ويحرم الصانع نتيجة كده وتعبه »

وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣١ و ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ و ١٨١٧) احتكار الحكومة صناعة الغزل والفسيج وما أحدثه الاحتكار من الضيق وارتفاع اسعار المنسوجات وكيف انه شمل « كل ما يصنع بالمسكوك وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الاصناف من ابريسم وحرير وكتان الى الخيش والفل والحصير في سائر الاقليم المصرى طولا وعرضا من الاسكندرية ودمياط الى اقصى بلاد الصعيد »
وذكر ايضا في حوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٥ (سبتمبر سنة ١٨٢٠) احتكار الحكومة للصابون وتجارته والبلح بانواعه والعسل وصناعة الخيش والقصب والتلى الذى ينسج من اسلاك الذهب والفضة للتطريز والمقصبات والمناديل والمحارم وخلافها من الملابس

مالية الحكومة وميزانيتها السنوية

من كلامنا عن نظام الحكم تتبين في الجملة موارد الحكومة المالية من الضرائب والعوائد وارباح الاحتكار
وقد بنيت ميزانية الحكومة في عصر محمد على على هذا الأساس ، والآن نذكر مفردات الميزانية من يرادومصر وفات عن ١٨٣٣ كما احصاها المسيو مانجان (١) ومنها يعرف نظام الحكومة المالى في تطبيقه وتنفيذه ، وقد أورد المسيو مانجان مفردات الميزانية بالا كياس ، ولما كان الكيس مقداره خمسمائة قرش فقد جولناها الى جنبها لتسهيل البيان

ميزانية سنة ١٨٣٣ - مفردات الابرادات

جنيه	
١٢٥٠٠٠ ر	الميرى أو الضريبة العقارية
٣٥٠٠٠٠ ر	فرضة الرؤس أو ضريبة النفوس
١٨٠٠٠٠ ر	العوائد (١) على الجبوب
	ربح الحكومة من احتكار الاصناف الآتية وهى :
	القطن ، والنيلة ، والافيون ، والسكر ، والنبيد ، والأرز ،
	والعسل ، والشمع ، والحناء ، وماء الورد ، وبزر السكتان ، وبزر
٤٥٠٠٠٠ ر	السهم ، وبذر الحس ، وبزر القرطم ، والحرير ، والزعفران ، والنتر
٦٠٠٠٠٠ ر	ربح الحكومة من نسيج الاقشة وبيعها
٤٧٥٠٠ ر	» » » فابريقة لاثواب الحريرية
٣٠٠٠٠٠ ر	دخل الحكومة من جمر ك الاسكندرية وعوائد الدخولية
٣٦٧٦٥ ر	» » » دهياط وبولافى
٨٠٠٠٥ ر	» » » مصر القديمة
٣٠٠٠٠٠ ر	» » » السويس والقصير
١٢٥٠ ر	» » » اسوان
١٣٧٥٠ ر	رسوم الصيد فى بحيرة المنزلة
١٧٥٠٠ ر	» الملح والمراكب والاسماك
١٠٠٠٠ ر	المكوس على البضائع السورية الآتية من طريق البر
٢٢٠٠٠ ر	ربح الحكومة من الجير والمصيص والاحجار
١٣٨٥٥ ر	عوائد السوائل
١٣٠٠ ر	» السنامكى
٢٩٠٠ ر	عوائد الصيد فى بحيرة قارون والمكوس بالفيوم

(١) تجبىها الحكومة على الغلال التى تنقل من بلد الى آخر

جنيه	
٣٥٠٠٠٠	ربح الحكومة من الجلود الخام والمدابغ
١٦٠٠٠٠	المكوس فى الوجه البحرى والقبلى
٢٥٠٠٠	عوائد الراقصات والموسيقين والخواة
١٠٠٠٠٠	» المواشى المخصصة للذبح
٢٢٥٠	» صب الفضة والمقصب
٦٠٠٠	رسوم التراكات (بيت المال)
٢٠٠٠	عوائد الوكائل والاسواق فى الوجه القبلى
٣٢٠٠	رسوم الخرج
١٥٠٠٠٠	ربح دار الضرب (الضربخانة)
٤٠٠٠٠	ربح بيع الحصر
٣٠٠٠٠	» » النظرون
١٥٠٠	» » الصودا بالاسكندرية
٢٠٠٠٠	» » ملح النشادر
٢٠٠٠٠٠	عشور النخيل
١٢٠٠٠٠	اجرة السفن المملوكة للحكومة
٢٧٥٢٥٢٠٥ ج.	مجموع الايرادات

مفردات المصروفات

٦٠٠٠٠٠ ج	ميزانية الجيش
١٩٩٢٩٥	مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح
١٠٠٠٠٠٠	» الكتبة والموظفين
١٧٥٠٠	معاشات المتقاعين الذين انقضى التزامهم
١١٠٠٠٠	نفقات قافلة الحج
١٠٨٠٠٠٠	نفقات الفاريقات واجور العمال

٩٠٠٠٠ ر	نققات انشاء القصور والفابريقات والقناطر والجسور
٦٠٠٠٠ ر	أموال مرسله الى الاستانة
٣٠٠٠٠ ر	ميزانية موظفي البحرية ورجالها
٥٠٠٠٠ ر	مخصصات لصيانة قصور نائب الملك (محمد علي)
٢٥٠٠٠ ر	مخصصات غذائية الموظفين
٣٢٥٠٠ ر	اجور الخيالة الترك غير النظاميين (الباشبوزق)
٢٥٠٠٠ ر	أجور العربان
٣٠٠٠٠ ر	معاشات للأرامل والنساء
٧٥٠٠٠ ر	أشياء مجلوبة من اوروبا برسم الفابريقات
١٦٥٠٠ ر	مصاريف ترسانة بناء السفن في بولاق
٧٥٠٠ ر	نققات المدرسة الحربية (١)
١٧٥٠ ر	» المطبعة
٧٧٥٢٥ ر	» انشاء السفن الحربية
٢٠٠٠٠ ر	مخصصات غذائية لنائب الملك
٧٠٠٠٠ ر	ممن مهمات حربية
١٢٥٠٠ ر	المعينات لعلف الجمل والبغال والخيول
	مخصصات لادارة مشتريات الكشامير
٧٠٠٠٠ ر	والاجواخ والاثواب الحريرية والجواهر الخ
٧٠٠٠٠ ر	مجموع المصروفات
١٧٠٩٩٩ ر	ج

(١) لاحظ مايجان على هذه الميزانية خلوها من نفقات المدارس عامة وكذلك نفقات البعثات العلمية ، ويلاحظ أيضا انه لم يرد بها سوى نفقات مدرسة حربية واحدة على تعدد المدارس الحربية .

ويقول المسيو مانجان ان زيادة الايراد عن المنصرف لا يفيد بقاء متوفر نقدي في خزانة الحكومة ، فان الايراد كان ينقص في آخر السنة عن تقدير الميزانية ، ففي كل عام يبقى جزء من الميرى غير مسدد من أصحاب الاطيان ، وقد تخسر الحكومة في انبجارها بالاصناف التي احتكرتها بسبب افلاس بعض التجار ممن يبتاعون منها تلك الاصناف ، وكذلك كانت تقع اختلاسات في الجمارك مما يؤدي ذلك الى نقص صافي الايرادات بحيث لا يتوفر منها شئ في الخزانة في ختام العام

مقارنة بين ميزانيات بعض السنوات

واذا قارنا ميزانيات بعض السنوات في عصر محمد علي يتبين مبلغ التقدم المطرد في مالية الحكومة

السنة	الايرادات	المصروفات
١٨٢١	ج ١٩٩٧٠٠ ر ١	ج ٩٤٧٠٠٠ ر ٩
١٨٣٣	ج ٢٧٥ ر ٢٥٢٥	ج ١٩٩٩٠٧٠ ر ١
١٨٤٢ (١)	ج ٢٩٢٦٦٢٥ ر ٢	ج ٢١٧٦٨٦٠ ر ٢

(١) والآن (١٩٢٨ - ١٩٢٩) بلغت ايرادات الحكومة ٩٧٥ ر ٣٦٦ ر ٤٠ ج والمصروفات ٣٧٢٩ ر ٥٥٩ ج

الفصل الخامس عشر

الحالة الاجتماعية

تطوّرت حالة مصر الاجتماعية تطوراً بعيد المدى في عصر محمد علي، فتكونت هيئة اجتماعية تختلف كثيراً عما كانت عليه من قبل

عدد السكان

كان سكان مصر في أواخر القرن الثامن عشر يبلغون ثلاثة ملايين نسمة، وإذا أخذنا بإحصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٢٣ فإن عددهم كان تلك السنة ٢٠٠٤٠٠٠٠، وهذا النقص في العدد له أسباب معقولة، فإن سكان مصر قد نقصوا في عهد الحملة الفرنسية والسنوات التي أعقبتها وفي أوائل حكم محمد علي لكثرة الفتن والثورات والحروب التي أفنت عدداً كبيراً من السكان وأنقصت النسل، على أن الإحصاء الذي عمل سنة ١٨٤٥ دل على زيادة عدد السكان إلى ٤٠٠٤٧٦٤٠ نسمة، فلنتكلم عن طبقاتهم وحالتهم الاجتماعية في ذلك العصر

طبقات المجتمع

أسلفنا الكلام في الجزء الأول (ص ٤٨) عن حالة مصر الاجتماعية في أواخر القرن الثامن عشر، وبيّنا أن سكان مصر في ذلك العصر كانوا فئتين، فريق الحكام، وفريق المحكومين، فالحكام هم فئة المالك الذين استبدوا بحكم البلاد السنين الطوال، والمحكومون هم الشعب المصري بطبقاته الأربع التي فصلنا الكلام عنها وهم طبقة العلماء، وطبقة الملاك والتجار، وطبقة المزارعين، وطبقة الصناع.

الهيئة الحاكمة

تبدلت طبقات المجتمع في عصر محمد علي، فبادت فئة المالك، ولم يعد لهم حول

ولا قوة ، بل لم يعد لمعظمهم وجود ، وآل الحكم الى محمد على باشا واسرته ، ولا يغيب عن البال ان محمد على أصبح بولايته الحكم بارادة زعماء الشعب جزءاً من الهيئة الاجتماعية المصرية ، وانه قد تمصر واستعرب ، فأسس دولة مصرية ، وجيشاً مصرياً ، وأسطولاً مصرياً ، وثقافة مصرية عربية ، واندجحت شخصيته في شخصية مصر ، فأصبح مصرياً حكماً وسياسة وعملاً ، وزاد في هذا الاندماج أنه رهن مصيره ومصير أسرته بمركز مصر ومستقبلها ، واتخذ مصر موطناً له ، كما اتخذ نابليون الكورسيكي الأصل الايطالى الجنس فرنسا موطناً له ، ورضيت هى به عاهلاً لها وموضع فخرها

ومما أكد ارتباط محمد على بمصر واندماجه فيها اعلانه الحرب على تركيا ومناصبته اياها العداء ، وحروبه المتواصلة عليها ، فقد جعلت هذه الحروب لمصر وحاكمها شخصية منفصلة عن السلطنة العثمانية ، واستمد محمد على قوته من الجيوش المصرية ، ونال انتصاراته الحربية باسم مصر ، ولحساب مصر وعظمتها ، وانقطعت الصلات القديمة التى كانت تجعل ولى الأمر فى مصر نائباً عن سلطان تركيا ، بل انقطعت الروابط بين مصر وتركيا ، وصار لمصر شخصية مستقلة أظهرها محمد على واندماج فيها ، ومن هنا يبدو لك الفرق عظيماً بين حكم الامراء المماليك وحكم محمد على باشا ، فالمماليك بحكم ابتياعهم اصلاً من اسواق الرقيق واعتمادهم على هذا المصدر فى تأليف بطانتهم واشياعهم وجنودهم ، كانوا يستمدون كياناتهم وقوتهم من مصدر خارجى ، فهم أبداً يعدون انفسهم عنصراً منفصلاً عن البلاد ، وهم لذلك ولقلة تناسلهم لم يندمجوا فى الهيئة الاجتماعية المصرية ، ولا كان لهم بها صلة ما ، أما محمد على والاسرة المحمدية العلوية فقد استمدوا قوتهم ومجدهم من قوة الأمة المصرية ، ولعلك تذكر فى كلامنا عن الجيش المصرى النظامى ان محمد على لم يستطع تأليفه من العناصر غير المصرية ، كالارناء ودوالترك والدلاة وغيرهم لما فطروا عليه من التمرد والعصيان ، وأنه لم يوفق لانشاءه الا من

صميم المصريين ، فالقوة الحربية التي شاد عليها محمد على ملكه ، والتي هي عماد الدول والممالك ، كانت مادتها مصرية ، وغنصرها مصرية ، وهذه الاعتبارات قد قضت على مافى نفس محمد على من العواطف القديمة نحو تركيا ومقدونيا ، وزادته اندماجا في مصر

وهذه الحقيقة تنطبق كذلك على اعوانه ممن كانوا في الاصل من اصل غير مصرية ، فكثير منهم كانوا من سلالة تركية أو مقدونية ، ولكن الحروب التي اشتركوا فيها تحت لواء محمد على و ابراهيم قد فصلتهم عن موطنهم الاصلى وأدججتهم في مجموعة الشعب المصرى ، فصارت مصر وطننا خالدا لهم ولاسراتهم وذرايهم ، حاربوا من أجلها ، وبذلوا جهودهم وارواحهم ودماءهم في سبيل رفعتها ومجدها ، فهؤلاء قد اندمجوا في الشعب وصاروا جزءا من الهيئة الاجتماعية المصرية الجديدة ، ولا غرابة في ذلك فان من سميزات مصر انها تدمج في كيانها العناصر والقوميات التي تتصل بها برابطة الفتح او التوطن وتصبغها على الزمن بصبغة القومية المصرية ، ولقد عبر ابراهيم باشا عن هذا الشعور بحديثه الذي نقلناه عنه (ص ٢٣٣) ، وذكر البارون (بو الكونت) حديثا آخر لمصطفى مختار بك ياور ابراهيم باشا وملازمه في حروب سورية والافاضول (وزير المعارف العمومية في عهد محمد على) قال فيه « اتنا وان كنا في الغالب مولودين في تركيا لكننا قد اكتسبنا الجنسية المصرية بحكم التوطن ، وانتم معشر الفرنسيين تعترفون بالجنسية الفرنسية لمن يقيم بفرنسا عشر سنوات ، اما نحن فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا ، فلسنا الآن اترাকা ، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذي لا يترك في طريقه اينما سار سوى دلائل الخراب ، ولقد اندمجنا في امة أخرى ارقى وانبل واذكى من الامة التركية ، اندمجنا في تلك الامة العربية التي سبقت اوروبا الى الحضارة وازدانت أيام عزها وسؤدها بذلك العمران الذي يتجلى للناظرين في المدن الزاهرة التي انشأتها والعائر الجميلة التي اقامتها »

فأول عمل سياسى واجتماعى لمحمد على أنه ادمج شخصيته وشخصية أسرته فى كيان مصر وقوميتها ، وكذلك نحاً نحوه أعوانه فى الحكم ممن كانوا فى الاصل من عنصر غير مصرى ، وهنا يبدو لك جانب من عبقرية محمد على ، فلقد كان فى بداءة حكمه لا يعدو ان يكون واليا من ولاية السلطنة العثمانية ، فلو أنه حذا حذوهم وكان على شاكتهم لتعصب للجنسية التركية وعمل على تترك المصريين كما عمل ولاية السلطنة العثمانية اذ كانوا دائبين على تترك العناصر العربية ، فيحاربون اللغة العربية والقومية العربية ، ويثيرون فى هذا السبيل الفتن والثورات فى مختلف الانحاء ، ويضعون القيود والعقبات امام تقدم الشعب ، لكن محمد على باشا عمل على نقيض تلك السياسة فأحيا القومية المصرية واندمج فيها واقتادها الى الامام ، وأسس دولة مصرية ، وعرشا مصرى وملاكا مصرى

ويكفيك لتبين مبلغ عمله فى احياء القومية المصرية ان الثقافة التى نشرلواها فى مصر كانت ثقافة مصرية عربية ، وانه لم يفكر يوما فى انشاء ثقافة تركية أو مقدونية ، وأن الفضل يرجع اليه فى بعث اللغة والآداب العربية من مرقدها بعد أن ظلت مئات السنين ذابية مضمحلة فى عهد الحكم التركى وحكم المالك اندمج اذن محمد على واسرته واعوانه فى الحكم فى الهيئة الاجتماعية ، ولا شك ان اندماج هذا العنصر فيها قد قواها وبعث فيها روحا جديدة كان لها أثرها فى تقدم مصر السياسى والاجتماعى ، صحيح أن فئة من المصريين الذين كانوا من عنصر تركى أو مقدونى قد ظلوا ينظرون الى المصريين الصميمين بعين الزرابة ، واستمرت هذه الحالة النفسية حتى صارت مع الزمن من بواعث الثورة العربية ، لكنها كانت تتلاشى تدريجا وأدى تطور الحوادث الى محو الفوارق بينهم ، وصارت القومية المصرية فخر المندمجين فيها وموضع حبهم وتقديرهم ، وقد ساعد على محو هذه الفوارق ما اكتسبته سلالة الترك والمتمدون المتمدنين من الثقافة والتهديب فى المدارس والمعاهد التى أسسها محمد على باشا ، فان هذه الثقافة قد صبغت شبابهم بالصبغة المصرية ، فتلاشت الفروق القديمة التى كانت يشعر بها أبائهم ، وكذلك

ساعد على محوها اتصلهم بالمجتمع المصري بصلات النسب والمصاهرة ، واندماجهم في الاهالى وشاركتهم ايامهم في الحياة الاجتماعية باشتغال الكثيرين منهم وخاصة سكان الاقليم بالتجارة وزراعة املاكهم ، ومساهماتهم في اعباء الخدمة العامة ، هذا بالنسبة الى محمد على واسرته ورجالات دولته ، وهم قوام الهيئة الحاكمة ، واتماما للكلام عن هذه الهيئة يجب ان نتكلم عن الطبقة المتعلمة التي اشتركت في الحكم ، فلا يعزب عن الذهن ان المدارس التي فتحها محمد على والبعثات العلمية التي ارسلها الى اوربا قد كونت عنصرا جديدا من صميم المصريين كان له فضل كبير في تقدم المجتمع المصري والادارة المصرية ، ذلك هو عنصر الشباب المتعلم الذي ثقفته العلوم والمعارف ، فنهض بالهيئة الاجتماعية المصرية نهضة كبرى ، وكان رسولنا معلم والحضارة والعمران في ربوع وادي النيل ، في المدن والقرى والاقاليم ، وتولى الوظائف العامة في عصر محمد على وخلفائه فاضطلع باعبائها في الحرية والبحرية والادارة والتعليم والمالية والصحة والاشغال العمومية ، وعلى يده تمت منشآت الري وممران كفتح اترع واقامة القناطر وانشاء المدارس والمعاهد والمستشفيات وبناء القصور والشكنات والقلاع والاستحكامات والمصانع والترسانات والموانئ ، والمنائر والسفن الحربية والتجارية وغير ذلك من المنشآت العامة فالهيئة الحاكمة في عصر محمد على كان قوامها شخصية محمد على واسرته ورجالات حكومته وخريجى المدارس والمعاهد والبعثات العلمية ، ونظرة بسيطة في تأليف هذه الهيئة تدل على مبلغ التقدم الذى تدرج اليه نظام المجتمع في ذلك العصر قياسا الى ما كانت عليه الهيئة الحاكمة في عصر المماليك ، فالحكام المماليك كانوا خليطا من اجهل العناصر لم يهذبهم تعليم ولا عرفان ، فلا حرم أن بقيت ادارة الحكومة في عهدهم مثالا لأحط نظم الحكم ، وقد بينا في الجزء الاول مبلغ ماوصل اليه انحطاط نظام الحكم في عصرهم وما أفضى اليه من التأخر في حالة البلاد الاجتماعية والعلمية ، اما الهيئة الحاكمة في عصر محمد على فقد نالت حظا كبيرا من الرقى وخاصة بعد ماخرجت البعثات والمدارس الحديثة عددا كافيا من الشباب المتعلم ، ولا شك

أن هذا الرق قد نهض بالأداة الحكومية ورفع مستواها في مختلف الاعمال ،
فانشاء الدواوين وتنظيمها ، وتأسيس المعاهد والمدارس ، ونشر لواء الحضارة
والعلوم هو اثر من آثار الهيئة التي تولت الحكم في عصر محمد علي ثم في عصر
سعيد و اسماعيل

فالتبقة المتعلمة في المدارس والبعثات - وهي الطبقة الممتازة من طبقات المجتمع -
بدأت في الظهور على عهد محمد علي ، وقد كان لها فضل كبير في ترقية مستوى الهيئة
الاجتماعية ، ومنهم من لعبوا دورا كبيرا في حياة مصر السياسية أو العلمية في عهده
وعهد خلفائه أمثال شريف باشا وعلى باشا مبارك ورفاعة رافع الطهطاوى ومظهر باشا
وبهجت باشا وغيرهم ممن ترجمنا لهم

ويكفيك أن تلقى نظرة على كثير من المعاهد والمباني العامة التي انشئت في
ذلك العصر وتحصى غمراتها لتعرف أثر ذلك العنصر الجديد من الهيئة الحاكمة في
تقدم مصر وتطور الهيئة الاجتماعية المصرية

هذه كلمتنا عن الهيئة الحاكمة ، وإذ تسكلمنا عن الحكم فلنتكلم عن
الحكوميين ، ولنستعرض الطبقات الأخرى من الشعب وماطرا عليها من التبديل
في عصر محمد علي

الازهر والعلماء

فالعلماء هم الطبقة التي كان لها في عهد المماليك النفوذ العظيم والتأثير الكبير في
الامة وقيادة افكارها كما أوضحنا ذلك في الجزء الاول ، وكانت لهم الزعامة الأدبية
والسياسية بين الجماهير ، واليههم يرجع تدبير الحركات الشعبية التي ظهرت على مسرح
الحوادث السياسية في عهد الحملة الفرنسية ، وبعد انتهائها ، وهم الذين أثاروا الشعب
على حكم المماليك ثم على الوالى التركى ، كما تراه مبسوطا في الجزأين الأول والثانى ،
ولكن نفوذهم قد تضائل في عهد محمد علي وانحلت زعامتهم بتحاسدهم وتخاذلهم
واقمارهم ، إياه بالسيد عمر مكرم حتى انتهت المؤامرة بتنفيه كما سبق الكلام عن ذلك
في الفصل الأول ، فلم تقم لهم قائمه بعد نفى زعيمهم واقصائه من الميدان ، بل صاروا

تبعاً للحكومة من غير أن يكون لهم أثر في سياستها أو في مشاريعها ، وهذا تأويل ماذكرناه في الجزء الثاني (ص ٣٦١) لمناسبة الكلام عن عظم نفوذ العلماء في أوائل القرن التاسع عشر اذ قلنا انهم « كانوا موئل الشعب يفرع اليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوئ خورشيد باشا هي الباعثة على ذلك ، ففي عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوة الولي عن كرسى ولايته وأجلسوا (محمد علي) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر »

وفي الواقع انهم لم يخلص لهم نفوذهم القديم بعد نفى السيد عمر مكرم ، ولم يبق لهم إلا إثارة من الاحترام يسبغها عليهم انتسابهم إلى الدين والازهر ومما زاد في تضائل نفوذ العلماء ان الازهر ظل على نظامه القديم ولم يساير حركة التقدم والاصلاح التي نهض بها محمد علي باشا ، فانتقل مركز الثقافة من الازهر إلى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانكمش العلماء ولم يشتركوا في حركة التجديد والانشاء في مختلف نواحيها ، فعجزوا عن الاشتراك في حروب مصر أو في ادارة حكومتها أو في سياستها وأعمال العمران التي قامت بها ، وبدبهي أن انعكافهم على المسائل الدينية ، وعجزهم عن الاشتراك في الاعمال العامة التي تمت في عصرهم ، كل ذلك كان له أثره في تضائل نفوذهم واضعاف كلمتهم ، إذ ما من شك أن الفئة التي تخرجت من المدارس الحربية والبحرية أو العلمية والهندسية هي التي اضطلعت باعباء الاعمال العامة سواء في خارج مصر أو في داخلها ، وهم يحكم توليهم عبء الجهاد وسياسة الحكم وحملهم لواء النهضة قد امتازوا على طبقة العلماء وحججوها بما نالوه من السلطان والنفوذ ، وتضاءلات منزلة العلماء وظهير الفرق جسيما بين ما آل اليه أمرهم من الضعف وخمول الذكر وما كان لهم من نفوذ وسؤدد حين تولوا قيادة الحركات الشعبية في عهد الحملة الفرنسية أو بعدها ، وحين كانوا في أوائل حكم محمد علي يتقدمون الصفوف في الدعوة إلى التطوع للجهاد دفاعاً عن الذمار كما فعلوا عند مجيء الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

ولهذه المناسبة يحضرنا مارواه الجبرتي عن رجوع ابراهيم باشا بعد انتصاره في حروب الوهابية وكيف استقبل العلماء الذين جاءوا لتهنئته ، فقد لاحظ الجبرتي انه لم يقابلهم بالاحترام اللائق ، وذكر في هذا الصدد « ان ابراهيم باشا رجع من هذه الغيبة متعظا في نفسه جدا ، وداخله من الغرور ما لا مزيد عليه ، حتى ان المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم وأقبلوا عليه ، وهو جالس في ديوانه لم يقم لهم ، ولم يرد عليهم السلام ، فجلدوا وجعلوا يهتفون بالسلامة فلم يجيبهم ولا بالاشارة » فهذا الذي ذكره الجبرتي يعطينا فكرة عن تضاؤل منزلة العلماء بعد ما كان لهم من صولة ونفوذ ، ونعتقد أن تقصيرهم عن الاضطلاع بالاعباء العامة كان له أثر كبير في سقوط هيبتهم ، فضلا عن تحاسدهم وتنافسهم ، وخذلانهم للسيد عمر مكرم ، فلا غرو أن يقابلهم ابراهيم باشا بعد قرومه من حرب شاقة احتمل فيها ما احتمل من الشدائد والأحوال بغير المقابلة التي كان يقابلهم بها محمد علي في أوائل حكمه

ومما يستدعي النظر أن يد الإصلاح التي تناولت التعليم والادارة والري والحربية والبحرية لم تمتد الى الأزهر ، بل تركه محمد علي كما كان على نظامه القديم ، ولعل السبب في ذلك انه خشى أن يثير سخط العلماء والجاهلير إذا هو عرض لنظام التعليم فيه أو أقدم على إصلاحه وجعله يسير حركة التقدم العلمى الحديث ، أو لعله لم يجد من بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد اليه بها ، ولو أنه وجد من بينهم مثل السيد جمال الدين الافغانى أو الشيخ محمد عبده لنهض الأزهر منذ نيف وثمانين سنة نهضة علمية واجتماعية تؤتى أبرك الثمرات ، ولكن محمد علي لم يفكر في إصلاح الأزهر ، ولا فكر فيه علماءؤه وأقطابه ، فوقفت حركته وانتقلت النهضة العلمية الى المدارس النظامية التي أسسها محمد علي

على أن الأزهر ظل مع ذلك المورد السائغ الذي استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية تلاميذها ، فمنه اختارت الحكومة طلبة المدارس العالية التي أنشأتها وكثيراً من أعضاء البعثات العلمية التي أوفدتها الى أوروبا ، فتخرج منه بواسطة البعثات والمدارس علماء نابهون كان لهم القدح الملقى في نهضة مصر العلمية والاجتماعية .

فالأزهر من هذه الناحية كان له فضل كبير على النهضة العلمية الحديثة ، ومن جهة أخرى فإن الحكومة كانت تختار من رجاله بعض المتضلعين في اللغة العربية لتنقيح وتهذيب الكتب المترجمة للغة العربية في الطب والرياضيات وغيرها ، ويسمون المحررين ، وطائفة أخرى لتصحيح الكتب عند طبعها وهم المصححون ول هؤلاء وأولئك فضل كبير على نهضة التعريب والتأليف

الزراع والصناع والتجار

تقدمت حالة الفلاح تقدماً نسبياً عما كانت عليه في عهد المماليك (١) ، ولكن لا ينبغي أن حياته في الجملة بقيت تدعو إلى الألم والاشفاق ، فإن ما ذكرناه عن حرمانه حق التملك واستهدافه لفداحة الضرائب ومساوىة الاحتكار ومظالم الحكم جعله في حالة تعسة ، فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة أعمال العمران لم يقرن بها ارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية ، وقد وصف المسيو مانيجان حالته في ذلك العهد بقوله « إذا صح أنه لا يوجد في العالم بلاد أغنى من مصر من الوجهة الزراعية فليس ثمة بلاد أخرى أعس منها سكاناً ، وإذا بقي فيها العدد الذي بها من السكان (سنة ١٨٣٢) فالفضل في ذلك إنما يرجع إلى خصوبة أرضها وقناعة فلاحها » (٢) وقد ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرار الكثيرين منهم إلى الهجرة من قراهم ، وخربت قرى عديدة بسبب هذه الهجرة ، واضطرت الحكومة إلى إصدار الأوامر المشددة برجوع المهاجرين وتهديد من لم يرجع بأشد أنواع العقاب ، ولكن مها قيل في مظالم ذلك العصر فإنها لا تذكر بجانب مظالم الحكم في عهد المماليك أما الصناع فإن أمرهم يحتاج إلى بيان ، فالعمال الذين انتظموا في سلك المصانع الكبرى التي أنشأها محمد علي كالترسانات الحربية والبحرية أو الغابريقات التي سبق الكلام عنها فإنهم مارسوا صناعات جديدة حذقوها ومهروا فيها ، وتكونت منهم

(١) انظر الجزء الأول ص ٣٢

(٢) مانيجان ج ٢ ص ٣٤٢

طبقة من العمال الفنيين كانوا موضع إعجاب من شاهد أعمالهم، وكان لهم أثر صالح في تقدم مصر الصناعى ، ويكفيك أن ترجع الى شهادة الافرنج في هذا الصدد لتعرف مدى هذا التقدم

اما اعمال الصنائع اليدوية في الصناعات الصغرى التى كانت معروفة من قبل فهؤلاء قد ساءت حالتهم بسبب نظام الاحتكار حتى اضطر كثير منهم كما يقول المسيو مانجان الى ترك الصناعة والاشتغال بالزراعة

وكذلك طبقة التجار قد تراجعت وازمحل شأنها لاحتكار الحكومة التجارة الداخلية والخارجية ، وبالرغم من ازدياد متاجر مصر في ذلك العصر فان ثمة التجارة كانت تعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الافرنج الذين كانوا يتبادلون واياها حركة التجارة الخارجية ، ولذلك اقترنت زيادة حاصلات مصر وتجارها الخارجية بظاهرة غريبة ، وهى تضائل الثروات الشخصية ، فحينما كانت حاصلات مصر أقل مما وصلت اليه كان الاهالى أيسر حالا ، ولما زادت الحاصلات حل الفقر محل اليسر عند الأهلين ، وذلك راجع الى نظام الاحتكار الذى فرضته الحكومة على حاصلات مصر ، ولم ينتفع من هذه الزيادة فى الحاصلات سوى الاسكندرية التى اتسعت تجارتها وصارت سوقا لاقطان القطر المصرى وحاصلاته ، اما المحلات التجارية فى القاهرة ودمياط ورشيد فقد هبط عددها عما كانت عليه من قبل

ويقول المسيو مانجان (ج ٣ ص ٢٢٧) ان عدد التجار المصريين فى القاهرة قد تناقص فى ذلك العصر ، ومما يستدعى النظر ويؤيد هذا القول انه لم يظهر فى ذلك العصر من التجار الوطنيين من شغل مركزا كبيرا فى عصر محمد على مثل السيد احمد الحروقى كبير تجار مصر فى اوائل القرن التاسع عشر وابنه السيد محمد الحروقى ممن ترجمنا لهم ، وهذا كله راجع الى مساوىء نظام الاحتكار

الآعيان

وبقى الاعيان من ذوى البيوت والعصبيات القديمة حافظين لمكانتهم غير

منهم صاروا في عهد محمد على أكثر خضوعا للحكومة مما كانوا في عهد المماليك

العربان

كان عدد العربان أو البدو المصريين في عصر الحملة الفرنسية نحو مائة ألف ، تتألف منهم ستون قبيلة ، وعدد المقاتلة منهم من ١٨ الى ٢٠ ألفا من الفرسان ، ولم يتغير هذا الاحصاء كثيرا في عصر محمد على ، وكانوا الى أوائل القرن التاسع عشر لم يألفوا حياة الحضر ، فكان تنقلهم في الصحراء يجعلهم في حرب مستمرة مع الفلاحين القائمين على الزراعة ، وانصرف كثير منهم الى قطع الطرق والاعتداء على القرى الآمنة ، وكلا منا ينصرف الى غالبية العربان ، فان بعض القبائل البدوية كانت ولم تزل متصفة بكريم الخصال ، تكرم الضيف وتأوى الجار ، وتنصر الضعيف وتحمي الذمار

فكر محمد على باشا مليا في علاج حالة العربان ، ورأى من الحكمة بادئ الأمر أن يهادن زعماء القبائل ويسلك حيالهم مسالك المحاسنة ، ففقد الاتفاقات معهم ولكن القبائل نقضت هذه الاتفاقات ، فأدرك محمد على أن لامناص من أخذهم بالقوة ، فجرد عليهم كتائب الفرسان فأخذت تناوشهم وتسد عليهم السبل الى أن أذعنوا وثابوا الى الطاعة وطلبوا الصلح ، فرضى أن يصالحهم على أن يقيم زعمائهم بالقاهرة ليكونوا رهائن عنده يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم ، وأجرى عليهم الرواتب والأرزاق فكان لهذه الوسيلة تأثير كبير في اخلاص القبائل الى الهدوء والسكينة ، ولجأت الحكومة الى وسيلة حكيمة تصرف بها البدو المنتشرين في أطراف البلاد عن عيشة البداوة وتدخلهم في حظيرة العمران ، فاقطعتهم أراضي شاسعة أعقتها من الضرائب ينتفعون بها ويستغلونها

وقد كانت هذه الوسيلة من بواعث تحضير القبائل البدوية وادماجها في جسم الهيئة الاجتماعية ، ولما اجتذب محمد على رؤساء العشائر من العربان حبيب اليهم أن ينتظموا في سلك الجيش النظامي الذي أسسه وعرض عليهم أن تدفع الحكومة

لمن ينتظم من العربان في سلك الجيش أجورهم على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه
وبندقية فلبوا الدعوة واستفاد الجيش المصرى منهم فوائد جمّة ، واشتركوا في
حروب السودان والحجاز وسورية والناضول ، واتخذ منهم ابراهيم باشا حرسه الخاص
ولقد كان ادماج القبائل البدوية في جسم الهيئة الاجتماعية من اهم أعمال العمران
التي قام بها محمد على

بقايا الرقيق

كانت تجارة الرقيق لم تزل مباحة في ذلك العصر ، فاستخدم كثير من الترك
وقليل غيرهم فتيان الممالك يشترى منهم من أسواق الرقيق ليكونوا اتباعاً لهم وخداماً ،
وقد بلغ عدد اولئك الفتيان ٢٠٠٠ مملوك يضاف اليهم من أسروا من الأروام في
حرب اليونان واعتنقوا الاسلام (ص ٢٢٦ ،) وكان يوجد في بيوت الاغنياء نحو
ثلاثة آلاف من (الجوارى البيض) الشراكسيات ، منهن نحو ستائة من يونانيات
الموره أو من جزيرة كريت وساقز ، وقد اعتنق غالبهن الاسلام وصرن في حكم
الجوارى البيض ، وكان يوجد في القاهرة أيضاً نحو ألف جارية حبشية او سودانية
بنسبة جارية في كل بيت يقمن في البيوت بالخدمة والطهي وتربية الاطفال ، ونحو
الفين من السودانيين اشتراهم الأفراد من اسواق الرقيق ، ونحو ٢٥٠٠ آخرين
منتظمين جنوداً في سلك الجيش المصرى ، وقد اندمج كل اولئك في جسم الهيئة
الاجتماعية المصرية وصاروا مع الزمن والتناسل من عناصر تكويناها لا يختلفون في
شئ عن عناصرها الاصلية

الفصل السادس عشر

شخصية محمد علي

والحكم على عصره

لا جدال في ان محمد علي قد سما بأعماله الى مصاف عظماء الرجال ، وتتمثل لك عظمته من كونه نشأ نشأة متواضعة وتدرج من جندي بسيط الى أن ارتقى عرش مصر ، فأسس ملكا عريضا ، وغالب دولا كبيرا ، وأنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطيدة ، وبعث حضارة زاهرة ، وأثبت ثقافة كان لها الفضل الكبير في نشر لواء العلم والعرفان في وادي النيل

فالرجل الذي ينشئ كل ذلك ، وكان أميا لم يتلق تعليما عاليا ولا أوليا ، لا بد أن يعد بحق من عظماء الرجال ، ولولا عظمته لما نخطى نشأته الأولى ، وإذا تخطاها فلا يلبث أن يقف عند حد يتناسب مع مرتبته أو مرتبة اقارانه ، ولكن اضطلاع بالمهمات الكبرى التي اخذها على عاتقه وتأسيسه ذلك الملك الضخم رغم ما اعترضه من العقبات ، وبقاء أثره خالدا طوال هذه السنين والى ما شاء الله يدل على مبلغ عبقرية .

نعم ان العناية الالهية لاحتظته في مختلف أدوار حياته ، وكان لها فضل كبير فيما وصل اليه من عز وسؤدد ، ولكن من من العظماء لم تكن العناية والاقدار دخل ايما دخل فيما نالوه من نجاح وتوفيق ؟ ومن من العظماء المجهولين لم يقبر عظمتهم إدبار الحظ وغلبة الاقدار ؟ فمع اعتقادنا بما للحظ والعناية الالهية من الاثر في حياة محمد علي لانك في أن المواهب التي توافرت لديه كان لها القسط الاكبر في نجاحه وتوفيقه وأول تلك المواهب ذكاؤه الخارق ، وبعد نظره ، وسعة حيلته

فلقد جاء الى مصر ضابطا صغيرا في الحملة العثمانية التي جردتها تركيا لخراج الفرنسيين

من البلاد ، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، فلو كان على ذكاء عادى لانهى أمره بما انتهى اليه معظم ضباط الجيش التركى ، ولكنه لمح من خلال الافق ماتتمنض عنه الامة المصرية من نزوع الى الحرية ، وما يحيش فى صدرها من آمال كبار ، وما تشعر به من سخط على نظام الحكم القديم ، فاشاها فى ميولها وسايرها فى آمالها ، ورسم لنفسه خطة الوصول الى عرش مصر من طريق ارادة الشعب ، وهى فكرة مبتكرة بالقياس الى ذلك العصر تدل على ذكاء محمد على ودهائه وبعد نظره

ثم تأمل كيف اختط لنفسه طريق الوصول الى السلطة بين مختلف الاطاع والمنازع المختلفة ، فلقد كان يعمل لهذا الغرض وامامه سلطتان يجب أن يتخلص منهما واحدة بعد الاخرى ، وهما سلطة المالك حكام البلد الاقدمين وسلطة والى التركى الذى كان يمثل حكومة الاستانة ، وكانت هذه الحكومة تعمل على أن تكون لها الكلمة العليا فى البلاد بعد أن احتلتها بجيوشها ، ثم كانت امامه عقبة أخرى وهى سلطة الجند الارناءود والدلاة وغيرهم من اخلاط السلطنة العثمانية ، فاستطاع محمد على بدهائه وصبره وذكاؤه أن يضرب كل سلطة بالاخرى ، وان يشق لنفسه طريق النجاح والوصول الى الغاية التى يطمح اليها

كان خسرو باشا (والى مصر سنة ١٨٠٢) يعمل للتخلص من محمد على ، فخار به هذا بالجند إذ حرضهم على التمرد والمطالبة برواتهم المتأخرة ، وكانت نتيجة تلك الحركة سقوط خسرو باشا وطرده من القاهرة ، وكانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ، ولكنه لم يشأ أن يتعجل الوصول الى السلطة ، بل أخذ نفسه بالصبر والتريث حتى تنهيا له الظروف الملائمة التى يستقر له فيها الحكم من غير منازع ، فترك رؤساء الجند ينادون بطاهر باشا قائمقاما ، ولعله كان يتوقع الا يطول مقامه فى الحكم لما اشتهر عنه من الظلم ، فثار عليه الاتراك الانكشارية وقتلوه ، وخلا

منصب الوالى من جديد، غير أن محمد على تريت أيضاً ولم يتعجل، وكان الانكشارية قد اتفقوا على تعيين احمد باشا واليا على مصر، فلم يرض بهذا التعيين وتحالف مع الامراء المماليك على اقصائه وترك السلطة لهم، وألقى فى روع كبيرهم ابراهيم بك انه الاحق بولاية مصر، وبذلك ضرب الاتراك بالمماليك، ثم ترك هؤلاء يحتملون امام الشعب مساوى الحكم، فما لبثوا أن استهدفوا للثورة التى اقصتهم عن الحكم

ويدلك على دهائه وأناته انه كان فى استطاعته ان يثب الى الحكم بعد سقوط دولة المماليك، لكنه آثر الانتظار واختار للولاية خورشيد باشا، وبقي هو فى صف الشعب يدافع عن مطالبه ويتوحد الى زعمائه، فلما ساءت سيرة خورشيد وكثرت مظالمه ثار عليه الشعب وخلعه كما رأيت، مفصلاً فى الجزء الثانى، وهناك طلب الزعماء من محمد على أن يقبل منصب الولاية وألحوا عليه فى أن يجيب طلبهم، فقبل ما عرضه عليه وصار الوالى المختار من الشعب

واستطاع بذلك وصديق نظره فى الامور وسعة حيلته أن يذلل العقبات التى اعترضته فى السنوات الأولى من حكمه، فتغلب على دسائس الاتراك والانجليز ومساعى المماليك، كما فصلنا ذلك فى الفصول الأولى، كل ذلك يدلك على مقدرته بل على عبقريته، وخاصةً اذا لاحظت انه الى ذلك الحين كان أمياً، إذ من المعروف انه لم يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة إلا بعد ان تجاوز الاربعين وبعد ان تبوأ عرش مصر وتخطى العقبات الأولى فى حكمه

ويتجلى لك بعد نظره ورجاحة عقله وأخذه الأمور بالاناة والحكمة انه لما اعتزم ادخال النظام الجديد فى الجيش المصرى لم يغامر بانفاذ عزمه، بل انتظر السنين الطوال يتحين الفرص الملائمة لانفاذ مشروعه، ولو أنه استعجل الامر وتسرع لاستهدف لهياج الجنود ولشهدت البلاد ثورة من ثورات الجند التى كانت تودى بمرا كز الولاة بل توردهم موارد الختف والهلاك

ولعلك تذكر حين عودته من الاسكندرية بعد جلاء الحملة الانجليزية عن

البلاد سنة ١٨٠٧ كيف ثار الجند في القاهرة وعاثوا في اسواقها فساداً ، وكيف استعمل الحكمة في اخاد ثورتهم ، واعتزم من ذلك الحين ان يتخلص من الجيش القديم ويحل محله جيشاً حديثاً قوامه النظام والطاعة ، ولكنه لم يمض في تحقيق برنامجه إلا حوالى سنة ١٨١٩ — ١٨٢٠ ، وما ذلك الا لما آتته من الخطر اذا هو انفذ مشروعه قبل ذلك الحين ، فمثل هذه الأناة والحكمة وسعة الحيلة لاتصدر الا عن دعاة السياسة ذوى الرؤوس الكبيرة ، وبهذه الصفات نجح في تأسيس الجيش المصرى النظامى ، فتأمل كيف انتظرا أكثر من اثنتى عشرة سنة قبل أن يبدأ فى انفاذ فكرته ، وكيف انه عند ما بدأ فى دور التنفيذ كان شديد الاحتياط بعيد النظر ، فأسس المدرسة الحربية الأولى لتخريج الضباط النظاميين فى (اسوان) أى فى أقصى الوجه القبلى ، لكي يبدأ بمشروعه بعيداً عن الدسائس والفتن التى كانت القاهرة مسرحاً لها

فبمثل هذا الذكاء وبعد النظر والأناة استطاع محمد على أن يشق لنفسه طريق النجاح ، وهو من هذه الناحية جدير بان يعلم ساسة الدول وزعماء الامم كيف يأخذون الامور بالحكمة والصبر ورجاحة العقل ومن مواهبه التى ذلت العقبات فى طريقه وكفلت له الاضطلاع بالمهمات الجسام ، الشجاعة ، وعلو الهمة ، ومضاء العزيمة ، فهذه الصفات كانت من اكبر مميزاته بعد الذكاء وحسن التدبير

اما عن شجاعته واستخفافه بالمخاطر فلعلك تذكر حادثة (براوسطه) وكيف امتنع اهلها عن اداء ما عليهم من الضرائب ، فعرض محمد على على حاكم قوله أن يأخذ على عهده اجبار اهلها على الاذعان ، وسار اليهم فى عشرة من الجند ، وكيف استطاع ان يعتقل اعيان المدينة ويسوقهم الى قوله ، وبذلك أذعن اهل براوسطه وأدوا ما عليهم من الخراج (١) ، فهذه الحادثة تدل على ما جبلت عليه نفس محمد على من الجرأة ، واقتحام الاخطار ، فلقد كان هدفه لان يذهب ضحية

مغامرته في تلك القرية الشائرة ، ولا شك أن تلك الشجاعة التي ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت كما أسلفنا من أخص صفاته بل هي من أسباب نجاحه في تأسيس ملكه العظيم (١)

وتتجلى لك شجاعته وقوة عزيمته في اقدامه على الحروب ومواصلته القتال رغم ما اعترضه من الهزائم والعقبات ، واحتفاظه برباطة جأشه في أشد الاوقات حرجا ، ولولم تكن الشجاعة وعلو الهمة من أخص مواهبه لاضطربت نفسه وتولاها اليأس امام المخاطر التي استهدف لها في كثير من المواطن

ففي حرب الوهابيين استهدفت الحملات التي جردها على الحجاز للهزائم والخسائر الفادحة ، وكانت تبيئه في بعض المواطن انباء مخيفة عما حل بجيشه من الكوارث ، فلم يتزلزل لهذه الانباء بل كان يقابلها بالجلد والثبات وقوة العزيمة ، وكان كلما اخفقت حملة جرد غيرها ماضيا في تحقيق غايته ، وقد شهد له الجبرتي ، ولم يكن من مناصريه ، بعلو الهمة لمناسبة الكارثة التي حلت بالجيش المصري في واقعة (الصفراء) فقال عنه « ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته في تجهيز عساكر أخرى »

ولو تابعت وقائع الحرب الوهابية لتحققت انه لولا همة محمد على وقوة ارادته لما استطاع أن يواصل هذه الحرب ثمانى سنوات متواليات حتى وصل بها الى نهايتها من الظفر بالوهابيين وبسط نفوذ مصر وسلطتها على جزيرة العرب

وتبدو لك ايضا شجاعة محمد على في اعلانه الحرب على تركيا وزحفه عليها ، فان محاربة السلطنة العثمانية وهي وقتئذ دولة الخلافة وصاحبة الجيوش الجرارة التي لا ينضب معينها امر يحتاج الى حظ كبير من الشجاعة وعلو الهمة ، بل والمجازفة والاستهداف للاخطار ، إذ لو ظفر به السلطان في واقعة من وقائع تلك الحروب

الطاحنة لكانت دولة محمد على بل حياته عرضة للخطر ، فهذا الاقدام له قيمته في الحكم على شخصيته

واذا قال قائل ان محمد على إنما حارب تركيا في الوقت الذي بدت عليها فيه اعراض الضعف والهرم ، فإذا نقول عن وقوفه في وجه الدول الأوروبية جمعاء عقب انتصار الجيش المصري في بيلان وقونيه واعتراضه على حرمانه ثمرة انتصاراته ، فإذا رجعت الى الخطابات التي وجهها الى مندوبي الدول واعتراضه على تدخلهم ومصارحتهم بعدم النزول على ارادتهم تجلى لك مبلغ شجاعته ورباطة جأشه وقوة يقينه ، ثم ماذا نقول في تحديه الدول الأوروبية في الحرب التركية الثانية عقب انتصاره في واقعة نصيبين ورفضه الاذعان لقراراتها وطرده سفراءها من مصر ؟ كل ذلك يدل على مبلغ ما تذرعه به من شجاعة النفس ومغالبة المصاعب ، وتلك لعمري صفات العبقريّة والعظمة

وتبين قوة عزمته من انه انشأ من العدم جيشا ضخما على احدث نظام ، واسطولا قويا رفع علم مصر فوق ظفر البحار ، واوجد حكومة منتظمة حيث كانت الفوضى ضاربة اطنايبها ، وانشأ المدارس والمعاهد حيث كانت الجهالة فاشية ، والمستشفيات حيث كانت الامراض تقتلك بالاهلين ، وشق الترع واقام الجسور حيث كانت مياه النيل تذهب هدرًا دون أن تنتفع منها الاراضي ، وأسس البعثات واقام المصانع والمباني العامة ، كل ذلك يدل على ما تفعله العزيمة الحديدية ، وقد شهد له الجبرتي بقوة العزم والشهامة ، فقال عنه لمناسبة اصلاحه سد ابو قير « فارس الى المباشرين والقومة والرجال والفعلة والنجارين والبنائين والمسامير وآلات الحديد والاحجار والمؤن والاخشاب العظيمة والسهوم والبراطيم حتى تممه ، وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الازمان ، ولو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان اعجوبة زمانه وفريد اقرانه » وهي شهادة لها قيمتها من مؤرخ عُرِفَ باحكامه الشديدة عن محمد على

وقد ذكر عنه الكونت بنديقي قنصل فرنسا العام في مصر وقتئذ انه لما شرع

في اقامة القناطر الخيرية وسمع بالاعتراضات التي ابدت على المشروع من جهة العقبات والمصاعب التي تحول دون نجاحه كان جوابه « ان هذا صراع يبنى وبين النهر العظيم ! ولكنني سأخرج فائزاً من هذا الصراع ! » فهذا الجواب يدل على مبلغ شعوره بقوة ارادته ، ولولا تلك الارادة لما اعتزم أن يقهر النيل ويتحكم في جريانه بواسطة مشروعه الكبير

ومن اخص صفاته التي لازمته طول حكمه حبه للعمل وجلده على احتمال اعبائه ، فلم يكن يعرف لنفسه هواده ، وكان يهتم بدقائق اعمال الحكومة ويراقبها بنفسه ، ولا ينام من الليل الا قليلا ، وكان يصرف معظم وقته في مراقبة الاعمال والعمال ، ويكثر من التجول في الاقاليم ليراقب بنفسه تنفيذ التعليمات التي يصدرها ، وبهذه الوسيلة كان يبعث روح العمل والنشاط في نفوس الموظفين ويشعرهم دائماً بان عينه لا تغفل عن مراقبة اعمالهم ، وغنى عن البيان ان هذا يستدعى مباشرة وجلدا على العمل ونشاطا لا يعرف الملل والسكال ، وهذا النشاط كان أمراً غير مألوف في ملوك الشرق وأمرائه الذين هم في الغالب اميل الى الدعة والكسل والانصراف الى الراحة وترك حبل الامور على غاربها والانكباب على الملاهي والملاذات ، فمحمد على كان فذاً بين ملوك الشرق وحكامه ، وهو بنشاطه المنقطع النظير قد أعطى الملوك والحكام كافة أحسن مثال للاضطلاع بمهام الامور ، ولقد كان هذا النشاط موضع اعجاب الافرنج الذين لم يألوا مثل تلك الحركة المستمرة من حكام الشرق وملوكه ، ولقد تعجبوا على الأخص حينما رأوه وهو في سن السبعين يقوم برحلة طويلة شاقة في السودان ويتوغل في اصقاعه النائية مستهدفا للمتاعب والامراض متنقلا من جهة الى اخرى على اتم ما يكون من النشاط واليقظة ، فهذه الحركة وذلك النشاط مع التقدم في السن يعطينا فكرة عما غرس في نفسه من علو الهمة وحبه للعمل ولا يخفى ان حبه للعمل ويقظته في مراقبة موظفي الحكومة كان لهما فضل كبير في تقدم الأداة الحكومية في عهده وبعث روح النشاط في فروعها بعد أن كانت الحكومة مصابة بالجمود أو بما يشبه الشلل في عهد الحكم التركي وحكم المماليك

تلك هي الصفات والمواهب التي تكونت منها شخصية محمد على وجعلت منه رجلا عظيما ، والآن فلنبحث عن أثر هذه العظمة ونتائجها في ولايته الحكم ، لأن من العظماء من تتوافر فيهم صفات العظمة ولكنهم يقصرونها على ذواتهم وانفسهم فلا تنال البلاد منهم ثمرة ما ، بل قد يجلبون عليها النكبات والكوارث ، ومع ذلك يعدون عظماء ، ولكن محمد على كان من صنف العظماء الذين نالت البلاد على ايديهم كبرى الفوائد

فهو من الوجهة السياسية كان يرمى الى انشاء دولة مصرية مستقلة ، قوية البأس ، عظيمة السلطان ، منيعة الجانب ، وهي غاية تعد المثل الأعلى للقومية المصرية ، ولقد حقق فعلا تلك الغاية وجعل من مصر دولة فتيمة مستقلة تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا الى اقاصى السودان جنوبا ، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسما من الاناضول ، ولئن تراجعت حدود مصر طبقا لمعاهدة لندره كما فصلناه في موضعه فقد بقيت حدودها الاصلية سليمة شملت استقلال مصر والسودان وحقت وحدة وادى النيل السياسية والقومية

وغنى عن البيان أن تحقيق هذا المشروع العظيم ليس من الهبات الهيئات ، ولا ينهض به رجل عادى ، بل يحتاج الى سياسى كبير من اعظم الرجال همه ودهاء ، فان أى خطأ يبدر منه كان يكفى لاحباط المشروع في خطواته الأولى ، أو هدمه من أساسه بعد تمامه ، ولكن محمد على أحاط مشروعه بالحذر وبعد النظر والحكمة ، ويكفيك برهاننا على بعد نظره في السياسة ، انه لما عرض عليه مشروع حفر قناة السويس اعرض عنه رغم الحاج بعض المالىين والسياسيين الافرنج ، إذ رأى انه سيؤدى الى تدخل الدول في شؤون مصر واتجاه الاطاع اليها وجعلها هدفا للدسائس الاستعمارية مما يفضى الى ضياع استقلالها ، ومما يؤثر عنه انه قال في هذا الصدد « اذا انا فتحت قناة السويس فسأنشئ في مصر بوسفورا ثانيا ، والبوسفور سيؤدى الى ضياع السلطنة العثمانية ، وافتح قناة السويس تستهدف مصر للاطاع اكثر مما هي الآن ، ويحقيق الخطر بالعمل الذى قمت به وبخلفائى من بعدى »

ولقد حققت الأيام صدق نظره ، وما كان أجدر خلفاءه أن يعملوا برأيه فلا يغامروا بمستقبل البلاد ويفشئوا فيها بسفوراً ثانياً أفضى الى ضياع استقلالها ، ولكن هكذا شاء جد مصر العائر أن يتنكبوا سبيله ويفتحوا تلك القناة التي كانت شؤماً على البلاد

إن كفاءة محمد علي كرجل سياسي بعيد النظر ظهرت في تأسيس الدولة المصرية المستقلة وفي إبعاد اليد الأجنبية عن التدخل في شؤونها ، ومن هنا جاءت فكره المعارضة في فتح قناة السويس ، وتبدو هذه الكفاءة أيضاً في كونه مع وفرة أعمال الإصلاح والعمران التي تمت على يده لم يحمل مصر ديناً لدولة أجنبية ، ولم يقع فيما وقع فيه خلفاؤه من مديد الاستدانة وفتح ثغرات التدخل الاجنبي في شؤون البلاد ومما يذكر له في هذا الصدد ، أن شركة انجليزية طلبت اليه أن يأذن لها بإجراء إصلاحات هامة في ميناء السويس تزيد من اتساعها وتجعلها مرفأً كبيراً ، فأبى أن يجيب الطلب ، وكذلك لم يطمئن الى مدسكة حديدية بين مصر والسويس على يد شركة انجليزية أخرى وبعد أن اتفق وإياها على انفاذ المشروع عدل عنه خوفاً من عواقب امتداد النفوذ البريطاني في مصر

ففضل محمد علي ليس مقصوراً على تحقيق استقلال مصر بل هو فوق ذلك قد وضع الدائم الكفيلة بصيانة ذلك الاستقلال ، ورسم السياسة الحكيمة التي تجعله بمنجاة من المخاطر ، ولو أن خلفاء حذوا حذوه واتبعوا سياسته لما تصدع بناء الاستقلال في عهدهم

تلك كانت اعمال محمد علي ومقاصده من الوجهة السياسية ، اما من الوجهة العمرانية فقد كان من الرجال ذوي الخطط الواسعة النطاق في الإصلاح ونشر لواء العلم والحضارة في البلاد ، ولا نريد هنا أن نسرده اعماله في هذا الصدد فيكفي أن نرجع بك الى ما كتبناه عنها في الفصول السابقة ، فهو من غير شك باعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر الحديثة

وهو من الوجهة الحكومية قد أسس حكومة نظامية ، ولم يكن بمصر ثمة حكومة

من قبل ، بل كانت هيئة قوامها الخلل والفوضى ، لكن محمد على أوجد حكومة مستقرة لها قواعد وانظمة ودواوين وادارات ، وسن لها قوانين ولوائح ، فهو من هذه الوجهة يعد من كبار رجال الدول ، ولا شك أن فكرة التنظيم هي ناحية بارزة من نواحي عبقريته ، فهو الذى بث روح النظام فى هيئات الحكومة وفروعها ، فى الجيش ، والبحرية ، والتعليم ، والشؤون الخارجية ، والرى ، الى غير ذلك

كذلك يجب ان نذكر لمحمد على انه غنى بتنشئة اولاده واحفاده تنشئة عملية علمية ، فلم يتركهم رهن المقاصير والسرايات وبين الخدم والغايات كما كان شأن ملوك الشرق فى الغالب ، بل غنى بتربيتهم وتعليمهم وتعويدهم الاضطلاع بمهام الدولة ، ووكّل اليهم كما مر بك قيادة الجيوش وخوض غمار الحروب ، فعهد الى طوسون قيادة الحملة الأولى على الوهابيين ، والى ابراهيم الحملة الثانية ، والى اسماعيل الحملة على السودان ثم علونه فيها ابراهيم ، وعهد الى ابراهيم باشا قيادة الجيوش فى حرب المورة ، ثم فى حروب الشام والاناضول ، وعلم ابنه سعيدا فنون البحرية ودرّبه عليها علما وعملا ، وارسل طائفة من ابنائه واحفاده الى فرنسا ضمن البعثات العلمية

على ان من الواجب أن نقرر اثباتا للحقيقة من جميع نواحيها ان الشعب لم يتحرر من الشقاء فى عصر محمد على ، فقد وقع عليه ارهاق ومظالم كثيرة ، ويحق لنا من هذه الناحية ان نقول إن أعمال الاصلاح التى تمت فى عصر محمد على لم ينتفع بها الجيل الذى عاش فى ذلك العصر بل انتفعت منها الأجيال التى توالى من بعده ، أما جيل محمد على فقد فدحته أعمال السخرة والارهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ، ولا حق الملكية ، فلعلك تذكر أن محمد على قد تملك كل أراضى مصر ، ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها ، كما احتكر التجارة والصناعة ، وقد أساء هذا النظام الى الشعب اساءة كبرى لانه ضرب عليه حجابا من الفقر والجود ، وصارت الحكومة هى المالكه لكل اطيان القطر وحاصلاته وتجارته وصناعته ، وهذه الحالة هى موضع ضعف فى سياسة محمد على الاقتصادية والاجتماعية ،

وعلى تعدد مشاريعه فى الإصلاح لم يفكر تفكيراً جدياً فى إيجاد نظام للشورى يعود الشعب الاشتراك فى الحكم كما بينا ذلك ص ٥٨١ ، وهذا عيب كبير فى سياسته وإذا تكلمنا عن المظالم التى ارهقت الشعب فى عهده فمن الحق أن نقول إنها أخف وطأة من المظالم التى كانت تقع فى عصر المماليك

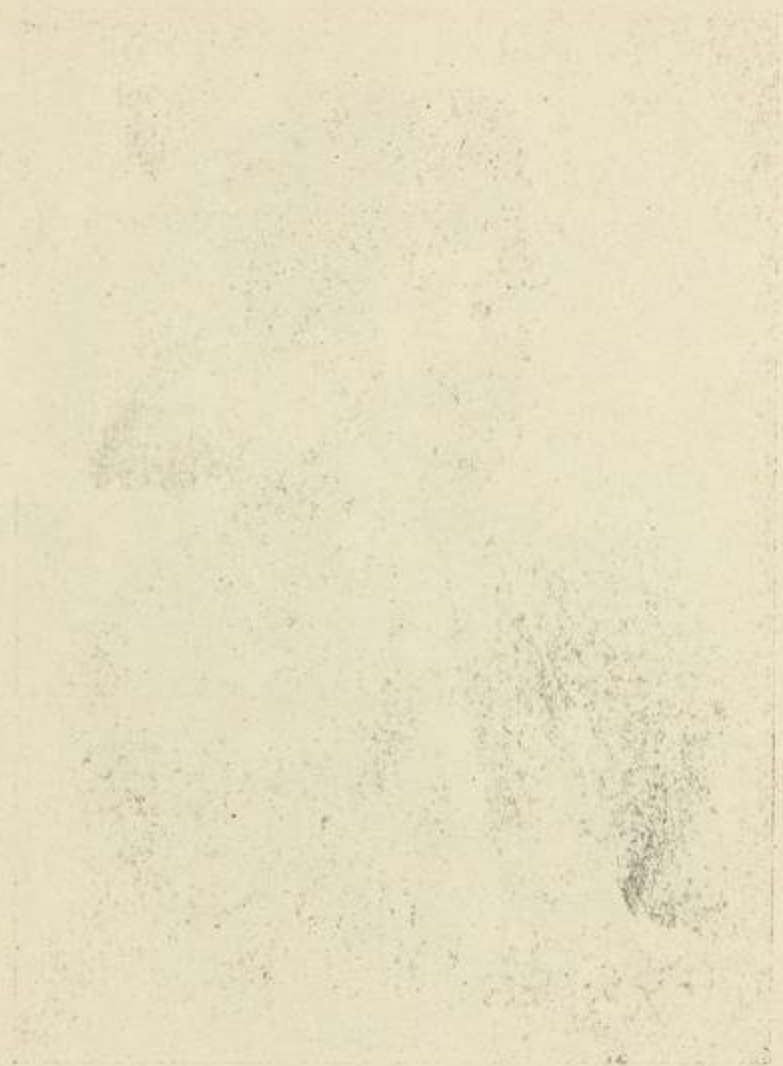
حدثنى صديق لى عن جده الذى أدرك عصر محمد على أنه كان يقول اننا كنا نحتمل مظالم حكمه لانها بمقارنتها بمظالم المماليك كانت أخف منها وارجح ، وهذا القول فيه ناحية من الصواب ، وينير لنا طريق الحكم على عصر محمد على ، فلاجل أن نحكم على عظيم من العظماء أو على عصر من العصور يجب علينا أن ندرس الرجل فى مجموعه ، والعصر بأكمله ، ثم نقارن بين ذلك العصر والعصر الذى سبقه ، ثم الذى تلاه ، وبذلك يكون الحكم صحيحاً والرأى فيه سليماً ، فإذا نحن نظرنا الى تاريخ محمد على فى مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومى وباعث نهضة الإصلاح والعمران فى مصر ، وأنه من هذه الناحية أكبر بناء فى صرح القومية المصرية ، ومهما عددنا على حكمه من المآخذ فمن المحقق أنه لو لم يتول حكم مصر لظلت كما كانت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة الجلاء الذين كانت ترسلهم الاستانة كل سنة أو سنتين والذين لم يكن لهم سوى الحصول على نصيبهم فى الخراج وإرسال الخزانة السنوية الى الاستانة ثم يتركون شؤون الحكومة فى يد المماليك يعيشون فى الأرض فساداً ويجعلون الحكم أداة للمظالم والفوضى مما أدى الى تأخر البلاد فى كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلو لم يتول محمد على حكم البلاد لبقيت راحة تحت حكم التقهر الفوضى كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين ، أو لاحتلتها دولة من دول الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وما زالت تحتلها الى اليوم

فهذه المقارنة تظهر لنا فضل محمد على ومبلغ المزايا التى عادت على مصر من عبقريته وجهوده ومواهبه ، وهذا فيما نعتقد هو حكم الانصاف على محمد على وعصره



إبراهيم باشا
(١٧٨٩ - ١٨٤٨)

قائد الجيوش المصرية في حروب الاستقلال



THE
LIBRARY OF THE
MUSEUM OF NATURAL HISTORY
NEW YORK

الفصل السابع عشر

ابراهيم باشا

(١٧٨٩ — ١٨٤٨)

من الواجب أن نفرد فصلا لابراهيم باشا ، واثن كانت الفصول السابقة تصلح أن تكون تاريخا له فان بطولته تدعونا أن نختم هذا العصر بفصل خاص بابراهيم

تاريخه

هو أكبر انجال محمد علي ، وساعده الأيمن في فتوحاته ومشروعاته ، وقائد الجيوش المصرية في حروب الاستقلال ، يقرن اسمه باسم أبيه في كثير من جلائل الأعمال ، وأهمها تأليف الجيش المصري وقيادته في ميادين القتال الى حيث حقق استقلال مصر ورفع ذكرها بين الأمم

ولد في قوله سنة ١٧٨٩ ، وجاء مصر هو وأخوه طوسون في سبتمبر سنة ١٨٠٥ ، وعهد اليه أبوه بمهمات عدة ، مارس فيها شؤون الدولة وأعمالها الادارية والحربية ، فكانت له توطئة للاضطلاع بالمهام الجسيمة التي تولاها من بعد ، فقد تولى منصب الدفتردارية سنة ١٨٠٧ ولما يبلغ العشرين ، والدفتردار هو بمثابة وزير المالية اليوم ، وقام في هذا المنصب بعمل من أجل أعمال العمران ، وهو مساحة أطيان القطر المصري وتولى أيضا حكم الصعيد وجمع بين هذا المنصب ومنصب الدفتردارية ، وقاتل المالك ، ولكنه لم يشترك معهم في حرب حقيقية ، وظلت كفاءته الحربية دفيئة الى أن سطع نجمها أول وهلة في الحرب الوهابية ، فهي أول حرب خاض ابراهيم غمارها ، وتجلت فيها مواهبه ، ولا نريد هنا أن نعود الى وقائع تلك الحرب ، فقد وفيها الكلام عنها في الفصل الخامس

فالحرب الوهابية كانت أول ميدان للقتال ظهرت فيه بطولة ابراهيم باشا ، تلك البطولة التي لازمتها في الحروب التالية

وتتبين لك ناحية من كفاءته وصدق نظره في كونه أول من استعان بخبرة الأوروبيين في الحروب ، فاصطحب معه في الحرب الوهابية طائفة من الافرنج منهم الضابط الفرنسي فيسير أحد ضباط أركان الحرب كما تقدم ذكره ، وهذا أمر لم يكن مألوفاً ولا سائفاً بين قواد الشرق الى ذلك العهد ، ولكن ابراهيم باشا لذكائه وحصافته عرف ان الأمم الشرقية لا تنهض إلا اذا اقتبست خبرة علماء أوروبا وقوادها وبعد أن انتهت الحرب الوهابية عاون ابراهيم باشا أخاه اسماعيل في فتح السودان ، ولكنه لم يطل مكثه هناك إذ أصيب بمرض شديد اضطره الى العودة لمصر وجاءت حرب اليونان ، فعهد اليه محمد علي قيادة الجيوش المصرية في البر والبحر ، وقد رأيت مما سطرناه في الفصل السابع كيف ظهرت عبقريته في تلك الحرب التي تولى قيادة الجيش المصري في ميادينها اربع سنوات متوالية

وإذ كانت الحروب والشدائد هي المدرسة العملية التي تكون فيها ابراهيم باشا فان حملة المورة قد أكسبته خبرة واسعة في فنون الحرب والقتال ، ذلك أنه حارب فيها جيوشاً أوروبية يقودها ضباط وقواد درس معظمهم أساليب النظام الحربي الحديث ، واختلط بكثير منهم وخبرهم ، وحادثهم ، فاقبس من تلك الحرب معارف جمة زادت به بصراً بفنون القتال

ثم جاءت حروب الشام والاناضول ، فغاض غمارها وقد اكتملت خبرته ومواجهه الحربية ، فتجلت فيها عبقريته ، وعظمت مكانته ، واقترن اسمه فيها باسماء كبار القواد والفاتحين ، وطبق ذكره الخافقين

ويطيب لنا في هذا المقام أن نعيد هنا الكلمة التي ذكرناها عنه (ص ٣١٠) فيها خلاصة تاريخه المجيد « وانك لتلمح عظمة ابراهيم من كونه قاد الجيش المصري في ميادين النصر الى حيث جعل تركيا والدول الأوروبية تقف مبهوتة مضطربة أمام وثبات ذلك الفاتح الكبير ، كأنما هي أمام القدر »

ان تاريخ ابراهيم باشا مقترن بتاريخ الجيش المصرى وحروبه فى عصر محمد على ، ولقد فصلنا الكلام فى هذا الصدد فى فصول عدة (١) ، فهذه الفصول هى تاريخ لابراهيم ، ولا يخفى ان هذه الحروب كما اسلفنا هى التى حققت لمصر استقلالها ، فلا غرو ان يكون أدق تعريف لشخصية ابراهيم باشا انه « قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال » وهو التعريف الذى اخترناه لنضعه بجانب صورته ، ولعمري إن قيادته لجيوش مصر فى حروب استقلالها لى اعظم مايزين تاريخه

وقد ذاعت شهرته فى اورو با فبال فيها مكانة عالية لما استفاض عن بطولته وشهرته الحربية ، وتجلت هذه المكانة حينما سافر الى اورو با فى سبتمبر سنة ١٨٤٥ للاستشفاء من مرض عضال أصابه ، وذهب الى ايطاليا ثم الى فرنسا ، فقبل باعظم مظاهر الحفاوة والاحترام ، وبلغ لندره فى يونيه سنة ١٨٤٦ ، فقابلته الملكة فكتوريا وعظماء الانجليز بالترحاب والاحترام

ولم تقتصر موهب ابراهيم فى ميادين القتال ، بل ظهرت كفاءته الادارية فى تنظيم الحكم المصرى فى سورية وتوطيد دعائم الامن فيها كما بسطنا ذلك فى الفصل الثامن ، وفى المهام الادارية التى تولاه فى مصر ، وإذ كان من مزاياه فى حياته الحربية حرصه على النظام ، فقد استمسك بهذه الميزة فى تنظيم الشؤون الادارية التى تولاه ، وكان فى أوقات السلم شديد العناية بالشؤون الزراعية وتنظيمها ، وامتاز بميله الى تنسيق الحدائق وتنظيم اشجارها ونباتها كأنها فى نظره صفوف من الجنود يجب أن يسود النظام بينها ، وبلغ شغفه بتنظيمها أن استخدم مهندسا زراعيان انجليزيا عهد اليه تنسيق حدائقه الواسعة فى جزيرة الروضة وغرس فيها العدد الوفير من اشجار الفاكه والرياحين

صفاته وآراؤه ومبادئه

ان ابرز صفة من صفات ابراهيم باشا شجاعته واقدامه ، فالشجاعة هى اكبر ناحية

من نواحي عبقريته ، وبجانيتها حبه للنظام ، وصرامته في تطبيق قواعده ، ولا غرو فالنظام هو أساس الحياة العسكرية وقوام تقدم الجيوش وقوتها ، وهو أول مامتاز به الجيش المصرى على الجيوش التركية في ميادين القتال ، وأول الاسباب التى كفلت له النصر والظفر ، وكان ابراهيم باشا لصرامته في النظام يطبقه على نفسه ، فيعيش عيشة الجندى البسيط فى مأكله ونومه ، ويقاسم جنوده السراء والضراء ، ويشاركهم شظف العيش ، وكثيرا ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيرا على قدميه ليعطى جنوده المثال فى احتمال شدائد الحروب ومتاعبها فلا غرابة إذ تعلقوا به واستسلموا فى القتال تحت رايته

وكان يجمع الى الشجاعة الذكاء الحاد وصدق النظر والرغبة الشديدة فى الاختد بأسباب تقدم الأمم الأوروبية ، وكان من مزاياه البساطة فى معيشته والرغبة عن مظاهر الفخفة والابهة ، وهذا الخلق نادر بين قواد الشرق وامراءه ، فانهم أبداً يحيطون أنفسهم بمظاهر الابهة والعظمة ، لكن ابراهيم باشا كان على حظ كبير من عظمة النفس ، فلم يكن فى حاجة الى العظمة المصطنعة

وقد قابله كثير من عظماء الافرنج ورجالهم السياسيين والحربيين ووصفوه فيما كتبوه وصفا يعطينا صورة حية من شخصيته وافكاره ومبادئه ، ومن أصدق من وصفوه البارون (بو الكونت) Bois le Comte فقد اجتمع به بالقرب من طرسوس بالاناضول فى اغسطس سنة ١٨٣٣ عقب انتصاره فى معركة قونية وابرام اتفاق كوتاهية ، واستطلع آراءه وافكاره فكتب عنه ما أتى

« دخلت على ابراهيم فى خيمته ولم يكن معه أحد ، وكان يجلس على ديوان كبير فى صدر الخيمة على الطريقة الأوروبية ، وأمامه كراسى عدة ، وقد بدا لى أنه بلغ الأربعين ، وهو قوى البنية ، قصير القامة ، كبير الرأس ، جميل الأسنان ، ذكى النظر ، نشيط فى كل حركاته ، قصير الذراعين شأن أفراد عائلته ، لكن ذراعيه أقصر من ذراعى أبيه ، وقد لمحت روح الحماسة بادية فى حديثه ولهجته ، لما ناله من الانتصارات الأخيرة ، وهو شغف بالحروب ، لا يكثر كثيرا بحياته التى طالما جعلها

هدفاً للمخاطر بشجاعة بلغت حد المجازفة ، ويسير في حياته على هذه الوتيرة ، ولا يطيب نفساً إلا في جو العمل والنشاط والحركة ، وقد رأيتُه مشغولاً بمشروعات جمة ترمى الى إصلاح سورية في الوقت الذي يستريح فيه من عناء المعارك ، ويلوح لي كأن هذه الراحة هي حالة يرغم عليها ولا يميل اليها ، ويشعر بأنها لا يصح أن يطول مداها . وقد تجاذب ابراهيم باشا والبارون بو الكونت أطراف الأحاديث ، ودار الكلام على الحرب الأخيرة ، قال البارون في هذا الصدد : حدثني ابراهيم بلهجة طبيعية قائلاً « إنه ليؤمني أن الدول منعتني من متابعة الزحف » فأجبتُه : إني أظن بالعكس أنه قد آن الوقت الذي يحق فيه للدول أن تفكر في وقف سموكم عن الزحف ، فإنه لم يكن أمامكم سوى بضع خطوات لتصل الجنود المصرية الى اسكدار ، وهناك تشب الثورة في الاستانة

فأجابني : ولكنني كنت شديد الرغبة في دخول الاستانة على رأس جيشي فقلت له : وماذا تقصدون سموكم من الذهاب الى الاستانة وماذا كنتم صانعين بها ؟

فأجابني : ما كنت أدخلها للهدم بل للإصلاح ، ولكي أقيم حكومة صالحة مؤلفة من رجال أكفاء بدل الحكومة الحالية العاجزة عن الاضطلاع بحكم الامبراطورية فقلت له : إن سموكم يؤكد بحديثه المخاوف التي ألمت اليها في كلامي ، فإن ما كنتم تنوون إحداثه هو ما كنا نعمل على منعه ، لا لأننا مسوقون بفكرة عدائية نحو سموكم أو نحو أبيكم ، ولكن لأن الانقلاب الذي كنتم عازمين على إحداثه في الاستانة يفضي الى مشاكل قد تشعل نار الحرب في أوروبا بأسرها

فأجابني : انك واهم فيما تظن ، فإن هذا الانقلاب كان يحدث دون أية مقاومة ، فإن السكان على جانبي البوسفور والدرديل يطلبونني لاجداث الانقلاب الذي كان يتم في هدوء وسرعة دون أن تجددوا الوقت للشعور بوقوعه ، تقولون انكم تبغون الدفاع عن كيان تركيا وجعلها قوية ، ولو تم هذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث

سلطنة قوية تقوم على انقاض هذه السلطنة المفككة التي تحاولون عبثاً تأييدها والتي ستفشل يوماً بين ايديكم وتسبب لكم وقتئذ مشا كل لاعداد لها
وهنا سكت ابراهيم باشا قليلاً عن الكلام كأنما استوقفته فكرة طارئة ثم قال:
اننى ابحث كثيراً وأتساءل لماذا تحقد الدول الأوروبية كل هذا الحقد على
الأم الإسلامية ؟

فقلت له انى لم أفهم كلام سموم

قال نعم ، فانك تقول الآن إن وصول جيشى الى اسكندار يحدث ثورة فى
الاستانة ، وانى أوافقكم وأرى رأيكم ، ولكن أليس هذا دليلاً على ان الأمة
الإسلامية لا تريد حكم السلطان محمود ؟ فبأى حق ترغمون هذه الأمة على ما لا تريده ؟
وهل يحق لكم معشر الفرنسيين ان تمنعوها من اختيار حكامها ؟ عجبا ! لقد كنتم
حينما ثار البلجيكيون وطلبوا تأليف مملكة مستقلة ، وحينما قام اليونانيون يطالبون
باستقلالهم تنادون ان لكل أمة الحق فى اختيار ولى امرها ونظام الحكم الذى
تبتغيه ، بل انكم ساعدتم اليونانيين فى ثورتهم ، فلماذا تحرمون الأمة التركية
من هذا الحق ؟

قال البارون بوا السكونت « وكان ابراهيم باشا يلقى حديثه هذا فى حماسة
وذكاء ، ويمزج الادلة القوية بشئ من الفكاهة والدعابة ، وكان جوابى له ان سموم
يخطئ فى تقدير المبدأ الذى أسمى على الدول الأوروبية سياستها فى المسألة الشرقية ،
فانها لا تنظر الى مثل هذه المسألة فى ذاتها بل تنظر اليها من ناحية تأثيرها فى مركز
الدول ، فاذا رأت مثلاً كما فى الحالة التى نحن بصدها أن ثورة أهلية تفضى الى تزلزل
التوازن الدولى واحداث حرب عامة كان من الطبيعى ان تعمل كل دولة ماتراه
حائلاً دون وقوع هذه الكارثة

فقال ابراهيم باشا : ان هذا عبث فان اسباب الخصاص بين الدول الأوروبية
لا تنتهى ، ودخلت معه فى تفاصيل طويلة لا قنعه بخطأ فكرته «
وكان البارون (بوا السكونت) قد قابل محمد على قبل اجتماعه بابراهيم ، واستطلع

رأى كليهما في الحالة السياسية ودون خواطره عن شخصية الاثنين والمقابلة بينهما، فقال عن ابراهيم انه لم تتوافر عنده القدرة على تأسيس الممالك مثلما توافرت عند أبيه، ولكن عنده من المواهب ما يكفل المحافظة على كيائها وبقائها، وان من أسباب قوة الدولة المصرية الارتباط المتين بين محمد علي و ابراهيم، وان ابراهيم قد حافظ على عظيم احترامه واجلاله لابييه ولم يداخله اى زهو وخيلاء ولم تتغير علاقته به حتى بعد الانتصارات العظيمة التي نالها لدرجة انه لم يسمح لنفسه ان يشرب الدخان في حضرته، واذا بعد عنه فانه لا يفتأ يبدى له من الاخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل

وقال عن الفوارق في آرائهما « ان محمد علي يمثل فكرة الحكم المطلق، اما ابراهيم فانه أقرب الى المبادئ الحرة، وقد خالف اياه في مسألتين جوهريتين، فالمسألة الأولى انه لم يكن يوافقه على نظام الاحتكار الذي اتبعه في مصر وسورية ولو أنه نفذ في هذا الصدد أوامر أبيه، والمسألة الأخرى انه يجاهر برأيه في احياء القومية العربية، وذكر عن ارائه في هذا الصدد ما نقلناه في موضعه (ص ٢٣٣) واضاف اليها أنه كان يسمع مثل هذه الاقوال من حاشية ابراهيم وخاصة رجاله بخلاف ما كان يسمعه من بطانة محمد علي التي كانت متشعبة بالفكرة التركية، وقال ان فكرة ابراهيم باشا أن يجعل من الامبراطورية التي أسسها ابوه دولة عربية بحتة أى أن يكون حكمها ورعيتهما وجنودها وضباطها من جنس واحد وأمة واحدة (وهي الامة المصرية) وان يعيد الى القومية العربية وجودها واستقلالها اسوة بلغتها وآدابها وتاريخها »

ولايته حكم مصر

ابريل سنة ١٨٤٧ — نوفمبر سنة ١٨٤٨

إن عظمة ابراهيم لم تجتهد من طريق ولايته الحكم، بل توافرت عنده وانقادت له من قبل، فلقد اسبغت عليه بطولته في ميادين القتال صفات العظمة والمجد،

أما مدة حكمه فلم تزد عن سبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً ولم تتسع ليخط فيها صفحة جديدة يضمها الى سجله الخالد

تولى الحكم فى حياة أبيه ، ذلك أن محمد على فى أخريات سنه قد اعتلت صحته واصيب بضعف فى قواه العقلية ، ولم يعد فى استطاعته الاضطلاع باعباء الحكم ، وقد ظهرت عليه اعراض هذا الضعف غير مرة ولم ينجع فيه دواء فعقد ابراهيم باشا مجلسا خاصا برأسته واستقر رأى المجلس على ان يتولى ادارة شؤون الحكومة بدل أبيه ، فتولى الحكم فى ابريل سنة ١٨٤٨ وابلغ الأمر الى الباب العالى فارسلى اليه فى يولييه فرمان التقليد ، وقد عنى ابراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها الحربية

وفاته (١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨)

ولكن المنية عاجلته فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ، توفى وله من العمر ستون سنة هلالية ، فخسرت مصر بوفاته قائد جيشها المظفر الذى كان لبطولته اليد الطولى فى تحقيق استقلالها

وفاة محمد على باشا (٢ اغسطس سنة ١٨٤٩)

وبعد وفاة ابراهيم ولى الحكم عباس باشا الأول ، وما زال محمد على مصابا بمرضه العضال الى أن توفى يوم ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ (٢ اغسطس سنة ١٨٤٩) بسرأى رأس التين بالاسكندرية ، ونقلت جثته الى القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ، ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الابدية ، وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل الكبير بعد أن خلف مجدا لا يبلىه الزمان ، توفى بعد أن اسس الدولة المصرية وحقق استقلالها وأتم وحدتها وشيد دعائم نهضتها ، وتم على يده من الاعمال الجليلة ماتنوء به العصابة من عظماء الرجال .

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١ (انظر ص ٦٥)

معاهدة جلاء الانجليز عن الاسكندرية

لمبرمة بين محمد على باشا من جانب، والجنرال شربروك والسكبتن فيلوز من جانب آخر (وهي المعاهدة التي انتهت بها الاحتلال الانجليزى الثانى)
 « بما أن الجنرال فريزر Fraser قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريطانية والسكبتن هاوليل Hollowel قائد الاسطول الانجليزى المرابط تجاه السواحل المصرية قد خولا الجنرال شربروك Scherbrook والسكبتن فيلوز Fellowes من ضباط البحرية الانجليزية سلطة ابرام الاتفاق الخاص بالجلاء عن الاسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر والجنرال شربروك والسكبتن فيلوز المذكورين على الشروط الآتية »

المادة ١

توقف فوراً الاعمال العدائية من الجانبين ، وتجلو القوات البريطانية عن الاسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتندسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت وتتركها بالحالة التى هى عليها الآن ويسلم صاحب العظمة محمد على باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه اسحق بك ومهر داره (حامل الختم) سليمان افندى بصفة رهائن يبقون على ظهر احدى السفن الحربية الانجليزية الى ان يتم تنفيذ هذه المعاهدة

المادة ٢

جميع اسرى الحرب الانجليز وكذلك الافراد الذين التحقوا بخدمتهم من الارقاء يطلق سراحهم ويرسلون بطريق النيل الى بوغاز رشيد حيث يبحرون على سفينة انجليزية

المادة ٣

يصدر عفو عام عن سكان الاسكندرية أو غيرهم من الاهلين لما وقع منهم في الماضي ويؤمنون على ارواحهم واملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف الى اتخاذ الطريق الذي سلكوه

المادة ٤

بما أن أمين بك الألفي قد بارح الاسكندرية أثناء الاحتلال الانجليزي فان صاحب العظمة محمد علي باشا يعد بانه في حالة عودة امين بك المذكور الى الميناء لا يناله سوء ويعطى امانا له ولحاشيته بشرط ان لا يتجاوز عددهم اثني عشر شخصا

المادة ٥

نظرا لتفرق الافراد الارقاء الملحقين بخدمة الجيش البريطاني ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب انجليزي في الاسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا ، ولهذا المندوب ان يحصل من صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لاداء مهمته في احضار هؤلاء الافراد ، ويسمح له بان يرسل كل من يوجد منهم الى أية سفينة انجليزية تكون راسية في الميناء او يرسلهم الى صقلية أو مالطة بأية طريقة اخرى تتيسر له

« حررت هذه المعاهدة في معسكر صاحب العظمة محمد علي باشا والى مصر بالقرب من دمنهور يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ الموافق ١١ رجب سنة ١٢٢٢ »
« امضاءات: محمد علي باشا ، شربروك ، فيلوز »

وثيقة رقم ٢ (انظر ص ١٣٣)

اتفاق الاسكندرية

(٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠)

« بين الكومودور نابييه Npier قائد القوات البريطانية البحرية الراحسة أمام الاسكندرية من جانب ، وبوغوص يوسف بك وزير خارجية صاحب السمو نائب ملك مصر المفوض من قبل سموه من جانب آخر ، تم ابرام الاتفاق الآتى بالاسكندرية يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ »

المادة ١

بما أن الكومودور نابييه بصفته المينة أعلاه احاط صاحب السمو محمد على علما ان الدول اشارت على الباب العالى باعادة حكم مصر الوراثى الى عهده ، وبما ان سموه يرى فى ذلك وسيلة لوضع حيد للحرب وويلاتها ، فانه يتعهد بان يصدر اوامره الى ابنه ابراهيم باشا باجراء الجلاء فورا عن سورية ويتعهد ايضا باعادة الاسطول العثمانى بمجرد ان يصله اخطار رسمى بان الباب العالى يتنازل له عن حكم مصر الوراثى وان يبقى ذلك الحق كما كان مكفولا من الدول

المادة ٢

يضع الكومودور نابييه تحت تصرف الحكومة المصرية سفينة من سفنه لتتنقل الى سورية الضابط الذى يعهد اليه صاحب السمو ابلاغ القائد العام للجيش المصرى امره بالجلاء عن سورية ويعين الاميرال ستوبفورد قائد القوات البريطانية من ناحيته ضابطا للملاحظة تنفيذ هذا الامر

المادة ٣

وبناء عل ما تقدم يتعهد الكومودور نابييه بوقف الحركات العدائية من جانب القوات البريطانية ضد الاسكندرية وكل جهة من الاراضى المصرية ويبيح

حرية الملاحة لكل السفن المعدة لنقل الجرحى والمرضى وسائر الجنود المصرية الذين
ترغب الحكومة المصرية نقلهم الى مصر بطريق البحر

المادة ٤

للجيش المصرى الحق فى ان ينسحب من سورية حاملا معه مدافعه واسلحته
وجياده وذخائره وامتعته وفى الجملة كل مامعه من مهمات الجيش
وقد حررت نسختان من هذا الاتفاق

« توقيع: شارل نابييه ، بوغوص يوسف »

مراجع البحث

ذكرنا فى هوامش الصحائف المراجع التى اعتمدنا عليها ، وسندكر المراجع
كلها مرتبة فى ختام الجزء الرابع ان شاء الله تعالى

ص	ص
٣٩	٣٥
الحملة على المالك في الصعيد	وفاة عثمان بك البرديسي
	٣٥
	اخفاق محمد بك الالفي ووفاة

الفصل الثاني

الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها

٥٢	٤٠
حالة الشعب النفسية وتطوعه للقتال	أسباب الحملة
٥٢	٤٠
فضل السيد عمر مكرم	حالة الافكار في القاهرة والاقليم
٥٦	٤٢
معركة الحماة	مجيء العمارة الانجليزية
٦٢	٤٣
رواية الجبرتي عن معركة الحماة	احتلال الاسكندرية
٦٣	٤٦
تأثير معركة الحماة في الموقف الحربي	موقف المالك
٦٥	٤٧
ابرام الصالح وجلاء الانجليز عن البلاد	واقعة رشيد وهزيمة الانجليز فيها
٦٧	٤٨
عودة محمد علي الى القاهرة	رواية الجبرتي عن واقعة رشيد
	٤٩
فتنة الجند في القاهرة	نصيب المصريين في المعركة
٦٨	٥٠
واخادها سنة ١٨٠٧	نتائج واقعة رشيد

الفصل الثالث

اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان

٨٩	٧١
نفي عمر مكرم الى دمياط	الموقف السياسي
٩٠	٧٣
رحيله الى منفاه	تحاذل الزعماء وحالتهم النفسية
٩٠	٧٥
موقف الشيوخ بعد نفي زعيمهم	الخلاف بين محمد علي والسيد عمر مكرم
٩٢	٧٩
عمر مكرم في منفاه	الوقعة بالسيد عمر مكرم
٩٣	٨٣
كتاب محمد علي الى السيد عمر مكرم	تدبير المؤامرة
٩٣	٨٧
عودة عمر مكرم الى القاهرة ونفيه ثانيا	اشتداد الازمة

الفصل الرابع

انفراد محمد على بالحكم

١٠٢	مذبحة القلعة	٩٦	انتقال محمد على الى القلعة
١٠٩	الرأى فى مذبحة القلعة	٩٨	موقف محمد على ازاء المالك

الفصل الخامس

تحقيق الاستقلال القومى

حروب مصر فى عهد محمد على

١٢٩	مخرج موقف الجيش المصرى		نظرة عامة فى تلك الحروب
١٣٠	هزيمة الجيش المصرى فى ترابه	١١٣	من الوجوه القومية
١٣٠	اخلاء الحناكية	١١٤	الحملة الانجليزية
١٣٠	خسائر الجيش	١١٤	الحرب الوهاية
١٣١	سفر محمد على الى الحجاز	١١٥	اسبابها
١٣١	اعتقال الشريف غالب	١١٨	الدعوة الوهاية
١٣٢	احتلال قنفذة ثم اخلاؤها	١٢٢	معدات الحملة
١٣٣	طلب محمد على المدد من مصر	١٢٤	وقائع الحملة
١٣٤	وفاة سعود بن عبد العزيز	١٢٥	احتلال ينبع
١٣٤	حصار الوهايين الطائف	١٢٥	احتلال بدر
١٣٥	رفع الحصار عن الطائف	١٢٦	هزيمة الصفراء
١٣٥	الاهب لمعاودة القتال	١٢٧	موقف طوسون باشا
١٣٦	واقعة بسل	١٢٧	احتلال الصفراء
١٣٦	احتلال المصريين ترابه ورنيه ثم يشه	١٢٨	فتح المدينة
١٣٧	احتلال قنفذة	١٢٨	فتح مكة
١٣٧	احتلال الرس	١٢٩	احتلال الطائف

١٤٩	فتح الدرعية	١٣٧	طلب الوهابيين الصلح
١٥٠	رواية الجبرتي	١٣٨	رجوع محمد علي الى مصر
١٥٢	انتهاء الحرب الوهابية	١٣٨	مؤامرة لطيف باشا
١٥٣	الحفلات الحربية في عهد محمد علي	١٤١	مشرع الصلح واخفاقه
		١٤٢	رجوع طوسون باشا الى مصر
١٥٥	مقتل عبد الله بن سعود	١٤٥	استئناف الحرب في الحجاز بقيادة ابراهيم باشا
١٥٥	تخريب الدرعية	١٤٦	وفاة طوسون باشا
١٥٥	عودة ابراهيم باشا الى مصر	١٤٧	حصار الرس
١٥٦	فتح سيوه	١٤٨	فتح الشقراء

الفصل السادس

فتح السودان

١٦٨	البحث عن مناجم الذهب	١٥٨	أسباب فتح السودان
١٦٩	مقتل اسماعيل باشا	١٦١	مقدمات الحملة
١٧٠	ما ذكره الجبرتي عن فتح السودان	١٦٢	معدات الحملة
١٧٤	نظام الحكم في السودان	١٦٣	وقائع الحملة
١٧٦	الجيش المصري بالسودان	١٦٣	فتح دنقلة
١٧٧	حكم دارالسودان في عهد محمد علي	١٦٤	معركة كورتى
١٧٧	عثمان بك	١٦٥	من بربر الى أم درمان
١٧٧	محو بك	١٦٥	فتح سنار
١٧٧	خورشد باشا	١٦٥	فتح كردفان
١٧٨	أحمد باشا أبو ودان	١٦٦	فتك الامراض بالجنود
١٧٩	أحمد باشا المنكلى ثم خالد باشا	١٦٧	مجيء ابراهيم باشا ثم عودته
		١٦٨	فتح فازوغلى

ص		ص	
١٨٧	الحملاط والبعثات الجغرافية	١٧٩	رحلة محمد على فى السودان
	حملات البكباشى سليم بك		عمران السودان فى ظل الحكم
١٨٩	قبطان	١٨٠	المصرى
١٨٩	الحملة الاولى	١٨١	تأسيس المدن
١٩٠	الحملة الثانية	١٨١	الخرطوم
١٩١	الحملة الثالثة	١٨٢	كسلا
	حدود السودان المصرى	١٨٣	فامكة
١٩٢	فى عهد محمد على	١٨٣	توطيد دعائم الامن
		١٨٥	الزراعات وأعمال العمران الاخرى

الفصل السابع

حرب اليونان

٢٠٥	النزول الى بر الموره	١٩٦	الثورة اليونانية
٢٠٦	حصار نافارين	١٩٨	اعلان الثورة فى المورة
٢٠٨	استيلاء المصريين على نافارين		استعانة تركيا بالاسطول
٢٠٩	نشاط السفن اليونانية	١٩٩	المصرى
	مهاجمة السفن اليونانية	٢٠٠	رواية الجبرتي
٢٠٩	سواحل مصر	٢٠١	الحملة المصرية على كريت
٢١٠	فتح مدينة كلامانا	٢٠١	الحملة على الموره
٢١٠	فتح مدينة تريبولتسا	٢٠٢	معدات الحملة
٢١١	فتح مدينة ميسولونجى		الحرب البحرية على شواطئ
٢١٣	حصار أثينا		الاناضول
٢١٣	اعداد حملة جديدة	٢٠٣	

ص	ص
٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٧	٢١٤ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٩
اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد الواقعة اتفاق مصر والدول جلاء الجيش المصرى عن الموره نتائج الحرب اليونانية	تدخل الدول اقلاع الحملة المصرية الى مياه نافرين مقدمات واقعة نافرين البحرية واقعة نافرين

الفصل الثامن

الحرب في سورية والاناضول

٢٦٢	واقعة قونية	٢٣٠	أسباب الحملة على سورية
٢٦٩	حركات الاسطول المصرى	٢٣٢	مشروع انشاء دولة عربية
٢٧١	المسألة المصرية وتدخل الدول	٢٣٥	الاسباب المباشرة للحملة
٢٧٣	رسالة محمد على فى التمسك	٢٣٦	تأليف الحملة
	بمحقوق مصر	٢٣٧	سير الحملة
	احتلال كوتاهيه ومغيسيا واقامة	٢٢٧	احتلال غزة ويافا وحيفا
٢٧٥	الحكم المصرى فى أزمير	٢٣٨	حصار عكا
٢٧٥	اتفاق كوتاهية	٢٣٨	موقف تركيا
٢٧٨	الحكم المصرى فى سورية	٢٣٩	انتصار المصريين فى الزراعة
٢٧٩	نظام الحكم فيها	٢٤٠	فتح عكا
٢٨٤	الثورات فى الشام - أسبابها	٢٤٢	فتح دمشق
٢٨٦	وقائع الثورة - ثورة فلسطين	٢٤٣	واقعة حمص
٢٨٧	قمع العصيان	٢٥١	الموقف الحربى بعد واقعة حمص
٢٨٩	حضور محمد على باشا	٢٥٢	واقعة بيلان
٢٨٩	احقاد الثورة	٢٦٠	زحف الجيش المصرى فى الاناضول

ص	ص
٢٩٨	اضطرابات أخرى
	ثورة النصيرية
٢٩٩	ثورة حوران
٣٠٠	الحرب السورية الثانية
٣٠٢	محمد علي وعلان الاستقلال
٣٠٦	مقدمات الحرب السورية الثانية
٣٠٧	خطة الترك في الزحف على الشام
٣٠٧	عبور الترك نهر الفرات
٣٠٧	ارسال محمد علي المدد الى الشام
	حركات الجيش المصري قبيل واقعة
	نصيبين
	قوات الطرفين
	واقعة نصيبين
	الواقعة
	نتائج الواقعة
	وفاة السلطان محمود
	تقدم ابراهيم باشا
	تسليم الاسطول التركي

الفصل التاسع

معاهدة لندره ومركز مصر الدولي

٣١٠	تدخل الدول بعد معركة نصيبين
٣١٢	موقف الدول
٣١٢	موقف روسيا
٣١٢	موقف فرنسا
٣١٢	موقف إنجلترا
٣١٤	موقف النمسا وروسيا
٣١٤	موقف تركيا
٣١٥	مذكرة الدول الى الباب العالي
٣١٧	ابرام معاهدة لندره وشروطها
٣١٩	دسائس إنجلترا في سورية
٣٣٣	رفض محمد علي باشا شروط المعاهدة
٣٣٩	الحرب بين مصر والدول المتحالفة
	وثورة السوريين على الحكم المصري
	استيلاء الحلفاء على الثغور السورية
	سقوط عكا
	انسحاب فرنسا من الميدان
	مهمة الكومودور نايبه
	اخلاء الجيش المصري سورية
	رأى مورخى سورية
	في الحكم المصري
	اخلاء جزيرة العرب

ص	ص
٣٤٦	٣٤٣
٣٤٩	٣٤٥
٣٤٩	٣٥١
٣٥١	

الفصل العاشر

دعائم الاستقلال

الجيش

٣٦٩	٣٥٣	الجيش
٣٧١	٣٥٤	مشروع تأسيس الجيش النظامي
٣٧١	٣٥٥	المحاولة الاولى لتنفيذ المشروع
٣٧٢	٣٥٦	واخفاؤها
٣٧٢	٣٥٧	رواية الجبرتي
٣٧٣	٣٥٨	موقف محمد علي ازاء الجيش القديم
٣٧٤	٣٥٩	رواية الجبرتي
	٣٦٠	البدء في تنفيذ المشروع
٣٧٤	٣٦١	سليمان باشا الفرنساوى
٣٧٤	٣٦٣	المدرسة الحربية الاولى بأسوان
٣٧٧		التجديد
٣٧٨		المدارس الحربية
٣٧٩	٣٦٧	مدرسة أسوان
٣٨٠	٣٦٧	مدرسة قصر العيني
٣٨٠	٣٦٨	مدرسة المشاة
	٣٦٨	مدرسة الفرسان بالجيزة

٣٨٨	حصون الاسكندرية	٣٨٢	شهادة الثقات للجيش المصري
٣٩٠	حصون أبوقير	٣٨٢	رأى سليمان باشا الفرنساوى
٣٩٠	حصون رشيد	٣٨٢	رأى كلوت بك
٣٩١	احصاء الجيش المصري في عهد محمد على	٣٨٥	رأى المارشال مارمون
٣٩١	احصاء سنة ١٨٣٣	٣٨٧	رأى المسيو مريو
٣٩٢	احصاء سنة ١٨٣٩	٣٨٧	القلاع والاستحكامات

الفصل الحادى عشر

الاسطول

٤١٥	سفن النقل	٤٠٠	النواة الاولى للاسطول
٤١٥	خفلات نزول السفن الحربية الى البحر	٤٠١	رواية الجبرتي
٤١٧	استقالة سرى بك	٤٠١	ترسانة بولاق وانشاء السفن
٤١٧	المعسكر البحرى للتعليم برأس التين	٤٠٣	الدوتمة المصرية فى البحر الابيض
٤١٧	مدرسة بحرية على ظهر البحر	٤٠٤	تجديد الاسطول بعد واقعة نافارين
٤١٨	البعثات البحرية		انشاء دار الصناعة الكبرى
٤٢٠	اصلاح الميناء	٤٠٤	بالاسكندرية
٤٢٠	انشاء حوض ترميم السفن	٤٠٥	سرى بك
٤٢١	قنار الاسكندرية	٤٠٥	الحاج عمر
	البحرية المصرية كما وصفها	٤٠٧	كيف أسست الترسانة
٤٢١	شهود العيان	٤٠٨	اقسام الترسانة
٤٢١	زيارة المارشال مارمون للترسانة	٤٠٩	أخشاب السفن
٤٢٢	رأيه فى كفاءة المصريين	٤١٠	تذليل العقبات
٤٢٣	زيارته للاسطول		السفن التى انشئت او رمت فى
٤٢٤	رأى كلوت بك	٤١٢	ترسانة الاسكندرية

٤٣١	الاميرال محمد سعيد باشا	٤٢٥	كفاءة عمال الترسانة المصريين
	احصاء الاسطول المصرى	٤٢٧	قواد الاسطول المصرى
٤٣١	في عهد محمد على	٤٢٧	الاميرال امبايل بك
٤٣٢	احصاء سنة ١٨٣٧	٤٢٧	الاميرال محرم بك
٤٣٣	احصاء سنة ١٨٣٩	٤٢٨	الاميرال عثمان نور الدين باشا
٤٣٦	احصاء سنة ١٨٤٣	٤٣٠	الاميرال مصطفى مطوش باشا

الفصل الثانى عشر

التعليم والنهضة العلمية

٤٥٤	عدد طلبة البعثات وما أنفق عليهم	٤٤٠	نظرة عامة
٤٥٥	عناية محمد على باعضاء البعثات	٤٤١	مدرسة الهندسة بالقلعة
٤٥٦	البعثة الاولى	٤٤١	رواية الجبرتي
٤٥٩	البعثة الثانية	٤٤٣	مدرسة المهندسخانة ببولاق
٤٦٠	البعثة الثالثة	٤٤٤	مدرسة الطب
٤٦٢	البعثة الرابعة	٤٤٥	مدرسة الصيدلة ومدرسة الولادة
٤٦٣	البعثة الخامسة	٤٤٦	كلوت بك
٤٦٧	البعثة السادسة	٤٤٧	مدرسة الألسن
٤٦٨	البعثة السابعة	٤٤٧	بقية المدارس العالية والخصوصية
٤٦٨	البعثة الثامنة	٤٤٨	المدارس الحربية والبحرية
٤٦٩	البعثة التاسعة	٤٤٨	ديوان المدارس
	تراجم طائفة من اعضاء البعثات	٤٤٩	المدارس الابتدائية
٤٧٠	التاريخ والجغرافية والادب	٤٥١	البعثات العلمية
٤٧٠	رفاعة بك رافع الطهطاوى	٤٥٢	الارسلات الاولى
٥١٤	علي مبارك باشا	٤٥٣	البعثات الكبرى

٥٢٨	رجال الدولة والسياسة	٥١٥	الهندسة والرياضيات
٥٢٨	الامير (الخدوي) اسماعيل	٥١٥	مصطفى بهجت باشا
٥٢٨	محمد شريف باشا	٥١٦	محمد بيومي افندي
٥٢٨	الحرية والادارة العسكرية	٥١٦	محمد مظهر باشا
٥٢٨	مصطفى مختار بك	٥١٧	ابراهيم رمضان بك
٥٢٩	امين بك الكرجي	٥١٧	احمد دقله بك
٥٢٩	احمد بك	٥١٨	احمد طائل افندي
٥٣٠	على باشا ابراهيم	٥١٨	احمد فايد باشا
٥٣٠	حماد عبد العاطي باشا	٥١٩	محمود باشا الفلكي
	الملاحة والعلوم البحرية	٥١٩	احمد بك السبكي
		٥٢٠	حسن بك نور الدين
٥٣١	وبناء السفن	٥٢١	الطب والجراحة
٥٣١	الاميرال عثمان نور الدين باشا		
٥٣١	الاميرال حسن باشا الاسكندراني	٥٢١	محمد علي البقلي باشا
٥٣١	محمد شان بك	٥٢٣	ابراهيم بك النبراوي
٥٣٢	محمود نامي بك	٥٢٤	احمد حسن الرشيدى بك
٥٣٢	محمد بك راغب	٥٢٥	محمد الشافعي بك
٥٣٢	الحقوق والعلوم السياسية	٢٢٥	محمد الشباسي بك
٥٣٢	عبدى شكرى باشا	٥٢٦	مصطفى بك السبكي
٥٣٣	ارتين بك	٥٢٦	عيسوى افندي النجراوى
٥٣٣	اسطفان بك	٥٢٦	حسين غانم الرشيدى افندي
٥٣٣	عبد الله بك السيد	٥٢٦	محمد عيد الفتح
٥٣٤	الطبيعيات والزراعة	٥٢٦	على هيبه
٥٣٤	أحمد يوسف افندي	٥٢٧	حسين عوف باشا و ابراهيم دسوقي بك
٥٣٤	حسين افندي علي البقلي	٥٢٧	مصطفى الواطى بك
٥٣٤	أحمد بك ندا	٥٢٧	عثمان افندي ابراهيم
٥٣٥	عبد الهادي اسماعيل بك		

ص	ص
٥٣٦	٥٣٥
٥٣٦	٥٣٥
٥٣٦	٥٣٥
٥٣٦	٥٣٦

الفصل الثالث عشر

أعمال العمران والحالة الاقتصادية

٥٥٢	٥٣٩	نظرة عامة
٥٥٢	٥٣٩	منشآت الري والزراعة
٥٥٢	٥٣٩	سد ترعة الفرعونية
٥٥٣	٥٤٠	فتح ترعة المحمودية
٥٥٣	٥٤٣	الترع الأخرى
٥٥٤	٥٤٤	الجسور
٥٥٥	٥٤٤	القناطر
٥٥٥	٥٤٥	اصلاح جسر أبو قير
٥٥٦	٥٤٥	سد أشتوم الذي به في بحيرة المنزلة
٥٥٦	٥٤٦	القناطر الخيرية
٥٥٦	٥٤٨	توسيع نطاق الزراعة
٥٥٧	٥٤٩	غرس أشجار التوت
٥٥٨	٥٥٠	غرس الأشجار
٥٥٨	٥٥٠	زراعة القطن
٥٥٨	٥٥١	زراعة الزيتون

ص	ص
٥٦١	مصانع الغزل والنسيج في
٥٦١	الوجه البحري
٥٦٢	قليوب
٥٦٢	شبين الكوم
٥٦٣	الحلة الكبرى
٥٦٤	زفتى وميت غمر
٥٦٤	المنصورة
٥٦٤	دمياط
٥٦٥	دمهور
٥٦٥	قوه
٥٦٦	رشيد
٥٦٧	مصانع الغزل في الوجه القبلي
٥٦٨	

الفصل الرابع عشر

نظام الحكم

٥٨٠	نظرة عامة في هذا النظام	٥٧٠	النظام السياسي
٥٨١	التقسيم الإداري والموظفون	٥٧٠	الدواوين
٥٨٢	البوليس	٥٧١	مجلس المشورة
٥٨٣	النظام القضائي	٥٧٢	أعضاء مجلس المشورة
٥٨٤	النظام المالي والاقتصادي	٥٧٦	بعض أعمال مجلس المشورة
٥٨٤	الملكية والضرائب	٥٧٨	القانون الأساسي سنة ١٨٣٧
٥٨٤	إلغاء نظام الالتزام	٥٧٩	المجلس الخصوصي والمجلس العمومي

ص	احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية	٥٨٨	الابعاديات والشفالك
٥٩٣	والانجار بها	٥٨٩	مساحة الاراضى الزراعية
٥٩٥	احتكار الصناعة	٥٩٠	الضرائب
٥٩٦	مالية الحكومة وميزانيتها السنوية	٥٩٢	فرضه الرؤوس او الضريبة على الدخل
٥٩٧	ميزانية سنة ١٨٣٣	٥٩٢	ضرائب أخرى
٦٠٠	مقارنة بين ميزانيات بعض السنوات	٥٩٣	نظام الاحتكار

الفصل الخامس عشر

الحالة الاجتماعية

٦٠٩	الزراع والصناع والتجار	٦٠١	عدد السكان
٦١٠	الاعيان	٦٠١	طبقات المجتمع
٦١١	العربان	٦٠١	الهيئة الحاكمة
٦١٢	بقايا الرقيق	٦٠٦	الازهر والعلماء

الفصل السادس عشر

شخصية محمد على والحكم على عصره

الفصل السابع عشر

ابراهيم باشا

٦٣١	وفاته	٦٢٤	تاريخه
٦٣١	وفاة محمد على	٦٢٦	صفاته وآراؤه ومبادئه
		٦٣٠	ولايته الحكم

٦٣٦	فهرست الجزء الثالث	٦٣٢	وثائق تاريخية
٦٥٠	فهرست الخرائط والرسوم	٦٣٢	وثيقة رقم ١ - معاهدة جلاء الانجليز
	تصحيح خطأ		عن الاسكندرية
		٦٣٤	وثيقة رقم ٢ - اتفاق الاسكندرية

فهرست الخرائط والرسوم

ص ٨	محمد علي
ص ٤١	خريطة مواقع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧
١٤٣ »	خريطة الحرب الوهابية
١٧٥ »	» السودان المصري في عهد محمد علي
١٨٦ »	» مدينة الخرطوم في » »
١٩٥ »	» حرب اليونان
٢٢٢ »	» ميناء نافرين والواقعة البحرية
٢٣٠ »	» الحرب في سورية والاناؤول
٢٤٩ »	» واقعة حمص
٢٥٧ »	» » ميلان
٢٦٦ »	» » قونية
٣٠٤ »	» » نصيبين
٤٧٠ »	» رفاة بك رافع الطمطاوى
٦٢٤ »	» ابراهيم باشا

تصحيح خطأ

صواب	خطأ	سطر	صفحة
مع مقارنته بما ورد في الوقائع المصرية عدد ١٢	في كتابه التوفيقات الالهامية	١٧٧	هامش (١)
نقص	نقص	١٤	٢٧٧
الايلات	الايلات	١	٢٧٩
ضابطا	ضابط	٦	٣٦٧
و ٢١٨ و ٣١١	و ٢١٨	٢٢	٣٦٨
لضرب النار للجنود والتلاميذ	لضرب النار والتلاميذ	٢١	٣٧٠
آلات الموسيقى	الآلات الموسيقي	١٠	٣٧١
٨٠٠٠ قرش	٧٠٠٠ قرش	٤	٣٨٠
المدنية	المدينة	١	٤٧١
١٨٢٦ م	١٨٢٦ هـ	١٠	٤٧٥
ويصلحن	ويصلحن	٣	٤٩٤
عظيم الهامة	عظيم	١٦	٤٩٨
جرقاو	حرقاو	١٧	٥٤٤
هلال عبد الله	عبد الله هلال	١٨	٥٧٤